الديانات في القرآن الكريم

إبراهيم أبو عواد

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وإِخْوَتِهِ الأنبياءِ الكِرَامِ، وآلِ كُلٍّ ، وصَحْبِ كُلٍّ .

الأديان : جَمْعُ دِينٍ ، والدِّينُ (لُغَةً) : الطاعةُ والانقيادُ . والدِّينُ (اصطلاحًا) : مَا يَعتنقه الإنسانُ ويَعتقده وَيَدِين به مِن أُمور الغَيْبِ والشَّهَادَةِ . والدِّينُ ــ في الاصطلاح الإسلاميِّ ــ : التَّسليمُ للَّهِ والانقيادُ له. والدِّينُ هُوَ مِلَّةُ الإسلامِ وعَقيدةُ التَّوحيدِ التي هي دِينُ جَميعِ المُرْسَلِين مِن أبي البَشَرِ النَّبِيِّ آدم ﷺ إلى خَاتَمِ الأنبياءِ مُحَمَّد ﷺ.قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلامُ﴾ [آل عِمران : ١٩] . وبعد أن جاءَ الإسلامُ فلا يَقْبَل اللَّهُ مِن الناسِ دِينًا غَيْرَه ، قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [آل عِمران: ٨٥].

إنَّ الدِّينَ ذُو أهمية قُصْوَى في حياة الأُمَمِ والشُّعوبِ ، لأنَّه يُعْطي التَّصَوُّرَاتِ عن الوجود والحياة والموت والمسار الإنسانيِّ والمصير النهائيِّ ، ويُوضِّح العلاقة بين الإنسان وباقي العناصر الداخلية والخارجية . ولا يُمْكِن حَصْر الدِّين في عقيدة شخصية ، لأنَّ التأثيرات الدِّينية لا بُدَّ أن تظهر على سلوك الأفراد والجماعات عن قَصْدٍ أوْ غَيْر قَصْد .

إنَّنا ــ في هذا السِّيَاق ــ نبحث في طبيعة الدِّيَانات، ونَستعرض أحوالَ أهل الكتاب (اليَهُود والنَّصَارى) ، ومسارَ أفكارِهم وحياتهم ، والعلاقةَ معهم التي يَنبغي أن تكون قائمةً على الحَقِّ والعَدْلِ والإنصافِ والاحترامِ المُتَبَادَلِ ، وهذا لا يَعْني المُجَامَلَةَ أو المُدَاهَنَةَ أو النِّفَاق على حِساب الدِّينِ ، أو التغطية على عقائدهم الباطلة ، أو التَّسَتُّر على صِفَاتهم السَّيئة مِثْل حَسَدِهم المؤمنين ، وحِقْدِهم عليهم . ولا بُدَّ مِن التَّمييز بين المُحَارِبين وغير المُحَارِبين مِنهُم ، وضرورة التساهل مع الأبرياء والمدنيين والمُسَالِمِين ، معَ عَدَم إغفال وُجود المُؤمنين بَين أهل الكِتَاب ، لأنَّ الإنصاف يَتَطَلَّب ذِكْر الجَانبَيْن المُظْلِم والمُشْرِق عِند اليَهُود والنَّصَارى. ويجب عدم نِسيان أنَّ التَّوراة والإنجيل ــ في الأصْلِ ــ كتابان سَمَاوِيَّان مُقَدَّسَان ، طَرَأ عليهما التَّحريف والتَّبديل .

ثُمَّ ننتقل إلى التَّخصيص، فيأتي الحديث عن بني إسرائيل ، وأوامرِ اللَّهِ إلَيهم،ونِعَمِه عليهم ، وحالاتِهم المُختلفة ، ومُعاندتهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء ، وتحريفهم كلام اللَّه ، وأخذ المِيثاق عليهم ، وشِدَّة حِرْصهم على الحياة ، وعَدَاوتهم للَّهِ والمَلائكةِ والمؤمنين، وأقوالهم وجُرْأتهم على

اللَّهِ والأنبياءِ ، وإلقاء العداوة بينهم ، وغُرورهم وأمَانِيِّهِم ، وعدم رِضَاهُم عَمَّنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِلَّتَهُم ، ومَا حُرِّمَ عليهم بسبب بَغْيِهم ، وإفسادهم في الأرض مَرَّتَيْن ، وجَزَائهم لَوْ آمَنُوا ، وأحبارِهِم ، وأصحابِ السَّبْتِ . ولا شَكَّ أنَّ عِنَادَ بَنِي إسرائيل والأشياءَ السَّيئة التي ارتكبوها بدافع العِنَادِ والغُرورِ والكُفْرِ وَحُبِّ الدُّنيا ، يُسَاهِم في تفكيك العقلية اليهودية الغارقة في المصالح الشخصية ، ويُسَاعِد في تحليل الشَّخصيةِ اليَهُوديةِ المُضطربةِ عَقائديًّا ، والمُنحرفةِ عَن السِّياقِ الاجتماعيِّ .

ولا يُمكِن تجاهل موضوع " النَّصَارى " ، فهو شديد الأهمية ، وَلَهُمْ مواقف كثيرة ، وحالات مُتعددة . وينبغي توضيح قضية نسيانهم الميثاق وإغراء العداوة بينهم، وبيان أقوالهم وجُرْأتهم على اللَّه تعالى . والنَّصَارى غارقون في الغُرور والأماني الباطلة ، ولا يَرْضَوْن عَمّنْ لم يَتَّبع مِلَّتَهُم ، كما أنَّهُم مُعَانِدُون وخاضعون لمصالحهم الشخصية ومُكتسباتهم المادية،وعاشقون للزَّعَامةِ والرِّئاسة . وَلَوْ آمَنُوا لكانوا خَيْرًا لَهُم ، والمؤمنون مِنهُم لَهُمْ أجْرٌ عظيم . والنَّصَارى يُكفِّرون بَعْضَهم البعض ، والعَدَاوَةُ مُشتعلة فِيما بَينهم ، يَظهرون كَكُتلة واحدة ، ومنظومة مُتماسكة ، لكنَّ قُلوبهم شَتَّى ، ومذاهبهم مُتضاربة، وأفكارهم مُتعارضة ، وعَقائدهم تُلْغي بعضُها بعضًا . وَمِنْ أبرز الأدلة على ضلالهم وفساد قلوبهم وَتَطَرُّفهم العقائدي وجُرأتهم على اللَّهِ نِسبةُ الولد إليه ، وهذا دليلٌ على جهلهم وانحرافهم وعدم فهم النُّصُوص الدِّينية بشكل صحيح . والحَوَارِيُّون هُمْ أصحابُ المسيح المؤمنون برسالته ، وهُمْ مِثال الإيمان والتَّضحية ، حَمَلُوا دَعوة المسيح الإسلاميَّة ، ونشروها في جميع المناطق، والإسلامُ هُوَ دِينُ جميعُ الأنبياء بلا استثناء. ثُمَّ نَتحدَّث عن الصابئين والمَجُوس ، ونُوضِّح هُوِيَّتَهُم وعقائدَهم بشكل مُختصَر ، مِنْ أجْلِ تكوين فَهْم مُتكامل حول طبيعة الدِّيَانات .

إنَّ الإسلام هو الدِّين السَّماويُّ الوحيد، ومَا سِوَاه هُوَ دِيَانات أرْضِيَّة نَتَجَتْ بِفِعْلِ إفرازات بشرية واجتماعية وسياسية.والإسلامُ هو الدِّين الذي ارتضاه اللَّهُ لِعِبَادِه،وهذا الدِّينُ يَقُوم على تَوحيدِ اللَّهِ، والإيمانِ بأنبيائه،ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، واليَوْمِ الآخِرِ ، والقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه . والإسلامُ دِينُ مُحَمَّدٍ ومُوسى وعِيسى وجميع الأنبياء . والخِلافُ الواقعُ بين الأنبياء إنَّما هُوَ في تفاصيل الشرائع ، وتُوجَد شرائع سَمَاوِيَّة مُتعددة ، ولكنَّ الدِّينَ السَّمَاوِيَّ واحد،وهو الإسلام،لأنَّ الحق واحد لا يَتَعَدَّد . وينبغي أن يكون معلومًا أنَّ اليَهُودِيَّة والنَّصْرَانِيَّة المَوْجُودَتَيْن الآن مُحَرَّفَتَان،وَلَمْ تَكُن شريعة مُوسَى ﷺ تُسَمَّى اليَهُودِيَّة، ولا كانت شريعة عِيسَى ﷺ تُسَمَّى النَّصْرَانِيَّة . وأمَّا دِينُهما فهو الإسلام . وفي الخِتَامِ أعتذر للقارئ العزيز عن وجود تَكْرار في بَعْض المواضع بسبب التداخل في المواضيع ، وعدم إمكانية تجاوزه ولا تَلافيه . والحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين دائمًا وأبدًا .

إبراهيم أبو عواد

أوَّلًا : أهل الكتاب (اليَهُود والنَّصَارَى)

١ــ العَلاقةُ مَعَهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الذينَ كَفَرُوا مِن أهْلِ الكِتَابِ ولا المُشْرِكِينَ أن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِن خَيْرٍ مِن رَبِّكُم ﴾ [البَقَرَة : ١٠٥] [١] .

إنَّ اللَّهَ يُوضِّح شِدَّةَ عَداوة اليهود والمُشركين للمؤمنين ، حَيْث إنَّهُم لا يُحِبُّون أن يَحْصُلَ المؤمنون على الخَير مِن عِند اللَّهِ تعالى ، وهَذا يَعْكِس الحِقْدَ المُتَجَذِّر في صُدورهم ، وابتعادهم عن مفهوم الأُخُوَّةِ الإنسانية الخاضعة للَّهِ تعالى . والمُؤمِنُ يُحِبُّ الخَيْرَ للجميع لأنَّه يُدْرِك أنَّ له رسالة في هذه الحَياةِ مَحدودة بِمُدَّةٍ زمنية ، وَعَلَيْه أن يَستغل هذا الوَقْتَ في الدَّعوةِ وإرشادِ الناسِ إلى اللَّهِ ، وإعادةِ القِطار الاجتماعي المُنْحَرِف إلى السِّكَّة . والإسلامُ لَيْسَ سُلطةً كَهَنُوتيَّة مُغَلَّفَة بالأسرارِ والطلاسم ، ومُغْلَقَة أمام الآخرين ، إنَّه الدِّينُ العالميُّ للإنسِ والجِنِّ على السَّوَاء .

وَمِقْيَاسُ التفاضلِ بَين الخلائق يَعتمد على التَّقْوى ، وَلَيْسَ الجِنْس أو العِرْق أو اللَّوْن . والكُفْرُ لَيْسَ عَقيدةً مَخْفِيَّة في الصُّدور فَحَسْب،بَلْ هُوَ أيضًا ذُو انعكاس واضح على أرض الواقع، حَيْث يَتَجَذَّر الحِقْدُ ضِد المُؤمِنين، وتَتَأجَّج الكَرَاهِيَةُ في أبشعِ صُوَرِها.والكافرُ يَوَدُّ لَوْ كانَ جَميعُ الناسِ كُفَّارًا ، وهذا مِنْ تَمَنِّي انتشارِ المُنكَرَاتِ في المُجتمعِ ، لِئَلا يَشْعُرَ المُنْحَرِفُون أنَّهُم شَاذُّون عَن المَسَارِ الحَيَاتيِّ الإنسانيِّ . وفي الآيةِ تَحذيرٌ للمُؤمِنين مِنْ عَداوةِ الكافرين ، وتَنْبِيهٌ لَهُم كَي يَكُونوا على حَذَرٍ في التعامل مَعَهُم . والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ أهْلِ الكِتابِ هُمْ مُشرِكون على الحقيقة ، لكنَّ كَلِمَة " المُشركون " في مُتَعَارَف الناسِ صَارَتْ خَاصَّةً بالمُشركين مِنْ غَيْرِ أهْلِ الكِتاب .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٦) : ((نَزَلَتْ تَكذيبًا لِجَمْعٍ مِن اليهود ، يُظْهِرُون مَوَدَّةَ المُؤمِنين ، وَيَزْعُمُون أنَّهُم يَوَدُّون لَهُم الخَيْرَ ، والوُدُّ : مَحَبَّة الشَّيْء مَعَ تَمَنِّيه)) .

وأهْلُ الكِتَابِ يَرَوْنَ أنفُسَهم أَحَقَّ بأنْ يُوحَى إلَيهم ، وأنَّهُم أعظم مِن العَرَبِ ، وهذا سَبَبُ حَسَدِهِم وعَداوتهم للمُؤمنين ، لذلك لا يُحِبُّون أن يَنْزِلَ على المُؤمِنين شَيْءٌ مِنَ الوَحْي .

يَنبغي الحَذَرُ مِنَ اليهود والمُشركين، بسبب قَسْوَةِ قُلوبهم، وعِنَادِهم، وضَلالِهم ، وحِقْدِهم، وخُبْثِهم ، وشِدَّةِ عَدَاوتهم للإسلامِ والمُسْلِمِين . ويَنبغي التعامل معهم بانتباه ويقظة وفِطْنَة . إنَّهُم

---

١ قال الزَّبيدي في تاج العَرُوس (١/ ٨١٨٥) عن الآية: ((فِيها (مِن) ثلاث مَرَّات، الأُولَى للبَيَانِ، لأنَّ الكُفَّارَ نَوْعَان : كِتَابِيُّون ومُشركون ، والثانية زائدة ، والثالثة لابتداء الغاية)) .

لا يُحِبُّون إنزالَ الخَيْرِ مِنَ اللَّهِ عَلى المُسْلِمِين المُوَحِّدين . والخَيْرُ كَلِمَة عَامَّة شاملة،غَيْر مَحصور في أمْرٍ مُعَيَّن ، والمَقصودُ هُوَ كُلُّ خَيْرٍ ، وهذا يدلُّ عَلى حِقْدِهِم الفظيع ، وكَراهيتهم للحَقِّ .

عادى اليهودُ الإسلامَ والمُسْلِمين ، وطَعَنُوا في نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بدافعِ الحِقْدِ والحسد ، لأنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَرَجَ مِنَ العَرَبِ(مِنْ وَلَدِ إسماعيل ﷺ)،وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ بَنِي إسرائيل(يَعقوب ﷺ). واليَهُودُ كانوا يَرَوْنَ أنفُسَهم الأحَقَّ بالنُّبُوَّةِ والوَحْي،لذلك اختاروا مُحَارَبَةَ الإسلامِ والتَّشكيكَ فيه، وعَداوةَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَفْضَ نُبُوَّتِه، ومُقَاوَمَةَ الدَّعوةِ الإسلاميَّة بِكُلِّ الوسائل. وقد كان اليَهُودُ يُظْهِرُون مَحَبَّةَ المُؤمِنين ومَوَدَّتَهُم،وأنَّهُم يُريدون لهم الخَيْرَ والتَّقَدُّمَ والازدهارَ والنَّهضةَ ، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ ، وَفَضَحَ باطلَهم ، وكَشَفَ ضَلالَهم ، وأظْهَرَ مَا في قُلوبهم مِنَ الحِقْدِ والحَسَدِ والعَدَاوَةِ . والوُدُّ هُوَ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ معَ تَمَنِّيه . أمَّا سَبَبُ عَداوةِ المُشركين للنَّبِيِّ ﷺ ، فلأنَّه هَدَمَ تُرَاثَهم الوَثَني ، وَعَابَ آلهتهم (الأصنام) ، وأزالَ رِيَاساتهم ومكاسبهم ، وَسَفَّهَ أحلامَهم ، وَبَيَّنَ كُفْرَهم وضَلالَهم ، وكَشَفَ جَهْلَ آبائِهم وغَبَاءَهم. والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ كَلِمَة ﴿ رَبِّكُم ﴾ تدلُّ على رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تعالى ، وعَظَمَةِ الخَيْرِ الذي يُنَزِّلُه اللَّهُ، لأنَّ شَرَفَ الشَّيْءِ مِنْ شَرَفِ مَصْدَرِه.والإضافة إلى ضمير المؤمنين : ﴿ رَبِّكُم ﴾ تدلُّ على شَرَفِ المُؤمِنين ، وَرِفْعَةِ قَدْرِهِم ، وَعُلُوِّ مَنْزلتهم ، وسُمُوِّ مَكانتهم .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٢٦ و١٢٧): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ ما يَوَدُّ الذينَ كفروا مِن أهلِ الكتابِ ﴾ . قال ابن عباس : هُمْ يَهُود المدينة ونَصَارى نَجْرَان ، فالمُشركون مُشركو أهل مَكَّة . ﴿ أن يُنَزَّلَ عَلَيكم ﴾ ، أي : على رسولكم ﴿ مِن خَيْرٍ مِن رَبِّكُم ﴾ ، أرادَ النُّبُوَّةَ والإسلامَ. وقال أبو سُلَيمان الدِّمَشْقِي : أرادَ بالخَيْرِ العِلْمَ والفِقْهَ والحِكْمَةَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إيمَانِكُم كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأمْرِهِ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [البَقَرَة : ١٠٩] [٢] .

---

٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/١٣١):((في سبب نزولها ثلاثة أقوال:أحدها أن حُيَي بن أخْطَب وأبا ياسر كانا جاهدَيْن في رد الناس عن الإسلام، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.والثاني أن كَعْب ابن الأشرف كان يَهجو النبيَّ ، ويُحَرِّض عليه كُفارَ قُرَيْش في شِعْره ، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يُؤْذون رسولَ اللَّه حِينَ قَدِمَها ، فأمرَ النبيُّ بالصَّفْح عنهم،فَنَزلت هذه الآية ، قاله عبد اللَّه بن كعب ابن مالك،والثالث أن نَفَرًا من اليهود دَعَوْا حُذَيفةَ وعمَّارًا إلى دِينهم فأبَيَا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مُقاتِل)).

هذا تحذيرٌ إلهيٌّ للمؤمنين مِن اليهود ، وبيان لعداوتهم ، وحسدهم للمؤمنين ، معَ عِلْمهم بأنهم على الحق ، وأن محمدًا نبيٌّ صادق ، ورسول مِن عند اللَّه . والآيةُ تشتمل على توبيخ شديد لليهود ، فقد ظَهَرَ لهم الحقُّ ، وأُقِيمت عليهم الحُجَّة ، وانقطعَ عُذرُهم ، وعرفوا أن الإسلام حق ، وأن محمدًا عبد اللَّه ورسوله . وبعد كُلِّ هذا ، اختاروا الكفرَ على الإيمان عِنادًا وحسدًا . ولَم يَكتفوا بهذا، بَلْ إنَّ اليهود يَتَمَنَّوْنَ زوالَ نِعمة الإيمان عن المؤمنين . وهذا يدل على شِدَّة العداوة والحِقد والحسد والبغضاء . ومَحَبَّةُ اليهود لكُفر المؤمنين نابعة من شَهَوَات أنفسهم وأهوائهم،لا أن اليهود يَملِكون الحق ، ويَحرِصون عليه . واليهودُ لَمْ يكونوا جُهَّالًا أو ساذَجين ، بَل كانوا على عِلْم ومعرفة ، وكُفْرُهم مبنيٌّ عَلى عِلْم لا جَهْل ، وهذا أسوأ أنواع الكُفر على الإطلاق .

فَإن كُنتَ لا تدري فَتِلْكَ مُصيبةٌ وإن كُنتَ تَدري فالمُصيبةُ أعظمُ

تَمَنَّى اليهودُ لَوْ يَرُدُّون المؤمنين إلى الكفر والضلال ، حسدًا نابعًا مِن أصل أنفسهم ، واتِّباعًا لأهوائهم ومصالحهم وشهواتهم ، وليس التزامًا بالدِّين ، أو بحثًا عن الحق واليقين، ولَم يأمرهم اللَّهُ بذلك ، مِن بعد ما ظَهَرَ لليهود الحقُّ في التَّوراة ، التي تشتمل على صِفة مُحَمَّد ﷺ ، وتُوضِّح أن الإسلام حَق ، ومحمدًا نبيٌّ صادق . والحسدُ مُتجذِّر في قلوب اليهود السَّوداء ، وقد تَمَنَّوْا أن يَرتد المؤمنون عن الإسلام، ويَعودوا إلى الكُفْر، وسَعَوْا في ذلك مُستخدمين كُلَّ الوسائل المُمكنة ، وخطَّطوا للمؤامرات والمكائد ، ولكنهم فَشِلُوا . ثُمَّ بعد ذلك ، أعلنَ المؤمنون عليهم الجهادَ ، وانتصروا عليهم ، وخَسِرَ كثيرٌ مِن اليهود حياتَهم ، وضاعت مُمتلكاتهم . وعلى الباغي تَدُور الدوائر . ومَن سَلَّ سَيْفَ البَغْي صُرِعَ بِه .

والحَسَدُ مِنْ أسوأ الصِّفَاتِ على الإطلاق ، وهو تَمَنِّي زوال النِّعمة عن المَحسود ، وإنْ لَم يَصِرْ للحاسد مِثْلُها . أمَّا الغِبْطة فهي تَمَنِّي النِّعمة بدون حُب زوالها عن المَغبوط . وكُلُّ شخص يُمكن أن يَرضى إلا الحاسد ، فإنه لا يَرضى إلا بزوال النِّعمة عَن غَيره . وقلبُ الحاسد مُحترِق ، وعَقْلُه تائه ، وحُزْنُه دائم ، وتعاسته مُستمرة . والحاسدُ يُحْرِقُ نَفْسَه بِنَفْسِه ، ولا أحَد يَشْعُر به ، وهو سائرٌ إلى الهاويةِ السَّحيقةِ بِمِلْءِ إرادته .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٢) : ((يُحذِّر تعالى عبادَه المؤمنين عن سُلوك طريق الكُفار من أهل الكتاب ، ويُعْلِمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هُم مُشتملون عليه مِن الحسد للمؤمنين معَ عِلْمِهم بفضلهم وفضل نَبِيِّهم ... . عن ابن عباس قال : كان حُيَي بن أخْطَب وأبو ياسر بن أخْطَب مِن أشد يهود للعرب حسدًا ، إذْ خَصَّهم اللَّهُ برسوله ﷺ ، وكانا جَاهِدَيْن في

رَد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزلَ اللَّهُ فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُم ﴾ الآية ... . وقال الضَّحاك : عن ابن عباس : أنَّ رَسولًا أُمِّيًّا يُخبِرهم بما في أيديهم مِن الكُتب والرُّسُل والآيات ، ثُمَّ يُصدِّق بذلك كُلِّه مِثل تصديقهم ، ولكنهم جَحدوا ذلك كُفْرًا وحسدًا وبَغْيًا. وكذلك قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ . يقول : مِن بَعد ما أضاءَ لهم الحقُّ ، لَم يَجهَلوا مِنه شيئًا ، ولكن الحسد حَمَلَهم على الجُحود ، فعيَّرهم ، ووبَّخهم ، ولامهم أشد المَلامة ، وشَرَعَ لِنَبِيِّه ﷺ وللمؤمنين ما هُم عليه مِن التصديق ، والإيمان ، والإقرار بما أنزلَ اللَّهُ عليهم ، وما أنزل مِن قَبْلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِن عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ مِن قِبَل أنفُسِهِم . وقال أبو العالية : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ مِن بعد ما تَبَيَّنَ أنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ، يَجدونه مَكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل ، فكفروا به حسدًا وبَغْيًا ، إذْ كان مِنْ غَيْرِهم ، وكذا قال قَتادة والربيع بن أنس)) .

إنَّ صُدورَ اليهود تمتلئ بالحسد تُجَاه المؤمنين ، وهُم مُتَلَبِّسون بالحسدِ بسبب قلوبهم المريضة وحُبِّها لِما هو قبيحٌ وكُرهها للحق. واليهودُ كانوا شديدي الحِرص على إرجاع المسلمين إلى عوالم الجاهلية والكفر . وهذا مرجعه إلى الحسد . فهم لا يريدون للآخرين أن يتمتعوا بِنِعمة الإيمان ، بل يَتَمَنَّوْنَ زوالَ هذه النِّعمة. وهذه الخَصْلَة الذميمة سببها كراهية الإنسان كإنسان، وتمنِّي زوال النِّعمة عنه ، وهذا اتجاه مُضاد للأُخُوَّة بين البشر بوصفهم من أصل واحد .

والحَسَدُ كَسِيَاسة منهجية هدفها تجريد الخصم من كل فضيلة ، والاستحواذ على النِّعم كاملةً لِيَسْهُل القضاء على الخصوم . وقد قادَ الحسدُ اليهودَ إلى الكفر بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بعد معرفتهم اليقينية بِصِدْقِه وصِحَّةِ نُبُوَّتِه [٣] .

---

٣ الحسد نَوْعان : مذموم ومحمود. أمَّا المذموم فهو تمنِّي زوال النِّعمة عن المسلم . وهذا النَّوعُ حرامٌ بالإجماع. وقد ذمَّه اللَّهُ ووبَّخَ أصحابَه، فقال تعالى: ﴿ أم يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم اللَّهُ من فضله ﴾ [النساء : ٥٤]. والحسدُ المذموم اعتراض على إرادة اللَّه تعالى ، وطعنٌ في حِكْمته ، واتِّهامٌ له سُبحانَه بأنه يُعطي النِّعمة لغير المستحِق . أمَّا الحسدُ المحمود فهو الوارد في الحديث ، قال النبيُّ ﷺ : ((لا حَسَدَ إلا في اثنتَيْن : رَجُلٌ آتاه اللَّهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ، ورَجُلٌ آتاه اللَّهُ مالًا فهو يُنْفقه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ)) [متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧٣٧) ، ومسلم (١/ ٥٥٨)] . وهذا الحسدُ المحمود إنما هو الغِبْطة ، أي أن يتمنى المرءُ النِّعمةَ التي على غَيْرِه ، مِن غَيْرِ زوالها عن صاحبها .

وَرَوَى الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤٥٤) عن ابن زَيد أنه قال : ((كانت يهود يَسْتَفْتِحُون على كُفار العرب يقولون : أمَا واللَّهِ لَوْ قد جاء النبيُّ _ الذي بشَّر به موسى وعيسى _ أحمدُ ، لكان لنا عليكم ! ، وكانوا يظنون أنه منهم ، والعرب حَوْلَهم ، وكانوا يستفتحون عليهم به، ويستنصرون به ، فلمَّا جاءهم ما عَرَفوا كَفروا به ، وحسدوه)) .

هذا يَعْكِس خُطورةَ اتِّبَاع الهَوى المُضاد لاعتناق الحق، كما يدل على أن الحسد الذي يسيطر على اليهود في كل مراحل وجودهم يساهم بشكل فعَّال في صَرْفهم عن الحق . وهُم سعيدون بهذا طمعًا في تحقيق مصالح شخصية ، والحفاظ على مناصبهم . وهذا أبعدَهم عن البناء الحضاريِّ ، فاليهودُ لا يَمْلكون أيَّةَ حضارة ، وليس لهم أي دَور إيجابي في تاريخ البشرية . ومَن يُعارِض هذا الكلام عليه أن يُرِيَنا " آثار الحضارة اليهودية " كَي نَزورها ونستفيد منها ! . واليهودُ يَسْتَوْلُون على التُّرَاث الفِلَسْطِيني ومعالم الحضارة العربية الإسلامية ، ويُسَجِّلونها باسمهم في المنظمات الدولية لأنهم لا يَملكون حضارةً،لذلك يَخترعون حَضارةً وهمية لهم عَبر الاستيلاء على إنجازات الآخرين.

وفي الدُّرِّ المنثور للسُّيوطي (١/ ٢٦٠) أنَّ ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال: ((وكانَ حُيَي ابن أخْطَب وأبو ياسر بن أخْطَب مِن أشدِّ اليهودِ حَسَدًا للعَرَبِ إذْ خَصَّهُمُ اللَّهُ برسوله ، وكانا جَاهِدَيْن في رَدِّ الناسِ عَن الإسلام مَا استطاعا ، فأنزَلَ اللَّهُ فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ ﴾)) .

إنَّ المشكلة الأساسية في عُقول اليهود ، هي اعتبار أنفسهم الأحق بالنُّبُوَّة من العرب ، وأنهم أَرْقى من العرب ، وأعلى منهم شأنًا . وتفكيرُ اليهود يتشابه إلى حد بعيد مع تفكير إبليس، حيث إنَّ إبليس اعتبرَ نَفْسَه أفضل من آدم ﷺ ، وينبغي أن يَحصل على امتيازات خاصة متناسبة مع هذه الأفضلية المزعومة . واليهودُ اعتبروا أنفُسَهم أفضل من العرب، ويجب أن يَحصلوا على النُّبُوَّة ليتناسب ذلك مع مكانتهم الرفيعة المزعومة . وبما أن الأمور قد تَمَّتْ ، وظَهَرَت النُّبُوَّةُ في العرب بعد أن شَرَّف اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بها، لَم يجد اليهود وزعماؤهم غَيْرَ الحسد الذي يستلزم زوال النِّعمة عن الآخرين ، وحِياكة المؤامرات ، والتخطيط للمكائد ، وبذل الجُهود من أجل رَد الناس عن الإسلام . وقد صارت هذه الأفعال الدنيئة هي الغاية من وجود اليهود الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام بكل الوسائل . وقد نصَّبوا أنفسهم أعوانًا للشيطان، وأعداءً للرحمن . وهذا يدل على الحِقد الدفين الذي يُحْرِق قُلوبَ اليهود ، ونار الحسد المُتأجِّجة في صدورهم .

كُلُّ العَداوةِ قد تُرْتجى إمَاتَتُها ... إلا عَداوةَ مَن عَاداكَ مِن حَسَدِ
فإنَّ في القلبِ مِنهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ ... ولَيْسَ يَفْتَحُها راقٍ إلى الأبَدِ

وقال الغَزَالي في الإحياء (٣/ ١٨٩) : ((اعْلَمْ أنَّه لا حسد إلا على نِعمة، فإذا أنعمَ اللَّهُ على أخيك بنِعمة فَلَكَ فيها حالتان : إحداهما أن تَكْرَهَ تِلْك النِّعمةَ وتُحِب زوالها ، وهذه الحالة تُسمَّى حسدًا . فالحسدُ حَدُّه كراهة النِّعمة وحُب زوالها عن المُنعَم عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لِنَفْسِك مِثْلَها ، وهذه تُسَمَّى غِبْطة)) .

وقد قال أحد الحكماء: ما رأيتُ أعدلَ من الحسد، بدأ بصاحبه فقضى عليه .وصدقَ القائلُ :

اصْبِرْ على حَسَدِ الحَسُودِ فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِـلُه
كالنارِ تأكلُ بَعْضَها إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تأكُلُه

وفي الحديث أن رسولَ اللَّه ﷺ قال : ((إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ سَئِمُوا دِينَهُم ، وَهُم قَوْمٌ حُسَّد ، وَلَم يَحْسُدُوا المُسلمينَ على أفضلَ مِن ثلاث : رَدِّ السَّلام ، وإقامةِ الصُّفوف ، وقَوْلِهم خَلْفَ إمامهم في المَكتوبة : آمِين)) [٤] .

إنَّ اليهود مَلُّوا مِن دِينهم القائم على الأهواء والخُرافات والمصالح الشخصية والمنافع المادية، والحسد يُحْرِق قلوبَهم ، ويُدمِّر حياتهم . وهُم يَحسُدون المسلمين على مظاهر وَحْدتهم وأُلْفتهم التي تتجلَّى في شعائر دِينهم وصلاتهم .

واليهودُ يَتَمَنَّوْنَ زوالَ النِّعمة عن المُسلمين ، لأنهم يَعْلَمُون أن المسلمين على الحق ، لذلك يَحسُدونهم على رد السلام ، لأن فيه دَلالة واضحة على تماسك المجتمع الإسلاميِّ ، ومَتانة العلاقة بين المسلمين ، ووَحدة صَفِّهم . ويَحسُدونهم على إقامة الصُّفوف في الصلاة ، لأنه دليل الإيمان والانضباط والقُوَّة والوَحْدة والتماسك والتعاون . ويَحسُدونهم على قَولهم خلف الإمام في الصلاة المفروضة : آمِين ، لأن كلمة " آمِين " دُعاء خالص للَّه تعالى بالاستجابة بعد قراءة سُورة الفاتحة أعظم سُورة في القُرْآن ، والتي لَم يَنْزِل مِثْلُها في كُلِّ الكُتب السماوية السابقة .

ورفضُ الدِّين هو المُحرِّك الأساسيُّ للحسد . وهذا يدل على أن اليهود يعيشون بلا وازع دِينيٍّ ولا رادع أخلاقي . وحَسَدُهم عام وشاملٌ إلا أنه يتمحور بشكل خاص حول ثلاثة أمور وضَّحها الحديثُ ، تُشكِّل ظواهرَ الوَحدة والتماسك والتكافل في المجتمع الإسلاميِّ المترابط . وهذا

---

٤ رواه الطَّبَرَاني في المعجم الأوسط (٥ / ١٤٦) برقم (٤٩١٠) ، وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب (١ / ١٩٤) ، ووافقه الهيثمي في المجمع (٢ / ٢٨٨) .

يُشير إلى حِرص اليهود على تفريق المسلمين وتشتيتهم وتمزيق مُجتمعهم،وَفْق قاعدة "فَرِّقْ تَسُدْ"، كي تَخْلُوَ لهم السَّاحة، ويَعِيثوا في الأرضِ فسادًا دُون حِساب أوْ عِقاب ، حَسَب رؤيتهم القاصرة.

وعن عائشةَ عن النَّبِيِّ ﷺ قال : ((مَا حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلى السَّلامِ والتَّأمِينِ)) [٥] .

هذا يدلُّ على أن اليهود يَحسُدون المسلمين على شعائر دِينهم ، وخُصوصيات المسلمين . إنَّهُم يَحسُدونهم على إفشاء السلام فيما بينهم ، وذلك لِمَا فيه مِن إظهار المحبَّة ، والوُد بين المسلمين بعضِهم البعض ، والرِّفْق فيما بَينهم ، والسَّلامُ تحيَّةُ أهل الجَنَّة . ويَحسُدونهم أيضًا على التأمين ، أي : قَول المُسلمين : آمِين ، خَلْف الإمام ، ومعناها : اللهُمَّ اسْتَجِبْ ، لِمَا عَلِمُوا مِن فَضْلها وبَرَكَتها .

وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٤) : ((وهو يدلُّ على أنَّه شُرِعَ لهذه الأُمَّة دُونَهم)) .

والحديثُ يُوضِّح أنَّ اللَّه خَصَّ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بخصائص تميَّزت بها عن غَيرها مِن الأُمم في الخَير والأجر ، ويُبَيِّن ضرورةَ الحَث على الإكثار مِن السلام والتأمين ، ويدلُّ على أن اليهود يُدرِكون أن اليهودية دِيَانة أرضية وَضْعية بشرية باطلة ، وأن الإسلامَ هو الحَقُّ ، والدِّينُ السماويُّ الوحيد .

وفي حديث آخَر أنَّ النبيَّ ﷺ قال عن اليهود : ((إنَّهُم لا يَحسُدونا على شَيء كما يَحسُدونا على يَوْمِ الجُمُعَةِ ، التي هدانا اللَّهُ لها وضَلُّوا عنها ، وعلى القِبْلة التي هدانا اللَّهُ لها، وضَلُّوا عنها ، وعلى قَوْلِنا خَلْفَ الإمام : آمِين)) [٦] .

إنَّ اللَّه فَرَضَ على اليهود يَوْمَ الجُمُعة، فاختلفوا فيه ، وتركوه ، واختاروا السَّبْت . وقد خَذَلَهم اللَّهُ ، وهدى المسلمين إلى يوم الجُمُعة ، الذي ضَلَّ عنه اليهود . وفَرَضَ اللَّهُ على اليهود التَّوَجُّهَ إلى الكعبة ، فتركوها ، وضَلُّوا عنها، وهدى اللَّهُ المسلمين لها . واليهودُ قد اختاروا بَيْتَ المَقْدِس قِبلةً لهم ، والكعبةُ أفضل . واختصَّ اللَّهُ المسلمين (الأُمَّة المُحمَّدية) بقول : آمِين ، خَلْف الإمام ، ولَم يَمنح هذا الشرف لليهود المغضوب عليهم . وقَوْلُ المسلمين خَلْف الإمام : آمِين ،

---

٥ رواه ابن مَاجَة في سُنَنِه (١ / ٢٧٨) ، وقال في الزوائد : ((هذا إسناد صحيح ، ورِجَاله ثِقَات)) .

٦ رواه أحمد في مُسنده (٦/ ١٣٤).وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٤١) : ((قال العِرَاقي : هذا حديث صحيح)) .

فيه فضل عظيم ، وثواب جَزيل ، وغُفران للذُّنُوب ، والتأمين على ما قَرَأه الإمامُ مِن سُورة الفاتحة. واليهودُ يَحسُدون المسلمين على هذه الأُمُور الثلاثة التي تُوحِّد المسلمين ، وتُعْلي شَأنَهم وقَدْرَهم.

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية آخِرُ الأُمَم زمنيًّا ، لكنَّها الأُمَّة الأُولَى يوم القيامة ، وسابقة لجميع الأمم الماضية . وقد حازت قَصَبَ السَّبْق ، بأن حصلت على فضيلة يوم الجُمُعة السابق للسَّبْت (عيد اليهود) والأحد (عيد النصارى) . كما أنها سابقة إلى طاعة اللَّه التي حُرِمَ منها اليهودُ والنصارى . وقد هَدى اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية إلى يوم الجُمُعة مع تأخُّرها في الزمن ، في حِين أن اليهود والنصارى ضَلُّوا عنه ، معَ أنهم سابقون زمنيًّا . والطريقُ لِمَنْ صَدَقَ لا لِمَنْ سَبَقَ .

والأُمَّةُ المُحمَّدية حَصَلَتْ على فضل التَّوَجُّه إلى الكعبة (القِبلة التي تُوحِّد المسلمين في المشارق والمغارب) ، في حِين أن اليهود والنصارى حُرِمُوا مِن هذا الفضل ، ولم يُمنَحوا هذا الشرف . والأُمَّة المُحمَّدية تقول خلف الإمام : آمِين (اللهُمَّ اسْتَجِبْ) . وهذا الفضل حُرِمَ مِنه اليهود والنصارى . وفي هذا دَلالة واضحة على تفوُّق الأُمَّة المُحمَّدية على سائر الأُمم بلا استثناء.

والأُمَّة المُحمَّدية حصلت على هذا الفضل العظيم والشرف الجليل ، لأنها قَبِلَتْ كلامَ اللَّه ، بلا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا تَلاعُب ، وسارعتْ إلى عبادة اللَّه وَحْدَه لا شريك له، وأقبلتْ على طاعة اللَّه ، والتزمتْ أوامرَه ، واجتنبتْ نَوَاهيه ، فكافأها اللَّهُ ، وعظَّم قَدْرَها ، وشرَّف مكانتها، وأعلى شأنها في الدُّنيا والآخرة ، وَطَرَدَ اليهودَ والنصارى مِن رحمته ، وَلَعَنَهُم ، لأنهم حرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشرَكوا باللَّه تعالى، واختاروا الكُفْرَ على الإيمان ، واعتنقوا الضلال ، ورفضوا الهداية .

وعن سَلَمَة بن سلامة بن وَقْش _ وكان من أصحاب بَدْر _ قال : كان لنا جارٌ مِن يَهُودَ في بني عبد الأشْهَل ، قال : فَخَرَجَ عَلَينا يَوْمًا مِن بَيته قَبْلَ مَبْعَث النبيِّ ﷺ بيسير ، فوقفَ على مجلس عبد الأشهل ، قال سَلَمة : وأنا يومئذٍ أحدثُ مَن فيه سِنًّا عليَّ بُرْدة مُضْطَجِعًا فيها بِفِناء أهلي ، فَذَكَرَ البعثَ والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار ... فقال ذلك لِقَوْمٍ أهل شِرْك أصحاب أوثان ، لا يَرَوْنَ أن بَعْثًا كائن بعد الموت ، فقالوا له : وَيْحَكَ يا فُلان ، تَرى هذا كائنًا أن الناس يُبْعَثُون بعد مَوْتهم إلى دار فيها جَنَّة ونار يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم ؟، قال : نعم ، والذي يُحْلَف به ، لَوَدَّ أنَّ له بحَظِّه من تلك النار أعظمَ تَنُّور في الدنيا يُحمونه ثم يُدخلونه إيَّاه فَيُطْبَق به عليه ، وأنْ يَنجوَ من تلك النار غدًا . قالوا له : وَيْحَك، وما آيةُ ذلك ؟، قال: نبيٌّ يُبعَث مِن نَحْوِ هذه البلاد ، وأشارَ بيده نحو مكة واليمن ، قالوا : ومتى تَرَاه ؟ ، قال : فَنَظَرَ إلَيَّ وأنا مِن أحْدَثِهم

سِنًّا ، فقال : إنْ يَسْتَنْفِدْ هذا الغُلامُ عُمُرَه يُدْرِكْه . قال سَلَمة : فواللَّهِ ما ذَهَبَ الليلُ والنهارُ حتى بَعَثَ اللَّهُ تعالى رسولَه ﷺ ، وهو حَيٌّ بين أظْهُرِنا ، فآمَنَّا بِه، وكَفَرَ به بَغْيًا وحَسَدًا ، فَقُلْنا : وَيْلَكَ يا فُلان ، أَلَسْتَ بالذي قُلْتَ لنا فيه ما قُلْتَ ، قال : بلى ، ولَيْسَ بِه [٧] .

هذا يدلُّ على أن اليهود كان لَدَيهم عِلْم ومعرفة بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ قبل ظُهوره ، إذْ إنَّ صِفته موجودة في كُتبهم الدينية ، وهُم على اطِّلاع عليها . ولكنهم كانوا يَأمُلُون أن يكون مِنهم ، وليس مِن غَيرهم ، فلمَّا ظَهَرَ مِن العرب كفروا بِه ، وجَحدوا نُبُوَّتَه ورسالته ، بَغْيًا وحَسَدًا .

واليهودُ كانوا يَنظرون إلى العرب باعتبارهم جماعات بدوية مُتخلِّفة وبِدائية وهمجية ، وكانوا يَعتبرون أنفسَهم شعب اللَّه المُختار ، وصَفوة اللَّه مِن خَلْقه، والأحَق بالنُّبُوَّة والرسالة وتلقِّي وَحْي السماء . لذلك ، أنكَروا كُلَّ فضيلة للعرب ، وكفروا بالنبيِّ مُحَمَّد ﷺ لأنه عربيٌّ ، وليس مِن بني إسرائيل ، معَ عِلْمهم التام بصِدْقه وصِحَّة نُبُوَّته . وكُفْرُ اليهود قائم على العِلْم والمعرفة ، وَلَم يَكونوا جُهَّالًا أو ساذَجين، ولكنَّ الحَسَد حَمَلَهم على الكفر والضلال وتكذيب آيات اللَّه ، وجَحْد نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ .

((وروى يعقوب بن سُفيان بإسناد حسن عن عائشة ، قالت : كان يهوديٌّ قد سكن مكة ، فلمَّا كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها النبيُّ ﷺ قال : يا مَعْشَرَ قُرَيْش ، هل وُلِدَ فيكم الليلةَ مَوْلود ؟ ، قالوا : لا نَعْلَم ، قال : فَإنَّهُ وُلِدَ في هذه الليلة نبيُّ هذه الأُمَّة ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلامة ، لا يَرضع لَيْلَتَيْن لأنَّ عِفْريتًا مِنَ الجِنِّ وَضَعَ يده على فمه، فانصرَفوا فسألوا، فقِيل لهم : قد وُلد لعبد اللَّه بن عبد المُطَّلب غُلامٌ ، فذهبَ اليهوديُّ معهم إلى أُمِّه فأخْرَجَتْهُ لهم ، فلمَّا رأى اليهوديُّ العَلامَةَ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْه ، وقال : ذَهَبَت النُّبُوَّةُ مِن بني إسرائيل ، يا مَعْشَرَ قُرَيْش ، أمَا واللَّهِ لَيَسْطُوَنَّ بكم سَطْوةً يَخرج خَبَرُها مِن المَشرِق والمَغرِب)) [٨] .

كانَ اليهودُ على عِلْم ومعرفة بمَبعَث النبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، وكانوا يَنتظرون أن يَخرُج مِن بني إسرائيل، فلمَّا خَرَجَ مِن العرب، أُسْقِطَ في أيديهم، واحترقت قلوبُهم بالحِقد والحسد ، وهذا سبب كُفرهم . وإذا كان اليهودُ قَد قَتلوا كثيرًا مِن أنبياء بني إسرائيل ، فماذا سَيَفعلون معَ النبيِّ العَرَبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الأنبياءِ ، وَأعْظَمِ مَخلوقاتِ اللَّهِ عَلى الإطلاقِ ؟ .

---

٧ رواه أحمد في مسنده (٣ / ٤٦٧).قال الحافظ في الفتح(٦/٥٨٣):((صحَّحه ابن حِبَّان من طريقه)).

٨ أورده الحافظ في الفتح (٦ / ٥٨٣) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عِمران : ٦٤] .

يُقَدِّمُ القُرآنُ الحُجَجَ الدامغةَ، والبراهين الباهرة . فقد دعا أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلى كَلِمَةٍ عَدْلٍ يستوي أمامها الجميعُ بلا تمييز أو مُجامَلة . وهذه الكلمة التي ينبغي الاتفاق عليها من كل البشر _على اختلاف أديانهم وأجناسهم_ هي عبادة اللَّه وَحْدَه ، وعدم الشِّرْك به ، وعدم اتخاذ البشر أربابًا مِن دُون اللَّه تعالى . فلا أحد يملك حقَّ التشريع والتحليل والتحريم سِوى اللَّه تعالى .

وكُلُّ ما عُبِدَ مِن دُون اللَّه هُمْ آلهةٌ باطلة ، لا يَملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضَرًّا ، فلا مَعبودَ بحق إلا اللَّه . وللأسف ، فقد عَبَد اليهودُ عُزَيْرًا ، وعَبَدَ النصارى المسيحَ ، واتَّخذوا أحبارَهُم ورُهبانَهم أربابًا مِن دُون اللَّه تعالى ، أحَلُّوا لهم الحرامَ ، وحرَّموا عليهم الحلالَ .

ومَن يتفكر في هذه الدَّعوة العظيمة سيجد أنها مُنصِفة لا ظُلْمَ فيها ، ولا تغليب لأُناس على آخرين ، فاللَّهُ هو خالق كُلِّ الناس ، فعليهم أن يَعبدوه وَحْدَه ، وألا يُشرِكوا بِه . فلا يجوز عبادة مُحَمَّدٍ أوْ مُوسَى أوْ عِيسى _ عليهم الصلاة والسلام _، بَلْ تَجِب عبادة الذي أرسلهم. والالتزامُ بهذا المبدأ الراقي سَيُوحِّد الناسَ على الحق ، ولا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى ، والتقوى سِرٌّ بين العبد وربِّه . وهذه الدعوة عالمية لأنها لا تختص بقَوم دون قَوم . فهي لا تُجَامِل المسلمين على حساب أهل الكتاب ، لأنَّ اللَّهَ خالقُ الجميع لا المسلمين وَحْدَهم. ولا تُنقِص من قَدْر التوراة والإنجيل، لأنهما كتابان سماويان_ في الأصل_ يُؤَيِّدان القرآنَ مِثلما القُرآن يؤيِّدهما ، ولا تَحُطُّ من مَنْزلة موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، لأن الأنبياءَ كُلَّهم دِينهم واحد ، يتشرفون بعبادة اللَّه الذي أرسلهم لإخراج الناس من ظُلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلم والإيمان. ولو كان مُحَمَّد ﷺ كاذبًا لدعا الناس إلى عبادته مِثل فِرْعَوْن ، أوْ طعن في موسى وعيسى لإعلاء مَنْزلته عليهما ، أو طعن في التوراة والإنجيل لبيان تفوُّق الكتاب الذي جاء به . لكن هذه الأمور لَم تحدث ، فقد كان النبيُّ مُحَمَّد ﷺ أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل وموسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ . ولا يُقْبَل الإسلام من أحد إلا إذا آمَنَ بالكُتب السماوية كُلِّها والأنبياءِ كُلِّهم ، بلا استثناء ولا تمييز . وهذا هو الأساس للدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة الكَوْنِيَّة الشاملة لِكُلِّ زمان ومكان .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ . الخِطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ . قُل يا مُحَمَّد لليهود والنصارى(أهل التَّوراة والإنجيل) : يا أهل الكتاب ، هَلُمُّوا إلى كلمة عادلة واضحة مستقيمة بيننا وبينكم ، فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، ولا يَختلف فيها الرُّسُل والكُتب السماوية.

﴿ ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ . أن نَعبد اللَّهَ وَحْدَه،بلا شريك، ولا نِد، ولا صاحبة ، ولا ولد.وهذه هي الكلمة العادلة التي لا ظُلم فيها ولا جَوْر. و﴿ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ هي كلمة التَّوحيد.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٤) : ((هذا الخِطاب يَعُمُّ أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى ومَن جَرَى مَجْرَاهم ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ والكلمة تُطلَق على الجُملة المفيدة كما قال هَهُنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ ، أي عَدْل ونَصَف _ يعني إنصاف _ ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسَّرها بقوله : ﴿ ألا نعبد إلا اللَّهَ ولا نشرك به شيئًا ﴾ ، لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيئًا ، بل نُفْرِد العبادةَ للَّه وَحْدَه لا شريك له ، وهذه دَعوة جميع الرُّسُل)) .

﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . ولا يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه ، ولا يَسجد بعضُنا لبعض ، ولا يَعبد بعضُنا بعضًا ،كما عَبَدَ اليهودُ عُزَيرًا ، وعَبَدَ النصارى المسيحَ ، وأطاعوا أحبارَهم ورُهبانَهم في تحليل الحرام ، وتحريم الحلال . فالتحليلُ والتحريم للَّه وَحْدَه ، وهُما من خصائص الأُلوهية، ولا علاقة للبشر بهما.والآيةُ تَوبيخٌ شديد لليهود الذين عَبَدُوا عُزَيْرًا ، والنصارى الذين عَبَدُوا المسيحَ ، وكِلاهما بَشَرٌ ، يأكل ويشرب ويقضي حاجته وينام . وأيضًا ، توبيخ شديد لِمَن أطاعَ الرجالَ في دِين اللَّه ، فَحَلَّلَ ما حَلَّلوه من الحرام ، وحرَّم ما حرَّموه مِن الحلال ، بلا دليل نقلي ، ولا حُجَّة عقلية . ومَن فَعَلَ هذا ، فقد اتَّخَذَ مَن قَلَّدَه إلَهًا وَرَبًّا ومَعبودًا مِن دُون اللَّه تعالى . والجديرُ بالذِّكر أن مظاهر العُبودية لا يجوز صَرْفها لأحد من المخلوقين . واتخاذُ الناسِ بَعْضَهم بَعْضًا أربابًا مِن دُون اللَّه ، يحتمل عِدَّة مَعَانٍ . فاتِّباع عِلْية القوم (الأمراء والعلماء) في التحليل والتحريم بلا دليل هو نوع من عبادتهم، لأن تشريع الحلال والحرام بيد اللَّه وَحْدَه . وهناك معنى مشهور مِثل عبادة النصارى للمسيح ﷺ ، فقد اتخذوه إلهًا ، وذلك لجهلهم وتحريفِ الإنجيل ، حيث دخلت فيه العوامل البشرية . ولا يَخفى أن سُوء تأويل النصوص الدينية أدَّى إلى كوارث عَقَائدية ، وانحرافات أخلاقية . وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) في التَّوراة والإنجيل ، أن يَعبدوا اللَّهَ وَحْدَه ، لا شريك له . لكنهم خالفوا الأمرَ الإلهيَّ ، فَحَرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشركوا باللَّه تعالى . فقد اعتبرَ اليهودُ عُزَيْرًا ابنَ اللَّه ، واعتبرَ النصارى عيسى

ابنَ اللَّه . وجَحَدَ أهلُ الكتابِ نُبُوَّةَ مُحَمَّدﷺ ، وعَبَدُوا أحبارَهم ورُهبانَهم ، كما قالَ اللَّهُ عنهم : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣١] . أي إنَّهم أطاعوهم كما يُطاع الرَّبُّ تعالى ، فأحَلُّوا لهم الحرام ، وحرَّموا عليهم الحلال .

وعن عَدِيِّ بنِ حَاتِم قال : أتَيْتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِن ذَهَب ، فقال : ((يا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنكَ هذا الوَثَنَ)) ، وسَمِعْتُه يَقرأ في سُورة بَرَاءة : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال : ((أمَا إنَّهُم لَمْ يَكونوا يَعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحَلُّوا لهم شيئًا اسْتَحَلُّوه ، وإذا حَرَّموا عَليهم شيئًا حَرَّموه)) [٩] .

لَقَدْ دَعَا النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى ترك عادات الجاهليَّة وأوثانها ، وكان ﷺ يَنهاهم عن التَّشَبُّه بالمُشركين أو اليهود أو النصارى .

كان عَدِيُّ بن حاتم نَصْرَانِيًّا ، وجاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ كَي يُسْلِمَ ، وَقَدْ عَلَّقَ في عُنُقِه سِلْسِلَةً فيها صليب مِن ذَهَب ، والصليب شِعَار النَّصَارى ، فَأمَرَه النبيُّ ﷺ أن يَنْزِعَ عنه هذا الصليبَ ويُلْقِيَه ، والوَثَنُ هو الصَّنَم ، وكُلُّ ما جَسَّدَ شيئًا فهو وَثَن ، سواءٌ كان مِن طِين ، أوْ حِجارة ، أوْ خَشَب ، أو حديد . وَسَمِعَ عَدِيُّ بن حاتم النبيَّ ﷺ يقرأ الآية الموجودة في سُورة التَّوبة : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أي : إنَّ اليهود اتَّخَذَتْ أحبارَهم ، والنصارى اتَّخَذَتْ رُهبانَهم، آلهةً مِن دُون اللَّه تعالى . وبيَّن النبيُّ ﷺ المُراد بالآية ، فاليهود والنصارى لَم يَكونوا يَعبدون أحبارَهم ورُهبانَهم ، ولكن اليهود والنصارى كانوا إذا أحلَّ لهم الأحبارُ والرُّهبانُ شيئًا استحلَّه أتباعُهم ، وإذا حرَّموا شيئًا امتنعَ عنه أتباعُهم . وكأنهم بذلك اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم آلهةً مَعبودةً مِن دُون اللَّه تعالى . يُحِلُّون لهم ، ويُحرِّمون عليهم . والحديثُ يُوضِّح أن التحليل والتحريم من

---

٩ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنه (٥ / ٢٧٨) برقم (٣٠٩٥) ، والبَيهقي في سُننه الكُبرى (١٠/ ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطَّبَرَاني (١٧ / ٩٢) برقم (٢١٨) .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((فالجَهَلة مِن الأحبار والرُّهبان ومشايخ الضَّلال يَدخلون في هذا الذم والتَّوبيخ ، بخلاف الرُّسُل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر اللَّهُ به ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُلُه الكرام ، وإنما يَنْهَوْنَهم عمَّا نهاهم اللَّهُ عنه ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُلُه الكرام، فالرُّسُلُ ــ صَلَوَات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ــ هُم السُّفَراء بين اللَّه وبين خَلْقه في أداء ما حَمَلوه مِن الرسالة ، وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك أتم القيام ، ونصحوا الخَلْقَ ، وبَلَّغوهم الحقَّ)) .

خصائص اللَّه وَحْدَه لا شريك له ، وأنَّ مَن اتَّبَعَ أحدًا في ذلك ، فقد اتَّخذه إلهًا مِن دُون اللَّه تعالى .

إنَّ قضية التحليل والتحريم لا أحدٌ يَمْلِكُها إلا اللَّه تعالى ، فهي تشريعٌ إلهيٌّ لا علاقة للمخلوقات به . والشخصُ الذي يقوم بالتحليل والتحريم إنَّما هو يُنازع اللَّهَ تعالى ، ويعتدي على شريعة السماء ، ويَجعل عقلَه الناقص المحدود مُسَاوِيًا لِعِلْمِ اللَّهِ المُطْلَقِ ، وقُدرته اللامحدودة . وإطاعةُ ذلك الشخص إنَّما هي استسلام له ، وخُضوع لأفكاره ، وعبادة له مِن دُون اللَّه تعالى .

وأهلُ الكتاب (اليهود والنصارى) _ للأسف_ مُعتادون على عبادة الأشخاص وتقديسهم ، وتقديم كلام عُلمائهم على نصوص التَّوراة والإنجيل .

إنَّ العلماء الفاسدين قد ضَلُّوا وأضَلُّوا ، وذلك لأنهم رؤوس الناس ومَرجعياتهم ، وإذا فَسَدَ الرأسُ انتهى الجَسَدُ . وهؤلاء العلماء كالحِمَار يَحْمِل أسفارًا ، يَحفظون الكتبَ ، ويَملكون ناصيةَ اللغة، وفَصْلَ الخِطَاب، ويُتقنون الخَطَابةَ ، ويمتازون بالبلاغة والفصاحة وحُسْن البيان ، ومع هذا لَم يستفيدوا شيئًا مِن عِلْمهم ، فكان عِلْمُهم حُجَّةً عليهم لا لهم ، لأنَّهم اتَّخذوا العِلْمَ طريقًا لتحقيق مصالح شخصية ومكاسب مادية ، وليس ابتغاءَ وجه اللَّه تعالى . وهؤلاء يَنظرون إلى الدِّين بوصفه مشروعًا تجاريًّا استثماريًّا يُدِرُّ أرباحًا وفيرة،ويَضْمَن ولاءَ الناس وتبعيتهم،ويَحْشِد الجماهيرَ. وهكذا صار علماءُ السُّوء دُعاةً على أبواب النار ، مَن أطاعهم قَذَفُوه فيها .

وكما قال ابنُ المُبَارَك :

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانُها

فباعُوا النُّفوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ في البَيعِ أثمانُها

وقال القاضي الجُرْجانيُّ :

لَوْ أنَّ أهلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

ولكن أهانوه فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٨/ ٣٩١ و٣٩٢) : ((قَوْلُه: (وفي عُنُقي صليب) هو كُلُّ مَا كان على شكل خَطَّيْن مُتقاطعَيْن . وقال في المجمع : هو المربع من الخشب للنصارى يدَّعون أن عيسى عليه السلام صُلِبَ على خَشَبَة على تلك الصُّورة (اطْرَحْ عَنك) أي : أَلْقِ عَن عُنُقِكَ (هذا الوثن) هو كل ما له جُثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة ، كصورة الآدميِّ، والصنم : الصُّورة بلا جُثة . وقِيل : هُمَا سَوَاء ، وقد يُطلَق الوثن على غَير الصورة.

ومنه حديث عَدِيٍّ: قَدِمْتُ عليه ﷺ وفي عُنُقي صليب مِن ذَهَب ، فقال : " أَلْقِ هذا الوَثَنَ عَنْكَ "، قاله في المجمع . (اتَّخذوا أحبارَهم) أي: عُلَماء اليهود (ورُهبانهم) أي: عُبَّاد النصارى (أربابًا مِن دُون اللَّه) حيث اتَّبَعُوهم في تحليل ما حرَّم اللَّهُ ، وتحريم ما أَحَلَّ اللَّهُ.قال أي النبيُّ ﷺ: (أمَا) بالتخفيف حرف التنبيه (إذا أحَلُّوا لهم شيئًا) أي: جَعلوا لهم حَلالًا وهو مِمَّا حرَّمه اللَّهُ تعالى (اسْتَحَلُّوه) أي اعتقدوه حَلالًا (وإذا حرَّموا عليهم شيئًا) أي: وهو مِمَّا أَحَلَّه اللَّهُ (حرَّموه) أي: اعتقدوه حَرَامًا . قال في فتح البيان : في هذه الآية ما يَزجُر مَن كان له قلب أوْ ألقى السَّمْعَ وهو شهيد عن التقليد في دِين اللَّه ، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسُّنَّة المُطهَّرة، فإنَّ طاعة المُتَمَذهِب لِمَنْ يَقْتدي بِقَوْله ويَسْتَن بِسُنَّته مِن عُلماء هذه الأُمَّة معَ مُخالفته لِمَا جاءت به النُّصُوص ، وقامت به حُجَج اللَّه وبراهينه ، هو كاتِّخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرُّهبان أربابًا مِن دُون اللَّه ، للقطع بأنَّهم لَم يَعبدوهم ، بل أطاعوهم وحرَّموا ما حرَّموا ، وحلَّلوا ما حلَّلوا ، وهذا هو صَنِيع المُقَلِّدين مِن هذه الأُمَّة ، وهو أشبه به مَن شبَّه البَيضة بالبَيضة ، والتَّمرة بالتمرة ، والماء بالماء . فيا عِبَادَ اللَّه ، مَا بالُكم تركتم الكتابَ والسُّنَّةَ جانبًا ، وعَمَدْتُم إلى رجال هُم مِثْلُكم في تَعَبُّدِ اللَّهِ لهم بهما ، وطلبه للعمل مِنهم بما دَلَّا عليه وأفاداه ، فعملتم بما جاؤوا به مِن الآراء التي لَم تُعَمَّدْ بِعِمَاد الحَق ، ولَم تُعَضَّدْ بِعَضُد الدِّين ، ونُصُوصُ الكِتَابِ والسُّنَّةِ تُنَادي بأبلغ نداء ، وتُصوِّت بأعلى صَوت بما يُخالف ذلك ويُبَاينه ، فأعرتموها آذانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا ، وأذهانًا كَلِيلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا مِن غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ . انتهى .

وقال الرازي في تفسيره : قال شَيْخُنا ومَولانا خاتمة المُحقِّقين والمُجتهدين رضي اللَّهُ عنه : قد شاهدتُ جماعةً مِن مُقلِّدة الفقهاء،قرأتُ عليهم آياتٍ كثيرة مِن كتاب اللَّه تعالى في بعض المسائل فكانت مذاهبهم بِخِلاف تلك الآيات، فَلَم يَقْبَلُوا تلك الآيات، ولَم يَلتفتوا إليها، وبَقُوا ينظرون إليَّ كالمُتعجِّب، يعني : كيف يُمكن العمل بظواهر هذه الآيات معَ أنَّ الرِّواية عَن سَلَفنا وَرَدَتْ إلى خِلافها ، وَلَوْ تأمَّلْتَ حَقَّ التأمُّل ، وَجَدْتَ هذا الداءَ ساريًا في عُروق الأكثرين من أهل الدُّنيا)) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ . فإن رفضوا تَوحيدَ اللَّه ، وأعرَضوا عن هذه الدَّعوة العادلة المستقيمة المُنصِفة ، فأشهِدُوهم أنكم مُوحِّدون مُسلمون ، ثابتون على الإسلام (الدِّينِ السَّمَاوِيِّ الوحيد)، ومُتمسِّكون به ، ومُقِرُّون للَّه بالوَحدانية والأُلوهية والرُّبوبية ، ومُخلِصون له الدِّين والعبادة والطاعة ، ومُنقادون لشريعة اللَّه وأحكامه وأوامره ونَوَاهيه . وقد قامت عليهم

الحُجَّة ، ولَزِمَتْهُم البَيِّنة ، وانقطعَ عُذْرُهم . والآيةُ تَدفع الجِدَالَ والمُحَاجَجَة ، وتُثبِت أن النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه على الطريق المستقيم ، ودِينهم هو اليقين الكامل الذي لا يَقْبَل الشَّك .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ١٠٥): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرَضوا عمَّا دُعُوا إليه ، ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، أي : مُتَّصفون بدين الإسلام ، مُنقادون لأحكامه ، مُعترفون بما للَّه علينا في ذلك من المِنَن والإنعام ، غير مُتَّخذين أحدًا ربًّا ، لا عيسى ولا عُزَير ولا الملائكة ، لأنهم بَشَرٌ مِثْلُنا ، مُحْدَثٌ كَحُدوثنا ، ولا نَقْبَل مِنَ الرُّهبان شيئًا بتحريمهم عَلَينا ما لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ علينا ، فنكون قد اتَّخذناهم أربابًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٠ و٤٠١ و٤٠٢): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنهم اليهود ، قاله قَتادة وابن جُرَيج والربيع بن أنس . والثاني وفد نَجْران الذين حَاجُّوا في عيسى ، قاله السُّدي ومُقاتل. والثالث أهل الكتابَيْن جميعًا ، قاله الحسن. وقال ابن عباس: نزلت في القِسِّيسين والرُّهبان ، فبعثَ بها النبيُّ ﷺ إلى جعفر وأصحابه بالحَبَشَة ، فقرأها جعفر والنَّجاشي جالس وأشراف الحبشة ، فأمَّا الكلمة فقال المُفسِّرون : هي " لا إله إلا اللَّه " . فإن قِيل : فهذه كلمات ، فَلِمَ قال : ﴿ كَلِمَةٍ ﴾ ؟ ، فعنه جوابان : أحدهما أن الكلمة تُعبِّر عن ألفاظ وكلمات. قال اللغويون: ومعنى" كلمة "كلام فيه شرح قصة وإنْ طال ... . والثاني أنَّ المُرَاد بالكَلِمَة كَلِمَات، فاكتفى بالكلمة مِن كلمات.قَوْلُه تعالى:﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ قال الزَّجاج : يعني بالسَّوَاء العَدْل ، وهو من استواء الشيء. ويُقَال للعَدْل: سَواء وسُواء وسِواء ... قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن سُجود بعضهم لبعض ، قاله عِكرمة . والثاني لا يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه ، قاله ابن جُرَيج . والثالث أن نَجْعَلَ غَيْرَ اللَّهِ رَبًّا ، كما قالت النصارى في المسيح ، قاله مقاتل والزَّجَّاج)) .

إن القاعدة الأساسية العالمية هي عبادة اللَّه وَحْدَه ، وعدم الإشراك به . ومَن تَفَكَّرَ في هذه القاعدة الذهبية سيجد أنها منطقية ، ومتوافقة مع العقلِ والفِطْرة الإنسانية معًا . والمخلوقاتُ كُلُّها عاجزة مُفتقِرة إلى خالقها الذي أوجدها. إذن، العبادةُ ينبغي أن تَتَوَجَّه إلى اللَّهِ الخالق العظيم الذي صَنَعَ الموجودات ، وليس إلى الموجودات. ولو جئنا إلى الحياة العامة لوجدنا أن مِن غَير المنطقي أن يتساوى الكرسي مع النَّجار الذي صنعه ، أو يتعادل الحديد مع الحدَّاد الذي شكَّله ، أو تتساوى اللوحة مع الفنان الذي رسمها . وهذه الأشياءُ كُلُّها محصورة في عالم المخلوقات الناقصة العاجزة ، فكيف يتساوى المخلوقُ المصنوعُ مع الخالق الصانع ؟ . وكيف يُصبح المخلوقُ إلهًا

وهو لا يَملك من أمره شيئًا ؟! . وكيف يصبح المخلوقُ ربًّا وهو لا يَقْدِر على حماية نَفْسِه من الموت ؟! . وإذا كانت هذه الآلهة لا تَستطيع حمايةَ نَفْسِها ، فكيف ستحمي المؤمنين بها ؟! .

ومن الأمثلة الواضحة في هذا السياق اعتقاد النصارى أن المسيحَ إلهٌ وقد تمَّ صَلْبُه . فإذا كان هذا الإله _ حَسَبَ اعتقاد النصارى _ لَم يَقْدِر على حماية نَفْسِه مِن الصَّلْب والإهانة والمَوت ، فكيف سيحمي المؤمنين به ويدافع عنهم ؟! .

وفي تفسير البَغَوي (١/ ٤٩) : ((قال المُفسِّرون : [قَدِمَ وفدُ نَجْران المدينةَ فالْتَقَوْا معَ اليهود ، فاختصموا في إبراهيم _ عليه السلام _ فزعمت النصارى أنه كان نصرانيًّا ، وهُم على دِينه وأوْلَى الناس به ، وقالت اليهود : بل كان يهوديًّا ، وهُم على دِينه وأوْلَى الناس به ، فقال رسول اللَّه ﷺ: ((كِلا الفريقين بريء من إبراهيمَ ودِينِه ، بل كان إبراهيمُ حنيفًا مُسلمًا ، وأنا على دِينِه ، فاتَّبِعُوا دِينَه دِينَ الإسلام)) ، فقالت اليهود : يا مُحَمَّد ، ما تريد إلا أن نتَّخذك رَبًّا كما اتَّخَذَت النصارى عيسى رَبًّا ، وقالت النصارى : يا مُحَمَّد ، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عُزَيْر ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ _ الآية _])) .

والصراعُ بين اليهود والنصارى قديمٌ جدًّا . وعندما التقى وفد نَجْران (النصارى) مع اليهود تجادلوا بشأن إبراهيم ﷺ ، فهو أبو الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وكُلُّ طرف يحاول تقديم إبراهيم ﷺ مُمَثِّلًا لعقيدته ، وذلك من أجل نَيْل الشرعية الدينية ، والمشروعية الأخلاقية . وقد زعم النصارى أن إبراهيم ﷺ كان نصرانيًّا ، وأنَّه منهم ، وهُم سائرون على عقيدته ، ويَحملون ميراثه النَّبَوِيَّ ، وهم أحق الناس به لأنه يَدِين بالنَّصرانية _ حَسَب اعتقادهم _ . وزعمَ اليهودُ _ كرَدَّة فِعْل _ أن إبراهيم ﷺ كان يهوديًّا ، وهُم تابعون له ، وهُم أوْلَى الناس به .

وهذه المزاعم العريضة لا أساس لها من الصحة ، وهي مُضحكة ومُبكية في آنٍ معًا . إذْ إنَّ إبراهيم ﷺ وُجد قبل موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ . وقد أُنزِلت التوراةُ والإنجيل بعد إبراهيم ﷺ ، فكيف يَدِين إبراهيم باليهودية أو النصرانية ؟! . المَنطق يقول إنَّ اللاحق تابعٌ للسابق ، والخَلَفُ تَابعٌ للسَّلَفِ ، ولَيْسَ السَّلَفُ تابعًا للخَلَفِ . وقد رَدَّ عليهم النبيُّ ﷺ ، وبيَّن لهم أن إبراهيمَ ﷺ كان حنيفًا مُسْلِمًا يَدين بالتَّوحيد ، ويَعبد اللَّه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد . وكُلُّ الأنبياء مُسْلِمُون ، لأن الدِّين عند اللَّه الإسلام ، فالدِّينُ السماويُّ واحدٌ لا يَتَعَدَّد ، أمَّا الشرائع فهي مختلفة باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . ومَن أرادَ السَّيْرَ على مِنهاج إبراهيم ﷺ فَلْيَتَّبع الإسلامَ دِينَ جميع الأنبياء ، والدِّينَ السَّمَاوِيَّ الوحيد .

وبما أن اليهود والنصارى يَفتقدون إلى البراهين، ولا يَملكون حُجَّةً . فقد أخذوا يُلْقُون التُّهَمَ بلا دليل . فادَّعت اليهود أنَّ مُحَمَّدًا يُريد أن يتَّخذه اليهودُ رَبًّا، كما اتَّخذت النصارى عيسى رَبًّا . وزَعمَ النصارى (كَرَدَّة فِعل) أنَّ مُحَمَّدًا يُريد أن يتَّخذه النصارى ابنًا للَّه تعالى ، وهذا ما قاله اليهود في عُزَيْر ، فقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّه ﴾[التَّوبة : ٣٠] [١٠] .

---

١٠ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ أَوْ كالذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٩] . هذه القِصَّةُ مِنْ آياتِ اللَّهِ الجليلة ، إذْ تَتَجَلَّى فيها القُدرة الإلهيَّة على الإماتةِ والإحياء. وهذا الرَّجُل (عُزَيْر عليه السلام) الذي مَرَّ على قرية فوجدها ساقطةً سُقوفها وجُدرانها وخالية ليس فيها أحد، استبعدَ إحياءها وهي في حالة الموات تِلْك ، معَ عِلْمِه بأنَّ اللَّهَ تعالى على كُلِّ شَيْءٍ قدير، فأرادَ اللَّهُ أن يُميته ثم يُحْيِيَه لإعطائه موعظة على أرض الواقع مُتَجَسِّدَة في نَفْسِه ، وصار عُزَيْرٌ بحدِّ ذَاتِه آيَةً رَبَّانِيَّة ، وآيَةً قُرآنية خالدة . واليهودُ تَزْعُم أنَّ عُزَيرًا (وهو رَجُل صالح مُختلَف في نُبُوَّته) هو ابن اللَّه تعالى ، وهذا الغُلُوُّ دَيْدَن أهل الكتاب في كُلِّ مراحل وجودهم ، إذْ إنهم يَتطرفون في المسائل العَقائدية ، وهذا مرجعه إلى انحرافِهم عَن الصِّرَاطِ المستقيم ، وتحكيمِهم لأهوائهم وشَهَوَاتهم ، فَهُم يَسيرون في الظلام بلا بَيِّنة، وعلى غَيْر هُدى. كما أنهم يعتمدون على التأويل المنحرف غير المبنيِّ على أُسُس سليمة ، وهذا يُؤَدِّي إلى إخراج النُّصوص الدِّينية عَن سِيَاقها الصحيح ، وبالتالي الوقوع في عقائد باطلة ، ونشر الكُفْر والضَّلال بسبب تغيير مُراد اللَّهِ تعالى.وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي(٤/ ١٧١) أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال : ((أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ سَلَامُ بنُ مِشْكَم، ونُعْمَان بن أَوْفَى، وأبو أنس، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصَّيف، فقالوا : كيف نَتَّبعك وَقَدْ تَرَكْتَ قِبْلَتَنَا وأنتَ لا تَزْعُم أنَّ عُزَيرًا ابنُ اللَّهِ ؟. وإنما قالوا : هو ابنُ اللَّهِ مِن أجْلِ أنَّ عُزَيرًا كان في أهل الكِتاب ، وكانت التَّوراةُ عِندهم يَعْملون بها ما شاء اللَّهُ تعالى أن يَعْملوا ، ثم أضاعوها وعَمِلُوا بِغَير الحقِّ، وكان التابوتُ فِيهِم، فلمَّا رأى اللَّهُ تعالى أنهم قَدْ أضاعوا التَّوراةَ وَعَمِلُوا بالأهواء ، رَفَعَ اللَّهُ عنهم التابوتَ ، وأنساهم التَّوراةَ ، ونَسَخَهَا مِن صُدورهم ، وأرسلَ عليهم مرضًا فاستطلقتْ بُطُونُهم مِنهُم حتى جَعَلَ الرَّجُلُ يمشي كَبِده ، حتى نَسُوا التَّوراةَ ونُسِخَتْ مِن صُدورهم ، وفيهم عُزَير كان مِن عُلمائهم ، فدعا عُزَيرٌ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وابتهلَ إلَيْه أن يَرُدَّ إليه الذي نُسِخَ مِنْ صَدْرِه ، فَبَينما هُوَ يُصَلِّي مُبْتَهِلًا إلى اللَّهِ تعالى ، نَزَلَ نُورٌ مِنَ اللَّهِ فَدَخَلَ جَوْفَه، فعادَ إليه الذي كان ذهب مِن جَوْفِه مِن التوراة، فأذَّنَ في قَومه فقال: يا قَوْم قَدْ آتاني اللَّهُ التَّوراةَ ، رَدَّها إلَيَّ فَعَلِقَ يُعلِّمهم، فمكثوا ما شاء اللَّهُ أن يمكثوا وهو يُعلِّمهم ، ثم إن التابوت نَزَلَ عليهم

بعد ذلك وبعد ذهابه مِنهم ، فلمَّا رَأَوُا التابوتَ عَرضوا مَا كان فيه على الذي كان عُزَير يُعلِّمهم فوجدوه مِثْلَه، فقالوا:واللَّهِ مَا أُوتِيَ عُزَير هذا إلا أنه ابنُ اللَّهِ)) اهـ . إنَّ كُلَّ عقيدة باطلة لها سبب، ولم تجئْ تِلقائيًّا أوْ تهبط من الهواء . ولا دُخَان بدون نار . والنَّصَارى الذين ألَّهوا المسيحَ ﷺ اعتمدوا على التأويل المنحرِف للنُّصوص الدِّينية فوقعوا في المحظور ، وهُنا تَبْرُز خُطورةُ عدم فهم دَلالات اللغة ، فتحويل المجاز إلى واقع أو العكس ، وعدم التمييز بين المعنويِّ والماديِّ وغير ذلك ، سَوْفَ يُؤَدِّي إلى الانحراف العقائدي ، وإضاعة الشريعة بسبب الجهل اللغوي. وكُلُّ دِينٍ مبني على النُّصوص اللغوية . وإذا لم تُفْهَم اللغةُ بالشكل الصحيح فإن الدِّين سَيَضِيع لا محالة. كما أنهم اعتمدوا على مُعجِزات خارقة للعادة جَرَتْ على يد السيد المسيح ﷺ مثل إحياء الموتى بإذن اللَّهِ تعالى وغيرها، فاعتقدوا أن الذي يقوم بهذا العمل هو إلهٌ أو ابنٌ للَّهِ تعالى. وهذا انحراف عقائدي قبيح . فَلَوْ وُجِدَ إلَهَان في الكَوْنِ لاختلَّ النظامُ بسبب اختلاف الإلَهَيْن. ولا توجد دولة يوجد فيها رئيسان ، حتى إن الفاتيكان له بابا واحد لا اثنان . ولكنْ إذا غابت الهِدَايةُ الرَّبَّانِيَّة فإنَّ الإنسان قَدْ يَعتنق أيَّ شيء بلا تمييز . واليهودُ الذين اعتقدوا بِبُنُوَّة عُزَيرٍ _ أي إنه ابن اللَّهِ تعالى _ اعتمدوا على خوارق جَرَتْ على يَدَيْه ، فَلَمْ يقتنعوا بأن هذه الأمور تحصل مع الصالحين ، بل تَطَرَّفوا في هذه القضية ، ونَسَبُوا للَّهِ تعالى الوَلَدَ . وهذا أمرٌ ضِد النقل والعقل . ولَوْ أنَّ كُلَّ إنسان جَرَتْ على يَدَيْه خوارق للعَادَةِ تم اعتباره ابنًا للَّهِ تعالى لكان عددٌ كبير من الخلائق أبناء اللَّهِ تعالى،وهذا لا يقول به عاقل . لذلك ينبغي وضع الأمور في نِصَابها الصحيح وتطهير العقائد من الأهواء المفتقِدة إلى البُرْهان. والجديرُ بالذِّكْر أن اليهود في الوقت الحالي لا يَعتقدون بأن عُزَيرًا ابنُ اللَّهِ تعالى . فهذه العقيدةُ قديمةٌ وقد اختفت فيما بعد ، وكانتْ سائدةً عند اليهود في أيام النبيِّ ﷺ بدليل أن اليهود لم يَتَبَرَّؤُوا مِنها ، أوْ يَرُدُّوا عليها. ولو كانتْ كَذِبًا لقالت اليهودُ إنَّ القُرآن يَفْتري علينا، وهذا لم يَحْصُل. إذَنْ، فالقِصَّةُ ثابتة عندهم ، وهذه عقيدتهم لم يَقدروا على التهرب منها . وفي فتح الباري (٣/ ٣٥٩) : ((قال ابن العربي في شرح التِّرمذي: تَبَرَّأت اليهودُ في هذه الأزمان مِن القَول بأن العُزَير ابنُ اللَّهِ ، وهذا لا يمنع كَوْنه كان موجودًا في زمن النبيِّ ﷺ ، لأن ذلك نزل في زمنه واليهودُ معه بالمدينة وغيرها، فَلَمْ يُنْقَلْ عن أحد منهم أنه رَدَّ ذلك ولا تَعَقَّبَه ، والظاهر أن القائل بذلك طائفة مِنهم لا جميعهم)) اهـ. وروى الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠) وصحَّحه ووافقه الذهبي عن عليٍّ ــرَضِيَ اللَّهُ عنهــ قال :[خَرَجَ عُزَيْرٌ نبيُّ اللَّهِ مِن مدينته وهو رَجل شاب، فَمَرَّ على قرية وهي خاوية على عُروشها، قال : أنَّى يُحْيي هذه اللَّهُ بَعْدَ مَوْتها ، فأماته اللَّهُ مِائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَه،فأوَّلُ مَا خُلِقَ عَيْناه فَجَعَلَ ينظر إلى عِظامه يَنْضَمُّ بعضُها إلى بعض، ثم كُسِيَت لحمًا ، ونُفِخَ فيه الرُّوحُ وهو رَجُلٌ شابٌّ فقِيل له : كَمْ لَبِثْتَ ؟، قال : يَوْمًا أوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قال: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ

وهذه التُّهَمُ العريضة نابعة من الأهواء الشخصية لا المنهج العِلمي . إذْ إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَم يَدْعُ الناسَ إلى عبادته ، أو اتخاذه شريكًا للَّه تعالى . ونصوصُ القُرآن والسُّنة ظاهرة للجميع، وغير سِرِّية ، ويمكن للجميع أن يَطَّلع عليها . ولا يوجد فيها أي نَص يدعو إلى تأليه مُحَمَّد أوْ أي مخلوق آخَر . وكُلُّ الأنبياءِ عِبَادُ اللَّهِ ، ولَيْسُوا آلهةً ولا أربابًا ولا أبناءً للَّهِ تعالى .

والدَّعْوَةُ المُحمَّدية الإسلامية قائمة بالأساس على التَّوحيد، أي: عبادة اللَّه وَحْدَه، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة، ولا ولد. وبدون التوحيد، لا معنى لرسالات الأنبياء كُلِّها . ومَن عَبَدَ مُحَمَّدًا ، أو اتَّخذه إلَهًا ، فهو كافر ، وخالد في النار إنْ ماتَ على ذلك ، وهو مُكذِّب بالقُرآن والسُّنة .

لقد دَعَا النبيُّ مُحَمَّد ﷺ الناسَ جميعًا إلى توحيد اللَّه (عبادته وَحْدَه بلا شريك) ، وأرسلَ الرسائلَ إلى المُلوك والحُكَّام والقادة. ومِنْ تِلْك الرسائل النَّبَوِيَّة الشريفة الخالدة، رسالة النبيِّ ﷺ إلى هِرَقْل . وقد جاء فيها : ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِه ، إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّوم ، سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى . أمَّا بَعْد ، فإنِّي أدعوكَ بِدِعَايةِ الإسلام . أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أجركَ مَرَّتَيْن ، فإنْ تَوَلَّيْتَ ، فَعَلَيْكَ إثمُ الأريسِيِّين . و﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾)) [11] .

هذه الرِّسالةُ النَّبَوِيَّةُ العظيمة تدلُّ على سُلطة النبيِّ ﷺ ، ومكانته الجليلة ، فهو المُتَحَدِّث باسم اللَّه ، وهو عبد اللَّه ورسوله ، يُخَاطِب المُلوكَ والحُكَّامَ والزعماء ، بِكُلِّ إيمان وثِقَة ، وبلا خَوف

عام . فأتى بالمدينة وَقَدْ تَرَكَ جارًا له إسكافًا شابًّا ، فجاء وهو شَيْخ كبير] اهـ . وعُزَيْرٌ غَيْرُ مُتَّفَق على كَوْنِه نَبِيًّا . وهذا الأمْرُ فيه أخْذٌ وَرَدٌّ بَين أهْلِ العِلْمِ . وقال ابنُ حِمْيَر في كِتابه تَنْزيه الأنبياء (ص ١٠٥): ((جاء في الأثر أنه كان في بني إسرائيل مِن بَعْدِ مُوسَى عليه السلام نبيٌّ ، وكان اسمه دانيال ، وإنما سُمي عُزَيْرًا لكثرة تَعزيرِ اليهود له ، وإعظامِهم لِقَدْرِه عليه السلام ، ثم غَلَوْا في تعظيمه حتى عَبَدُوه، وسبب ذلك لأنه أماته اللَّهُ مِئة سَنَة ثم أحياه)) اهـ . للأسف ، إنَّ ظاهرة تقديس الأولياء وعِبادة الصالحين مُنتشرة بكثرة . وكثيرٌ من الناس يَقَعُون في الشِّرْكِ والْمُغَالاةِ ظَنًّا مِنهُم أنَّ هذه هي الوسيلة الصحيحة لتمجيد الصالحين ، والحفاظِ على ذِكْرِهم . والكثيرون لا يَقْدِرُون على تَحَمُّلِ رُؤيةِ الْمُعْجِزَاتِ أو الكَرَامَات، فَتَحْدُث لَدَيهم صَدْمَة تَقُودهم إلى الانحراف العَقَائديِّ، والسُّلوكِ الاجتماعيِّ الْمُخَالِفِ للشريعة .

١١ متفق عليه.البخاري (٣/ ١٠٧٤) برقم (٢٧٨٢)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣) برقم (١٧٧٣).

ولا تَرَدُّد، ويَدْعوهم إلى الإسلام (دِين التَّوحيد) . وَجَّهَ النبيُّ ﷺ التَّحِيَّةَ إلى هِرَقْلَ عظيمِ الرُّوم (المُعَظَّم عِندهم) بِقَوله : " سلامٌ عَلى مَن اتَّبَعَ الهُدى " ، وهي صِيغة للتَّحِيَّة في مُخَاطَبَة الكُفَّار، ودَعَاه بِدِعاية الإسلام، أي : بِدَعْوته التي أمرَ اللَّهُ بها ، وهي كَلِمَة الشَّهَادة ، التي يُدعَى إليها أهل المِلَل الكافرة. والتَّوحيدُ هو أصل الإسلام وأساسه وعُنوانه. والإسلامُ هو الدِّين السماويُّ الوحيد ، ولا يَقْبَل اللَّهُ غَيْرَه . " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في الدُّنيا بالنَّجَاة مِن الحرب والجِزْية ، وفي الآخرة بالنَّجَاة مِن النار . وهذه العِبارة النَّبَوِيَّة : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في نهاية الاختصار ، وغاية الإيجاز ، والبَلاغة ، وجَمْع المعاني. وإذا أسلمَ هِرَقْلُ فلهُ أجْرَان، مَرَّةً على إيمانه بالنبيِّ عيسى ﷺ ، ومَرَّةً على إسلامه ، واللَّهُ يُضَاعِف أجْرَه بعدد أفراد شَعبه الذين سَيَقْتَدُون به في اعتناق الإسلام ، ويَسِيرون على خُطاه. وإنْ أعرضَ هِرَقْلُ عن الإسلام ، ورفضَ الدَّعوةَ النَّبَوِيَّة ، فهو يَتَحَمَّل المسؤولية في الدنيا والآخرة ، وعليه إثم استمرار أتباعه وشعبه ورَعَاياه على الكفر والضلال والباطل ، لأنهم تابعون له ، وخاضعون لأمره ، ومُقتدون به، فهو سيِّدهم وزعيمهم وقائدهم، وقد حالَ بَينهم وبَين الإسلام(دِين اللَّه) . و﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ ، أي : نَسْتَوي فيها جميعًا ، لأنَّها تتَّفق عليها الكُتُبُ السماويةُ الثلاثة : القُرآن والتَّوراة والإنجيل ، ﴿ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : فقد لَزِمَتْكُم الحُجَّةُ ، فَاعْتَرِفُوا بأنَّا مُسْلِمُون دُونَكم ، وأنَّكُم كافرون باللَّه تعالى .

وفي الحديث فوائد عظيمة ومُتعددة ، مِنها :

١ــ مُكَاتَبَة الكُفَّار بالدَّعوة إلى الإسلام ، ومُلاطَفة المَكتوب إليه ، وتقديرُه التقديرَ اللائق المُناسب ، الذي لا يتجاوز حُدودَ الشريعة الإسلامية .

٢ــ الكِتَابيُّ (اليهودي أو النَّصراني) إذا أسلمَ له أجْرَان، أجر الإيمان بِنَبِيِّه مُوسى أوْ عيسى عليهما الصلاة والسلام، وأجر إيمانه بِمُحَمَّد ﷺ نبيِّ الإسلام .

٣ــ صِدق النبيِّ مُحَمَّد ﷺ كان معلومًا لأهل الكتاب عِلْمًا قطعيًّا ، وإنَّما تَرَكَ الإيمانَ به مَن تَرَكَه منهم عِنَادًا أوْ حَسَدًا ، أوْ خَوْفًا على مصالحهم ومناصبهم في الدُّنيا ، ونَحْو ذلك .

٤ــ مَن كان رئيسًا مَتبوعًا مَسموعًا يَكون عليه إثم الكُفر ، وإثم مَن عَمِلَه واتَّبَعَه ، وكذا مَن كان سببًا لِضَلالة أوْ مَنْع هِدَاية .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧ــ ١١٠) ــ معَ بعض التصرُّف ــ : ((في هذا الكِتَاب (يعني رسالة النبيِّ ﷺ إلى هِرَقْل) جُمَل من القواعد وأنواع من الفوائد مِنها :

١ــ دُعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم ، وهذا الدعاء واجب ، والقتال قَبْله حرام ، إنْ لَم تكن بَلَغَتهم دَعوة الإسلام، وإنْ كانت بَلَغَتهم ، فالدُّعاء مُسْتَحَب ، هذا مذهبنا . وفيه خِلاف للسَّلَف . ٢ــ وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا فَلَم يكن في بَعْثه معَ دِحْية فائدة، وهذا إجماع مَن يُعْتَد بِه . ٣ــ استحباب تصدير الكتاب ببسم اللَّه الرحمن الرحيم ، وإنْ كان المبعوث إليه كافرًا . ٤ــ يجوز أن يُسافر إلى أرض العدو بالآية والآيَتَيْن ونَحْوهما، وأن يَبْعث بذلك إلى الكفار ، وإنَّما نهى عن المُسَافَرَة بالقرآن إلى أرض العدو أي بِكُلِّه ، أوْ بِجُملة مِنه ، وذلك أيضًا محمول على ما إذا خِيف وقوعه في أيدي الكفار. ٥ــ يجوز للمُحْدِث والكافر مَسُّ آية أو آيات يسيرة مع غَير القرآن. ٦ــ إنَّ السُّنَّة في المُكَاتَبَة والرسائل بين الناس أن يبدأ الكاتب بِنَفْسِه، فيقول: مِن زَيد إلى عمرو . ٧ــ التَّوَقِّي في المُكَاتَبَة ، واستعمال الوَرَع فيها فلا يَفْرُط ولا يُفَرِّط. ولهذا قال النبيُّ ﷺ : " إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّوم " ، فَلَم يَقُلْ : مَلِك الرُّوم ، لأنَّه لا مُلْك له ولا لِغَيره إلا بحُكْم دِين الإسلام ، ولا سُلطان لأحد إلا لِمَن وَلَّاه رسول اللَّه ﷺ ، أوْ وَلَّاه مَن أَذِنَ له رسول اللَّه ﷺ بشرط. ولَم يَقُل : إلى هِرَقْل فقط ، بل أتى بنوع مِن المُلاطَفَة ، فقال : عظيم الروم . أي الذي يُعظِّمونه ويُقَدِّمونه . وقد أمرَ اللَّهُ تعالى بإلانة القَول لِمَن يُدعَى إلى الإسلام . ٨ ــ استحباب البلاغة والإيجاز ، وتَحَرِّي الألفاظ الجَزْلة في المُكَاتَبَة ، فإنَّ قَوله ﷺ : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في نهاية من الاختصار ، وغاية من الإيجاز والبلاغة وجَمْع المعاني ، معَ ما فيه من بديع التجنيس ، وشُموله لسلامته مِن خِزْي الدنيا بالحرب والسَّبْي والقتل وأخذ الديار والأموال ، ومن عذاب الآخرة ... . ٩ــ إنَّ مَن أدركَ مِن أهل الكتاب نَبِيَّنَا ﷺ ، فآمنَ به فله أجران كما صَرَّحَ به هُنا . ١٠ــ البيان الواضح أنَّ مَن كان سببًا لضلالة أو سبب منع مِن هداية كان آثمًا،لِقَولهﷺ:"وإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثمَ الأريسِيِّين"(رواية مسلم). ١١ــاستحباب " أمَّا بَعْد" في الخُطَب والمُكَاتَبَات. قَوْلُه ﷺ: " وإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثمَ الأريسِيِّين " . واخْتَلُفوا في المُرَاد بهم على أقوال ، أصَحُّها وأشهرها أنهم الأكَّارون ، أي : الفلاحون والزَّراعون . ومعناه : أن عليك إثم رعاياك الذين يتَّبعونك ، وينقادون بانقيادك. ونبَّه بهؤلاء على جميع الرعايا، لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا، فإذا أسلمَ أسْلَمُوا ، وإذا امتنعَ امْتَنَعُوا . وهذا القَول هو الصحيح . قال أبو عُبَيد : ليس المراد بالفلاحين الزَّراعين خاصَّة ، بل المُراد بهم جميع أهل مَملكته . الثاني أنهم اليهود والنصارى وهُم أتباع عبد اللَّه ابن أريس الذي تُنسَب إليه الأروسية من النصارى ، ولهم مقالة في كُتب المقالات ويقال لهم الأروسيون.الثالث أنهم الملوك الذين يَقُودون الناس إلى المذاهب الفاسدة،ويأمرونهم بها.قَوْلُه ﷺ:

" أدعوك بِدِعَاية الإسلام"،وهو بكسر الدال. أي : بِدَعوته ، وهي كلمة التوحيد . قَوله ﷺ: " سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى". هذا دليل لِمَن يقول : لا يُبْتَدَأ الكافر بالسلام. وفي المسألة خِلاف، فمذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يَبتدئ كافرًا بالسلام، وأجازه كثيرون مِن السَّلَف . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة في النَّهْي عن ذلك . وجوَّزه آخرون لاستئلاف، أو لحاجة إليه ، أو نَحْو ذلك)) .

هذه الرسالةُ النَّبَوِيَّةُ الشريفة تَعْكِس حِرْصَ النبيِّ ﷺ على تبليغ الدعوة الإسلامية كاملةً غَير منقوصة لكل الناس،على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ومكانتهم الاجتماعية. كما تُشير إلى حُسن الأسلوب في الدَّعوة ، حيث اللين والرِّفق ، بلا تطرُّف ولا خشونة في التعامل . وتُشير الرسالةُ أيضًا إلى حِرص النبيِّ ﷺ على دَعوة عِلْية القَوم وزعماء الناس،إذْ إنَّ إسلامهم يعني إسلامَ أقوامهم وأتباعهم، ودخولهم جميعًا في دِين اللَّه ورحمته ورِضوانه.والنبيُّ ﷺ لَمْ يَسْعَ لمُخاطبة الحُكَّام والقادة والملوك من أجل مصلحة شخصية، أو وجاهة اجتماعية،أو إبراز نَفْسه في عالم الرِّياء والشُّهرة والمجتمعات المُخملية الراقية ، لأنه ﷺ كان ينظر إلى نعيم الآخرة الباقي ، ولا ينخدع بِحُطام الدنيا الفاني .

والنصارى غرقوا في عقائد التَّثليث الباطلة ، ورفضوا شريعة المسيح القائمة على تَوحيد اللَّه ، وعبادته وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد . وسببُ كفرهم وضلالهم هو الإنجيل البشري المُحرَّف ، الذي تَغَلْغَلَتْ فيه العقائدُ الوثنيةُ والانحرافاتُ الدِّينية والفكرية والأخلاقية .

قال حاجي خليفة في كشف الظُّنون (١/ ١٧٥) : ((الإنجيل : كتاب أنزله اللَّهُ سُبحانَه وتعالى ، على عيسى بن مريم عليهما السلام . وذكر في (المواهب) : أنه أُنزِلَ باللغة السُّرْيانية ، وقُرِئ على سَبْع عَشْرَة لُغَة. وفي (البُخاري) في قصة وَرَقَة بن نَوْفَل مَا يَدُلُّ على أنه كان بالعِبرانية. وعن وَهْب بن مُنَبِّه : أُنزِل الإنجيل على عيسى عليه السلام لثلاث عَشْرَة ليلة من رمضان ، على ما في (الكشَّاف). وقِيل : لثمان عَشْرَة ليلة خَلَتْ مِنه ، بعد الزَّبُور بألف عام ومائتي عام . واخْتُلِف في أنَّه هل نَسَخَ حُكْمَ التوراة ؟ . فقِيل : إن عيسى عليه السلام لَم يكن صاحب شريعة لمَّا جاء لتبديل شرع موسى عليه السلام بل لتكميله . لكن في (أنوار التنزيل) ما يدل على أن شَرْعه ناسخ لشرع موسى عليه السلام ، لأنَّه أتى بما لَم يأته موسى عليه السلام . وأول الإنجيل: (باسم الأب والابن ... إلخ) . والذي بأيديهم : إنما هو سيرة المسيح ، جمعها أربعة ، وهُم : مَتَّى ، ومَرْقُس ، ولُوقَا ، ويُوحَنَّا . قال صاحب (تُحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) : وهؤلاء الذين أفسدوا دِينَ عيسى عليه السلام ، وزادوا ونقصوا ، ولَيسوا مِن الحواريين الذين أثنى اللَّهُ

تعالى عليهم في القرآن . أمَّا مَتَّى : فما أدركَ عيسى ولا رآه قَط ، إلا في العام الذي رفعه اللَّهُ تعالى إليه . وبعد أن رُفِعَ، كَتب مَتَّى الإنجيلَ بِخَطِّه في مدينة الإسكندرية ، وأخبر فيه بمولد عيسى عليه السلام وسيرته، وغَيْرُه لَمْ يَذكُرْ مَا ذَكَرَه. وأمَّا مَرْقُس فما رأى عيسى عليه السلام قَط ، وكان تَنَصُّرُه بَعْدَ الرَّفْع ، وتَنَصَّرَ على يد بترو الحواري ، وأخذ عنه الإنجيل بمدينة رومة ، وخالف أصحابه الثلاثة في مسائل جَمَّة . وأمَّا لُوقَا فلم يُدرِك عيسى عليه السلام ، ولا رآه البَتَّة ، وإنما تَنَصَّرَ بَعْدَه على يد بُولُس ، مُعرَّب : باولوس الإسرائيلي ، وهو أيضًا لَم يُدرك عيسى عليه السلام ، بل تَنَصَّرَ على يد أنانيا ... . وأمَّا يُوحَنَّا [١٢] ، فهو ابن خالة عيسى عليه السلام ، وزعم النصارى أن عيسى عليه السلام حَضَرَ عُرْسَ يُوحَنَّا ، وأراه تَحَوُّلَ الماء خمرًا ، وهو أول مُعجزة ظهرت له ، فلمَّا رآه، تَرَكَ زَوْجَتَه وتَبِعَ عِيسى عليه السلام في دِينِه وسِياحته ، وهو الرابع مِمَّن كتب الإنجيل ، لكنه كَتبه بالقلم اليوناني في مدينة أفَسُوس . وهؤلاء الأربعة الذين جعلوا الإنجيل أربعة وحرَّفوها وبدَّلوها وكذبوا فيها . وأمَّا الذي جاء به عيسى عليه السلام إلا إنجيل واحد ، لا تدافُع فيه ، ولا اختلاف ، وهؤلاء كذبوا على اللَّه سُبحانَه وتعالى، وعلى نَبِيِّه عيسى عليه السلام ، وما هو معلوم ، والنصارى على إنكاره . فأمَّا كذبهم : فمنه ما قال مَرْقُس في الفصل الأول من إنجيله : أن في كتاب إشَعْيا النبيِّ عن اللَّه تعالى يقول : إنِّي بَعَثْتُ مَلِكي أمام وجهك ، يريد وجه عيسى عليه السلام . وهذا الكلام لا يوجد في كتاب إشَعْيا ، وإنما هو في كتب ملخيا النبيِّ . ومنه ما حكى مَتَّى في الفصل الأول ، بل الثالث عشر من إنجيله : أن عيسى عليه السلام قال : يكون جسدي في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال بعد مَوْتي ، كما لبث يُونُس في بطن الحوت ، وهو من صريح الكذب ، لأنه وافق أصحابه الثلاثة : أن عيسى عليه السلام مات في الساعة السادسة من يوم الجُمُعة ، ودُفِن في أول ساعة من ليلة السبت ، وقام من بين الموتى في صبيحة يوم الأحد ، فَبَقِيَ في بطن الأرض يومًا واحدًا ولَيْلَتَيْن . ولا شك في كذب هؤلاء الذين كتبوا الأناجيل في هذه المسألة ، لأن عيسى عليه السلام لَم يُخبِر عن نَفْسه، ولا أخبرَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى عنه في إنجيله

---

١٢ كان الرأي المعتمد في العصور الماضية ، هو اعتبار يُوحَنَّا (صاحب إنجيل يُوحَنَّا) ابن خالة عيسى عليه السلام.وهذا الإنجيلُ المزوَّر نَسَبَتْهُ الكنيسةُ إلى يُوحَنَّا بن زَبَدي. وبحسَب التقليد النصراني(المسيحي) فإنه كاتب إنجيل يُوحَنَّا ، لذلك يُلقَّب بالإنجيلي ، وكاتب الرسائل الثلاث التي تُنسَب إليه ، وأخيرًا كاتب سِفْر الرُّؤيا .

بأنَّه يُقْتَل ويُدفَن ، بل هو كما أخبر اللَّهُ سُبحانَه وتعالى في كتابه العزيز أنهم : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنهُ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيهِ ﴾ . فلعنة اللَّه على الكاذبين . ولذلك اختلف النصارى بعده وتفرَّقوا فِرَقًا ، وعقائدُهم كُلُّها كَذِبٌ وكُفْرٌ وحماقة عظيمة . وفي أناجيلهم مِنْ تَبْكيتهم : ما هو مذكور في (تُحفة الأريب) . وأيضًا القواعد التي لا يرغب عنها منهم إلا القليل ، وعليها إجماع جَمْعهم الغفير ، وهي التغطيس ، والإيمان بالتثليث ، واعتقاد التحام أُقنوم الابن في بطن مَرْيم ، والإيمان بالفطيرة ، والإقرار بجميع الذُّنُوب للقِسِّيس ، وهي خَمْس قواعد بُنِيَت النصرانية عليها ، كلها كذب وفساد وجهل ، عَصَمَنَا اللَّهُ تعالى عنها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنجِيلُ إلا مِن بَعْدِهِ أفَلا تَعْقِلُون ﴾ [آل عِمْران : ٦٥] .

في هذه الآيةِ إفحامٌ لأهل الكِتابِ (اليهود والنصارى) الذين زَعَمُوا أنَّ إبراهيم ﷺ كان على دِينِهم . فاليهودُ قالوا إنَّ إبراهيم كان يَهُودِيًّا ، والنَّصَارى قالوا إنَّه كان نَصْرَانِيًّا. وقَدْ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَدَحَضَ بَاطِلَهُم . فالتَّوْرَاةُ والإنجيلُ أُنْزِلا بعد إبراهيم ﷺ بِمُدَّةٍ طويلة جِدًّا ، فَكَيْفَ يَكُون على دِينِهم وَقَدْ ظَهَرَ قَبْلَهم بِقُرُون ؟ . وهذه الحُجَّةُ القُرْآنِيَّةُ الباهرة تَفْضَح جَهْلَ أهلِ الكتاب ، وتُبْرِز أنَّ كلامهم نابع مِن الأهواء المُتعارِضة ، ويَفتقِد إلى المَنْهَجِ العِلْمِيِّ المُتَوَازِنِ والحُجَجِ السليمة ، وكُلُّ كَلامٍ لا دليل عليه هو كلامٌ ساقط لا تَقُوم له قائمة ، فَالحُجَّةُ لا تَقُوم بالصُّرَاخِ أو الخُطَبِ الرَّنَّانَة ، وإنَّما تَقُوم بالبراهين والأدلة الساطعة المُتوافِقة معَ النَّقْلِ والعَقْلِ . وهذه الآيةُ هِيَ أبْرَزُ حُجَّةٍ على اليهود والنصارى، وتَشتمل على مَبدأ الاستدلال بالتاريخ ، فَهُناك فَرْقٌ زمني واضح بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . إنَّ إبراهيم ومُوسَى بَينهما أَلْف سَنَة ، وبَين مُوسى وعِيسى ألف وسَبْعِمائة سنة . وقال الطَّبَري في تفسيره (٣/ ٣٠٢) : ((وكانَ حِجَاجُهم فيه : ادِّعاء كُلِّ فريق مِن أهل هَذَيْن الكِتَابَيْن أنَّه كانَ مِنهُم ، وأنَّه كان يَدِين دِينَ أهْلِ نِحْلَتِه ، فعابهم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بادِّعائهم ذلك ، ودَلَّ على مُناقَضتهم ودَعْوَاهم ، فقال : وكيف تَدَّعُون أنَّه كانَ على مِلَّتِكُم ودِينِكُم ، ودِينُكم إمَّا يهودية أو نَصْرانية ، واليهوديُّ مِنكُم يَزْعُم أنَّ دِينَه إقامةُ التَّوراة والعمل بما فيها ، والنَّصْرَانيُّ مِنكُم يَزْعُم أنَّ دِينَه إقامة الإنجيل ومَا فيه ، وهَذان كِتابان لَمْ يَنْزِلا إلا بعد حِين مِن مَهْلِكِ إبراهيم ووفاته ؟ ، فكيف يكون مِنكم ؟ ، وما وجه اختصامكم فيه وادِّعاؤكم أنَّه مِنكُم ، والأمْرُ فيه على مَا قَدْ عَلِمْتُم ؟)) .

وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٢/ ٢٣٥) : ((أخرجَ ابنُ إسحق وابن جرير والبَيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : اجتمعتْ نَصَارى نَجْرَان وأحبارُ يَهُود عِند رسول اللَّهِ ﷺ ، فَتَنَازَعُوا عِندَه ، فقالت الأحبار: مَا كان إبراهيمُ إلا يهوديًّا ، وقالت النَّصَارى : مَا كانَ إبراهيمُ إلا نَصْرَانِيًّا. فأنزلَ اللَّهُ فيهم : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنجِيلُ إلا مِن بَعْدِهِ ﴾ إلى قَوْلِه : ﴿ واللَّهُ وَلِيُّ المُؤمِنين ﴾)) .

إنَّ القُرْآنَ الكريم يُخَاطِب العقلَ الإنسانيَّ بِما يَعْلَم ، فَلَمْ يَجِئ الخِطَابُ القُرْآنيُّ بعيدًا عَن الواقعِ أو الموضوع ، وَلَمْ يَجِئْ مُخَاطِبًا الإنسانَ بما هو فَوق قُدرته . فالحُجَّةُ القُرْآنية واضحة ، لا يُوجَد فِيها تَزْوِيق فلسفي هُلامي ، ولا هُروب مِن الموضوع. وأهلُ الكِتَابِ الذين يَزْعُمُون انتماءَ إبراهيم ﷺ إلَيْهِم تَمَّ بَيان باطلهم بأسلوب واضح يُدركه العقلُ البشري . إنَّ إبراهيمَ ﷺ ظَهَرَ قبل اليَهُود والنَّصَارى ، فَلا يُمْكِن أن يكون يهوديًّا أو نَصْرَانِيًّا ، فَقَدْ كانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُشركين . وهَذا الخِطَابُ القُرْآنيُّ الذي دَحَضَ شُبُهَاتِ الخُصُومِ يدلُّ على إعجاز القُرْآنِ لَفْظًا وَمَعْنًى ، ويدلُّ على عَظَمَةِ اللَّهِ مُنَزِّلِ القُرْآنِ الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَب .

وفي هذا السِّياق ينبغي الانتباه إلى أزمنة ظُهور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فَهُمْ لَمْ يَظهروا في فَترة واحدة ، بَلْ كان يَتْبَع بَعْضُهم بعضًا ، لكنَّهم جميعًا سائرون وَفْقَ مَنْهَجٍ واحد ، وهو الدَّعْوَة إلى عِبادة اللَّهِ وَحْدَه لا شريك له ، دِينُهم وَاحِدٌ وهو الإسلام ، وشَرَائِعُهُم مُختلفة .

وقال السُّيوطي في الدُّر المَنثور (٢/ ٧٤٩) : ((أخرجَ ابنُ أبي حاتم عن قَتَادَة قال : كانَ بين آدم ونُوح ألْفُ سَنَة ، وبَين نُوح وإبراهيم ألف سنة ، وبَين إبراهيم ومُوسَى ألف سنة ، وبَين مُوسَى وعِيسى أربعمِائة سنة ، وبَين عِيسى ومُحَمَّدٍ سِتِّمِائة سنة)) .

إنَّ الأنبياءَ_عليهم الصلاة والسلام_قادةُ البشرية . ومَا وُجُودُهم إلا دليل باهر على رحمة اللَّهِ بعباده ، فاللَّهُ أرْسَلَ أنبياءه لِيُخرجوا الناسَ مِن الظُّلُمَاتِ إلى النُّور، وتُقَام الحُجَّةُ على الناس ، وعِندئذ لا يُصبح لأيِّ إنسانٍ عُذْرٌ في الكُفْرِ أوْ رَفْضِ الدَّعْوَةِ . واللَّهُ قادرٌ على وَضْعِ الخلائق في الجَنَّةِ أو النار مُبَاشَرَةً بِدُون إرسال أنبياء ، ولا أحَد يَمْلِك الاعتراضَ على القَرَارِ الإلهيِّ ، ولكنَّ الرَّحمة الإلهيَّة وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، واللَّهُ أرْحَمُ بالعِبَادِ مِنْ أُمَّهَاتِهم ، وَلَمْ يَخْلُقْهُم لِيُعَذِّبَهم . أمَّا مَن اختارَ طريقَ الكُفْرِ والعَذابِ فَعَلَيْه أنْ يَتَحَمَّلَ مَسؤوليةَ اختيارِه ، وَقَدْ سَاعَدَه اللَّهُ عَلى سُلوك طريق الحَقِّ، وأرشده إلى الصِّرَاطِ المُستقيم، لَكِنَّه أبَى أنْ يَسْلُكَه ، فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه. وإذا أَدْخَلَ اللَّهُ العَبْدَ الجَنَّةَ فَبِفَضْلِ اللَّهِ وَلَهُ المِنَّة . وإذا أدْخَلَ اللَّهُ العَبْدَ النارَ فَبِعَدْلِ اللَّهِ وَلَهُ الحُجَّة .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُون ﴾[آل عِمْران : ٧٠].
هذا تَوبيخٌ مِنَ اللَّهِ لليهودِ والنَّصَارى على كُفْرِهم بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وجُحُودِهم نُبُوَّتَه،وَهُمْ يَجِدُونه في كُتُبِهم معَ شهادتهم أنَّ مَا في كُتُبِهم حَق،وأنَّه مِنْ عِند اللَّهِ،وإظهارٌ لِسُوءِ نِيَّتِهِم وخُبْثِهم وكُفْرِهم المُسْتَنِد إلى العِلْمِ لا الجَهْلِ.يَكْفُرون بآياتِ اللَّهِ عِنَادًا وحِقْدًا عَلى المؤمنين وَحَسَدًا لهم مع عِلْمهم بأنها حَق وصِدْق. يَجِدُون وَصْفَ مُحَمَّدٍ ﷺ في التَّوراةِ والإنجيلِ ، وَمَعَ هذا ، يَكْفُرُون بِه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٥٢٩) : ((المُرادُ بآياتِ اللَّهِ مَا في كُتُبِهم مِنْ دَلائلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَأنتُمْ تَشْهَدُون ﴾ مَا في كُتُبِكُم مِنْ ذلك ، أوْ تَشْهَدُون بِمِثْلِهَا مِنْ آياتِ الأنبياءِ الذين تُقِرُّون بِنُبُوَّتِهِم ، أو المُراد كَتْم كُلِّ الآياتِ عِنَادًا ، وأنتُم تَعْلَمُون أنَّها حَق)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُون ﴾[آل عِمْران: ٧٠].
هذا تَوبيخٌ مِنَ اللَّهِ لليهودِ والنَّصَارى على كُفْرِهم بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وجُحُودِهم نُبُوَّتَه،وَهُمْ يَجِدُونه في كُتُبِهم معَ شهادتهم أنَّ مَا في كُتُبِهم حَق،وأنَّه مِنْ عِند اللَّهِ،وإظهارٌ لِسُوءِ نِيَّتِهِم وخُبْثِهم وكُفْرِهم المُسْتَنِد إلى العِلْمِ لا الجَهْلِ.يَكْفُرون بآياتِ اللَّهِ عِنَادًا وحِقْدًا عَلى المؤمنين وَحَسَدًا لهم مع عِلْمهم بأنها حَق وصِدْق. يَجِدُون وَصْفَ مُحَمَّدٍ ﷺ في التَّوراةِ والإنجيلِ ، وَمَعَ هذا ، يَكْفُرُون بِه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٥٢٩) : ((المُرادُ بآياتِ اللَّهِ مَا في كُتُبِهم مِنْ دَلائلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَأنتُمْ تَشْهَدُون ﴾ مَا في كُتُبِكُم مِنْ ذلك ، أوْ تَشْهَدُون بِمِثْلِهَا مِنْ آياتِ الأنبياءِ الذين تُقِرُّون بِنُبُوَّتِهِم ، أو المُراد كَتْم كُلِّ الآياتِ عِنَادًا ، وأنتُم تَعْلَمُون أنَّها حَق)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وأنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ [آل عِمْران : ٧١] .

يا أيُّها اليَهُودُ والنَّصَارى لِمَ تَخْلِطُون الحَقَّ بالباطلِ بالتَّحريفِ والتَّزويرِ. تَخْلِطُون الإيمانَ بِمُوسَى وعِيسى بالكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ _ عليهم الصلاة والسلام _ . وَمَنْ كفَرَ بِنَبِيٍّ فَقَدْ كَفَرَ بجميع الأنبياء ، وَكَفَرَ باللَّهِ الذي أرْسَلَهُم ، وتَكْتُمُون مَا في كُتُبِكُم مِنْ وَصْفِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأنتُم تَعْلَمُون أنَّه حَق .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١ / ٤٠٥) : ((وفي الحَقِّ والباطلِ أربعة أقوال: أحدها أنَّ الحَقَّ إقرارُهم ببعض أمْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، والباطل كِتمانُهم بَعْضِ أمْرِه . والثاني : الحَقُّ إيمانُهم بالنَّبِيِّ ﷺ غُدْوَةً ، والباطل كُفْرُهم بِه عَشِيَّةً ، رُوِيَا عن ابن عباس . والثالث : الحَقُّ التَّوراة ، والباطلُ مَا كَتَبُوه فِيها بأيديهم ، قاله الحسن وابن زَيد.والرابع: الحَقُّ الإسلامُ ، والباطلُ اليَهُودِيَّة والنَّصْرَانِيَّة ، قاله قَتَادَة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالت طائفةٌ مِن أهلِ الكتابِ آمِنُوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمَنوا وَجْهَ النهارِ واكْفُروا آخِرَهُ لعلهم يَرْجِعُون ﴾ [آل عِمْران : ٧٢] [١٣] .

هذه خُدعة ومَكِيدة من بعضِ أهل الكتاب . فهذه الطائفةُ تأمرُ بتصديق النبيِّ مُحَمَّد ﷺ باللسان (ظاهرًا) والكُفرِ بِه بالقلب (باطنًا) . إنهم يَأمرون أتْبَاعَهم بإظهار الإيمان بِمُحَمَّد ﷺ والصلاة معه في بداية النهار ، والكفرِ بِه في آخِر النهار ، كي يُشكِّكوا الضُّعفاء بالإسلام ، ويقول الناسُ : هؤلاء أهلُ كِتاب ، ولَدَيْهم عِلْم ، وقد تَرَكوا الإسلامَ وفارَقوا المسلمين بسبب اطِّلاعهم على عُيوب الإسلام وضلالِ المسلمين .

وهذه الخُطَّةُ الجَهَنَّمِيَّة تَهْدِف إلى تشكيك المسلمين بدِينهم ، لِكَوْنهم يعتقدون أن أهل الكتاب لَدَيْهم عُلوم دِينية ، فإذا كفروا بعد إيمانهم ، فإنَّ الشُّكوك والوساوس سَوْفَ تنتشر .

واللَّهُ قد ثَبَّتَ قلوبَ المؤمنين ، وحَمَاهم من الشَّك والرِّيبة . وهذه الحِيلة تدل على خُبث اليهود ، ومَكْرهم ، وحِقْدهم ، وحَسَدهم ، وقُدرتهم على التخطيط وحِياكة المؤامرات .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ١١٠): ((ومعنى الآية أن اليهود قال بعضُهم لبعض : أَظْهِرُوا الإيمانَ بِمُحَمَّد في أوَّل النهار ، ثُمَّ اكفروا به آخِرَه ، فإنكم إذا فعلتُم ذلك ، ظَهَرَ لِمَنْ يَتَّبعه ارتياب في دِينه ، فيرجعون عَن دِينه إلى دِينكم ، ويقولون : إنَّ أهل الكتاب أعْلَم بِه مِنَّا)) .

و ﴿ وَجْهَ النهارِ ﴾ هو أحسنُ النهار ، وأوَّل ما يُواجِه الناظرَ ويراه . لذلك سُمِّيَ وَجْهًا . والمراد بِ﴿طائفةٌ ﴾كَعْب بن الأشرف(أحد زعماء اليهود)،ومالك بن الصَّيف(أحد أحبار اليهود).

---

١٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٥) : ((في سبب نزولها قَوْلان: أحدهما أن طائفة من اليهود قالوا : إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمِنوا ، وإذا كان آخره فَصَلُّوا صلاتكم ، لعلهم يقولون : هؤلاء أهل الكتاب وهم أعْلم مِنَّا فينقلبون عن دِينهم، رواه عطية عن ابن عباس. وقال الحسن والسُّدي : تواطأ اثنا عَشَر حَبْرًا من اليهود ، فقال بعضُهم لبعض: ادخلوا في دِين محمد باللسان أول النهار واكفروا آخره ، وقولوا : إنَّا نَظَرْنا في كُتبنا وشاوَرْنا علماءنا ، فَوَجَدْنَا محمدًا ليس بذلك ، فَيَشُكُّ أصحابُه في دِينهم،ويقولون: هُم أهل الكتاب وهم أعلم مِنَّا فيرجعون إلى دِينكم، فَنَزلت هذه الآية . وإلى هذا المعنى ذهب الجمهور . والثاني أن اللَّه تعالى صَرَفَ نَبِيَّه إلى الكعبة عند صلاة الظُّهْر ، فقال قَوْم مِن علماء اليهود: ﴿ آمِنُوا بالذي أُنزِلَ على الذينَ آمَنوا وَجْهَ النهارِ ﴾ يقولون: آمِنوا بالقِبْلة التي صَلُّوا إليها الصُّبْح،واكفروا بالتي صَلُّوا إليها آخر النهار، لعلهم يرجعون إلى قِبْلتكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس)).

إنَّ هذه الحِيلة اليهودية كانت سِرًّا بينهم ، وقد فَضَحَها اللَّهُ تعالى ، وفَضَحَهم ، وهذا إخبارٌ بأمرٍ غَيبيٍّ ، مِمَّا يدل على صِدْق القُرآن ، وأنَّه مِن عِندِ اللَّه الذي يَعْلَم الأمور الخَفِيَّةَ التي لا يَطَّلع عليها الناس. واللَّهُ تعالى حين كَشَفَ هذه الحِيلةَ بَطَلَ أثَرُها ، وانتهى تأثيرُها ، ولَمْ تُؤَثِّر على المسلمين بأي شكل ، وقد انقلبَ السِّحْرُ على الساحر . وهذه الحِيلة _ لَوْ لَم تَظْهَرْ _ لكانَ من المُمكن أن تُؤَثِّر على أصحاب الإيمان الضعيف ، وتُحدِث بَلْبلةً في صفوف الجَماعة المُسْلِمة ، ولكنَّ اللَّه أظْهَرَها ، وأبطلَ مَفعولها ، وأراحَ المسلمين من التفكير فيها ، والانشغالِ بها . وبِمُجَرَّد ظُهورها انتهى وُجودُها. وإظهارُ هذه الحِيلة، وفَضْحُ اليهود، وكَشْفُ مَكْرِهم ، وإبطالُ خُطتهم الخبيثة ، كُلُّ هذه الأشياء تُشكِّل رادعًا لهم ، وتَمنعهم من التخطيط لِمِثْل هذه الحِيَل والمؤامرات مُسْتَقْبَلًا ، لأنهم أدْرَكوا أنَّ اللَّه لهم بالمِرْصاد، وسَيَفْضحهم على رؤوس الأشهاد ، وسيجدون أنفسهم في مَوْقِف شديد الإحراج ، ولَن يَعودوا إلا بالخِزْيِ والعار والفضيحة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِن أهلِ الكتابِ مَن إن تأمَنهُ بِقِنطارٍ يُؤَدِّهِ إلَيكَ ومِنهم مَن إن تأمَنهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إلَيكَ إلا ما دُمتَ عَلَيْهِ قائمًا ذلك بأنهم قالوا لَيْسَ عَلَيْنا في الأُمِّيينَ سَبيلٌ ويقولونَ على اللَّهِ الكَذِبَ وهُم يَعْلَمون ﴾ [آل عِمران : ٧٥] .

وَمِنَ اليهودِ مَن إذا ائتَمَنْتَهُ على المال الكثير (القِنطار) يُرجعه إليك كاملًا غير منقوص بِكُلِّ أمَانَة وَنَزَاهَة ، مِثْل : عبد اللَّه بن سَلَام . وقد مَدَحَه اللَّهُ تعالى ، وأشادَ بأمَانته ، وخَلَّدَ ذِكْرَها إلى يَوم القِيامة . ومِنهُم إذا ائْتَمَنْتَهُ على مالٍ قليل (دِينار) جَحَدَه وَخَانَكَ، مِثْل: فِنْحاص بن عازوراء. وَلَمْ يُرْجِعْه إلَيك، إلا إذا بَقِيتَ مُلازِمًا له ، ومُلْتَصِقًا بِه ، وَمُشْهِدًا عَلَيْه ، وتُهَدِّده بالتقاضي .

وقال القُرطبي في تفسيره(٤/١١٤): ((لَيْسَ في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم، خِلافًا لمن ذَهَبَ إلى ذلك ، لأنَّ فُسَّاق المسلمين يُوجَد فيهم مَن يُؤَدِّي الأمَانَةَ،ويُؤْمَن على المال الكثير، ولا يَكُونون بذلك عُدُولًا ، فطريقُ العَدَالة والشَّهَادَة لَيْسَ يُجْزِئ فيه أداء الأمَانَة في المال مِن جِهَة المُعامَلة والوَدِيعة)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٩٧) : ((يُخْبِر تَعَالى عن اليهود بأنَّ مِنهُم الخَوَنَة ، ويُحَذِّر المُؤمنين مِن الاغترار بهم، فَإنَّ مِنهُم ﴿ مَن إن تأمَنهُ بِقِنطارٍ ﴾ أي مِن المال ﴿ يُؤَدِّهِ إلَيكَ ﴾ أي وما دُونَه بطريق الأَوْلَى أن يُؤَدِّيَه إلَيه ﴿ ومِنهم مَن إن تأمَنهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إلَيكَ إلا ما دُمتَ عَلَيْهِ قائمًا ﴾ أي بالمُطَالَبَة والمُلازَمَة والإلحاح في استخلاص حَقِّك ، وإذا كان هذا صَنِيعُه في الدِّينار ، فَمَا فَوْقَه أَوْلَى أن لا يُؤَدِّيَه إلَيه)) .

مِنْ أهلِ الكِتاب مَن يُؤَدِّي الأَمَانَةَ وَلَوْ كَثُرَتْ ، ومِنهُم لا يُؤَدِّيها وَلَوْ قَلَّتْ . ومَعلومٌ أنَّ الناسَ كُلَّهُم فِيهم الأمين والخائن . وما تخصيصُ أهل الكِتَاب بالذِّكْر إلا لأنَّهُم يَخُونون المُسْلِمِين اسْتِحلالًا لذلك ، أي يَعتقدون أنَّهُم لَيْسَ عليهم إثم ولا حَرَج في خِيانة المُسْلِمِين ، والاستيلاءِ على أموالهم ومُمتلكاتهم .

إنَّ اللَّهَ حَاكِمٌ عادل لا يَظْلِم الناسَ ، وهو سُبحانَه يُنصِف أحبابَه وأعداءَه ، ويُعامِل عِبَادَه بالعَدْل ، سَوَاءٌ كانوا مُسْلِمِين أَمْ كافرين . والقُرآنُ يُوَضِّح أنَّ أهل الكِتَاب لَيْسُوا سَوَاءً ، ولا يُمْكِن وَضْعُهُم في إطار واحد ، فهناك المُخلِص مِنهم، وهناك الخائن . وهذا يُشير إلى عَدْلِ اللَّهِ الذي يَذْكُر الناسَ بما لَهُم وما عَلَيْهِم دُون تَمييز بين مُسْلِم وكافر. وجميعُ الناس ــ مَهْمَا كانت أديانهم ــ هُم عِبَاد اللَّه ، واللَّهُ خَلَقَهُم وهو أعْلَم بعقائدهم مِنهُم ، وَيَعْلَم المُؤمِنَ والكافرَ قبل أن يُولَدَا .

مِنَ اليهود أهلُ أمَانَةٍ يُؤَدُّونها على أكْمِل وَجْه ، ولا يَرتضون لأنفسهم الخِيانةَ والغَدْرَ ، وهؤلاء مَوجودون في كُلِّ زمان ومكان، لَكِنَّهُم قِلَّةٌ قليلة . والغالبيةُ الساحقة من اليهود هُم خَوَنَة .

والمُشكلةُ أنَّ المُؤمِنين لا يَستطيعون التفريقَ بين الأمين والخائن في أهل الكِتاب ، والحَلُّ هو اجتنابهم جميعًا ، وأخذ الحَيطة في التعامل معهم ، والحَذَر مِنهُم بِشَتَّى الوسائل ، ومَن اضْطُرَّ إلى التعامل مَعَهُم ، فيجب عليه ألا يَفترضَ فِيهم حُسْنَ النِّية ولا البَرَاءة .

وقال البَيضاوي في تفسيره(١/٥٤): ((﴿ وَمِن أهلِ الكتابِ مَن إن تأمَنهُ بِقِنطارٍ يُؤَدِّهِ إلَيكَ ﴾ كعبد اللَّه بن سَلَام، اسْتَوَدَعَه قُرَشِيٌّ ألفًا ومِائتي أُوقِيَّةٍ ذَهَبًا فأدَّاه إليه ﴿ ومِنهم مَن إن تأمَنهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إلَيكَ ﴾ كَفِنْحاص بن عازوراء ، استودعه قُرَشِيٌّ آخَر دِينارًا فَجَحَدَه. وقِيل: المَأمُونون على الكثير النَّصَارى،إذ الغالب فيهم الأمَانة،والخائنون في القليل اليهود،إذا الغالب عليهم الخِيانة... ﴿إلا ما دُمتَ عَلَيْهِ قائمًا ﴾ إلا مُدَّة دَوَامِك قائمًا على رأسه ، مُبَالِغًا في مُطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البَيِّنَة)) .

وَقَد زَعَمَ اليَهُودُ أنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لهم أموالَ العَرَب (الأُمِّيين) ، وأباحَ ظُلْمَهم لأنَّهُم مُشرِكون ، وهذا حَمَلَهُم على الخِيانة . وهذا المَبدأ الباطل اخترعه اليهودُ ، ولا أساس له مِن الصِّحَّة ، وهو كَذِبٌ على اللَّه تعالى، ويَعْلَمُون أنَّه كَذِب . لقد زَعَمُوا أنَّ هذا الأمر ثابت في التَّوراة ، وقد كَذَبُوا، فإن الأمَانَة يجب أداؤها في كُلِّ الشَّرَائع بلا استثناء . وقد تَمَسَّكوا بهذه الفِكرة الضَّالة ، خُضوعًا لأهوائهم ، وتحقيقًا لمصالحهم الشخصية . فالغايةُ عِندَهم تُبرِّر الوسيلةَ ، وغايتهم هي جَمْع المال بأيَّة وسيلةٍ كانت ، حتى لَوْ كَذَبوا على اللَّهِ تعالى ، وحرَّفوا كِتَابَهم الدِّينيَّ (التَّوراة) .

اعتقدَ اليهودُ أنَّ اللَّهَ أباحَ لهم أموالَ العَرَب (الأُمِّيين) باعتبار أنَّ اليهود شعب اللَّه المُختار ، وصَفْوة خَلْقه ، والناس عبيد لليهود وخدم لهم ، وخاضعون لحُكمهم ، خُصوصًا العرب.

﴿ ذلك بأنهم قالوا لَيْسَ عَلَيْنا في الأُمِّيينَ سَبيلٌ ويقولونَ على اللَّهِ الكَذِبَ وهُم يَعْلَمون ﴾ [١٤].

اسْتَحَلَّ اليهودُ أموالَ عَرَبِ الجاهليَّة ، لأنَّهُم وثنيون عُبَّاد أصنام . واسْتَحَلُّوا أموالَ المُسْلِمين لأنَّهُم يَعتبرونهم لَيسوا أهلَ كِتاب ، ويَكذب اليهودُ على اللَّهِ عِندما يقولون إنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لهم أموالَ العَرَب وسرقتهم وخِيانتهم ، وهُم يَعْلَمُون أنَّهُم كاذبون ، ويَعْلَمون أيضًا أنَّ اللَّهَ أنزلَ في التَّوراة الوَفَاءَ وأداءَ الأَمَانَة وعدم الخِيانة .

وقال النَّسَفِي في تفسيره (١/ ١٦١) : ((قَوْلُهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنا في الأُمِّيينَ سَبيلٌ ﴾ أي : لا يَتَطَرَّق عَلَينا إثم وذَم في شأن الأُمِّيين ، يَعْنُون الذين لَيسوا من أهل الكتاب، وما فَعَلْنا بهم مِن حَبْس أموالهم والإضرار بهم ، لأنهم لَيسوا على دِيننا. وكانوا يَسْتَحِلُّون ظُلْمَ مَن خَالَفَهُم، وكانوا يقولون: لَمْ يُجْعَلْ لهم في كِتابنا حُرْمَة.وقِيل:بايعَ اليهودُ رِجَالًا من قُرَيْش ، فلمَّا أسْلَمُوا تَقَاضَوْهُم، فقالوا : لَيس لكم عَلَينا حَق حَيث تركتم دِينَكم ، وادَّعَوْا أنَّهُم وَجَدُوا ذلك في كِتَابهم)) .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٨٠١) : عن أبي هريرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : عن رسول اللَّه ﷺ : ((أنَّه ذَكَرَ رَجُلًا مِن بَنِي إسرائيلَ ، سأل بعضَ بني إسرائيلَ أن يُسْلِفَه ألفَ دينار ، فقال : ائْتِني بالشُّهَداء أُشْهِدُهم ، فقال : كَفَى باللَّهِ شهيدًا ، قال : فَائْتِني بالكفيل ، قال : كَفَى باللَّهِ كَفِيلًا . قال : صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إليه إلى أجلٍ مُسَمًّى ، فَخَرَجَ في البَحْرِ ، فَقَضَى حَاجَتَه ، ثُمَّ الْتَمَسَ

---

١٤ قال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٢/ ٢٤٤) : ((وأخرج عبد بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبَيْر قال : لَمَّا نزلتْ : ﴿ وَمِن أهلِ الكتابِ مَن إن تأمَنهُ بِقِنطارٍ يُؤَدِّهِ إلَيكَ ومِنهم مَن إن تأمَنهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إلَيكَ إلا ما دُمتَ عَلَيْهِ قائمًا ذلك بأنهم قالوا لَيْسَ عَلَيْنا في الأُمِّيينَ سَبيلٌ ﴾. قال النبيُّ ﷺ : " كَذَبَ أعداءُ اللَّهِ ، مَا مِنْ شَيْءٍ كان في الجاهليَّة إلا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هاتَيْن، إلا الأَمَانَة، فإنَّها مُؤَدَّاةٌ إلى البَرِّ والفاجر")) اهـ . وفي تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٧) : ((عن صَعْصَعة ابن يزيد أن رَجُلًا سأل ابن عباس فقال : إنَّا نُصيب في الغَزْو من أموال أهل الذِّمَّة ، الدَّجَاجَةَ والشَّاةَ ، قال ابن عباس : " فتقولون ماذا ؟ "، قال: نقول ليس علينا بذلك بأس، قال: " هذا كما قال أهل الكتاب : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنا في الأُمِّيينَ سَبيلٌ ﴾ ، إنَّهُم إذا أدَّوُا الجزِيةَ ، لم تَحِلَّ لكم أموالُهم ، إلا بِطِيب أنفسهم " ، وكذا رواه الثَّوري عن أبي إسحاق بِنَحْوِه)) .

مَركَبًا يَركَبُهَا يَقْدَمُ عليه للأجَلِ الذي أجَّلَه ، فَلَمْ يَجِدْ مَركَبًا ، فأخذَ خَشَبةً فَنَقَرَهَا ، فأدخلَ فيها ألفَ دِينار ، وصَحيفةً مِنه إلى صاحبه ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَها ، ثُمَّ أتى بها إلى البَحْرِ ، فقال : اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنِّي كُنتُ تَسَلَّفْتُ فُلانًا ألفَ دينار ، فَسَألني كَفِيلًا ، فَقُلْتُ : كَفَى باللَّهِ كفيلًا ، فَرَضِيَ بِكَ، وسألني شهيدًا ، فقلتُ : كَفَى باللَّهِ شهيدًا ، فَرَضِيَ بِكَ ، وإنِّي جَهَدْتُ أن أَجِدَ مَركَبًا أبْعَثُ إلَيه الذي لَهُ فَلَمْ أقْدِرْ ، وإنِّي أسْتَوْدِعُكَها ، فرمى بها في البحر ، حتى وَلَجَتْ فيه ، ثُمَّ انصرفَ ، وهو في ذلك يَلْتَمِس مَركَبًا ، يَخرُج إلى بلده ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الذي أسْلَفَهُ يَنظُر لَعَلَّ مَركَبًا قد جاءَ بِمَالِه ، فإذا بالخَشَبَةِ التي فيها المال ، فأخَذَها لأهله حَطَبًا ، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المالَ والصحيفةَ ، ثُمَّ قَدِمَ الذي كان أسْلَفَه ، فأتى بالألف دينار، فقال : واللَّهِ ما زِلْتُ جاهدًا في طَلَبِ مَركَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ ، فَمَا وَجَدْتُ مَركَبًا قَبْلَ الذي أتَيْتُ فيه ، قال : هل كُنتَ بَعَثْتَ إلَيَّ بِشَيء ؟ ، قال : أُخْبِرُكَ أنِّي لَمْ أَجِدْ مَركَبًا قَبْلَ الذي جِئْتُ فِيه ، قال : فإنَّ اللَّه قد أدَّى عَنْكَ الذي بَعَثْتَ في الخَشَبَة ، فَانصَرِفْ بالألفِ دِينارٍ راشدًا)) .

هذه كَرَامَةٌ ظَهَرَتْ على يد أحد أولياء اللَّه تعالى، وهي تدلُّ على أهميةِ الوفاء،وعَظَمةِ الأمَانَة ، وَوُجُوبِ تأديتها إلى أهْلها في المَوْعِد المُحَدَّد ، كاملةً غَير مَنقوصة . والأمَانَةُ ذات حُضور مركزي في الشَّريعة المُحَمَّدية الإسلامية ، والتفريطُ بِها يُعتَبَر طَعْنًا في الدِّين ، وهَدْمًا للمنظومة الأخلاقية ، وتدميرًا للعلاقات الإنسانية.وَمَن استدانَ وهو يَقصِد ويَعزِم على رَدِّ دَيْنِه،واستعانَ باللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في سِدَادِ دَيْنِه، يَسَّرَ اللَّهُ له مَا يُؤَدِّي مِنْه ، وأرضى دائنَه عنه في الآخِرة إنْ لَم يَستطع الوفاءَ في الدُّنيا.

وفي هذا الحديثِ يَقُصُّ النبيُّ ﷺ قِصَّةً عجيبةً ذات عِبْرَةٍ وعِظَةٍ عَن رَجُلَيْن مِن بَنِي إسرائيل ، وذلك أنَّ أحَدَهم اقترضَ ألفَ دِينار من الثاني ، ولمَّا طَلَبَ مِنه صاحبُ المال شاهِدًا يَشْهَد على ما أخذَه ، قال له : كَفى باللَّهِ شهيدًا . ولمَّا طَلَبَ مِنه كَفيلًا يَتَحَمَّل مسؤوليةَ هذا المال ويَكُون مُلْزَمًا بِرَدِّه إذا لَمْ يَرُدَّه المَدِينُ ، قال : كَفى باللَّهِ كَفيلًا ، فَصَدَّقَه المُقْرِضُ ، وأعطاه المالَ إلى أجل مُسَمًّى وَمَوْعِدٍ مُحَدَّدٍ ، فَخَرَجَ المَدِينُ إلى البَحْر في سَفَر لِيَقْضِيَ بعضَ حَاجَاتِه ، ولمَّا قَضَى حَاجَتَه ، وأرادَ أن يَرجِع لِسِدَادِ الدَّيْنِ الذي حَلَّ أجَلُه ، لَمْ يَجِدْ مَركَبًا يَرجِع بها ويجيء إلى صاحبه، أوْ يَبعَث فيها قَضَاءَ دَيْنِه ، فَوَضَعَ المالَ في خَشَبَة قد حَفَرَ قَلْبَها ، وَوَضَعَ معَ المالِ وَرَقَةً فيها رسالةٌ مَكتوبة إلى صاحبِ الدَّيْن ، ثُمَّ أحكمَ إغلاقَ الخَشَبَة على المال ، ورَمى بها في البحر مُتَوَكِّلًا على اللَّهِ ، ومُسْتَوْدِعًا له إيَّاها ، راجيًا وقاصدًا أن يُوصِلها اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقُدرته إلى صاحب المال ، فَبَثَّ هذا الرَّجُلُ شَكْوَاه وهو صادقٌ في قَوْلِه ، فاستجابَ اللَّهُ له . وخَرَجَ المُقرِضُ إلى

البَحْرِ على الجانب الآخَر ، وانتظرَ الرَّجُلَ الذي عليه الدَّيْنُ ، فَلَمْ يَجِدْه ، وَوَجَدَ الخَشَبَةَ ، فأخذَها لأهله حطبًا يَسْتَدْفِئون به ويَطْهُونَ عليه طَعَامَهُم ، فإذا به وهو يَقْطَعها بالمِنشار يَجِد المالَ الذي أقرضَه للرَّجُل ، وَوَجَدَ فيها الرِّسالةَ المَكتوبة ، ثُمَّ جاءَ المُقْتَرِضُ واعتذرَ للمُقْرِض صاحبِ المالِ أنَّه لَمْ يَأتِ في المَوعِد المُحَدَّد ، وبيَّن له السَّبَبَ ، فسأله صاحبُه : هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إلَيَّ بشيء ؟ ، فقال له : لَمْ أَجِدْ مَركَبًا إلا الآن ، فَطَلَبَ المُقْرِضُ مِن المُقْتَرِض الذَّهَابَ ، وأخبرَه بأنَّ اللَّه قد أدَّى عنه دَيْنَه ، وأنَّ الخَشَبَةَ قد وَقَعَتْ في يَدِه بما فيها مِن الألفِ دِينار ، وَلَمْ يَأخُذْ مِنه قِيمةَ الدَّيْنِ مَرَّةً أُخْرَى . ويدلُّ ذلك على أمَانَةِ الطَّرَفَيْن : الدائِن والمَدِين ، وأنَّ كُلًّا مِنهما قد صَدَقَ اللَّهَ ، وأحسنَ مُرَاعاته بعد أن رَضِيَ به شهيدًا وكَفيلًا . وهذا يُبَيِّن أنَّ اللَّه يُجَازِي أهلَ الإرفاقِ بالمالِ بِحِفْظِه عليهم ، معَ الأجرِ المُدَّخَر لهم في الآخِرة ، كما حَفِظَه على المُسْلِف حِينَ رَدَّه إليه ، وهذان فَضْلان كبيران لأهلِ المُوَاساةِ ، والثِّقَةِ باللَّه تعالى ، والحِرْصِ على أداء الأمَانَة .

وفي الحديث : الحَثُّ على حُسْنِ أداء الدَّيْن ، وبَذْلِ الجُهْدِ في الوفاء به ، وفيه : فضلُ التَّوكُّل على اللَّهِ ، وحُسْنُ جَزَاءِ اللَّهِ للمُتَوَكِّلِين عليه سُبحانَه .

ومِن الأمُور العجيبة أنَّ العَرَبَ تَضْرِبُ المَثَلَ بالوفاء بشخصٍ يَهُودي ، هو السَّمَوْأَل . فيُقال في الأمثال : أوْفَى مِنَ السَّمَوْأَل. وهذا الرَّجُلُ ــ وقد كانَ شاعرًا ــ أوْدَعَه امرؤُ القَيس دُروعًا ، فلمَّا ماتَ، غَزَاه أحدُ المُلوكِ، وخَيَّره بين أن يَقتل ابْنَه أوْ يُسَلِّم له الدُّروع. فَرَفَضَ تسليمَ الدُّروع ، فَقَتَلَ ابنَه وهو يَنظر إليه . وَرَجَعَ المَلِكُ خائبًا . وبعد ذلك ، سَلَّمَ الدُّروعَ إلى وَرَثة امرئ القَيْس .

قال المَيداني في مَجْمَع الأمثال (٢/ ٣٧٤): ((هو السَّمَوْأَل بن حَيَّان بن عَادِياء اليَهُودي. وكان من وفائه أنَّ امْرَأ القَيْس لَمَّا أراد الخُرُوجَ إلى قَيْصَر ، اسْتَوْدَعَ السَّمَوْأَلَ دُرُوعًا وأُحَيْحَةَ ابنَ الجُلَاح أيضًا دُروعًا، فلمَّا مات امرؤُ القَيس ، غَزَاه مَلِكٌ مِن مُلوك الشأم ، فَتَحَرَّز مِنه السَّمَوْأَل ، فَأخَذَ المَلِكُ ابنًا له ، وكان خارجًا مِن الحِصْن ، فصاحَ المَلِكُ بالسَّمَوْأَل ، فأشرفَ عليه ، فَقَالَ : هذا ابنُكَ في يَدَيَّ ، وقد عَلِمْتَ أنَّ امْرَأ القَيس ابنُ عَمِّي ومِن عَشيرتي ، وأنا أحقُّ بِمِيراثه ، فإن دَفَعْتَ إلَيَّ الدُّروعَ ، وإلا ذَبَحْتُ ابْنَك ، فَقَالَ : أجِّلْنِي، فأجَّلَهُ، فَجَمَعَ أهلَ بيته ونِسَاءَه فَشَاوَرَهم، فكُلٌّ أشارَ عليه أن يَدفَع الدُّروعَ ويَستنقِذ ابْنَه ، فلمَّا أصبحَ أشْرَفَ عليه ، وقَالَ : لَيس إلى دَفْعِ الدُّروع سبيل، فَاصْنَعْ مَا أنتَ صانع ، فَذبَحَ المَلِكُ ابنَه وهو مُشْرِف يَنظُر إليه ، ثُمَّ انصرفَ المَلِكُ بالخَيْبَة ، فَوَافَى السَّمَوْألُ بالدُّرُوع المَوْسِمَ ، فَدَفَعَهَا إلى وَرَثَة امرئ القَيس ، وقَالَ في ذلك :

وَفَيْتُ بأدْرُعِ الكِنْدِيِّ إنِّي ... إذا مَا خَانَ أقْوَامٌ وَفَيْتُ

وَقَالَوا : إنَّه كَنْزٌ رَغِيبٌ وَلا وَاللَّهِ أغْدِرُ مَا مَشَيْتُ
بَنَى لِي عَادِيَا حِصْنًا حَصِينًا وَبِئْرًا كُلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ)) .

لقد كَسَرَ السَّمَوْأَلُ القاعدةَ ، وخالَفَ غَدْرَ اليهود الذي ينتمي إليهم دِينًا ، ورفضَ خِيانتهم . وأبى إلا أن يَكون مُخلِصًا لِعُرُوبته [١٥] ، مُتَحَلِّيًا بالأمانة والوفاء. وصارَ مَثَلًا يُحْتَذَى على مَرِّ العُصُور. وصارت العَرَبُ تَضْرِبُ به المَثَلَ بالوَفَاء ، وهذه مَنزلة رفيعة لا يَصِل إليها أيُّ شخص . وقد ذَكَرَه الأعشى بالمدح ، فقال :

كُنْ كالسَّمَوْأَلِ إذْ طَافَ الهُمَامُ بِهِ فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ الليلِ جَرَّارِ
بالأَبْلَقِ الفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ مَنْزِلُهُ حِصْنٌ حَصِينٌ وَجَارٌ غَيْرُ غَدَّارِ

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ يا أهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلى مَا تَعْمَلُون ﴾ [آل عمران : ٩٨] .

قُلْ يا مُحَمَّد : يا مَعْشَرَ اليَهُودِ والنَّصَارى ، لِمَ تَجْحَدُون بالقُرْآنِ المُنَزَّلِ عَلى مُحَمَّد معَ قِيَامِ الدلائل والبراهين على صِدْقِه . وتَخصيصُ أهْلِ الكِتَابِ بالخِطاب دليلٌ على أنَّ كُفْرَهم أقْبَح ، لأنَّ معرفتهم بالآيات أقوى ، وأنَّهُم إنْ زَعَمُوا أنَّهُم مُؤمنون بالتَّوراةِ والإنجيلِ فَهُمْ كافرون بهما . واللَّهُ مُطَّلع على جميع أعمالكم فَيُجَازيكم عليها،لا يَخْفَى عليه شَيْء،ولا يَنفعكم التَّحريف والاسْتِسْرَار.

والاستفهامُ في قَوْلِه تعالى: ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾ للإنكارِ والتَّوْبيخِ. وَصِيغةُ المُبَالَغَةِ في ﴿ شَهِيدٌ ﴾ تُفِيد مَزِيدَ التَّشديدِ والتَّهويلِ. والشَّهِيدُ هُوَ الذي لا يَغِيب عنه شَيْء ، كأنَّه الحاضر الشاهد . وقال الطَّبَري في تفسيره (٣ / ٣٧٠) : ((يا مَعْشَرَ يَهُودِ بني إسرائيل وغَيْرِهم مِنْ سائر مَنْ يَنتحل الدِّيَانة بِما أنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُتُبِه مِمَّنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ،وَجَحَدَ نُبُوَّتَه:لِمَ تَجْحَدُون بآياتِ اللَّهِ ؟ يَقُول : لِمَ تَجْحَدُون حُجَجَ اللَّهِ التي آتاها مُحَمَّدًا في كُتُبِكُم وغَيْرِها التي قَدْ ثَبَتَتْ عَلَيْكُم بِصِدْقِه ونُبُوَّتِه وحُجَّتِه ، وأنتُم تَعْلَمُون ، يَقُول : لِمَ تَجْحَدُون ذلك مِنْ أمْرِه وأنتُم تَعْلَمُون صِدْقَه ؟ ، فأخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُه عَنْهُم أنَّهُم مُتَعَمِّدُون الكُفْرَ باللَّهِ وبرسوله على عِلْمٍ مِنهم ومَعرفة مِنْ كُفْرِهم)) .

---

١٥ قال الباحث رُوكس العُزَيْزي : ((والحقيقة أنَّه كان يَهُوديًّا دِينًا، لكنَّه كانَ عربيًّا دَمًا، فأخوالُه الغَسَاسِنَة.وهذا مَا رواه لي أستاذنا العلامة الأشهر الأب أنستاس ماري الكَرْملي سنة ١٩٤٦ في القُدْس)) [مجلة العربي الكويتية ، العدد ٤٥١ ، يونيو ١٩٩٦م] .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وأنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ [آل عِمْران : ٩٩] [١٦] .

يا مَعْشَرَ اليَهُودِ ، لِمَ تَصْرِفُون عَن دِينِ اللَّهِ (الإسلام) مَنْ آمَنَ، برفضِكم الدَّعوة الإسلامية ، وتكذيبِ النَّبِيِّ ﷺ ، وتَوَدُّون أن يَكُون طريقُ اللَّهِ المستقيمُ مائلًا ، وذلك بالتَّلبيسِ على الناس وخِدَاعِهم ، ومُحاولةِ إقناعهم بوجود عُيوب في الإسلام ، وإخفاءِ وَصْفِ مُحَمَّدٍ ﷺ في التَّوراة ، وأنتُم تَعْلَمُون أنَّ الإسلام حَق ، وأنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ ، وَصْفُه مَذكور في التَّوراة ، وأنتُمْ تَعْلَمُون هذه الحقيقة ثُمَّ تَرفضونها . والصَّدُّ هُوَ المَنْعُ . وَقَدْ كانوا يَبْذُلُون قُصَارى جُهْدِهم لمنع مَنْ أرادَ الدُّخولَ في الإسلام . وهذه الآيةُ تَوْبيخٌ لأهل الكتاب ، إذْ إنَّهُم رَفَضُوا الإسلامَ وهُم يَعْلَمُون أنَّه حَق ، فَكُفْرُهم مُسْتَنِدٌ إلى عِلْمٍ ومَعرفة ، ولَمْ يَكُونوا جُهَلاء . وبالتالي، لا عُذْرٌ لَهُم ولا حُجَّةٌ. ولَمْ يَكْتَفُوا بكُفْرِهم ، بَلْ ــ أيضًا ــ أرادوا منعَ الناس مِن اعتناق الإسلام، وجَعْلَهم كُفَّارًا مِثْلَهم. وهكذا يَتَّضِح أنَّهم كانوا فاسدين ومُفْسِدِين في آنٍ معًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٤): ((هذا تَعْنِيفٌ مِنَ اللَّهِ تعالى للكَفَرَةِ أهْلِ الكِتابِ عَلى عِنَادِهم للحَقِّ، وكُفْرِهم بآياتِ اللَّهِ، وصَدِّهِم عَن سَبيلِ اللَّهِ مَنْ أراده مِنْ أهْلِ الإيمانِ بِجُهْدِهم وطاقتهم، مَعَ عِلْمِهم بأنَّ مَا جاء به الرسول حَق مِنَ اللَّهِ ، بِما عِندهم مِنَ العِلْمِ عَن الأنبياء الأقدمين،والسادةِ المُرْسَلين صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عليهم أجمعين ، وَمَا بَشَّرُوا بِهِ وَنَوَّهُوا بِه مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الهاشميِّ العربِيِّ المَكِّيِّ،سَيِّدِ وَلَدِ آدم، وخَاتَمِ الأنبياء، ورَسُولِ رَبِّ الأرضِ والسَّمَاءِ)).

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِن أهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ الليلِ وَهُم يَسْجُدُون ﴾ [آل عِمران : ١١٣] .

إنَّ هُناك فِئةً مِن أهل الكتاب ، يُؤْمنون باللَّه تعالى ، ولا يُشرِكون بِه ، وهُم سائرون على الصِّراط المستقيم (طريق الأنبياء)، ولا يَنْحَرِفون عنه . وهؤلاء المؤمنون يَقُومون الليلَ ويَتْلُون

---

١٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٩) : ((قال مُقاتِل: دَعَت اليهودُ حُذَيْفة وعمار بن ياسر إلى دِينِهم، فَنَزَلَتْ هذه الآية.وفي المراد بأهل الكتاب هاهُنا قَوْلان: أحدهما أنهم اليهود والنصارى، قاله الحسن، والثاني: اليهود، قاله زَيد بن أسْلَم ومُقاتِل. قال ابن عباس: ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سبيلِ اللَّهِ ﴾ الإسلام والحَج. وقال قَتَادَة : لِمَ تَصُدُّون عَن نَبِيِّ اللَّهِ وعن الإسلام . قال السُّدي : كانوا إذا سُئلوا : هَلْ تجدون مُحَمَّدًا في كُتُبِكُم ؟ ، قالوا : لا. فَصَدُّوا عنه الناس)) .

القُرآنَ في صَلَوَاتهم . وقد أشادَ بِهم القُرآنُ ، وأعطاهم حَقَّهم ، وخَلَّدَ ذِكْرَهم إلى الأبد . وهُنا تَبْرُز منهجيةُ الإنصاف في القُرآن بِلا مُجامَلات أو محسوبيات. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٠) : ((يَتْلُونَ القُرآنَ في تَهَجُّدِهم . عَبَّرَ عَنهُ بالتِّلاوة في ساعات الليل معَ السُّجود ، لِيَكونَ أبْيَنَ وأبلغَ في المدح . وقِيل : المراد صلاة العِشاء ، لأن أهل الكتاب لَيُصَلُّونها)) .

إنَّ أهلَ الكتاب والأمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية لَيسوا سَواء ، فلا يمكن المساواة بينهم ، لأن الإيمان والكُفْر ضِدَّان لا يجتمعان . والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية هي الحاملة للشريعة السماوية المحفوظة ، وإذا ذَهَبَتْ فإن اللَّه تعالى لن يُعبَد في الأرض ، لذلك هي مستمرة وثابتة حتى يوم القيامة رغم حالات الضعف التي تَمُرُّ فيها بين الحِين والآخَر .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (٤/ ٣٩٧) : عن ابن مسعود ـ رضي اللَّهُ عنه ـ قال : أَخَّرَ رسولُ اللَّه ﷺ صلاةَ العِشاء ، ثم خرج إلى المسجد والناس ينتظرون الصلاة ، فقال : ((أمَا إنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلِ الأديانِ أحَدٌ يَذكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُم)) ، ثم نزلت عليه : ﴿ لَيسوا سواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ اللَّه آناءَ الليل وهم يسجدون ﴾ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ٤٤١و٤٤٢) : ((في سبب نزولها قَوْلان : أحدهما أن النبيَّ ﷺ احتبسَ عن صلاة العِشاء لَيْلةً حتى ذهب ثُلُثُ الليل ، ثم جاء فبشَّرهم ، فقال : " إنه لا يُصلِّي هذه الصلاةَ أحَدٌ من أهل الكتاب " ، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود . والثاني أنه لَمَّا أسلمَ ابنُ سَلَام في جماعة من اليهود، قال أحبارُهم: ما آمَنَ بِمُحَمَّدٍ إلا أشرارُنا، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس ومُقاتِل)) .

وعن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال : لَمَّا أسْلَمَ عبد اللَّه بن سَلَام ، وثَعْلَبة بن شُعْبة ، وأسد بن عُبَيد ، ومَن أسلمَ مِن يهود ، فآمَنوا وصَدَّقوا ورَغِبوا في الإسلام ، قالت أحبارُ يهودٍ أهلُ الكُفْرِ : مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ولا تَبِعَه إلا شِرارُنا ، ولَوْ كانوا مِن خِيارنا ما تَرَكوا دِينَ آبائهم ، فأنزلَ اللَّهُ ـعَزَّ وجَلَّـفي ذلك مِن قَوْلِهم:﴿ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب﴾ إلى قَوْله:﴿ مِنَ الصالحين ﴾ [١٧].

أهلُ الكتاب مُتفاوِتون ، ولَيْسوا في إطار واحد، ففيهم المؤمن والكافر، والبَر والفاجر. فَمِن أهل الكتاب مَن هو مُتمسِّك بالشريعة الإلهيَّة ، يُطبِّق التعاليم الدينية ، ولا ينحرف عنها . وهذه الفئةُ تتلو آياتِ اللَّه تعالى ، وتقوم الليلَ ، وتُكثِر التَّهَجُّدَ .

---

١٧ رواه الطَّبَراني في الكبير (٢ / ٨٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٥٠) : ((رجاله ثِقات)) .

و﴿ ليسوا سواءً ﴾ جُملة مُسْتَأنَفَة لتوضيح الصِّفات الطَّيبة لمؤمني أهل الكتاب . ولا شَكَّ أن الإشادة بمؤمني أهل الكتاب ، وذِكْر محاسنهم ، وتخليد فضائلهم ، مِن شأنه تشجيع الآخرين على اعتناق الإسلام الذي يَرْفَع الناسَ ، ويَمنحهم المَجْدَ والشَّرَفَ في الدُّنيا والآخرة .

والتفاوُتُ سُنَّةٌ إلهيَّة ثابتة ، فالناس مُختلفون في قُدراتهم العقلية ، وإمكانياتهم الجِسْمية ، ومُستواهم المَعنوي والمادي . وأهلُ الكتاب يَجري عليهم ما يَجري على الآخرين ، فلا يمكن وضعهم في سَلَّة واحدة. ففيهم المؤمن والكافر، والصالح والفاسد. والقرآنُ الكريم مُنصِفٌ في أحكامه ، فهو يُبرِز مكانةَ أهل الخَير ويُشيد بهم ، ويُخلِّد أفعالهم الطَّيبة ، ويَذكر أهلَ الشَّر ويَذُمُّهم ويَفضح باطلَهم .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٩٧) : ((لَيْسَ فَرِيقًا أهلِ الكتاب أهل الإيمان منهم والكفر سواء ، يعني بذلك : أنهم غير متساوين ، يقول : لَيسوا متعادلين ولكنهم مُتفاوِتون في الصلاح والفساد ، والخير والشر)) .

أمَرَ اللَّهُ العلماءَ بأن يأمروا بالمعروف ، ويَنْهَوْا عن المُنكَر ، وألا يقفوا صامتين مُتفرجين . ويجب عليهم إرشاد الناس إلى الحق ، وتوجيههم إلى الصواب ، وعدم التعامل بسلبية مع الأحداث، وإنما التفاعل معها وإخضاعها للشرعِ الحنيف .

وهُرُوبُ قادة الفِكْر والرَّأي إلى قِلاعِهم البعيدة وأبراجِهم العَاجِيَّة ، سيجعل من المجتمع قاعدةً للجُهَّال، ومُستنقعًا للحَمْقَى ، وتَكَتُّلًا للرَّعَاع الفَوْضَويين ، الذين لا يُدرِكون أبعادَ الأمور ، ولا يَعرفون كيف يتعاملون مع تفاصيل الحياة ، مِمَّا يُنذِر بانهيار المجتمع على جميع الأصعدة .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ها أنتُم أُولاءِ تُحِبُّونهم ولا يُحِبُّونكم وتُؤمنونَ بالكتابِ كُلِّهِ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيكمُ الأناملَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكُم إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ ﴾ [آل عِمران : ١١٩] . الخِطابُ الإلهيُّ للمؤمنين : أنتم أيها المؤمنون خاطئون في مُوالاة الكافرين . إنكم تُحِبُّونهم لإظهارهم الإيمان والصلاح ، أو بسبب القَرَابة والرَّضَاع والمُصَاهَرَة والصَّدَاقة . ويَكرهونكم لاختلاف الدِّين ، وسيطرةِ الحِقْد والحسد على قلوبهم . تُريدون لهم الخيرَ والسعادة، ويُريدون لكم الشر والتعاسة ، ويُعادونكم ظاهرًا وباطنًا . وتُصدِّقون بالكتب السماوية جميعها ، بلا تمييز ولا شك ولا رَيْب ، ومعَ ذلك يَكرهونكم ، ولا يُطيقونكم . وقُلوبهم مُمتلئة بالشَّك والحَيْرة والرَّيْب . فلماذا تُحِبُّونهم وهُم يَكفرون بكتابكم (القُرآن) ويَطعنون فيه ، وَيَشُكُّون فِيه ، ولا يُصدِّقون به ؟! . وهذا توبيخ وتقريع للمؤمنين .

والمعنى : إن الكافرين في ضلالهم وباطلهم أكثر صلابة وأقوى مِنكم في إيمانكم وحقِّكم . والمفروض أن صاحب الحق أقوى وأكثر صلابة وثباتًا وإصرارًا وثقةً بالنَّفْس مِمَّن هو على الباطل.

وإذا لقوكم أظْهَروا أمامكم الإيمانَ والتقوى والصلاح نِفاقًا وَتَقِيَّةً وخِداعًا وتَغريرًا ، وهذا يدل على عداوتهم الشديدة ، وحِقْدهم الدفين ، وخُبثهم العميق .

وإذا خَلَتْ مَجالسُهم مِنكم ، أو اجتمعوا فيما بينهم، عَضُّوا عليكم أطرافَ أصابعهم مِن شِدَّة الحِقْد والكراهية والحسد والغضب ، بسبب تماسك المسلمين وتلاحمهم وقوتهم واجتماع كلمتهم . وهذه هي حال المنافقين في كل زمان ومكان ، إنهم يُظهِرون للمؤمنين المحبة والمودة والخير ، وهُم في باطنهم وقَرارة أنفسهم بِخِلاف ذلك كُلِّيًا . وهذا يُشير إلى شِدَّة الغَيْظ والحسرة والأسف لِمَا يفوتهم مِن تدمير المسلمين وتحطيمهم وجلب الشر لهم .

إن الكافرين في غاية الحسرة ومُنتهى الألم ، لأنهم لَم ينتقموا من المؤمنين ويَقضوا عليهم . والعربُ تَصِف المُغتاظ والنادم بعضِّ الأنامل ، وهي أطراف الأصابع .

قُل يا مُحَمَّد : أدامَ اللَّهُ غَيْظَكم إلى أن تموتوا. أي : ابْقَوْا إلى المَمَاتِ بِغَيْظِكم ، فلن تَرَوْا ما يُسعدكم ويَسُركم . سَوْفَ تَرَوْنَ فَشَلَكم وانهياركم وتَعَاستكم بِأُمِّ أعينكم .

والآيةُ دُعاء عليهم بدوام الغَيظ واستمراره وزيادته بِظُهور الإسلام وانتشاره وارتفاع رايته وكلمته، وزيادة قُوَّة المسلمين ومجدهم وعِزِّهم ، وغرق الكافرين في الذُّل والخِزْي والعار ، حتى يَكون هذا سببًا في هلاكهم ، ودمارهم الشامل ، وانهيارهم الكُلِّي . والمُراد مِنْه : التقريع والإغاظة .

والمَعنى : إنَّهُم لا يُدْرِكُون مَا يُؤَمِّلون ، فإنَّ المَوْت دُون ذلك . إنَّ اللَّهَ بالغُ أمْرِه ، وناشرُ دِينِه في العَالَمِ ، ورافعُ كَلِمته في الآفاق ، فَمُوتوا أنتم بِغَيظكم وحِقدكم وحسدكم ، واذهبوا إلى الجحيم .

إنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِما تُخْفيه صدوركم من العداوة والحسد للمؤمنين ، وما تُخبِّئه ضمائركم من الكراهية للحق ، وهو سُبحانَه عليم بما في القلوب من خير وشر ، وصلاح وفساد . لا تخفى عليه خافية ، ولا يَفوته شيء . وسوفَ يُجازيكم على ذُنوبكم ومعاصيكم ، بالألم والحسرة والفشل في الدنيا ، وبعذاب جهنم الشديد في الآخرة .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ١٧٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ها أنتُم أُولاءِ تُحِبُّونهم ﴾ يعني : المنافقين . دليله قوله تعالى : ﴿ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا ﴾ ، قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هُنا بمعنى المُصَافاة ، أي : أنتم أيها المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لنفاقهم . وقِيل : المعنى:

تُريدون لهم الإسلام ، وَهُمْ يُريدون لكم الكفر. وقِيل : المراد اليهود ، قاله الأكثر . والكتاب اسم جِنس . قال ابن عباس : يعني: بالكتب . واليهود يُؤمنون بالبعض . ﴿ وإذا لَقُوكُم قالوا آمَنَّا ﴾ ، أي : بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وأنه رسول اللَّه ﷺ . ﴿ وإذا خَلَوْا ﴾ فِيما بَينهم ، ﴿ عَضُّوا عَلَيكمُ الأناملَ ﴾ يعني: أطراف الأصابع ﴿ مِنَ الغَيْظِ ﴾ والحَنَق عليكم، فيقول بعضُهم لبعض : ألا تَرَوْنَ إلى هؤلاء ، ظَهروا وكَثُروا . والعَضُّ عِبارة عن شِدَّة الغَيْظ مع عدم القدرة على إنفاذه ... . قَوله تعالى : ﴿ قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكُم إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ ﴾ . إنْ قِيل:كيف لَم يموتوا واللَّهُ تعالى إذا قال لشيء : كُن فيكون ؟. قِيل عنه جوابان : أحدهما _ قال فيه الطبري وكثير من المفسِّرين : هو دعاء عليهم، أي : قُل يا مُحَمَّد : أدامَ اللَّهُ غَيْظَكم إلى أن تموتوا ، فعلى هذا يتَّجه أن يَدعوَ عليهم بهذا مُواجَهةً وغير مُواجَهة بِخِلاف اللعنة . الثاني : أن المعنى أخْبِرْهم أنهم لا يُدرِكون ما يَأملون ، فإن الموت دون ذلك ، فعلى هذا المعنى ، زال معنى الدعاء ، وبَقِيَ معنى التَّقريع والإغاضة)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٧): ((قَوله تعالى : ﴿ ها أنتُم أُولاءِ تُحِبُّونهم ﴾ . قال ابن عباس : كان عامَّة الأنصار يُواصلون اليهود ، ويُواصلونهم ، فلمَّا أسلمَ الأنصارُ بَغَضَهم اليهود ، فنزلت هذه الآية . والخِطاب بهذه الآية للمؤمنين . قال ابن قُتَيْبة : ومعنى الكلام : ها أنتم يا هؤلاء ، فأمَّا ﴿ تُحِبُّونهم ﴾ فالهاء والميم عائدة إلى الذين نُهُوا عن مُصَافاتهم . وفي معنى محبة المؤمنين لهم أربعة أقوال : أحدها أنها الميل إليهم بالطِّباع لِمَوْضِعِ القَرابة والرَّضاع والحِلْف، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس. والثاني أنها بمعنى الرحمة لهم لِمَا يفعلون من المعاصي التي يُقابلها العذاب الشديد ، وهذا المعنى منقول عن قَتادة . والثالث أنها لموضع إظهار المنافقين الإيمان ، رُوِيَ عن أبي العالية . والرابع أنها بمعنى إرادة الإسلام لهم، وهُم يُريدون المسلمين على الكفر، وهذا قول المُفَضَّل والزَّجَّاج ، والكتاب بمعنى الكُتُب ، قاله الزَّجَّاج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ولا نصيرًا ﴾ [النِّسَاء : ١٢٣] .

إنَّ الأجْرَ الإلَهِيَّ يُنَال بالإيمانِ والعملِ الصالح ، ولا يُنَال بالشِّعَاراتِ والأماني . وهذا الأجْرُ الإلَهِيُّ لا يُنَال بِأَمَانِيِّكُم أيُّها المُسْلِمُون ولا أَمَانِيِّ اليَهُودِ والنَّصَارى . والأَمَانِيُّ جَمْعُ أُمْنِيَّة ، وهي مَا يَشْتهيه الإنسان ، ويَتُوق إليه ، ويَطْمَع فيه .

والإيمانُ مَا استقرَّ في القلب ، وصَدَّقَه اللسانُ ، وظَهَرَ على الجوارح . ((وصَحَّ عن الحَسَنِ أنَّه قال : " لَيْسَ الإيمانُ بالتَّمَنِّي ولا بالتَّحَلِّي ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ في القَلْبِ ، وَصَدَّقَهُ العَمَلُ " .

ونَحْوُه عن سُفيان الثَّوري)) [18] . والإيمانُ لَيْسَ بالتَّشَهِّي أوْ بالتَّزَيُّن بالقَوْلِ.والإيمانُ لَيْسَ قَوْلًا باللسانِ فقط، بَلْ هو قَوْلٌ وعَمَل . قَوْلٌ باللسان ، ومعرفة في القلب ، مِمَّا يَنعكِس على أعمالِ الجوارحِ، ويَظْهَر في السُّلوكِ الاجتماعيِّ . وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٨و٢٠٩) عن الآية : ((في سبب نُزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ أهل الأديانِ اخْتَصَمُوا ، فقال أهلُ التَّوْراة : كِتَابُنَا خَيْرُ الكُتُبِ ، وَنَبِيُّنا خَيْرُ الأنبياءِ ، وقال أهلُ الإنجيلِ مِثْلَ ذلك ، وقال المُسْلِمُون : كِتَابُنا نَسَخَ كُلَّ كِتَابٍ ، وَنَبِيُّنا خَاتَمُ الأنبياءِ، فَنَزَلَتْ هذه الآية . ثُمَّ خَيَّرَ بَين الأديانِ بقَوْلِه : ﴿ وَمَن أحسنُ دِينًا مِمَّن أسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ ﴾ [النِّسَاء : ١٢٥] ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وإلى هذا المعنى ذهب مَسروق وأبو صالح وقَتَادة والسُّدي . والثاني أنَّ العرب قالت : لا نُبْعَث ، ولا نُعَذَّب ، ولا نُحَاسَب ، فَنَزلتْ هذه الآية ، هذا قَول مُجاهِد . والثالث أنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى قالوا : لا يَدْخُل الجَنَّةَ غَيْرُنا ، وقالتْ قُرَيْشٌ : لا نُبْعَث ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، هذا قَوْل عِكْرِمَة)) .

والإنسانُ مَجْزِيٌّ بعمله، فَمَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا يَجِدْ خَيْرًا،وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يَجِدْ جَزَاءَ عَمَلِه بلا ظُلْم. والإنسانُ حُر في اختياره ، ومَسؤول عن أعمالِه في الدُّنيا والآخرة .

مَنْ يَفْعَل الشَّرَّ ، ويَرتكب الذَّنْبَ، ويَقترف الإثمَ ، يُعَاقَب عَاجِلًا أوْ آجِلًا ، ولا يَجِد أحدًا يَحْمِيه مِنْ عُقوبةِ اللَّهِ أوْ يَحفظه مِنْ عَذابِه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٧٨٢) : ((قَوْلُه : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ، قِيل : المُراد بالسُّوء الشِّرْك ، وظاهر الآية أعمُّ مِن ذلك ، فَكُلُّ مَن عَمِلَ سُوءًا ، أيَّ سُوء كان ، فهو

---

١٨ حاشية ابن القَيِّم على سُنَنِ أبي داود(١٢/٢٩٤). وانظر تخريج الظِّلال (١/ ٤٠٧). وقال الْمُناوي في فيض القدير(٥/ ٣٥٥): ((وبالمعرفة لا بالعمل ، تتفاوت الرُّتَب ، فإنما تفاضلت الأنبياء بالعِلْمِ باللَّهِ لا بالأعمال،وإلا لكانَ المعروف مِن الأنبياء وأُمَمِهم أفضل مِنْ نَبِيِّنا وأُمَّتِه،وإنما تَقَدَّمَهم بفِضْلِ مَعرفته باللَّهِ وعِلْمِه به وقوة اليقين.قال ابن عطاء:على قَدْر قُرْبِ الأوَّلين والآخِرين مِنَ التَّقْوى أدْرَكوا مِن اليقين ، وَقَدْ كان الْمُصْطَفَى ﷺ في هذا الْمَقَامِ أعلى العَالَمِين. قال الغَزَالي: وفيه إيماء إلى أن أشرف العلوم معرفة اللَّه تعالى، وأنَّه ليس المراد بها الاعتقاد الذي يَتَلَقَّنُه العَامِيُّ رِوايةً وتَلَقُّنًا، ولا تحرير الكلام ، ومُرَاوَغة الأخصام، التي هي غاية المتكلِّم ، بَلْ نَوْع يقين هو ثمر نُور يَقْذِفُه اللَّهُ في قَلْبِ مَنْ طَهَّرَ بالْمُجَاهَدَةِ بَاطِنَه)) اهـ . وقال القُرطُبي في تفسيره(١٥/٣٠٨):((وقال الحَسَن البَصْري:إنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمُ الأمانيُّ حتى خَرَجُوا مِنَ الدُّنيا ومَا لهم حَسَنَة ، ويقول أحدُهم: إنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي ، وكَذَبَ ، وَلَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لأحْسَنَ العَمَلَ)) .

مَجْزِيٌّ بِه مِن غَير فَرْق بين المُسلم والكافر . وفي هذه الجُملة ما تَرجُف له القُلوب مِن الوعيد الشديد . وقد كان لها في صُدور المسلمين عِند نزولها مَوقع عظيم . ... . قَوله : ﴿ ولا يَجِدْ لَهُ ﴾ قرأه الجماعة بالجَزْم عَطْفًا على الجَزَاء ، وروى ابن بَكَّار عن ابن عامر : " ولا يَجِدُ " بالرَّفع استئنافًا ، أي : لَيس لِمَن يَعمل السُّوءَ مِن دُون اللَّه وَلِيًّا يُواليه ، ولا نصيرًا يَنصره)) .

إنَّ المُؤمن والكافر كِلاهما مَجْزِيٌّ بعمله السُّوء _ عَاجِلًا أو آجِلًا _ ، ومُجَازَاةُ الكافر هي النار ، أمَّا مُجازَاةُ المُؤمن فهي مصائب الدُّنيا مِثل الأمراض والشدائد. وَمِنْ فَضْل اللَّه على المُؤمن أن يُعجِّل له العُقوبةَ في الدُّنيا،حتى يأتيَ يوم القيامة طاهرًا مُطَهَّرًا. والمُؤمنُ الذي يأتي بأعمال سَيِّئة يَوْمَ القِيامة ، هو تحت المَشيئة الإلهيَّة ، إنْ شاءَ اللَّهُ عَذَّبَه ، وإنْ شاءَ غَفَرَ له .

وهذه الآيةُ كانت شديدةً على المؤمنين لِمَا فيها من الوعيد العظيم، فقد أدْرَكوا أنهم سَيُجَازَوْنَ بِكُلِّ أمْرٍ ، صغيرًا كانَ أَمْ كبيرًا . وبالتالي ، فالنَّجاةُ صَعبة للغاية ، والهلاكُ يَنتظرهم . وكما قِيل: لَيْسَ العَجَبُ مِمَّن هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ ، بَل العَجَب مِمَّن نَجَا كَيْفَ نَجَا .

وفي صحيح مُسْلِم (٤/ ١٩٩٣) عن أبي هُرَيرة قال: لَمَّا نزلتْ: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ بَلَغَتْ مِن المُسلمين مَبْلَغًا شديدًا،فقال رسول اللَّه ﷺ : ((قَارِبُوا وسَدِّدُوا ، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ المُسْلِمُ كَفَّارَةٌ ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا ، أوْ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا)) .

إنَّ اللَّه رحيم بعباده المؤمنين ، لطيف بهم ، يَرحَمهم في الدُّنيا والآخرة ، ومِن رحمته ولُطفه بالمؤمنين المُذنِبين أنَّه سُبحانَه يُخفِّف عنهم عذابَ الآخِرة ببعض ما يُصيبهم مِن البَلاء في الدُّنيا .

وعِندما نزلت الآيةُ الكريمةُ : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ، بَلَغَتْ مِن المُسلمين أمرًا بَالِغَ الشِّدَّة مِنَ الخَوف من عذاب اللَّه على جزاء عمل السُّوء الذي لا يَخلُو أحد مِن الوُقوع فيه ، فإنَّ الآية تَتَوَعَّد كُلَّ مَن عَمِلَ سُوءًا كبيرًا أوْ صغيرًا بالمُجَازاة عليه ، وفَهِمُوا أنَّ ذلك لا يُغفَر ، وهذا أمر عظيم ، فلمَّا رأى النبيُّ ﷺ خَوْفَهم سكَّنهم ، وأرشدهم ، وبشَّرهم .

قارِبُوا : اقْصِدُوا أقربَ الأمُور فيما تُعبِّدْتُم به ، ولا تَغْلُوا ، ولا تُقَصِّرُوا ، فَخَيْرُ الأمُورِ الوسط ، وسَدِّدُوا : اقْصِدُوا الصَّوَابَ والسَّدَادَ في كُلِّ أمر ، ولا تتعمَّقوا ، فإنَّه لَن يُشَادَّ أحدُكم هذا الدِّينَ إلا غَلَبَه ، بَل اسْتَبْشِرُوا بِلُطْفِ اللَّه تعالى ، فالمُسلمُ إنْ حَدَثت له مُصيبة ، وصَبَرَ عليها ، فإنَّ اللَّه يُكفِّر بِها ذَنْبًا مِن ذُنُوبه. حَتَّى الشَّوكة إذا جَرَحَت المُسْلِمَ ، فَصَبَرَ على أذاها ووجعها احتسابًا للَّه تعالى دُون تَسَخُّط ولا شَكوى لأحد ، فإنَّها تَكون كَفَّارَةً له مِن الذُّنُوب ، واللَّهُ يُكفِّر بها مِن خطايا العبد تَفَضُّلًا وتَكَرُّمًا مِنْهُ على عبده المُسْلِم . وهذا الأمرُ يدلُّ على رحمة اللَّه بعباده ، وفَضْله

عَلَيهم ، وإحسانه إلَيهم . وهذا الحديثُ يُشير إلى فضيلة مِن فَضَائِل الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية ، وفيه تَسلية بالغة وإعلام بأنَّه لا يُصيب العَبْدَ شَيْءٌ إلا كفَّر اللَّهُ عنه مِن خَطَاياه .

ومَن حُوسِبَ في الدُّنيا ، خَفَّ عنه الحِسَابُ في الآخِرة . وكُلَّمَا ازدادت المصائبُ على الإنسان ، وصَبَرَ عليها ابتغاءَ وَجْه اللَّه تعالى ، فإنَّه سيَخرج مِن الدُّنيا نقيًّا نظيفًا طاهرًا مُطَهَّرًا ، لا ذَنْبَ عليه ، ولا إثم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٠) : ((قَوله ﷺ : " قَارِبُوا " ، أي: اقْتَصِدُوا ، فَلا تَغْلُوا ، ولا تُقَصِّرُوا ، بَلْ تَوَسَّطُوا ، " وَسَدِّدُوا " أي : اقْصِدُوا السَّدَادَ ، وهو الصواب. قَوْلُه ﷺ : " حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُها "، وهي مِثل العَثْرَة يَعْثُرُها بِرِجْله ، ورُبَّما جَرَحَتْ إصبعَه، وأصل النَّكْب : الكَب والقَلْب)) .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٩٥) عن رواية أُخْرَى : ((قَوله : " فَسَدِّدُوا " أي : الْزَمُوا السَّدَاد، وهو الصَّواب ، مِن غَير إفراط ، ولا تفريط . قال أهل اللغة : السَّدَاد التَّوَسُّط في العمل. قَوله : " وقَارِبُوا " ، أي إنْ لم تَستطيعوا الأخذَ بالأكمل ، فاعملوا بما يُقَرِّب مِنه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير(٤/٤٦٨): (((قَارِبُوا) أي اقْصِدُوا أقربَ الأمُور فِيما تُعِبِّدْتُم به ولا تَغْلُوا فيه، ولا تُقَصِّرُوا. وقِيل:هو مِن قَوْلهم:قَارَبْتُ الرَّجُلَ لاطَفْتُهُ بكلام حسن لطيف (وسَدِّدُوا) اقْصِدُوا السَّدَادَ في كُلِّ أمر (ففي كُلِّ ما يُصاب به المُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أو الشَّوكَةِ يُشَاكُهَا) قال الغَزَالي : ولذلك سأل زيد بن ثابت رَبَّه أن لا يزال مَحمومًا، فَلَم يَزَلْ مَحمومًا ، ولَم تُفَارِقْه الحُمَّى حتى مات ، وكان في الأنصار مَنْ يَتَمَنَّى العَمَى. وقال عيسى عليه السلام : لا يَكُون عَالِمًا مَن لَم يَفْرَحْ بِدُخُول المصائب والأمراض عَلَيه لِمَا يَرجوه مِن ذلك مِن كَفَّارة خَطَاياه)) .

وعن أبي بَكْر الصِّديق ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: قُلتُ: يا رسول اللَّه ، كَيْفَ الصَّلاحُ بعد هذه الآية: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ؟، فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْناه جُزِينا به.قال: ((غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يا أبا بَكْر، ــقاله ثلاثًاــ ، يا أبا بَكْر ، أَلَسْتَ تَمْرَض ؟ ، أَلَسْتَ تَحْزَن ؟ ، أَلَسْتَ تَنْصَب ؟ ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأواءُ ؟)) ، قُلْتُ : نَعَم ، قال : ((فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِه في الدُّنيا)) [١٩] .

كَيْفَ صَلاحُ الآخِرة والنجاةُ مِن عذابها ، أوْ : كيف صَلاحُ الدُّنيا على وجه يُؤَدِّي إلى نجاة الآخرة، أوْ كيف يتَّصف الإنسانُ بالصَّلاح، بعد نُزول قَوله تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ؟!.

---

١٩ رواه الحاكم في المستدرك (٣ / ٧٨) برقم (٤٤٥٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

مَا مِنْ ذَنْبٍ يَفْعله الإنسانُ إلا ويُحاسبه به اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، والخَشيةُ هُنا مِن أبي بَكْر إنَّما هي مِن عذاب الآخِرة الذي سَيَجتمع على المُسلِم بما كَسَبَ مِن السَّيئات.ولَوْ أنَّ كُلَّ ذَنْبٍ أخَذَنَا اللَّهُ به ، فكيفَ النَّجاةُ مِن عذاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ؟ .

وَقَدْ وَضَّحَ النبيُّ ﷺ تفاصيلَ الموضوع. "أَلَسْتَ تَمْرَض ؟ " فتُصيبك الأوجاعُ والآلام، " أَلَسْتَ تَحْزَن ؟" مِن الحُزْن وهو الذي يُصَاحِب المصائب ، " أَلَسْتَ تَنْصَب ؟ " والنَّصَب هو التَّعَب والمَشَقَّة ، " أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأواءُ ؟ " وهي الشِّدَّة وضِيق المَعيشة . وقال أبو بَكْر إنَّه يُصيبه كُلُّ هذه الأمُور ، " فَهُوَ ما تُجْزَوْنَ بِه في الدُّنيا " ، أي : إنَّ المُسْلِم يُجَازَى بأعماله السَّيئة في الدُّنيا بالمصائب والكوارث ، حتى يَخرُج مِن الدُّنيا طاهرًا مِن الذُّنُوب . والابتلاءُ في الدُّنيا يُكفِّر ذُنُوبَ المُسلِم ، ويَحفَظ له آخِرَتَه .

وقِيل : إنَّها آية عامَّة للمُسلِم والكافر ، فَمَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ به ، سواءٌ كان مُسْلِمًا أَمْ كافرًا . وقِيل:هي عامَّة في حق المُسلمين، فَكُلُّ مَن عَمِلَ مِنهُم سُوءًا يُجْزَ به، إلا أن يَتوب قبل أن يَمُوت. وقِيل: هي في حق الكُفَّار خاصَّة بدليل قَوله تعالى : ﴿ ولا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا ولا نصيرًا ﴾ ، وهذا هو الكافر ، وأمَّا المؤمن فلهُ وَلِيٌّ ونَصِير .

إنَّ المُسلم يُجَازَى بمَعَاصيه وأعماله السَّيئة في الدُّنيا بالمَصائب والكوارث والشدائد ، حتى يَخرُج مِن الدُّنيا طاهرًا مِن الذُّنُوب والآثام . والدُّنيا سِجْنُ الدُّنيا ، وهي مرحلة الامتحانات . والابتلاءُ الإلهيُّ للمُسلم في الدُّنيا، يُكفِّر ذُنُوبَه، ويَمْحُو خطاياه ، ويَحفَظ له آخِرَتَه . ولا يَنال المُسْلِمَ شَيْءٌ يُؤْلِمه ، إلا كَفَّرَ اللَّهُ به عَنه مِن ذُنوبه وآثامه .

وفي هذا الحَديثِ تَسليةٌ بالغة وإعلامٌ بأنَّه لا يَنال العبدَ شيءٌ إلا كفَّر اللَّهُ به عنه مِن خَطَاياه . والحديثُ يدلُّ عَلى حِرْصِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ على فَهْمِ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ ، والالتزامِ بها ، والتعاملِ معها ، وَهُوَ يَعيش النَّصَّ رُوحًا وَمَعْنًى ، مَفْهُومًا ومَنْطُوقًا .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [النِّسَاء : ١٥٣] [٢٠] .

---

٢٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/٢٤٠): ((في سبب نُزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنهم سَألُوه أنْ يُنَزِّلَ كِتَابًا عَلَيْهِم خَاصَّة ، هذا قَوْل الحسن وقَتَادة.والثاني أنَّ اليَهُود والنَّصَارى أتَوْا إلى رسول اللَّه ﷺ فقالوا:

إنَّ أحبارَ اليهود(عُلماءهم) سألوا النبيَّ ﷺ أن يُنَزِّلَ عليهم كِتابًا مِنَ السَّمَاءِ دَفْعَةً واحدة كما جاءَ مُوسَى ﷺ بالتَّوراةِ دَفْعَةً واحدة . وهُمْ لَمْ يَطْلُبوا هذا الأمْرَ بَحْثًا عَن الإيمان ، أوْ للتأكد مِن صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وإنَّما طَلَبُوه عِنَادًا وتَعَنُّتًا وتَضْيِيعًا للوقت .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٣٤٥) بعدما ساقَ أقوال المُفَسِّرين : ((وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقَال : إنَّ أهل التَّوراة سألوا رسولَ اللَّه ﷺ أن يَسْأل رَبَّه أن يُنَزِّل عليهم كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، آيةً مُعْجِزَةً جميعَ الخَلْقِ عَن أن يَأتوا بِمِثْلِهَا ، شاهدة لرسول اللَّه ﷺ بالصِّدْقِ ، آمِرَة لَهُم باتِّبَاعِه)) .

لا تَسْتَعْظِمْ يا مُحَمَّد مَا طَلَبُوه ، فقد سَألوا مُوسَى أكبرَ مِن هذا الطَّلَبِ ، حَيْثُ طَلَبُوا مِنْه أن يُرِيَهُمُ اللَّهَ عِيَانًا ، وهذا دليلٌ واضح على طُغْيانِهم وعِنَادِهم . والسِّيَاقُ القُرْآنيُّ يَحْمِلُ تَخفيفًا عن النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وتَسْليةً له ، فَلا تَنْزَعِجْ يَا مُحَمَّد مِن سُؤالِ اليَهُودِ ، ولا تَتَضَايَقْ ، فهذه عادتهم وعادة آبائهم مِن قَبْلِهم ، وهذا هو أسلوبهم الشَّاذ في التعامل مع الأنبياء . ومعَ أنَّ آباءَهُم هُمُ الذين طَلَبُوا مِنَ النبيِّ مُوسَى ﷺ أن يُرِيَهم اللَّهَ جَهْرَةً ، إلا أنَّ هذا القَوْل أُسْنِدَ إلَيْهِم ، لأنَّهُم سائرون على خُطَى آبائِهم ، وتابعون لهم في كُلِّ صَغيرةٍ وكبيرة ، إذْ إنَّ دِينَهم مَبْنِيٌّ على التَّقليدِ الأعمى للآباء .

وَجَاءَتْهُمُ العُقوبةُ الإلهيَّة ، وهي نارٌ نَزَلَتْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَتْهُم بسبب ظُلْمِهم ، وهو عِنَادُهم وتَعَنُّتُهم ، وطَلَبُهم مَا يَسْتحيل في تِلْك الحالة التي كانوا عليها [٢١] .

لا نُبايعك حتى تأتِيَنا بكتاب مِن عِند اللَّهِ إلى فُلان أنَّكَ رسولُ اللَّهِ ،وإلى فُلان بكتاب أنَّكَ رسولُ اللَّهِ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، هذا قَوْل ابن جُرَيْج . والثالث أنَّ اليَهُود سَألوا النبيَّ ﷺ أن يُنَزِّلَ عَلَيْهِم كِتَابًا مِنَ السَّمَاء مَكتوبًا ،كَمَا نَزَلَت التَّوراةُ عَلى مُوسَى ، هذا قَوْل القُرَظِيِّ والسُّدي)) .

٢١ هذا الأمْرُ لا يدلُّ على امتناع رُؤية اللَّهِ مُطْلَقًا، فَرُؤْيةُ اللَّهِ ثابتةٌ في الآخرة ، ومُستحيلة في الدُّنيا . والعَذابُ الذي أصابَ هؤلاء القَوْم الذين طَلَبُوا رُؤيةَ اللَّهِ تعالى،كان بسبب عِنادهم وتكبُّرهم وتَطَاوُلهم على رسولهم مُوسَى ﷺ، وطَلَبِهم لشيء في غَير مَوْضِعِه. ورُؤيةُ اللَّهِ تعالى طَلَبَها مُوسَى ﷺ فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ولَمَ تَنْزِل عليه صاعقة ولم يَحْدَث له شيء ، وَلَوْ كانت الرُّؤية مُستحيلة لَمَا طَلَبَها أعظمُ أنبياء بني إسرائيل،مُوسَى ﷺ كَليم اللَّهِ ، وهو ــ في زمانه ــ أعْلَمُ أهْلِ الأرضِ باللَّهِ تعالى . وعَن جَرِير بن عبد اللَّه قال: قال النبيُّ ﷺ : ((إنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم عِيَانًا)) [مُتَّفَق عليه .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٣٤٥) : ((﴿ فقدْ سألوا مُوسَى أكبرَ مِن ذلكَ ﴾ ، فإنَّه تَوْبيخٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُه سائلي الكِتاب الذي سَألوا رسولَ اللَّهِ ﷺ أن يُنَزِّلَه عَلَيهم مِنَ السَّمَاءِ في

البُخاري (٦/ ٢٧٠٣) ، ومُسْلِم (١/ ٤٣٩)] . ورُؤيةُ اللَّهِ تعالى في الآخِرة ثابتةٌ نَقْلًا وعَقْلًا ، مِنْ غَيْرِ تَحديد ، ولا تَكييف ، ولا تَحَيُّز ، واللَّهُ مَوجود لا كالْمَوْجُودات ، ومَعْلومٌ لا كالْمَعْلومات ، وَهُوَ مَرْئِيٌّ لا كَالْمَرْئِيَّاتِ . وقال الأشعري في الإبانة (١/ ٤٨) : ((فإنْ قال قائل : قَد استكبرَ اللَّهُ تعالى سُؤالَ السائلين له أن يُرى بالأبصار فقال: ﴿ يَسألُكَ أهلُ الكتابِ أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِم كِتابًا مِنَ السماءِ فقدْ سألوا مُوسَى أكبرَ مِن ذلكَ فقالوا أرِنا اللَّهَ جَهْرةً ﴾ ، فَيُقال لهم : إنَّ بني إسرائيل سَألوا رُؤيةَ اللَّهِ ـعَزَّ وَجَلَّ ـ على طريق الإنكار لِنُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ ، وتَرْكِ الإيمانِ به حتى يَرَوُا اللَّهَ ، لأنهم قالوا : ﴿ لَن نُؤمِنَ لَكَ حتى نرى اللَّهَ جَهْرةً ﴾ [البَقَرَة : ٥٥] . فلمَّا سَألوه الرُّؤيةَ على طريق ترك الإيمان بموسى ﷺ حتى يُرِيَهم اللَّهُ نَفْسَه، اسْتَعْظَمَ اللَّهُ سُؤالَهم مِن غَيْر أن تكون الرُّؤيةُ مُستحيلةً عَلَيهم ، كما استعظمَ سُؤالَ أهلِ الكتاب أن يُنَزِّل عليهم كِتابًا مِن السَّماء ، مِن غَير أن يكون ذلك مُستحيلًا،ولكنْ لأنهم أبَوْا أن يُؤْمِنُوا بنبيِّ اللَّهِ حتى يُنَزِّلَ عليهم من السماء كِتابًا)) اهـ . وفي فتح الباري (١٣/ ٤٢٦): ((قال ابنُ بَطَّال : ذَهَبَ أهلُ السُّنَّةِ وجُمهورُ الأُمَّةِ إلى جَواز رُؤيةِ اللَّهِ في الآخِرة ، وَمَنَعَ الخوارجُ والْمُعتزِلةُ وبعضُ الْمُرْجِئَة، وتمسَّكوا بأنَّ الرُّؤية تُوجِب كَوْنَ الْمَرْئِيِّ مُحْدَثًا ، وحَالًّا (بتشديد اللام) في مكان،وأوَّلوا قَوْلَه:﴿ ناظِرة ﴾[القِيامة : ٢٣] بِمُنْتَظِرَة ، وهو خطأ لأنه لا يتعدَّى بإلى . ... . ثُمَّ قال : وَمَا تمسَّكوا به فاسد ، لقيام الأدلة على أنَّ اللَّهَ تعالى مَوجود ، والرُّؤية في تَعَلُّقِها بالمرئيِّ بمنْزلة العِلْمِ في تَعَلُّقِه بالمعلوم، فإذا كانَ تَعَلُّقُ العِلْمِ بالمعلوم لا يُوجِب حُدوثَه ، فكذلك الْمَرْئِيُّ . قال : وَتَعَلَّقُوا بقَوْلِه تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، وبقَوْلِه تعالى لِمُوسَى : ﴿ لَن تراني ﴾ [الأعراف : ١٤٣] . والجواب عن الأوَّل أنَّه لا تُدركه الأبصار في الدُّنيا جَمْعًا بَين دَلِيلَي الآيَتَيْن ، وبأنَّ نَفْيَ الإدراكِ لا يَستلزم نَفْيَ الرُّؤية لإمكان رُؤية الشيء مِن غَيْر إحاطة بحقيقته . وعن الثاني : الْمُراد لَن تَرَاني في الدُّنيا جَمْعًا أيضًا ، ولأنَّ نَفْيَ الشيء لا يَقْتَضِي إحالته معَ مَا جاء مِن الأحاديث الثابتة على وَفْق الآية ، وقَدْ تَلَقَّاهَا المسلمون بالقَبول مِن لَدُن الصَّحَابة والتابعين ، حتى حَدَثَ مَنْ أنْكَرَ الرُّؤيةَ ، وَخَالَفَ السَّلَفَ. وقال القُرْطُبي : اشترطَ النُّفَاةُ في الرُّؤيةِ شُروطًا عَقلية ،كالبُنية المخصوصة ، والْمُقَابَلَة ، واتِّصَال الأشِعَّة ، وزوال الْمَوَانعِ كالبُعْدِ والحُجُبِ ، في خَبْطٍ لهم وتَحَكُّمٍ. وأهلُ السُّنَّةِ لا يَشترطون شيئًا مِن ذلك سِوى وُجود الْمَرْئِيِّ ، وإنَّ الرُّؤية إدراك يَخْلُقُه اللَّهُ تعالى للرائي ، فَيَرَى الْمَرْئِيَّ ، وتَقترن بها أحوال يَجوز تَبَدُّلها، والعِلْمُ عِند اللَّهِ تعالى)) .

مَسْألتهم إيَّاه ذلك ، وتَقْريعٌ مِنْهُ لَهُم . يَقُول اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ : يَا مُحَمَّد ، لا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكَ مَسْألَتُهُم ذلك، فإنَّهم مِنْ جَهْلِهم باللَّهِ ، وجَرَاءتهم عَلَيْه ، واغترارِهم بِحِلْمِه،لَوْ أَنْزَلْتُ عليهم الكِتابَ الذي سَألوكَ أن تُنَزِّلَه عَلَيهم ، لَخَالَفُوا أمْرَ اللَّهِ ، كما خَالَفُوه بعد إحياءِ اللَّهِ أوائلَهم مِن صَعْقَتِهِم ، فَعَبَدُوا العِجْلَ ، واتَّخَذُوا إلَهًا يَعْبُدونه مِن دُون خَالِقِهِم وبَارِئِهم ، الذي أراهم مِنْ قُدرته وعَظيمِ سُلطانِه مَا أرَاهُم ، لأنَّهُم لَنْ يَعْدُوا أن يَكُونوا كأوائلِهم وأسلافِهم)) .

﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾.

ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ إلَهًا وَعَبَدُوه مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ المُعْجِزَاتُ والحُجَجُ الباهراتُ مِنَ العَصَا واليَدِ وفَلْقِ البَحْرِ وغَيْرِها ، فَعَفَا اللَّهُ عَمَّا ارتكبوه معَ عِظَمِ جريمتهم وخِيانتهم ، رَحمةً بهم ، وتَفَضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إلَيهم ، وآتَى اللَّهُ مُوسَى حُجَّةً ظاهرةً تُظْهِر صِدْقَه وصِحَّةَ نُبُوَّتِه . وتِلْك الحُجَّةُ هي الآيات البَيِّنَات التي آتاه اللَّهُ إيَّاهَا .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٨٠٤) : ((قَوْلُه : ﴿ يَسْأَلُكَ أهْلُ الكِتَابِ ﴾ ، هُمُ اليَهُود ، سَألوه ﷺ أن يَرْقَى إلى السَّماء وَهُمْ يَرَوْنَه ، فَيُنَزِّل عليهم كتابًا مَكتوبًا فِيما يَدَّعِيه ، يدلُّ على صِدْقِه دَفْعَةً واحدة ، كما أتى مُوسَى بالتَّوراةِ ، تَعَنُّتًا مِنهُم، أبْعَدَهُمُ اللَّهُ ، فأخبره اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بأنَّهُم قَدْ سألوا مُوسَى سُؤالًا أكبرَ مِن هذا السُّؤال، فقالوا : ﴿ أرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، أي: عِيَانًا . وجَهْرَة نَعْت لِمَصدر مَحذوف ، أي : رُؤيةً جَهْرَةً . وقَوْلُه : ﴿ فَقَدْ سَألُوا ﴾ جَوَاب شَرْط مُقَدَّر ، أي : إنِ استكبرتَ هذا السُّؤالَ مِنهُم لَكَ ، فقد سألوا مُوسَى أكبرَ مِنْ ذلك . قَوْلُه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ هي النار التي نَزَلَتْ عليهم مِن السَّماءِ فَأَهْلَكَتْهُم ، والباءُ في قَوْلِه : ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ للسَّبَبِيَّة ، أي : بسبب ظُلْمِهم في سُؤالهم الباطل لامتناع الرُّؤية عِيَانًا في هذه الحالة ، وذلك لا يَستلزم امتناعها يوم القيامة ، فقد جاءت بذلك الأحاديث المُتواترة . ومَن استدلَّ بهذه الآية على امتناع الرُّؤية يوم القِيامة فَقَدْ غَلِطَ غَلَطًا بَيِّنًا ، ثُمَّ لَمْ يَكتفوا بهذا السُّؤال الباطل الذي نَشَأ مِنهم بسبب ظُلْمِهم بَعْدَ مَا رَأَوُا المُعْجِزَات ، بَلْ ضَمُّوا إليه مَا هو أقبح مِنْه ، وهو عِبادة العِجْل . وفي الكلامِ حَذْفٌ ، والتَّقْدير : فَأحْيَيْنَاهُم فَاتَّخَذُوا العِجْلَ ، والبَيِّنَات : البراهين والدلائل والمُعْجِزَات مِنَ اليَدِ والعَصَا وفَلْقِ البَحْرِ وَغَيْرِهَا ، ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ ﴾ ، أي : عَمَّا كانَ مِنْهُم مِنَ التَّعَنُّتِ وعِبَادَةِ العِجْلِ ، ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ ، أي : حُجَّة بَيِّنَة ، وهي الآيات التي جاء بها . وسُمِّيَتْ سُلْطَانًا لأنَّ مَنْ جاءَ بِها قَهَرَ خَصْمَه ، وَمِنْ ذلك أمْرُ اللَّهِ سُبحانَه له بأن يَأمرهم بقتل أنفُسِهِم تَوْبَةً عَن مَعصيتهم ، فإنَّه مِن جُملةِ السُّلطانِ الذي قَهَرَهُم به)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإن مِن أهلِ الكتابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيامةِ يَكونُ عَلَيْهِم شَهيدًا ﴾ [النِّساء : ١٥٩] [٢٢] .

لَيْسَ أحَدٌ من اليهود والنصارى إلا ويُؤْمِن بعيسى ﷺ إذا رأى المَلَكَ ، ولكنَّ هذا الإيمان غير مقبول ، لأنه إيمان عند اليأس (حالة الموت) ، أي إنَّه إيمانٌ بعد إغلاق باب التَّوبة . والآيةُ دليلٌ على أنه لا يموت يهودي أو نَصْراني إلا وقد آمَنَ بعيسى ﷺ. ويَوْمَ القِيامة، يَشهد عيسى ﷺ على اليهود والنصارى بأنه بَلَّغهم الرِّسالةَ الإلهيَّة بلا زِيادة ولا نُقصان ، وأقرَّ بالعُبودية على نَفْسِه . ويُمكِن القَوْل : يَشهد عيسى ﷺ على اليهود بأنهم كَذَّبوه ، وعلى النصارى بأنهم دَعَوْهُ ابْنَ اللَّهِ .

وهُناك تفسيرٌ آخَر : إنَّ اليهود والنصارى سَيُؤْمِنُون بِعِيسى ﷺ عِند نُزوله مِنَ السَّمَاءِ في آخِرِ الزَّمَان ، فَتَخْتفي اليَهُوديةُ والنَّصْرانيةُ ، ولا يَبْقَى إلا الإسلام .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ٢٧٨): ((أي: وما مِن أهل الكتاب مِن أحد إلا لَيُؤمِنَنَّ به . فَقَوْلُه : ﴿ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ ﴾ جُملة قَسَمِيَّة وَقَعَتْ صِفَة لأحَدٍ ، ويعود إليه الضمير الثاني ، والأول لعيسى _ عليه الصلاة والسلام _ . والمعنى : ما مِن اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأنَّ عِيسى عبدُ اللَّهِ ورسولُه قبل أن يموت ، وَلَوْ حِينَ أن تَزْهَقَ رُوحُه ، ولا يَنْفَعه إيمانُه . ويُؤَيِّد ذلك أنه قُرئ : ﴿ إلا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ بِضَمِّ النُّون ، لأنَّ أحدًا في معنى الجمع . وهذا كالوعيد لهم والتحريض على مُعالجة الإيمان به قبل أن يَضطروا إليه ، ولم يَنفعهم إيمانهم . وقِيل : الضميران _ لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام _ ، والمعنى أنه إذا نَزَلَ من السماء آمَنَ به أهل المِلَلِ جميعًا)) .

وعن أبي هُرَيرة_رَضِيَ اللَّهُ عنه_قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:((والذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِيُوشِكَنَّ أنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابنُ مَرْيَمَ،حَكَمًا عَدْلًا،فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ،ويَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ . ويَفِيضَ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أحَدٌ ، حتى تَكُونَ السَّجْدَةُ الواحدةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيها)) . ثُمَّ يَقُول أبو هُرَيرة: وَاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُم: ﴿ وإن مِن أهلِ الكتابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيامةِ يَكونُ عَلَيْهِم شَهيدًا ﴾ [٢٣] .

---

٢٢ قال القرطبي في تفسيره (٦/ ١٣): ((رُوِيَ أنَّ الحَجَّاج سألَ شَهْرَ بن حَوْشَب عن هذه الآية، فقال: إني لأُوتَى بالأسير من اليهود والنصارى ، فآمرُ بضَرْب عُنُقِه، وأنظر إليه في ذلك الوقت، فلا أرى مِنه الإيمان.فقال له شَهْر بن حَوْشَب: إنه حِينَ عايَنَ أمْرَ الآخرة، يُقِرُّ بأنَّ عِيسى عبدُ اللَّهِ ورسولُه ، فَيُؤْمِن به، ولا يَنْفَعُه، فقال له الحَجَّاج : مِنْ أيْنَ أخذتَ هذا ؟ ، قال : أخَذْتُه مِن محمد بن الحنفية)) .

٢٣ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٣/ ١٢٧٢) برقم (٣٢٦٤) . ومسلم (١/ ١٣٥) برقم (١٥٥).

في آخِرِ الزَّمَانِ، يَنْزِل النَّبِيُّ عِيسى ﷺ من السماء ، فَيَحْكُم بالشَّريعةِ المُحمَّدية الإسلامية بالعَدْلِ والإنصافِ ، ويَكْسِر الصَّلِيبَ حقيقةً، وهو الخَشَبة التي يُعَظِّمها النَّصَارى ، أي إنَّه يُبْطِل النَّصْرَانِيَّةَ ، ويَقْتُل الخِنْزيرَ ، في إشارة قوية لتحريم أكْلِه ، وأيضًا تَوبيخ النَّصَارى الذين يَزْعُمُون أنَّهُم سائرون في طريق المسيح ﷺ ، ثُمَّ يَسْتَحِلُّون أكْلَ الخِنْزير . وقَتْلُ الخِنْزير يدلُّ على تحريم أكْلِ الخِنْزير وتَحريمِ اقتنائه ، وأنَّه نَجِسٌ ، لأنَّ الشَّيْءَ الذي يُنْتَفَع بِه ، لا يَجُوز إتلافُه . والنبيُّ عِيسى ﷺ لا يَقْبَل الجِزْيةَ مِنَ الكُفَّار ، ولا يَقْبَل إلا الإسلامَ . وفي زَمَنِه ، يُصبحُ الإسلامُ هُوَ الدِّينَ الوحيدَ . وَتَعُمُّ البَرَكَاتُ والخَيْرَاتُ حَتَّى يَفِيضَ المَالُ ، ويَخْتفي الفَقْرُ والظُّلْمُ . وجميعُ الناس في حالة الغِنى ، ولا أحد يَقْبَل المالَ لأنَّه غَيْرُ مُحتاج إليه . وعِندئذٍ ، يُقْبِل الناسُ على الصَّلاةِ وأداءِ العِبادات بِكُلِّ قُوَّةٍ وَنَشَاطٍ ، لأنَّهُم يَعْلَمُون أنَّ يَوْمَ القِيامة اقْتَرَبَ ، وأنَّهُم في سِباق معَ الزَّمَنِ ، وَتَقِلُّ الرَّغبةُ في الدُّنيا، لأنَّ الناسَ لا يَحْتاجون إليها ، ويَزداد التَّعَلُّقُ بالآخِرَةِ والإقبالُ عَلَيْهَا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٩٠) : ((وأمَّا قَوْلُه ﷺ : (وَيَضَعَ الجِزْيَةَ) فالصَّوَابُ في مَعناه أنَّه لا يَقْبَلُها ولا يَقْبَل مِنَ الكُفَّارِ إلا الإسلامَ . ومَنْ بَذَلَ مِنهُم الجِزْيَةَ لَمْ يَكُفَّ عَنْه بها، بَلْ لا يَقْبَل إلا الإسلامَ أو القَتْلَ ، هكذا قاله الإمام أبو سُلَيمان الخَطَّابي وغَيْرُه مِنَ العُلماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى . وحكى القاضي عِيَاض رحمه اللَّهُ عن بعض العلماء معنى هذا،ثُمَّ قال : وَقَدْ يَكُون فَيْضُ المَالِ هُنا مِنْ وَضْعِ الجِزْيَةِ وَهُوَ ضَرْبُها على جَميعِ الكَفَرَةِ ، فإنَّه لا يُقَاتِلُه أحَدٌ ، فَتَضَع الحَرْبُ أوزارَها . وانقيادُ جَميعِ الناسِ له إمَّا بالإسلامِ ، وإمَّا بإلقاءِ يَدٍ فَيَضَع عَلَيْه الجِزْيَةَ ويَضْرِبُها . وهذا كلام القاضي ، وَلَيْسَ بِمَقبول . والصَّوَابُ مَا قَدَّمْناه وهو أنَّه لا يَقْبَل مِنْهُ إلا الإسلامَ . فعلى هذا قَدْ يُقَال: هذا خِلافُ حُكْمِ الشَّرْعِ اليَوْمِ، فإنَّ الكِتَابِيَّ إذا بَذَلَ الجِزْيَةَ وَجَبَ قَبُولُها ، وَلَمْ يَجُزْ قَتْلُه ، ولا إكراهُه على الإسلام ، وجَوَابُه أنَّ هَذا الحُكْمَ لَيْسَ بِمُستمر إلى يَوْمِ القِيامة ، بَلْ هُوَ مُقَيَّد بِما قَبْل عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام)) .

وفي نَفْسِ المَرجع (٢ / ١٩١) قال النَّووي عن الحديث : ((فِفِيه دَلالة ظاهرة على أن مذهب أبي هُرَيرة في الآية أن الضمير في ﴿ مَوْتِهِ ﴾ يَعُود على عيسى عليه السلام ، ومعناها : وما مِن أهل الكتاب يَكون في زمن عيسى عليه السلام إلا مَنْ آمَنَ بِه ، وعَلِمَ أنَّه عبدُ اللَّهِ وابْنُ أمَتِه. وهذا مذهب جماعة مِن المُفسِّرين.وذهب كثيرون أو الأكثرون إلى أن الضمير يَعود على الكِتابيِّ. ومعناها: ومَا مِنْ أهل الكتاب أحَدٌ يَحْضُرُه المَوْتُ إلا آمَنَ عند الموت قبل خُروج رُوحِه بِعِيسى ﷺ وأنه عبدُ اللَّه وابْنُ أمَتِه ، ولكن لا يَنفعه هذا الإيمان لأنَّه في حَضْرة المَوْتِ وحالةِ النَّزْع ، وتِلْك

الحالة لا حُكْمَ لِمَا يَفْعَل أوْ يُقَال فِيها ، فلا يَصِحُّ فِيها إسلام ، ولا كُفْر ، ولا وَصِيَّة ، ولا بَيْع ، ولا عِتْق ، ولا غَيْر ذلك مِن الأقوال)) .

وَبَعْدَ أنْ يَنْزِلَ النَّبِيُّ عِيسى ﷺ مِنَ السَّمَاءِ في نِهايةِ الزَّمَانِ، يَعْتَنِق الكُفَّارُ الإسلامَ حَتَّى تَكُونَ الدَّعْوَةُ واحدةً.فالنَّبِيُّ عِيسى ﷺ لا يَقْبَلُ إلا الإسلامَ،ولا يَكُون هُناك دِينٌ آخَر. وَقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((وتَكُونُ الدَّعْوَةُ وَاحِدَةً)) [٢٤] .

وعَن ابنِ عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ : ﴿ وإن مِن أهلِ الكتابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ ، قال : ((خُرُوجُ عِيسَى ابنِ مَرْيَم ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ)) [٢٥] .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دِينكم ولا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ إنَّما المسيحُ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسولُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إنَّما اللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأرْضِ وكَفَى باللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النِّسَاء : ١٧١] [٢٦] .

إنَّ اللَّه يَأمر أهلَ الكتاب بعدم الغُلُوِّ في الدِّين، أي عدم مُجَاوَزَة الحَد، والتطرف ، والانحراف عن الطريق المستقيم . فالغُلُوُّ طريقُ الضلال والابتعاد عن جَادَّة الصواب ، وله تأثيرات سلبية على الحياة والأفكار والإنسان والمجتمع . واللَّهُ يَنهَى النصارى عن المُبالَغة في تعظيم المسيح ﷺ ، والغُلُوِّ فِيه ، فقد أخرَجوه من حَيِّز النُّبُوَّة إلى مَقَام الأُلُوهِيَّة ، وجَعَلوه إلهًا وابنًا للَّه تعالى . وهذا باطل نقلًا وعقلًا . يا مَعْشَرَ النصارى ، لا تتجاوزوا الحَدَّ في دِينكم بإفراطكم في شأن المسيح وادِّعاء أُلُوهيته ، ولا تَصِفُوا اللَّه بما لا يَلِيق به مِن الحُلُول والاتِّحاد واتِّخاذ الصاحبة والولد . فاللَّهُ واحدٌ أَحَدٌ ، فَرْدٌ صَمَدٌ ، وَاحِدٌ في ذَاتِه ، وواحدٌ في صِفَاتِه ، ومُنَزَّهٌ عَن الصاحبةِ والولدِ والشَّريكِ.

---

٢٤ رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٩٤) برقم (٩١١٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٢) : ((وفيه كَثير بن زَيد ، وثَّقه أحمد وجماعة ، وضَعَّفَه النَّسَائيُّ وغَيْرُه ، وبَقِيَّة رِجاله ثِقَات)) اهـ . وقال شُعَيب الأرناؤوط : ((المرفوع منه صحيح ، وهذا إسناد حسن)) .

٢٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٣٣٨) برقم (٣٢٠٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٢٦ قال البَغَوي في تفسيره(١/ ٣١٣): ((نزلت في النصارى ، وهم أصناف: الماريَعقوبية، والْمَلْكَانِيَّة، والنُّسطورية ، والْمُرقوسية . فقالت اليَعقوبية : عيسى هو اللَّه ، وكذلك الملكانية . وقالت النُّسطورية : عيسى هو ابن اللَّه ، وقالت الْمَرْقُوسِيَّة : ثالث ثلاثة . عَلَّمهم رَجل مِن اليهود ، يُقَال له بُولُس)) .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤ / ٣٧٢) : ((لا تُجَاوِزوا الحقَّ في دِينكم فتُفرِّطوا فيه ، ولا تقولوا في عِيسى غَيْرَ الحق ، فإنَّ قِيلَكم في عيسى إنَّه ابنُ اللَّه قَوْلٌ مِنكم على اللَّه غَير الحق ، لأنَّ اللَّه لَم يتَّخذ ولدًا ، فيكون عيسى أوْ غَيْرُه مِن خَلْقِه له ابنًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٨١٥): ((قَوْلُه: ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دِينكم ﴾ الغُلُوُّ : هو التَّجَاوُز في الحَد ، ومِنه غَلا السِّعْرُ ، يَغْلُو غَلاءً ، وغَلا الرَّجُلُ في الأمر غُلُوًّا ، وغَلا بالجاريةِ لَحْمُها وعَظْمُها ، إذا أسرعت الشباب فجاوزتْ لِدَاتِهَا (قَرِيناتها) . والمُراد بالآية النَّهْي لهم عن الإفراط تَارَةً ، والتفريط أُخرى ، فَمِن الإفراط غُلُوُّ النصارى في عِيسى حتى جعلوه رَبًّا ، ومِن التفريط غُلُوُّ اليهود فيه عليه السلام حتى جَعَلُوه لِغَيْر رِشْدَة (ابن زنا) وما أحسن قَول الشاعر: ولا تَغْلُ في شَيء مِن الأمرِ واقْتَصِدْ كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيمُ ﴿ ولا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ ، وهو ما وَصَفَ بِه نَفْسَه ، ووصفته به رُسُلُه ، ولا تقولوا الباطلَ كَقَول اليهود : عُزَير ابن اللَّه ، وقَول النصارى : المسيح ابن اللَّه)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٢٦٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دِينكم ﴾ . قال مُقَاتل : نزلت في نصارى نَجْران ، السَّيد والعَاقِب ، ومَن مَعَهما . والجُمهور على أنَّ المُراد بهذه الآية النصارى . وقال الحسن : نزلت في اليهود والنصارى . والغُلُوُّ الإفراط ، ومُجَاوَزَة الحَد ، ومِنه: غَلا السِّعْرُ. وقال الزَّجَّاج : الغُلُوُّ مُجَاوَزَة القَدْر في الظُّلْم ، وغُلُوُّ النصارى في عيسى قَول بعضهم: هو اللَّه ، وقول بعضهم : هو ابن اللَّه ، وقول بعضهم : هو ثالث ثلاثة. وعلى قول الحسن : غُلُوُّ اليهود فيه قَولهم إنَّه لِغَير رِشْدَة . وقال بعضُ العلماء : لا تَغْلُوا في دِينكم بالزيادة في التَّشَدُّد فيه. قَوله تعالى: ﴿ ولا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ أي لا تقولوا إنَّ اللَّه له شريك أو ابن أو زوجة)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((... ، وإيَّاكُم والغُلُوَّ في الدِّين، فإنَّما هَلَكَ مَن كان قَبْلَكم بالغُلُوِّ في الدِّين)) [٢٧] .

هذا تَحذيرٌ نَبَوِيٌّ مِن التَّشَدُّد في الدِّين ، ومُجَاوَزَةِ الحَد ، والتَّضييقِ على النَّفْس والآخرين . والشريعةُ الإلهيَّةُ جاءت لإنقاذ الناس ، والتَّيسير عليهم ، ورفع الحَرَج عنهم ، ولَيْسَ لتعذيبهم .

---

٢٧ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٣٧)برقم (١٧١١)وصحَّحه،وابن حِبَّان في صحيحه(٩/ ١٨٣) برقم (٣٨٧١) ، وابن خُزَيمة في صحيحه (٤/ ٢٧٤) برقم (٢٨٦٧) .

يُحَذِّرُ النَّبِيُّ ﷺ المؤمنين مِن مُجَاوَزَة الحَدِّ في أُمُور الدِّين ، والتَّشَدُّد فيه بالإفراط . ويجب الالتزام بالمنهج الوسطي في كُل شيء، فإنَّما هَلَكَت الأُمم السابقة بسبب مُجاوزة الحَد ، والتَّشَدُّد في الدِّين بالإفراط ، فهو سبب الهلاك والدمار . وهذا يدلُّ على أنَّ الغُلُوَّ سبب لضياع الأُمم .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٢٥ و١٢٦) : (((إيَّاكُم والغُلُوَّ في الدِّين) أي التَّشديد فيه ومُجاوزة الحَد ، والبحث عن غوامض الأشياء ، والكشف عن عِلَلها ، وغوامض مُتعبَّداتها (فإنما هَلَكَ مَن كان قَبْلكم) مِن الأمم (بالغُلُوِّ في الدِّين). والسَّعيد مَن اتَّعظ بغَيره... . قال ابن تَيْمِيَّة : قَوله : (إيَّاكم والغُلُوَّ في الدِّين) عام في جميع أنواع الغُلُوِّ في الاعتقادات ، والأعمال . والغُلُوُّ مُجاوزة الحَد ، بأن يُزاد في مدح الشيء أو ذَمِّه على ما يستحق، ونَحْو ذلك. والنصارى أكثر غُلُوًّا في الاعتقاد ، والعمل من سائر الطوائف ، وإيَّاهم نهى اللَّهُ عن الغُلُوِّ في القُرآن بِقَوله تعالى : ﴿ لا تَغلُوا في دِينِكُم ﴾)) .

وروى البُخاري في صحيحه (٣/ ١٢٧١) عن عُمَر بن الخطاب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارى ابْنَ مَرْيَم ، فإنَّما أنا عَبْدٌ ، فقولوا : عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه)) .

إنَّ الإطراء المقصود في الحديث الشريف مُقَيَّد بإطراء النصارى للمسيح ﷺ ، ومعروف أن إطراءَ النصارى هو تأليهُ المسيح ﷺ ، واتخاذُه إلهًا وابنًا للَّه تعالى . أمَّا المسلمون فَيَمدحون النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وباقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما فِيهم ، وليس فِيهم إلا الحَق والخَير والشَّرف والسِّيادة والنُّبُوَّة . إنَّهم عِبادُ اللَّه وأنبياؤه الطاهرون .

أرشدَ النبيُّ ﷺ أُمَّتَه ألا يُبالغوا في مَدْحِه ، وألا يُنزلوه عن مَنزلته . والإطراءُ : الإفراط في المَديح ومُجاوزة الحَد فيه ، وقِيل : هو المَديح بالباطل والكذب فيه . والمعنى : لا تَمْدَحُوني بالباطل ، وبما لَيس لي مِن الصِّفَات ، كما وَصَفَت النصارى عِيسى ابنَ مَريم بما لَم يَكُن فيه ، فَزَعَمُوا أنَّه إلَهٌ ، وابن للَّه تعالى ، فَكَفروا وضَلُّوا . والنَّصَارى غارقون في الغُلُوِّ العَقَائديِّ والتَّطَرُّف السُّلوكي . وقد أمرَ النبيُّ ﷺ المؤمنين أن يقولوا عنه : عبد اللَّه ورسوله ، وجَمَعَ ﷺ بَين وَصْفه بالعُبودية للَّه وَوَصْفِه بالرسالة،دَفْعًا للإفراط والتفريط،فَدَفَعَ الإفراطَ والغُلُوَّ فيه ﷺ بِكَوْنِه عَبْدَ اللَّهِ، ودَفَعَ التقصيرَ والتفريطَ في حَقِّه ﷺ بترك مُتابعته ، وعدم الأخذ بِسُنَّته ، والسَّيْرِ على نَهْجِه الذي أرسله اللَّهُ به ، بِكَوْنِه رسولَ اللَّهِ تعالى . فلا غُلُوٌّ في حَقِّه ﷺ ولا قُصُورٌ . وَوَصْفُه ومَدْحُه ﷺ بما فضَّله اللَّهُ به وشرَّفه حَقٌّ واجب على كُلِّ مَنْ بَعَثَه اللَّهُ إليه مِن خَلْقِه .

والحديثُ يَحمل توجيهًا مِن النبيِّ ﷺ لأُمَّته بضرورة الوسطية والاعتدال في حَقِّه ﷺ ، كما أنَّ الحديث يُوضِّح أهميةَ ذِكْر أهل الضَّلال بِضَلالاتهم ، تَحذيرًا مِن الوقوع فِيما وَقَعُوا فيه .

وقد قال البوصيري في مَدْح النبيِّ مُحَمَّد ﷺ :

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النصارى في نَبِيِّهِم ... واحْكُمْ بما شِئتَ مَدْحًا فيه واحْتَكِمِ

وَانْسُبْ إلى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وانْسُبْ إلى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

وكما أن النصارى بالَغوا في تعظيم المسيح ﷺ وغَلَوا فِيه ، حتى جعلوه إلهًا مَعبودًا ، ولَم يَقنَعوا بِكَوْنِه عَبْدَ اللَّهِ ورسولَه ، غَلا اليهودُ في المسيح ﷺ من الجهة الأُخرى ، وأهانوه ، وأنزَلوه عن رُتبة النُّبُوَّة ، وجَعَلوه ابْنَ زِنا ، والعِياذُ باللَّه تعالى . وبذلك يَكونون قد احْتَقَروه هُوَ وأُمَّه مريم .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٠): ((قَوْله : " لا تُطْرُوني " ، بِضَم أوَّله . والإطراء : المَدْح بالباطل ، تقول : أطْرَيْتُ فُلانًا مَدَحْتُه فأفرطتُ في مَدْحه . قَوْله :كما أطْرَت النصارى ابن مريم ، أي في دِعواهم فيه الإلهيَّة ، وغَيْر ذلك)) .

وفي نَفْس المرجع (١٢ / ١٤٩) : ((قال ابن الجَوزي : لا يَلزَم مِن النَّهْي عن الشيء وُقُوعه ، لأنَّا لا نَعْلَم أحدًا ادَّعى في نَبِيِّنا ما ادَّعته النصارى في عِيسى ، وإنَّما سبب النَّهْي فيما يَظهَر ما وقع في حديث مُعاذ بن جبل لمَّا استأذن في السُّجود له ، فامتنع ، ونهاه ، فكأنَّه خَشِيَ أن يُبَالغ غَيْرُه بما هو فوق ذلك، فبادرَ إلى النَّهْي تأكيدًا للأمر. وقال ابن التين : معنى قَوله : " لا تُطْرُوني " : لا تَمْدَحُوني كمدح النصارى حتى غَلا بعضُهم في عيسى فجعله إلهًا مع اللَّه ، وبعضهم ادَّعى أنَّه هو اللَّه ، وبعضهم ابن اللَّه)) .

﴿ إنَّما المسيحُ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسولُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ، مَا عِيسَى إلا رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ ابْنَ اللَّهِ كما زَعَمْتُم، وَقَدْ خُلِقَ بِكَلِمَةِ اللَّهِ " كُنْ " مِنْ غَيْرِ واسطة أبٍ ولا نُطْفَة ، وَذُو رُوحٍ مُبْتَدَأةٍ مِنَ اللَّهِ ، وهو أثَرُ نَفْخَةِ جِبْرِيل في صَدْرِ مَرْيَم ، حَيْثُ حَمَلَتْ بِتِلْك النَّفْخَة بِعِيسى ﷺ ، وإنَّما أُضِيفَ إلى اللَّهِ تَشريفًا وتكريمًا .

﴿ فَآمِنُوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إنَّما اللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأرْضِ وكَفَى باللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

فآمِنُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصَدِّقُوا رُسُلَه أجمعين ، ولا تَقُولوا : الآلهة ثلاثة : اللَّه ، والمسيح ، ومريم ، أو اللَّه ثلاثة : الأب والابن ورُوح القُدُس ، فَنَهَاهُم اللَّهُ عَن التَّثليث ، وَأمَرَهُم بالتَّوحيد ،

لأنَّ الإلَهَ مُنَزَّهٌ عَن التركيب ، وَعَن نِسْبَة المُركَّب إلَيه . انتَهُوا عن التَّثليث يَكُنْ ذلك خَيْرًا لكم ، إنَّما اللَّهُ مُنْفَرِدٌ في أُلُوهِيَّته ، لَيْسَ كما تَزْعُمُون أنَّه ثالثُ ثلاثة ، تَنَزَّهَ اللَّهُ عَنْ أن يَكُون له وَلَدٌ ، للَّهِ مَا في السَّمَاواتِ وَمَا في الأرضِ خَلْقًا وَمُلْكًا وعبيدًا ، واللَّهُ لا يُماثله شَيْء حَتَّى يَتَّخِذَه وَلَدًا ، واللَّهُ غنيٌّ عَن الوَلَدِ ، كَفَى اللَّه أن يَقُوم بتدبير مَخلوقاته وحِفْظِها ، فلا حَاجَة له إلى وَلَدٍ أوْ مُعِين ، لأنَّه مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ .

يَأمُرُ اللَّهُ بالتَّصديق بِوَحدانيته ، وعِبادته وَحْده بلا شريك ، وتصديقِ رُسُلِه الكِرَام الذين بَلَّغُوا دَعوةَ التوحيد ، وعدم التثليث في العقيدة لأنَّه ضِد النقل والعقل .

والتَّثليث اعتقادُ تَعَدُّد الآلهة ، وأنَّ الآلهة ثلاثة (اللَّه والمسيح ومريم) . أو القَوْل إنَّ اللَّهَ ثلاثة أقانيم (الأب والابن ورُوح القُدُس) ، وهُم يَقصِدون بالأب الذات ، والابن العِلْم ، ورُوح القُدُس الحياة. إنَّ اللَّهَ إلَهٌ واحد، لا يَتَعَدَّد. واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صِفاته، وواحدٌ في أفعاله. وهو الخالق ، وكُلُّ مَا سِوَاه مخلوق. ولا يُعْقَل أن يَكُون الإلَهُ مُرَكَّبًا ، أو تُضاف إليه التراكيب المخلوقة ، فاللَّهُ قديمٌ ، ومَا سِوَاه حادثٌ ، وُجِدَ بَعْدَ إذْ لَمْ يَكُنْ . وأساسُ الدِّينِ هو العقيدة ، فإنْ سَقَطَتْ سَقَطَ الدِّينُ كُلُّه. والنَّصَارى لا يَمْلِكون عقيدةً مُتماسكة، وهذا جعلهم طوائف مختلفة، ومُتناقضة ، ومُتحاربة . انتَهُوا عن التثليث أيُّهَا النَّصَارى ، وآمِنُوا بوَحدانيةِ اللَّهِ يَكُنْ ذلك خَيْرًا لكم . إنَّ اللَّهَ إلهٌ واحد ، لا شريك له ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا وَلَد ، وليس ثالث ثلاثة كما تَزْعُمُون . تَعَالى اللَّهُ أن يَكُونَ له وَلَدٌ ، وَتَنَزَّهَ عن ذلك . وللَّهِ مَا في السماوات وَمَا في الأرض،خَلْقًا ومُلْكًا وعَبِيدًا، لا يُشْبِهُ شيئًا ، ولا يُشْبِهُه شيء، ولا يُماثله شيء حتى يَتَّخِذَ وَلَدًا ، فاللَّهُ غَنِيٌّ عَن كُلِّ شَيْء ، ولا يَحتاج شيئًا. واللَّهُ وَحْدَه خالقُ الكَوْنِ ومُدَبِّرُ شُؤون الخَلْق، لا يحتاج إلى وَلَدٍ يُعينه ويُساعده ، لأنَّه مالكُ كُلِّ شَيْء ، وكَفَى باللَّهِ قائمًا بِتَدبير الخَلْقِ ، غَنِيًّا عَنْهُم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٨٤) : ((﴿ إنَّما المسيحُ عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ رَسولُ اللَّهِ وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي: إنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وخَلْقٌ مِن خَلْقِه،قال له: كُنْ ، فَكَانَ ، ورَسُولٌ مِن رُسُلِه، وكَلِمَتُه ألقاها إلى مَرْيَم، أي خَلَقَه بالكَلِمَةِ التي أرْسَلَ بِها جِبْرِيلَ عليه السلام إلى مَرْيَمَ،فَنَفَخَ فِيها مِن رُوحِه (رُوحِ اللَّهِ) بإذْنِ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ،فكانَ عِيسى بإذْنِه عَزَّ وَجَلَّ ، وكانت تِلْكَ النَّفْخَةُ التي نَفَخَهَا في جَيْبِ دِرْعِها، فَنَزَلَتْ حتى وَلِجَتْ فَرْجَها بِمَنْزِلةِ لِقَاحِ الأبِ والأُمِّ . والجميعُ مَخلوقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ولهذا قِيلَ لِعيسَى : إنَّه كَلِمَةُ اللَّهِ ورُوحٌ مِنْه ، لأنَّه لَمْ يَكُنْ له أبٌ تَوَلَّدَ مِنْه ، وإنَّما هو ناشئٌ عَن الكَلِمَةِ التي قال له بها : كُنْ ، فَكَانَ ، والرُّوحِ التي أُرْسِلَ بِها

جِبْرِيل . ... . وقَوْلُه : ﴿ فآمِنوا باللَّهِ ورُسُلِهِ ﴾ أي : فَصَدِّقوا بأنَّ اللَّه واحد أحد ، لا ولد له ، ولا صاحبة ، واعْلَمُوا وتَيَقَّنُوا بأنَّ عِيسى عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولا تقولوا ثلاثةٌ ﴾ لا تجعلوا عيسى وأُمَّه مع اللَّهِ شَرِيكَيْن، تعالى اللَّهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا ... . فالنصارى عليهم لعائن اللَّه ، مِنْ جهلهم ليس لهم ضابط ولا لِكُفْرهم حَد ، بَلْ أقوالهم وضلالهم مُنتشر ، فمِنهم مَن يَعتقده _ أي المسيح _ إلَهًا ، ومِنهم مَنْ يعتقده شريكًا ، ومِنهم مَن يعتقده وَلَدًا . وهُمْ طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مُؤتَلِفَة ، ولقد أحسنَ بعضُ المُتكلمين حيث قال : لَو اجتمع عَشَرَة مِن النَّصَارى ، لافترقوا على أحَد عَشَر قَوْلًا . ولقد ذَكَرَ بعض عُلمائهم المشاهير عندهم ، وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية، في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النَّبَوية ، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عَقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم ، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة ، وذلك في أيام قُسْطَنْطِين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزْيَد مِن ألْفَيْن أُسْقُفًا ، فكانوا أحزابًا كثيرة ، كُلُّ خمسين مِنهم على مقالة ، وعِشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزْيَد من ذلك وأنْقَص . فلمَّا رأى منهم عُصابة قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عَشَر نَفَر ، وقد توافقوا على مقالة ، فأخذها المَلِكُ ونَصَرَهَا وأيَّدها ، وكان فيلسوفًا داهية ، ومَحَقَ مَا عداها من الأقوال ، وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والثمانية عَشَر ، وبُنِيَتْ لهم الكنائس ، ووَضعوا لهم كُتبًا وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يُلَقِّنُونها الوِلْدَان مِن الصِّغار لِيَعتقدوها ، ويُعَمِّدونهم عليها ، وأتباع هؤلاء هُم المَلْكَانِيَّة ، ثُمَّ إنهم اجتمعوا مَجْمَعًا ثانيًا ، فحدث فيهم اليَعْقُوبِيَّة ، ثُمَّ مَجْمَعًا ثالثًا فحدث فيهم النُّسْطُورِيَّة ، وكُلُّ هذه الفِرَق تُثْبِت الأقانيم الثلاثة في المسيح ، ويَختلفون في كيفية ذلك ، وفي اللاهوت والناسوت على زَعْمهم هل اتَّحَدَا أوْ مَا اتَّحَدا ، أو امتزجا ، أوْ حَلَّ فيه ، على ثلاث مقالات ، وكُلٌّ مِنْهُم يُكفِّر الفِرْقَةَ الأُخْرَى ، ونَحْن نُكفِّر الثلاثة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَكُم ﴾ أي : يَكُنْ خَيْرًا لكم ، ﴿ إنَّما اللَّهُ إلَهٌ واحدٌ سُبحانَهُ أن يَكُونَ لَهُ ولدٌ ﴾ أي: تَعَالى وَتَقَدَّسَ عَن ذلك عُلُوًّا كبيرًا ، ﴿ لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ وكفى باللَّهِ وكيلًا ﴾ أي : الجميع مِلْكُه وخَلْقُه ، وجميع ما فيها عبيده ، وهُمْ تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كُلِّ شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قَد جَاءَكُم رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُم كَثيرًا مِمَّا كُنتم تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعفو عَن كَثيرٍ قَد جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِين ﴾ [المائدة : ١٥] .

الخِطَابُ الإلَهِيُّ مُوَجَّهٌ لأهْلِ الكِتَابِ (اليَهُودِ والنَّصَارى) . قَدْ جاءهم النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ بالإسلامِ (الدِّينِ الحَقِّ) لِيُوَضِّحَ كثيرًا مِنَ الأُمُورِ التي أخْفَاهَا أهلُ الكِتَابِ وَحَرَّفُوها، وتَلاعَبُوا بها، مِثْل: آية الرَّجْم، وقِصَّة أصحاب السَّبْت الذين مُسِخُوا قِرَدةً.والإضافةُ في قَوْلِه تعالى: ﴿ رَسُولُنا ﴾ لِتَشريفِ النَّبِيِّ ﷺ ، ورَفْعِ مَكانته، وتَعظيمِ شَأنِه . وأيضًا ، لِدَعوةِ الناس إلى اتِّبَاعِه ، فهو المُتحدِّث بِاسْمِ اللَّهِ تعالى . ويَتجاوز النبيُّ ﷺ عن كثير مِن بَاطلِهم وتَحريفِهم للكتاب لعدم وجود فائدة في بيانه ، وبسبب عدم اشتماله على أحكام شرعية ، وَلَوْ بَيَّنَه لَفَضَحَهُم. وإنما يُبيِّن النبيُّ ﷺ ما فِيه حُجَّة على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالته [٢٨] .

وإظهارُ مَا أخفاه أهلُ الكتاب دليلٌ باهر على نُبُوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ ، لأنَّه أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأ التَّوراةَ والإنجيلَ . إذَنْ ، هَذه المعلومات التي أظْهَرَها النبيُّ ﷺ لَيْسَ لها أيُّ مَصْدَرٍ إلا الوَحْيَ السَّمَاوِيَّ المُوَجَّه لِسُلوكِ النبيِّ ﷺ وتَعَامُلاتِه . وَقَدْ أخْفَوْا آيَةَ الرَّجْمِ ، وَصِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في كُتُبِهم .

وقال القُرْطُبي في تفسيره (٦/ ١١٥) : ((﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، أي : يَتركه ولا يُبَيِّنه ، وإنَّما يُبَيِّن مَا فِيه حُجَّةٌ على نُبُوَّتِه ، وللدَّلالةِ على صِدْقِه ، وشَهادةٌ بِرِسالته ، ويَتْرُك مَا لَمْ يَكُنْ بِهِ حَاجَة إلى تَبْيينه)) .

والمَنْهَجُ النَّبَوِيُّ قائمٌ على النَّقْلِ والعَقْلِ ومُقَارَعَةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ، ولا يَقُوم على الشتائمِ والفضائح . وَقَدْ جاءهم مِنَ اللَّهِ نُورٌ (ضِياء) ، وَهُوَ القُرْآنُ المُعْجِزُ الذي يُبيِّن الأحكامَ ، فهو ظاهرٌ في إعجازِه ، وواضحٌ في أحكامِه . وقِيل : النُّورُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، لأنَّه الهادي إلى طريق اللَّهِ. وتَنوينُ ﴿ نُورٌ ﴾ للتَّفخيم .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٠٧) : ((﴿ قَد جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِين ﴾ ، يَعْنِي القُرْآنَ ، فإنَّه الكاشف لِظُلُمَاتِ الشَّكِّ والضَّلالِ،والكِتَابُ الواضح الإعجاز . وقِيل : يُريد بالنُّورِ مُحَمَّد ﷺ)) .

---

٢٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣١٦) : ((فإنْ قِيل:كيف كان له أن يُمسِك عن حَق كتموه فلا يُبَيِّنه؟.فعنه جوابان: أحدهما أنه كان مُتَلَقِّيًا مَا يُؤْمَر بِه،فإذا أُمِرَ بإظهار شيء مِن أمْرِهِم أظْهَرَه وأخَذَهُم بِه، وإلا سَكَتَ.والثاني أنَّ عَقْد الذِّمَّة إنما كان على أن يُقَرُّوا على دِينهم، فلمَّا كَتَمُوا كثيرًا مِمَّا أُمِرُوا بِه واتَّخذوا غَيْرَه دِينًا ، أظْهَرَ عليهم مَا كَتَمُوه مِنْ صِفَتِه وعَلامةِ نُبُوَّتِه لتتحقق مُعْجِزَتُه عِندهم. واحْتَكَمُوا إلَيْه في الرَّجْم ، فأظْهَرَ مَا كَتَمُوا مِمَّا يُوَافِق شَرِيعَتَه ، وَسَكَتَ عَن أشياء ليتحقق إقرارُهم على دِينِهم)) .

وعن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ أنَّه قال: ((مَنْ كَفَرَ بالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بالرَّحمنِ ، وذلك قَوْلُ اللَّهِ : ﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم كثيرًا مِمَّا كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ ، فكانَ مِمَّا أَخْفَوُا الرَّجْمُ)) [٢٩] .

أخْفَى اليَهُودُ حَدَّ رَجْمِ الزَّاني، لأنَّهُم عَجَزُوا عَن تَطْبيقه على الشريفِ والوضيعِ ، خُصُوصًا أنَّ الزِّنَا كَثُرَ في أشرافِ اليهود ، وهؤلاء فَوْقَ الشريعةِ ، لأنَّهُم الزُّعَمَاء والقَادَة والسَّادَة ، مِمَّا جَعَلَ اليَهُودَ يُزيلون حَدَّ الرَّجْمِ مِنَ التَّوراة ، وهذا يدلُّ على تَحريفهم للتَّوراةِ ، وتَغْييرِ أحكامِها وحُدُودِها، بِما يَتوافق معَ أهوائِهم الذاتية ، ومَصالحِهم الشخصية ، ومُكتسباتِهم المعنوية والمادية .

عَن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عنهما أنَّ اليَهُودَ جَاؤُوا إلى رسول اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا له أنَّ رَجُلًا مِنْهُم وَامْرَأةً زَنَيَا،فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ في شَأنِ الرَّجْمِ ؟))،فقالوا : نَفْضَحُهُم وَيُجْلَدُون،فقال عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلَام:كَذَبْتُم ، إنَّ فِيهَا الرَّجْمَ ، فَأَتَوْا بالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أحَدُهُم يَدَهُ على آيَةِ الرَّجْمِ ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا ، فقالَ له عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلَام:ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فإذا فِيها آيةُ الرَّجْمِ ، فقالوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّد،فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا [٣٠] .

إنَّ ضِعَافَ النُّفُوسِ يُحاولون إخفاءَ النُّصُوصِ الدِّينية والتَّحَايُلَ عليها مِنْ أجل تحقيق مصالح شخصية،وبَسْطِ السَّيطرة والنفوذ على الأتْبَاع الجُهَّال الذين لا يَمْلِكُون حَصِيلةً عِلْمِيَّة ، وهَؤلاء العَوَام يَتْبَعُون كُلَّ ناعقٍ دُون إعمال عُقولهم، فَدِينُهم مَبْنِيٌّ على التقليد الأعمى. وتظهرُ مسألةُ الرَّجْم في هذا السياق لتعكس طبيعةَ تفكير أهل الكتاب العائشين في الأوهام والعقائد المُتعارضة ، والخاضعين لِسُلْطَةِ رِجالِ الدِّينِ وعِلْيَةِ القَوْمِ في تَفسيرِ النُّصُوصِ والتلاعبِ بِها حَسَب الأهواءِ

---

٢٩ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (١٠ / ٢٧٦) برقم (٤٤٣٠).ورواه الحاكم في المستدرَك(٤/ ٤٠٠) برقم (٨٠٦٩) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي . / ملاحظة : الكفرُ لا يكون إلا بإنكار نَصٍّ قَطْعِيِّ الوُرُودِ (القُرآن الكريم والحديث الْمُتَوَاتِر) وقَطْعِيِّ الدَّلالةِ .

٣٠ رواه البخاري (٣ / ١٣٣٠) برقم (٣٤٣٦) واللفظ له ، ومسلم(٣/ ١٣٢٦)برقم(١٦٩٩). وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٦٨): ((قال الباجي: يَحْتَمِل أن يَكُون عَلِمَ بالوَحْيِ أنَّ حُكْمَ الرَّجْمِ فِيها ثابت على مَا شُرِع لَمْ يَلْحَقْه تبديل. ويَحْتَمِل أن يَكُونَ عَلِمَ ذلك بإخبار عبد اللَّه بن سَلَام وغَيْرِه مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْهُم على وَجْهٍ حَصَلَ لَهُ بِهِ العِلْمُ بِصِحَّةِ نَقْلِهِم . ويَحْتَمِل أنْ يَكُونَ إنما سألهم عن ذلك لِيَعْلَمَ مَا عِندَهم فيه ، ثم يَتَعَلَّم صِحَّةَ ذلك مِنْ قِبَل اللَّهِ تعالى)) .

والمصالحِ الشخصية ، حَيْثُ يَتِمُّ تَمْيِيعُ النُّصُوصِ الدِّينية وإعادةُ تأويلِها أوْ إخفاؤُها لتتناسب معَ الظُّروف ، فَتُصبح البِيئةُ المُحِيطةُ هي الحاكمةَ على النَّصِّ الدِّينيِّ ، وَلَيْسَ العَكْس .

إنَّ أهل الكِتاب أَخْضَعُوا كَلامَ اللَّهِ لأهواء البشر، وآراءِ النُّخبة الدِّينية المحصورة في الضُّغوطات السياسية والاجتماعية ، فَتَكَرَّسَ التَّحريفُ في التَّوراة والإنجيل ، وصار كلامُ الإنسانِ _ عند أهل الكتاب _ هو الحاكمَ على كلام اللَّهِ تعالى. وهذا مُنْتَهَى الضَّلالِ والكُفْرِ . وهذا الانحرافُ ناتج عن ضَغط المصالح الشخصية .

وفي صحيح مسلم (١٣٢٧/٣)عَن البَرَاء بن عَازِب_ رَضِيَ اللَّهُ عنه_قال: مُرَّ على النَّبِيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّمًا _ أي مُسْوَدَّ الوَجْهِ بالفَحْمِ _ مَجْلُودًا، فدعاهم ﷺ فقال : ((هكذا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كِتَابِكُم ؟))، قالوا: نَعَمْ . فَدَعَا رَجُلًا مِن عُلمائهم ، فقال: ((أَنْشُدُكَ باللَّهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلى مُوسَى ، أهكذا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كِتَابِكُم ؟))، قال : لا، ولَوْلا أنَّكَ نَشَدْتَني بهذا لَمْ أُخْبِرْكَ ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ،ولكنَّه كَثُرَ في أشرافِنا ، فَكُنَّا إذا أخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاه ، وإذا أخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الحَدَّ . قُلْنَا : تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلى شَيْءٍ نُقِيمُهُ على الشَّرِيفِ والوَضِيعِ ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ والجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ .

هذا الحديثُ يُشير إلى الأيدي العابثة بالنُّصُوصِ الشَّرعية ، خُضُوعًا لاعتباراتٍ دِينية أو سِياسية أو اجتماعية ، فَتُصبح فلسفةُ تغيير الأحكام الإلهيَّة شريعةً جديدةً عِند أهل الكتاب نُزُولًا عِند ضَغْطِ الأهواءِ والمَنافعِ الدُّنيوية القاصرة .

والأساسُ الفِكْرِيُّ لِتحريفِ التَّوراةِ والإنجيلِ يَتَمَحْوَر حَوْلَ التلاعبِ بالعَوَامِّ الجُهَّالِ عَبْرَ خِداعِهم، وتَثبيتِ خُضُوعِهم للسُّلطةِ الدِّينية المُشَوَّشة، والسُّلطةِ السِّياسية المُتحالِفة معَ طبقة رجال الدِّين لضمان استمرارية حَاكِمِيَّة الطُّغَاةِ دُون تَغْيير . وبالتأكيد ، إنَّ الشعب هو مَنْ يَدْفَع الثمنَ .

وعن عبد اللَّه بن عُمَر _ رضي اللَّهُ عنهما_أنَّ اليَهُود جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُم وامرأةٍ وقَد زَنَيَا ، فقال لهم : ((كَيْفَ تَفعَلون بِمَن زَنَى مِنكُم ؟)) . قالوا : نُحَمِّمُهُمَا ونَضْرِبُهُمَا ، فقال : ((لا تَجِدُونَ في التَّوراةِ الرَّجْمَ ؟)) ، فقالوا : لا نَجِدُ فيها شيئًا ، فقال لهم عبدُ اللَّهِ بن سَلَام : كَذَبْتُم ، فَأْتُوا بالتَّوراةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنتُم صادقين ، فَوَضَعَ مِدْرَاسُهَا الذي يَدْرُسُهَا مِنهُم كَفَّهُ على آيةِ الرَّجْمِ ، فَطَفِقَ يَقرأ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا ، ولا يَقرأ آيةَ الرَّجْمِ ، فَنَزَعَ يَدَهُ عَن آيةِ الرَّجْمِ ، فقال : ما هذه ؟! ، فلمَّا رَأَوْا ذلك قالوا : هِيَ آيةُ الرَّجْمِ ، فَأَمَرَ بِهما فَرُجِمَا قريبًا مِن حَيْثُ مَوْضِعُ الجَنَائِزِ عِندَ المَسْجِدِ ، فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَحْنِي عَلَيها يَقِيها الحِجَارَةَ . [رواه البُخاري واللفظ له ومُسْلِم].

حَرَّفَ أهلُ الكِتاب مِن اليهود والنَّصَارى كُتُبَهم المُنْزَلَةَ عليهم ، فَحَذَفُوا وغيَّروا وأدْخَلُوا فيها ما لَيْسَ مِنها ، وما بَقِيَ مِنه لَمْ يَعْمَلُوا به ، وأَخْفَوْهُ وكَتَمُوه وهُم يَعْلَمُون .

والحديثُ يُوضِّح صُورةً مِن صُوَر جُحُود اليهود وكِتمانهم ما أنزلَ اللَّهُ عليهم مِن التَّوراة ، فقد جاءتْ جَمَاعَةٌ مِن يَهُود خَيْبَر إلى النبيِّ ﷺ بِرَجُل وامرأة مِنْهُم قَد زَنَيَا ، فَسَألهم النبيُّ ﷺ : "كَيْفَ تَفعَلون بِمَن زَنَى مِنكُم ؟ " ، فقالوا: نُحَمِّمُهُمَا ونَضْرِبُهُمَا ، أي : نُسَوِّد وُجُوهَهما بالحُمَم (الفَحْم) ونَضْرِبُهما . فَسَألهم النبيُّ ﷺ عن الرَّجْم ــ ويكون للزَّاني المُحْصَن وهو الذي سَبَقَ له الزَّوَاج ــ : أليس مكتوبًا عِندكم في التَّوراة أنَّ مَن زَنَى بعد إحصان يُرْجَم ؟ ، فقالوا : لا نَجِد في التَّوراة شيئًا . وإنَّما سألهم النبيُّ ﷺ لِيُلزِمَهم بما يَعتقدونه في كتابهم المُوافِق لِحُكْمِ الإسلام إقامةً للحُجَّةِ عليهم، لا لتقليدهم ومَعرفةِ الحُكْمِ مِنهُم . وكان عبدُ اللَّهِ بن سَلَام ــ رضي اللَّهُ عنه ــ مِن عُلَمائهم قبل إسلامه، فَرَدَّ عَلَيهم، وقال لهم: كَذَبْتُم ، فَأتُوا بالتَّوراة فَاتْلُوها إنْ كُنتم صادقين ، فإنَّ ذلك مَوجود فيها لَمْ يُغَيَّرْ . فَأتَوْا بالتَّوراة ونَشَرُوها ، فَوَضَعَ الذي يَدْرُس التَّوراةَ عِندَهم ــ وهو عبدُ اللَّهِ ابن صُورِيَا ، وكانَ أعْلَم مَن بَقِيَ مِن الأحبار بالتَّوراة ــ كَفَّه على ما يَخُصُّ الرَّجْمَ فيها ، وبدأ هذا الرَّجُلُ يَقرأ ما قَبل آيةِ الرَّجْمِ وما بَعْدها ولا يَقْرَؤُها ، فأزاحَ عبدُ اللَّهِ بن سَلَام ــ رضي اللَّهُ عنه ــ يَدَه عن آيةِ الرَّجْم، وقال له: ما هذه ؟!، فلمَّا رأى اليهودُ ذلك قالوا : هي آيةُ الرَّجْمِ ، فَأمَرَ النبيُّ ﷺ بالرَّجُلِ والمَرأةِ ، فَرُجِمَا بالقُرْبِ مِن مَوْضِع الجنائز عِند المَسجِد النَّبَوِيِّ . فلمَّا بدأ الناسُ بالرَّجْمِ رأى عبدُ اللَّهِ بن عُمَر ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ الرَّجُلَ الذي زَنَى بالمَرأة يَحْنِي عَلَيها ، أي : يَمِيل وَيَكُب على المَرأة ، لِيَحْمِيَهَا مِنَ الحِجَارَةِ .

وفي الحديث : إقامةُ الحُدود على غَير المُسلِمين المُقيمين في بِلادنا ، وفيه : أنَّ غَير المُسْلِمين إذا تحاكموا إلى المُسْلِمين حَكَمَ القاضي بَينهم بأحكام الشريعة الإسلامية .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٢٠٨) : ((قَوْلُه (إنَّ النبيَّ ﷺ أُتِيَ بيهوديٍّ ويهوديةٍ قد زَنَيَا إلى قَوْله : فَرُجِمَا) في هذا دليل لِوُجوب حَدِّ الزِّنى على الكافر ، وأنَّه يَصِح نِكَاحُه ، لأنَّه لا يَجِب الرَّجْمُ إلا على مُحْصَن ، فَلَوْ لَمْ يَصِح نِكَاحُه لَمْ يَثْبُتْ إحصانُه ، ولَم يُرْجَمْ ، وفيه أنَّ الكُفَّار مُخَاطَبُون بِفُروع الشَّرْع ، وهو الصحيح ، وقِيل : لا يُخَاطَبُون بها . وقِيل : إنَّهُم مُخَاطَبُون بالنَّهْي دُون الأمر ، وفيه أنَّ الكُفَّار إذا تحاكموا إلَينا حَكَمَ القاضي بَينهم بِحُكْمِ شَرْعِنا. وقال مالك : لا يَصِح إحصانُ الكافر . قال : وإنَّما رَجَمَهُمَا لأنَّهما لَمْ يكونا أهل ذِمَّة ، وهذا تأويل باطل ، لأنَّهما كانا مِن أهل العَهْد ، ولأنَّه رَجَمَ المرأةَ ، والنساء لا يجوز قتلهن

مُطْلَقًا . قَوْلُه ﷺ (فقال : ما تَجِدُون في التَّوراة ؟) ، قال العلماء : هذا السؤال ليس لتقليدهم ، ولا لمعرفة الحُكْم مِنهُم ، فإنَّما هو لإلزامهم بما يَعتقدونه في كِتابهم ، وَلَعَلَّه ﷺ قد أُوحِيَ إلَيه أن الرَّجْم في التَّوراة المَوجودة في أيديهم لَمْ يُغَيِّرُوه ، كما غيَّروا أشياءَ، أوْ أنَّه أخبره بذلك مَن أسلمَ مِنهُم ، ولهذا لَم يَخْفَ ذلك عَلَيه حِين كَتموه . قَوْلُه (نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا ونَحْمِلُهُمَا) هكذا هو في أكثر النُّسَخ نَحْمِلُهما بالحاء واللام، وفي بَعضها نُجَمِّلُهما بالجِيم ، وفي بعضها نُحَمِّمُهما بِمِيمَيْن، وكُلُّه مُتَقَارِب ، فمعنى الأول نَحْمِلُهما على الحَمْل ، ومعنى الثاني نُجَمِّلُهما جميعًا على الجَمَل ، ومعنى الثالث نُسَوِّد وُجُوهَهما بالحُمَم بِضَمِّ الحاء وفتح المِيم، وهو الفَحْم ، وهذا الثالث ضعيف، لأنَّه قال قَبْلَه : نُسَوِّد وُجُوهَهما . فإنْ قِيل : كَيْفَ رُجِمَ اليَهُودِيَّان بالبَيِّنَة أَمْ بالإقرار ؟ ، قُلْنَا : الظاهر أنَّه بالإقرار ، وقد جاء في سُنَن أبي داود وغَيره أنَّه شَهِدَ عليهما أربعة أنَّهُم رَأَوْا ذَكَرَه في فَرْجِها ، فَإنْ صَحَّ هذا ، فإنْ كان الشُّهُود مُسْلِمِين فظاهر ، وإنْ كانوا كُفَّارًا فلا اعتبار بِشَهَادتهم، ويَتَعَيَّن أنَّهُما أَقَرَّا بالزِّنَى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتابِ قَد جَاءَكُم رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُم عَلى فَتْرةٍ مِنَ الرُّسُلِ أن تَقُولوا مَا جَاءَنا مِن بَشيرٍ ولا نذيرٍ فَقَد جَاءَكُم بَشيرٌ ونذيرٌ واللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

اللَّهُ يُخَاطِبُ أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِم أنْ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ لبيانِ الشَّريعةِ الإلهيَّةِ الصحيحة بعد انتشار عِبادة الأوثان ، وتَحريفِ التَّوراةِ والإنجيلِ ، وَتَفَشِّي العَقائدِ الزائغة التي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلطان.وَقَدْ حَدَثَ انقطاع مِنَ الرُّسُلِ . والبَعْثَةُ المُحَمَّدية الإسلامية جاءت بعد مدة زمنية طويلة مُنذ عِيسى ﷺ (أقرب الأنبياء زمنيًّا إلى النبيِّ الخَاتَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ) . وهذا فَضْلٌ إلَهِيٌّ جليل .

واللَّهُ الرحيم بعباده لَمْ يَتركهم للشياطين تتلاعب بهم ، ولَمْ يَكِلْهُم إلى أنفُسِهم وأهوائِهم ، بَلْ أَرْسَلَ إلَيْهِم خَيْرَ رُسُلِه مُحَمَّدًا ﷺ ، لِيُخرجهم مِن ظُلُمَاتِ الكُفْرِ والبِدَائِيَّةِ والتَّوَحُّشِ إلى نُورِ الإيمانِ والحَضارةِ والإنسانية .

وبالتالي ، لا عُذْر لأهل الكتاب ولا حُجَّة ، فقد جاءهم مُحَمَّدٌ رسولُ اللَّهِ ، وأقامَ عَلَيْهِم الحُجَّةَ ، وقَطَعَ أعذارَهم، لِئَلا يَقُولوا : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّر بالخَيْرِ، ويُنْذِر مِنَ الشَّرِّ، فقد جاءهم النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ يُبَشِّر المُؤمنين بالجَنَّةِ ، ويُخَوِّف الكافرين مِنَ النار ، وَقَدْ أعْلَى شَأنَ مُوسَى وعِيسَى عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام ، وكَشَفَ تَلاعُبَ أهلِ الكِتَابِ بالتَّوراةِ والإنجيلِ. واللَّهُ يَقْدِرُ عَلى عِقَابِ مَنْ عَصَاه، وَثَوَابِ مَنْ أطَاعَه، وَهُوَ سُبحانَه على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠) : ((والمَقصودُ أنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وتَغَيُّرِ الأديانِ ، وكثرة عِبادة الأوثان والنِّيران والصُّلْبَان ، فكانت النِّعْمَةُ بِهِ أتَمَّ النِّعَمِ، والحَاجَة إلَيْه أمْر عَمَم (عام تام) ، فإنَّ الفساد كان قَدْ عَمَّ جميعَ البلاد ، والطُّغْيَان والجهل قَدْ ظَهَرَ في سائر العِبَاد ، إلا قليلًا مِنَ المُتَمَسِّكين ببقايا مِنْ دِينِ الأنبياءِ الأقْدَمِين ، مِنْ بَعضِ أحبار اليهود وعُبَّادِ النَّصَارى والصابئين)) .

أمَّا سَبَبُ نُزولِ الآيةِ ، فَقَدْ رَوَى الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٥٠٧) عن ابن عباس قال : ((قال مُعَاذ بن جَبَل وسَعْد بن عُبَادَة وعُقْبَة بن وَهْب لليَهُودِ : يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، فَوَاللَّهِ إنكم لَتَعْلَمُون أنَّه رسولُ اللَّهِ ، لَقَدْ كُنتُم تَذْكُرُونه لَنَا قَبْلَ مَبْعَثِه ، وتَصِفُونه لَنَا بِصِفَتِه ، فقال رافع ابن حُرَيْمِلَة وَوَهْب بن يَهُوذا : مَا قُلْنَا هَذا لكم ، ومَا أنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتاب بَعْد مُوسَى ، ولا أَرْسَلَ بَشِيرًا ولا نذيرًا بَعْدَه)) .

وَبَعْدَ رَفْعِ النَّبِيِّ عِيسى ﷺ إلى السماء انقطعَ وُجود الأنبياء لِمُدَّةِ سِتمائة سنة ، حتى جاءَ النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ . روى البخاري في صحيحه (٣/ ١٤٣٥) عَنْ سَلْمَانَ الفارسيِّ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال: ((فَتْرَةٌ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ)) .

مِنْ عَدْلِ اللَّهِ ورَحْمَتِه بِخَلْقِه أنْ أرْسَلَ إلَيْهِم الرُّسُلَ ، لِيُرشدوهم إلى طَرِيقِ الحَقِّ كُلَّمَا انْحَرَفَتْ بهم السُّبُلُ،واسْتَشْرَى فِيهم الضَّلالُ،حَتَّى خَتَمَ اللَّهُ الرِّسَالاتِ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.والمُدَّةُ التي لَمْ يُبْعَثْ فيها رسولٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيما بَيْن النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ والنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ كانتْ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ ، كما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصَّف : ٦] .

وفي فَترةِ الانقطاعِ انتشرت الأديانُ الباطلة ، واتَّسَعَتْ رُقْعَةُ عِبَادَةِ الأصنامِ حَيْث انتشرت الوثنية والعقائد المُنْحَرِفَة ، وأضْحَى وَجْهُ الأرضِ كَئِيبًا بسبب العَقائدِ الكُفْرِيَّة، وغِيَابِ الهِداية الإلهيَّة ، وَاتِّبَاعِ الناسِ لأهوائِهم ومَصالِحِهم وشَياطِينِهم، فَجَاءَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُخْرِجَ الناسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والكُفْرِ إلى نُورِ العِلْمِ والإيمانِ ، بإذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِه ، ويُخْرِجَهم مِنْ عِبادةِ العِبَادِ إلى عِبادةِ رَبِّ العِباد .

وقال الحافظ في الفتح (٧ / ٢٧٧) : ((والمُرادُ بالفَترةِ المُدَّةُ التي لا يُبْعَث فِيها رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ، ولا يُمْتَنَع أنْ يُنَبَّأ فِيها مَنْ يَدعو إلى شريعة الرسول الأخير . ونَقَلَ ابنُ الجَوزي الاتِّفَاقَ عَلى مَا اقْتَضَاه حديث سَلْمَان هذا)) .

وَذَهَبَ علماء التفسير إلى وجود أنبياء بعد عِيسى ﷺ مُسْتَدِلِّين بِقَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهما فَعَزَّزْنا بثالثٍ ﴾ [يس : ١٤] .

قال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٥١٧) : ((فأضافَ اللَّهُ سُبحانَه الإرسالَ إلى نَفْسِه في قَوْلِه : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ﴾ ، لأنَّ عِيسَى أرْسَلَهُم بِأمْرِ اللَّهِ سُبحانَه ، ويَجُوز أنْ يَكُونَ اللَّهُ أرْسَلَهُم بَعْدَ رَفْعِ عِيسى إلى السَّمَاء)) .

وفي صحيح مُسْلِم (٤/ ٢١٩٧) : عن عِيَاضِ بنِ حِمَار ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((...،وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إلى أهْلِ الأرْضِ فَمَقَتَهُم، عَرَبَهُم وعَجَمَهُم، إلا بَقَايَا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ)).

هذا الحديثُ يَتَعَلَّق بالفترة الزمنية التي سَبَقَت البَعْثَةَ المُحَمَّدية الإسلامية ، فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهُ أهْلَ الأرضِ أشَدَّ البُغْضِ بسبب انحرافِهم ، واتِّبَاعِهم للشَّيطان ، وعَدَمِ التزامِهم بشرائع الأنبياء السَّمَاوِيَّة ، إلا بَقَايا مِنْ أهلِ الكِتاب المُتَمَسِّكِين بالدِّينِ الحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَحريفٍ ، وهذا يدلُّ على أنَّه لا يَخْلُو زَمَنٌ مِنْ قائمٍ للَّهِ بِحُجَّةٍ. واللَّهُ أرْحَمُ بالعِبَادِ مِنْ أُمَّهَاتِهم، لذلك أَرْسَلَ إلَيْهِم مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ الأنبياءِ والمُرْسَلِين،لإرشادِهم إلى الحَقِّ، وتَوْجِيهِهِم إلى الصَّوَاب، وإنقاذِهم مِنْ عَذابِ النار .

وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مُسْلِم (١٧/ ١٩٧و١٩٨) : ((المَقْتُ : أشَدُّ البُغْضِ، والمُرادُ بهذا المَقْتِ والنَّظَرِ ، مَا قَبْلَ بَعْثَةِ رسول اللَّهِ ﷺ ، والمُرادُ ببقايا أهل الكِتاب الباقون على التَّمَسُّكِ بِدِينِهِم الحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَبْديل)) .

وَتَتَكَرَّس العَلاقةُ بَين مُحَمَّدٍ وعِيسَى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ باعتبارهما رَسُولَيْن كَرِيمَيْن ، وباعتبار الفترة الزمنية بينهما. عن أبي هُرَيْرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول : ((أنا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَم ، والأنبياءُ أولادُ عَلَّات ، لَيْسَ بَيْني وبَيْنَهُ نَبِيٌّ)) [٣١] .

أولادُ عَلَّات:الإخْوَةُ لأبٍ مِنْ أُمَّهَاتٍ شَتَّى، وأمَّا الإخْوَةُ مِنَ الأبَوَيْن، فَيُقَال لهم أولاد الأعيان.

إنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إخْوَةٌ ، دِينُهُم واحدٌ ، يَحْمِلُون كَلِمَةَ اللَّهِ إلى الناسِ لإنقاذِهم ، وإخراجِهم مِنْ ضِيقِ الدُّنيا إلى سَعَةِ الدُّنيا والآخرة . وكُلُّ نَبِيٍّ يُصَدِّق مَنْ قَبْلَه ، وكُلُّهُم يَصْنَعُون البُنْيَانَ الإيمانيَّ على سطح الأرض دُون تَعَارُض أوْ تَنَافُر . ومعنى الحديث أنَّ أصْلَ إيمانِهم واحد ، وشرائعهم مُختلفة. فَهُمْ مُتَّفِقُون في أُصُولِ التَّوحيد ، ومُختلفون في فُروع الشَّرائع، لأنَّ الشَّرائع تَختلف باختلافِ الزَّمَانِ والمَكَانِ وطَبيعةِ الناس ، وَقَدْ جاءت الشَّرائعُ لتحقيق مصالح

---

٣١ مُتَّفَق عَلَيْه. البُخاري (٣ / ١٢٧٠) برقم (٣٢٥٨)، ومُسْلِم (٤ / ١٨٣٧) برقم (٢٣٦٥).

الناس ، وَلَمْ تَجِئْ للتَّضييق عَلَيهم . وحَيْث تَكُون المَصلحة فَثَمَّ شَرْع اللَّهِ تعالى . والإسلامُ دِينُ جَميعِ الأنبياءِ بِلا استثناء . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلامُ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٩]. والشَّرائعُ مُختلفة ومُتعددة.قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إلا أنْ آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٥٩] [٣٢] .

قُلْ يا مُحَمَّد : يا مَعْشَرَ اليَهُودِ والنَّصَارى ، هَل تَكْرَهُونَ مِنَّا وَتَعِيبُونَ عَلَيْنا وتُنْكِرُونَ مِنَّا إلا الإيمانَ باللَّهِ وكُتُبِه ورُسُلِه ؟، هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَن أوْ عَيْب إلا هذا ؟، وهذا لَيْسَ بِعَيْبٍ ولا مَذَمَّة ، فَيَكُون الاستثناءُ مُنْقَطِعًا ، وأنَّ أكثركم خارجون عَن الطريق المُستقيم .

والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إلا أنْ آمَنَّا ﴾ يُسَمَّى مِثْلُ هذا عِند عُلماء البيان تأكيد المَدْح بِما يُشْبِه الذَّمَّ ، فَقَدْ جَعَلُوا التَّمَسُّكَ بالإيمانِ مُوجِبًا للإنكارِ والنِّقْمَةِ، مَعَ أنَّ الأمْرَ بالعَكْسِ. وهذا يدلُّ على ضَلالِهم واتِّبَاعِهم لأهوائِهم ومَصالحِهم .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٣٢٥) : ((هَلْ تَكْرَهُونَ وَتُنْكِرُونَ مِنَّا إلا إيمانَنا وفِسْقَكم ، أي : إنَّما كَرِهْتُم إيمانَنا وأنتُم تَعْلَمُون أنَّنا عَلى حَقٍّ ، لأنَّكُم قَدْ فَسَقْتُمْ بأنْ أَقَمْتُمْ عَلى دِينِكُم لِمَحبتكم الرِّئاسة وكَسْبِكم بها الأموال . وتَقديرُ قَوْلِه : ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ، وَلأنَّ أَكْثَرَكُم ، والواو زائدة ، والمعنى : لِفِسْقِكُم نَقَمْتُم عَلَيْنَا الإيمانَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أنَّ أهلَ الكتابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنهُم سَيِّئاتِهِم ولأدْخَلْناهُم جَنَّاتِ النعيمِ ﴾ [المائدة : ٦٥] .

لَوْ أنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى آمَنُوا باللَّهِ ورَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وعَمِلُوا بالشَّريعةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّة ، وابتَعدوا عن المعاصي خاصةً الشِّرْك، لَمَحَا اللَّهُ ذُنُوبَهم _ مَهْمَا كانت كثيرةً _ وَلَمْ يُؤَاخِذْهُم بِها ، وَسَتَرَهَا عَلَيْهِم في الدَّارَيْن ، كأنَّها لَمْ تَكُنْ ، وَمَا فَضَحَهُم ولا وَبَّخَهُم ، وأدْخَلَهُم جَنَّاتِ النَّعِيمِ خالدين فيها أبَدًا . واللَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُم فَوْقَ طاقتهم ، فَقَدْ أرادَ مِنْهُم أنْ يُؤْمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ، ويَجتنبوا الذُّنُوبَ والآثامَ والمعاصي ، والشِّرْكُ هُوَ أعظمُ الذُّنُوبِ .

---

٣٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨٦) : ((سبب نُزولها أنَّ نَفَرًا مِنَ اليهود أَتَوْا رسولَ اللَّهِ ﷺ فسألوه عَمَّن يُؤْمِن بِهِ مِنَ الرُّسُل ، فَذَكَرَ جميعَ الأنبياء ، فلمَّا ذَكَرَ عِيسى جَحَدُوا نُبُوَّتَه ، وقالوا : واللَّهِ مَا نَعْلَم دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُم ، فَنَزَلَتْ هذه الآية والتي بَعْدَها، قاله ابن عباس)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((وفيه تَنْبيهٌ على عِظَمِ مَعَاصِيهم، وكَثْرَةِ ذُنُوبِهم ، وأنَّ الإسلام يَجُبُّ _ يَمْحُو _ مَا قَبْلَه وَإنْ جَلَّ ، وأنَّ الكِتَابِيَّ لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَا لَمْ يُسْلِمْ)) .

وقال الشَّوكاني في فَتح القدير (٢/ ٨٥) : ((﴿ وَلَوْ أنَّ أهلَ الكتابِ ﴾ أي : لَوْ أنَّ المُتَمَسِّكين بالكتاب ، وهُم اليهود والنَّصَارى على أنَّ التعريف للجِنْسِ ﴿ آمَنُوا ﴾ الإيمانَ الذي طَلَبَه اللَّهُ مِنْهُم ، وَمِنْ أَهَمِّ الإيمانِ بما جاء بِه مُحَمَّد ﷺ ، كما أُمِرُوا بذلك في كُتُبِ اللَّهِ المُنْزَلَةِ عَلَيْهِم ﴿ واتَّقَوْا ﴾ المعاصي التي مِنْ أعظمها مَا هُمْ عَلَيْه مِنَ الشِّرْكِ باللَّهِ ، والجُحُود لِمَا جاء به رسولُ اللَّهِ ﴿ لَكَفَّرْنا عَنهُم سَيِّئاتِهِم ﴾ التي اقترفوها ، وإنْ كانتْ كثيرة مُتنوِّعة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ يا أهلَ الكِتابِ لَسْتُم عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقيموا التَّوراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾ [المائدة : ٦٨] .

قُلْ يا مُحَمَّد لليهود والنصارى : لَسْتُم على شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ حَتَّى تُؤْمِنُوا بالتَّوراةِ والإنجيل ، وتُقيموا أحكامَهما على الوجه الأكمل ، وتَعملوا بما فيهما مِن شرائع وتعاليم ، ومِن ضِمنها الإيمان بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ،وتُؤْمنوا بالقُرآن الذي هو خَاتَم الكُتُب السَّماوية،المحفوظ مِن الضَّياع والتَّحريفِ.

يجب على اليهود والنصارى الإيمان بجميع الكُتُب السَّماوية بلا تفريق ، والإيمان بجميع الأنبياء بلا تمييز ، والعمل بأحكام الكُتُب السَّماوية وشرائعها كاملةً ، بلا انتقائية ، والإيمان بما وَرَدَ في التَّوراةِ والإنجيلِ مِنْ صِفَةِ النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فيجب الإيمان بِنُبُوَّتِه ، والالتزام بشريعته .

والآيةُ ﴿ لَسْتُم عَلى شَيء ﴾ تدلُّ على مُنتهى التحقير والإهانة وانعدام قِيمتهم وقِلَّة شأنهم وسُوءِ حالِهم .

إنَّ كُلَّ التصرفات الإنسانية التي لا تنبثق مِنَ الوَحْي السَّماويِّ (الكتب السماوية) ، هي سلوكيات شاذة مرفوضة ، ومُناوئة للإنسانية ، ومُضادة للقِيَمِ الحضارية، ومُخالفة للأوامر الإلهيَّة . والكُتُبُ السَّماوية جاءتْ لِتُصبح دُستورًا حياتيًّا واقعيًّا ومَلموسًا ، لا أفكارًا هُلامِيَّة مُجَرَّدَة .

وهَذه الكُتُبُ السَّماوية المُقدَّسة كفيلة بإنشاء المُجتمعات على أُسس صحيحة ومتينة ، حيث يَسُود الحَقُّ ، والعَدْل، والمُسَاواة، والسَّعَادة الرُّوحِيَّة ، والمُتعة المَاديَّة ، والرَّخاء الاقتصادي .

واللَّهُ أعْلَمُ بالإنسانِ مِنْ نَفْسِه ، يَعْلَم مَفاتيحَ شخصية الإنسان ، ويَعْرِف نِقَاطَ قُوَّتِه وضَعْفِه، لأنَّ اللَّهَ هو الخالق الذي يَعْرِف كُلَّ شَيْءٍ عَن مَخْلوقاته ، وهو سُبحانَه الصانع الذي يَعْرِف كُلَّ شَيْءٍ عَنْ مَصْنُوعاته . أمَّا الإنسانُ فهو كائن ضعيف قاصر ، مَحدود الإمكانيات والقُدرات . ومَهْما عَلا شَأنُه في مَجال العِلْمِ والمَعرفةِ والحَضارةِ ، سيظلُّ ضعيفًا وعاجزًا ذا تفكير محدود .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٦٤٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ قُل ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى ﴿ يا أهلَ الكِتابِ ﴾ التَّوراة والإنجيل ﴿ لَسْتُم عَلى شَيء ﴾ مِمَّا تَدَّعون أنكم عليه مِمَّا جاءكم به مُوسى ﷺ مَعْشَرَ اليهود ، ولا مِمَّا جاءكم به عِيسى ﷺ معشرَ النصارى ، ﴿ حتى تُقيموا التَّوراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾ مِمَّا جاءكم به مُحَمَّد ﷺ مِنَ الفُرْقان ، فَتعملوا بذلك كُلِّه، وتُؤْمِنُوا بما فيه مِنَ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وتَصديقِه ، وتُقِرُّوا بأنَّ كُلَّ ذلك مِنْ عِند اللَّهِ ، فلا تُكذِّبوا بِشَيْءٍ مِنْه ، ولا تُفَرِّقوا بَين رُسُلِ اللَّهِ ، فَتُؤْمِنُوا ببعض ، وتَكْفُروا ببعض ، فإنَّ الكُفْرَ بواحد مِنْ ذلك كُفْرٌ بجميعه ، لأنَّ كُتُبَ اللَّهِ يُصَدِّق بعضُها بعضًا ، فَمَنْ كَذَّبَ ببعضها، فَقَدْ كَذَّبَ بجميعها)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٣٤٨) : ((﴿ حتى تُقيموا التَّوراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾ ومِن إقامتها الإيمان بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، والإذعان لِحُكْمِه ، فإنَّ الكُتُبَ الإلهيَّة بِأسْرِهَا آمِرَة بالإيمان بِمَنْ صَدَّقَتْهُ المُعْجِزَة ، ناطقة بوجوب الطاعة له . والمُراد إقامة أُصُولها ، ومَا لَمْ يُنْسَخْ مِنْ فُروعها)) .

يجب الإيمانُ بِكُلِّ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ المُنْزَلَةِ على الأنبياء . وتَكذيبُ كِتَابٍ سَمَاوِيٍّ هو تكذيب لِكُلِّ الكُتُبِ السَّماوية ، وتكذيبٌ لِمَنْ أنزلها . وتَمثيلُ دَوْرِ المُؤمِن بالتَّوراةِ والإنجيلِ دُون القُرآن الكريم حِيلةٌ باطلة ومكشوفة ، ولا فائدة مِنها ، وعاقبتها وخيمة ، ونهايتها العذاب .

والإيمانُ بالأنبياء لا يَتَجَزَّأ ولا يَتَبَعَّض ، ولَيْسَ مَخصوصًا بِنَبِيٍّ دُون آخَر ، وتكذيبُ نَبِيٍّ واحد هو تكذيب لِكُلِّ الأنبياء ، لأنَّهم سائرون وَفْقَ مَنْهَجٍ إلَهِيٍّ واحد . واللَّهُ هو الذي أرْسَلَهم . والشَّريعةُ الإلهيَّة تُؤْخَذ كَكُلٍّ لا يَتَجَزَّأ ، لأنَّها وَحْدَة بِناء مُتماسكة ، ومَنظومة واحدة متكاملة ، تُؤْخَذ كاملةً ، أوْ تُرْفَض كاملةً ، ولا يُوجد حَل وَسَط بين الأمْرَيْن ، ولا تُوجَد أنصاف حُلُول .

والأشخاصُ الذين يُقَسِّمون الشريعةَ حَسَب أهوائهم ومصالحهم ، فيأخذون مَا يُوافقها ، ويَرفضون مَا يُخالفها ، لا يُمْكِنهم استيعاب عَظَمَةِ النُّصُوصِ الدِّينيةِ ورُوحِ الشَّريعةِ ، والإحساس بالأمْنِ والأمانِ والطُّمَأنِينة . وَسَوْفَ يَظَلُّون تائهين بِلا بُوصلة ولا هدف ، غارقين في الشُّكُوكِ والشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ والأهواءِ المُتعارضة، وَلَنْ يَذهبوا بعيدًا ، لأنَّهُم لا يَعْرِفُون أيْنَ هُمْ ذاهبون .

و[عن ابن عباس قال : جاء مالك بن الصَّيف وجماعة من الأحبار ، فقالوا : يا مُحَمَّد ، ألَسْتَ تَزْعُم أنَّكَ على مِلَّةِ إبراهيم ، وتُؤْمِن بِما في التَّوراة ، وتَشْهَد أنَّها حَق ؟ ، قال : ((بَلَى، وَلَكِنَّكُم كَتَمْتُم مِنها مَا أُمِرْتُم ببيانه ، فأنا أَبْرَأُ مِمَّا أحدثتموه)) ، قالوا : فإنَّا نَتَمَسَّكُ بِما في أيدينا

مِنَ الهُدى والحَقِّ ولا نُؤْمِنُ بِكَ ، ولا بِمَا جِئْتَ بِه] [٣٣] . فأنزَلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكِتابِ لَسْتُم عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقيموا التَّوراةَ والإنجيلَ ﴾ الآية .

إنَّ عُلماء اليهود يُحاولون إفحامَ النبيِّ ﷺ ، وإقامةَ الحُجَّةِ عَلَيْه ، لكنَّ كَيْدَهم رُدَّ في نُحُورهم. فالنبيُّ ﷺ على مِلَّةِ إبراهيم ﷺ (الحَنِيفِيَّة السَّمْحَة) ، ويُؤْمِن بالتَّوراةِ التي أُنزِلَتْ عَلى مُوسَى ﷺ ، لكنَّه يَبْرَأ مِنَ التَّحريفاتِ التي اخترعها اليَهُودُ في كِتابهم ، لأنَّها إسهامات بشرية لا تَمُتُّ للوَحْي بِصِلَةٍ . أمَّا زَعْمُ الأحبارِ تَمَسُّكَهم بالتَّوراةِ وكُفْرُهُم بالنبيِّ ﷺ ، فهذا أمرٌ مُتناقض يَنْسِفُ بَعْضُه بعضًا، لأنَّ تَكذيب مُحَمَّدٍ ﷺ هو تَكذيب للتَّوراةِ التي أَخْبَرَتْ عَنْه ، وتكذيبٌ لِمُوسَى ﷺ الذي يَزْعُم اليَهُودُ أنَّهُم سائرون وَفْقَ شريعته . وهكذا يَتَّضح التناقضُ في العقل اليهوديِّ المُعتمِد على الأهواءِ الذاتية ، والمصالحِ الشَّخصية ، والمكاسبِ الماديَّة ، والتَّحايُلِ، والتَّلاعُبِ، ولَوْيِ أعناقِ النُّصُوصِ ، للوُصولِ إلى الأهدافِ الخبيثةِ ، والأغراضِ الدَّنيئة .

وفي صحيح البُخاري (٥/ ٢٣٧٤) أنَّ سُفيان بن عُيَينة قال : ((مَا في القُرْآنِ آيَةٌ أشَدُّ عَلَيَّ مِنْ ﴿ لَسْتُم عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقيموا التَّوراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾)) .

هذا يُشير إلى ضَرورةِ الالتزامِ بالتعاليمِ الدِّينيةِ ، وأخْذِها وَحْدَةً واحدة دُون تَفرقة أو اجتزاء ، لأنَّ التَّقصيرَ في أداء عِبادة يَنسحب على باقي العِبادات ، وهكذا تَتَّضِح الرابطةُ الوثيقة بَين العِبَادات ، بِحَيْث لا يُمْكِن فَصْلُها . كَمَا أنَّ التَّقصير في حَمْلِ الشريعة يُؤَدِّي إلى تَدميرِ الرُّوحِ الإنسانية ، وَنَسْفِ القِيَمِ الاجتماعية ، وتَحطيمِ المَعَاني الرُّوحِيَّةِ والمَادِيَّةِ . وهُنا تَتَجَلَّى أهميةُ الثباتِ على المَنْهَجِ السَّماويِّ ، وحَمْلِه بِكُلِّ أمانة وكفاءة، وإيصالِه إلى جميع الناس لإنقاذِهم، ومَنْحِهِم السَّعَادة في حياتهم وبَعْد مَمَاتهم . والإسلامُ لَمْ يَجِئْ لِيُدَمِّرَ الناسَ،بَلْ جاءَ لإنقاذِهم وضَمَانِ سَعادتهم في الدُّنيا ونجاتهم في الآخِرة .

وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٢٦٩): ((مَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِما أنزَلَ اللَّهُ في كِتابه فَلَيْسَ على شَيْء ، ومُقْتضاه أنَّ مَنْ أَخَلَّ ببعض الفرائض فَقَدْ أَخَلَّ بالجميع ، ولأجْلِ ذلك أطْلَقَ كَوْنَها أشدَّ مِنْ غَيْرِها ، وَيَحْتَمِل أن يَكُون هذا مِمَّا كان على أهل الكِتاب مِنَ الإصْرِ ــ العَهْدِ ــ)) .

---

٣٣ ذَكَرَه الحافظ في الفتح (٨/ ٢٦٩) وقال قَبْلَه : رواه ابن أبي حاتم بإسنادحسن من طريق سعيد ابن جُبَير . اهـ . وانظر الدُّر المنثور للسُّيوطي (٣/ ١٢٠) ، وقد جاء فيه أسماء الأحبار ، وهُم : ((رافع ابن حارثة ، وسَلام بن مِشْكَم، ومالك بن الصَّيف ، ورافع بن حَرْمَلَة)) .

وَالشَّريعةُ السَّماويةُ كُلٌّ لا يَتَجَزَّأ ، فَهِيَ بِناءٌ مُتماسِك وشامخ . وَمَنْ أَخَلَّ بِجُزْءٍ مِنها فَهُوَ يَهْدِم كُلَّ أجزائها ، تَمَامًا كالبُنْيَانِ العظيم المُترابِط، إنْ أُزيلَتْ مِنْه لَبِنَة سَوْفَ يَنهار، وهُنا تَبْرُز أهميةُ فَهْمِ التَّعَاليم السَّمَاوية، وتَطبيقِها كُلِّهَا دُون اجتزاء أوْ مِزَاجية أو انتقائية .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دِينِكُم غَيْرَ الحقِّ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَد ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأضلوا كَثيرًا وضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيل ﴾ [المائدة : ٧٧] .

الخِطَابُ الإلَهِيُّ للنَّبِيِّ ﷺ . قُل يا مُحَمَّد لأهل الكتاب: لا تتجاوزوا الحدَّ في دِينكم ، ولا تُفرِّطوا في أقوالكم وعقائدكم ، ولا تُعظِّموا المسيحَ إلى درجة اتِّخاذه إِلَهًا أو ابن إله . وهذا هو غُلُوُّ النصارى ، أمَّا غُلُوُّ اليهود فيتَّضح في اعتبار المسيح ابن زنا ، ومريم زانية . إن المسيح عبد اللَّه ورسوله ، وليس إِلَهًا ولا ابن إله ، فاللَّهُ لَم يَلِدْ ولَم يُولَدْ ، واللَّهُ وَحْدَه هو الإله المعبود بحق .

إن اللَّه يأمر أهلَ الكتاب بعدم الغُلُوِّ في الدِّين، أي عدم مُجاوزة الحد، والتطرف ، والانحراف عن الطريق المستقيم . فالغُلُوُّ طريقُ الضلال، والابتعادُ عن جَادَّة الصواب،وله تأثيرات سَلْبِيَّة على الحياة والأفكار والإنسان والمجتمع .

وقد غَلا اليهودُ في السَّيد المسيح ﷺ حتى قَذَفُوا أُمَّه السيدةَ مريم ـ عليها السلام ـ ، فَرَمَوْهَا بالزِّنا. قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النِّساء:١٥٦] [٣٤] .

---

٣٤ لقد كَفَرَ اليهودُ بالنبيِّ عيسى ﷺ ، واتَّهموا أُمَّه مريم بالزنا ، وقد فضَّلها اللَّهُ على نساء العَالَمِين. ولَمْ يَكْتَفِ اليهود بالكفر بالمسيح ﷺ ، وإنكار نُبُوَّته ، وجَحْد رسالته ، بل أيضًا طعنوا في أُمِّه مريم الصِّديقة الشريفة الطاهرة ، حيث رَمَوْهَا بالزنا بدافع الهوى والحِقد والاعتداء على الشريعة ، دُون أن يُقدِّموا دليلًا على قَولهم . واليهودُ يَنظرون إلى النبيِّ عيسى ﷺ على أنه ابن زنا ، وأمه زانية . وهذا هو منهج اليهود الْمُعَادِي للحق في كل زمان ومكان ، فهُم يُصدرون أحكامًا في الهواء دون أدلة نقلية ولا براهين عقلية ، ثم يُروِّجونها بين الناس مُستخدمين وسائل قُوَّتهم ، وسَطْوة إعلامهم ، وأموالهم ، ونفوذهم . واليهودُ في غاية الذكاء والدهاء والمكر والخُبث ، وهُم أصحاب خِبرة واسعة في التخطيط للمؤامرات ، مِن أجل نشر باطلهم ، وتلميع صورتهم ، وتشويه صورة أعدائهم . لقد اتَّهموا السيدةَ مريم ـ عليها السلام ـ بالزنا ، اتِّبَاعًا لأهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية ، ومنافعهم المادية ، بدون دليل نقلي ولا حُجَّة عقلية. وهذا البُهتانُ الذي ألصقوه بالسَّيدة مريم ، يُشير إلى النفسية الخبيثة لليهود الذين يعتمدون على ترويج الإشاعات الْمُغرِضة بهدف القضاء على الآخرين ، وتحطيمهم ، وتَلويث سُمعتهم ، وتَشويه صورتهم ،

أمَّا النصارى فقد غَرِقُوا في التطرف والغُلُوِّ عَكْس اتجاه اليهود ، فقد اعتبروا المسيح ﷺ إلَهًا وابن اللَّه . وكِلا الأمْرَيْن تطرُّف وغُلُو مِن جهتَيْن متعاكستَيْن. والفضيلةُ هي المَنْزلة الوسط بين خُلُقَيْن ذميمَيْن . وصدقَ القائل :

ولا تَغْلُ في شَيْءٍ مِن الأمرِ وَاقْتَصِدْ كِلا طَرَفَي قَصْدِ الأمورِ ذَمِيـمُ

﴿ ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾ . الأهواء جَمْع هَوى، وهو ما تَدعو إليه شَهوة النَّفْس، وسُمِّيَ هَوى لأنه يَهْوي بصاحبه في النار.لا تتَّبعوا آباءكم وأسلافكم وشُيوخكم وأئمتكم الذين كانوا ضَالِّين قبل بَعثة النبيِّ مُحَمَّد ﷺ .

لا تسيروا على خُطى أئمة الكفر الماضين ورؤساء الضلالة السابقين مِن اليهود والنصارى . والخطابُ لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين كانوا في عصر النبيِّ مُحَمَّد ﷺ . نهاهم اللَّهُ عن اتِّباع أسلافهم وساداتهم وزعمائهم فيما اخترعوه مِن العقائد الكُفرية الباطلة ، وفِيما ابتدعوه بأهوائهم دُون دليل نقلي ولا بُرهان عقلي . ﴿ وأضلوا كَثيرًا ﴾ ، وأضَلُّوا كثيرًا مِن الناس بأهوائهم وإغوائهم لهم ، وابتداع العقائد الباطلة التي ما أنزلَ اللَّهُ بها مِن سُلطان . ﴿ وضَلُّوا عَن سَواءِ السَّبيل ﴾ . وانحرفوا عن قَصْد السَّبيل (الإسلام) ، وخرجوا عن طريق الحق والاعتدال إلى طريق الباطل والتطرُّف . إنَّهُم ضَالُّون في أنفُسِهِم ، ومُضِلُّون لِغَيرهم . لقد ضَلُّوا وأَضَلُّوا مَن اتَّبعهم . وهذا مُنتهى الضلال والإضلال . وقِيل : الأول إشارة إلى ضلالهم عن مُقتضى العقل ، والثاني إشارة إلى ضلالهم عمَّا جاء بِه الشَّرْع .

وقال القُرْطُبي في تفسيره (٦ / ٢٣٦) : ((وتكريرُ ﴿ ضَلُّوا ﴾ على معنى أنهم ضَلُّوا مِن قَبْل، وضَلُّوا مِن بَعْد.والمُراد الأسلاف الذي سَنُّوا الضلالةَ، وعملوا بها، مِن رؤساء اليهود والنصارى)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٥): ((قَوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ ﴾ ، قال مُقاتل : هُم نصارى نَجْران ، والمعنى : ﴿ لا تَغلُوا في دِينِكُم ﴾ فتقولوا ﴿ غَيْرَ الحقِّ ﴾ في عيسى.قَوْلُه تعالى: ﴿ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ ﴾.قال أبو سُلَيمان:مِن قَبْل أن تَضِلُّوا ،

وتدمير المجتمع. قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رَمَوْهَا بالزنا ، وكذلك قال السُّدي وجُوَيبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، وهو ظاهر من الآية أنهم رَمَوْهَا وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض، فعليهم لعائن اللَّه الْمُتتابعة إلى يوم القيامة)) .

وفِيهم قَولان : أحدهما أنهم رُؤساء الضلالة من اليهود . والثاني : رُؤساء اليهود والنصارى . والآيةُ خِطابٌ للذين كانوا في عَصْرِ نَبِيِّنَا ﷺ ، نُهُوا أن يَتَّبعوا أسلافَهم فِيما ابتدعوه بأهوائهم)) .

إنَّ الغُلُوَّ (مُجَاوَزَة الحَد) أدَّى إلى استعمال وسائل قذرة مِثل الخداع والكذب والتَّدليس والتَّلبيس على العَوَام . وهذه الوسائل مِن المُحَرِّكَات الرئيسية لتحريف كلام اللَّه تعالى. أي: خداع الناس بتغيير الكلام الإلهيِّ، والكذبِ على اللَّه تعالى . والأساسُ الفكري لتحريف التوراة والإنجيل مِن قِبَل اليهود والنصارى ، هو تحقيق مكاسب شخصية لِعِلْية القَوم (الحُكَّام والعلماء) ، والحصول على المال والجاه والسُّلطة ، والمُحافظة على النفوذ والمناصب والرئاسة والزعامة ، وضمان استمرار السيطرة على الشعب،واستغلاله ، وسرقته باسم اللَّه تعالى، وابتزازه باسم الدِّين .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هِيَ أحسنُ إلا الذينَ ظَلَمُوا مِنهُم وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم وإلَهُنا وإلَهُكُم واحدٌ ونحنُ لَهُ مُسلِمون ﴾[العنكبوت : ٤٦] .

الخِطابُ للمؤمنين . لا تُناقِشوا وتُحاوِرُوا أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالأسلوب الحسن،والطريقةِ اللطيفة،والحُجَّةِ الدامغة،وبيانِ وجوه القُصور في عقائدهم الباطلة.يَنبغي دَعْوتهم إلى الإسلام بالحِوار الهادئ والنِّقَاش الطَّيب ، وتوضيح آياتِ اللَّه وحُجَجه ، وإظهار تماسك العقيدة الإسلامية دون إكراه أو غِلْظة . أمَّا المُحَارِبون مِن أهل الكتاب الذين يُنَاصبونكم العَدَاءَ، ولا يُؤْمنون بالحِوار،فهؤلاء لا يُحَاوَرون إلا بالسَّيف والشِّدة ، ولا يُعَامَلُون إلا بالجهاد والغِلظة .

وفي الدُّرِّ المَنثور للسُّيوطي (٦ / ٤٦٨) : ((عَن مُجاهِد في قَوْلِه : ﴿ ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسن ﴾ ، قال : إنْ قالوا شَرًّا فقولوا خَيْرًا ، إلا الذين ظَلَمُوا مِنهُم فانتَصِرُوا مِنهُم)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٧٥) : ((إنَّ المُشْرِك لَمَّا جاء بالمُنكَر الفظيع، كان اللائق أن يُجَادَل بالأخشَن ، ويُبالَغ في تَوْهين شُبَهه وتهجين مذهبه ، وأمَّا أهلُ الكتاب فإنهم آمَنوا بإنزال الكتب وإرسال الرُّسُل، إلا الاعتراف بالنبيِّ عليه السلام ، فَلِمُقَابَلة إحسانهم يُجَادَلون بالأحسَن ، إلا الذين ظَلَموا مِنهم بإثبات الولد للَّه ، والقَوْل بثالث ثلاثة، فإنهم يُجادَلون بالأخشَن مِن تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٦/ ٢٧٥) : ((في التي هي أحسن ثلاثة أقوال ، أحدها أنها لا إله إلا اللَّه ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، والثاني أنها الكَفُّ عنهم إذا بَذَلوا الجِزْيةَ، فإن أبَوْا قُوتِلوا ، قاله مجاهد ، والثالث أنها القرآن والدعاء إلى اللَّه بالآياتِ والحُجَجِ . قَوْله تعالى :

﴿ إلا الذين ظَلموا مِنهم ﴾ ، وهُم الذين نَصَبوا الحَرْبَ، وأبَوْا أن يُؤَدُّوا الجِزْيةَ، فَجَادِلوا هؤلاء بالسَّيف ، حتى يُسلِموا أوْ يُعْطُوا الجِزْيةَ)) .

﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم ﴾ . وقولوا لهم : صَدَّقْنا بالقُرآن الذي أُنزِل إلَيْنا، وصَدَّقْنا بالتوراة والإنجيل التي أُنزِلت إلَيكم . وهذا مِنَ المُجَادَلة بالتي هِيَ أحسن .

والكُتب السماوية يُصدِّق بعضُها بعضًا ، لأن مصدرها واحد، وهو السماء . والقُرآنُ وَحْدَه هو الكتاب السماويُّ المحفوظ مِن التحريف والتغيير والتبديل، أمَّا التوراة والإنجيل ، فتمَّ التلاعب بهما ، وهُما كتابان سماويان _ في الأصل _، ولكن طرأ عليهما التحريف والتغيير والتبديل .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥١) : ((وَقَوْلُه تعالى : ﴿ وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إلَيْنا وأُنزِلَ إلَيْكُم ﴾ يعني : إذا أَخْبَرُوا بِما لا نَعْلَم صِدْقَه ولا كَذِبَه ، فهذا لا نُقْدِم على تكذيبه ، لأنَّه قد يكون حَقًّا ، ولا تصديقِه فَلَعَلَّه أن يكون باطلًا ، ولكن نُؤْمِن به إيمانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا على شَرْط، وهو أن يكون مُنَزَّلًا ، لا مُبَدَّلًا ، ولا مُؤَوَّلًا)) .

﴿ وإلَهُنا وإلَهُكُم واحدٌ ونحنُ لَهُ مُسلِمون ﴾ . ورَبُّنا ورَبُّكم واحد، لا شريك له، ونحن نَعبده وَحْدَه، ومُستسلمون له، وخاضعون لأمره ، ومُذْعِنُون لِحُكمه ، نُطيعه ولا نَعصيه ، نلتزم أوامرَه ، ونَجتنب نَوَاهيه.وهذا مِن جِنس المُجَادَلة بالتي هِيَ أحسن.وقال البَيْضاوي في تفسيره(١/ ٣١٨): ((مُطِيعون له خاصَّة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارَهم ورُهبانهم أربابًا مِن دُون اللَّه)) .

وفي صحيح البُخاري (٦/ ٢٦٧٩) : عن أبي هُرَيرة قال : كانَ أهلُ الكتاب يَقْرَؤُون التَّوراةَ بالعِبرانية ، ويُفَسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول اللَّه ﷺ : ((لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم ، ﴿ وقولوا آمَنَّا باللَّهِ وما أُنزِلَ إلَيْنَا ﴾ _ [البَقَرَة : ١٣٦] الآيةَ _)) .

يُحذِّر النبيُّ ﷺ أُمَّتَه من الاغترار بما يَرويه أهلُ الكتاب مِن كُتبهم . وقد كان اليهود على عهد النبيِّ ﷺ يَقرؤون التَّوراة باللغة العِبرية (لغة اليهود) ، ويُفَسِّرونها ، ويُترجمونها للمُسلمين باللغة العربية ، فأمرَ النبيُّ ﷺ بعدم تَصديقهم ولا تَكذيبهم ، وهذا فِيما لا يُعرَف صِدْقُه مِن كَذِبه ، وذلك لأنَّ اللَّه أمرَ المُسلمين بالإيمان بما أُنزِلَ إلَيهم مِن القُرآن ، وَمَا أُنزِلَ على اليهود والنصارى (التَّوراة والإنجيل) . ولا يَستطيع المُسلمون أن يَعْلَمُوا صحيحَ ما يَحْكُونه عن تِلك الكُتُب مِن سَقِيمه ، إذا لَم يَرِدْ في الشريعة المُحمَّدية الإسلامية ما يُوضِّح صِدْقَه مِن كَذِبه ، فيجب التوقف ، وعدم تصديقهم ، لئلا يَكون المُسلمون شُركاء مع أهل الكتاب فِيما حرَّفوه مِنه ، ولا يَجوز تكذيبهم ، فلعلَّه يكون صحيحًا ، فيكون المُسلمون مُنكِرين لِمَا أُمِرُوا بالإيمان به . أمَّا ما عُلِمَ

كَذِبُه مِمَّا أخبرَ به اليهودُ والنصارى _ كافترائهم على اللَّه ورسوله _ ، فيجب على المسلم تكذيبهم فِيما قالوا .

والحديثُ يُشير إلى أنَّ المُسلِم _ مِن حَيث الإجمال _ يؤمن بما جاء به أنبياءُ اللَّه جميعًا ، ولا يُصدِّق إلا ما جاءَ مُوَافِقًا للقُرآن والسُّنَّة .

لقد أنزلَ اللَّهُ القُرآنَ حَاكِمًا على ما سَبَقَه مِن كُتُب وشرائع ، فشريعته وأحكامه قاضية على كُلِّ ما سَبَقَه مِن شرائع . وقد طالت أيدي التحريف ما سَبَقَه مِن كُتُب سماويَّة، فَحَرَّفَ اليهودُ التَّوراةَ ، وحرَّف النصارى الإنجيلَ ، وزادوا التَّوراةَ تحريفًا .

إنَّ القُرآن هُوَ الحاكم على التَّوراة والإنجيل ، لأنَّ القُرآن وَحْدَه هو الكتاب السماويُّ المحفوظ من التحريف . وما وافقَ القُرآنَ كانَ حَقًّا،وما خالفه كانَ باطلًا. وإذا أخبرَ أهلُ الكتاب بشيء لَم يُبَيِّنْهُ القُرآن، فينبغي التوقف ، وعدم التَّصديق ، فقد يكون باطلًا . وأيضًا ، عدم التكذيب ، فقد يكون حَقًّا . ولا يَجوز تصديق الباطل ، ولا تكذيب الحق . وهذا يدلُّ على أهمية الابتعاد عن المشكلات والقضايا الصعبة ، وعدم الخَوض فِيها بالظن والاحتمال .

إنَّ اليهودَ كانوا يَقرؤون التَّوراةَ بِلُغتهم، ويُوضِّحون ما فِيها باللغة العربية للمسلمين . وهذا الأمرُ شديد الخطورة، لأن اليهودَ أهلُ حِقْدٍ ومَكْرٍ وخُبث، ولَيْسُوا أهْلًا للثِّقة ، فَرُبَّما يَدُسُّون السُّمَّ في العسل ، ويَنقلون للمسلمين أفكارًا دينية مُحرَّفة ، ولا شَكَّ أن اليهودَ لَدَيهم خِبرة عريضة في تحريف كلامِ اللَّه ، والتلاعب بِه ، ولَوْي أعناق النُّصوص ، وإدخال المصالح الشخصية في النُّصوص الدِّينية ، لذلك ينبغي عدم اعتماد أقوالهم وتفسيراتهم ، لأن الدليل إذا تَطَرَّقَ إلَيه الاحتمالُ ، سَقَطَ بِه الاستدلالُ . فإذا صَدَّقهم المُسْلِمُ فَرُبَّما صَدَّقَ بالباطل ، وإذا كَذَّبَهم فَرُبَّمَا كَذَّبَ بالحق . وعندئذٍ يَقع المُسْلِمُ في الضَّلال والحَرَج .

والمسلمُ يَبْني دِينَه على اليقين الذي لا يَتَسَلَّل إلَيه الشَّك ، ولا تُصيبه الشُّبُهَات ، ولا تَطرأ عَلَيه الاحتمالاتُ وأنصافُ الحُلُول . واليقينُ هو اعتمادُ القُرآن ، وهذا يتضمَّن الإيمانَ بما أُنزِلَ على الرُّسُل السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ بلا استثناء . وما وافقَ القُرآنَ كانَ حَقًّا وصِدْقًا ، وما خالفَ القُرآنَ كان باطلًا وكَذِبًا . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٣٥) : ((فالمُراد بأهل الكتاب اليهود ، لكنَّ الحُكْمَ عام فيتناول النصارى)) .

وبشكل عام ، إن أخبار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لها ثلاث حالات : الأُولَى _ إذا وافقتْ أخبارُهم القُرآنَ، فهي أخبار صحيحة نُصَدِّق بِها. والثانية_ إذا عارَضتْ أخبارُهم القُرآنَ ،

فهي أخبار باطلة نُكذِّب بِها . والثالثة _ إذا كانت أخبارُهم مِمَّا سَكَتَ عنه القُرآنُ ، فهي أخبارٌ نَتوقَّف عِندَها ، ولا نَحكُم عليها ، ولا نُصدِّقها ، ولا نُكذِّبها . وتَجوز رِوايتُها .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٠) : ((قَوله : " لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم " أي : إذا كان ما يُخبرونكم به مُحْتَمَلًا ، لئلا يكون في نَفْس الأمر صِدْقًا فَتُكذِّبوه ، أَوْ كَذِبًا فَتُصَدِّقُوه ، فَتَقَعُوا في الحَرَج ، ولَمْ يَرِد النَّهْيُ عَن تكذيبهم فِيما وَرَدَ شَرْعُنا بِخِلافه ، ولا عَن تصديقهم فِيما وَرَدَ شَرْعُنا بِوِفاقه . نبَّه على ذلك الشافعي رحمه اللَّه ، ويُؤْخَذ مِن هذا الحديث التَّوَقُّف عَن الخَوض في المُشكلات ، والجَزْم فيها بما يقع في الظن ، وعلى هذا يُحمَل ما جاء عن السَّلَف مِن ذلك)) .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٥) عن عبد اللَّه بن عمرو _ رضي اللَّهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيةً ، وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيلَ ولا حَرَجَ ، ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النار)) . [" بَلِّغُوا " : تَكليف . " عَنِّي " : تَشريف . " وَلَوْ آيَةً " : تَخفيف] .

حَثَّت الشريعةُ الإسلامية على تبليغ ما جاء به النبيُّ ﷺ ، كُلٌّ بِحَسَبِ استطاعته وعِلْمِه ، بشرط تَحَرِّي الصِّحة والصِّدق فيما يُبلِّغ عن اللَّه تعالى ونَبِيِّه ﷺ .

أمَرَ النبيُّ ﷺ بإخبار الناس وتعليمهم ما جاء عنه وبلَّغهم به ، مِن قُرآن وسُنَّة ، واقْتُصِرَ هُنا على الآية ، لِيُسَارِع كُلُّ سامع إلى تبليغ ما يَعْلَمه مِن الآيات والعِلْم ، وَلَوْ كان قليلًا ، وَلَوْ آية واحدة ، بشرط أن يُبلِّغ الآيةَ صحيحةً . وقَوله : " آية " يَشمل القُرْآنَ والحديثَ النَّبَوِيَّ ، لأن الحديث في حُكْم الآية القُرآنية ، مِن حَيث إنَّه وَحْيٌ إلهيٌّ . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وما نَهَاكُم عَنْهُ فانتَهُوا ﴾ [الحَشْر : ٧] .

" وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيلَ " ، أي : وأخْبِرُوا بما حدَّثكم به بَنو إسرائيل ، واسْمَعُوا لِمَا يُحدِّثونكم به مِمَّا لا يتعارض مع الشرع ، وبما لا تَعْلَمُون كَذِبَه . " ولا حَرَجَ " ، أي: لا يَقع عليكم شيء مِن الإثم والذَّنْب في الحديث عنهم . ولَيس المقصود إباحة الكذب في أخبارهم ، ورفع الإثم عن نَقْل الكذب عنهم ، فالكذبُ مُحرَّم دائمًا وأبدًا ، ولكنَّ هذا ترخيص في الحديث عنهم على البَلاغ ، وإنْ لَم يتحقَّق ذلك بنقل الإسناد ، لِتَعَذُّره بِطُول المُدَّة الزمنية ، بِخِلاف أحكام شريعة الإسلام ، فإن الأصل فيها التحديث بالاتِّصَال . " ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النار " : ومَن قَصَدَ الكَذِبَ على النبيِّ ﷺ وتَعَمَّدَ ذلك ، لا مَن أخطأ ، فَلْيَتَهَيَّأ وَلْيَسْتَعِد إلى دُخوله النار ، وإلى مَقعده الذي فيها ، الذي أوجبه على نَفْسِه بِكَذِبه على النبيِّ ﷺ عَامِدًا

مُتَعَمِّدًا . وهذا وعيد شديد يدلُّ على كِبَر هذه المعصية . وخَصَّ النبيُّ ﷺ الكَذِبَ عليه بالتحذير _ وإنْ كان الكَذِبُ كُلُّه حرامًا _ ، لأنَّ كَلامَه ﷺ تشريع ، وكلام غَيره لَيس كذلك ، فالكَذِب على النبيِّ ﷺ أعظم مَضَرَّةً ، وأكبر إثمًا .

يجب على المُسلِم أن يَنشر الإسلامَ في كُلِّ زمان ومكان، ويُبلِّغ آياتِ القُرآن الكريم ، ويَنشر السُّنَّةَ النَّبَوِيَّة الشريفة . فالدَّعوةُ إلى الإسلام لَيست وظيفةً حُكوميةً أوْ شَهَادةً جامعية ، إنَّ الدَّعوةَ منهجُ حياة لكل مُسلِم ، وكُلُّ مسلم يجب أن يَكون داعيةً بأسلوب لطيف ، وحَسَبَ إمكانياته .

والحديثُ يدل على جَواز ذِكْر أخبار بني إسرائيل بلا أسانيد بسبب المُدَّة الزمنية الطويلة التي تَفْصِل المسلمين عن بَني إسرائيل،فيجوز الحديث عَن قَصَص بني إسرائيل وأمورِهم العجيبة ، كَنُزول النار من السماء لتأكل القُربانَ ، وَلَوْ كان بلا سَند . ولا إثمَ على المسلمين في التحديث بهذا الأمر وغَيْرِه بِشَرْط عدم الكَذِب . فلا يَجوز الكَذِبُ على أيِّ شخص ، مُسْلِمًا كانَ أَمْ كافرًا .

أمَّا حديثُ النبيِّ ﷺ فلا بُدَّ من الأسانيد ، لأن الكَذِبَ عَلَيه بشكل مُتَعَمَّد يُؤدي إلى الهلاك الحتميِّ، ودُخولِ النار.فالنبيُّ مُشَرِّعٌ بأمرِ اللَّه تعالى، والكذبُ عَلَيه يعني تلويثَ الشَّريعة وتشويهَها، والإساءةَ إليها عن طريق إدخال الأكاذيب إلى الدِّين الإسلاميِّ الحق.وهذا يُشَوِّهُ صُورةَ الإسلامِ، ويُؤَدي إلى إفساد المسلمين، وتَنفيرِ الناس مِنَ الإسلام .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ أخبار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) على ثلاثة أقسام : الأوَّل _ ما عَلِمْنا صِحَّته بما دَلَّ عليه الدليل مِن القُرآن والسُّنَّة . الثاني _ ما عَلِمْنا كَذِبَه بما دَلَّ على خِلافه مِن القُرآن والسُّنَّة . الثالث_ ما هو مَسكوت عنه ، فهو المأذون في روايته بِقَوله ﷺ : " وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيلَ ولا حَرَجَ "، وهو الذي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب لِقَوْلِه : " لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم " .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٨و٤٩٩) : ((قَوله : " بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيةً ". قال المُعَافَى النَّهْرَوَاني في كتاب (الجليس له) : الآية في اللغة تُطلَق على ثلاثة مَعَانٍ : العلامة الفاصلة ، والأُعجوبة الحاصلة ، والبَلِيَّة النازلة . فَمِن الأوَّل قَوله تعالى : ﴿ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيَّامٍ إلا رَمْزًا ﴾ [آل عِمران : ٤١] ، ومِن الثاني ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [الشُّعَراء : ١٩٠] . ومِن الثالث : جَعَلَ الأميرُ فُلانًا اليومَ آيَةً . ويُجمَع بين هذه المعاني الثلاثة أنَّه قِيل لها : آية ، لِدَلالتها وفَصْلها وإبانتها . وقال في الحديث : " وَلَوْ آية " ، أي : واحدة ، لِيُسَارِعَ كُلُّ سامع إلى تبليغ ما وَقَعَ له مِن الآيِ ، وَلَوْ قَلَّ، لِيَتَّصِلَ بذلك نقل جميع ما جاء به ﷺ . اهـ كلامُه . " وَحَدِّثوا عَن بَني

إسرائيل ولا حَرَجَ " أي : لا ضِيق علَيكم في الحديث عنهم ، لأنَّه كان تقدَّم مِنه ﷺ الزَّجْر عن الأخذ عنهم ، والنظر في كتبهم ، ثُمَّ حصل التَّوَسُّع في ذلك ، وكأنَّ النَّهْي وَقَعَ قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية ، خَشيةَ الفِتنة ، ثُمَّ لَمَّا زال المحذور وقع الإذن في ذلك لِمَا في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار . وقِيل : معنى قَوْله " لا حَرَجَ " لا تَضِيق صُدورُكم بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب ، فإن ذلك وقع لهم كثيرًا . وقِيل : لا حَرَجَ في أن لا تُحَدِّثوا عنهم ، لأنَّ قَوْلَه أوَّلًا " حَدِّثوا " صِيغة أمر تقتضي الوجوب ، فأشار إلى عدم الوجوب ، وأنَّ الأمر فيه للإباحة بِقَوْله : " ولا حَرَجَ " أي : في ترك التحديث عنهم . وقِيل : المُراد رفع الحَرَج عن حاكي ذلك ، لِمَا في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة نَحْوَ قَوْلِهم : اذهبْ أنتَ وربُّكَ فَقَاتِلا ، وقَوْلِهم : اجْعَلْ لنا إلَهًا . وقِيل : المُراد ببني إسرائيل أولاد إسرائيل نَفْسِه ، وهُم أولاد يعقوب ، والمُراد : حَدِّثوا عنهم بقصتهم معَ أخيهم يُوسُف ، وهذا أبعد الأوْجُه . وقال مالك : المُرادُ جَوَاز التحدُّث عنهم بِما كان من أمر حسن ، أمَّا مَا عُلِمَ كَذِبُه فلا . وقِيل : المعنى حَدِّثوا عنهم بِمِثْل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح . وقِيل : المُراد جَوَاز التحدث عنهم بأيِّ صورة وَقَعت من انقطاع أو بلاغ ، لِتَعَذُّر الاتصال في التحدث عنهم ، بِخِلاف الأحكام الإسلامية ، فإنَّ الأصل في التحدث بها الاتصال ، ولا يتعذر ذلك لِقُرْب العهد . وقال الشافعيُّ : مِنَ المعلوم أن النبيَّ ﷺ لا يُجيز التحدثَ بالكذب ، فالمعنى : حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تَعْلَمون كَذِبَه ، وأمَّا ما تُجَوِّزونه ، فلا حَرَجَ علَيكم في التحدث به عنهم ، وهو نظير قَوْلِه : " إذا حَدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم " ، ولَم يُرِد الإذْنَ ولا المنعَ مِنَ التَّحدث بما يُقْطَع بِصِدْقه . قَوله: " ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ". ... . وقد اتَّفَقَ العلماء على تغليظ الكذب على رسول اللَّه ﷺ، وأنَّه من الكبائر ، حتَّى بالغَ الشيخُ أبو مُحَمَّد الجُوَيني ، فَحَكَمَ بِكُفْر مَن وَقَعَ مِنه ذلك ، وكلام القاضي أبي بكر بن العربي يَميل إليه . وجَهِلَ مَن قال مِنَ الكَرَّامِيَّة وبعض المُتَزَهِّدة إنَّ الكَذِب على النبيِّ ﷺ يَجوز فيما يتعلَّق بتقوية أمر الدِّين ، وطريقةِ أهل السُّنَّة ، والترغيبِ والترهيب . واعتلُّوا بأن الوعيد ورد في حق مَن كَذَبَ عَلَيه ، لا في الكذب له ، وهو اعتلال باطل ، لأنَّ المُراد بالوعيد مَن نَقَلَ عنه الكذبَ ، سَواءٌ كان له أوْ عَلَيه ، والدِّينُ بِحَمد اللَّه كامل غَير مُحتاج إلى تَقويته بالكَذِب)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٢٠٦ و٢٠٧) : (((بَلِّغُوا عَنِّي) أي : انقُلُوا عَنِّي ما أمكنكم لِيَتَّصِل بالأُمَّة نقل ما جِئْتُ به (وَلَوْ) أي: وَلَوْ كان الإنسان إنَّمَا يُبلِّغه مِنِّي أوْ عَنِّي (آيةً)

واحدة مِن القُرآن. وخَصَّها لأنها أقل ما يُفيد في باب التبليغ ، وَلَم يَقُلْ : وَلَوْ حديثًا ، إمَّا لِشِدَّة اهتمامه بنقل الآيات ، لأنها المُعجِزة الباقية مِن بَين سائر المُعجِزات ، ولأنَّ حاجة القرآن إلى الضبط والتبليغ أشد ، إذْ لا مَندوحة عن تواتر ألفاظه ، وإمَّا للدَّلالة على تأكُّد الأمر بتبليغ الحديث ، فإنَّ الآيات معَ كَثرة حَمَلَتها واشتهارها ، وتكفُّل حِفظ اللَّه لها عن التحريف واجبة التبليغ ، فكيف بالأحاديث فإنَّها قليلة الرُّواة قابلة للإخفاء والتغيُّر ؟ ، ذَكَرَه القاضي البَيضاوي . وقال الطيبي : بِقَوله : " بَلِّغُوا عَنِّي " يُحْتَمَل أن يُراد باتِّصال السَّند بنقل عَدْل ثِقة عن مِثْلِه إلى مُنتهاه ، لأنَّ التَّبليغ مِن البُلوغ ، وهو انتهاء الشيء إلى غايته ، وأن يُراد أداء اللفظ كما سمعه مِن غَير تغيير، والمطلوب بالحديث كِلا الوجهين ، لِوُقوع قَوله : " بَلِّغُوا عَنِّي " مُقَابِلًا لِقَوله الآن : " حَدِّثُوا عَن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ " ، إذْ ليس في التحديث ما في التبليغ من الحَرَج والضِّيق ، ويُعضِّد هذا التأويل آية : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإن لَم تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، أي : وإنْ لَم تُبَلِّغْ لِمَا هو حَقُّه ، فما بَلَّغْتَ ما أُمِرْتَ به ، وحديث : " نَضَّرَ اللَّهُ عبدًا سَمِعَ مَقَالتي فَحَفِظَهَا " الحديث ، وقَوله : " وَلَوْ آية " ، أي : علامة تتميم ومُبَالَغَة ، أي : وَلَوْ كان المُبَلَّغ فِعْلًا ، أوْ إشارة بِنَحْو يد أو أُصبع ، فإنَّه يجب تبليغه حِفْظًا للشريعة . وفي صحيح ابن حِبَّان : فيه دليل على أنَّ السُّنَن يُقَال لها : آي . قال في التنقيح : وفيه نظر ، إذْ لَم يَنحصر التبليغ عنه في السُّنَن بَل القُرآن مِمَّا بُلِّغَ ، وفيه جَوَاز تبليغ بعض الحديث. قال الطيبي : ولا بأس به للعَالِم وإباحة الكتابة والتقييد ، لأنَّ النِّسيان مِن طَبْع الإنسان ، ومَن اعتمدَ على حِفظه لا يُؤْمَن عليه الغَلَط في التبليغ ، فَتَرْك التقييد يُؤَدِّي إلى سُقوط أكثر الحديث ، وتعذُّر تبليغه ، ذَكَرَه في شَرْح السُّنَّة . ... . (وَحَدِّثُوا عن بني إسرائيل) بما بَلَغَكُم عنهم مِمَّا وَقَعَ لهم من الأعاجيب ، وإن استحالَ مِثْلُها في هذه الأُمَّة ، كنزول النار من السماء لأكل القُربان ، وَلَوْ كان بلا سند ، لِتَعَذُّر الاتِّصال في التحديث عَنهم لِبُعْدِ الزمان ، بِخِلاف الأحكام المُحَمَّدية (ولا حَرَجَ) لا ضِيق عليكم في التحديث به ، إلا أن يُعْلَم أنَّه كَذِب ، أوْ لا حَرَجَ أن لا تُحَدِّثوا ، وعَلَيه فزاده دفعًا لِتَوَهُّم وُجوب التحديث مِن صُورة صُدور الأمر به . قال الطيبي:ولا مُنَافَاة بَيْن إذْنه هُنا ونَهْيه في خَبَر آخَر عن التحديث ، وفي آخَر عن النظر في كُتبهم، لأنَّه أراد هُنا التحديث بِقَصَصِهم ، نَحْو قَتل أنفسهم لِتَوْبتهم ، وبالنَّهْي العمل بالأحكام لِنَسْخها بِشَرْعه ، أو النَّهْي في صدر الإسلام قبل استقرار الأحكام الدينية والقواعد الإسلامية ، فلمَّا استقرَّت أَذِنَ لأمْنِ المَحذور (ومَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا) يعني: ومَن لَم يُبَلِّغْ حَقَّ التبليغ،ولَم يَحْفَظْ

في الأداء ، ولَم يُرَاعِ صِحَّةَ الإسناد (فَلْيَتَبَوَّأْ) بِسُكون اللام: فَلْيَتَّخِذْ (مَقْعَدَه مِن النار) أي : فَلْيَدْخُلْ في زُمرة الكاذبين نارَ جهنَّم ، والأمر بالتَّبَوُّئ تهكُّم ، كما مَرَّ ، وقد استفدنا وُجوب تبليغ العِلْم على حامليه ، وهو المِيثاق الذي أخذه اللَّهُ على العلماء . قال البَغَوي : ولهذا الحديث كَرِهَ قَوم مِن الصَّحْب والتابعين إكثار الحديث عن المُصْطَفَى ﷺ خَوْفًا مِن الزِّيادة والنُّقْصَان والغَلَط ، حتى إنَّ مِن التابعين مَن كان يَهَاب رَفْع المَرفوع ، فَيَقِفه على الصحابي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنزلَ الذينَ ظاهَرُوهم مِن أهلِ الكتابِ مِن صَياصِيهِم وقَذَفَ في قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ فريقًا تَقْتُلونَ وتأسِرُونَ فريقًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦] .

أنزَلَ اللَّهُ يهودَ بني قُرَيظة مِن حُصونهم (صَياصِيهم) . وهؤلاء اليهودُ خانوا النبيَّ ﷺ ، ونَقَضوا عَهْدَهم معه ، وأعانوا الأحزابَ (قُرَيْشًا وغَطَفَان) وساندوهم ضِدَّ النبيِّ ﷺ والمسلمين . وقد قامَ حُيَي بن أخْطَب سَيِّد بني النَّضِير بزيارة كَعْب بن أَسَد سَيِّد بني قُرَيظة الذي كانَ يربطه بالنبيِّ ﷺ والمسلمين عَهْدٌ ومِيثاق. وَنَجَحَ حُيَي بن أخْطَب في إقناع كَعْب بضرورة خِيانة النبيِّ ﷺ ونَقْضِ عَهْده ، وأنَّ الفُرصة جاءت لاستئصال الدَّعوة المُحَمَّدية الإسلامية ، وأن الأحزابَ قد حَشَدوا كاملَ قُوَّتهم لإنهاء أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَرَّةً واحدة ، وإلى الأبد . وهذا الوهمُ قادَ بني قُرَيظة إلى الهلاك ، وهذه الخِيانةُ كانت المِسمارَ الأخير في نَعْشِ يهود بني قُرَيظة . وهُنا تَبْرُز خُطورة الخِيانة والغَدْر ونَقْض العُهود . وهذه الصِّفاتُ السَّيئة مَزروعة في اليهود في كُلِّ زَمَانٍ ومكان ، وهي أسلحتهم الفَتَّاكة . وعلى أهْلِهَا تَجْنِي بَرَاقِشُ ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ البَغْي صُرِعَ بِه .

وفي زاد المسير (٦ / ٣٧٤) : ((قال ابنُ قُتَيْبة : وأصْلُ الصَّيَاصِي قُرُون البَقَر، لأنَّها تَمتنع بها وتَدْفَع عَن أنفُسِها)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٣٠): ((إنَّ بَنِي قُرَيْظَة لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الأحزاب ، ونَزَلُوا على المدينة ، نَقَضُوا مَا كان بَينهم وبَين رسول اللَّهِ ﷺ مِنَ العَهْدِ ، وكان ذلك بِسِفَارَةِ حُيَي ابن أخْطَب النَّضْرِي لَعَنَه اللَّهُ ، دَخَلَ حِصْنَهم ، وَلَمْ يَزَلْ بِسَيِّدِهِم كَعْب بن أَسَد ، حتى نَقَضَ العهدَ وقال له فِيما قال : وَيْحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ وأحابيشها ، وغَطَفان وأتباعِها ، ولا يَزَالون هَهُنا حتى يَستأصلوا مُحَمَّدًا وأصحابَه ، فقال له كَعْب : بَلْ واللَّهِ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ ، وَيْحَكَ يا حُيَي ، إنَّكَ مَشؤوم ، فَدَعْنَا مِنْكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْتِلُ في الذِّرْوَةِ والغاربِ حتى أجابه ، واشترطَ له حُيَي إنْ ذَهَبَ الأحزاب ، وَلَمْ يَكُنْ مِن أمرهم شيء ، أن يَدْخُل معهم في الحِصْن، فَيَكُون له أُسْوَتَهم ، فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ ، وبَلَغَ ذلك رسولَ اللَّهِ ﷺ ، سَاءَه ، وَشَقَّ عَلَيْه وعلى

المُسْلِمين جِدًّا ، فَلَمَّا أيَّدَه اللَّهُ تَعَالى ونَصَرَه ، وكَبَتَ الأعداءَ ، ورَدَّهُم خائبين بأخسر صَفْقة ، وَرَجَعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى المدينة مُؤَيَّدًا مَنصورًا، وَوَضَعَ الناسُ السِّلاحَ)) .

وعن عائشة_رَضِيَ اللَّهُ عنها_قالت: لَمَّا رَجَعَ النبيُّ ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ،وَوَضَعَ السِّلاحَ، واغْتَسَلَ، أتاه جِبْرِيلُ _ عليه السلام _ فقال: ((قَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ ؟، واللَّهِ مَا وَضَعْناه ، فَاخْرُجْ إلَيْهِم)). قال : ((فإلى أيْنَ ؟)) . قال : ((هَهُنَا)). وأشارَ إلى بَنِي قُرَيْظَة ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إلَيْهِم [٣٥] .

وفي صحيح البُخاري (١/ ٣٢١) عَن ابن عُمَر _ رَضِيَ اللَّهُ عنهما _ قال : قال النبيُّ ﷺ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأحزاب : ((لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلا في بَنِي قُرَيْظَة)) . فَأدْرَكَ بَعْضُهُم العَصْرَ في الطريق ، فقال بَعْضُهُم : لا نُصَلِّي حَتَّى نَأتِيَهَا . وقال بَعْضُهُم : بَلْ نُصَلِّي ، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذلك . فَذُكِرَ للنَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحدًا مِنهُم .

كانَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ المَرْجِعَ للصَّحَابَةِ _ رَضِيَ اللَّهُ عنهم _ في كُلِّ شُؤونِهم،فإذا حَدَثَ اختلافٌ رَدُّوه إلَيْه ﷺ ، كَيْ يُبَيِّنَ لَهُم مَا أُشْكِلَ عَلَيهم ، أوْ يُقِرَّهم عَلى مَا اجْتَهَدُوا فيه . قالَ النَّبِيُّ ﷺ للصَّحَابة لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأحزابِ _ وَهِيَ غَزْوَةٌ وَقَعَتْ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الهِجْرَةِ _ بعد أن رَدَّ اللَّهُ المُشركين خائبين خاسرين بِغَيْظِهِم : " لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلا في بَنِي قُرَيْظَة " ، وَهُمْ قَبيلةٌ مِنَ اليَهُودِ سَكَنُوا المَدينةَ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إلَيْهَا ، وَعَقَدَ مَعَهُم النَّبِيُّ ﷺ عَهْدًا ، ولكنَّهم خانوا عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ في أشَدِّ الأوقاتِ، بأنْ تَحَالَفُوا معَ الأحزابِ ضِدَّ النَّبِيِّ ﷺ والمُؤمنين ، وكادوا أنْ يُدْخِلُوا جُيوشَ المُشركين إلى المَدينةِ مِنْ نَاحِيَتِهِم ، إلا أنَّ اللَّهَ أدْرَكَ المُسْلِمين بِعِنايته ورَحمته . فأرادَ النَّبِيُّ ﷺ حَثَّ الناسِ على السَّيْرِ والإسراعِ إلَيْهَا ، فلمَّا مَشَوْا ، حَضَرَ وَقْتُ العَصْرِ وهُمْ في الطريقِ وقَبْلَ أن يَصِلُوا إلى بَنِي قُرَيْظَة،فَذَكَرَ بَعْضُهم أنَّه لَنْ يُصَلِّيَ العَصْرَ معَ دُخولِ وَقْتِه إلا في بَني قُرَيْظَة عَمَلًا بظاهرِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ ، لأنَّ النُّزولَ مَعْصِيَةٌ للأمْرِ الخاصِّ بالإسراعِ ، فَخَصُّوا عُمومَ الأمْرِ بالصَّلاةِ أوَّلَ وَقْتِها بِما إذا لَمْ يَكُنْ عُذْرٌ ، وأنْ يُمْتَثَلَ أمْرُ النَّبِيِّ ﷺ وإنْ تَأخَّرَتِ الصَّلاةُ عَن فَضيلتها في أوَّلِ الوَقْتِ ، تَمَسُّكًا بِحُدودِ نُطْقِ النَّبِيِّ ﷺ . وَذَكَرَ الآخَرُون أنَّهُم سَيُصَلُّونَها ، نَظَرًا إلى المَعنى لا إلى ظاهرِ اللفظ ، وقالوا : لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذلك ، أي : إنَّ وَصِيَّتَه ﷺ بذلك إنَّما هِيَ على سَبيلِ الحَثِّ لَهُم في السَّيْرِ ، كَمَا فُهِمَ بامتثالِ مَا أَمَرَ بِه ، فلمَّا دَخَلَ عليهم وَقْتُ العَصْرِ ، وعَرَفُوا مَقصودَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ ذلك ، رَأَوْا أنْ يَنالوا فَضيلةَ الصَّلاةِ في وَقْتِها ، وأنْ يَذْهَبُوا إلى بَني قُرَيْظَةَ

---

٣٥ متفق عليه.واللفظ للبخاري (٤/١٥١٠) برقم (٣٨٩١). ومسلم(٣/ ١٣٨٩) برقم (١٧٦٩) .

مُمْتَثِلِين أمْرَ النَّبِيِّ ﷺ في الوُصولِ إلَيْهَا ، فَذُكِرَ للنَّبِيِّ ﷺ مَا حَدَثَ مِنَ الطائفتَيْن ، فَلَمْ يُنْكِرْ على أحَدٍ مِنْهُم ، لا التاركين ، ولا الذين فَهِمُوا أنَّه كِنَاية عَن العَجَلَةِ ، وهو إقرارٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِفِعْلِهِم .

وفي الحَديثِ: إثابةُ المُجْتَهِدِ في كُلِّ مَا يُسَوَّغُ الاجتهادُ فيه . وفيه : إقرارُ النَّبِيِّ ﷺ للخِلافِ فِيما يُشْرَع فيه الاجتهادُ ، وفي احتماليَّةِ النَّصِّ لهذا الخِلافِ . وفيه : إشارةٌ وتَحْذِيرٌ أنْ يَكُونَ الخِلافُ سَبَبًا في تَعْطِيلِ المُسْلِمِين عَن قَضَاياهم وشُؤونِهم ومُهِمَّاتِهِم الكُبْرَى .

وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مُسْلِم (٩٨/١٢) : ((لَمْ يُعَنِّف النَّبِيُّ ﷺ واحدًا مِنَ الفَرِيقَيْن لأنَّهُم مُجتهدون، ففِيه دَلالة لِمَن يقول بالمَفهومِ والقِيَاسِ ومُرَاعَاةِ المَعْنَى ، وَلِمَنْ يقول بالظاهر أيضًا. وفيه أنَّه لا يُعَنَّف المُجْتَهِدُ فِيما فَعَلَه باجتهاده إذا بَذَلَ وُسْعَه في الاجتهاد . وَقَدْ يُسْتَدَل به على أنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ،وللقائلِ الآخَرِ أنْ يَقول لَمْ يُصَرِّحْ بإصابة الطائفتَيْن،بَلْ تَرَكَ تَعنيفَهم،ولا خِلاف في تَرْكِ تَعنيفِ المُجْتَهِدِ،وَإنْ أخطأ إذا بَذَلَ وُسْعَه في الاجتهاد، واللَّهُ أعْلَم)).

وَقَدْ حَاصَرَ النَّبِيُّ ﷺ بَني قُرَيْظَة ، وَقَذَفَ اللَّهُ في قُلُوبِهِم الرُّعْبَ ، وخَافُوا خَوْفًا شديدًا حَتَّى سَلَّموا أنفُسَهم للقَتْلِ ونِسَاءَهُم للسَّبْي .

روى الحاكم في المُستدرَك (٣/ ٣٧) وصَحَّحَه ووافقه الذهبي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: ((...، وَلَكِنَّهُ جِبْرِيل ، أُرْسِلَ إلى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُزَلْزِلَهُم ، وَيَقْذِفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)) .

وَرَوَى الطَّبَري في تفسيره (١٠/ ٢٨٣): ((عن مُحَمَّد بن إسحاق عن مَعْبَد بن كَعْب ابن مالك الأنصاريِّ قال : وَحَاصَرَهُم رسولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا وعِشرين لَيْلَة حتى جَهَدَهُمُ الحِصَارُ ، وَقَذَفَ اللَّهُ في قُلوبهم الرُّعْبَ. وَقَدْ كان حُيَي بن أخْطَب دَخَلَ على بني قُرَيظة في حِصْنهم حِين رَجَعَتْ عَنْهُم قُرَيْشٌ وغَطَفَان ، وَفَاءً لِكَعْبِ بن أَسَد ، بما كان عَاهَدَه عَلَيْه ، فلمَّا أيْقَنُوا بأن رسول اللَّه ﷺ غَيْرُ مُنْصَرِف عنهم حتى يُنَاجِزَهم ، قال كَعْب بن أَسَد لهم : يا مَعْشَرَ يَهُود ، إنَّه قَدْ نَزَلَ بِكُم مِنَ الأمْرِ مَا تَرَوْنَ ، وإنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُم خِلالًا ثلاثًا ، فَخُذُوا أيَّهَا ، قالوا : وَمَا هُنَّ ؟ قال : نُبايع هذا الرَّجُلَ ونُصَدِّقه ، فواللَّهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم أنَّه لَنَبِيٌّ مُرْسَل ، وأنَّه الذي كُنْتُم تَجِدُونه في كِتابكم، فَتَأمَنوا على دِمائِكم وأموالِكم وأبنائِكم ونِسائِكم ، قالوا: لا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوراة أبدًا ، ولا نَستبدل بِه غَيْرَه ، قال : فإذا أَبَيْتُم هَذه عَلَيَّ ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أبناءَنا ونِسَاءَنا ، ثُمَّ نَخْرُج إلى مُحَمَّدٍ وأصحابِه رِجَالًا مُصْلِتِين بالسُّيوفِ ، وَلَمْ نَتْرُكْ وَراءنا ثِقَلًا يَهُمُّنَا حتى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وبَيْن مُحَمَّد ، فإنْ نَهْلِك نَهْلِك وَلَمْ نَتْرُكْ وَراءنا شيئًا نَخْشَى عَلَيْه ، وإنْ نَظْهَر فَلَعَمْري لَنَتَّخِذَنَّ النِّسَاءَ والأبناءَ ، قالوا : نَقْتُلُ هؤلاء المساكين فَمَا خَيْرُ العَيْشِ بَعْدَهُم ؟، قال: فإذا أَبَيْتُم هذه عَلَيَّ ، فإنَّ

الليلة لَيْلة السَّبْت، وإنَّه عَسَى أن يَكُون مُحَمَّدٌ وأصحابُه قَدْ أَمِنُوا ، فَانْزِلُوا ، لَعَلَّنَا أن نُصِيبَ مِنْ مُحَمَّدٍ وأصحابِه غِرَّةً ، قالوا : نُفْسِدُ سَبْتَنا ونُحْدِث فيه مَا لَمْ يَكُنْ أَحْدَثَ فِيه مَنْ كانَ قَبْلَنَا ؟)) .

وَرَفَضُوا أنْ يَنْزِلوا إلا على حُكْم سَيِّد الأوْسِ سَعْد بن مُعَاذ _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ . وكانَ يَومئذٍ قَدْ أُصِيبَ بِسَهْمٍ . والسَّبَبُ أنَّ بَنِي قُرَيْظَة كانتْ حُلَفَاء للأوْسِ ، فَاعْتَقَدَ يَهُود بني قُرَيظة أنَّ سَعْدًا سَوْفَ يَحْكُم عَلَيْهِم حُكْمًا مُخَفَّفًا، ويُجَامِلهم ، باعتبار الحِلْفِ القديم بَين بَنِي قُرَيْظَة والأوْسِ ، وباعتبار أنَّ سَعْدًا كانَ حَلِيفًا لِبَنِي قُرَيْظَة في الماضي .

عن أبي سَعيد الخُدْرِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قال : نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ على حُكْمِ سَعْدِ بنِ مُعَاذ ، فَأَرْسَلَ النبيُّ ﷺ إلى سَعْد ، فأتى على حِمَار ، فلمَّا دَنَا مِنَ المَسْجِدِ ، قال للأنصار : ((قُومُوا إلى سَيِّدِكُم أوْ خَيْرِكُم)). فقال: ((هَؤُلاءِ نَزَلُوا عَلى حُكْمِكَ)) . فقال : تُقْتَلُ مُقَاتِلَتُهُم ، وَتُسْبَى ذَرَاريهم ، قال : ((قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ)) [٣٦] .

رَضِيَ يَهُود بَني قُرَيْظَة أن يَحْكُم فِيهم سَعْدُ بنُ مُعَاذ _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ سَيِّدُ قَبيلةِ الأوْسِ ، وَقَبِلُوا بذلك ، لأنَّه كانَ حَلِيفَهُم ، فَحَكَمَ فِيهِم بأنْ يُقْتَل البالغون الذين مِنْ شَأنِهِم أنْ يُقَاتِلُوا ، وأنْ يُؤْخَذَ النِّسَاءُ والصِّبْيَانُ سَبْيًا أرِقَّاء ، ويَتِم تَوزيعُهم على الغانمين المُسْلِمِين. والذُّرِّيةُ تُطْلَق على النِّسَاءِ والصِّبْيَانِ مَعًا . وَقَدْ أصَابَ سَعْدٌ حُكْمَ اللَّهِ ، وَقَضَى بِه ، وهذا يدلُّ على مَكانةِ سَعْد العظيمة ، ومَنزلته الشريفة ، وعِلْمِه الواسع .

وفي الحَديثِ : إكبارُ عَظيمِ القَوْمِ وأهْلِ الخَيْرِ وتَلَقِّيه ، والقِيَامُ له إذا أَقْبَلَ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٣٧١) : ((فَقُتِلَ مِنهُم سِتُّمِائة أوْ أكثر ، وَأُسِرَ مِنهُم سَبْعُمِائة)) .

وَقَدْ قُتِلَ كَعْب بن أَسَد وحُيَي بن أخْطَب (رأس الأفعى) الذي حَسَّنَ لبني قُرَيظة الغدرَ . وكانَ حُيَي بن أخْطَب قَدْ جِيءَ بِه ، ويداه مجموعتان إلى عُنُقِه بِحَبْلٍ ، فلمَّا نَظَرَ إلى النبيِّ ﷺ ، قال له اللعينُ : " أمَا واللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي في عَدَاوتك ، ولكنَّه مَنْ يَخْذُلِ اللَّهُ يُخْذَلْ ". ثُمَّ جَلَسَ، فَضُرِبَتْ عُنُقُه [٣٧] .

وهُناكَ دُروس عديدة مِن هذه الأحداث ، نُوجِزها باختصار :

---

٣٦ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٥١١) برقم (٣٨٩٥) ، ومسلم (٣/ ١٣٨٨) برقم (١٧٦٨) .

٣٧ انظر تفسير القرطبي (١٤/ ١١٦)، وتفسير البَغَوي (١/ ٣٣٨)، والبِداية والنهاية (٤/ ١٢٥) .

١ــ إنَّ المُعَاهَدَ وَالذِّمِّيَّ إذا نَقَضَ العَهْدَ صارَ حَرْبِيًّا ، تُجْرَى عليه أحكام الحرب ، وَقَدْ كانتْ بَنُو قُرَيْظَة آمِنِين مُطْمَئِنين ، فخانوا النَّبِيَّ ﷺ والمُسْلِمِين ، ونَقَضُوا عَهْدَهم ، وَسَاعَدُوا قُرَيْشًا على قِتال النَّبِيِّ ﷺ ، فَفَقَدُوا عِصْمَةَ الدَّمِ ، وصاروا كُفَّارًا مُحَارِبِين ، يَجِب التَّصَدِّي لَهُم وتأديبُهم على خِيانتهم للعَهْدِ ، ونَقْضِهِم للمِيثاق .

٢ــ جَوَاز التَّحكيم في أُمُور المُسْلِمِين وأحداثِهم العظيمة . ((وَقَدْ أجْمَعَ العُلماءُ عَلَيْه ، ولَمْ يُخَالِفْ فيه إلا الخَوَارج ، فإنَّهُم أنكَرُوا على عَلِيٍّ التَّحكيمَ ، وأقامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِم . وفيه جَوَاز مُصَالَحَة أهل قَرْية أوْ حِصْن على حُكْمِ حاكمٍ مُسْلِمٍ عَدْلٍ صالحٍ للحُكْمِ ، أمين على هذا الأمر ، وعَلَيْه الحُكْم بما فيه مَصلحة للمُسْلِمِين ، وإذا حَكَمَ بِشَيْءٍ لَزِمَ حُكْمُه ، ولا يَجُوز للإمام ولا لهم الرُّجُوع عنه ، وَلَهُم الرُّجوع قَبْل الحُكْم ، واللَّهُ أعْلَم)) [شرح النَّووي على مسلم (١٢/ ٩٢)].

٣ــ مَشروعية الاختلاف في الفُرُوع . والاجتهادُ في هذا السِّياق نَوْعان : أ ــ فَهْم النَّصِّ حَرْفِيًّا وحَمْلُه على لَفْظِه الظاهر . ب ــ تفسير النَّصِّ حَسَبَ المَعْنَى لا اللفظِ الحَرْفِيِّ . وكِلا الوَجْهَيْن صحيحٌ ، ولا لَوْم على أيِّ فريق . وقد اختلفَ الصَّحابةُ في الاجتهاد ، وهذا يَتَّضِح في طريقة فَهْمِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : ((لا يُصَلِّيَنَّ أحَدٌ العَصْرَ إلا في بَنِي قُرَيْظَة)) .

٤ــ معرفةُ اليهود اليقينية بِصِدْق النبي ﷺ ، وصِحَّة رِسالته ، وتَبشير التَّوراة به . ولكنَّ اليَهُود آثَرُوا العِنَادَ والتَّكَبُّرَ مَعَ عِلْمِهم الأكيد بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيٌّ صادق ، ولكنَّ الكُفْرَ عِنَاد .

٥ــ جَوَاز القِيَام للشخص القادم إكرامًا له.((قُوموا إلى سَيِّدِكم أوْ خَيْرِكم)) . وقال النووي في شرحه على صحيح مُسْلِم (١٢/ ٩٣) : ((فِيه إكرامُ أهْلِ الفَضْلِ وَتَلَقِّيهم بالقِيَام لهم إذا أقْبَلوا،هكذا احْتَجَّ به جماهيرُ العُلماء لاستحباب القِيَام.قال القاضي:ولَيْسَ هَذا مِنَ القِيَامِ المَنْهِيِّ عنه، وإنَّما ذلك فِيمَن يَقُومون عليه وهو جالس، وَيَمْثُلُون قِيَامًا طُولَ جُلُوسِه . قُلْتُ: القِيَامُ للقادم مِنْ أهلِ الفَضْلِ مُسْتَحَب ، وقد جاء فيه أحاديث ، وَلَمْ يَصِح في النَّهْي عَنْه شَيْء صريح)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ أهْلُ الكِتَابِ ألا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وأنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الحَدِيد : ٢٩] .

يَجِب على أهل الكِتابِ أن يَعْلَمُوا أنَّهُم لا يَقْدِرُون على مَنْعِ مَا أعطاه اللَّهُ تعالى ، ولا إعطاء مَا مَنَعَه ، ويَجِب أن يَعْلَمَ الذين لَمْ يُؤْمِنُوا أنَّهُم لا أجر لهم ، ولا نصيب لهم في فضل اللَّهِ تعالى .

إنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى كانوا يَعتقدون أنَّهم أحبابُ اللَّهِ وأولياؤُه،وأنَّ اللَّه اختارهم مِنْ بَيْن الناس، وفَضَّلَهم على جميع الأُمَمِ ، وَخَصَّهُم بالوَحْيِ والنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ دُون غَيْرِهم . وهذا الوَهْمُ الذي

عاشَ فيه أهلُ الكتاب أعمَى أبصارَهم . وجاءَ القُرآنُ لِيُوقِظَهم مِن أحلامِهم السَّاذَجَةِ ، ويَكْشِف لهم الحقيقةَ . والحقيقةُ هي أنَّ أَمْرَ النُّبُـوَّةِ والرِّسالةِ والهُدى والإيمانِ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَه ، يُعْطِيه لِمَنْ يَشَاء مِنْ خَلْقِه ، رَحْمَةً بِهِ ، وتَفَضُّلًا عَلَيْه ، وإحسانًا إلَيْه . واللَّهُ واسعُ الفَضْلِ والإحسانِ .

وقد خَصَّ اللَّهُ العَرَبَ بأعظمِ أنبيائِه مُحَمَّدٍ ﷺ ، وشَرَّفَ الأُمَّةَ المُحَمَّدية بالإسلام ، وجَعَلَهَا خَيْـرَ الأُمَـمِ ، وَآتَاهَا مِـنَ الفَضْـلِ والكَرَامَـةِ مَا لَـمْ يُـؤْتِ أهلَ الكِتَـابِ، وهـذا هـو سـبب غَـيْظِ أهْـلِ الكِتَابِ،وحِقْدِهِم، وَحَسَدِهِم ، وكُفْرِهِم بالقُرْآنِ ومُحَمَّدٍ ﷺ .

وفي الدُّر المنثور (٨/ ٦٨): ((وأخرَجَ عَبْد بن حُمَيْد وابنُ المُنْذِر عن مُجَاهِد _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قال : قالت اليَهُود : يُوشِكُ أنْ يَخْرُجَ مِنَّا نَبِيٌّ فَيَقْطَعَ الأيدي والأرْجُلَ، فلمَّا خَرَجَ مِنَ العَرَبِ كَفَرُوا ، فأنزَلَ اللَّهُ : ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ ﴾ الآية ، يَعْنِي بالفَضْلِ : النُّبُوَّة)) .

هـذا يـدلُّ علـى أنَّ كُفْـرَ اليهـود قـائم علـى العِنَـادِ والاستكبارِ،وحَسَـدِ العَرَبِ،والحِقْـدِ علـيهم، واحتقارهم ، وعدم الاعتراف بفضلهم وشرفهم ومنزلتهم الرفيعة .

وقـال البَيضـاوي فـي تفسـيره (١/ ٣٠٦) : ((﴿ لِئَلا يَعْلَـمَ أهـلُ الكتـابِ ﴾ أي : لِيَعْلَمُـوا ، و " لا " مزيدة ﴿ ألا يَقدِرُونَ على شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ والمَعنى: أنَّهُم لا يَنَالون شيئًا مِمَّا ذُكِرَ مِنْ فَضْلِه ، ولا يَتَمَكَّنُون مِنْ نَيْلِه ، لأنَّهُم لَمْ يُؤْمِنُوا برسوله، وهو مَشروط بالإيمان به ، أو: لا يَقْدِرُون على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِه، فَضْلًا عَن أن يَتَصَرَّفوا في أعْظَمِه، وهو النُّبُوَّة ، فَيَخُصُّوها بِمَنْ أرادوا)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٨/ ١٧٩) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ ﴾ ، " لا " زائدة ، قاله الفَرَّاء . والعَرَبُ تَجْعَل " لا " صِلَة في كُلِّ كلام دَخَلَ في آخِرِهِ أوْ أوَّلِه جَحْد ، فهذا مِمَّا جُعِلَ في آخِرِه جَحْد . والمعنى : ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ ﴾ الذين لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﴿ ألا يَقْدِرُونَ ﴾ ، أي أنَّهُم لا يَقْدِرُون ﴿ على شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ، والمَعنى أنَّه جَعَلَ الأجْرَيْنِ لِمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، لِيَعْلَمَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أنَّه لا أجْرَ لهم ولا نصيب في فضل اللَّه ، ﴿ وأنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يشاءُ ﴾ ، فآتَاه المُؤمنين ، هذا تَلخيص قَوْلِ الجُمهور)) .

وفي صحيح البُخاري (١/ ٢٠٥) : عن أبي مُوسَى عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال : ((مَثَلُ المُسْلِمِينَ واليَهُودِ والنَّصَارى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إلى الليل، فَعَمِلُوا إلى نِصْفِ النهار ، فقالوا : لا حَاجَةَ لَنَا إلى أجْرِكَ ، فَاسْتَأجَرَ آخَرِين ، فقال : أكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَـوْمِكُم ، وَلَكُـمُ الـذي شَرَطْتُ ، فَعَمِلُوا حَتَّى إذا كانَ حِينَ صَلاةِ العَصْرِ ، قالوا : لَكَ مَا عَمِلْنَا ، فَاسْتَأجَرَ قَوْمًا ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِم حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ ، وَاسْتَكْمَلُوا أجْرَ الفَرِيقَيْن)) .

كانَ النَّبِيُّ ﷺ كثيرًا مَا يُظْهِرُ فَضْلَ أُمَّةِ الإسلامِ على مَا سَبَقَ مِنَ الأُمَمِ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارى ، وذلك لِحُسْنِ استجابتهم لأوامرِ اللَّهِ وَرَسُولِه ﷺ . " مَثَلُ المُسْلِمِينَ واليَهُودِ والنَّصَارى " معَ أنبيائِهم ، " كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إلى الليل، فَعَمِلُوا إلى نِصْفِ النهار " ، ولَمْ يُكْمِلُوا عَمَلَهُم ، " فقالوا : لا حَاجَةَ لَنَا إلى أجْرِكَ "، ولا نَطْلُب مِنْكَ شيئًا، والمُرادُ بهؤلاء القَوْمِ اليَهُودُ ، فَاسْتَأجَرَ الرَّجُلُ قَوْمًا غَيْرَهم ، فقال : أكْمِلُوا مَا بَدَأه هؤلاء ، ولَكُمْ مَا شَرَطْتُه مَعَهُم مِنَ الأجْرِ ، فَعَمِلُوا ، حتى إذا كانَ حِينُ صَلاةِ العَصْرِ قالوا : مَا عَمِلْنَا باطلٌ ، ولا حَاجَةَ لَنَا في الأجْرِ الذي شَرَطْتَه ، والمُرادُ بهؤلاء القَوْمِ النَّصَارى ، فاستأجَرَ الرَّجُلُ قَوْمًا غَيْرَهم ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهم ، حتى غابتِ الشَّمْسُ ، واسْتَكْمَلُوا أجْرَ الفَرِيقَيْن السابقَيْن كُلَّه ، والمُرادُ بهؤلاء القَوْمِ أُمَّةُ الإسلامِ . وهذا مَثَلُ المُسْلِمِين الذين قَبِلُوا الهُدَى الذي جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، ومَثَلُ اليَهُودِ والنَّصَارى الذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بالنَّبِيِّ ﷺ . وفي الحَدِيثِ : تَفضيلُ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّةِ ، وتَوفيرُ أجْرِها معَ قِلَّةِ عَمَلِها . وفيه : أنَّ الأعمالَ بالخَواتيمِ . وفيه : ضَرْبُ الأمثالِ للتَّعليمِ والتَّوضيحِ .

إنَّ المُسْلِمِين هُمُ الذين قَبِلُوا هُدى اللَّهِ، وحَمَلُوا كَلِمَتَه في هذا العَالَمِ، لذلكَ اسْتَحَقُّوا الأجْرَ كاملًا . أمَّا اليهودُ والنصارى فقد تَرَكُوا أوامرَ اللَّهِ تعالى ، وَخَلَطُوا الحَقَّ بالباطلِ ، وهذا يدلُّ على تَفضيلِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّة على اليهودِ والنصارى ، ومُضَاعَفَةِ أجْرِها رَغْمَ قِلَّةِ عَمَلِها ، كما يدلُّ على أنَّ النَّصَارى أفضل مِنَ اليَهُود ، لأنَّ النَّصَارى آمَنُوا بِمُوسَى وعِيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، أمَّا اليهودُ فقد كَفَرُوا بِعِيسى ﷺ عِندما جاءهم .

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٤٤٩) : ((وَاسْتُدِلَّ بِه على أنَّ بَقَاء هذه الأُمَّة يَزيد على الألف، لأنَّه يَقتضي أنَّ مُدَّة اليهود نظير مُدَّتَي النَّصَارى والمُسْلِمِين . وقد اتَّفَقَ أهلُ النَّقْلِ على أنَّ مُدَّة اليهود إلى بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ كانت أكثرَ مِنْ ألْفَي سنة، ومُدَّة النَّصَارى مِن ذلك سِتمائة وقِيل أقل، فتكون مُدَّة المسلمين أكثر مِن ألْفٍ قَطْعًا. ... . وفي الحديثِ تَفضيلُ هذه الأُمَّةِ ، وتَوفيرُ أجْرِها ، معَ قِلَّةِ عَمَلِها)) اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير (٢ / ٥٦٦) : (((إنَّمَا أَجَلُكُم) في رِواية للبُخاري إنَّما بقاؤكم (فِيمَا) أي إنَّما بقاؤكم بالنِّسْبَةِ إلى مَا (خَلا) قَبْلَكُم (مِنَ الأُمَمِ) السابقة (كما) أي مِثْل الزَّمَنِ الذي (بَيْنَ) آخِرِ وَقْت (صَلاةِ العَصْرِ) المُنتهية (إلى مَغَارِبِ) وفي رِواية غُرُوب (الشمس) ظاهره أنَّ بقاء هذه الأُمَّة وَقَعَ في زمن الأمم السابقة ولَيْسَ مُرادًا بَلْ مَعناه أنَّ نِسْبة مُدَّة عُمُرِ هذه الأُمَّة إلى أعمار مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الأُمَمِ مِثْل مَا بَين العَصْرِ والغُروبِ إلى بَقِيَّة النهار، فكأنَّه قال: إلى بَقاؤكم بالنِّسْبَةِ لِمَا خَلا إلخ ، فَجَعَلَ في بمعنى إلى ، وحَذَفَ مَا تَعَلَّقَتْ بِه

وهو النِّسْبَة كما حَذَفَ مَا تَعَلَّقَتْ بِه إلى (وإنَّما مَثَلُكُم) أيُّها الأُمَّةِ ، فالمَثَلُ مَضروب للأُمَّةِ معَ نَبِيِّهِم والمُمَثَّلُ بِه قَوْلُه (وَمَثَلُ اليَهُودِ والنَّصَارى كَمَثَلِ رَجُلٍ) في السِّيَاقِ حَذْفٌ تَقديرُه مَثَلُكُم معَ نَبِيِّكُم وَمَثَلُ أهْلِ الكِتَابَيْن معَ أنبيائهم (اسْتَأجَرَ أُجَرَاء) بالمَدِّ بخطِّ المُصَنِّف جَمْع أَجِير فَمَا في نُسَخ مِنْ جَعْلِه أَجِيرًا بالإفراد تَحريفٌ (فقال: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةٍ إلى نِصْفِ النهار على قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ) أصْلُه قِرَّاط بالتَّشديد وهو نِصْف دَانِق، والمُرادُ بِه هُنا النَّصِيب وكَرَّرَه دَلالة على أنَّ الأجْرَ لِكُلٍّ مِنهُم قِيرَاط لا أنَّ المَجموع في الطائفة قِيراط ، وعادةُ العرب إذا أرادتْ تقسيمَ شَيْءٍ على مُتَعَدِّد كَرَّرَتْهُ تقول:أَقْسِم المَالَ على بَني فُلان دِرْهَمًا دِرْهَمًا أي لكل واحد دِرْهَمًا (فَعَمِلَت اليَهُود) في رواية: حتى إذا انتصفَ النهارُ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا ثم قال (مَنْ يَعْمَلُ مِنْ نِصْفِ النهار إلى صَلاةِ العَصْرِ) أي أوَّل وَقْتِ دُخولِها أوْ أوَّل الشُّرُوع فيها (على قِيرَاطٍ فَعَمِلَت النَّصَارى ثُمَّ قالَ:مَنْ يَعْمَلُ مِنَ العَصْرِ إلى أنْ تَغِيبَ الشمسُ عَلى قِيرَاطَيْن قِيرَاطَيْن) بالتَّثنية (فأنتُم) أيَّتُها الأُمَّة (هُمْ) أي فَلَكُم قِيرَاطان لإيمانِكُم بِمُوسَى وَعِيسى معَ إيمانِكم بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تعالى عليه وآلِهِ وَسَلَّمَ ، لأنَّ التَّصديقَ عَمَلٌ . قال المُصَنِّفُ: المُرادُ تَشبيهُ مَنْ تَقَدَّمَ بأوَّلِ النهار إلى الظُّهْرِ والعَصْرِ في كَثرةِ العَمَلِ الشَّاقِّ والتَّكليفِ ، وتَشبيهُ هَذه الأُمَّةِ بِما بَين العَصْرِ والليلِ في قِلَّةِ ذلك وتَخفيفِه ، ولَيْسَ المُرادُ طُولَ الزَّمَنِ وقِصَرَه ، إذْ مُدَّة هذه الأُمَّة أَطْوَل مِنْ مُدَّةِ أهْلِ الإنجيلِ . قال إمَامُ الحَرَمَيْن: الأحكامُ لا تُؤْخَذ مِنَ الأحاديثِ التي لِضَرْبِ الأمثالِ (فَغَضِبَتِ اليَهُودُ والنَّصَارى) أي الكُفَّار مِنهُم (وقالوا : مَا لَنَا أكثرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً) يَعْني قال أهل الكِتاب : رَبَّنَا أَعْطَيْتَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ثَوَابًا كثيرًا معَ قِلَّةِ أعمالِهم ، وَأَعْطَيْتَنَا قَلِيلًا معَ كَثرةِ أعمالِنا (قال) أي اللَّهُ تعالى(هَلْ ظَلَمْتُكُم) أي نَقَصْتُكُم (مِنْ حَقِّكُم)وفي رواية بَدَل حَقِّكُم أَجْرِكُم أي الذي اشْتَرَطْتُهُ لَكُمْ (شيئًا) وفي رواية : مِنْ شَيْءٍ ، وأَطْلَقَ لَفْظَ الحَقِّ لقصد المُمَاثَلَة ، وإلا فالكُلُّ مِنْ فَضْلِه تعالى (قالوا: لا) لَمْ تَنْقُصْنَا مِنْ أَجْرِنَا أوْ لَمْ تَظْلِمْنَا (قال: فذلك) أي كُلُّ مَا أَعْطَيْتُهُ مِنَ الثَّوَابِ (فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أشاءُ) . قال الطيبي : هذه المُقَاوَلَةُ تَخييلٌ وتَصويرٌ لا حقيقة ، ويُمْكِن حَمْلُها عَلى وُقوعها عِند إخراجِ الذَّرِّ، ذَكَرَه القاضي. قال الفَخْرُ الرازي: كُلُّ نَبِيٍّ مُعْجِزَاتُه أظْهَر فَثَوَابُ أُمَّتِهِ أقل ، إلا هذه الأُمَّة فإنَّ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّهَا أظْهَر وثَوَابُها أكثر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحَشْر: ٢] .

إنَّ اللَّهَ أخْرَجَ يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ دِيارهم ، بسبب نَقْضِهم للعَهْدِ بَيْنَهُم وبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ غَدَرُوا بالنَّبِيِّ ﷺ بعد أن عَاهَدوه ، وتعاوَنوا معَ المُشركين ضِدَّ الإسلامِ والمُسْلِمِين ، فَحَاصَرَهم النبيُّ ﷺ ، حتى خَضَعوا لِحُكْمِه ، وَصَالَحَهم النبيُّ ﷺ على أن يَخْرُجوا إلى الشام،فَرَضُوا بالجَلاءِ ، ومُغادرةِ دِيارهم في المَدينةِ المُنَوَّرَةِ ، وَتَرْكِ أراضيهم . وكانت هذه أوَّل مَرَّة يُطْرَدون مِنْ دِيارهم ، وَلَمْ يُصِبْهُم هذا الذُّل قَبْل ذلك. وهُنا تَتجَلَّى العَظَمَةُ الإلهيَّة ، وتَتَّضِح آثارُ القُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فَقَدْ طَرَدَهم اللَّهُ مِنْ حُصُونِهم الحَصِينة ، ودِيَارِهم المَنِيعة .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١٢ / ٢٧) : ((اللَّهُ الذي أَخْرَجَ مَنْ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ ، وهُمْ يَهُود بَنِي النَّضِير ، مِنْ دِيارهم ، وذلك خُروجهم عَن مَنازِلهم ودُورِهم حِين صَالَحُوا رسولَ اللَّهِ ﷺ على أن يُؤَمِّنَهم على دِمَائِهِم ونِسَائِهِم وذَرَاريهم ، وعلى أنَّ لَهُمْ مَا أقَلَّت الإبِلُ مِنْ أموالِهم يُخَلُّوا له دُورَهم وسائرَ أموالِهم ، فأجابهم رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى ذلك ، فَخَرَجُوا مِنْ دِيارهم ، فَمِنْهُم مَنْ خَرَجَ إلى الشَّام، ومِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ إلى خَيْبَر)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٨٠) : ((وقَوْلُه : ﴿ لأوَّلِ الحَشْرِ ﴾ ، كانوا أوَّلَ مَنْ حُشِرَ إلى الشَّامِ مِنَ اليَهُودِ مِنَ جزيرة العرب . وقِيل: إنَّه أوَّلُ حَشْرٍ إلى الشام . والحَشْرُ الثاني حَشْرُ القِيَامَة . والشَّامُ أرْضُ المَحْشَرِ)) .

وقد حَدَثَت غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ في السَّنَةِ الرابعة للهِجْرَة على المشهور ، وكان سَبَبُها هو خِيانة يهود بني النضير الذين حَاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ ضَارِبين بِعُرْضِ الحائطِ العُهُودَ والمَواثيقَ ، وهذا دَيْدَن اليهود على مَدَار التاريخ . وَقَدْ نالوا جَزَاءَهُم المُسْتَحَق ، وَوَقَعَتْ عَلَيْهِم العُقوبة الإلهيَّة بسبب مَكْرِهم وغَدْرِهم وخِيَانتهم ، ونَقْضِهم للعُهُودِ والمَواثيقِ .

في الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٣/ ٣٦و٣٧): ((خَرَجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى بني النَّضِيرِ يَسْتعينهم على دِيَةِ العَامِرِيَّيْن اللذَيْن قَتَلَهُمَا عَمْرو بن أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ ، فلمَّا جاءهم خَلا بعضُهم ببعض ، فقالوا : إنَّكُم لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّدًا أقْرَبَ مِنْه الآن ، فَمُرُوا رَجُلًا يَظْهَر على هذا البَيْتِ ، فَيَطْرَح عليه صَخْرةً فَيُريحنا مِنْه . فقال عمرو بن جِحَاش بن كَعْب : أنا . فأتى النَّبِيَّ ﷺ الخَبَرُ ، فَانْصَرَفَ)) .

وأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بإجلائهم من المدينة ، وأمْهَلَهُم وَقْتًا ، فَمَنْ شُوهِدَ بعد ذلك ضُرِبَتْ عُنُقُه . وأَخَذُوا يَسْتَعِدُّون للخُروج ، لَكِنَّ رأس النِّفَاق ابن سَلُول طَلَبَ مِنْهُم عَدَمَ الخُروج ، والإقامةَ في حُصُونِهم ، وَوَعَدَهُم بِمُساندتهم في قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَدَلُوا عَن الخُروج ، فَاسْتَعَدَّ المُسْلِمُون لقتالهم ، وهكذا يَتَّضِح أنَّ المُنَافِقِين واليَهُودَ وَجْهَان لِعُمْلَةٍ واحدة .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنها قالتْ : ((كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي النَّضِيرِ ، وَهُمْ طَائفةٌ مِنَ اليَهُودِ ، عَلى رَأْسِ سِتَّةِ أشْهُرٍ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ، وكانَ مَنْزِلُهُم ونَخْلُهُم بناحيةِ المَدينة ، فَحَاصَرَهُم رسولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا على الجَلاءِ ، وعَلى أنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتِ الإبِلُ مِنَ الأمتعةِ والأموالِ ، إلا الحَلْقَةَ _ يَعْنِي السِّلاح _ فأنزلَ اللَّهُ فيهم : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأرْضِ ﴾ [الحَشْر : ١] إلى قَوْلِه : ﴿ لأوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أن يَخْرُجُوا ﴾ [الحَشْر : ٢] ، فَقَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى صَالَحَهُم على الجَلاءِ ، فَأجْلاهُم إلى الشَّامِ ، وكانوا مِنْ سِبْطٍ لَمْ يُصِبْهُم جَلاءٌ فِيمَا خَلا ، وكانَ اللَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِم ذلك ، وَلَوْلا ذَلِكَ لَعَذَّبَهُم في الدُّنيا بِالقَتْلِ وَالسَّبْي ، وأمَّا قَوْلُه : ﴿ لأوَّلِ الحَشْرِ ﴾، فَكَانَ جَلاؤُهُمْ ذَلِكَ أوَّلَ حَشْرٍ في الدُّنيا إلى الشَّامِ)) [٣٨] .

﴿ مَا ظَنَنتُمْ أن يَخْرُجُوا ﴾ . يُخَاطِبُ اللَّهُ الصَّحَابَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم _ : مَا ظَنَنتُم أنْ يَخْرُجَ هؤلاء اليهود مِنْ دِيارِهم وبِلادِهم بِكُلِّ خِزْيٍ وعَارٍ، وذلك بسبب شِدَّةِ بَأسِهم، وحُصُونِهم المَنِيعة ، وكَثْرَةِ عَدَدِهِم وَعُدَّتِهِم .

وقال القُرْطُبي في تفسيره (١٨ / ٦) : ((يُرِيدُ لِعِظَمِ أمْرِ اليَهُودِ ، وَمَنَعَتِهِم ، وقُوَّتِهِم في صُدورِ المُسْلِمين ، واجتماعِ كَلِمتهم)) .

﴿ وَظَنُّوا أنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللَّهِ﴾.إنَّ اعتمادَ اليهود على الأسبابِ لا خَالِقِ الأسبابِ. وَقَدْ وُكِلُوا إلى أسبابِهم المَادِيَّة ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا ، وَبَاؤُوا بِالخِزْيِ والهَوَانِ ، وَغَرِقُوا في الهَزيمة ، وَمِنْ مَأْمَنِه يُؤتَى الحَذِرُ.لَقَدْ ظَنُّوا أنَّ حُصونهم المَنِيعة وأسلحتهم الكثيرة سَتَحْمِيهم مِنْ سُلطانِ اللَّهِ، فَلَمْ يَستفيدوا مِنْهَا شيئًا ، وكانتْ عَلَيْهِم لَعْنَةً وَوَبَالًا .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٦) : ((وتَغْييرُ النَّظْمِ _ يَعْني نَظْم الآية _ ، وتقديم الخَبَر وإسناد الجُمْلَة إلى ضَمِيرهم ، للدَّلالة على فَرْطِ وُثُوقِهم بِحَصَانتها واعتقادِهم في أنفُسِهم أنَّهُم في عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ بسببها)) .

---

٣٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٥٢٥) برقم (٣٧٩٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وَقَد اختلفت الأقوالُ في سَنَةِ حُدوث غَزْوَةِ بني النَّضِير . في صحيح البُخاري (٤/ ١٤٧٦) : عَنْ عُرْوَةَ ابنِ الزُّبَيْر : كانتْ عَلى رَأسِ سِتَّةِ أشْهُرٍ مِنْ وَقْعَةِ بَدْرٍ قَبْلَ أُحُد . اهـ . وقال ابن حَجَر في تَلْخيص الحبير(٤/ ٩٠): ((وعن ابن شِهَاب أنها كانتْ في الْمُحَرَّم سَنَة ثلاث، وبِه جَزَمَ ابن الجوزي في التَّلْقيح والنَّووي في الرَّوضة وغيرها ، وقال الْمَاوَرْدِيُّ :كانت في ربيع الأوَّل سَنَة أرْبَع ، وهذا قَول ابن إسحاق)).

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ . جَاءَهُم العَذابُ الإلهيُّ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَخْطُرْ ببالهم ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلى تَوَقُّعِه ، بسبب اعتمادِهم الكُلِّي على قُوَّتِهِم المَادِيَّةِ ، وأسْلِحَتِهِم ، وَحُصُونِهِم .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٨٠) : ((﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ مِنْ جِهَةِ المُؤمنين ، وَمَا كانوا يَحْسَبُون أنَّهُم يَغْلِبُونَهُم ويَظْهَرُون عَلَيْهِم)) .

﴿ وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ . أَلْقَى اللَّهُ في قُلوبِ بَنِي النَّضِيرِ الخَوْفَ الشديدَ ، فانهارتْ رُوحُهم المَعنوية، وَفَقَدُوا الشُّعُورَ بالأمْنِ والأمانِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٠٥) : ((لِخَوْفِهِم مِنْ رسول اللَّهِ ﷺ . وقِيل : لِقَتْلِ سَيِّدِهِم كَعْب بن الأشرف)) .

وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ))[٣٩].

هَذه خَاصِيَّةٌ تَفَرَّدَ بِها النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ ، وهي تُمَيِّزه عن باقي الأنبياء عليهم الصلاة و السلام. وهي : نَصْرُه بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، أي إنَّ اللَّهَ يُلْقِي في قُلوبِ الأعداءِ الخَوْفَ ، فَيَسْقُطُون ، وتَنهار رُوحُهم المَعنويةُ، ويَنتصر النبيُّ ﷺ عَلَيهم. وَلَيْسَ الرُّعْبُ مَقصودًا لِذَاتِه ، بَلْ أيضًا يَنتصر النَّبِيُّ ﷺ ، ويَكْسِر شَوْكَتَهُم . و " مَسِيرَةَ شَهْرٍ " تَعْنِي : بَيْنَه وبَيْنَهُم مَسِيرَةُ شَهْرٍ .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٣٧) : ((قَوْلُه : " مَسِيرَةَ شَهْرٍ " مَفهومه أنَّه لَمْ يُوجَدْ لِغَيْرِه النَّصْر بالرُّعْبِ في هذه المُدَّةِ ، ولا في أكثر مِنْهَا، أمَّا مَا دُونَها فلا. ... . وإنَّما جَعَلَ الغَايَةَ شَهْرًا ، لأنَّه لَمْ يَكُنْ بَيْنَ بَلَدِه وَبَيْنَ أحَدٍ مِنْ أعدائِه أكثر مِنْه، وهذه الخُصُوصِيَّة حاصلة له على الإطلاق ، حَتَّى لَوْ كانَ وَحْدَه بِغَيْرِ عَسْكَر ، وَهَلْ هِيَ حاصلة لأُمَّتِه مِنْ بَعْدِه ؟ ، فيه احتمال)) .

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأيْدِيهِمْ وَأيْدِي المُؤْمِنِينَ ﴾ . يَهْدِم يَهُودُ بَنِي النَّضِير بأيديهم بُيُوتَهم مِنَ الداخل ، ويَهْدِم المُؤمنون بُيُوتَ هؤلاء اليهود مِنَ الخارج . إنَّهُم يُخْرِبُون بُيُوتَهم مَادِيًّا ومَعنويًّا . والإخرابُ الماديُّ يَكُون بهدمها، وهو أمْرٌ واضح. أمَّا الإخرابُ المعنويُّ فَبِسُوءِ رأيهم ، وخِيَانتهم ، وغَدْرِهم. والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ إخرابَ اليَهُودِ لِبُيوتِهم بأيديهم دليلٌ واضح على بُخْلِهِم وَحَسَدِهِم للمُسْلِمِين وكُرْهِهم لهم ، فَهُم لا يُريدون أن يَنتفع المُسْلِمُون بأيِّ شَيْءٍ مِنْ بُيوتِهم بَعْدَ أن يُغَادروها. وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٠٨٠) : ((وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَالَحَهُم على أنَّ لَهُمْ مَا أقَلَّت الإبِلُ ، وكانوا يَنْظُرُون إلى الخَشَبَةِ والشَّيْءِ في منازلهم ، مِمَّا يَسْتحسنونه فَيَقْلَعُونه ، ويَنْتزعونه ويَهْدِمُون البُيُوتَ لأجْلِه ، فذلك إخرابهم بأيديهم ، ويُخْرِب المُؤمنون باقيها)) .

---

٣٩ متفق عليه. البخاري (١ / ١٢٨) برقم (٣٢٨) ، ومسلم (١ / ٣٧٠) برقم (٥٢١) .

وفي تفسير البَغَوي (١/ ٦٩): ((قال ابنُ زَيْد : كانوا يَقْلَعُون العَمَدَ ، ويَنْقُضُون السُّقُوفَ، ويَنْقُبُون الجُدْرَانَ ، وَيَقْلَعُون الخَشَبَ ، حَتَّى الأوتاد يُخْرِبُونها لِئَلا يَسْكُنَها المُؤمِنُون حَسَدًا مِنْهُم وبُغْضًا . قال قَتَادَة : كانَ المُسْلِمُون يُخْرِبُون مَا يَلِيهم مِنْ ظاهرِها ، ويُخْرِبُها اليهودُ مِنْ دَاخِلِها . قال ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما : كُلَّمَا ظَهَرَ المُسْلِمُون عَلى دار مِنْ دُورِهم هَدَمُوها لِتَتَّسِعَ لَهُم المَقَاتِلُ ، وَجَعَلَ أعداءُ اللَّهِ يَنْقُبُون دُورَهم في أدبارها ، فَيَخْرُجُون إلى النَّبِيِّ بَعْدَها ، فَيَتَحَصَّنُون فِيها ، ويَكْسِرُون مَا يَلِيهم ، ويَرْمُون بالتي خَرَجُوا مِنها أصحابَ رسولِ اللَّهِ ﷺ)) .

وهذا دَرْسٌ بَليغ لِكُلِّ شخص يُريد الاعتبارَ ، وأخْذَ العِظَةِ . والعاقلُ مَن اتَّعَظَ بغَيْرِه ، والجاهلُ مَن اتَّعَظَ بِنَفْسِه . وَقَدْ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأبْصَارِ ﴾ ، فَاتَّعِظُوا بِما جَرَى لَهُمْ يَا أصحابَ العُقولِ . واليَهُودَ دَفَعُوا ثَمَنَ خِيانتهم ، وَقَدْ كانوا آمِنِين مُطْمَئِنِّين ، يَعِيشون بسلام في المدينة معَ المُسْلِمِين ، لكنَّ مُغامرات زُعَمَائِهم الطائشة قَادَتْهُم إلى فِقْدَانِ مُمْتلكاتِهم ، وخُروجِهم مِن دِيارهم بِكُلِّ خِزْيٍ وعارٍ.وهذا يَدُلُّ على أهمية القِيادة ذات السُّلطة المعنوية والمادية،فالقِيادةُ الرشيدة تَقُود الناسَ إلى بَرِّ الأمانِ ، أمَّا القِيادةُ الطائشة فَتَقْضِي على نَفْسِها وشَعْبِها في آنٍ معًا . وكانَ رأسُ الأفعى هو كَعْب بن الأشرف سَيِّد بَنِي النَّضِيرِ وطاغوت اليهود، وَقَدْ أَمَرَ النبيُّ ﷺ بقتله.

قال البُخاري : حَدَّثَنا عليُّ بن عبد اللَّه حَدَّثنا سُفيان قال عمرو : سَمِعْتُ جابرَ بن عبد اللَّه _رَضِيَ اللَّهُ عنهما _ يقول : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ لِكَعْبِ بنِ الأشرف ؟ ، فإنَّه قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَه)).فَقَامَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَة، فقال: يا رسولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ أنْ أَقْتُلَه ؟ ، قال : ((نَعَمْ)) . قال : فَائْذَنْ لِي أن أقُولَ شيئًا ، قال : ((قُلْ)) ، فأتاه مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَة ، فقال : إنَّ هَذا الرَّجُلَ _ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ _ قَدْ سَألَنَا صَدَقَةً ، وإنَّه قَدْ عَنَانَا ، وإنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أسْتَسْلِفُكَ ، قال : وأيضًا واللَّهِ لَتَمَلَّنَّهُ ، قال : إنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ فَلا نُحِبُّ أنْ نَدَعَهُ حتى نَنظر إلى أيِّ شيء يَصِير شأنُه ، وقد أرَدْنا أن تُسْلِفَنا وَسْقًا أوْ وَسْقَيْن _ وَحَدَّثَنا عمرو غَيْر مَرَّة فَلَمْ يَذكُرْ وَسْقًا أوْ وَسْقَيْن،أوْ فَقُلْتُ له : فِيه وَسْقًا أوْ وَسْقَيْن ؟ ، فقال : أرى فيه وَسْقًا أوْ وَسْقَيْن _ ، فقال : نَعَمْ ، أرْهِنُوني . قالوا : أيُّ شيء تُريد ؟ ، قال: أرْهِنُوني نِسَاءكم، قالوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنا وأنتَ أجْمَلُ العَرَبِ ؟ ، قال : فَأرْهِنُوني أبناءكم ، قالوا : كَيْفَ نَرْهَنُكَ أبناءَنا فَيُسَبُّ أحَدُهم فَيُقَال : رُهِنَ بِوَسْقٍ أوْ وَسْقَيْن ؟ ، هذا عارٌ عَلَيْنا ، وكُنَّا نَرْهَنُكَ اللأْمَةَ _ قال سُفيان يعني السِّلاح _ ، فواعده أن يأتيَه فجاءه لَيْلًا ، ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كَعْبٍ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، فَدَعَاهُم إلى الحِصْنِ ، فَنَزَلَ إلَيْهِم ، فقالتْ لَهُ امْرَأتُه : أيْنَ تَخْرُجُ هذه الساعة ؟ ، فقال : إنَّما هُوَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ وأخي أبو نائلة ، وقال غَيْرُ

عمرو : قالتْ : أسْمَعُ صَوْتًا كَأنَّهُ يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ ، قال : إنَّما هُوَ أخِي مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَة ، وَرَضِيعي أبو نائلة ، إنَّ الكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إلى طَعْنَةٍ بِلَيْلٍ لأجَابَ . قال : وَيَدْخُلُ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ _ قِيل لِسُفيان: سَمَّاهم عمرو ؟ قال : سَمَّى بَعْضَهم _ قال عمرو : جَاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْن ، وقالَ غَيْرُ عمرو : أبو عَبْس بن جَبْر ، والحارث بن أوس ، وعَبَّاد بن بِشْر . قال عمرو : جاءَ مَعَهُ بِرَجُلَيْن ، فقال: إذا مَا جَاءَ فَإنِّي قَائِلٌ بِشَعْرِهِ فَأشُمُّه، فإذا رَأيْتُمُوني اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأسِه ، فَدُونَكُم فَاضْرِبُوه . وقالَ مَرَّة : ثُمَّ أُشِمُّكُم ، فَنَزَلَ إلَيْهِم مُتَوَشِّحًا ، وَهُوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيب، فقال: مَا رَأيْتُ كاليَوْمِ رِيحًا ، أي أطْيَب، وقال غَيْرُ عمرو : قال : عِندِي أعْطَرُ نِسَاءِ العَرَبِ وَأكْمَلُ العَرَبِ . قال عمرو : فقال: أتَأذَنُ لِي أنْ أشُمَّ رَأسَكَ ؟ ، قال : نَعَمْ . فَشَمَّهُ ثُمَّ أشَمَّ أصْحَابَه ، ثُمَّ قال : أتأذَنُ لِي ؟ ، قال : نَعَمْ . فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْه ، قال : دُونَكُم ، فَقَتَلُوه ، ثُمَّ أتَوُا النَّبِيَّ ﷺ ، فَأخْبَرُوه [٤٠] .

هُناك دُروسٌ مُهِمَّةٌ مِن هذا الحَديثِ الشَّريفِ :

أ _ جَوَاز استخدام الحِيلَة والكَذِبِ في الحَرْبِ تَصريحًا أوْ تَلْمِيحًا ، وهذا يُفْهَم مِنْ قَوْلِ مُحَمَّد بن مَسْلَمَة : ((فَائْذَنْ لِي أن أقول شيئًا)) ومُوافقة النبيِّ ﷺ . ب_ جَوَاز الإغارة على الكُفَّار الذين بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَة ، ولكنْ يُسْتَحَب إنذارهم ، أمَّا الذين لَمْ تَبْلُغْهُمُ الدَّعوة فلا يَجُوز الإغارة عليهم . وإيَّاكَ أنْ تَفْهَمَ مِن هذا الحديث الشريف أنَّ الإسلام يَدْعُو إلى قَتْلِ الكُفَّارِ واغتيالِهم دُون وَجْهِ حَقٍّ ، إنَّ كَعْبَ بنَ الأشرف كان عَدُوًّا مُحَارِبًا لأنَّه نَقَضَ العَهْدَ ، وأعانَ على حَرْبِ النبيِّ ﷺ وهَجَاه. أمَّا الكافرُ غَيْرُ المُحَارِبِ فله حُقوقه كاملة ، ويُعْرَض عَلَيْهِ الإسلامُ عَرْضًا يُجِيب عن كافَّة الأسئلة ، ويُفَنِّد كُلَّ الشُّكوكِ والهَوَاجِسِ ، فَإنْ أبى فالجِزْيَة نظير حِمايته تَحْتَ ظِلِّ الدَّولة الإسلامية ورعايته والاعتناء به ، وصِيانة مَالِه وعِرْضِه ، والدِّفاع عَنْه ضِد الأعداء _حتى إنَّ المُسْلِمَ يَمُوت في سبيل الدِّفَاع عنه _ ، وتَوْفيرِ فُرَص العمل له ولأبنائه، وإعطائِه مِنْ مَالِ بَيْتِ المُسْلِمِين في حالةِ احتياجه، وتَأمينِ العَيْشِ الكريم له ولعائلته ، فَإنْ أبى فالقَتْلُ . والرافض لهذا يَصِير مُحَارِبًا يَجِب التَّصَدِّي له ، وخائنًا خِيَانَةً عُظْمَى . وانْظُرْ إلى الدُّوَلِ التي تَتَشَدَّق بِحُقوقِ الإنسان تَحْكُم بالمَوْتِ أو السِّجْن مَدَى الحياة على الخَوَنَةِ والعُملاءِ كَي تَحْمِي نِظامَها المُتهالِك، وَمِنْ حَقِّ الإسلام أن يُشَرِّعَ الأنظمةَ التي تَحْمِي وُجُودَه وأتْبَاعَه، وهذا مُنتهَى العَدالة الاجتماعية ، والتي عَرَضَتْ كُلَّ الخِيَارَاتِ أمام الشخص عَرْضًا كريمًا طَيِّبًا يَحترم إنسانيته. وبالتالي، لا فائدة مِن

٤٠ رواه البخاري (٤ / ١٤٨١) واللفظ له ، ومسلم (٣ / ١٤٢٥) .

تَرويجِ الإشاعاتِ الفارغةِ والأكاذيبِ التي تَتَّهِم الإسلامَ بالإرهابِ وَعَدَمِ احترامِ حُقوقِ الإنسان. وهذه الأكاذيبُ يَخترعها المُستشرِقُون مِنْ بَناتِ أفكارهم، ثُمَّ يَتَلَقَّفها صِبْيَانُهم مِنْ أبناءِ جِلْدَتِنا. ولا يَخْفَى أنَّ المَغلوب مُولَع بتقليد الغالب ، وأنَّ عُقْدَةَ الخَوَاجَة لها تأثير واضح في الأنساق الفِكرية. وَقَارِنْ بَين الرَّحمةِ الإسلاميَّة وبَين الإرهابِ اليَهُونَصْرَانيِّ (اليَهُودِيِّ _ النَّصْرَانيِّ) الذي تُنادي به التَّوراة والإنجيل [٤١] .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإخْوَانِهِمُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ولا نُطِيعُ فِيكُمْ أحَدًا أبَدًا وَإن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إنَّهُم لَكَاذِبُون﴾ [الحَشْر : ١١] .

إنَّ المُنَافِقِين بائعو كَلامٍ . حَيَاتُهم مَبْنِيَّةٌ على الكلامِ المَعسولِ ، والخُطَبِ الرَّنَّانَةِ،والشِّعَاراتِ البَرَّاقة ، والأوهامِ الجَذَّابَة . والآيةُ تَعْجِيبٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِه مِنْ حالِ المُنَافِقِين الذين يُظْهِرُون الإيمانَ ، ويُبْطِنُون الكُفْرَ . وهؤلاء المُنافِقون كَعَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ وشِيعته بَعَثُوا إلى اليهود ، يَرْفَعُون مَعنوياتهم ، ويَعِدُون بِمُساعدتهم ضِدَّ النبيِّ ﷺ والمُسْلِمِين . والمُنَافِقُون واليَهُودُ إخْوَان، لأنَّ الكُفْرَ جَمَعَهُم مَعَ اختلافِ نَوْعِ الكُفْرِ .

وقال السُّيوطي في الدُّرِّ المَنثور (٨/ ١١٥) : ((وَأخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْه عن ابن عباس : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ نَافَقُوا ﴾ ، قال: عبد اللَّه بن أُبَيٍّ بن سَلُول ، ورِفَاعَة بن تابوت ، وعبد اللَّه بن نَبْتَل ، وأَوْس بن قَيْظِيٍّ ، وإخوانهم بَنُو النَّضِير)) .

بَعَثَ المُنَافِقُون إلى اليهود_ حِينَ أرادَ النبيُّ ﷺ قِتالَهم _ أن اثبُتُوا وَقَاوِمُوا وَنَحْنُ مَعَكُم، إنْ خَرَجْتُم مِنَ المَدينةِ خَرَجْنَا مَعَكُم، ولا نُطِيع أيَّ شخصٍ يُريد التَّفريقَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُم،أوْ يُريد مَنْعَنَا مِنْ نُصْرتكم،وَإنْ قُوتِلْتُم قَاتَلْنَا مَعَكُم، وَقَدْ كَذَّبَ اللَّهُ المُنَافِقِين ، وَوَصَمَهُم بالكَذِبِ والخِزْيِ والعارِ . إنَّ المُنَافِقِين كاذبون فِيمَا وَعَدُوا اليَهُودَ بِهِ،إمَّا لأنَّهُم قالوا لَهُم قَوْلًا وَمِنْ نِيَّتِهِم أن لا يَفُوا لَهُم بِه ، وإمَّا لأنَّهُم لا يَقَع مِنْهُم الذي قالوه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٢٨٦) : ((ذَكَرَ اللَّهُ مَا جَرَى بَين المُنَافِقِين واليَهُودِ مِنَ المُقَاوَلَةِ لِتَعجيبِ المُؤمنين مِنْ حَالِهِم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ نَافَقُوا ﴾ ، والخِطَابُ لرسولِ اللَّهِ أوْ لِكُلِّ مَنْ يَصْلُح له، والذينَ نَافَقُوا هُمْ عَبْدُ اللَّهِ بن أُبَيٍّ وأصحابُه . وجُمْلَةُ ﴿ يَقُولُونَ

٤١ رَاجِعْ كِتَاب/دراسات منهجية في القُرآن والتَّوراة والإنجيل،إبراهيم أبو عواد،دار الأيام للنشر، عَمَّان.

لإخْوَانِهِمُ الـذينَ كَفَـرُوا مِـنْ أهْـلِ الكِتَـابِ ﴾ مُسْـتَأنَفَة لبيـانِ المُتَعَجَّـبِ مِنْـه ، والتَّعبيـرُ بالمُضَـارِعِ لاستحضـارِ الصُّورةِ أوْ للدَّلالةِ على الاستمرارِ ، وَجَعَلَهُم إخوانًا لَهُم لِكَوْنِ الكُفْرِ قَدْ جَمَعَهُم وإن اختلفَ نَوْعُ كُفْرِهم ، فَهُمْ إخوان في الكُفْرِ ، واللامُ في لإخوانهم هي لام التَّبليغ ، وقِيل : هُوَ مِنْ قَـوْل بَنِي النَّضِير لِبَنِي قُرَيْظَة ، والأوَّلُ أَوْلَى ، لأنَّ بَنِي النَّضِير وبَنِي قُرَيْظَة هُـمْ يَهُود،والمُنَـافِقُون غَيْرُهُم. واللامُ في قَوْلِه: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ هِيَ المُوَطِّئَة _ المُؤَكِّدَة_ للقَسَمِ : أي واللَّهِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ مِنْ دِياركم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ هَذا جَوَابُ القَسَمِ : أي لَنَخْرُجَنَّ مِنْ دِيَارنا في صُحْبتكم ﴿ ولا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ أي في شَأنِكم وَمِنْ أَجْلِكُم ﴿ أحَدًا ﴾ مِمَّنْ يُريد أن يَمْنَعَنَا مِنَ الخُروج مَعَكُم وإنْ طالَ الزَّمَانُ ، وَهُوَ مَعنى قَوْلِه : ﴿ أبَدًا ﴾ ثُمَّ لَمَّا وَعَدُوهُم بالخُروج مَعَهُم وَعَدُوهُم بالنُّصْرَةِ لَهُم ، فقالوا : ﴿ وَإن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ عَلى عَدُوكم، ثُمَّ كَذَّبَهُم سُبحانَه فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إنَّهُم لَكَاذِبُون ﴾ فِيمَا وَعَدُوهُم بِهِ مِنَ الخُروج مَعَهُم وَالنُّصْرَةِ لَهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ وَالمُشركينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأتِيَهُمُ البَيِّنَةُ ﴾ [البَيِّنَة : ١] . هَذا بَيَانٌ عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلى مَنْ آمَنَ مِنَ الفَرِيقَيْن إذْ أنْقَذَهُم .

لَمْ يَكُن الكُفَّارُ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارى والمُشركين عَبَدَةِ الأوثانِ (العَرَبِ) وَعَبَدَةِ النارِ (العَجَمِ) مُنْتَهِين عَنْ كُفرِهم ومُنْفَصِلِين عنه حَتَّى تَأتِيَهُمُ البَيِّنَةُ الواضحةُ والحُجَّةُ الساطعةُ ، يَعْنِي النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ ، جَاءَهُم بالقُرْآنِ المُعْجِزِ المُفْحِمِ ، وأظْهَرَ النبيُّ ﷺ الحَقَّ ، وَبَيَّنَ جَهْلَهم وكُفْرَهم ، ودَعَاهُم إلى الإيمان .

والقُرْآنُ هُوَ النُّورُ السَّاطِعُ والحُجَّةُ العُلْيَا ، أفْحَمَ كُلَّ مَنْ تَحَدَّاه ، ورَدَّه خائبًا خاسرًا ، وهُنا تَتَجَلَّى الرَّحمةُ الإلهيَّة ، فاللَّهُ لَمْ يَتْرُك الناسَ ضائعين ، بَلْ أَرْسَلَ إلَيْهِم الأنبياءَ والآياتُ الواضحة . ويُقَال : فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ ، أي : انْفَصَلَ .

وفي تفسير القُرطبي (٢٠/ ١٢٩) : ((قال ابن عباس : (أهل الكتاب) اليهود الذين كانوا بِيَثْرِب وهُـمْ قُرَيْظَة والنَّضِير وبَنُـو قَيْنُقَاع ، والمُشركون : الـذين كـانوا بِمَكَّـة وحَوْلَهـا ، والمَدينـةِ والذينَ حَوْلَها ، وهُمْ مُشركو قُرَيْش)) .

ومَعَ أنَّ لفظ " المُشركين " يُقْصَد بِه العرب عَبَدَة الأوثان ، إلا أنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى مُشرِكون أيضًا ، فَمِنَ اليهودِ مَنْ قال : عُزَير ابنُ اللَّهِ ، وَمِنَ النَّصَارى مَنْ قال : عِيسى هُوَ اللَّهُ ، ومِنْهُم مَنْ قال : هُوَ ابْنُه ، ومِنْهُم مَنْ قال : ثالثُ ثلاثةٍ . والنَّصَارى غارقون في عَقائدِ التَّثْلِيثِ ، واليَهُودُ غارقون في عَقائدِ التَّشبيه . وكُلُّهُم مُشرِكون ، حَرَّفُوا التَّوْرَاةَ والإنجيلَ ، ورَفَضُوا مَنْهَجَ أنبيائِهِم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٤٩٥) : ((﴿ لَمْ يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ﴾ وَهُم اليَهُود والنَّصَارى ﴿ وَالمُشركينَ ﴾ وَهُمْ عَبَدَة الأوثان ﴿ مُنفكِّينَ ﴾ مُنْتَهِين عَنْ كُفْرِهِم وَشِركهم . وقال أهلُ اللغة : زائلين مُنْفَصِلِين ، يُقَال : فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ ، أي : انْفَصَلَ ﴿ حَتَّى تَأتِيَهُمُ البَيِّنَةُ ﴾ ، لَفْظُه مُسْتَقْبَل ، ومَعْناه الماضي ، أي : حَتَّى أَتَتْهُمُ البَيِّنَةُ ، الحُجَّةُ الواضحةُ ، يَعْني : مُحَمَّدًا ﷺ أتَاهُم بالقُرْآنِ ، فَبَيَّنَ لَهُم ضَلالاتِهم وجَهَالَتَهُم ، وَدَعَاهُم إلى الإيمان ، فهذه الآية فِيمَنْ آمَنَ مِنَ الفَرِيقَيْن،أَخْبَرَ أنَّهُم لَمْ يَنْتَهُوا عَن الكُفْرِ حَتَّى أتاهم الرَّسُولُ،فَدَعَاهُم إلى الإيمان ، فَآمَنُوا ، فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنَ الجَهْلِ والضَّلالةِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ ﴾ [البَيِّنَة : ٦] .

إنَّ الذينَ كَذَّبُوا بالقُرْآنِ (الوَحْيِ السَّمَاوِيِّ) ، وجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارى والمُشركين عَبَدَةِ الأصنامِ والأوثانِ ، ماكثون في نار جَهَنَّمَ إلى الأبد ، وخالدون فيها ، بلا خُروجٍ ولا مَوْتٍ ، لا يَخْرُجُون مِنْهَا أبَدًا ، أُولئك هُمْ شَرُّ الخَلْقِ على الإطلاق ، ولا يُوجَد أسْوَأ مِنْهُم ، وهذا مَصِيرُ المُكَذِّبِين بالوَحْي والنُّبُوَّةِ . وكَفَرَةُ أهْلِ الكِتَابِ والمُشركون يَجْمَعُهُمُ العَذابُ ، وَلَكِنْ يُفَرِّقُهُم نَوْعُ العَذابِ، فالعَذابُ مُتَفَاوِتٌ لِتَفَاوُتِ كُفْرِهِمَا .

وَمَنْ كَذَّبَ القُرْآنَ فَقَدْ كَذَّبَ الكُتُبَ السَّماوية جَمِيعَها ، ومَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ كَفَرَ بجميعِ الأنبياء _ عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلام _ ، حَتَّى لَوْ زَعَمَ غَيْرَ ذلك. و﴿ أُولئكَ ﴾ اسْمُ إشارةٍ للبعيد ، وهو يدلُّ على بُعْدِ مَنْزِلَةِ الكافرين في الضَّلالِ والشَّرِّ ، فَهُمُ البَعِيدُون المَطْرُودون مِنْ رَحمةِ اللَّهِ تعالى ، وهُمْ أسْوَأ الخَلِيقَةِ أعمالًا . لَقَدْ وَصَلُوا إلى قاعِ الكُفْرِ ، الذي لا قَاعَ بَعْدَه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥١٦) : ((﴿ إنَّ الذينَ كَفروا مِن أهلِ الكِتابِ والمشركينَ في نارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها ﴾ . أي: يَوْم القِيامة ، أوْ في الحَالِ لِمُلابستهم مَا يُوجِب ذلك ، واشتراك الفَرِيقَيْن في جِنْسِ العَذابِ لا يُوجِب اشتراكَهما في نَوْعِه، فَلَعَلَّه يَختلف لِتَفَاوُتِ كُفْرِهما ﴿ أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ ﴾ أي : الخَلِيقَة)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٣١/ ٤٩) : ((فإنْ قِيل : لِمَ ذَكَرَ ﴿ كَفروا ﴾ بلفظ الفِعْل ، ﴿ والمشركينَ ﴾ باسم الفاعل ؟ ، فالجَوابُ تَنْبيهًا على أنَّ أهل الكِتاب مَا كانوا كافرين مِنْ أوَّلِ الأمْرِ ، لأنَّهُم كانوا مُصَدِّقِين بالتَّوراةِ والإنجيلِ ، ومُقِرِّين بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثُمَّ إنَّهُم كَفَرُوا بذلك بَعْد مَبْعَثِه عليه السلام ، بِخِلافِ المُشركين ، فَإنَّهُم وُلِدُوا على عِبَادَةِ الأوثان ، وإنكارِ

الحَشْرِ والقِيَامَةِ ، وقَوْلُه : ﴿ أُولئكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ ﴾ لإفادةِ الحَصْرِ ، أي : شَرٌّ مِنَ السُّرَّاقِ ، لأنَّهُم سَرَقُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ صِفَةَ مُحَمَّدٍﷺ،وَشَرٌّ مِنْ قُطَّاعِ الطريقِ،لأنَّهُم قَطَعُوا طَرِيقَ الحَقِّ عَلى الخَلْقِ)).

٢ــ حَسَدُهُم المُؤمِنين

إنَّ الحَسَدَ خَصْلَةٌ مَذمومةٌ ، وَهِيَ تَمَنِّي النِّعْمَةِ مَعَ زَوَالِها عَنْ مُسْتَحِقِّها،أمَّا إذا تَمَنَّى الإنسانُ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ غَيْرِ المُسْتَحِقِّ لها ، فَلا يَكُون ذلك حَسَدًا .

والحَسَدُ مِنْ خِصَالِ إبليس الرئيسية ، حَيْثُ حَسَدَ آدَمَ ﷺ على مَا أُعْطِيَ مِنَ الكَرَامَةِ ، وَقَدْ ظَنَّ أنَّ النارَ التي خُلِقَ مِنها تَستلزم أن تَكُونَ أفْضَلَ مِنَ الطِّينِ الذي خُلِقَ مِنْه آدَمُ ﷺ .

والحَسَدُ نابعٌ مِنْ قِيَاسٍ خَاطِئٍ ، ومُقَارَنَةٍ غَيْرِ صائبة ، فلا يَكُون القِيَاسُ صَحِيحًا إذا اخْتَلَفَت العِلَّةُ، لأنَّ القِيَاسَ الصحيح يَتَطَلَّبُ ثَبَاتَ العِلَّةِ وَعَدَمَ اختلافِها ، كما أنَّه إذا سَقَطَت العِلَّةُ سَقَطَ المَعْلُولُ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ في الأُصُولِ .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إيمَانِكُم كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأمْرِهِ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [البَقَرَة : ١٠٩] [٤٢] .

هذا تحذيرٌ إلهيٌّ للمؤمنين مِن اليهود ، وبيان لعداوتهم ، وحسدهم للمؤمنين ، معَ عِلْمهم بأنهم على الحق ، وأن محمدًا نبيٌّ صادق ، ورسول مِن عند اللَّه . والآيةُ تشتمل على توبيخ شديد لليهود ، فقد ظَهَرَ لهم الحقُّ ، وأُقِيمت عليهم الحُجَّة ، وانقطعَ عُذرُهم ، وعَرَفُوا أن الإسلام حق ، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه . وبعد كُلِّ هذا ، اختاروا الكُفْرَ على الإيمان عِنادًا وحسدًا . ولَم يَكتفوا بهذا، بَلْ إنَّ اليهود يَتَمَنَّوْنَ زوالَ نِعمة الإيمان عن المؤمنين . وهذا يدل على شِدَّة العداوة والحِقد والحسد والبغضاء . ومَحَبَّةُ اليهود لكُفر المؤمنين نابعة من شَهَوَات أنفسهم وأهوائهم،لا أن

---

٤٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/١٣١):((في سبب نزولها ثلاثة أقوال:أحدها أن حُيَي بن أخْطَب وأبا ياسر كانا جاهدَيْن في رد الناس عن الإسلام، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.والثاني أن كَعْب ابن الأشرف كان يَهجو النبيَّ ، ويُحرِّض عليه كُفارَ قُرَيْش في شِعْره ، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يُؤْذون رسولَ اللَّه حِينَ قَدِمَها ، فأمرَ النبيُّ بالصَّفْح عنهم،فَنَزلت هذه الآية ، قاله عبد اللَّه بن كعب ابن مالك،والثالث أن نَفَرًا من اليهود دَعَوْا حُذَيفةَ وعمَّارًا إلى دِينهم فأبَيَا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مُقاتِل)).

اليهود يَملِكون الحق ، ويَحرِصون عليه . واليهودُ لَمْ يكونوا جُهَّالًا أو ساذَجين ، بَل كانوا على عِلْم ومعرفة ، وكُفْرُهم مبنيٌّ عَلى عِلْم لا جَهْل ، وهذا أسوأ أنواع الكُفر على الإطلاق .

فَإن كُنتَ لا تدري فَتِلْكَ مُصيبةٌ وإن كُنتَ تَدري فالمُصيبةُ أعظمُ

تَمَنَّى اليهودُ لَوْ يَرُدُّون المؤمنين إلى الكفر والضلال ، حسدًا نابعًا مِن أصل أنفسهم ، واتِّباعًا لأهوائهم ومصالحهم وشهواتهم ، وليس التزامًا بالدِّين ، أو بحثًا عن الحق واليقين، ولَم يأمرهم اللَّهُ بذلك ، مِن بعد ما ظَهَرَ لليهود الحقُّ في التَّوراة ، التي تشتمل على صِفة مُحَمَّد ﷺ ، وتُوضِّح أن الإسلام حَق ، ومُحَمَّدًا نَبِيٌّ صادق . والحسدُ مُتجذِّر في قلوب اليهود السَّوداء ، وقد تَمَنَّوْا أن يَرتد المؤمنون عن الإسلام، ويَعودوا إلى الكفر، وسَعَوْا في ذلك مُستخدمين كُلَّ الوسائل المُمكنة ، وخطَّطوا للمؤامرات والمكائد ، ولكنهم فَشِلُوا . ثُمَّ بعد ذلك ، أعلنَ المؤمنون عليهم الجهادَ ، وانتصروا عليهم ، وخَسِرَ كثيرٌ مِن اليهود حياتَهم ، وضاعت مُمتلكاتهم . وعلى الباغي تَدُور الدوائر . ومَن سَلَّ سَيْفَ البَغْي صُرِعَ بِه .

والحَسَدُ مِن أسوأ الصفات على الإطلاق ، وهو تمنِّي زوال النِّعمة عن المَحسود ، وإنْ لَم يَصِرْ للحاسد مِثْلُها . أمَّا الغِبْطة فهي تَمَنِّي النِّعمة بدون حُب زوالها عن المَغبوط . وكُلُّ شخص يُمكن أن يَرضى إلا الحاسد ، فإنه لا يَرضى إلا بزوال النِّعمة عَن غَيره . وقلبُ الحاسد مُحترِق ، وعَقْلُه تائه ، وحُزْنُه دائم ، وتعاسته مُستمرة . والحاسدُ يُحْرِقُ نَفْسَه بِنَفْسِه ، ولا أحَد يَشْعُر به ، وهو سائرٌ إلى الهاويةِ السَّحيقةِ بِمِلْءِ إرادته .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٢) : ((يُحذِّر تعالى عبادَه المؤمنين عن سُلوك طريق الكُفار من أهل الكتاب ، ويُعْلِمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هُم مُشتملون عليه مِن الحسد للمؤمنين معَ عِلْمهم بفضلهم وفضل نَبِيِّهم ... . عن ابن عباس قال : كان حُيَي بن أخْطَب وأبو ياسر بن أخْطَب مِن أشد يهود للعرب حسدًا ، إذْ خَصَّهم اللَّهُ برسوله ﷺ ، وكانا جَاهِدَيْن في رَد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزلَ اللَّهُ فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُم ﴾ الآية ... . وقال الضَّحَّاك : عن ابن عباس : أنَّ رَسولًا أُمِّيًّا يُخبِرهم بما في أيديهم مِن الكُتب والرُّسُل والآيات ، ثُمَّ يُصدِّق بذلك كُلِّه مِثل تصديقهم ، ولكنهم جَحدوا ذلك كُفْرًا وحسدًا وبَغْيًا. وكذلك قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ . يقول : مِن بَعد ما أضاءَ لهم الحقُّ ، لَم يَجهَلوا مِنه شيئًا ، ولكن الحسد حَمَلَهم على الجُحود ، فعيَّرهم ، ووبَّخهم ، ولامهم أشد المَلامة ، وشَرَعَ لِنَبِيِّه ﷺ وللمؤمنين ما هُم عليه مِن التصديق ، والإيمان ،

والإقرار بما أنزلَ اللَّهُ عليهم ، وما أنزلَ مِن قَبْلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِن عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ مِن قِبَل أنفسهم . وقال أبو العالية : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ مِن بعد ما تَبَيَّنَ أنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ، يَجدونه مَكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيل ، فكفروا به حسدًا وبَغْيًا ، إذْ كان مِنْ غَيْرِهم ، وكذا قال قَتادة والربيع بن أنس)) .

إنَّ صُدورَ اليهود تمتلئ بالحسد تُجَاه المؤمنين ، وهُم مُتَلَبِّسون بالحسدِ بسبب قلوبهم المريضة وحُبِّها لِما هو قبيحٌ وكُرهها للحق. واليهودُ كانوا شديدي الحِرص على إرجاع المسلمين إلى عوالم الجاهلية والكفر . وهذا مرجعه إلى الحسد . فهم لا يريدون للآخرين أن يتمتعوا بِنِعمة الإيمان ، بل يَتَمَنَّوْنَ زوالَ هذه النِّعمة. وهذه الخَصْلَة الذميمة سببها كراهية الإنسان كإنسان، وتمنِّي زوال النِّعمة عنه ، وهذا اتجاه مُضاد للأُخُوَّة بين البشر بوصفهم من أصل واحد .

والحَسَدُ كَسِيَاسة منهجية هدفها تجريد الخصم من كل فضيلة ، والاستحواذ على النِّعَمِ كاملةً لِيَسْهُل القضاء على الخصوم . وقد قادَ الحسدُ اليهودَ إلى الكفر بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بعد معرفتهم اليقينية بِصِدْقِه وصِحَّةِ نُبُوَّتِه [٤٣] . وَرَوَى الطَّبَري في تفسيره (١ / ٤٥٤) عن ابن زَيد أنه قال : ((كانت يهود يَسْتَفْتِحُون على كُفار العرب يقولون : أمَا واللَّهِ لَوْ قد جاء النبيُّ ــ الذي بشَّر به موسى وعيسى ــ أحمدُ ، لكان لنا عليكم ! ، وكانوا يظنون أنه منهم ، والعرب حَوْلَهم ، وكانوا يستفتحون عليهم به، ويستنصرون به ، فلمَّا جاءهم ما عَرَفوا كَفروا به ، وحسدوه)) .

---

٤٣ الحسد نَوْعان : مذموم ومحمود. أمَّا المذموم فهو تمنِّي زوال النِّعمة عن المسلم . وهذا النَّوعُ حرامٌ بالإجماع. وقد ذمَّه اللَّهُ ووبَّخَ أصحابَه، فقال تعالى: ﴿ أم يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم اللَّهُ من فضله ﴾ [النساء : ٥٤]. والحسدُ المذموم اعتراض على إرادة اللَّه تعالى ، وطعنٌ في حِكْمته ، واتِّهامٌ له سُبحانَه بأنه يُعطي النِّعمة لغير المستحِق . أمَّا الحسدُ المحمود فهو الوارد في الحديث ، قال النبيُّ ﷺ : ((لا حَسَدَ إلا في اثنتَيْن : رَجُلٌ آتاه اللَّهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ، ورَجُلٌ آتاه اللَّهُ مالًا فهو يُنْفقه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ)) [متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧٣٧) ، ومسلم (١/ ٥٥٨)]. وهذا الحسدُ المحمود إنما هو الغِبْطة ، أي أن يَتَمَنَّى المرءُ النِّعْمَةَ التي على غَيره ، مِن غَير زوالها عن صاحبها . إنَّ الحَسَد لا يكون محمودًا إلا في أمْرَيْن ، الأوَّل : رَجُلٌ علَّمه اللَّهُ القُرآنَ ، فهو يَتلوه على الدَّوَام ، ويَستمر على ذلك في ساعات الليل والنهار ، والثاني: رَجُلٌ أعطاه اللَّهُ مالًا حلالًا ، فهو يُنْفِقه في البِرِّ والطاعات في ساعات الليل والنهار .

هذا يَعْكِس خُطورةَ اتِّبَاع الهَوى المُضاد لاعتناق الحق، كما يدل على أن الحسد الذي يسيطر على اليهود في كل مراحل وجودهم يساهم بشكل فعَّال في صَرْفهم عن الحق . وهُم سعيدون بهذا طمعًا في تحقيق مصالح شخصية ، والحفاظ على مناصبهم . وهذا أبعدَهم عن البناء الحضاريِّ ، فاليهودُ لا يَمْلكون أيَّةَ حضارة ، وليس لهم أي دَور إيجابي في تاريخ البشرية . ومَن يُعارِض هذا الكلام عليه أن يُرِيَنا " آثار الحضارة اليهودية " كَي نَزورها ونستفيد منها ! . واليهودُ يَسْتَوْلُون على التُّرَاث الفِلَسْطِيني ومعالم الحضارة العربية الإسلامية ، ويُسَجِّلونها باسمهم في المنظمات الدولية لأنهم لا يَملكون حضارةً،لذلك يَخترعون حَضارةً وهمية لهم عَبر الاستيلاء على إنجازات الآخرين.

وقال السُّيوطي في الدُّرِّ المنثور (١/ ٢٦٠): ((وكان حُيَي بن أخْطَب وأبو ياسر بن أخْطَب مِن أشدِّ اليهودِ حَسَدًا للعَرَبِ إذْ خَصَّهُمُ اللَّهُ برسوله ، وكانا جَاهِدَيْن في رَدِّ الناسِ عَن الإسلام مَا استطاعا ، فأنزَلَ اللَّهُ فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الكِتَابِ ﴾)) .

إنَّ المشكلة الأساسية في عُقول اليهود ، هي اعتبار أنفسهم الأحق بالنُّبُوَّة من العرب ، وأنهم أَرْقى من العرب ، وأعلى منهم شأنًا . وتفكيرُ اليهود يتشابه إلى حد بعيد مع تفكير إبليس، حيث إنَّ إبليس اعتبرَ نَفْسَه أفضل من آدم ﷺ ، وينبغي أن يَحصل على امتيازات خاصة متناسبة مع هذه الأفضلية المزعومة . واليهودُ اعتبروا أنفُسَهم أفضل من العرب، ويجب أن يَحصلوا على النُّبُوَّة ليتناسب ذلك مع مكانتهم الرفيعة المزعومة . وبما أن الأمور قد تَمَّتْ ، وظَهَرَت النُّبُوَّةُ في العرب بعد أن شَرَّف اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بها، لَم يجد اليهود وزعماؤهم غَيْرَ الحسد الذي يستلزم زوال النِّعمة عن الآخرين ، وحِياكة المؤامرات ، والتخطيط للمكائد ، وبذل الجُهود من أجل رَد الناس عن الإسلام . وقد صارت هذه الأفعال الدنيئة هي الغاية من وجود اليهود الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام بكل الوسائل . وقد نصَّبوا أنفسهم أعوانًا للشيطان، وأعداءً للرحمن . وهذا يدل على الحِقد الدفين الذي يُحْرِقُ قلوبَ اليهود ، ونار الحسد المُتأجِّجة في صدورهم .

كُلُّ العَداوةِ قد تُرْتجى إمَاتَتُها ... إلا عَداوةَ مَن عَاداكَ مِن حَسَدِ
فإنَّ في القلبِ مِنهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ ... ولَيْسَ يَفْتَحُها راقٍ إلى الأبَدِ

وقال الغَزَالي في الإحياء (٣/ ١٨٩) : ((اعْلَمْ أنَّه لا حسد إلا على نِعمة، فإذا أنعمَ اللَّهُ على أخيك بنِعمة فَلَكَ فيها حالتان : إحداهما أن تَكْرَهَ تِلْك النِّعمةَ وتُحِب زوالها ، وهذه الحالة تُسمَّى حسدًا . فالحسدُ حَدُّه كراهة النِّعمة وحُب زوالها عن المُنعَم عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لِنَفْسِك مِثْلَها ، وهذه تُسَمَّى غِبْطة)) .

وقد قال أحد الحكماء: ما رأيتُ أعدلَ من الحسد، بدأ بصاحبه فقضى عليه .وصدقَ القائلُ :

اصْبِرْ على حَسَدِ الحَسُودِ فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِـلُه

كالنارِ تأكلُ بَعْضَها إنْ لَم تَجِدْ ما تأكُلُه

وفي الحديث أن رسولَ اللَّه ﷺ قال : ((إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ سَئِمُوا دِينَهُم ، وَهُم قَوْمٌ حُسَّد ، وَلَم يَحْسُدُوا المُسلمينَ على أفضلَ مِن ثلاث : رَدِّ السَّلام ، وإقامةِ الصُّفوف ، وقَوْلِهم خَلْفَ إمامهم في المَكتوبة : آمِين)) [٤٤] .

إنَّ اليهود مَلُّوا مِن دِينهم القائم على الأهواء والخُرافات والمصالح الشخصية والمنافع المادية، والحسد يحرق قلوبَهم ، ويُدمِّر حياتهم . وهُم يَحسُدون المسلمين على مظاهر وَحْدتهم وأُلْفتهم التي تتجلَّى في شعائر دِينهم وصلاتهم .

واليهودُ يَتَمَنَّوْنَ زوالَ النِّعمة عن المُسلمين ، لأنهم يَعْلَمُون أن المسلمين على الحق ، لذلك يَحسُدونهم على رد السلام ، لأن فيه دَلالة واضحة على تماسك المجتمع الإسلاميِّ ، ومَتانة العلاقة بين المسلمين ، ووَحدة صَفِّهم . ويَحسُدونهم على إقامة الصُّفوف في الصلاة ، لأنه دليل الإيمان والانضباط والقُوَّة والوَحْدة والتماسك والتعاون . ويَحسُدونهم على قَولهم خلف الإمام في الصلاة المفروضة : آمِين ، لأن كلمة " آمِين " دُعاء خالص للَّه تعالى بالاستجابة بعد قراءة سُورة الفاتحة أعظم سُورة في القُرْآن ، والتي لَم يَنْزِل مِثْلُها في كُلِّ الكُتب السماوية السابقة .

ورفضُ الدِّين هو المُحرِّك الأساسيُّ للحسد. وهذا يدلُّ على أن اليهود يعيشون بلا وازع دِينيٍّ ولا رادع أخلاقي . وحَسَدُهم عام وشاملٌ إلا أنه يتمحور بشكل خاص حول ثلاثة أمور وضَّحها الحديثُ ، تُشكِّل ظواهرَ الوَحدة والتماسك والتكافل في المجتمع الإسلاميِّ المترابط . وهذا يُشير إلى حِرص اليهود على تفريق المسلمين وتشتيتهم وتمزيق مُجتمعهم،وَفْق قاعدة "فَرِّقْ تَسُدْ"، كي تَخْلُوَ لهم السَّاحة، ويَعِيثوا في الأرضِ فسادًا دُون حِساب أوْ عِقاب ، حَسَب رؤيتهم القاصرة.

وعن عائشةَ ــ رَضِي اللَّهُ عنهاــ عَن النَّبِيِّ ﷺ قال : ((مَا حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلى السَّلامِ والتَّأمِينِ)) [٤٥] .

---

٤٤ رواه الطَّبَرَاني في المعجم الأوسط (٥/ ١٤٦) برقم (٤٩١٠) ، وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب (١ / ١٩٤) ، ووافقه الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٨٨) .

٤٥ رواه ابن مَاجَة في سُنَنِه (١ / ٢٧٨) ، وقال في الزوائد : ((هذا إسناد صحيح ، ورِجَاله ثِقَات)).

هذا يدلُّ على أن اليهود يَحسُدون المسلمين على شعائر دِينهم ، وخُصوصيات المسلمين . إنَّهُم يَحسُدونهم على إفشاء السلام فيما بينهم ، وذلك لِمَا فيه مِن إظهار المحبَّة ، والوُد بين المسلمين بعضِهم البعض ، والرِّفْق فيما بَينهم ، والسَّلامُ تحيَّةُ أهل الجَنَّة . ويَحسُدونهم أيضًا على التأمين ، أي : قَول المُسلمين : آمِين ، خَلْف الإمام ، ومعناها : اللهُمَّ اسْتَجِبْ ، لِمَا عَلِمُوا مِن فَضْلها وبَرَكَتها.وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤):((وهو يدلُّ على أنَّه شُرِعَ لهذه الأُمَّة دُونَهم)).

والحديثُ يُوضِّح أنَّ اللَّه خَصَّ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بخصائص تميَّزت بها عن غَيرها مِن الأُمم في الخَير والأجر ، ويُبَيِّن ضرورةَ الحَث على الإكثار مِن السلام والتأمين ، ويدلُّ على أن اليهود يُدرِكون أن اليهودية دِيَانة أرضية وَضْعية بشرية باطلة ، وأن الإسلامَ هو الحَقُّ ، والدِّينُ السماويُّ الوحيد.وفي حديث آخَر أنَّ النبيَّ ﷺ قال عن اليهود : ((إنَّهُم لا يَحسُدونا على شَيء، كما يَحسُدونا على يَوْمِ الجُمُعَةِ ، التي هدانا اللَّهُ لها وضَلُّوا عنها ، وعلى القِبْلة التي هدانا اللَّهُ لها، وضَلُّوا عنها ، وعلى قَوْلِنا خَلْفَ الإمام : آمِين)) [٤٦] .

إنَّ اللَّه فَرَضَ على اليهود يَوْمَ الجُمُعة، فاختلفوا فيه ، وتركوه ، واختاروا السَّبْت . وقد خَذَلَهم اللَّهُ ، وهدى المسلمين إلى يوم الجُمُعة ، الذي ضَلَّ عنه اليهود . وفَرَضَ اللَّهُ على اليهود التَّوَجُّهَ إلى الكعبة ، فتركوها ، وضَلُّوا عنها، وهدى اللَّهُ المسلمين لها . واليهودُ قد اختاروا بَيْتَ المَقْدِس قِبلةً لهم ، والكعبةُ أفضل . واختصَّ اللَّهُ المسلمين (الأُمَّة المُحمَّدية) بقول : آمِين ، خَلْف الإمام ، ولَم يَمنح هذا الشرف لليهود المغضوب عليهم . وقَوْلُ المسلمين خَلْف الإمام : آمِين ، فيه فضل عظيم ، وثواب جَزيل ، وغُفران للذُّنُوب ، والتأمين على ما قَرَأه الإمامُ مِن سُورة الفاتحة. واليهودُ يَحسُدون المسلمين على هذه الأُمُور الثلاثة التي تُوحِّد المسلمين ، وتُعْلي شَأنَهم وقَدْرَهم.

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية آخِرُ الأُمَم زمنيًّا ، لكنَّها الأُمَّة الأُولَى يوم القيامة ، وسابقة لجميع الأمم الماضية . وقد حازت قَصَبَ السَّبْق ، بأن حصلت على فضيلة يوم الجُمُعة السابق للسَّبْت (عيد اليهود) والأحد (عيد النصارى) . كما أنها سابقة إلى طاعة اللَّه التي حُرِمَ منها اليهودُ والنصارى . وقد هَدى اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية إلى يوم الجُمُعة مع تأخُّرها في الزمن ، في حِين أن اليهود والنصارى ضَلُّوا عنه ، معَ أنهم سابقون زمنيًّا . والطريقُ لِمَنْ صَدَقَ لا لِمَنْ سَبَقَ .

---

٤٦ رواه أحمد في مُسنده (٦/ ١٣٤).وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٤١) : ((قال العِرَاقي : هذا حديث صحيح)) .

والأُمَّةُ المُحمَّدية حَصَلَتْ على فضل التَّوَجُّه إلى الكعبة (القِبلة التي تُوحِّد المسلمين في المشارق والمغارب) ، في حِين أن اليهود والنصارى حُرِمُوا مِن هذا الفضل ، وَلَمْ يُمنَحوا هذا الشرف . والأُمَّة المُحمَّدية تقول خلف الإمام : آمِين (اللهُمَّ اسْتَجِبْ) . وهذا الفضل حُرِمَ مِنه اليهود والنصارى . وفي هذا دَلالة واضحة على تفوُّق الأُمَّة المُحمَّدية على سائر الأُمم بلا استثناء. والأُمَّة المُحمَّدية حصلت على هذا الفضل العظيم والشرف الجليل ، لأنها قَبِلَتْ كلامَ اللَّه ، بلا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا تلاعب ، وسارعت إلى عبادة اللَّه وَحْدَه لا شريك له، وأقبلت على طاعة اللَّه ، والتزمت أوامرَه ، واجتنبت نَوَاهيه ، فكافأها اللَّهُ ، وعظَّم قَدْرَها ، وشرَّف مكانتها ، وأعلى شأنها في الدُّنيا والآخرة ، وَطَرَدَ اليهودَ والنصارى مِن رحمته ، ولَعَنَهم ، لأنهم حرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشرَكوا باللَّه تعالى، واختاروا الكفرَ على الإيمان ، واعتنقوا الضلال ، ورفضوا الهداية.

وعن سَلَمَة بن سلامة بن وَقْش _ وكان من أصحاب بَدْر _ قال : كان لنا جارٌ مِن يَهُودَ في بني عبد الأشْهَل ، قال : فَخَرَجَ عَلَينا يَوْمًا مِن بَيته قَبْلَ مَبْعَث النبيِّ ﷺ بيسير ، فوقفَ على مجلس عبد الأشهل ، قال سَلَمة : وأنا يومئذٍ أحدثُ مَن فيه سِنًّا عليَّ بُرْدة مُضْطَجِعًا فيها بِفِناء أهلي ، فَذَكَرَ البعثَ والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار ... فقال ذلك لِقَوْمٍ أهل شِرْك أصحاب أوثان ، لا يَرَوْنَ أن بَعْثًا كائن بعد الموت ، فقالوا له : وَيْحَكَ يا فُلان ، تَرى هذا كائنًا أن الناس يُبْعَثُون بعد مَوْتهم إلى دار فيها جَنَّة ونار يُجْزَوْنَ فيها بأعمالهم ؟، قال : نعم ، والذي يُحْلَف به ، لَوَدَّ أنَّ له بحَظِّه من تلك النار أعظمَ تَنُّور في الدنيا يُحْمُونه ثم يُدخلونه إيَّاه فَيُطْبَق به عليه ، وأنْ يَنجوَ من تلك النار غدًا . قالوا له : وَيْحَك، وما آيةُ ذلك ؟، قال: نبيٌّ يُبعَث مِن نَحْوِ هذه البلاد ، وأشارَ بيده نحو مكة واليمن ، قالوا : ومتى تَرَاه ؟ ، قال : فَنَظَرَ إلَيَّ وأنا مِن أحْدَثِهم سِنًّا ، فقال : إنْ يَسْتَنْفِدْ هذا الغُلامُ عُمُرَه يُدْرِكْه . قال سَلَمة : فواللَّهِ ما ذَهَبَ الليلُ والنهارُ حتى بَعَثَ اللَّهُ تعالى رسولَه ﷺ ، وهو حَيٌّ بين أظْهُرِنا ، فآمَنَّا بِه، وكَفَرَ به بَغْيًا وحَسَدًا ، فَقُلْنا : وَيْلَكَ يا فُلان ، أَلَسْتَ بالذي قُلْتَ لنا فيه ما قُلْتَ ، قال : بلى ، ولَيْسَ بِه [٤٧] .

هذا يدلُّ على أن اليهود كان لَدَيهم عِلْم ومعرفة بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ قبل ظُهوره ، إذْ إنَّ صِفته موجودة في كُتبهم الدينية ، وهُم على اطِّلاع عليها . ولكنهم كانوا يَأمُلُون أن يكون مِنهم ، وليس مِن غَيرهم ، فلمَّا ظَهَرَ مِن العرب كفروا بِه ، وجَحدوا نُبُوَّتَه ورسالته ، بَغْيًا وحَسَدًا .

---

٤٧ رواه أحمد في مسنده(٣/٤٦٧).قال الحافظ في الفتح(٦/٥٨٣):((صحَّحه ابن حِبَّان من طريقه)).

واليهودُ كانوا يَنظرون إلى العرب باعتبارهم جماعات بدوية مُتخلِّفة وبِدائية وهمجية ، وكانوا يَعتبرون أنفسَهم شعب اللَّه المُختار ، وصَفوة اللَّه مِن خَلْقه، والأحَق بالنُّبُوَّة والرسالة وتلقِّي وَحْي السماء . لذلك ، أنكَروا كُلَّ فضيلة للعرب ، وكفروا بالنبيِّ مُحَمَّد ﷺ لأنه عربيٌّ ، وليس مِن بني إسرائيل ، معَ عِلْمهم التام بصِدْقه وصِحَّة نُبُوَّته . وكُفْرُ اليهود قائم على العِلْم والمعرفة ، وَلَم يَكونوا جُهَّالًا أو ساذَجين، ولكنَّ الحَسَد حَمَلَهم على الكفر والضلال وتكذيب آيات اللَّه ، وجَحْد نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ .

((وروى يعقوب بن سُفيان بإسناد حسن عن عائشة ، قالت : كان يهوديٌّ قد سكن مكة ، فلمَّا كانت الليلةُ التي وُلِدَ فيها النبيُّ ﷺ قال : يا مَعْشَرَ قُرَيْش ، هل وُلِدَ فيكم الليلةَ مَوْلود ؟ ، قالوا : لا نَعْلَم ، قال : فَإِنَّهُ وُلِدَ في هذه الليلة نبيُّ هذه الأُمَّة ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلامة ، لا يَرضع لَيْلَتَيْن لأنَّ عِفْريتًا مِنَ الجِنِّ وَضَعَ يده على فمه، فانصرَفوا فسألوا، فقِيل لهم : قد وُلد لعبد اللَّه بن عبد المُطَّلب غُلامٌ ، فذهبَ اليهوديُّ معهم إلى أُمِّه فأخْرَجَتْهُ لهم ، فلمَّا رأى اليهوديُّ العَلامَةَ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْه ، وقال : ذَهَبَت النُّبُوَّةُ مِن بني إسرائيل، يا مَعْشَرَ قُرَيْش، أمَا واللَّهِ لَيَسْطُوَنَّ بكم سَطْوةً يَخْرُجُ خَبَرُها مِن المَشرِق والمَغرِب)) [٤٨] .

كانَ اليهودُ على عِلْم ومعرفة بمَبعَث النبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، وكانوا يَنتظرون أن يَخرُج مِن بني إسرائيل، فلمَّا خَرَجَ مِن العرب، أُسْقِطَ في أيديهم، واحترقت قلوبُهم بالحِقد والحسد ، وهذا سبب كُفرهم . وإذا كان اليهودُ قَد قَتلوا كثيرًا مِن أنبياء بني إسرائيل ، فماذا سَيَفعلون معَ النَّبِيِّ العَرَبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَم الأنبياءِ ، وَأعْظَم مَخلوقاتِ اللَّهِ عَلى الإطلاقِ ؟ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَدَّت طائفةٌ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إلا أنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُون ﴾ [آل عِمران : ٦٩] .

يُخْبِرُ اللَّهُ عَن حَسَدِ اليَهُودِ للمُؤمنين ، حَيْث تَمَنَّوْا إضلالَهم بالرُّجوع إلى دِينِهم حَسَدًا وبَغْيًا ، ولا يَعُود وَبَالُ ذلك إلا على اليَهُودِ ، لأنَّ إثم إضلالهم عليهم ، والعَذَاب يُضَاعَف لَهُم بِضَلالِهِم وإضلالِهِم ، والمُؤمنُون لا يُطيعونهم . ولا يَفْطُنُ اليَهُودُ لذلك ، ولا يَشْعُرُون أنَّهُم مَمْكُورٌ بِهِم ، ولا يَشْعُرُون أنَّ هذا يَضُرُّهُم ولا يَضُرُّ المُؤمنين . وَقَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إلا أنفُسَهُمْ ﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّة للدَّلالة على ثُبُوتِ قَدَمِ المُؤمنين في الإيمان ، فلا يَعُود وَبَالُ مَنْ أرادَ فِتْنَتَهُم إلا عَلَيْه)) .

---

٤٨ أورده الحافظ في الفتح (٦ / ٥٨٣) .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ٥١) : ((﴿ وَدَّت طائفةٌ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ نَزَلَتْ في اليَهُودِ لَمَّا دَعَوْا حُذَيْفَةَ وَعَمَّارًا وَمُعَاذًا إلى اليَهُودِيَّة ، و ﴿ لَوْ ﴾ بِمَعنى أنْ ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إلا أنفُسَهُمْ ﴾ ، وَمَا يَتَخَطَّاهُم الإضلال ، ولا يَعُود وَبَالُه إلا عَلَيْهِم ، إذْ يُضَاعَف بِهِ عَذَابُهُم ، أوْ مَا يُضِلُّون إلا أمثالَهم ، ﴿ وَمَا يَشْعُرُون ﴾ وِزْرَه واختصاصَ ضَرَرِه بِهِم)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١ / ٤٠٤) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَدَّت طائفةٌ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ ، سَبَبُ نُزولِها أنَّ اليَهُود قالوا لِمُعَاذ بن جَبَل وعَمَّار بن ياسر : تَرَكْتُمَا دِينَكما واتَّبَعْتُمَا دِينَ مُحَمَّدٍ ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، قاله ابن عَبَّاس . والطائفةُ اسْمٌ لجماعة مُجْتَمِعين على مَا اجتمعوا عَلَيْه مِنْ دِينٍ ورَأيٍ وَمَذهَبٍ وغَيْر ذلك . وفي هذه الطائفة قَوْلان : أحدهما أنَّهُم اليَهُود،قاله ابن عباس ، والثاني اليَهُودُ والنَّصَارى ، قاله أبو سُلَيمان الدِّمشقي . والضَّلالُ: الحَيْرَة. وفِيه هَاهُنا قَولان : أحدهما أنَّه الاستنزال عَن الحَقِّ إلى الباطل ، وهو قول ابن عباس ومُقَاتِل ، والثاني الإهلاك ، قاله ابن جرير والدِّمشقي . وفي قَوْلِه : ﴿ وَمَا يَشْعُرُون ﴾ قَوْلان : أحدهما وَمَا يَشْعُرُون أنَّ اللَّهَ يَدُلُّ المُؤمِنين على حَالِهِم ، والثاني وَمَا يَشْعُرُون أنَّهُم يُضِلُّون أنفُسَهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَد آتَينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكمةَ وآتَيناهُم مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء : ٥٤] [٤٩] .

حَسَدَ اليَهُودُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على النُّبُـوَّة والرِّسَالة وتَلَقِّي وَحْي السَّماء ، وحَسدوا أصحابَه على نِعمة الإيمان والهُدى والمَجْد والعِزَّة والنَّصْر والتمكين في الأرض ، وحَسدوا العربَ لأن

---

٤٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٩و١١٠) : ((سبب نزولها أن أهل الكتاب قالوا : يَزْعُم مُحَمَّدٌ أنه أُوتِيَ ما أُوتِيَ في تواضع وله تِسْعُ نِسْوة ، فأيُّ مُلْكٍ أفضلُ من هذا ؟ ، فَنَزلت ، رواه العَوفي عن ابن عباس . وفي : ﴿ أَم ﴾ قَوْلان : أحدهما أنها بمعنى ألف الاستفهام ، قاله ابن قُتَيبة. والثاني بمعنى بَل ، قاله الزَّجاج ... والحاسدون هاهُنا اليهود . وفي المراد بالناس هاهُنا أربعة أقوال : أحدها النبيُّ ﷺ ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال عِكْرمة ومجاهد والضَّحَّاك والسُّدي ومُقاتِل . والثاني : النبيُّ ﷺ وأبو بكر وعُمر ، رُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ . والثالث : العرب ، قاله قَتَادة . والرابع : النبيُّ والصَّحابة ، ذَكَره الماوَردي. وفي الذي ﴿ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : إباحة اللَّه تعالى لِنَبِيِّه أن يَنْكِحَ ما شاء مِن النساء مِن غَير عدد ، رُوِيَ عن ابن عباس والضَّحاك والسُّدي . والثاني أنه النُّبُوَّة ، قاله ابن جُرَيج والزَّجَّاج، والثالث: بَعْثَة نبيٍّ مِنهم ، على قَوْل مَن قال: هُم العرب)) .

النُّبُوَّة ظَهَرَتْ فِيهم ، وخَرَجَتْ من بني إسرائيل . وقد شرَّف اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بالنُّبُوَّة ، وأعلى قَدْرَه وشَأنَه ، وفضَّله على سائر المخلوقات، وشرَّف العربَ بأن اختارَ مِنهُم أعظمَ أنبيائه على الإطلاق ، ولَم يَخْتَرْه مِن بني إسرائيل ، وهذا سبب حِقد اليهود وحسدهم للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ وللمؤمنين .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٦٨٣) : ((يَعْني بذلك حَسَدَهم النبيَّ ﷺ على ما رَزَقَه اللَّهُ مِنَ النُّبُـوَّةِ العظيمة . ومَنَعَهُم مِنْ تَصديقِهم إيَّاه حَسَدُهم لَهُ لِكَوْنه مِنَ العَرَبِ ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إسرائيل)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٦٩): ((حَسَدَت اليهودُ مُحَمَّدًا عليه السلام على مَا آتاه مِن النُّبُوَّة ، وَمَا أبَاحَ له مِن النِّسَاء ، وقالوا : لَوْ كان نَبِيًّا لَشَغَلَه أمرُ النُّبُوَّة عن النِّسَاء)) .

وعن ابن عَبَّاس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : قَوْلُه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ، قال ابن عباس: ((نَحْنُ الناسُ دُونَ الناس)) [٥٠] .

المقصود بالآية ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ هو النبيُّ مُحَمَّد ﷺ ، وهذا مِن باب تسمية الخاص باسم العام ، إشارة إلى أنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ جُمِعَتْ فيه كَمَالات الأوَّلين والآخِرين وفضائلهم .

إنَّ ظُهُورُ النبيِّ مُحَمَّد ﷺ من العرب مَلأ صُدورَ اليهود غَيْظًا وحِقْدًا ، فَتَمَنَّوْا زوالَ نِعمة النُّبُـوَّة عَن مُحَمَّد ﷺ وقَومِه. وهذا الحسدُ دفعهم إلى تكذيب الدَّعوة الإسلامية ، وعدم تصديق القرآن ، واكتفائهم بالتوراة ومُوسىﷺ ــعلى حَد زَعْمهمــ. مع أنهم في حقيقة الأمر يسيرون ضد موسى ﷺ والكتابِ الذي جاء به. والكفرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ هو كفرٌ بجميع الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ . والنُّبُـوَّةُ بِناءٌ مُتكامل أسَّسه اللَّهُ في الأرض لهداية الضائعين إلى الطريق المستقيم ، واللَّهُ يُساعد عِبادَه حُبًّا لهم ، وتفضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إلَيهم ، وهو سُبحانَه غنيٌّ عنهم ، ولا يحتاجهم .

﴿ فَقَد آتَينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ والحِكمةَ وآتَيناهُم مُلْكًا عَظِيمًا ﴾. حَسَدُ اليهودِ غَيْرُ منطقي ولا مُبَـرَّر ، فاللَّهُ أعطى أسلافَ اليهود مِن ذُرِّيَة النبيِّ إبراهيم ﷺ النُّبُـوَّةَ ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ ، وجَعَلَ مِن بني إسرائيل أنبياء ومُلُوكًا ، وجَمَع النُّبُـوَّةَ والمُلْكَ العظيم لداود وسُلَيمان ــ عليهما الصلاة والسلام ــ ، وكِلاهما مِن أنبياء بني إسرائيل . فلماذا يَخُصُّ اليهودُ مُحَمَّدًا ﷺ بالحسد دُون غَيره مِمَّن أنعمَ اللَّهُ عليهم ؟ . والآيةُ توبيخٌ شديد لليهود بسبب الحسد ، ورَدٌّ عليهم ، وفَضْحٌ لباطلهم ، وإلزامٌ لهم بما عَرَفُوه مِن فضل اللَّه على آل إبراهيم وبني إسرائيل .

---

٥٠ رواه الطَّبَرَاني(١١/ ١٤٦) . وقال الهيثمي في المجمع(٦٢/٧): ((وفيه يحيى الحِمَّاني وهو ضعيف)).

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١١١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فَقَد آتَينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ ﴾ يعني التَّوراة والإنجيل والزَّبُور ، كُلُّه كان في آل إبراهيم ، وهذا النبيُّ مِن أولاد إبراهيم. وفي الحِكمة قَولان : أحدهما النُّبُـوَّة ، قاله السُّدي ومُقاتل . والثاني الفِقه في الدِّين ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي . وفي المُلْك العظيم خمسة أقوال : أحدها مُلْك سُلَيمان ، رواه عطية عن ابن عباس . والثاني مُلْك داود وسُلَيمان في النِّسَاء ، كان لداود مِائة امرأة، وَلِسُلَيمان سَبْعِمِائة امرأة وثلاثمِائة سُرِّيَّة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السُّدي. والثالث النُّبُـوَّة، قاله مجاهد. والرابع التأييد بالملائكة ، قاله ابن زيد في آخرين . والخامس الجَمْع بين سياسة الدنيا وشَرْع الدِّين ، ذَكَرَه المَاوَرْدِيُّ)) .

إنَّ اليهود يَحْسُدون النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على النُّبُـوَّة وكثرة نِسائه ، وهذا أمرٌ غير منطقي ولا معقول ، فاللَّهُ اتَّخذَ إبراهيم خليلًا، وأعطاه مُلْكًا عظيمًا ، وكلَّم مُوسى تكليمًا ، وأنزلَ عليه التَّوراة، واختارَ عيسى ، وأنزلَ عليه الإنجيلَ ، وجَعَلَه يُبرِئ الأعمى والأبرصَ ويُحْيي المَوتى بإذن اللَّه ، وأعطى داود مُلْكًا عظيمًا ، وأنزلَ عليه الزَّبُورَ ، وألانَ له الحديد ، وسخَّر له الجبال ، وكان لَدَيه مِائة امرأة ، وأعطى سُلَيمان مُلْكًا عظيمًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بَعْده ، وسخَّر له الجِنَّ والإنس والشياطين والرِّياح، وكان لَدَيه ألف امرأة ، واخْتَصَّهم اللَّهُ جميعًا بالنُّبُوَّة والرِّسَالة . ثُمَّ بعد كُلِّ هذا، يَحْسُد اليهودُ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على النُّبُوَّة وتعدُّد الزَّوجات ! . هذا يدلُّ على ضلال اليهود .

وفي تفسير القُرطبي (٥ / ٢٤١) : ((فإذا كان في النَّظَر والمَسِّ نَوْع مِن قَضَاء الشَّهْوَة ، قَلَّ الجِمَاع ، والمُتَّقي لا يَنظُر ولا يَمَسُّ ، فتكون الشَّهْوَةُ مُجْتَمِعَةً في نَفْسِه، فيكون أكثرَ جِمَاعًا . وقال أبو بكر الوَرَّاق:كُلُّ شَهْوَة تُقَسِّي القلبَ إلا الجِمَاع،فَإنَّه يُصَفِّي القَلْبَ، ولهذا كان الأنبياءُ يَفْعَلُون ذلك)) .

إنَّ الحَسَدَ هُوَ أوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ في السَّماءِ وفي الأرض ، فأمَّا في السَّمَاءِ فَقَدْ حَسَدَ إبليسُ آدمَ ﷺ ، ورَفَضَ السُّجُودَ له مُعْتَقِدًا أنَّه أفضلُ مِنْه ، وأمَّا في الأرضِ فَقَدْ قَتَلَ قَابِيلُ أخاه هَابِيلَ حَسَدًا له .

٣ ـ وُجُوبُ التَّسَاهُلِ معَ غَيْرِ المُحَارِبين مِنْهُم

إنَّ القُرْآنَ حاكمٌ عادلٌ،وَحَكَمٌ مُنْصِفٌ،وهَذا يَتَجَلَّى في التفريقِ بَين المُحَارِبِ وَغَيْرِ المُحَارِب. وأهلُ الكِتابِ هُمْ قَوْمٌ لهم وَضْع خاص في الشريعة الإسلاميَّة ، وقد أضافَهم اللَّهُ إلى الكِتاب ، وكأنَّه سُبحانَه يُذكِّرهم بأن يَعْمَلُوا بالتَّوْراةِ والإنجيل ، وَلَوْ عَمِلُوا بأحكامِهما حَقًّا لآمَنُوا بالقُرْآنِ .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عِمران : ٦٤] .

يُقَدِّمُ القُرآنُ الحُجَجَ الدامغةَ، والبراهين الباهرة . فقد دعا أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلى كَلِمَةٍ عَدْلٍ يستوي أمامها الجميعُ بلا تمييز أو مُجامَلة . وهذه الكلمة التي ينبغي الاتفاق عليها مِنْ كُلِّ البشر _ على اختلاف أديانهم وأجناسهم _ هي عبادة اللَّه وَحْدَه ، وعدم الشِّرْك به ، وعدم اتخاذ البشر أربابًا مِن دُون اللَّه تعالى .

ولا أحد يملك حقَّ التشريع والتحليل والتحريم سِوى اللَّه تعالى . وكُلُّ ما عُبِدَ مِن دُون اللَّه هُمْ آلهة باطلة ، لا يَملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضَرًّا ، فلا مَعبودَ بحق إلا اللَّه . وللأسف ، فقد عَبَد اليهودُ عُزَيْرًا ، وعَبَدَ النصارى المسيحَ ، واتَّخذوا أحبارَهُم ورُهبانَهم أربابًا مِن دُون اللَّه تعالى ، أحَلُّوا لهم الحرامَ ، وحرَّموا عليهم الحلالَ .

ومَن يتفكر في هذه الدَّعوة العظيمة سيجد أنها مُنصِفة لا ظُلْمَ فيها ، ولا تغليب لأُناس على آخرين ، فاللَّهُ تعالى هو خالقُ كُلِّ الناس ، فعليهم أن يَعبدوه وَحْدَه ، وألا يُشرِكوا بِه . فلا يجوز عبادة مُحَمَّدٍ أوْ مُوسَى أوْ عِيسى _ عليهم الصلاة والسلام _، بَلْ تَجِب عبادة الذي أرسلهم. والالتزامُ بهذا المبدأ الراقي سَيُوحِّد الناسَ على الحق ، ولا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى ، والتقوى سِرٌّ بين العبد وربِّه .

وهذه الدَّعوة عالميَّة لأنها لا تختص بقَوم دون قَوم . فهي لا تُجَامِل المسلمين على حساب أهل الكتاب ، لأنَّ اللَّهَ خالقُ الجميع لا المسلمين وَحْدَهم. ولا تُنقِص من قَدْر التوراة والإنجيل، لأنهما كتابان سماويان_ في الأصل_ يُؤَيِّدان القرآنَ مِثلما القُرآن يؤيِّدهما ، ولا تَحُطُّ من مَنْزلة موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، لأن الأنبياءَ كُلَّهم دِينهم واحد ، يتشرفون بعبادة اللَّه الذي أرسلهم لإخراج الناس من ظُلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلم والإيمان. ولو كان مُحَمَّد ﷺ كاذبًا لدعا الناس إلى عبادته مِثل فِرْعَوْن ، أوْ طعن في موسى وعيسى لإعلاء مَنْزلته عليهما ، أو طعن في التوراة والإنجيل لبيان تفوُّق الكتاب الذي جاء به . لكن هذه الأمور لَم تحدث ، فقد كان النبيُّ مُحَمَّد ﷺ أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل وموسى وعيسى _ عليهما السلام _ . ولا يُقْبَل الإسلام من أحد إلا إذا آمَنَ بالكُتب السماوية كُلِّها والأنبياءِ كُلِّهم . وهذا هو الأساس للدَّعوة الإسلامية العالمية الكَوْنية الشاملة لِكُلِّ زَمانٍ ومكان .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ . الخِطَابُ الإلهيُّ للنَّبِيِّ ﷺ . قُلْ يا مُحَمَّد لليهود والنصارى (أهل التَّوراة والإنجيل): يا أَهْلَ الكتاب ، هَلُمُّوا إلى كلمة عادلة واضحة مستقيمة بيننا وبينكم ، فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، ولا يَختلف فيها الرُّسُل والكُتب السماوية.

﴿ ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ . أن نَعبد اللَّهَ وَحْدَه،بلا شريك، ولا نِد، ولا صاحبة ، ولا ولد.وهذه هي الكلمة العادلة التي لا ظُلم فيها ولا جَوْر. و﴿ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ هي كلمة التَّوحيد.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٤) : ((هذا الخِطاب يَعُمُّ أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى ومَن جَرَى مَجْرَاهم ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ والكلمة تُطلَق على الجُملة المفيدة كما قال هَهُنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ ، أي عَدْل ونَصَف _ يعني إنصاف _ ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسَّرها بقوله : ﴿ ألا نعبد إلا اللَّهَ ولا نشرك به شيئًا ﴾ ، لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيئًا ، بل نُفْرِد العبادةَ للَّه وَحْدَه لا شريك له ، وهذه دَعوة جميع الرُّسُل)) .

﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . ولا يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه ، ولا يَسجد بعضُنا لبعض ، ولا يَعبد بعضُنا بعضًا ،كما عَبَدَ اليهودُ عُزَيرًا ، وعَبَدَ النصارى المسيحَ ، وأطاعوا أحبارَهم ورُهبانَهم في تحليل الحرام ، وتحريم الحلال . فالتحليلُ والتحريم للَّه وَحْدَه ، وهُما من خصائص الأُلوهية، ولا علاقة للبشر بهما.والآيةُ تَوبيخٌ شديد لليهود الذين عَبَدُوا عُزَيْرًا ، والنصارى الذين عَبَدُوا المسيحَ ، وكِلاهما بَشَرٌ ، يأكل ويشرب ويقضي حاجته وينام . وأيضًا ، توبيخ شديد لِمَن أطاعَ الرجالَ في دِين اللَّه ، فَحَلَّلَ ما حَلَّلوه من الحرام ، وحرَّم ما حرَّموه مِن الحلال ، بلا دليل نقلي ، ولا حُجَّة عقلية . ومَن فَعَلَ هذا ، فقد اتَّخَذَ مَن قَلَّدَه إلَهًا وربًّا ومعبودًا مِن دُون اللَّه تعالى . والجديرُ بالذِّكر أن مظاهر العبودية لا يجوز صَرْفها لأحد من المخلوقين . واتخاذُ الناسِ بَعْضَهم بَعْضًا أربابًا مِن دُون اللَّه ، يحتمل عِدَّة مَعَانٍ . فاتِّباع عِلْية القوم (الأمراء والعلماء) في التحليل والتحريم بلا دليل هو نوع من عبادتهم، لأن تشريع الحلال والحرام بيد اللَّه وَحْدَه . وهناك معنى مشهور مِثل عبادة النصارى للمسيح ﷺ ، فقد اتخذوه إلهًا ، وذلك لجهلهم وتحريفِ الإنجيل ، حيث دخلت فيه العوامل البشرية . ولا يَخفى أن سُوء تأويل النصوص الدينية أدَّى إلى كوارث عَقَائدية ، وانحرافات أخلاقية . وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) في التَّوراة والإنجيل ، أن يَعبدوا اللَّهَ وَحْدَه ، لا شريك له . لكنهم خالفوا الأمرَ الإلهيَّ ، فَحَرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ ، وأشركوا باللَّه تعالى . فقد اعتبرَ اليهودُ عُزَيْرًا ابنَ اللَّه ، واعتبرَ النصارى عيسى

ابنَ اللَّه . وجَحَدَ أهلُ الكتابِ نُبُوَّةَ مُحَمَّدﷺ ، وعَبَدُوا أحبارَهم ورُهبانَهم ، كما قالَ اللَّهُ عنهم : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣١] . أي إنَّهم أطاعوهم كما يُطاع الرَّبُّ تعالى ، فأحَلُّوا لهم الحرام ، وحرَّموا عليهم الحلال .

وعن عَدِيِّ بنِ حَاتِم قال : أتَيْتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِن ذَهَب ، فقال : ((يا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنكَ هذا الوَثَنَ)) ، وسَمِعْتُه يَقرأ في سُورة بَرَاءة : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال : ((أمَا إنَّهُم لَمْ يَكونوا يَعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحَلُّوا لهم شيئًا اسْتَحَلُّوه ، وإذا حَرَّموا عَليهم شيئًا حَرَّموه)) [٥١] .

لَقَدْ دَعَا النبيُّ ﷺ أصحابَه إلى ترك عادات الجاهليَّة وأوثانها ، وكان ﷺ يَنهاهم عن التَّشَبُّه بالمُشركين أو اليهود أو النصارى .

كان عَدِيُّ بن حاتم نصرانيًّا ، وجاءَ إلى النبيِّ ﷺ كَي يُسْلِمَ ، وقد علَّق في عُنُقه سلسلةً فيها صليب من ذهب ، والصليب شِعَار النصارى ، فأمره النبيُّ ﷺ أن يَنْزِعَ عنه هذا الصليبَ ويُلْقِيَه ، والوَثَنُ هو الصَّنَم، وكُلُّ ما جَسَّدَ شيئًا فهو وَثَن، سواءٌ كان مِن طِين أوْ حِجارة أوْ خَشب أو حديد . وسمع عَدِيُّ بن حاتم النبيَّ ﷺ يقرأ الآية الموجودة في سُورة التَّوبة : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أي : إنَّ اليهود اتَّخَذَتْ أحبارَهم ، والنصارى اتَّخَذَتْ رُهبانَهم، آلهةً مِن دُون اللَّه تعالى .

وبيَّن النبيُّ ﷺ المُراد بالآية ، فاليهود والنصارى لَم يَكونوا يَعبدون أحبارَهم ورُهبانَهم ، ولكن اليهود والنصارى كانوا إذا أحلَّ لهم الأحبارُ والرُّهبانُ شيئًا استحلَّه أتباعُهم،وإذا حرَّموا شيئًا امتنعَ عنه أتباعُهم . وكأنهم بذلك اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم آلهةً مَعبودةً مِن دُون اللَّه تعالى . يُحِلُّون

---

٥١ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنه (٥/ ٢٧٨) برقم (٣٠٩٥) ، والبَيهقي في سُنَنه الكبرى (١٠/ ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطَّبَراني (١٧/ ٩٢) برقم (٢١٨) .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((فالجَهَلة مِن الأحبار والرُّهبان ومشايخ الضَّلال يَدخلون في هذا الذم والتَّوبيخ ، بخلاف الرُّسُل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر اللَّهُ به ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُلُه الكرام ، وإنما يَنْهَوْنَهم عمَّا نهاهم اللَّهُ عنه ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُلُه الكرام، فالرُّسُلُ ــ صَلَوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ــ هُم السُّفَراء بين اللَّه وبين خَلْقه في أداء ما حَمَلوه مِن الرسالة ، وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك أتم القيام ، ونصحوا الخَلْقَ ، وبَلَّغوهم الحقَّ)) .

لهم ، ويُحرِّمون عليهم . والحديثُ يُوضِّح أن التحليل والتحريم من خصائص اللَّه وَحْدَه لا شريك له ، وأنَّ مَن اتَّبَعَ أحدًا في ذلك ، فقد اتَّخذه إلهًا مِن دُون اللَّه تعالى .

إنَّ قضية التحليل والتحريم لا أحدٌ يَمْلِكُها إلا اللَّه تعالى ، فهي تشريعٌ إلهيٌّ لا علاقة للمخلوقات به . والشخصُ الذي يقوم بالتحليل والتحريم إنَّما هو يُنازع اللَّهَ تعالى ، ويعتدي على شريعة السماء ، ويَجعل عقلَه الناقص المحدود مُسَاوِيًا لِعِلْمِ اللَّهِ المُطْلَقِ ، وقُدرته اللامحدودة . وإطاعةُ ذلك الشخص إنَّما هي استسلام له ، وخُضوع لأفكاره ، وعبادة له مِن دُون اللَّه تعالى .

وأهلُ الكتاب (اليهود والنصارى) _ للأسف_ مُعتادون على عبادة الأشخاص وتقديسهم ، وتقديم كلام عُلمائهم على نصوص التَّوراة والإنجيل .

إنَّ العلماء الفاسدين قد ضَلُّوا وأضَلُّوا ، وذلك لأنهم رؤوس الناس ومَرجعياتهم ، وإذا فَسَدَ الرأسُ انتهى الجَسَدُ . وهؤلاء العلماء كالحِمَار يَحْمِل أسفارًا ، يَحفظون الكتبَ ، ويَملكون ناصيةَ اللغة، وفَصْلَ الخِطَاب، ويُتقنون الخَطَابةَ ، ويمتازون بالبلاغة والفصاحة وحُسْن البيان ، ومع هذا لَم يستفيدوا شيئًا مِن عِلْمهم ، فكان عِلْمُهم حُجَّةً عليهم لا لهم ، لأنَّهم اتَّخذوا العِلْمَ طريقًا لتحقيق مصالح شخصية ومكاسب مادية ، وليس ابتغاءَ وجه اللَّه تعالى . وهؤلاء يَنظرون إلى الدِّين بوصفه مشروعًا تجاريًّا استثماريًّا يُدِرُّ أرباحًا وفيرة،ويَضْمَن ولاءَ الناس وتبعيتهم،ويَحْشِد الجماهيرَ. وهكذا صار علماءُ السُّوء دُعاةً على أبواب النار ، مَن أطاعهم قَذَفُوه فيها .

وكما قال ابنُ المُبَارَك :

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانُها
فباعُوا النُّفوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ في البَيعِ أثمانُها

وقال القاضي الجُرْجانيُّ :

لَوْ أنَّ أهلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
ولكن أهانوه فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٨/ ٣٩١ و٣٩٢) : ((قَوْلُه: (وفي عُنُقي صليب) هو كُلُّ ما كان على شكل خَطَّيْن مُتقاطعَيْن . وقال في المجمع : هو المربع من الخشب للنصارى يَدَّعون أن عيسى عليه السلام صُلِبَ على خَشَبَة على تلك الصُّورة (اطْرَحْ عَنك) أي : أَلْقِ عَن عُنُقِكَ (هذا الوثن) هو كُل مَا له جُثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة ، كصورة الآدميِّ، والصنم : الصُّورة بلا جُثة . وقِيل : هُمَا سَوَاء ، وقد يُطلَق الوثن على غَير الصورة.

ومنه حديث عَدِيٍّ: قَدِمْتُ عليه ﷺ وفي عُنُقي صليب مِن ذَهَب ، فقال: " أَلْقِ هذا الوَثَنَ عَنْكَ "، قاله في المجمع . (اتَّخذوا أحبارَهم) أي: عُلَماء اليهود (ورُهبانهم) أي: عُبَّاد النصارى (أربابًا مِن دُون اللَّه) حيث اتَّبَعُوهم في تحليل ما حرَّم اللَّهُ، وتحريم ما أَحَلَّ اللَّهُ.قال أي النبيُّ ﷺ: (أمَا) بالتخفيف حرف التنبيه (إذا أحَلُّوا لهم شيئًا) أي: جَعلوا لهم حَلالًا وهو مِمَّا حرَّمه اللَّهُ تعالى (اسْتَحَلُّوه) أي اعتقدوه حَلالًا (وإذا حرَّموا عليهم شيئًا) أي: وهو مِمَّا أَحَلَّه اللَّهُ (حرَّموه) أي: اعتقدوه حَرَامًا . قال في فتح البيان : في هذه الآية ما يَزجُر مَن كان له قلب أوْ ألقى السَّمْعَ وهو شهيد عن التقليد في دِين اللَّه ، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسُّنَّة المُطهَّرة، فإنَّ طاعة المُتَمَذهِب لِمَن يَقتدي بِقَوْله ويَسْتَن بِسُنَّته مِن عُلماء هذه الأُمَّة معَ مُخالفته لِمَا جاءت به النُّصُوص ، وقامت به حُجَج اللَّه وبراهينه ، هو كاتِّخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرُّهبان أربابًا مِن دُون اللَّه ، للقطع بأنَّهم لَم يَعبدوهم ، بل أطاعوهم وحرَّموا ما حرَّموا ، وحلَّلوا ما حلَّلوا ، وهذا هو صَنِيع المُقَلِّدين مِن هذه الأُمَّة ، وهو أشبه به مَن شبَّه البَيضة بالبَيضة ، والتَّمرة بالتمرة ، والماء بالماء . فيا عِبَادَ اللَّه ، مَا بالُكم تركتم الكتابَ والسُّنَّةَ جانبًا ، وعَمَدْتُم إلى رجال هُم مِثْلُكم في تَعَبُّدِ اللَّهِ لهم بهما ، وطلبه للعمل مِنهم بما دَلَّا عليه وأفاداه ، فعملتم بما جاؤوا به مِن الآراء التي لَم تُعَمَّدْ بِعِمَاد الحَق ، ولَم تُعَضَّدْ بِعَضُد الدِّين ، ونُصُوصُ الكِتَابِ والسُّنَّةِ تُنَادي بأبلغ نداء ، وتُصوِّت بأعلى صَوت بما يُخالف ذلك ويُبَاينه ، فأعرتموها آذانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا ، وأذهانًا كَلِيلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا مِن غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ . انتهى .

وقال الرازي في تفسيره : قال شَيْخُنا ومَولانا خاتمة المُحقِّقين والمُجتهدين رضي اللَّهُ عنه : قد شاهدتُ جماعةً مِن مُقلِّدة الفقهاء،قرأتُ عليهم آياتٍ كثيرة مِن كتاب اللَّه تعالى في بعض المسائل فكانت مذاهبهم بِخِلاف تلك الآيات، فَلَم يَقْبَلُوا تلك الآيات، ولَم يَلتفتوا إليها، وبَقُوا ينظرون إليَّ كالمُتعجِّب، يعني : كيف يُمكن العمل بظواهر هذه الآيات معَ أنَّ الرِّواية عَن سَلَفنا وَرَدَتْ إلى خِلافها ، وَلَوْ تأمَّلْتَ حَقَّ التأمُّل ، وَجَدْتَ هذا الداءَ ساريًا في عُروق الأكثرين من أهل الدُّنيا)) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ . فإن رفضوا تَوحيدَ اللَّه ، وأعرَضوا عن هذه الدَّعوة العادلة المستقيمة المُنصِفة ، فأشهِدُوهم أنكم مُوحِّدون مُسلمون ، ثابتون على الإسلام (الدِّينِ السَّمَاوِيِّ الوحيد)، ومُتمسِّكون به ، ومُقِرُّون للَّه بالوَحدانية والأُلوهية والرُّبوبية ، ومُخلِصون له الدِّين والعبادة والطاعة ، ومُنقادون لشريعة اللَّه وأحكامه وأوامره ونَوَاهيه . وقد قامت عليهم

الحُجَّة ، ولَزِمَتْهُم البَيِّنة ، وانقطعَ عُذْرُهم . والآيةُ تَدفع الجِدَالَ والمُحَاجَجَة ، وتُثبِت أن النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه على الطريق المستقيم ، ودِينهم هو اليقين الكامل الذي لا يَقْبَل الشَّك .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٠٥): ((قَوله تعالى: ﴿ فَإن تَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرَضوا عمَّا دُعُوا إليه ، ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، أي : مُتَّصفون بدين الإسلام ، مُنقادون لأحكامه ، مُعترفون بما للَّه علينا في ذلك من المِنَن والإنعام ، غير مُتَّخذين أحدًا ربًّا ، لا عيسى ولا عُزَير ولا الملائكة ، لأنهم بَشَرٌ مِثْلُنا ، مُحْدَثٌ كَحُدوثنا ، ولا نَقْبَل مِنَ الرُّهبان شيئًا بتحريمهم عَلَينا ما لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ علينا ، فنكون قد اتَّخذناهم أربابًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٠ و٤٠١ و٤٠٢): ((قَوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنهم اليهود ، قاله قَتادة وابن جُرَيج والربيع بن أنس . والثاني وفد نَجْران الذين حَاجُّوا في عيسى ، قاله السُّدي ومُقاتل. والثالث أهل الكتابَيْن جميعًا ، قاله الحسن. وقال ابن عباس: نزلت في القِسِّيسين والرُّهبان ، فبعثَ بها النبيُّ ﷺ إلى جعفر وأصحابه بالحَبَشَة ، فقرأها جعفر والنَّجاشي جالس وأشراف الحبشة ، فأمَّا الكلمة فقال المُفسِّرون : هي " لا إله إلا اللَّه " . فإن قِيل : فهذه كلمات ، فَلِمَ قال : ﴿ كَلِمَةٍ ﴾ ؟ ، فعنه جوابان : أحدهما أن الكلمة تُعبِّر عن ألفاظ وكلمات. قال اللغويون: ومعنى" كلمة "كلام فيه شرح قصة وإنْ طال ... . والثاني أنَّ المُرَاد بالكَلِمَة كَلِمَات، فاكتفى بالكلمة مِن كلمات.قَوْلُه تعالى:﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ قال الزَّجاج : يعني بالسَّوَاء العَدْل ، وهو من استواء الشيء. ويُقَال للعَدْل: سَواء وسُواء وسِواء ... قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن سُجود بعضهم لبعض ، قاله عِكرمة . والثاني لا يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية اللَّه ، قاله ابن جُرَيج . والثالث أن نَجْعَلَ غَيْرَ اللَّهِ رَبًّا ، كما قالت النصارى في المسيح ، قاله مُقاتِل والزَّجَّاج)) .

إنَّ القاعدة الأساسية العالمية هي عبادة اللَّه وَحْدَه ، وعدم الإشراك به . ومَن تَفَكَّرَ في هذه القاعدة الذهبية سيجد أنها منطقية ، ومتوافقة مع العقلِ والفِطْرة الإنسانية معًا . والمخلوقاتُ كُلُّها عاجزة مُفتقِرة إلى خالقها الذي أوجدها . إذن ، فالعبادةُ ينبغي أن تتوجَّه إلى الخالق العظيم الذي صَنَعَ الموجودات ، وليس إلى الموجودات. ولو جئنا إلى الحياة العامة لوجدنا أن مِن غَير المنطقي أن يتساوى الكرسي مع النَّجار الذي صنعه ، أو يتعادل الحديد مع الحدَّاد الذي شكَّله ، أو تتساوى اللوحة مع الفنان الذي رسمها . وهذه الأشياءُ كُلُّها محصورة في عالم المخلوقات الناقصة العاجزة ، فكيف يتساوى المخلوقُ المصنوعُ مع الخالق الصانع ؟ . وكيف يُصبح المخلوقُ إلهًا

وهو لا يَملك من أمره شيئًا ؟! . وكيف يصبح المخلوقُ ربًّا وهو لا يَقْدِر على حماية نَفْسِه من الموت ؟! . وإذا كانت هذه الآلهة لا تَستطيع حمايةَ نَفْسِها ، فكيف ستحمي المؤمنين بها ؟! .

ومن الأمثلة الواضحة في هذا السياق اعتقاد النصارى أن المسيحَ إلهٌ وقد تمَّ صَلْبُه . فإذا كان هذا الإله _ حَسَبَ اعتقاد النصارى _ لَم يَقْدِر على حماية نَفْسِه مِن الصَّلْب والإهانة والمَوت ، فكيف سيحمي المؤمنين به ويدافع عنهم ؟! .

وفي تفسير البَغَوي (١/ ٤٩) : ((قال المُفسِّرون : [قَدِمَ وفدُ نَجْران المدينةَ فالْتَقَوْا معَ اليهود ، فاختصموا في إبراهيم _ عليه السلام _ فزعمت النصارى أنه كان نصرانيًّا ، وهُم على دِينه وأوْلَى الناس به ، وقالت اليهود : بل كان يهوديًّا ، وهُم على دِينه وأوْلَى الناس به ، فقال رسول اللَّه ﷺ: ((كِلا الفريقين بريء من إبراهيمَ ودِينِه ، بل كان إبراهيمُ حنيفًا مُسلمًا ، وأنا على دِينِه ، فاتَّبِعُوا دِينَه دِينَ الإسلام)) ، فقالت اليهود : يا مُحَمَّد ، ما تريد إلا أن نتَّخذك رَبًّا كما اتَّخَذَت النصارى عيسى رَبًّا ، وقالت النصارى : يا مُحَمَّد ، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عُزَيْر ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ _ الآية _])) .

والصراعُ بين اليهود والنصارى قديمٌ جدًّا . وعندما التقى وفد نَجْران (النصارى) مع اليهود تجادلوا بشأن إبراهيم ﷺ ، فهو أبو الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وكُلُّ طرف يحاول تقديم إبراهيم ﷺ مُمَثِّلًا لعقيدته ، وذلك من أجل نَيْل الشرعية الدينية ، والمشروعية الأخلاقية . وقد زعم النصارى أن إبراهيم ﷺ كان نصرانيًّا ، وأنَّه منهم ، وهُم سائرون على عقيدته ، ويَحملون ميراثه النَّبَوِيَّ ، وهم أحق الناس به لأنه يَدِين بالنَّصرانية _ حَسَب اعتقادهم _ . وزعمَ اليهودُ _ كرَدَّة فِعْل _ أن إبراهيم ﷺ كان يهوديًّا ، وهُم تابعون له ، وهُم أوْلَى الناس به .

وهذه المزاعم العريضة لا أساس لها من الصحة ، وهي مُضحكة ومُبكية في آنٍ معًا . إذْ إنَّ إبراهيم ﷺ وُجد قبل موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ . وقد أُنزِلت التوراةُ والإنجيل بعد إبراهيم ﷺ ، فكيف يَدِين إبراهيم باليهودية أو النصرانية ؟! . المَنطق يقول إنَّ اللاحق تابعٌ للسابق ، والخَلَفُ تَابعٌ للسَّلَفِ ، ولَيْسَ السَّلَفُ تابعًا للخَلَفِ . وقد رَدَّ عليهم النبيُّ ﷺ ، وبيَّن لهم أن إبراهيمَ ﷺ كان حنيفًا مُسْلِمًا يَدين بالتَّوحيد ، ويَعبد اللَّه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد . وكُلُّ الأنبياء مُسْلِمُون ، لأن الدِّين عند اللَّه الإسلام ، فالدِّينُ السماويُّ واحدٌ لا يَتَعَدَّد ، أمَّا الشرائع فهي مختلفة باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . ومَن أرادَ السَّيْرَ على مِنهاج إبراهيم ﷺ فَلْيَتَّبع الإسلامَ دِينَ جميع الأنبياء ، والدِّينَ السَّمَاوِيَّ الوحيد .

وبما أن اليهود والنصارى يَفتقدون إلى البراهين ، ولا يَملكون حُجَّةً . فقد أخذوا يُلْقُون التُّهَمَ بلا دليل . فادَّعت اليهود أنَّ مُحَمَّدًا يُريد أن يتَّخذه اليهودُ ربًّا، كما اتَّخذت النصارى عيسى رَبًّا . وزَعمَ النصارى (كَرَدَّة فِعل) أنَّ مُحَمَّدًا يُريد أن يتَّخذه النصارى ابنًا للَّه تعالى ، وهذا ما قاله اليهود في عُزَيْر ، فقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّه ﴾ [التَّوبة : ٣٠] [٥٢] .

---

٥٢ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ أَوْ كالذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٩] . هذه القِصَّةُ مِنْ آياتِ اللَّهِ الجليلة ، إذْ تَتَجَلَّى فيها القُدرة الإلهيَّة على الإماتةِ والإحياء. وهذا الرَّجُل (عُزَيْر عليه السلام) الذي مَرَّ على قرية فوجدها ساقطةً سُقوفها وجُدرانها وخالية ليس فيها أحد، استبعدَ إحياءها وهي في حالة الموات تِلْك ، معَ عِلْمِه بأنَّ اللَّهَ تعالى على كُلِّ شَيْءٍ قدير، فأرادَ اللَّهُ أن يُميته ثم يُحْيِيَه لإعطائه موعظة على أرض الواقع مُتَجَسِّدَة في نَفْسِه ، وصار عُزَيْرٌ بحدِّ ذَاتِه آيَةً رَبَّانِيَّة ، وآيَةً قُرآنية خالدة . واليهودُ تَزْعُم أنَّ عُزَيرًا (وهو رَجُل صالح مُختلَف في نُبُوَّته) هو ابن اللَّه تعالى ، وهذا الغُلُوُّ دَيْدَن أهل الكتاب في كُلِّ مراحل وجودهم ، إذْ إنهم يَتطرفون في المسائل العَقائدية ، وهذا مرجعه إلى انحرافِهم عَن الصِّرَاطِ المستقيم ، وتحكيمِهم لأهوائهم وشَهَوَاتهم ، فَهُم يَسيرون في الظلام بلا بَيِّنة، وعلى غَيْر هُدى .كما أنهم يعتمدون على التأويل المنحرف غير المبنيِّ على أُسُس سليمة ، وهذا يُؤَدِّي إلى إخراج النُّصوص الدِّينية عَن سِيَاقها الصحيح ، وبالتالي الوقوع في عقائد باطلة ، ونشر الكُفْر والضَّلال بسبب تغيير مُراد اللَّهِ تعالى.وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي(٤/ ١٧١) أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال : ((أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ سَلَامُ بنُ مِشْكَم، ونُعْمَان بن أَوْفَى، وأبو أنس، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصَّيف، فقالوا : كيف نَتَّبعك وَقَدْ تَرَكْتَ قِبْلَتَنَا وأنتَ لا تَزْعُم أنَّ عُزَيرًا ابنُ اللَّهِ ؟. وإنما قالوا : هو ابنُ اللَّهِ مِن أجْلِ أنَّ عُزَيرًا كان في أهل الكِتاب ، وكانت التَّوراةُ عِندهم يَعْملون بها ما شاء اللَّهُ تعالى أن يَعْملوا ، ثم أضاعوها وعَمِلُوا بِغَير الحقِّ، وكان التابوتُ فِيهِم، فلمَّا رأى اللَّهُ تعالى أنهم قَدْ أضاعوا التَّوراةَ وَعَمِلُوا بالأهواء ، رَفَعَ اللَّهُ عنهم التابوتَ ، وأنساهم التَّوراةَ ، ونَسَخَهَا مِن صُدورهم ، وأرسلَ عليهم مرضًا فاستطلقتْ بُطُونُهم مِنهُم حتى جَعَلَ الرَّجُلُ يمشي كَبِده ، حتى نَسُوا التَّوراةَ ونُسِخَتْ مِن صُدورهم ، وفيهم عُزَير كان مِن عُلمائهم ، فدعا عُزَيرٌ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وابتهلَ إلَيْه أن يَرُدَّ إليه الذي نُسِخَ مِنْ صَدْرِه ، فَبَينما هُوَ يُصَلِّي مُبْتَهِلًا إلى اللَّهِ تعالى ، نَزَلَ نُورٌ مِنَ اللَّهِ فَدَخَلَ جَوْفَه، فعادَ إليه الذي كان ذهب مِن جَوْفِه مِن التوراة، فأذَّنَ في قَومه فقال: يا قَوْم قَدْ آتاني اللَّهُ التَّوراةَ ، رَدَّها إلَيَّ فَعَلِقَ يُعلِّمهم، فمكثوا ما شاء اللَّهُ أن يمكثوا وهو يُعلِّمهم ، ثم إن التابوت نَزَلَ عليهم

بعد ذلك وبعد ذهابه مِنهم ، فلمَّا رَأَوُا التابوتَ عَرضوا مَا كان فيه على الذي كان عُزَير يُعلِّمهم فوجدوه مِثْلَه، فقالوا:واللَّهِ مَا أُوتِيَ عُزَير هذا إلا أنه ابنُ اللَّهِ)) اهـ . إنَّ كُلَّ عقيدة باطلة لها سبب، ولم تجئْ تلقائيًّا أوْ تهبط من الهواء . ولا دُخَان بدون نار . والنَّصَارى الذين ألَّهوا المسيحَ ﷺ اعتمدوا على التأويل المنحرِف للنُّصوص الدِّينية فوقعوا في المحظور ، وهُنا تَبْرُز خُطورةُ عدم فهم دَلالات اللغة ، فتحويل المجاز إلى واقع أو العكس ، وعدم التمييز بين المعنويِّ والماديِّ وغير ذلك ، سَوْفَ يُؤَدِّي إلى الانحراف العقائدي ، وإضاعة الشريعة بسبب الجهل اللغوي. وكُلُّ دِينٍ مبني على النُّصوص اللغوية . وإذا لم تُفْهَم اللغةُ بالشكل الصحيح فإن الدِّين سَيَضِيع لا محالة. كما أنهم اعتمدوا على مُعجِزات خارقة للعادة جَرَتْ على يد السيد المسيح ﷺ مثل إحياء الموتى بإذن اللَّهِ تعالى وغيرها، فاعتقدوا أن الذي يقوم بهذا العمل هو إلهٌ أو ابنٌ للَّهِ تعالى. وهذا انحراف عقائدي قبيح . فَلَوْ وُجِدَ إلَهَان في الكَوْنِ لاختلَّ النظامُ بسبب اختلاف الإلَهَيْن. ولا توجد دولة يوجد فيها رئيسان ، حتى إن الفاتيكان له بابا واحد لا اثنان . ولكنْ إذا غابت الهِدَايةُ الرَّبَّانِيَّة فإنَّ الإنسان قَدْ يَعتنق أيَّ شيء بلا تمييز . واليهودُ الذين اعتقدوا بِبُنُوَّة عُزَيرٍ ــ أي إنه ابن اللَّهِ تعالى ــ اعتمدوا على خوارق جَرَتْ على يَدَيْه ، فَلَمْ يقتنعوا بأن هذه الأمور تحصل مع الصالحين ، بل تَطَرَّفوا في هذه القضية ، ونَسَبُوا للَّهِ تعالى الوَلَدَ . وهذا أمرٌ ضِد النقل والعقل . ولَوْ أنَّ كُلَّ إنسان جَرَتْ على يَدَيْه خوارق للعَادَةِ تم اعتباره ابنًا للَّهِ تعالى لكان عددٌ كبير من الخلائق أبناء اللَّهِ تعالى،وهذا لا يقول به عاقل . لذلك ينبغي وضع الأمور في نِصَابها الصحيح وتطهير العقائد من الأهواء المفتقِدة إلى البُرْهان. والجديرُ بالذِّكْر أن اليهود في الوقت الحالي لا يَعتقدون بأن عُزَيرًا ابنُ اللَّهِ تعالى . فهذه العقيدةُ قديمةٌ وقد اختفت فيما بعد ، وكانتْ سائدةً عند اليهود في أيام النبيِّ ﷺ بدليل أن اليهود لم يَتَبَرَّؤُوا مِنها ، أوْ يَرُدُّوا عليها. ولو كانتْ كَذِبًا لقالت اليهودُ إنَّ القُرآن يَفْتري علينا، وهذا لم يَحْصُل. إذَنْ، فالقِصَّةُ ثابتة عندهم ، وهذه عقيدتهم لم يَقدروا على التهرب منها . وفي فتح الباري (٣ / ٣٥٩) : ((قال ابن العربي في شرح التِّرمذي: تَبَرَّأت اليهودُ في هذه الأزمان مِن القَول بأن العُزَير ابنُ اللَّهِ ، وهذا لا يمنع كَوْنه كان موجودًا في زمن النبيِّ ﷺ ، لأن ذلك نزل في زمنه واليهودُ معه بالمدينة وغيرها، فَلَمْ يُنْقَلْ عن أحد منهم أنه رَدَّ ذلك ولا تَعَقَّبَه ، والظاهر أن القائل بذلك طائفة مِنهم لا جميعهم)) اهـ. وروى الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠) وصحَّحه ووافقه الذهبي عن عليٍّ ــرَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال :[خَرَجَ عُزَيْرٌ نبيُّ اللَّهِ مِن مدينته وهو رَجل شاب، فَمَرَّ على قرية وهي خاوية على عُروشها، قال : أنَّى يُحْيي هذه اللَّهُ بَعْدَ مَوْتها ، فأماته اللَّهُ مِائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَه،فأوَّلُ مَا خُلِقَ عَيْناه فَجَعَلَ ينظر إلى عِظامه يَنْضَمُّ بعضُها إلى بعض، ثم كُسِيَت لحمًا ، ونُفِخَ فيه الرُّوحُ وهو رَجُلٌ شابٌّ فقِيل له : كَمْ لَبِثْتَ ؟، قال : يَوْمًا أوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قال: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ

وهذه التُّهَمُ العريضة نابعة من الأهواء الشخصية لا المنهج العِلمي . إذْ إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَم يَدْعُ الناسَ إلى عبادته ، أو اتخاذه شريكًا للَّه تعالى . ونصوصُ القُرآن والسُّنة ظاهرة للجميع، وغير سِرِّية ، ويمكن للجميع أن يَطَّلع عليها . ولا يوجد فيها أي نَص يدعو إلى تأليه مُحَمَّد أوْ أي مخلوق آخَر . وكُلُّ الأنبياءِ عِبَادُ اللَّهِ ، ولَيْسُوا آلهةً ولا أربابًا ولا أبناءً للَّهِ تعالى .

والدَّعْوَةُ المُحمَّدية الإسلامية قائمة بالأساس على التَّوحيد، أي: عبادة اللَّه وَحْدَه، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة، ولا ولد. وبدون التوحيد، لا معنى لرسالات الأنبياء كُلِّها . ومَن عَبَدَ مُحَمَّدًا ، أو اتَّخذه إلَهًا ، فهو كافر ، وخالد في النار إنْ ماتَ على ذلك ، وهو مُكذِّب بالقُرآن والسُّنة .

لقد دَعَا النبيُّ مُحَمَّد ﷺ الناسَ جميعًا إلى توحيد اللَّه (عبادته وَحْدَه بلا شريك) ، وأرسلَ الرسائلَ إلى المُلوك والحُكَّام والقادة. ومِنْ تِلْك الرسائل النَّبَوِيَّة الشريفة الخالدة، رسالة النبيِّ ﷺ إلى هِرَقْل . وقد جاء فيها : ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِه ، إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّوم ، سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى . أمَّا بَعْد ، فإنِّي أدعوكَ بِدِعَايةِ الإسلام . أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أجركَ مَرَّتَيْن ، فإنْ تَوَلَّيْتَ ، فَعَلَيْكَ إثمُ الأريسِيِّين . و﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾)) [٥٣] .

هذه الرِّسالةُ النَّبَوِيَّةُ العظيمة تدلُّ على سُلطة النبيِّ ﷺ ، ومكانته الجليلة ، فهو المُتَحَدِّث باسم اللَّه ، وهو عبد اللَّه ورسوله ، يُخَاطِب المُلوكَ والحُكَّامَ والزعماء ، بِكُلِّ إيمان وثِقَة ، وبلا خَوف

عام . فأتى بالمدينة وَقَدْ تَرَكَ جارًا له إسكافًا شابًّا ، فجاء وهو شَيْخ كبير] اهـ . وعُزَيْرٌ غَيْرُ مُتَّفَق على كَوْنِه نَبِيًّا . وهذا الأمْرُ فيه أخْذٌ وَرَدٌّ بَين أهْلِ العِلْمِ . وقال ابنُ حِمْيَر في كِتابه تَنْزيه الأنبياء (ص ١٠٥): ((جاء في الأثر أنه كان في بني إسرائيل مِن بَعْدِ مُوسَى عليه السلام نبيٌّ ، وكان اسمه دانيال ، وإنما سُمي عُزَيْرًا لكثرة تَعزيرِ اليهود له ، وإعظامِهم لِقَدْرِه عليه السلام ، ثم غَلَوْا في تعظيمه حتى عَبَدُوه، وسبب ذلك لأنه أماته اللَّهُ مِئة سَنَة ثم أحياه)) اهـ . للأسف ، إنَّ ظاهرة تقديس الأولياء وعِبادة الصالحين مُنتشرة بكثرة . وكثيرٌ من الناس يَقَعُون في الشِّرْكِ والْمُغَالاةِ ظَنًّا مِنهُم أنَّ هذه هي الوسيلة الصحيحة لتمجيد الصالحين ، والحفاظِ على ذِكْرِهم . والكثيرون لا يَقْدِرُون على تَحَمُّلِ رُؤيةِ الْمُعْجِزَاتِ أو الكَرَامَات، فَتَحْدُث لَدَيهم صَدْمَة تَقُودهم إلى الانحراف العَقَائديِّ، والسُّلوكِ الاجتماعيِّ الْمُخَالِفِ للشريعة .

٥٣ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٠٧٤) برقم (٢٧٨٢)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣) برقم (١٧٧٣).

ولا تردُّد، ويَدعوهم إلى الإسلام (دِين التَّوحيد) . وجَّه النبيُّ ﷺ التَّحِيَّةَ إلى هِرَقْلَ عظيمَ الرُّوم (المُعَظَّم عِندهم) بِقَوله : " سلامٌ عَلى مَن اتَّبَعَ الهُدى " ، وهي صِيغة للتَّحِيَّة في مُخَاطَبَة الكُفَّار، ودَعَاه بِدِعاية الإسلام، أي : بِدَعْوته التي أمرَ اللَّهُ بها ، وهي كَلِمَة الشَّهَادة ، التي يُدعَى إليها أهل المِلَل الكافرة. والتَّوحيدُ هو أصل الإسلام وأساسه وعُنوانه. والإسلامُ هو الدِّين السماويُّ الوحيد ، ولا يَقْبَل اللَّهُ غَيْرَه . " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في الدُّنيا بالنَّجَاة مِن الحرب والجِزْية ، وفي الآخرة بالنَّجَاة مِن النار . وهذه العِبارة النَّبَوِيَّة : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في نهاية الاختصار ، وغاية الإيجاز ، والبَلاغة ، وجَمْع المعاني. وإذا أسلمَ هِرَقْلُ فلهُ أجْرَان، مَرَّةً على إيمانه بالنبيِّ عيسى ﷺ ، ومَرَّةً على إسلامه ، واللَّهُ يُضَاعِف أجْرَه بعدد أفراد شَعبه الذين سَيَقْتَدُون به في اعتناق الإسلام ، ويَسِيرون على خُطاه. وإنْ أعرضَ هِرَقْلُ عن الإسلام ، ورفضَ الدَّعوةَ النَّبَوِيَّة ، فهو يتحمَّل المسؤولية في الدنيا والآخرة ، وعليه إثم استمرار أتْبَاعِه وشعبه ورَعَاياه على الكفر والضلال والباطل ، لأنهم تابعون له ، وخاضعون لأمره ، ومُقتدون به، فهو سيِّدهم وزعيمهم وقائدهم، وقد حالَ بَينهم وبَين الإسلام(دِين اللَّه) . و﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ ، أي : نَسْتَوي فيها جميعًا ، لأنَّها تتَّفق عليها الكُتُبُ السماويةُ الثلاثة : القُرآن والتَّوراة والإنجيل ، ﴿ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : فقد لَزِمَتْكُم الحُجَّةُ ، فَاعْتَرِفُوا بأنَّا مُسْلِمُون دُونَكم ، وأنَّكُم كافرون باللَّه تعالى .

وفي الحديث فوائد عظيمة ومُتعددة ، مِنها :

١ــ مُكَاتَبَة الكُفَّار بالدَّعوة إلى الإسلام ، ومُلاطَفة المَكتوب إليه ، وتقديرُه التقديرَ اللائق المُناسب ، الذي لا يتجاوز حُدودَ الشريعة الإسلامية .

٢ــ الكِتَابيُّ (اليهودي أو النَّصراني) إذا أسلمَ له أجْرَان، أجر الإيمان بِنَبِيِّه مُوسى أوْ عيسى عليهما الصلاة والسلام، وأجر إيمانه بِمُحَمَّد ﷺ نبيِّ الإسلام .

٣ــ صِدْق النبيِّ مُحَمَّد ﷺ كان معلومًا لأهل الكتاب عِلْمًا قطعيًّا ، وإنَّما تَرَكَ الإيمانَ به مَن تَرَكَه منهم عِنَادًا أوْ حَسَدًا ، أوْ خَوْفًا على مصالحهم ومناصبهم في الدُّنيا ، ونَحْو ذلك .

٤ــ مَن كان رئيسًا مَتبوعًا مَسموعًا يَكون عليه إثم الكُفر ، وإثم مَن عَمِلَه واتَّبَعَه ، وكذا مَن كان سببًا لِضَلالة أوْ مَنْع هِدَاية .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧ــ ١١٠) ــ معَ بعض التصرُّف ــ : ((في هذا الكِتَاب (يعني رسالة النبيِّ ﷺ إلى هِرَقْل) جُمَل من القواعد وأنواع من الفوائد مِنها :

١ــ دُعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم ، وهذا الدعاء واجب ، والقتال قَبْله حرام ، إنْ لَم تكن بَلَغَتهم دَعوة الإسلام، وإنْ كانت بَلَغَتهم ، فالدُّعاء مُسْتَحَب ، هذا مذهبنا . وفيه خِلاف للسَّلَف . ٢ــ وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا فَلَم يكن في بَعْثه معَ دِحْية فائدة، وهذا إجماع مَن يُعْتَد بِه . ٣ــ استحباب تصدير الكتاب ببسم اللَّه الرحمن الرحيم ،وإنْ كان المبعوث إليه كافرًا . ٤ــ يجوز أن يُسافر إلى أرض العدو بالآية والآيتَيْن ونَحْوهما، وأن يَبْعث بذلك إلى الكفار ، وإنَّما نهى عن المُسَافَرَة بالقرآن إلى أرض العدو أي بِكُلِّه ، أوْ بِجُملة مِنه ، وذلك أيضًا محمول على ما إذا خِيف وقوعه في أيدي الكفار. ٥ــ يجوز للمُحْدِث والكافر مَسُّ آية أو آيات يسيرة مع غَير القرآن. ٦ــ إنَّ السُّنَّة في المُكَاتَبَة والرسائل بين الناس أن يبدأ الكاتب بِنَفْسِه، فيقول: مِن زَيد إلى عمرو . ٧ــ التَّوَقِّي في المُكَاتَبَة ، واستعمال الوَرَع فيها فلا يَفْرُط ولا يُفَرِّط. ولهذا قال النبيُّ ﷺ : " إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّوم " ، فَلَم يَقُلْ : مَلِك الرُّوم ، لأنَّه لا مُلْك له ولا لِغَيره إلا بحُكْم دِين الإسلام ، ولا سُلطان لأحد إلا لِمَن وَلَّاه رسول اللَّه ﷺ ، أوْ وَلَّاه مَن أَذِنَ له رسول اللَّه ﷺ بشرط. ولَم يَقُل : إلى هِرَقْل فقط ، بل أتى بنوع مِن المُلاطَفَة ، فقال : عظيم الروم . أي الذي يُعظِّمونه ويُقَدِّمونه . وقد أمرَ اللَّهُ تعالى بِالانة القَول لِمَن يُدعَى إلى الإسلام . ٨ ــ استحباب البلاغة والإيجاز ، وتَحَرِّي الألفاظ الجَزْلة في المُكَاتَبَة ، فإنَّ قَوله ﷺ : " أَسْلِمْ تَسْلَمْ " في نهاية من الاختصار ، وغاية من الإيجاز والبلاغة وجَمْع المعاني ، معَ ما فيه من بديع التجنيس ، وشُموله لسلامته مِن خِزْي الدنيا بالحرب والسَّبْي والقتل وأخذ الديار والأموال ، ومن عذاب الآخرة ... . ٩ــ إنَّ مَن أدركَ مِن أهل الكتاب نَبِيَّنَا ﷺ ، فآمنَ به فله أجران كما صَرَّحَ به هُنا . ١٠ــ البيان الواضح أنَّ مَن كان سببًا لضلالة أو سبب منع مِن هداية كان آثمًا،لِقَولهﷺ:"وإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثمَ الأريسِيِّين"(رواية مسلم). ١١ــاستحباب " أمَّا بَعْد" في الخُطَب والمُكَاتَبَات. قَوله ﷺ: " وإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثمَ الأريسِيِّين " . واخْتَلُفوا في المُرَاد بهم على أقوال ، أصَحُّها وأشهرها أنهم الأكَّارون ، أي : الفلاحون والزَّراعون . ومعناه : أن عليك إثم رعاياك الذين يتَّبعونك ، وينقادون بانقيادك. ونبَّه بهؤلاء على جميع الرعايا، لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا، فإذا أسلمَ أسْلَمُوا ، وإذا امتنعَ امْتَنَعُوا . وهذا القَول هو الصحيح . قال أبو عُبَيد : ليس المراد بالفلاحين الزَّراعين خاصَّة ، بل المُراد بهم جميع أهل مَملكته . الثاني أنهم اليهود والنصارى وهُم أتباع عبد اللَّه ابن أريس الذي تُنسَب إليه الأروسية من النصارى ، ولهم مقالة في كُتب المقالات ويقال لهم الأروسيون.الثالث أنهم الملوك الذين يَقُودون الناس إلى المذاهب الفاسدة،ويأمرونهم بها.قَوْلُه ﷺ:

" أدعوك بِدِعَاية الإسلام"،وهو بكسر الدال. أي : بِدَعوته ، وهي كلمة التوحيد . قَوله ﷺ: " سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى". هذا دليل لِمَن يقول : لا يُبْتَدَأ الكافر بالسلام. وفي المسألة خِلاف، فمذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يَبتدئ كافرًا بالسلام، وأجازه كثيرون مِن السَّلَف . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة في النَّهْي عن ذلك . وجوَّزه آخرون لاستئلاف، أو لحاجة إليه ، أو نَحْو ذلك)) .

هذه الرسالةُ النَّبَوِيَّةُ الشريفة تَعْكِس حِرْصَ النبيِّ ﷺ على تبليغ الدعوة الإسلامية كاملةً غَير منقوصة لكل الناس،على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ومكانتهم الاجتماعية. كما تُشير إلى حُسن الأسلوب في الدَّعوة ، حيث اللين والرِّفق ، بلا تطرُّف ولا خشونة في التعامل . وتُشير الرسالةُ أيضًا إلى حِرص النبيِّ ﷺ على دَعوة عِلْية القَوم وزعماء الناس،إذْ إنَّ إسلامهم يعني إسلامَ أقوامهم وأتباعهم، ودخولهم جميعًا في دِين اللَّه ورحمته ورِضوانه.والنبيُّ ﷺ لَمْ يَسْعَ لمُخاطبة الحُكَّام والقادة والملوك من أجل مصلحة شخصية، أو وجاهة اجتماعية،أو إبراز نَفْسه في عالم الرِّياء والشُّهرة والمجتمعات المُخملية الراقية ، لأنه ﷺ كان ينظر إلى نعيم الآخرة الباقي ، ولا ينخدع بِحُطام الدنيا الفاني .

والنصارى غرقوا في عقائد التَّثليث الباطلة ، ورفضوا شريعة المسيح القائمة على تَوحيد اللَّه ، وعبادته وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد . وسببُ كفرهم وضلالهم هو الإنجيل البشري المُحرَّف ، الذي تَغَلْغَلَتْ فيه العقائدُ الوثنيةُ والانحرافاتُ الدِّينية والفكرية والأخلاقية .

قال حاجي خليفة في كشف الظُّنون (١/ ١٧٥) : ((الإنجيل : كتاب أنزله اللَّهُ سُبحانَه وتعالى ، على عيسى بن مريم عليهما السلام . وذكر في (المواهب) : أنه أُنزِل باللغة السُّرْيانية ، وقُرِئ على سَبْع عَشْرَة لغة. وفي (البخاري) في قصة وَرَقَة بن نَوْفَل ما يدل على أنه كان بالعِبرانية. وعن وَهْب بن مُنَبِّه : أُنزِل الإنجيل على عيسى عليه السلام لثلاث عَشْرَة ليلة من رمضان ، على ما في (الكشَّاف). وقِيل : لثمان عَشْرَة ليلة خَلَتْ مِنه ، بعد الزَّبُور بألف عام ومائتي عام . واخْتُلِف في أنَّه هل نَسَخَ حُكْمَ التوراة ؟ . فقِيل : إن عيسى عليه السلام لَم يكن صاحب شريعة لمَّا جاء لتبديل شرع موسى عليه السلام بل لتكميله . لكن في (أنوار التنزيل) ما يدل على أن شَرْعه ناسخ لشرع موسى عليه السلام ، لأنَّه أتى بما لَم يأته موسى عليه السلام . وأول الإنجيل: (باسم الأب والابن ... إلخ) . والذي بأيديهم : إنما هو سيرة المسيح ، جمعها أربعة ، وهُم : مَتَّى ، ومَرْقُس ، ولُوقَا ، ويُوحَنَّا . قال صاحب (تُحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) : وهؤلاء الذين أفسدوا دِينَ عيسى عليه السلام ، وزادوا ونقصوا ، ولَيسوا مِن الحواريين الذين أثنى اللَّهُ

تعالى عليهم في القرآن . أمَّا مَتَّى : فما أدركَ عيسى ولا رآه قَط ، إلا في العام الذي رفعه اللَّهُ تعالى إليه . وبعد أن رُفِعَ، كَتب مَتَّى الإنجيلَ بِخَطِّه في مدينة الإسكندرية ، وأخبر فيه بمولد عيسى عليه السلام وسيرته، وغَيْرُه لَمْ يَذكُرْ مَا ذَكَرَه. وأمَّا مَرْقُس فما رأى عيسى عليه السلام قَط ، وكان تَنَصُّرُه بعد الرَّفْع ، وتَنَصَّرَ على يد بترو الحواري ، وأخذ عنه الإنجيل بمدينة رومة ، وخالف أصحابه الثلاثة في مسائل جَمَّة . وأمَّا لُوقَا فلم يُدرِك عيسى عليه السلام ، ولا رآه البَتَّة ، وإنما تَنَصَّرَ بَعْدَه على يد بُولُس ، مُعرَّب : باولوس الإسرائيلي ، وهو أيضًا لَم يُدرك عيسى عليه السلام ، بل تَنَصَّرَ على يد أنانيا ... . وأمَّا يُوحَنَّا [٥٤] ، فهو ابن خالة عيسى عليه السلام ، وزعم النصارى أن عيسى عليه السلام حَضَرَ عُرْسَ يُوحَنَّا ، وأراه تَحَوُّلَ الماء خمرًا ، وهو أول مُعجزة ظهرت له ، فلمَّا رآه، تَرَكَ زَوْجَتَه وتَبِعَ عِيسى عليه السلام في دِينه وسياحته ، وهو الرابع مِمَّن كتب الإنجيل ، لكنه كَتبه بالقلم اليوناني في مدينة أفَسُوس . وهؤلاء الأربعة الذين جعلوا الإنجيل أربعة وحرَّفوها وبدَّلوها وكذبوا فيها . وأمَّا الذي جاء به عيسى عليه السلام إلا إنجيل واحد ، لا تدافُع فيه ، ولا اختلاف ، وهؤلاء كذبوا على اللَّه سُبحانَه وتعالى، وعلى نَبِيِّه عيسى عليه السلام ، وما هو معلوم ، والنصارى على إنكاره . فأمَّا كذبهم : فمنه ما قال مَرْقُس في الفصل الأول من إنجيله : أن في كتاب إشَعْيا النبيِّ عن اللَّه تعالى يقول : إنِّي بَعَثْتُ مَلِكي أمام وجهك ، يريد وجه عيسى عليه السلام. وهذا الكلام لا يوجد في كتاب إشَعْيا ، وإنما هو في كتب ملخيا النبيِّ . ومنه ما حكى مَتَّى في الفصل الأول ، بل الثالث عشر من إنجيله : أن عيسى عليه السلام قال : يكون جسدي في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال بعد مَوْتي ، كما لبث يُونُس في بطن الحوت ، وهو من صريح الكذب ، لأنه وافق أصحابه الثلاثة : أن عيسى عليه السلام مات في الساعة السادسة من يوم الجُمُعة ، ودُفِن في أول ساعة من ليلة السبت ، وقام من بين الموتى في صبيحة يوم الأحد ، فَبَقِيَ في بطن الأرض يومًا واحدًا وليلتين . ولا شك في كذب هؤلاء الذين كتبوا الأناجيل في هذه المسألة ، لأن عيسى عليه السلام لَم يُخبِر عن نَفْسه، ولا أخبرَ اللَّهُ سُبحانَه وتعالى عنه في إنجيله

---

٥٤ كان الرأي المعتمد في العصور الماضية ، هو اعتبار يُوحَنَّا (صاحب إنجيل يُوحَنَّا) ابن خالة عيسى عليه السلام.وهذا الإنجيلُ المزوَّر نَسَبَتْهُ الكنيسةُ إلى يُوحَنَّا بن زَبَدي. وبحسَب التقليد النصراني(المسيحي) فإنه كاتب إنجيل يُوحَنَّا ، لذلك يُلقَّب بالإنجيلي ، وكاتب الرسائل الثلاث التي تُنسَب إليه ، وأخيرًا كاتب سِفْر الرُّؤيا .

بأنه يُقْتَل ويُدفَن ، بل هو كما أخبر اللَّهُ سُبحانَه وتعالى في كتابه العزيز أنهم : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنهُ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيهِ ﴾ . فلعنة اللَّه على الكاذبين . ولذلك اختلف النصارى بعده وتفرَّقوا فِرَقًا ، وعقائدهم كُلها كذب وكفر وحماقة عظيمة . وفي أناجيلهم من تبكيتهم : ما هو مذكور في (تحفة الأريب) . وأيضًا القواعد التي لا يرغب عنها منهم إلا القليل ، وعليها إجماع جَمْعهم الغفير ، وهي التغطيس ، والإيمان بالتثليث ، واعتقاد التحام أُقنوم الابن في بطن مَرْيم ، والإيمان بالفطيرة ، والإقرار بجميع الذُّنُوب للقِسِّيس ، وهي خَمْس قواعد بُنِيَت النصرانية عليها ، كلها كذب وفساد وجهل ، عَصَمَنَا اللَّهُ تعالى عنها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالذِينَ آمَنُوا واللَّهُ وَلِيُّ المُؤمِنِين ﴾ [آل عِمران : ٦٨] [٥٥] .

هذه الآيةُ أفضلُ رَدٍّ على اليَهُودِ في دَعْوَاهم الباطلة بالانتسابِ إلى النَّبِيِّ إبراهيم ﷺ .

إنَّ أحَقَّ الناسِ بالنبيِّ إبراهيم ﷺ ، ونُصْرَتِه ، وَوِلايته ، هُمْ أتْبَاعُه في زمانه ، الذينَ ساروا في طريقه المُستقيم ، وكانوا على مَنهجه الواضح ، وكانوا حُنَفَاء مُسْلِمين، لا يُشرِكون باللَّهِ شيئًا ، والنبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لمُوافقته له ، وأصحابُه (المهاجرون والأنصار) والتابعون لهم مِنْ بَعْدِهم . وهؤلاء الذين يَنبغي أن يقولوا : نَحْنُ على دِينِ إبراهيم ، وَلَيْسَ اليَهُود ولا النَّصَارى . واللَّهُ حَافِظُ المُؤمِنين وناصرُهم على أعدائِهم.والآيةُ تُوضِّح أنَّ الوِلاية مَبْنِيَّةٌ على الاتِّباع لا الأماني والشِّعَارات.

---

٥٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٣) : ((في سبب نزولها قَوْلان : أحدهما أن رؤساء اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ: لقد عَلِمْتَ أنَّا أوْلَى بِدِين إبراهيم مِنْك ، وأنه كان يهوديًّا ، وَمَا بِكَ إلا الحسد، فَنَزَلَتْ هذه الآية . ومعناها: أحَقُّ الناسِ بدِين إبراهيم الذين اتَّبَعُوه على دِينِه ، وهذا النبيُّ ﷺ على دِينه ، قاله ابن عباس . والثاني أن عمرو بن العاص أراد أن يُغضِب النَّجَاشِيَّ على أصحاب النبيِّ ﷺ ، فقال للنجاشيِّ : إنهم لَيَشْتُمون عِيسى ، فقال النجاشيُّ : ما يقول صاحبُكم في عِيسى ؟ ، فقالوا : يقول : إنَّه عَبْدُ اللَّهِ ورُوحُه وكَلِمَتُه ألقاها إلى مريم ، فأخَذَ النجاشيُّ مِن سِوَاكِه قَدْرَ مَا يَقْذي العَيْنَ ، فقال : واللَّهِ مَا زادَ على ما يقول صاحبُكم مَا يَزِنُ هذا القَذَى ، ثم قال : أبْشِروا ، فلا دَهْوَرَةَ اليوم على حِزْب إبراهيم ــ يعني لا ضَيْعَةَ عليهم ــ. قال عمرو بن العاص: ومَنْ حِزْبُ إبراهيم ؟ ، قال: هؤلاء الرَّهْطُ وصاحِبُهم، فأنزلَ اللَّهُ يَوْمَ خُصُومتهم على النبيِّ ﷺ هذه الآية، هذا قَول عبد الرحمن بن غَنْم)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلاةً مِنَ النَّبِيِّين ، وَإنَّ وَلِيِّي مِنْهُم أبي وخَلِيلي إبراهيم)) ، ثُمَّ قَرَأ : ((﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بإبرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ _ الآية _)) [٥٦] .

لِكُلِّ نَبِيٍّ أحِبَّاء وقُرَنَاء أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِهِم مِنَ الأنبياء ، وإنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مِنَ الأنبياءِ هو أبوه وخَلِيلُه إبراهيم . وإبراهيم هو أبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٣/ ٣٠٥): ((يَعْني جَلَّ ثناؤه بقَوله: ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بإبرَاهِيمَ ﴾ إنَّ أَحَقَّ الناسِ بإبراهيم ونُصْرَتِه وَوِلايته ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ يَعْني : الذين سَلَكُوا طَرِيقَه ومِنْهَاجَه ، فَوَحَّدُوا اللَّهَ مُخْلِصِين له الدِّينَ، وسَنُّوا سُنَّتَه ، وَشَرَعُوا شَرَائِعَه ، وكانوا للَّهِ حُنَفَاء مُسْلِمِين غَيْر مُشركين به ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ يَعْني : مُحَمَّدًا ﷺ ، ﴿ وَالذِينَ آمَنُوا ﴾ يَعْني : والذينَ صَدَّقُوا مُحَمَّدًا وبِمَا جاءهم بِه مِن عِند اللَّهِ ﴿ واللَّهُ وَلِيُّ المُؤمِنِين ﴾ . يَقُول : واللَّهُ نَاصِرُ المُؤمنين بِمُحَمَّدٍ المُصَدِّقِين له في نُبُوَّتِه ، وفِيما جاءهم بِه مِن عِندِه ، على مَنْ خَالَفَهُم مِنْ أَهْلِ المِلَلِ والأديانِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسنُ إلا الذين ظَلَمُوا مِنهم ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

لا تُجادِلوا أيها المؤمنون أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالأسلوب الحَسَن ، والحُجَّةِ الدامغة ، وبيانِ وُجوه القُصُور في عقائدهم الباطلة بالحِوار الطَّيب ، وإظهارِ تماسك العقيدة الإسلامية ، وإبراز عَظَمَة آيات القُرآن وإعجازها ، دُون إكراه ولا غِلْظة ولا خُشونة ، وذلك مِن أجل التأثير فيهم ، واستمالةِ قُلوبهم ، على أمل أن يَهْدِيَهم اللَّهُ إلى الإيمان .

أمَّا الأعداء المُحَارِبُون مِن أهل الكتاب الذين يُنَاصِبون المُؤمنين العَدَاءَ ، ويُقَاتِلُونهم ، فهؤلاء لا حِوار ولا نِقاش معهم. وتجب مُواجهتهم بالسَّيف والقُوَّة ، والتعامل معهم بالشِّدَّة والغِلْظَة [٥٧] .

---

٥٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٢٠) برقم (٣١٥١) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٥٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/٢٧٥):((في التي هي أحسن ثلاثة أقوال، أحدها أنها لا إله إلا اللَّه، رواه الضَّحَّاك عن ابن عباس، والثاني أنها الكَفُّ عنهم إذا بَذَلُوا الجِزْيةَ، فإن أَبَوْا قُوتِلُوا ، قاله مجاهد، والثالث أنها القُرآن والدُّعاء إلى اللَّه بالآياتِ والحُجَج . قَوْله تعالى : ﴿ إلا الذين ظَلموا مِنهم ﴾ ، وهُم الذين نَصَبوا الحربَ، وأَبَوْا أن يُؤَدُّوا الجِزْيةَ ، فَجَادِلوا هؤلاء بالسَّيف، حتى يُسْلِمُوا أوْ يُعْطُوا الجِزْيةَ)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣١٥ و٣١٦) : ((والذي أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد " إنْ

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٩٢) : ((﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ ، أي : إلا بالخَصْلَة التي هي أحسن ، وذلك على سبيل الدُّعاء لهم إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، والتَّنبيه لهم على حُجَجه وبَرَاهينه ، رَجَاءَ إجابتهم إلى الإسلام ، لا على طريق الإغلاظ والمُخَاشَنَة، ﴿ إلا الذين ظَلَمُوا مِنهم ﴾ بأن أفْرَطُوا في المُجَادَلَة، ولَم يَتَأدَّبُوا معَ المُسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم ، والتَّخشين في مُجادلتهم ، هكذا فسَّر الآيةَ أكثرُ المُفَسِّرين بأنَّ المُراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى . وقِيل : معنى الآية : لا تُجَادِلُوا مَن آمنَ بِمُحَمَّد مِن أهل الكتاب كعبد اللَّه ابن سَلَام ، وسائر مَن آمنَ مِنهُم ، ﴿ إلا بالتي هِيَ أحسنُ ﴾ يعني : بالمُوافقة فِيما حدَّثوكم بِه مِن أخبار أهل الكتاب ، ويكون المُراد بالذين ظَلَمُوا على هذا القَول هُم : الباقون على كُفرهم . وقِيل: هذه الآية مَنسوخة بآيات القتال ، وبذلك قال قَتادة ومُقاتل . قال النَّحاس : مَن قال : هذه مَنسوخة ، احتجَّ بأن الآية مَكِّية ، ولَم يَكُن في ذلك الوقت قِتال مَفروض ، ولا طَلَب جِزْيَة ، ولا غَيْر ذلك . قال سعيد بن جُبَير ومُجاهد : إنَّ المُراد بالذين ظَلَمُوا مِنهُم : الذين نَصَبُوا القِتالَ للمُسلمين ، فَجِدَالُهُم بالسَّيف حتَّى يُسْلِمُوا أوْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٧٥) : ((إنَّ المُشْرِك لَمَّا جاء بالمُنكَر الفظيع، كان اللائق أن يُجَادَل بالأخْشَن ، ويُبالَغ في تَوْهين شُبَهه وتَهجين مذهبه ، وأمَّا أهلُ الكتاب فإنهم آمَنُوا بإنزال الكُتُب وإرسال الرُّسُل، إلا الاعتراف بالنبيِّ عليه السلام ، فَلِمُقابَلة إحسانهم يُجَادَلُون

قالوا شَرًّا فَقُولوا خيرًا إلا الذين ظَلموا مِنهُم فانتَصِرُوا مِنهُم " . وبسند فيه ضعف " قال : إلا مَن ظَلَمَ مَن قَاتَلَ ولَم يُعْطِ الجِزْيَةَ " . وأخرجَ بسند حسن عن سعيد بن جُبَير قال : " هُم أهل الحرب مَن لا عهد له جَادِلْهُ بالسَّيْف " . ومن طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الْمُراد : مَن آمنَ مِن أهل الكتاب نهى عَن مجادلتهم فِيما يُحَدِّثُون به مِن الكتاب ، لَعَلَّه يكون حقًّا لا تَعْلَمه أنتَ ، ولا ينبغي أن تُجادل إلا الْمُقِيمَ مِنهُم على دِينه . وبسند صحيح عن قَتادة : هي منسوخة بآية بَراءة ، أن يُقَاتَلُوا حتى يَشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأنَّ محمدًا رسول اللَّه ، أوْ يُؤَدُّوا الجِزيةَ ، ورجَّح الطبري قَوْلَ مَن قال : الْمُراد مَن امتنعَ مِن أداء الجِزية . قال : ومَن أدَّاها وإنْ كان ظَالِمًا لِنَفْسِه باستمراره على كُفْره ، لكن الْمُراد في هذه الآية: مَن ظَلَمَ أهلَ الإسلام، فَحَارَبَهُم، وامتنعَ مِن الإسلام ، أوْ بَذْلِ الجزية. وَرَدَّ عَلى مَن ادَّعَى النَّسْخَ لِكَوْنه لا يَثْبُت إلا بدليل، واللَّهُ أعْلَم.وحاصل ما رجَّحه أنَّه أمرَ بمُجادلة أهل الكتاب بالبيان والحُجَّة بطريق الإنصاف مِمَّن عاندَ مِنهُم ، فمفهوم الآية : جَواز مُجادلته بِغَير التي هي أحسن،وهي الْمُجَادَلَة بالسَّيف، واللَّهُ أعْلَم)) .

بالأحسَن ، إلا الذين ظَلَمُوا مِنهُم بإثبات الولد للَّه ، والقَوْل بثالث ثلاثة، فإنهم يُجَادَلون بالأخْشَن مِن تَهجين مَقالتهم ، وتَبيين جَهالتهم)) .

٤ــ وُجُودُ المُؤمِنين بَيْنَهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَيسوا سَواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ الليل وهُم يَسجُدون ﴾ [آل عِمران : ١١٣] .

إنَّ هناك فِئةً مِن أهل الكتاب ، يُؤْمنون باللَّه تعالى ، ولا يُشرِكون بِه ، وهُم سائرون على الصراط المستقيم (طريق الأنبياء) ، ولا يَنْحَرِفون عنه . وهؤلاء المؤمنون يَقومون الليلَ ويَتْلُون القُرآنَ في صَلَوَاتهم . وقد أشادَ بِهم القُرآنُ ، وأعطاهم حَقَّهم ، وخَلَّدَ ذِكْرَهم إلى الأبد . وهُنا تَبْرُز منهجيةُ الإنصاف في القُرآن بِلا مُجامَلات أو محسوبيات .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٠) : ((يَتْلُونَ القُرآنَ في تَهَجُّدِهم . عَبَّرَ عَنهُ بالتِّلاوة في ساعات الليل معَ السُّجود ، لِيَكونَ أبْيَنَ وأبلغَ في المدح . وقِيل : المراد صلاة العِشاء ، لأن أهل الكتاب لَيُصَلُّونها)) .

إنَّ أهلَ الكتاب والأمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية لَيسوا سَواء ، فلا يمكن المساواة بينهم ، لأن الإيمان والكُفْر ضِدَّان لا يجتمعان . والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية هي الحاملة للشريعة السماوية المحفوظة ، وإذا ذَهَبَتْ فإن اللَّه تعالى لن يُعبَد في الأرض ، لذلك هي مستمرة وثابتة حتى يوم القيامة رغم حالات الضعف التي تَمُرُّ فيها بين الحِين والآخَر .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (٤/ ٣٩٧) : عن ابن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : أَخَّرَ رسولُ اللَّه ﷺ صلاةَ العِشاء ، ثم خرج إلى المسجد والناس ينتظرون الصلاة ، فقال : ((أمَا إنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلِ الأديانِ أحَدٌ يَذكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُم)) ، ثم نزلت عليه : ﴿ لَيسوا سواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ اللَّه آناءَ الليل وهم يسجدون ﴾ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ٤٤١و٤٤٢) : ((في سبب نزولها قَوْلان : أحدهما أن النبيَّ ﷺ احتبسَ عن صلاة العشاء لَيْلةً حتى ذهب ثُلُثُ الليل ، ثم جاء فبشَّرهم ، فقال : " إنه لا يُصلِّي هذه الصلاةَ أحَدٌ من أهل الكتاب " ، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود . والثاني أنه لَمَّا أسلمَ ابنُ سَلَام في جماعة من اليهود، قال أحبارُهم: ما آمَنَ بِمُحَمَّدٍ إلا أشرارُنا، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن عباس ومُقاتِل)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : لَمَّا أسْلَمَ عبد اللَّه بن سَلَام ، وثَعْلَبة بن شُعْبة ، وأسد بن عُبَيد ، ومَن أسلمَ مِن يهود ، فآمَنوا وصَدَّقوا ورَغِبوا في الإسلام ، قالت أحبارُ يهودٍ أهلُ الكُفْرِ : مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ولا تَبِعَه إلا شِرارُنا ، ولَوْ كانوا مِن خِيارنا ما تَرَكوا دِينَ آبائهم ، فأنزلَ اللَّهُ ــعَزَّ وجَلَّــفي ذلك مِن قَوْلِهم:﴿ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب﴾ إلى قَوْله:﴿ مِنَ الصالحين ﴾ [٥٨].

أهلُ الكتاب مُتفاوِتون ، ولَيْسوا في إطار واحد، ففيهم المؤمن والكافر، والبَر والفاجر. فَمِن أهل الكتاب مَن هو مُتمسِّك بالشريعة الإلهيَّة ، يُطبِّق التعاليم الدينية ، ولا ينحرف عنها . وهذه الفئةُ تتلو آيات اللَّه تعالى ، وتقوم الليلَ ، وتُكثِر التَّهَجُّدَ .

و﴿ ليسوا سواءً ﴾ جُملة مُسْتَأنَفَة لتوضيح الصِّفات الطَّيبة لمؤمني أهل الكتاب . ولا شَكَّ أن الإشادة بمؤمني أهل الكتاب ، وذِكْر محاسنهم ، وتخليد فضائلهم ، مِن شأنه تشجيع الآخرين على اعتناق الإسلام الذي يَرْفَع الناسَ ، ويَمنحهم المَجْدَ والشَّرَفَ في الدُّنيا والآخرة .

والتفاوُتُ سُنَّةٌ إلهيَّة ثابتة ، فالناس مُختلفون في قُدراتهم العقلية ، وإمكانياتهم الجِسْمية ، ومُستواهم المَعنوي والمادي . وأهلُ الكتاب يَجري عليهم ما يَجري على الآخرين ، فلا يمكن وضعهم في سَلَّة واحدة. ففيهم المؤمن والكافر، والصالح والفاسد. والقرآنُ الكريم مُنصِفٌ في أحكامه ، فهو يُبرِز مكانةَ أهل الخَير ويُشيد بهم ، ويُخلِّد أفعالهم الطَّيبة ، ويَذكر أهلَ الشَّر ويَذُمُّهم ويَفضح باطلَهم .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٣/ ٣٩٧) : ((لَيْسَ فَرِيقًا أهلِ الكتاب أهل الإيمان منهم والكفر سَوَاء ، يعني بذلك : أنهم غير متساوين ، يقول : لَيسوا متعادلين ولكنهم مُتفاوِتون في الصلاح والفساد ، والخير والشر)) .

أمَرَ اللَّهُ العلماءَ بأن يأمروا بالمعروف ، ويَنْهَوْا عن المُنكَر ، وألا يقفوا صامتين مُتفرجين . ويجب عليهم إرشاد الناس إلى الحق ، وتوجيههم إلى الصواب ، وعدم التعامل بسلبية مع الأحداث، وإنما التفاعل معها وإخضاعها للشرعِ الحنيف .

وهُرُوبُ قادة الفِكْر والرَّأي إلى قِلاعِهم البعيدة وأبراجِهم العَاجِيَّة ، سيجعل من المجتمع قاعدةً للجُهَّال، ومُستنقعًا للحمقى ، وتَكَتُّلًا للرَّعَاع الفَوْضَويين ، الذين لا يُدرِكون أبعادَ الأمور ، ولا يَعرفون كيف يتعاملون مع تفاصيل الحياة ، مِمَّا يُنذِر بانهيار المجتمع على جميع الأصعدة .

---

٥٨ رواه الطَّبَراني في الكبير (٢ / ٨٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٥٠) : ((رِجَاله ثِقَات)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُون ﴾ [الأعراف : ١٥٩] .

ومِن بَنِي إسرائيلَ جَماعةٌ مُستقيمون على شريعة اللَّهِ، يَدْعُون إلى الحَقِّ، وبالحَقِّ يَحْكُمُون. أي إنَّهُم يَستقيمون عَلى الحَقِّ ويَعْمَلُون ، وبالحَقِّ يُعْطُون ويَأخُذون ويُنْصِفُون مِن أنفُسِهِم فَلا يَجُورون. وقِيل : يَهْتَدُون ويَستقيمون عَلى الحَقِّ ، وبالحَقِّ يَحْكُمُون ، وبالعَدْلِ يَقُومون .

إنَّ القُرْآنَ حَاكِمٌ مُنْصِفٌ ، فَقَدْ أثبتَ أنَّ قَوْمَ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ لَيْسُوا سَوَاءً ، بَلْ مِنهُم أُمَّة مُؤمنة تَمتاز بالتَّقْوَى والتزامِ الحَقِّ مَنْهَجًا لا مَحِيد عَنْه . يَدْعُون الناسَ إلى الهِدَاية ، ويَعْدِلُون في الحُكْمِ. وهذه الفِئَةُ ثَبَتَتْ على الصِّرَاطِ المُستقيم ، ورَفَضَت الباطلَ ، لذلك اسْتَحَقَّتْ أن تُمْدَحَ في القُرآن، ويُصبح ذِكْرُها خالدًا إلى يَوْمِ القِيامة ، لأنَّ نَاصِرَ الحَقِّ مَنصورٌ ، والقُرْآنُ يُؤَسِّسُ مَنْهَجَ الإنصافِ في إطلاقِ الأحكامِ ، وإعطاء كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّه. ويُعْلِي قَدْرَ المُؤمنين ــ مَهْمَا اختلفت العصورُ ــ، كَي يُشَجِّعَ الآخرين على السَّيْرِ في طَرِيقِهم والتَّشَبُّهِ بِهِم.وقال البَيضاوي في تفسيره (١ / ٦٦) : ((﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ يَعْنِي مِن بَنِي إسرائيل ، ﴿ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ ﴾ يَهْدُون الناسَ مُحِقِّين أوْ بكلمة الحَقِّ ، ﴿ وَبِهِ ﴾ بالحَقِّ ﴿ يَعْدِلُون ﴾ بَيْنَهُم في الحُكْمِ ، والمُرادُ بها الثابتون على الإيمان ، القائمون بالحَقِّ مِن أهْلِ زَمَانِه ، أتْبَعَ ذِكْرُهم ذِكْرَ أضدادهم على مَا هُوَ عادة القُرْآن ، تَنبيهًا على أنَّ تَعَارُض الخَيْرِ والشَّرِّ وتَزَاحُم أهل الحَقِّ والباطلِ أمْرٌ مُستمِر . وقِيل : مُؤمِنُو أهْلِ الكِتَابِ ، وقِيل : قَوْم وَرَاء الصِّين رَآهُم رسول اللَّه ﷺ لَيْلَةَ المِعْرَاج فآمَنُوا بِه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٧٢) : ((قَوْلُه : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ ، لمَّا قَصَّ اللَّهُ عَلَينا مَا وَقَعَ مِنَ السامريِّ وأصحابِه ، ومَا حَصَلَ مِن بَنِي إسرائيل مِنَ التَّزَلْزُلِ في الدِّينِ ، قَصَّ عَلَينا سُبحانَه أنَّ مِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةً مُخَالِفَةً لأُولئك الذين تَقَدَّم ذِكْرُهم ، وَوَصَفَهُم بأنَّهُم ﴿ يَهْدُونَ بِالحَقِّ ﴾ ، أي : يَدْعُون الناسَ إلى الهِدَايَةِ حَالَ كَوْنِهِم مُتَلَبِّسِين بالحَقِّ ، ﴿ وَبِهِ ﴾ ، أي : بالحَقِّ ﴿ يَعْدِلُون ﴾ بَيْنَ الناسِ في الحُكْمِ . وقِيل : هُمُ الذينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ الذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤمِنون ﴾[القَصَص: ٥٢] [٥٩] .

---

٥٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٢٩) : ((﴿ الذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال : أحدها أنهم مُؤمنو أهل الكِتاب،رواه العَوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد.والثاني مُسْلِمُو أهْلِ الإنجيل، روى سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس أنَّ أربعين مِن أصحاب النَّجَاشِيِّ قَدِمُوا على رسول اللَّه ﷺ فشهدوا مَعَه أُحُدًا ، فَنَزَلَتْ فيهم هذه الآية ، والثالث : مُسْلِمُون كَعَبْدِ اللَّهِ بن سَلَام وغَيْرِه ، قاله السُّدي)) .

هؤلاء مُؤمنو أهل الكتاب الذينَ آمَنُوا مِن اليهود والنصارى بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، لقد أعطاهم اللَّهُ التَّوراةَ والإنجيلَ مِنْ قَبْلِ القُرْآنِ ، وهُمْ يُصَدِّقون بالقُرْآنِ ، ويُصَدِّقون بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وهذا لَيْسَ غريبًا ، إذْ إنَّ ذِكْرَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ كانَ مَوجودًا في التَّوراةِ والإنجيلِ ، فآمَنُوا بِه ، وخَضَعُوا للحَقِّ الإلهيِّ ، ورَفَضُوا الكُفْرَ والعِنَادَ والمُكَابَرَةَ ، وَفَضَّلُوا نعيمَ الآخرةِ الباقي على حُطَامِ الدُّنيا الفاني.

وقال القُرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٦٢): ((أَخْبَرَ أنَّ قَوْمًا مِمَّنْ أُوتوا الكِتاب مِنْ بَني إسرائيل مِنْ قَبْلِ القُرْآنِ ، يؤمنون بالقُرْآنِ كَعَبْدِ اللَّهِ بنِ سَلَام وسَلْمَان ، ويَدْخُل فيه مَنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلماء النَّصَارى ، وَهُمْ أربعون رَجُلًا قَدِمُوا معَ جَعفرِ بنِ أبي طالبٍ المدينة ، اثنان وثلاثون رَجُلًا مِنَ الحَبَشَةِ ، وثمانية نفَرٍ أقْبَلوا مِنَ الشامِ وكانوا أئمة النَّصَارى : مِنْهُم بَحِيراء الراهب ، وأبْرَهَة ، والأشْرَف ، وعامر ، وأيمن ، وإدريس ، ونافع ، كذا سَمَّاهُم المَاوَرْدِيُّ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا مِنهُم أئمةً يَهْدُونَ بأمْرِنا لَمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِنا يُوقِنُون ﴾ [السَّجدة : ٢٤] .

إنَّ اللَّهَ جَعَلَ مِنْ بَني إسرائيل قَادَةً يَهْدُون إلى الخَيْرِ والرَّشاد، يُقْتَدَى بهم،ويُهْتَدَى بِهَدْيهم. والأئمةُ جَمْعُ إمام، وهو الذي يُؤْتَمُّ بِه في الخَيْرِ أو الشَّرِّ. وقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أئمةً بسبب صبرهم على أوامر اللَّهِ تعالى ، والسَّيْرِ على خُطى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والأمرِ بالمعروف ، والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ . وَقَدْ كَافَأهُمُ اللَّهُ في الدُّنيا بأنْ جَعَلَهم قَادَةً لأقوامِهم ، وسَادَةً لهم ، وَخَلَّدَ ذِكْرَهم الطَّيب إلى الأبَد . ويَوْمَ القِيامة يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ جَنَّتَه خالدين فيها. لَقَدْ فازوا بالدُّنيا والآخِرَةِ مَعًا . وإمَامَةُ الدِّينِ _كما هو واضح في الآية_ لا تُنال إلا بالصَّبْرِ واليقين ، فالصَّبْرُ يَدْفَع الشَّهَوَاتِ، واليَقِينُ يَدْفَع الشُّبُهَاتِ. والصَّبْرُ كالرأس في الجسد ، وإذا قُطِعَ الرأسُ ماتَ الجسدُ ، ولا معنى للإيمان بِدُون الصَّبْر. ولا شَكَّ أنَّ العُلماء مَأمورون بإرشادِ الناس، وانتشالِهم مِنْ مُسْتَنْقَعِ الذُّنُوبِ ، وَقِيَادَتِهم إلى طَرِيقِ الإيمانِ وَمَحَاسِنِ الأخلاقِ .

وهُنا تَبْرُز الصِّفات الواجب تَوَفُّرها في الإمام (القائد) : الصَّبْرُ على العِبادة ، والزُّهْد في الدُّنيا ، والتزام أوامر اللَّه ، والابتعاد عن المُحَرَّمات ، وإرشاد الناس إلى الخَيْر،وتحذير الناس مِن الشَّرِّ ، وتقديم النَّصائح المُخلِصة للجميع ، والإيقان بآياتِ اللَّهِ تعالى. ومَنْ يَزْعُم أنَّه إمَام بِدُون هذه الصِّفات ، فَهُوَ إمَامُ شَرٍّ لا إمَامُ خَيْرٍ . وَهُوَ ضَال مُضِل ، سَيَقُود نَفْسَه والناسَ إلى الهلاك .

والآيةُ تَحْمِلُ دَرْسًا عمليًّا لِقُرَيْشٍ ، فإذا أرادوا أن يُصبحوا أئمةً وقادةً وسادةً وأشرافًا ، فَلا بُدَّ أن يَعتنقوا الإسلامَ ، وهذا هو الطريقُ الوحيد كَي يَنالوا شَرَفَ الإمَامَةِ ، ويَحْصُلوا على السِّيادة ،

ويَقُودوا الناسَ ، وهذه القضيةُ شديدة الأهمية في المُجتمع العربي القائم على الفَخْرِ بالأنساب ، والتفاخرِ بالأحسابِ ، والتنافسِ بَين القبائل على احتكار الشَّرَفِ والمَجْدِ والقِيادةِ والسِّيادةِ .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٩٣) : ((يَهْدُون بذلك الناسَ ويَدْعُونهم إلى ما في التَّوراة مِنْ دِينِ اللَّهِ وشرائعه بأمرنا إيَّاهم بذلك . ﴿ لَمَّا صَبَروا ﴾ حِينَ صَبروا على الحق بطاعة اللَّه ، أو عن المعاصي ... لِصَبرهم على الدُّنيا . وفيه دليل على أن الصَّبْر ثَمَرته إمَامَة الناس ، ﴿ وكانوا بآياتِنا ﴾ التَّوْراة ﴿ يُوقِنُون ﴾ يَعْلَمُون عِلْمًا لا يُخَالِجُه شَك)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦١١): ((وقال ابن بِنْت الشافعي : قرأ أبي على عَمِّي أو عمي على أبي : سُئل سُفيان عن قَوْل عَلِيٍّ _ رَضِيَ اللَّهُ عنه_ : " الصَّبْرُ مِنَ الإيمانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ " [٦٠] . أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَه : ﴿ وَجَعَلْنا مِنهُم أئمةً يَهْدُونَ بأمْرِنا لَمَّا صَبَروا ﴾ ، قال : لَمَّا أخذوا برأس الأمر صاروا رُؤساء . قال بعضُ العُلماء : بالصَّبْرِ واليَقِينِ تُنال الإمَامَةُ في الدِّينِ)) .

وعن مالك بن أنس _ وتلا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَجَعَلْنا مِنهُم أئمةً يَهْدُونَ بأمْرِنا لَمَّا صَبَروا ﴾ ، فقال : حَدَّثَني الزُّهْري أنَّ عَطاء بن يزيد حَدَّثَه عن أبي هُرَيرة _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ أنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول : ((مَا رُزِقَ عَبْدٌ خَيْرًا لَهُ ولا أوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)) [٦١] .

وقالَ اللَّهُ تَعَالى : ﴿ وَجَعَلْنا في قُلوبِ الذينَ اتَّبعُوهُ رَأفةً ورَحمةً وَرَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبنَاهَا عَلَيهِم إلا ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَينَا الذِينَ آمَنُوا مِنهُم أَجرَهُم وَكَثِيرٌ مِنهُم فَاسِقُون ﴾ [الحديد : ٢٧] .

إنَّ اللَّهَ تعالى جَعَلَ في قُلوب الحَوَارِيِّين الذين اتَّبعُوا النَّبِيَّ عِيسَى ﷺ رِقَّةً وخَشيةً ورحمةً بالناس. وهذا مَديحٌ لهم وإعلاء لشأنهم ، فقد كانوا أصحابَ عِيسى ﷺ وأتْبَاعَه المُخلِصين ، وساروا في طريقه بلا انحراف ، وكانوا رُحَمَاء فِيما بَيْنَهُم ، لا مكان في قلوبهم للحسد والحِقد والبغضاء . وقال القُرْطُبي في تفسيره (١٧/٢٢٣): ((﴿ رَأفةً ورَحمةً ﴾ أي مَوَدَّةً ، فكان يُوَادُّ بعضُهم بعضًا. وقِيل: هذا إشارة إلى أنَّهُم أُمِرُوا في الإنجيل بالصُّلْحِ وتَرْكِ إيذاء الناس ، وألانَ اللَّهُ قُلُوبَهم لذلك ، بِخِلاف اليهود الذين قَسَتْ قُلُوبُهُم ، وحَرَّفُوا الكَلِمَ عَن مَواضعه)) .

---

٦٠ رُوِيَ عن أنس مرفوعًا . وقد ضَعَّفه العِراقي في تخريج الإحياء (٤ / ٢٤) . وفي تذكرة الموضوعات (١ / ١٥٢٩) أن الحديث ضعيف .

٦١ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٤٩) ، وقال الذهبي : ((على شَرْط البخاري ومسلم)) .

وَقَد ابتدعَ النَّصَارى الرَّهْبَانِيَّةَ (اعتزال النِّسَاء ، والانقطاع عن الدُّنيا ، والتَّعَبُّد في الأماكن النائية)،وهذه الرَّهبانيةُ لَمْ يَفْرِضْها اللَّهُ عَلَيهِم ، ولَمْ يَأمُرْهُم بها ، وإنَّما التزموها مِن تِلْقَاءِ أنفُسِهِم وبِمَحْضِ إرادتهم . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٤) : ((وابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوها ، أوْ رَهْبَانِيَّةً مُبْتَدَعَةً ، على أنَّها مِن المَجعولات، وهي المُبَالَغَة في العِبادة ، والرِّياضة ، والانقطاع عن الناس ، مَنسوبة إلى الرَّهْبَان، وهو المُبَالِغ في الخَوْف ، مِن " رَهَبَ " ، كالخَشْيَان مِن " خَشِيَ " ، وقُرِئَت بالضَّم ، كأنَّها مَنسوبة إلى الرُّهبان ، وهو جَمْع راهب ، كَرَاكِب ورُكْبان)) .

وَرَوَى النَّسَائِيُّ في سُنَنِه (٨/ ٢٣١) : عن ابن عباس قال : كانتْ مُلوكٌ بَعْدَ عِيسى بن مريم _عليه الصلاة والسلام_ بَدَّلوا التَّوراةَ والإنجيلَ،وكان فِيهم مُؤمنون يَقرؤون التَّوراةَ. قِيل لِمُلوكهم: مَا نَجِدُ شَتْمًا أشدَّ مِن شَتْمٍ يَشتمونا هؤلاء ، إنهم يَقْرَؤُون : ﴿ وَمَن لَم يَحْكُم بما أَنزلَ اللَّهُ فأُولئكَ هُمُ الكافرون ﴾ . وهؤلاء الآيات مَعَ مَا يَعيبونا بِه في أعمالنا في قراءتهم ، فادْعُهُم فليقرؤوا كما نقرأ ، وَلْيُؤْمِنوا كما آمَنَّا ، فَدَعَاهُم ، فَجَمَعَهُم ، وعَرَضَ عليهم القتلَ ، أوْ يتركوا قِراءةَ التَّوراة والإنجيل، إلا مَا بَدَّلوا مِنها ، فقالوا : مَا تُريدون إلى ذلك ؟، دَعُونا، فقالت طائفةٌ مِنهُم: ابْنُوا لنا أُسطوانةً ثُمَّ ارفعونا إليها ، ثُمَّ أعْطُونا شيئًا نَرفَع بِه طعامَنا وشرابَنا ، فلا نَرِدُ عليكم . وقالت طائفة مِنهُم : دَعُونا نَسِيح في الأرض ونَهِيم، ونَشرب كما يَشرب الوحشُ، فإن قَدَرْتُم عَلَيْنا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة مِنهم : ابْنُوا لَنا دُورًا في الفَيافي ، ونَحتفِرُ الآبارَ ، ونَحترِثُ البُقُولَ، فلا نَرِدُ عَلَيكُم ولا نَمُرُّ بِكُم ، وَلَيْسَ أحَدٌ مِنَ القَبائلِ إلا وله حميم فيهم . قال : ففعلوا ذلك ، فأنزلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:﴿وَرَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبنَاهَا عَلَيهِم إلا ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [٦٢].

﴿ إلا ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللَّهِ ﴾ . لَقَد ابْتَدَعُوا الرَّهبانيةَ ابتغاءَ رِضوان اللَّهِ ، وطَلَبًا لِرِضَاه . وهُناك تفسير آخَر ، وَهُوَ : مَا كَتَبْنَا عَلَيهِم الرَّهبانيَّةَ ، إنَّما كَتَبْنَا عليهم ابتغاءَ رِضْوَان اللَّهِ .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٢١٣) : ((وقَوْلُه تعالى: ﴿ إلا ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللَّهِ ﴾ استثناء مُنقطِع ، أي : مَا فَرَضْنَاهَا نَحن عليهم رأسًا ، ولكنَّهم رأسًا ابتدعوها ابتغاءَ رِضوان اللَّهِ ، فَذَمَّهُم حِينئذ بِقَوْلِه تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ مِن حَيْث إنَّ النَّذْرَ عَهْدٌ معَ اللَّهِ ، لا يَحِلُّ نَكْثُه ، لا سِيَّما إذا قُصِدَ بِه رِضَاه تعالى . وعلى الوجه الثاني مُتَوَجِّه إلى قَيْدِه لا إلى نَفْسِه. والاستثناء

---

٦٢ قال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٨ / ٦٥) : أخرَجه النَّسَائيُّ والحكيم التِّرمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن مَرْدَوَيْه عن ابن عباس .

مُتَّصِل مِن أعَمِّ العِلَل، أي : مَا كتبناها عليهم بأن وفَّقناهم لابتداعها لِشَيْءٍ مِن الأشياء، إلا لِيَبتغوا بها رِضوانَ اللَّه،ويَستحقوا بها الثَّوَابَ. ومِن ضَرورة ذلك أن يُحافظوا عليها ويُراعوها حَقَّ رِعَايتها)).

﴿ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ . إنَّهُم لَمْ يَقُوموا بما التزَمُوا بِه حَقَّ القِيَام . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٤) : ((وهذا ذَمٌّ لهم مِن وَجْهَيْن (أحدهما) الابتداع في دِين اللَّهِ مَا لَمْ يَأمُرْ بِه اللَّهُ ، و (الثاني) في عَدَمِ قِيَامِهم بِما التزَمُوا مِمَّا زَعَمُوا أنَّه قُرْبَة يُقَرِّبهم إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) .

وَهَذه فِئةٌ مَخصوصة انحَرَفَتْ عن الطريق ، واتَّخَذَت الرَّهْبَانِيَّةَ وسيلةً للرِّئَاسَة والشُّهْرَة وزيادة النُّفُوذ وأكل أموال الناس بالباطل ، لأن الذينَ لَمْ يَرْعَوْهَا حَقَّ رِعايتها هُم بَعْض القَوْم ولَيْسَ الكُل . إنَّهُم ابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ ، وهُم لَمْ يُؤْمَرُوا بذلك. لكنَّهم سَنُّوا هذه الطريقةَ تَقَرُّبًا إلى اللَّه تعالى ، وابتغاءَ رِضوانه، فَمَا قاموا بأداء حَقِّها، فَبَدَّلُوا وغَيَّرُوا ، وظَلَمُوا أنفسَهم بانحرافِهم عَن الصِّرَاطِ المُستقيم ، فآتَى اللَّهُ المُؤمِنين الذينَ ابْتَدَعُوهَا ، وَرَعَوْهَا ، وقاموا بِحَقِّها على أكْمَل وَجْهٍ أجْرَهم ، كاملًا غَيْرَ مَنقوص. وكثيرٌ مِنَ النَّصَارى مُنْحَرِفُون عن طريق الحَق، وغارقون في الذُّنُوبِ والمعاصي.

وقد اختلفَ أهلُ التأويل في هُوِيَّة الذين لَمْ يَرْعَوا الرَّهْبَانِيَّةَ حَقَّ رِعَايتها .

قال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (٨/ ١٧٦): ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ، في المُشار إليهم قَوْلان : أحدهما أنهم الذين ابتدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ ، قاله الجُمهور . ثُمَّ في مَعنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهُم مَا رَعَوْهَا لتبديل دِيْنِهم وتَغْيِيرهم له ، قاله عطية العَوفي . والثاني لتقصيرهم فيما ألْزَمُوا أنفسَهم ، والثالث: لِكُفْرهم برسول اللَّهِ ﷺ لَمَّا بُعِثَ، ذَكَرَ القَوْلَيْن الزَّجَّاج .والثاني:أنَّهُم الذين اتَّبَعُوا مُبتدعِي الرَّهْبَانِيَّة في رَهْبَانيتهم مَا رَعَوْهَا بِسُلوك طريق أوَّلِيهم ، روى هذا المعنى سعيد بن جُبَير عن ابن عَبَّاس)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٨٩) : ((وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصِّحة أن يقال : إنَّ الذين وَصَفَهُم اللَّهُ بأنَّهُم لَمْ يَرْعَوا الرَّهْبَانِيَّةَ حَقَّ رِعَايتها بعض الطوائف التي ابْتَدَعَتْهَا ، وذلك أنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُه أخبرَ أنَّه آتَى الذينَ آمنوا مِنهُم أجْرَهم ، فَدَلَّ بذلك على أنَّ مِنهُم مَن قَد رَعَاهَا حَقَّ رِعَايتها ، فَلَوْ لَمْ يَكُن مِنهم مَن كانَ كذلك ، لَمْ يَكُن مُستحِقَّ الأجر الذي قال _ جَلَّ ثَنَاؤُه _ : ﴿ فَآتَينَا الذِينَ آمَنُوا مِنهُم أَجْرَهُم ﴾)) .

وقال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (٨ / ١٧٧) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ فَآتَينَا الذِينَ آمَنُوا مِنهُم أَجْرَهُم ﴾ فِيهم ثلاثة أقوال: أحدها الذين آمَنُوا بِمُحَمَّد ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ ﴾ وهُم الذين لَمْ يُؤْمِنُوا به . والثاني أنَّ الذين آمَنُوا المُؤمِنُون بِعِيسَى ، والفاسقون المُشركون . والثالث أنَّ الذين آمَنوا مُبْتَدِعُو الرَّهْبَانِيَّة ، والفاسقون مُتَّبِعُوهُم عَلى غَيْرِ القانون الصحيح)) .

وعن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول : ((إنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكُم صَوْمَ رَمَضَان ، وَلَمْ يَفْرِضْ عَلَيْكُم قِيَامَه، وإنَّمَا قِيَامُه شَيْءٌ أحْدَثْتُمُوه ، فَدُومُوا عَلَيه ، فإنَّ ناسًا مِن بَنِي إسرائيلَ ابْتَدَعُوا بِدْعَةً ، فَعَابَهُمُ اللَّهُ بِتَرْكِهَا ، وقال : ﴿ وَرَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبنَاهَا عَلَيهِم إلا ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ــ إلى آخِرِ الآية ــ)) [٦٣] .

بِمَا أنَّهُم قد الْتَزَمُوا بالرَّهبانيَّة ، وألْزَمُوا أنفسَهم بها ، فَعَلَيهِم أن يَقُوموا بأداء حَقِّها ، وتطبيقها على أرض الواقع دُون إخلال بها . وإذا كانوا عاجزين عَن رِعَايتها حَقَّ الرِّعَاية ، فلماذا ألْزَمُوا أنفسَهم بها ؟ ، فاللَّهُ تعالى لَمْ يَفْرِضْها عَلَيهِم . وهذا يَقُودنا إلى خُطورة أن يُشَدِّدَ الإنسانُ على نَفْسِه،ويُحَمِّل نَفْسَه فَوْقَ طَاقتها.وقَد قال النَّبِيُّ ﷺ: ((لا تُشَدِّدُوا على أنفُسِكُم فَيُشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُم ، فإنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا على أنفُسِهِم ، فَشُدِّدَ عَلَيْهِم ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُم في الصَّوَامِعِ والدِّيَاراتِ ، ﴿رَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبنَاهَا عَلَيهِم ﴾)) [٦٤] .

هَلَكَ كثير من الناس بسبب تشديدهم على أنفسهم ، وتحميلها فوق ما تَحتمل ، فعلى المسلمين ألا يُوقِعوا أنفسَهم في الحَرَج ، ويَحْشُروها في الزاوية الضَّيقة ، ويُلْزِموها بالمَشَاق والمَصَاعِب ، مِثْل : صِيام الدَّهْر ، واعتزال النِّسَاء ، وقِيام الليل كُلِّه ، لِئَلا يَتِمَّ فَرْضُ هذه الأمُور عَلَيهِم ، وَعِندئذٍ يَقَعُون في الشِّدَّةِ والتَّعَبِ والهلاكِ . فالشريعةُ سَهْلةٌ لا مكان فيها للتعقيد والتطرف . والحديثُ يَحْمِل نَهْيًا عن التَّشَدُّد في الدِّينِ بالزِّيادة عن المَشروع ، والمُبَالَغةِ في أداء العِبَادات. و (الصَّوَامِع) جَمْع صَوْمَعَة ، وهي مَوْضِع عِبَادَةِ الرُّهْبَان .

وعن أنسِ بنِ مالك : أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الأُمَّةِ الجِهَادُ في سَبيلِ اللَّهِ)) [٦٥] .

---

٦٣ رواه الطَّبَراني في الأوسط (٢٦٢/٧).وفي سنده زكريا بن أبي مريم.قال الهيثمي في المجمع (٣٣٩/٣): ((ضَعَّفَه النَّسَائيُّ وغَيْرُه))اهـ . وقال ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ٤٨٢): ((وقال الساجي : تَكَلَّمُوا فيه.وقال أبو داود: لم يَرْوِ عنه إلا هُشَيم، وقال الدَّارَقُطْني: يُعْتَبَر به ، وقد ذَكَرَه ابن حِبَّان في الثِّقَات)) .

٦٤ رواه أبو يَعْلَى في مُسْنَدِه(٦/ ٣٦٥) برقم (٣٦٩٤) بسند حسن.قال الهيثمي في المجمع(٣٩٠/٦): ((رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء ، وهو ثِقَة)) .

٦٥ رواه أبو يَعْلَى في مُسْنَدِه (٧/ ٢١٠) برقم (٤٢٠٤). وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٠٥) : ((وفيه زيد العَمِّي وَثَّقَه أحمد وغَيْرُه ، وضَعَّفَه أبو زُرْعَة وغَيْرُه ، وبقيَّة رجاله رجال الصحيح)) .

لِكُلِّ أُمَّةٍ تَبَتُّلٌ وانقطاعٌ للعِبَادة. ورَهْبَانِيَّةُ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّةِ لَيْسَتْ كَرَهْبَانِيَّةِ النَّصَارى ، حيث الانقطاع عن الناس ، والتَّجَمُّع في الأديرة ، والعُزُوف عن الزواج ، والتَّطرف في العِبادة . إنَّ رَهْبَانِيَّة هذه الأُمَّة هي التزام الجِهاد في سبيل اللَّه ، وقِتال أعداء اللَّهِ، مِن أجل رفع راية الحَق .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ تَشديد النَّصَارى كانَ تَشديدًا في العِبَادَةِ والقُرُبَاتِ ، أمَّا تَشديدُ اليَهُودِ فكانَ نَابِعًا مِن التَّعَنُّتِ والعِنَاد . وكِلاهما مَذموم ، وخَيْرُ الأُمُورِ الوَسَطُ ، ولا بُدَّ مِن الاعتدال في العِبادة بِلا إفراط ولا تفريط .

ولا بُدَّ مِنَ القَول إنَّ الآية : ﴿ وَرَهبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبنَاهَا عَلَيهِم إلا ابتِغَاءَ رِضوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَينَا الذِينَ آمَنُوا مِنهُم أَجْرَهُم ﴾ ، هي دليلٌ باهرٌ على وجود بِدْعَة حَسَنَة في الدِّين . والبَعْضُ يَستدلُّ بهذه الآية على تحريم البِدْعَةِ مُطْلَقًا ، وهذا الاستدلالُ باطلٌ ، لأنَّ الأمْرَ ذُو مَنْحى عَكْسِي تمامًا ، فهذه الآية مَدَحَتْ أُولئك الذين سَنُّوا هذه البِدْعَةَ الدِّينية .

واللَّهُ تَعَالى لَمْ يَعِبْ عَلى أُولئك الذينَ ابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ مِن أجْلِ ابتداعها ، بَلْ لأنَّهُم لَمْ يَتمسَّكوا بهذه البِدْعَة الحَسَنة ، ولَمْ يَرْعَوْها حَقَّ رِعايتها . وَلَوْ كانتْ هذه البِدْعَة مَذمومة لَمَا آتَى اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنهُم أجْرَهم ، كما يَتَّضح مِن الآية الشريفة .

وهذه الآية دليل على جَوَاز الابتداع، بِشَرْطِ عَدَمِ مُخَالَفَةِ هذه البِدْعَة لأُصُول الدِّينِ وفُرُوعِه ، كما أنَّ هذه الآية دليل واضح على وُجُود بِدْعَة حَسَنَة ، يُؤْجَر صاحبُها إذا قام بها حَقَّ القِيَام .

وفي صحيح البُخاري (٢/ ٧٠٧) عن عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ عَبْدٍ القاريُّ أنَّه قال : خَرَجْتُ معَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ لَيْلَةً في رَمَضَانَ إلى المَسْجَدِ ، فإذا الناسُ أوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ ، ويُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاتِهِ الرَّهْطُ ، فقال عُمَر : ((إنِّي أرى لَوْ جَمَعْتُ هَؤلاءِ عَلى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أمْثَلَ)) ، ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُم عَلى أُبَيِّ بن كَعْب ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى والناسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ قَارِئِهِم ، قال عُمَر : ((نِعْمَ البِدْعَةُ هَذِه)) .

خَرَجَ التابعيُّ عبد الرَّحمن بن عَبْدٍ القاريُّ معَ عُمَر بن الخَطَّاب ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ في إحدى ليالي رَمَضَان إلى المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، فَوَجَدَ الناسَ يُصَلُّونَ قِيَامَ الليلِ في جَمَاعاتٍ مُتفرِّقة ، فَمِنهُم مَن يُصَلِّي مُنْفَرِدًا ، ومِنهُم مَن يُصَلِّي إمَامَا بالرَّهْطِ (الجَمَاعة مِن ثلاثة إلى عَشَرَة) ، فَرَأى عُمَرُ ابن الخَطَّاب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أن يَجمَعهم على إمَامٍ واحدٍ ، وأنَّ تَجَمُّعَهُم أفضلُ مِن تَفَرُّقِهِم ، لأنَّه أنشَطُ لكثيرٍ مِن المُصَلِّين ، وحتى لا يُشَوِّشَ بعضُهم على بعضٍ ، ثُمَّ عَزَمَ عُمَرُ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ على ذلك ، فَجَمَعَهُم على أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ــ رضي اللَّهُ عنه ــ ، فكانَ إمامَهم في الصَّلاةِ ،

لأنَّه مِن أحفظِ الناسِ وأقْرَئِهِم للقُرآنِ . ولمَّا خَرَجَ في ليلةٍ أُخْرَى ، وَوَجَدَهُم يُصَلُّون جَماعةً واحدةً خَلْفَ أُبَيِّ بنِ كَعْب ، قال : " نِعْمَ البِدْعَةُ هَذِه " ، لأنَّها فِعْل مِن أفعال الخَيْر .

إنَّ عُمَر بن الخَطَّاب_ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قد استحدثَ هذا الأمْرَ في الدِّينِ ، وَلَمْ يَقُم الصَّحَابَةُ بالإنكار عَلَيه ، كما أنَّه سَمَّاهَا بِدْعَةً ، فَقَد تَمَّ إنشاؤُها على غَيْر مِثال سابق ، وَلأنَّها لَمْ يَسُنَّها النَّبِيُّ ﷺ ، وقال : " نِعْمَ البِدْعَة " لِيَدُلَّ على فَضْلِها ، وأنَّ مِنَ البِدَعِ مَا هُوَ حَسَنٌ ومَقبول إنْ كانَ يَندرج تَحْتَ أصْلٍ شَرْعِيٍّ .

وقال الحافظ في مُقدِّمة فتح الباري (١/ ٨٥) عن البِدْعة : ((هو فِعْل مَا لَمْ يُسْبَقْ إلَيه ، فَمَا وَافَقَ السُّنَّةَ فَحَسَن ، ومَا خَالَفَ فَضَلالة ، وَهُوَ المُراد حَيْث وَقَعَ ذَمُّ البِدْعَة ، ومَا لَمْ يُوَافِقْ ولَمْ يُخَالِفْ فعلى أصْلِ الإبَاحَة)) .

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٥٣) : ((والبِدْعة أصْلُها مَا أُحْدِثَ دُون مِثال سابق ، وتُطلَق في الشَّرْع في مقابل السُّنَّة ، فَتَكُون مَذمُومة ، والتَّحقيقُ أنَّها إنْ كانتْ مِمَّا تَندرج تحت مُسْتَحْسَن في الشَّرْع فهي حَسَنَة، وإنْ كانتْ مِمَّا تَندرج تَحْت مُسْتَقْبَح في الشَّرْع فهي مُسْتَقْبَحَة، وإلا فَهِيَ مِن قِسْمِ المُبَاح ، وقَد تَنقسِم إلى الأحكام الخمسة)) .

وهذا التقسيمُ ضروري جدًّا في موضوع البِدْعَة ، لأنَّه يُؤَسِّس مَنهجًا شَرْعِيًّا وَسَطِيًّا قادرًا على إزالة كافة الإشكاليَّات التي قَد تَنشَأ في أذهان البعض حَول هذه القضية . وَلَمْ يَقِف العُلماءُ عِند تَقْسِيم البِدْعَة إلى حَسَنَة وقَبيحة ، بَلْ ذهبوا إلى تقسيمها وَفْق الأحكام الخمسة، فصارت البِدْعَةُ واجبةً أوْ مَندوبةً (مُسْتَحَبَّة) أوْ مُحَرَّمةً أوْ مَكروهةً أوْ مُباحةً .

وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مُسلِم (٦/ ١٥٤) : ((قال العُلماء : البِدْعَةُ خَمْسَةُ أقسام : واجبة ، ومَندوبة ، ومُحرَّمة ، ومَكروهة ، ومُباحة)) .

*

ثانيًا : بَنُو إسرائيل

١ــ أوامرُ اللَّهِ إلَيْهِم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا بَنِي إسرائيلَ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أنعَمْتُ عَلَيْكُم وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكم وَإيَّايَ فارْهَبُون ﴾ [البَقَرَة : ٤٠] [٦٦] .

يا أولادَ النبيِّ الصالحِ يَعْقُوب ، اذكُروا مَا أنعمتُ به عَلَيكم ، وعلى آبائكم ، مِن نِعَمٍ عظيمة وكثيرة ، لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، وأدُّوا ما عاهدتموني عليه مِن الإيمانِ والطاعة ، أُوفِ بما عاهدتكم عليه مِن حُسْنِ الثَّوَابِ وعِظَمِ الأجرِ ، واخْشَوْنِي وَحْدِي دُون غَيْري .

يَأمُرُ اللَّهُ بني إسرائيل أن يَذكُروا نِعمته عليهم ، فيتفكروا فيها ، ويقوموا بشُكْرها . والنِّعَمُ الإلهيَّة لا يُمكِن إحصاؤها. وقد مَنَّ اللَّهُ عليهم بأن اختار منهم أنبياء، ونجَّاهم مِن فِرْعَوْن والغَرَقِ ، وَعَفَا عن اتخاذ العِجْل إلَهًا مِن دُونِه تعالى،وتَجَاوَزَ عنهم رحمةً بهم،وتفضُّلًا عليهم،وإحسانًا إلَيهم .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٢٨٦) : ((يعني بِقَوْله جَلَّ ثَنَاؤُه : ﴿ يا بَنِي إسرائيلَ ﴾ وَلَد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرَّحمن . وكان يعقوب يُدعَى إسرائيل ، بمعنى عبد اللَّه ، وصَفْوته مِن خَلْقه ، وإيل هو اللَّه ، وإسرا هو العبد . كما قِيل : جِبريل بمعنى عبد اللَّه)) .

وقد نَسَبَهُم اللَّهُ تعالى إلى إسرائيل(يعقوب ﷺ) كَي يُذكِّرهم بانتمائهم إليه، وهو النبيُّ الطاهر ، فعليهم أن يَقتفوا أَثَرَه ، ويَسِيروا على خُطَاه، ويَلتزموا بمنهجه ، فهو أبوهم الصالح . وهذا التذكير مِن شأنه أن يُحفِّز هِمَّتَهم نحو العمل . وحِين يتذكرون أنَّ أباهم كان تقيًّا نقيًّا صالحًا عظيمًا ، سترتفع معنوياتهم، ويُقْبِلُوا على العمل والإنجاز بِكُلِّ إخلاص ونشاط وحيوية . كما تقول لشخص : يا ابنَ الشريفِ ، قُمْ بعملك.فهذه العبارة التي تُذكِّره بأصله الكريم ونَسَبه العظيم ، ستكون دافعًا له على العمل،واقتفاء آثار مَن سَبَقَه في الحق والإخلاص والتقوى،والتزام أوامر اللَّه، واجتناب نَواهيه.

---

٦٦ عَبِيدُ النِّعَمِ كثيرون ، وعَبِيدُ الْمُنْعِمِ قليلون ، واللَّهُ ذَكَّرَ بني إسرائيل بِنِعَمِه عليهم ، حتى يَعرِفوا نِعمةَ الْمُنْعِمِ ، فقالَ سُبحانَه : ﴿ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وأمَّا أُمَّةُ مُحَمَّد ﷺ فقد ذَكَّرَهم بالْمُنْعِمِ ، فقالَ سُبحانَه : ﴿ فاذكُرُونِي أذْكُرْكُم ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، لِيَتَعَرَّفُوا مِن الْمُنْعِمِ على النِّعْمَةِ ، وشَتَّان بين الأمْرَيْن .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢١) : ((يقول تعالى آمِرًا بني إسرائيل بالدُّخُول في الإسلام ، ومُتَابَعَة مُحَمَّد _ عليه مِن اللَّه أفضل الصلاة والسلام _، ومُهَيِّجًا لهم بِذِكْر أبيهم إسرائيل ، وهو نبيُّ اللَّه يعقوب _ عليه السلام _ . وتقديره : يا بَنِي العبد الصالح المُطيع للَّه ، كُونوا مِثْلَ أبيكم في مُتابعة الحق . كما تقول : يا ابنَ الكريمِ افْعَلْ كذا ، يا ابنَ الشُّجَاعِ بَارِز الأبطالَ ، يا ابنَ العَالِمِ اطْلُب العِلْمَ ، ونَحْو ذلك)) .

وهذا الأُسْلُوبُ القُرآنيُّ الرفيع يَعْمَل على تحفيزِ الناس ، ودَفْعِهم في طريق العمل الدَّؤُوب ، ورفع مستوى الجُهود البشرية ، وبث الإيمان في النُّفُوس ، ونشر العمل الصالح ، وتفعيل دَور العقل في تغيير الواقع نحو الأفضل . والإنسانُ عندما يَتذكَّر أصْلَه الرفيع ونَسَبَه الشريف ، وتَجُول في خاطره أعمال آبائه الكِرام العُظَمَاء، سوف يَندفع باتِّجاه التَّشَبُّه بهم، وتقليد أعمالهم الصالحة.

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الإنسان يُحِب الافتخارَ بآبائه لأنهم المرجعية التي تنبثق منها شرعيةُ وجوده في هذه الحياة ، ومشروعيةُ تواجده على خَريطة البُنية الإنسانية للمجتمع .

فَتَشَبَّهُوا إنْ لَمْ تَكُونوا مِثْلَهُم إنَّ التَّشَبُّهَ بالكِرَامِ فَلاحُ

وعن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما_ قال : ((كانَ الأنبياءُ مِن بَنِي إسرائيلَ إلا عَشَرَة : نُوح ، وصَالِح ، وهُود ، ولُوط ، وشُعَيب ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويَعْقُوب ، ومُحَمَّد ، _ عليهم الصلاة و السلام _ . ولَم يَكُن مِنَ الأنبياءِ مَن لَهُ اسْمَانِ إلا إسرائيلُ وعِيسى ، فإسرائيلُ يَعقوب ، وعِيسى المَسِيح)) [٦٧] .

هذا الحديثُ يُشير إلى أن غالبية الأنبياء كانوا من بني إسرائيل ، وهذه نِعمة إلهيَّة كُبرى ، كما يدلُّ على قَسوة طِباع بني إسرائيل الذين احتاجوا إلى هذا العدد الكبير من الأنبياء لغاية التوجيه والإرشاد والهِداية ، ويدلُّ على أن يعقوب اسم آخَر لإسرائيل ، والمسيح اسم آخَر لِعِيسى ، عليهم جميعًا الصَّلاة والسَّلام .

وقد أمَرَ اللَّهُ بني إسرائيل أن يَذكُروا نِعْمَتَه عليهم ، وذِكْرُ النِّعْمَة يَكُون بالقلب واللسان مَعًا ، وهذا يَستلزم شُكْرَ المُنعِم ، واحترام النِّعْمَة وتقديرها ، وعدم جَحْدها ولا إهمالها ولا نِسيانها [٦٨] .

---

٦٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٤٠٥) برقم (٣٤١٥) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٦٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٧٢و٧٣) : ((وفي الْمُراد بهذه النِّعْمَة ثلاثة أقوال: أحدها أنها مَا اسْتَوْدَعَهُم مِن التَّوراة التي فيها صِفة رسول اللَّه ﷺ ، قاله ابن عباس.والثاني أنها مَا أنعمَ به على آبائهم

وشُكْرُ النِّعْمَة يكون بطاعة اللَّه ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه . وتخصيصُ النِّعمة ببني إسرائيل ، لأنهم كانوا غارقين في نِعَم اللَّه الكثيرة ، يَتَقَلَّبون فيها مِن كُلِّ الجوانب . ومعَ هذا ، كانوا أشدَّ الناس كُفْرًا وضَلالًا وعِصيانًا وجُحودًا للنِّعَم ، وتَمَرُّدًا على اللَّهِ المُنعِم عَزَّ وَجَلَّ .

والآيةُ تُشير إلى أنَّ بني إسرائيل قد نَسُوا النِّعَمَ الإلهيَّة ، وأهملوها ، واعتبروها أمرًا عاديًّا رُوتينيًّا ، ولَم يَشكروا اللَّهَ عليها .

وإضافةُ النِّعْمَةِ وإسنادُها إلى ضمير اللَّه تعالى : ﴿ نِعْمَتِيَ ﴾ ، لتشريفها ، وتعظيمها ، وضرورة شُكر صاحبها، وهو اللَّه المُنعِم المُتَفَضِّل على عباده ، الرحيم بهم ، المُحْسِن إلَيهم .

واللَّهُ أحسنَ إلى بني إسرائيل ، ورَزَقَهُم ، ومَنَّ عليهم بِنِعَم عظيمة وكثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، مِنها : أ ــ تفجير الحَجَر لهم . ب ــ إنزال المَنِّ والسَّلْوَى عليهم . ج ــ إنقاذهم مِن عُبودية آل فِرْعَوْن . د ــ اختيار الأنبياء والرُّسُل مِنهم . هـ ــ إنزال الكُتُب عليهم . و ــ العَفْو عن اتِّخاذهم العِجْل إلَهًا لهم . ز ــ فَلْق البحر . ح ــ تَظليل الغَمَام . وغَير ذلك .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٢٨٦) : ((ونِعمته التي أنعمَ بها على بني إسرائيل ــ جَلَّ ذِكْرُه ــ اصطفاؤه مِنهُم الرُّسُل ، وإنزاله عليهم الكُتُب، واستنقاذه إيَّاهم مِمَّا كانوا فيه من البلاء والضَّرَّاء من فِرْعَوْن وقَوْمِه ، إلى التمكين لهم في الأرض، وتفجير عُيون الماء مِن الحَجَر ، وإطعام المَنِّ والسَّلْوى)) .

كُلُّ هذه النِّعَم وغَيرها تُشير إلى عَظَمَة الرحمة الإلهيَّة وسَعَتها. وَلَوْ أرادَ اللَّهُ أن يُحاسِب العبادَ بما اكتسبوه لأحرقهم نتيجة أفعالهم الشريرة ، ولكنَّه سُبحانَه هو العَفُوُّ الرحيم الذي يَقْبَل التَّوبةَ ، ويَعْفُو عن السَّيئات . واللَّهُ تعالى هو أهلُ التَّقْوى وأهلُ المغفرة ، أمَّا العِبَادُ فَهُم أهلُ المعاصي والذُّنُوب.ومعَ هذا، يُنعِم اللَّهُ عليهم بِكُلِّ أنواع النِّعَم، رحمةً بهم، وتفضُّلًا عليهم، وإحسانًا إلَيهم .

وأجدادهم، إذْ أنجاهم مِن آل فِرْعَوْن، وأهلكَ عَدُوَّهم، وأعطاهم التَّوراة، ونَحْو ذلك، قاله الحسن والزَّجَّاج. وإنما مَنَّ عليهم بما أعطى آباءهم، لأنَّ فَخْرَ الآباء فَخْرٌ للأبناء، وعارَ الآباء عَارٌ على الأبناء . والثالث أنها جمع نِعْمَة على تصريف الأحوال . والْمُراد مِن ذِكْرها شُكْرها ، إذْ مَن لم يَشْكُرْ فَمَا ذَكَرَ)) اهـ . وقال القُرطبي في تفسيره (١/ ٣٧٠) : ((قال أرباب المعاني : رَبَطَ سُبحانَه وتعالى بني إسرائيل بِذِكْرِ النِّعمة،وأسقطه عن أُمَّة مُحَمَّد ﷺ، ودَعَاهُم إلى ذِكْره ، فقال : ﴿ فاذْكُرُونِي أذْكُرْكُم ﴾ [البقرة : ١٥٢]، لِيَكُون نظرُ الأُمَم مِن النِّعْمَة إلى الْمُنعِم، ونَظَرُ أُمَّة مُحَمَّد ﷺ مِن الْمُنعِم إلى النِّعْمَة)) .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٧) : ((﴿ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أنعَمْتُ عَلَيْكُم ﴾ أي : بالتَّفَكُّر فِيها والقِيَام بشُكْرها. وتقييدُ النِّعْمَة بهم ، لأنَّ الإنسان غَيُور حَسُود بالطبع، فإذا نَظَرَ إلى مَا أنعمَ اللَّهُ على غَيْرِه حَمَلَه الغَيْرَةُ والحَسَدُ على الكُفْرَان والسَّخَط، وإنْ نَظَرَ إلى مَا أنعمَ اللَّهُ به عليه حَمَلَه حُبُّ النِّعْمَة على الرِّضَى والشُّكْر.وقِيل: أرادَ بها مَا أنعمَ اللَّهُ به على آبائهم مِن الإنجاء مِن فِرْعَوْن ، والغَرَقِ ، ومِن العَفْوِ عن اتِّخَاذ العِجْل ، وعَلَيهم مِن إدراك زَمَن مُحمَّد ﷺ)) .

﴿ وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكم ﴾. وأوْفُوا بعَهْدي الذي عَهِدْتُ إليكم في التَّوراة مِن اتِّباع النبيِّ مُحَمَّد ﷺ، وأطيعوني، ولا تَعصوني، أُوفِ بما ضَمِنْتُ لكم مِن الثَّوَاب، وهو نعيم الجَنَّة . وقد أُمِرُوا بالوفاء بالعَهْد الإلهيِّ المُقدَّس، وعدم نَقْضه . وهذا العهدُ هو الإيمان باللَّه والتزام أوامره، واجتناب نَوَاهيه. وعَهْدُه تعالى أن يُدخِلهم الجَنَّةَ. واللَّهُ لا يُخلِف العَهْدَ، ولا يَنكُث بالوعد. وهذا الوفاءُ بالعهد الإلهيِّ مِن شأنه أن يَمْنَحَهُم شَرَفَ الدُّنيا ، ونعيمَ الآخِرة . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢١): ((﴿ وأوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكم ﴾. قال: بِعَهْدي الذي أخذتُ في أعناقكم للنبيِّ ﷺ إذا جاءكم، أُنْجِزْ لَكُم مَا وَعَدْتُكُم عليه مِن تصديقه واتِّباعه، بوضع ما كان عليكم مِن الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بِذُنُوبكم التي كانت مِن إحداثكم.وقال آخرون : هو الذي أخذَ اللَّهُ عليهم في التَّوراة أنَّه سَيَبعث مِن بني إسماعيل نَبِيًّا عظيمًا يُطيعه جميع الشُّعُوب . والمُراد به مُحَمَّد ﷺ . فَمَن اتَّبَعَه غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَه ، وأدخله الجَنَّةَ، وجَعَلَ له أجْرَيْن . وقد أوردَ الرازي بِشَارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بِمُحَمَّد ﷺ . قال أبو العالية : ﴿ وأوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ . قال : عَهْده إلى عِباده دِين الإسلام ، وأن يَتَّبعوه . وقال الضَّحَّاك عن ابن عباس : ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكم ﴾ . قال : أَرْضَ عنكم ، وأُدْخِلْكُم الجَنَّةَ . وكذا قال السُّدي والضَّحَّاك وأبو العالية والربيع بن أنس)) .

إنَّ بَنِي إسرائيل فيهم الحاكم والمحكوم، والعَالِم والجاهل. وعُلَماؤهم هُم الأحبار الذين يَفهمون النُّصُوصَ الدينية، وينشرونها بين الناس، ويَشرحونها، ويُفَسِّرونها. والإنسانُ العادي لا يَقْدِر على استيعاب النصوص الدينية بشكل كامل ، فهذه العملية بحاجة إلى مَنهج عِلْمي ، وقُدرات ذهنية، ومَلَكَات فِكرية ، لا تَتَوَفَّر إلا لَدَى العُلَمَاء بسبب دراساتهم الواسعة ، وتَبَحُّرهم في مجال العلوم الدينية ، وقضاء أعمارهم في الدراسة والتدريس . وهذه الخصائص غير متوفرة عند السَّوَاد الأعظم من الناس ، بسبب غرقهم في الحياة المادية الاستهلاكية ، وجَمْعِ حُطام الدُّنيا الفاني .

لذلك ، كان العُلَمَاءُ وَرَثَةَ الأنبياءِ ، أي إنَّهُم يَسيرون على خُطى الأنبياء ، ويَحْمِلُون دَعْوَتَهُم إلى الناس ، ويُبلِّغونها كاملةً ، بلا زيادة ولا نُقْصان . وإذا فَسَدَ العُلماءُ فَسَدَ الناسُ . فالعُلماءُ هُم

الرأس ، وإذا زال الرأسُ من الجسد ، مات الجسدُ . والمُلُوكُ حُكَّامٌ على الناس ، والعُلماءُ حُكَّامٌ على المُلُوك ، كما أنَّ العُلَماء هُم الدَّواء لِكُلِّ المُشكلات والأمراض ، وإذا فَسَدَ الدَّوَاءُ فَسَوْفَ تنتشر الأمراضُ بشكل كارثي ، ولن يَتَصَدَّى لها أَحَدٌ ، لذلك فَإنَّ فَسَادَ العَالِمِ هو فَسَادُ العَالَمِ .

ـ وراعي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئبَ عَنها فَكَيْفَ إذا الرُّعَاةُ لَهَا ذِئَاب

ـ يا مَعْشَرَ القُرَّاءِ يا مِلْحَ البَلَد مَا يُصْلِحُ المِلْحَ إذا المِلْحُ فَسَد

واللَّهُ يُذكِّرهم بِنِعَمِه الجليلة التي أسْبَغَهَا عليهم وعلى آبائهم ، وهذا التذكير مِن شأنه بَعْث التَّقْوَى في النُّفُوس الطاهرة ، ومُساعدة الإنسان على التفكير والتَّأمُّل والتَّرَوُّي في اتخاذ القرارات المصيرية ، فقد نَجَّاهم اللَّهُ مِن فِرْعَوْن الطاغية الذي أهلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَفِظَ أنفُسَهم مِن القَتْل . ولا يوجد أكبر مِن حفظ النَّفْس وحمايتها من الهلاك . ومَن أدركَ عَظَمَةَ النِّعَم الإلهيَّة التي يَرَاها بأُمِّ عَيْنَيْه ، فلا بُدَّ أن يَقُوم بواجب شُكْر اللَّه تعالى ، قَوْلًا وفِعْلًا . وبالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ . والشُّكْرُ لا يَكُون باللسان فقط ، بَلْ أيضًا بجميع الجوارح .

والمطلوبُ هو الإيفاء بالعهد (وهو أحد أشكال شُكْر اللَّه تعالى) . أي : اتِّبَاع مُحَمَّد ﷺ خَاتَم الأنبياء ، واللَّبِنَة الأخيرة في البِناء النَّبَوِيِّ المُتماسِك الذي جَعَلَه اللَّهُ على كوكب الأرض مَنَارَةً للحائرين ، ودليلًا للتائهين ، وإنقاذًا للبشريَّة ، وتخليصًا له مِن مأزقها الوُجُودي الحَرِج .

وإذا التزَموا بالعَهْدِ الإلهيِّ المُقَدَّسِ ، فَإنَّ اللَّهَ سَيُكافئهم ، ويُوفِي بعهدهم ، أي : إنَّ اللَّه سَيُنْجِز لهم مَا وَعَدَهم بتصديقِهم للنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ واتِّبَاعِه ، بوضع مَا عليهم مِن الأحمال الثقيلة ، والتَّكاليف الشديدة (الآصَار والأغلال) التي كانت عليهم عُقوبةً ، بسبب جهلهم ، وعِنادهم ، وتَكَبُّرِهم ، وغَطْرَستهم ، وعدم امتثالهم للأوامر الإلهيَّة العظيمة .

ويأتي التَّرهيبُ بعد التَّرغيب : ﴿ وَإِيَّايَ فارْهَبُون ﴾ . خَافُوني في نَقْضِ العَهْدِ ، واحْرِصُوا على طاعتي وعدم مَعْصيتي ، واحذروا مِن مُخَالَفة أَمْرِي . والأمرُ بالخَوْفِ يَتَضَمَّن معنى التهديد. وتقديمُ ضَمير المُتَكَلِّم : ﴿ إيَّايَ ﴾ لإفادة التَّخصيص ، وأنَّ اللَّه وَحْدَه هو الذي يَستحق الخَوْفَ مِنْه .

وعليهم أن يَتَذَكَّروا ما نَزَلَ بآبائهم مِن نَقِمَات ومِحَن ومصائب وكوارث ، وعليهم أن يَتَّعِظُوا بما جَرَى لهم ، ولا يُكَرِّروا نَفْسَ أخطاء آبائهم ، لِئلا يُلاقوا نَفْسَ مصيرهم الأليم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٧) : ((والآية مُتَضَمِّنة للوَعْدِ والوعيدِ ، دَالَّة على وُجوب الشُّكْر ، والوفاء بالعَهْد ، وأنَّ المُؤمن يَنْبغي أن لا يخاف أَحَدًا إلا اللَّهَ تعالى)) .

وقال ابن كثير في تفسيره(١/ ١٢١): ((قال ابن عباس في قَوله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فارْهَبُون ﴾ أي : أُنْزِلُ بكم ما أنزلتُ بِمَن كان قَبلكم مِن آبائكم مِن النَّقِمَات ، التي قد عَرَفْتُم مِن المَسْخِ وغَيْره . وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب . فدعاهم إليه بالرَّغبة والرَّهبة لَعَلَّهُم يَرجِعون إلى الحَق ، واتِّبَاعِ الرَّسُول ﷺ ، والاتِّعَاظ بالقُرآن وزواجره ، وامتثال أوامره ، وتصديق أخباره . واللَّهُ يَهْدِي مَن يَشاء إلى صِرَاط مُستقيم)) .

وفي الدُّرِّ المَنثور للسُّيوطي (١ / ١٥٤) : ((أخرجَ ابنُ إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قَوْلِه : ﴿ يا بَنِي إسرائيلَ ﴾ ، قال : للأحبار من اليهود ، ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أنعَمْتُ عَلَيْكُم ﴾ ، أي : آلائي عِندكم وعِند آبائكم لِمَا كانَ نَجَّاهم بِه مِن فِرْعَوْن وقَوْمِه ، ﴿ وأوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ الذي أَخَذْتُ بأعناقكم للنَّبِيِّ ﷺ إذْ جاءكم ، ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكم ﴾ أُنْجِزْ لَكُم مَا وَعَدْتُكُم عليه بتصديقِكم مَعَه واتِّبَاعِه ، بوضع مَا كان عليهم مِن الإصْرِ والأغلال ، ﴿ وَإِيَّايَ فارْهَبُون ﴾ أن أُنزِلَ بِكُم مَا أنزلتُ بِمَن كانَ قَبْلَكم مِن آبائكم مِن النَّقِمَات)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنِّي فَضَّلْتُكُم على العَالَمِين ﴾ [البَقَرَة : ٤٧] .

فضَّل اللَّهُ بني إسرائيل على العَالَمِين، فقد اختارَ مِن بينهم أنبياء ورُسُلًا ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ، ومَنَحَهم المَجْدَ والمُلْك والسِّيادة . وهذا التفضيلُ كان للآباء ، ومعَ هذا فهو شرفٌ ورِفعة للأبناء ، لأن شرف الأب شرف لابنه . واللَّهُ يُذكِّرهم بِنِعَمِه على آبائهم وأسلافهم ، وتفضيلهم على سائر الأُمَم مِن أهل زمانهم ، كَي يَشكروا اللَّهَ تعالى ، ويلتزموا بأوامره ، ويَجتنبوا نَوَاهيه . وهذا التَّفضيلُ يعني على عَالَمِ زمانهم . وهو من العام الذي أُرِيدَ به الخاص .

وللأسف ، لَمْ يُقَدِّرْ بنو إسرائيل النِّعَمَ الإلهيَّة العظيمة ، ولَم يَعرفوا قيمةَ كُتُبهم ، ومكانةَ أنبيائهم ورُسُلهم . ومَن لَم يَشكُر النِّعْمَةَ سيفقدها ، فالشُّكْر هو الطريقة المُثلى لتحصين النِّعَم وحمايتها من الزوال ، وبالشُّكْر تَدُوم النِّعَم .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٣٠٢) : ((وهذا أيضًا مِمَّا ذكَّرهم جَلَّ ثناؤه مِنْ آلائِه ونِعَمِه عِندَهم، ويعني بِقَوله : ﴿ وأنِّي فَضَّلْتُكُم على العَالَمِين ﴾ أنِّي فَضَّلْتُ أسلافَكم ، فَنَسَبَ نِعَمَه على آبائهم وأسلافهم إلى أنها نِعَم مِنْهُ عليهم ، إذْ كانت مَآثِر الآباء مَآثِر للأبناء ، والنِّعَم عند الآباء نِعَمًا عند الأبناء، لِكَوْن الأبناء من الآباء. وأخرجَ جَلَّ ذِكْرُه قَوْلَه: ﴿ وأنِّي فَضَّلْتُكُم على العَالَمِين ﴾ مَخرَج العُموم ، وهو يُريد به خُصُوصًا ، لأنَّ المعنى: وأنِّي فَضَّلْتُكُم على عَالَمِ مَنْ كُنْتُم بَيْن ظَهْرَيه وفي زمانه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البَقَرَة : ٤١] .

وَصَدِّقُوا بِمَا أنزَلَ اللَّهُ على النَّبِيِّ ﷺ مِنَ القُرْآنِ العظيمِ ، مُوَافِقًا لِمَا مَعَكُم مِنَ التَّوراةِ في أُمُورِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والأخبارِ وَنَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، لأنَّهُم يَجِدُون مُحَمَّدًا ﷺ مَكتوبًا عِندَهم في التَّوراة ، ولا تَكُونوا أوَّلَ مَنْ كَفَرَ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ ، فَحَقُّكُم أن تَكُونوا أوَّلَ مَنْ آمَنَ ، ولأنَّ خَلْقَكُم تَبَعٌ لَكُم فَإثمُهُم عَلَيْكُم،ولا تَستبدلوا بآياتِ اللَّهِ البَيِّنَاتِ التي أنزَلَهَا عَلَيْكُم حُطَامَ الدُّنيا الفانية،وخَافُوا اللَّهَ دُون غَيْرِه .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٨٧) : ((﴿ وَآمِنُوا بِمَا أنزَلْتُ ﴾ يَعْني القُرْآن ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ أي مُوَافِقًا لِمَا مَعَكُم ، يَعْني : التَّوراة ، في التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والأخبارِ وَنَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ . نَزَلَتْ في كَعْب بن الأشرف وأصحابِه مِن عُلماءِ اليَهُودِ وَرُؤَسَائِهِم ، ﴿ وَلا تَكُونُوا أوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ أي : بالقُرْآنِ ، يُريد مِنْ أهْلِ الكِتَابِ ، لأنَّ قُرَيْشًا كَفَرَتْ قبل اليهود بِمَكَّة ، مَعْنَاه : ولا تَكُونوا أوَّلَ مَنْ كَفَرَ بالقُرْآنِ ، فَيُتَابِعكم اليهودُ على ذلك ، فَتَبُوؤا بآثامكم وآثامهم ﴿ وَلا تَشْتَرُوا ﴾ أي : ولا تَستبدلوا ﴿ بآياتي ﴾ ببيان صِفَة مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي : عَرَضًا يسيرًا مِنَ الدُّنيا ، وذلك أنَّ رُؤَساء اليهود وعُلماءَهم كانتْ لَهُم مَآكِل يُصِيبونها مِنْ سَفِلتهم وجُهَّالهم،يَأخذون مِنْهُم كُلَّ عام شَيْئًا مَعلومًا مِنْ زُرُوعِهم وضُرُوعِهم ونُقُودِهم ، فخافوا إنْ هُمْ بَيَّنُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَابَعُوه أن تَفُوتَهم تِلْك المَآكِل ، فَغَيَّرُوا نَعْتَه ، وكَتَمُوا اسْمَه ، فاختاروا الدُّنيا على الآخرة ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ فَاخْشَوْني)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ [البَقَرَة: ٤٢].

ولا تَخلِطوا الحَقَّ المُنْزَلَ مِنَ اللَّه بالباطل الذي تَخترعونه وتَكتبونه حتى يَشْتَبِهَ أحدُهما بالآخَر، ولا تُخْفُوا صِفَةَ النبيِّ مُحَمَّد ﷺ الثابتة في كتابكم (التَّوراة)، وأنتم تَعْلَمُون أنَّه نَبِيٌّ مُرْسَلٌ قد أُنزِلَ عَلَيكم في كِتَابكم ، فَجَحَدْتُم نُبُوَّتَه معَ العِلْمِ به .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٨٧) : ((يقول : لا تَخلِطوا الحَقَّ الذي أنزلتُ عَلَيْكُم مِن صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ بالباطل الذي تَكتبونه بأيديكم ، مِن تَغيير صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . والأكثرون على أنَّه أراد : لا تَلبِسُوا الإسلامَ باليهودية والنَّصرانية)) .

وتَكريرُ " الحَق " في قَوْلِه تعالى : ﴿ تَلْبِسُوا الحَقَّ ﴾ ، وقَوْلِه تعالى : ﴿ تَكْتُمُوا الحَقَّ ﴾ ، لزيادة تَقبيح المَنْهِيِّ عنه ، إذْ إنَّ في التَّصريح مَا لَيْسَ في الضَّمِير مِن التأكيد .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٣) : ((يَقُول تعالى ناهيًا لليهود عمَّا كانوا يَتَعَمَّدونه مِن تَلْبيس الحَق بالباطل ، وتَمْويهه به ، وكِتمانهم الحَق وإظهارهم الباطل : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ ، فَنَهَاهُم عَن الشَّيْئَيْن معًا ، وأَمَرَهم بإظهار الحَق ، والتَّصريح به ، ولهذا قال الضَّحَّاك عن ابن عباس : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ ﴾ ، لا تَخلِطوا الحَقَّ بالباطل ، والصِّدْقَ بالكَذِب . وقال أبو العالية : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ ﴾ ، يَقُول : ولا تَخلِطوا الحَقَّ بالباطل ، وأَدُّوا النَّصِيحةَ لِعِبَادِ اللَّهِ مِن أُمَّةِ مُحَمَّد ﷺ . ويُرْوَى عن سعيد بن جُبَير والرَّبيع بن أنس نَحْوُه . وقال قَتَادة : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ ﴾ ، ولا تَلبِسُوا اليهوديةَ والنَّصرانيةَ بالإسلام ، وأنتُم تَعْلَمُون أنَّ دِينَ اللَّهِ الإسلامُ ، وأنَّ اليهوديةَ والنَّصرانيةَ بِدْعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ . وَرُوِيَ عَن الحَسَن البَصْرِي نَحْو ذلك . وقال مُحَمَّد بن إسحاق : حَدَّثَني مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد عن عِكْرِمة ، أوْ سعيد بن جُبَير عن ابن عباس: ﴿ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ ، أي : لا تَكْتُمُوا مَا عِندَكم مِن المَعرفة بِرَسُولي، وبما جاءَ به، وأنتم تَجِدُونه مَكتوبًا عِندَكم فِيما تَعْلَمُون مِن الكُتُبِ التي بأيديكم . وَرُوِيَ عن أبي العالية نَحْو ذلك،وقال مُجَاهِد والسُّدي وقَتَادة والربيع بن أنس: ﴿ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ . (قُلْتُ) : وتَكْتُمُوا ، يُحْتَمَل أن يكون مَجزومًا ، ويُحْتَمَل أن يكون مَنصوبًا ، أي : لا تَجْمَعُوا بَين هذا وهذا ، كما يُقَال : لا تأكل السَّمَكَ وتَشْرَب اللبنَ . ... . وأنتُم تَعْلَمُون مَا في ذلك مِن الضَّرَر العظيم على الناس ، مِن إضلالهم عن الهُدى المُفْضِي بهم إلى النار إنْ سَلَكُوا مَا تُبْدُونه لهم مِن الباطل المَشُوب بنوع مِن الحَق ، لِتُرَوِّجُوه عليهم . والبَيَانُ : الإيضاح ، وعَكْسُه الكِتْمَانُ وخَلْطُ الحَقِّ بالباطل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاةَ واركَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين ﴾ [البَقَرَة : ٤٣] .

هَذا الخِطَابُ الإلهيُّ لليهود . أمَرَهُمُ اللَّهُ بالصَّلاةِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، ودَفْعِ الزكاةِ إلَيْه ، والركوعِ مَعَ الراكعين مِنَ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّةِ ، أي : الصَّلاة معَ النَّبِيِّ ﷺ وأصْحَابِهِ في جَمَاعَةٍ . والمعنى: أن يُسْلِمُوا ، ويَعْمَلُوا عَمَلَ المُسْلِمين ، ويَكُونوا مَعَهُمْ ومِنْهُم . ومُطْلَقُ الأمْرِ لِوُجُوبِ العَمَلِ . ولا يَخْفَى أنَّ قُوَّةَ المُسْلِمين كَامِنَةٌ في وَحْدَتِهِم وجَمَاعَتِهِم . وَقَدْ خُصَّ الرُّكوع بالذِّكْرِ لأنَّه رُكْنٌ مِنْ أركانِ الصَّلاةِ ، وصَلاةُ اليَهُودِ لا رُكوع فِيها . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٤) : ((أمَرَهُم بِفُروعِ الإسلامِ بَعْدَمَا أمَرَهُم بأُصُولِه.وفيه دليلٌ عَلى أنَّ الكُفَّارَ مُخَاطَبُون بِها.و﴿ الزكاةَ ﴾ مِنْ زَكَا الزَّرْعُ ، إذا نَمَا ، فإنَّ إخراجها يَستجلِب بَرَكَةً في المَالِ ، ويُثْمِر للنَّفْسِ فَضِيلَةَ الكَرَمِ ، أو مِنَ الزكاةِ بمعنى : الطَّهَارَةِ ، فإنَّها تُطَهِّر المَالَ مِنَ الخَبَثِ ، والنَّفْسَ مِنَ البُخْلِ)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ٧٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ واركَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين ﴾ ، أي: صَلُّوا مَعَ المُصَلِّين . قال ابنُ عَبَّاس : يُريد مُحَمَّدًا ﷺ والصَّحَابَةَ ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ــ . وقِيل : إنَّما ذُكِرَ الرُّكوع ، لأنَّه لَيْسَ في صَلاتِهِم رُكوع ، والخِطَابُ لليَهُود . وفي هذه الآيةِ دَليلٌ عَلى أنَّ الكُفَّارَ مُخَاطَبُون بالفُروعِ ، وَهِيَ إحدى الروايتَيْن عَن أحمد ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم وَأَنتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ [البَقَرَة : ٤٤] .

يأمرون الناسَ بالخَير ويَنْسَوْنَ أنفُسَهم. أي إنَّ كلامهم يتعارض معَ واقع حالهم. وهذا الانفصام في الشخصية يُؤَدِّي إلى ضياع البُوصلة الإنسانية، وتَحَوُّل الفرد إلى كِيان مُفرَغ مِن المعنى ، وتُصبح الكلماتُ مُجرَّد شِعارات رنَّانة ، لا تنعكس على السلوك البشريِّ والحياةِ العامَّة .

وهذه الآفَةُ موجودة في كُلِّ العُصور ، وتَكمُن خطورتها في انشغال المجتمع بالكلام دون العمل ، واختفاء العِلْم في حِبر الكُتب دون القُدرة على الاستفادة مِنه على أرض الواقع . والنهضةُ الاجتماعية في شتَّى المجالات لا تَحصل إلا بالعمل بالعِلْم النافع ، أي تحويل العِلْم إلى واقع ملموس ، وتحويل النظريات الفكرية إلى تطبيقات في الحياة المُعاشة ، تُساهم في رفع مستوى الإنسان روحيًّا وماديًّا ، وجَعْل المجتمع أكثر إشراقًا وتقدُّمًا . والعِلْمُ المُجَرَّدُ من العمل يَقُود إلى غياب الثقة بين الفرد ونَفْسِه ، وبين الفرد والجماعة ، فَيَتَحَوَّل المجتمعُ إلى جُزُر متباعدة بلا هُوية ولا رابط بينها ، مشغولة بالجِدال العقيم ، ومحرومة مِن العمل المُفيد . والمِحَكُّ الحقيقيُّ هو العمل، لأن الكلام سَهْلٌ لا يحتاج إلى جهود جبَّارة وخُطط تنموية وبرامج إصلاح ومشاريع تطوير ، ولكن التطبيق العملي على أرض الواقع في غاية الصعوبة ومُنتهى التعقيد .

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأمُرُ الناسَ بالتُّقَى طَبِيبٌ يُدَاوي الناسَ وَهُوَ عَلِيلُ

والاستفهامُ في الآية: ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ﴾ معناه التَّوبيخ والتقريع. والخطابُ الإلهيُّ لليهود.

كيفَ تأمرون الناسَ بالخَير والحق والطاعة والإيمان بمُحمَّد ﷺ ، وأنتم ثابتون على الشر ، ومُتمسِّكون بالباطل، ومُلازِمون للمعصية ، ومُكذِّبون بمُحمَّد ﷺ ، وتتركون أنفسَكم فلا تأمرونها بذلك ، وأنتم تقرؤون وتَدْرُسون التَّوراةَ وفيها صِفة مُحمَّد ﷺ ، وتَعْلَمُون ما فيها مِن الوعيد على مُخالَفةِ القَوْلِ الفِعْلَ . أفلا تَعقِلون أنه حق فَتَتَّبعونه ؟! . وكُلُّ طاعة للَّه تُسمَّى بِرًّا . وقد كان الرَّجل من اليهود يقول لقريبه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر مُحمَّد ﷺ : اثبُت على دِينه ، فإن أمره حق، وقَوْله صِدق .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (١/ ١٥٦) : وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال : ((نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة ، كان الرَّجل منهم يقول لصِهْره ولذوي قرابته وَلِمَن بَيْنه وبَيْنهم رَضاع من المسلمين : اثبت على الدِّين الذي أنتَ عليه ، وما يأمرك به هذا الرَّجل _ يَعنون به مُحَمَّدًا _، فإن أمره حق ، وكانوا يأمرون الناس بذلك ، ولا يَفْعَلُونه)) .

وَصَفْتَ التُّقى حتى كأنَّكَ ذُو تُقَى ... ورِيحُ الخَطَايا مِن ثِيابك تَسْطَعُ

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٩٦) : ((عن ابن عباس : ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم وَأَنتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ . أي: تَنْهَوْنَ الناسَ عن الكفر بما عِندكم مِن النُّبُوَّة والعُهدة من التوراة ، وتتركون أنفُسَكم . أي : وأنتم تكفرون بما فيها مِن عَهْدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقُضون مِيثاقي، وتَجْحَدون ما تَعْلَمُون مِن كتابي... . عن ابن عباس في قَوله: ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ﴾ . يقول: أتأمرون الناسَ بالدخول في دِين مُحمَّد ﷺ وغَير ذلك مِمَّا أُمِرْتُم بِه مِن إقام الصَّلاة ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم ﴾ ... . _ وقال الطبري _: أتأمرون الناس بطاعة اللَّه وتتركون أنفسكم تعصيه ؟، فَهَلَّا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم ؟ مُغَيِّرهم بذلك ، ومُقَبِّحًا لهم قَبيح ما أَتَوْا به . ومعنى نِسْيانهم أنفُسَهم... تَركوا طاعة اللَّه فتركهم اللَّهُ من ثوابه ... . يَعني بقَوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ أفلا تَفْقَهون وتَفْهمون قُبْحَ ما تَأتون مِن معصيتكم رَبَّكم التي تأمرون الناس بخِلافها ، وتَنْهَوْنَهم عن ركوبها ، وأنتم راكبوها ، وأنتم تَعْلَمُون أن الذي عليكم من حق اللَّه وطاعته واتِّباع مُحمَّد والإيمان به وبما جاء به ، مِثل الذي على مَن تأمرونه باتِّباعه ؟ ... . عن ابن عباس : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ يقول : أفلا تَفْهَمون ؟ . يَنهاهم عن هذا الخُلُق القبيح . قال أبو جعفر _ الطبري _ : هذا يدل على صِحَّة ما قُلنا مِن أمرِ أحبار يهود بني إسرائيل غَيْرَهم باتِّباع مُحمَّد ﷺ ، وأنهم كانوا يقولون : هو مَبعوث إلى غَيْرنا)) اهـ . وما أجملَ قَول أبي الأسْوَد الدُّؤَلي :

يا أيُّهَا الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وأنتَ سَقِيمُ
وأراكَ تُصْلِحُ بالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أبدًا وأنتَ مِنَ الرَّشَادِ عَقِيمُ
لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأتِيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فأنتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ ويُقْتَدَى ... بالعِلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((يُجَاءُ بالرَّجُل يَوْمَ القِيامة ، فيُلقَى في النار ، فَتَنْدَلِقُ أقتابُه في النار، فَيَدُور كما يَدُور الحِمَارُ بِرَحَاه، فيجتمع أهلُ النار عَلَيه، فيقولون: أَيْ فُلان، مَا شَأنُك ؟، أَلَيْسَ كُنتَ تأمرُنا بالمَعروف وتَنهانا عَن المُنكَر ؟ ، قال : كُنتُ آمُرُكُم بالمَعروف ولا آتِيه ، وأنهاكم عَن المُنكَر وآتِيه)) [٦٩] .

يُؤْتَى بالرَّجُل يومَ القِيامة ، فَيُلْقَى في النار ، فَتَخرج أمعاؤه مِن بَطنه خُروجًا سريعًا مِن شِدَّة الحَرِّ وشِدَّةِ العذاب ، فَيَدُور بأمعائه على هذه الحالة في النار كَدَوَران الحِمَار حَول رَحَاه ، فَيجتمع أهلُ النارِ حَوْلَه ، فَيَسألونه عن سبب العذاب الذي هُوَ فيه وقد كان في الدُّنيا يَأمرهم بالمَعروف ، ويَنهاهُم عن المُنكَر ، فأخبرهم بأنَّه كان يَأمر بالمَعروف ولا يَفعله ، ويَنهاهم عن المُنكَر ويَفعله .

يُوضِّح الحديثُ خُطورةَ عدم تطابق القَول والفِعل . وهذا التناقض الصارخ يُؤَدِّي إلى عواقب وخيمة . ففي الدنيا يغدو الفردُ مُنفصِمَ الشخصية ، لا يشعر بحلاوة الإيمان وتطبيقاته العملية على أرض الواقع ، وهذا يجعل الفردَ ضائعًا في مَتاهة القلق والحَيْرة وعدم الاستمتاع بالحياة .

وفي الآخرة سوف يُلاقي جزاءَ سيِّئاته، فقد كان يُرشد الآخرين إلى المعروف، وهو يَغوص في المُنكَر . ومَثَلُه كَمَثَل إنسان يُرشِد الآخرين إلى الطريق الآمِن ، ويقع هو في الحُفرة .

والحديثُ يَحْمِل وعيدًا شديدًا وتخويفًا رهيبًا لكل شخص يُخالِف قَوْلُه فِعْلَه.وعلى الإنسان أن لا يُكذِّب نَفْسَه بِنَفْسِه،ولا يُكثِّر حُجَجَ اللَّه عليه،ويجب أن يسعى جاهدًا لتطهير نَفْسه من الذُّنوب والآثام . وفي نَفْس الوقت، يُرشِد الآخرين إلى طريق الإيمان والعبادات والطاعات . والمُسلم مِرْآة أخيه ، وهو قُويٌّ بإخوانه . وإذا ارتكبَ ذَنْبًا أو اقترفَ مُنْكَرًا ، فليرجع إلى اللَّه بالتَّوبة الصادقة .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإنها لَكَبِيرةٌ إلا عَلى الخاشِعِين ﴾ [البَقَرَة: ٤٥].

لا يُمكن للإنسان أن يسير في طريق العبادة إلا بالصَّبْر على أداء الفرائض والسُّنَن ، وتثبيتِ نَفْسِه على الطاعة ، ومَنْعِها مِن الحرام ، وهذا لا يتأتَّى إلا بالاستعانة بالصَّبْر الذي قُدِّمَ ذِكْرُه على الصَّلاة ، لأنَّ الصَّبْر هو مِفتاح العبادات ، وبدونه لا يمكن أداء أيَّة عبادة .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : أنَّه جاءه نَعْيُ بعض أهله وهو في سَفَر، فصلى ركعتين، ثُمَّ قال : ((فَعَلْنَا مَا أمَرَ اللَّهُ ، استعينوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ)) [٧٠] .

---

٦٩ متفق عليه.البخاري (٣/ ١١٩١) برقم (٣٠٩٤) ، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٩) .

٧٠ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٢٩٦) برقم (٣٠٦٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

هذا هو التَّطبيق العملي للأوامر الإلهيَّة التي لَيْسَتْ شِعَاراتٍ على الورق . إنها مَنهجٌ متكامل وشامل لصلاح الفرد وإصلاح المجتمع ، فالصَّبْرُ إنْ لَمْ يَتحقق على أرض الواقع وعِند الصَّدَمَات والأزمات والكوارث والمصائب ، فعندئذ يكون الفردُ كالحِمَار الذي يَحْمِل أسفارًا ، يَحْمِلُها على ظَهْره، لكنَّه لا يَفْهَم مَا فِيها ، ولا يَعْمَل بها . إنَّ حقيقة الصَّبْر تَتَجَلَّى في مَنْعِ النَّفْسِ مِنْ شَهَوَاتها المُحرَّمة ، ورَفْضِ اتِّبَاعِ هَوَاها .

ومعنى الآية : استعينوا بالصَّبْر على طاعة اللَّه ، وتطبيق أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، وبإقامة الصلاة التي تنهى عن الفَحشاء والمُنكَر. والصلاة عبادة عظيمة شاقَّة وثقيلة إلا على المؤمنين المُتواضعين للَّه تعالى ، والمُستسلمين لأحكام شريعته ، والمُصَدِّقين بوعده ووعيده ، والذليلين أمام عَظَمَته وكِبريائه ، والخائفين مِن عذابه .

وقِيل إنَّ المَقصود بالصَّبْر في الآية هو الصَّوم ، ومِنه قِيل لرمضان شهر الصَّبْر . ووَفْق هذا القَول ، فإنَّ تخصيص الصَّوم والصَّلاة بالذِّكْر لعلاقتهما الوثيقة ، وتناسبهما الواضح، فالصَّوْمُ يَمنع الإنسان مِن الشَّهَوَات ، ويُزهِّد في الدُّنيا . والصَّلاةُ تَنهَى عن الفَحشاء والمُنكَر .

وقال القُرطبي في تفسيره (١/ ٤١٤) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وإنها لَكَبِيرةٌ ﴾ . اختلفَ المُتَأوِّلون في عَوْد الضَّمير مِن قَوله : ﴿ وإنها ﴾ ، فَقِيل : على الصلاة وَحْدَها خاصة ، لأنها تَكبُر على النُّفُوس ما لا يَكبُر الصَّوم . والصَّبْر هُنا : الصَّوم ، فالصلاة فيها سَجْن النُّفُوس ، والصَّوم إنَّما فيه مَنْع الشَّهْوة ، فَلَيْسَ مَن مَنَعَ شَهْوَةً واحدة أوْ شَهوتين ، كَمَن مَنَعَ جميعَ الشَّهَوات ، فالصائم إنَّما فيه مُنِعَ شَهوة النِّساء والطعام والشراب،ثم ينبسط في سائر الشَّهَوَات مِن الكلام والمشي والنظر ، إلى غَير ذلك مِن مُلاقاة الخَلْق ، فيتسلَّى بتلك الأشياء عَمَّا مُنِعَ ، والمُصَلِّي يَمتنع مِن جميع ذلك، فجوارحه كُلُّها مُقيَّدة بالصلاة عن جميع الشَّهَوَات ، وإذا كان ذلك ، كانت الصلاة أصعب على النَّفْس ، ومُكَابدتها أشد ، فلذلك قال : ﴿ وإنها لَكَبِيرةٌ ﴾)) .

والصلاةُ خفيفةٌ على الخاشعين ، لأنَّهُم مُخْلِصُون للَّه تعالى ، ومُتعلِّقون بالجَزَاء والنعيم في يوم القِيامة ، ومُسْتَغرِقُون في مُناجاة اللَّه تعالى ، وهذه اللذة أنْسَتْهُم شِدَّةَ الصَّلاةِ وَتَعَبَهَا ومَشقتها ، لذلك تَسْهُل عليهم الصلاة . وفي الصلاة تتجلَّى لَذَّة العِبادة ، ويتَّضح الاستمتاع بالطاعة .

وفي الحديث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((... ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاة)) [٧١] .

---

٧١ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ١٧٤) برقم (٢٦٧٦) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

جُعِلَتْ سَعادةُ النبيِّ ﷺ ومُتعته واستمتاعه في الصلاة ، لذلك ، فهو حريصٌ عليها ، لا يُريد مُفارقتها ولا الخروج مِنها . والإنسانُ حريص على ما يُسْعِده ، ويَتمسَّك بِه ، ولا يحب تَرْكَه .

والحديثُ يُوضِّح عظيمَ مَحَبَّة النبيِّ ﷺ للصَّلاة ، وذلك لِمَا فِيها مِن القُرب مِن اللَّه تعالى ، فلا شيء يُسعِده ويُدخِل عليه السُّرُورَ كالصَّلاة . وقُرَّةُ العَين يُعبَّر بها عن المَسَرَّةِ ورُؤيةِ ما يُحِبُّه الإنسان. وفيه: بيان عِظَم قَدْر الصَّلاة عند النبيِّ ﷺ، وأنَّها يَنبغي أن تَكُون الأَوْلَى عِند كُلِّ مُسْلِم .

لقد صارت الصَّلاةُ صِفَةً للنبيِّ ﷺ ، وحالًا له ، يجد فيها فَرَحَه وسعادته ولَذَّتَه ونعيمه وهَنَاءه . والعبد يتقرَّب إلى اللَّه بالصلاة ، لذلك يُعظِّم قَدْرَها ، ويَحرِص عليها أشدَّ الحِرص ، وهي مَحَلُّ القُربة والمُناجاة ، ولا واسطة في الصَّلاة بين العبد ورَبِّه ، إذْ إنَّ العبدَ في الصَّلاة يُكلِّم اللَّهَ مُبَاشَرَةً.

وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٣٤٥) : ((ولا شيء أقَر لِعَيْنِ العبد مِن الصلاة ، ولهذا جاء في حديث أنس المرفوع : " وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاة " . أخرجه النَّسَائيُّ وغَيْرُه بسند صحيح . ومَن كانت قُرَّةُ عَينه في شيء ، فإنَّه يَوَدُّ أن لا يُفَارقه ولا يَخرُج منه ، لأنَّ فِيه نَعِيمَه ، وبه تَطِيب حَيَاتُه ، وإنَّما يَحْصُل ذلك للعابد بالمُصَابَرَة على النَّصَب (التَّعَب) ، فإنَّ السالك غَرَض الآفات والفُتُور)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الصَّلاة تُورِث الخُشُوعَ والتواضعَ واللين،وتَنْفِي الكِبْرَ والتَّكَبُّرَ والعِنَادَ والغُرُورَ . والخُشُوعُ هو الإخبات والتواضع. والخُشُوعُ مكانه القلب، وتَظهُر آثارُه على الجوارح .

والصَّبْرُ والصَّلاةُ يُعِينان على فِعْلِ الطاعات ، وتَرْكِ المُحَرَّمات . وتَمَّ تخصيصُ الصَّلاة بالذِّكْر لِمَكانتها العظيمة ، ومَنْزلتها الرفيعة ، وتنويهًا بشرفها وفضلها وعَظَمَتها . والصَّلاةُ تُمثِّل أعظم دَرَجَاتِ الصَّبْرِ ، لأنَّ جَوَارحَ المُصَلِّي وأعضاءَه وحَوَاسَه كُلَّهَا مُقيَّدة بالصلاة ، وهذا سبب شِدَّة الصلاة ومشقتها ، فهي شديدة على النَّفْس . ولا بُدَّ مِن بَذل جُهد كبير في مُكابدتها وتحمُّلها والصَّبْر عليها . والصلاةُ هي عَمود الدِّين ، وأعظمُ أركان الإسلام بعد الشَّهادَتَيْن . والصَّلاةُ راحةُ المؤمن ، ومَنبَع السَّكِينة والطُّمَأنينة . والعبدُ أثناء الصلاة يُكلِّمُ اللَّهَ ، ويَدْعُوه.وهي الصِّلَةُ الوثيقة بين العبد ورَبِّه . والشخصُ الذي لا يُصلِّي، قَد قَطَعَ العلاقةَ بَينه وبَين اللَّه تعالى . والنبيُّ ﷺ كانَ إذا تَضَايَقَ مِن أمرٍ ، أَوْ أُصِيبَ بالحُزْن والغَمِّ ، لَجَأ إلى الصلاة .

عن حُذَيفة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ صَلَّى [٧٢] .

---

٧٢ رواه أبو داود في سُننه (١/ ٤٢٠) برقم (١٣١٩) . وحسَّنه الحافظ في الفتح (٣/ ١٧٢) . =

إنَّ الصَّلاة صِلَة بين العبد ورَبِّه ، وهي عبادة عظيمة فيها تَصفُو الرُّوحُ مِن الكَدَر والمُنَغِّصَات النَّفْسِيَّة ، وفيها يقف العبدُ بَين يَدَي اللَّه ، ويَدعُوه لتفريج هُمُومه ، فهو وَحْدَه القادر على إزالة الهَمِّ والحُزن وتسهيل الصِّعَاب . وقد كان النبيُّ ﷺ إذا أحزنه أمرٌ ، أوْ أصابه بالهَمِّ ، لَجَأ إلى الصلاة ، سَوَاءٌ كانت فرضًا أَمْ نافلةً،لأنَّ في الصلاة راحةً وقُرَّةَ عَين له، وهذا مِصداق قَوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ ﴾ وهذا مِن تعليم النبيِّ ﷺ لأُمَّته، فإنَّه يُعلِّمنا حُسْنَ التَّوكُّل على اللَّه، واللُّجُوءَ إليه في كُلِّ الأمُور . وفي الحديث : الحَثُّ على اللُّجُوء إلى الصلاة عند المصائب .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٥٢٧) : ((كان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَه أمْرٌ فَزِعَ إلَيها ، _ يعني الصَّلاة _ . والصَّلاةُ مَجْلَبَة للرِّزق ، حافظة للصِّحة ، دافعة للأذى ، مَطْرَدَة للدَّاء ، مُقوِّية للقلب ، مُفرِّحة للنَّفْس ، مُذهِبة للكَسَل ، مُنشِّطة للجَوَارح ، مُمِدَّة للقُوى،شارحة للصَّدْر ، مُغذِّية للرُّوح ، مُنوِّرة للقلب ، مُبيِّضة للوَجْه ، حافظة للنِّعْمَة ، دافعة للنِّقْمَة ، جالبة للبَرَكَة ، مُبْعِدَة للشَّيطان ، مُقرِّبة مِن الرَّحمن . وبالجُملة فلها تأثير عجيب في حِفظ صِحَّة القلب والبَدَن وقُوَاهما ، ودفع المَواد الرَّديئة عنهما ، سِيَّما إذا وُفِّيَتْ حَقَّهَا مِن التكميل ، فما استدفعتَ أذى الدَّارَيْن ، واستجلبتَ مصالحهما بِمِثْلها ، وسِرُّها أنها صِلَة بين العبد ورَبِّه ، وَبِقَدْر الوَصْلَة يُفْتَح الخَير ، وتُفَاض النِّعَم ، وتُدفَع النِّقَم)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٧٥و٧٦) في تفسير الآية : ((الأصل في الصَّبْر الحَبْس،فالصابر حابس لِنَفْسِه عَن الجَزَع،وسُمِّيَ الصائم صابرًا لِحَبْسِه نَفْسَه عن الأكل، والشُّرب، والجِمَاع، والمصبورة البهيمة تُتَّخَذ غَرَضًا ، وقال مُجاهد : الصبر هاهُنا الصَّوم. وفيما أُمِرُوا بالصبر عليه ثلاثة أقوال : أحدها أنه أداء الفرائض ، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني أنه ترك المعاصي، قاله قَتادة. والثالث عدم الرئاسة ، وهو خطاب لأهل الكتابَيْن . ووجه الاستعانة بالصلاة أنه يُتلَى فيها ما يُرغِّب في الآخرة، ويُزهِّد في الدُّنيا . قَوْلُه تعالى : ﴿ وإنها ﴾ في المُكَنَّى عنها ثلاثة أقوال : أحدها أنه الصلاة ، قاله ابن عباس والحَسَن ومُجاهد والجُمهور . والثاني أنها الكعبة والقِبلة، لأنه لَمَّا ذَكَرَ الصَّلاةَ دَلَّتْ على القِبلة ، ذَكَره الضَّحَّاك عن ابن عباس ، وبه قال مُقاتل . والثالث أنَّها الاستعانة ، لأنَّه لَمَّا قال : ﴿ وَاسْتَعِينُوا ﴾ دَلَّ على الاستعانة ، ذَكَرَه مُحَمَّد بن القاسم النَّحْوي)) .

=وفي تاج العروس (١/ ٤٠٦) : ((حَزَبَهُ الأمْرُ يَحْزُبُه حَزْبًا : نَابَه ، أَي : أَصَابَهُ واشْتَدَّ عليه ، أَوْ ضَغَطَهُ فَجْأَةً ، وفي الحديثِ : " كَانَ إذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى " ، أَي : إذَا نَزَلَ به مُهِمٌّ وأَصَابَه غَمٌّ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَظُنونَ أنهم مُلاقُو رَبِّهِم وأنهم إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ [البَقَرَة : ٤٦] .

إنَّ الإنسانَ مهما دار في هذه الحياة الدنيا ، وتقلَّبَ فيها ، فسوفَ يَرجع _ رَغْمَ أنفه_ إلى اللَّه ، لأنه مخلوق مقهور في قبضة خالقه ، ولا أحد يَهْرب مِن اللَّه ، الذي يُهيمن على كُل المخلوقات ، ويُسيطر عليها ، والدنيا والآخرة كِلتاهما تحت إرادته ومشيئته . والمقصود بالظن في الآية هو اليقين لا الشَّك ، لأن الشاك في مُلاقاة اللَّه كافر . والعربُ قد تُسمِّي اليقين ظَنًّا ، والشَّك ظَنًّا . والظن من الأضداد ، يكون شَكًّا ويقينًا ، كالرجاء يَكون خَوْفًا وأملاً وأمْنًا .

وهؤلاء المؤمنون الصادقون في إيمانهم يُوقنون أنهم مبعوثون بعد الموت للحساب،وأنهم راجعون إلى اللَّه خالقهم ، فيجزيهم بأعمالهم. إنهم مُصَدِّقُون بالبعث والحساب والرجوع إلى اللَّه في الآخرة . وهو وَحْدَه يَمْلِك أمْرَهم ، ويُقَرِّر مصيرَهم .

إنهم يتوقعون لقاءَ اللَّه ، والحصول على ثوابه وكرامته ، ويَطمعون في أجره ومغفرته وإحسانه . وبما أن الظن مُشابِه للعِلْمِ في الرُّجْحَان، أُطْلِق الظن على العِلم ، لاشتراكهما في معنى التوقع .

إنهم يَعلمون ويُوقنون بحتمية لقاء اللَّه والجزاء ، لذلك يَعْمَلون لذلك اليوم باجتهاد ونشاط ، أمَّا الكافر بالبعث الذي لا يُصدِّق بالجزاء،ولا يَرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، ولا يُؤمن بجنة ولا نار، فسوفَ يكون ذلك اليوم شديد الصعوبة عليه ، لأنه قادَ نَفْسَه إلى الخلود في عذاب النار .

وفُسِّرَ لقاء اللَّه برؤيته بلا كَيْف ، معَ تَنْزيه اللَّه عن كُلِّ ما لا يليق به . وقال أبو السعود في تفسيره(١/ ٩٨):((﴿ الذينَ يَظُنونَ أنهم مُلاقُو رَبِّهِم وأنهم إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ أي:يَتَوَقَّعُون لِقَاءَه تعالى ونَيل ما عنده من المَثوبات.والتَّعَرُّضُ لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة إليهم، للإيذان بِفَيَضَان إحسانه إليهم ، أوْ يَتَيَقَّنون أنَّهم يُحشَرون إليه للجزاء، فيعملون على حَسَب ذلك رغبةً ورهبةً ، وأمَّا الذين لا يُوقنون بالجزاء ، ولا يَرجون الثواب ، ولا يَخافون العقاب ، كانت عليهم مشقة خالصة ، فَتَثْقُل عليهم كالمنافقين والمُرائين.فالتَّعَرُّضُ للعنوان المذكور للإشعار بِعِلِّية الرُّبوبية والمالكيَّة للحُكْمِ)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ ولا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ ولا هُم يُنصَرون ﴾ [البَقَرَة : ٤٨] [٧٣] .

---

٧٣ قال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٩) : ((وقد تمسَّكت المعتزلة بهذه الآية على نَفْي الشفاعة لأهل الكبائر ، وأُجِيب بأنها مخصوصة بالكُفَّار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة ، ويُؤَيِّده أن الخطاب معهم، والآية نَزَلَتْ رَدًّا لِمَا كانت اليهود تَزعُم أن آباءهم تَشفَع لهم)) .

وخافوا عذابَ يَوْمِ القِيامةِ وعِقَابَه وأهوالَه الشديدة ، وهذا أمرٌ معناه الوَعيد . وتَنكيرُ ﴿ يَوْمًا ﴾ للتَّهويل ، أي : يَوْمًا شديدَ الهَوْل . وفي هذا اليَوم الرهيب ، لا تَقْضِي نَفْسٌ عن أُخرى شيئًا مِن الحُقوق، ولا تَدْفَع عنها شيئًا، ولا يُغْني أحد عَن أحد . وتَنكيرُ النَّفْسِ : ﴿ نَفْسٌ عَن نَفْسٍ ﴾ لِيُفيد العُموم والإقناط الكُلِّي، وتَنكير ﴿ شَيْئًا ﴾ للتَّقليل والتَّحقير، أي: شيئًا يسيرًا حقيرًا .

ولا تُقْبَل شَفاعة في نَفْس كافرة باللَّهِ أبدًا ، ولا يُقْبَل مِنها فِدَاء . وسُمِّيَ الفِدَاءُ عَدْلًا ، لأنَّه يُعَادِل المُفَدَّى ، ولا هُم يُمنَعون مِن عذاب اللَّه تعالى ، ولَيْسَ لَهُم مَنْ يُنقِذهم مِن عِقَابه الأليم .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٠٤) : ((﴿ واتَّقُوا يَوْمًا ﴾ ، واحْذَرُوا ، واجْتَنِبُوا عِقَابَ يَوم ﴿ لا تَجْزي ﴾ لا تَقْضي ولا تُغْني ﴿ نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا ولا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ ﴾ ، أي : لا يَكُون شفاعة فَيَكُون لها قَبول، وذلك أن اليهود كانوا يقولون : يَشْفَع لَنَا آباؤُنا الأنبياءُ ، فآيَسَهُمُ اللَّهُ تعالى عن ذلك ، ﴿ ولا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ ﴾ فِدَاء ، ﴿ ولا هُم يُنصَرون ﴾ يُمْنَعُون مِن عَذاب اللَّهِ تعالى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا بَنِي إسرائيلَ قَد أنجَينَاكُم مِن عَدُوكُم وواعَدناكُم جَانِبَ الطُّورِ الأيمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوى ﴾ [طه : ٨٠] .

الخِطَابُ الإلهيُّ لبني إسرائيل بعد إخراجهم من البحر وإغراق فِرْعَوْن وجُنودِه ، وهُم يَنظرون إليهم سُعَداء فَرِحين . واللَّهُ يُذكِّر بني إسرائيل بِنِعَمِه العظيمة عليهم ، كَي يَشكروه ، ويُطيعوه ، ولا يَعصوه، فقد أنقذهم مِن فِرْعَوْن وجُنوده ، الذين عذَّبوهم وأهانوهم واستعبدوهم واحتقروهم ، وذبَّحوا أبناءهم ، واسْتَحْيَوْا نساءهم .

ويَجوز أن يكون الخِطَابُ الإلهيُّ لليهود الموجودين في زمن مُحَمَّدٍ ﷺ، وخُوطِبوا بما أنعمَ اللَّهُ به على آبائهم وأسلافهم الذين كانوا في زمن مُوسى ﷺ . وذلك لأن النِّعمة على الآباء نِعمة على الأبناء ، وشرفُ الأب شرف لابنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢١٧) : ((يَذكر تعالى نِعَمَه على بني إسرائيل العِظَامَ ، ومِنَنَه الجِسام ، حيث أنجاهم من عدوهم فِرْعَوْن،وأقرَّ أعْيُنَهم مِنْه ، وهُم يَنظرون إليه وإلى جُنده ، قد غَرقوا في صبيحة واحدة لَمْ يَنْجُ منهم أحد)) .

﴿ وواعَدناكُم جَانِبَ الطُّورِ الأيمَنَ ﴾. وَعَدَ اللَّهُ مُوسى للمُناجاة وإنزال التَّوراة عليه جانب طُور سَيناء الأيمن ، مِن أجل مصلحة بني إسرائيل . لذلك خُوطِبوا بِه ، ونُسِبَت المُوَاعَدَة إليهم . إذ إن إنزال التَّوراة فيه منفعة بني إسرائيل وصلاحهم دينيًّا ودُنيويًّا ، وسعادتهم في الدَّارَيْن. والتَّوراةُ كتابٌ

سماويٌّ عظيم أنزله اللَّهُ على النبيِّ مُوسى ﷺ ، فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية ، لهداية بني إسرائيل وإرشادهم وتَوجيههم إلى الحق والهدى والصواب . والنبيُّ مُوسى ﷺ أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق . والتَّوراةُ هو الكتاب السماويُّ الأساسيُّ لبني إسرائيل ، والإنجيل تابعٌ له ، كما أن عيسى تابعٌ لمُوسى _ عليهما الصلاة والسلام _ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢١٧) : ((ثُمَّ إنه تعالى وَاعَدَ مُوسى وبني إسرائيل بَعد هلاك فِرْعَوْن إلى جانب الطُّور الأيمن ، وهو الذي كلَّمه اللَّهُ تعالى عليه ، وسألَ فيه الرؤية ، وأعطاه التَّوراة هنالك . وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العِجْلَ)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٦٣) : ((وذلك أن اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَ مُوسى أن يأتيَ هذا المكان ، ويختار سبعين رجلًا يَحضرون معه لنزول التَّوراة ، وإنما نَسَبَ اليهم المُوَاعَدَة ، لأنها كانت لِنَبِيِّهم ونُقَبائهم ، وإليهم رَجَعَتْ منافعُها التي قام بها شَرْعُهم ودِينُهم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٠٦) : ((و﴿ الأيمَنَ ﴾ نُصِبَ لأنه نَعْت للجانب، وليس للجبل يمين ولا شِمال . فإذا قِيل : خُذ عن يمين الجبل، فمعناه: خُذ على يمينك مِن الجبل. وكان الجبل على يمين موسى إذْ أتاه)) .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوى ﴾. لقد تفضَّلَ اللَّهُ على بني إسرائيل، وأكرمهم، وأحسنَ إليهم، بأن نزَّل عليهم في التِّيه المَنَّ (حَلْوى كانت تَنزل عليهم من السماء) والسَّلْوى (طائر يَسقط عليهم فيأكلون مِنه حَسَب الحاجة إلى الغد).وسُمِّيَ اللحم سَلْوى لأنه يُتسلَّى به عن جميع الطعام.

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ١٧١) : ((وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المَنُّ ينزل عليهم بالليل على الأشجار ، فَيَغْدُون إليه ، فيأكلون منه ما شاؤوا . والسَّلْوى طائر شبيه بالسُّمَانَي ، كانوا يأكلون مِنْهُ ما شاؤوا)) .

واللَّهُ تعالى لم يترك بني إسرائيل للهلاك والضياع والمُوت جوعًا ، بل أنعمَ عليهم بالمَنِّ والسَّلْوى تفضُّلًا مِنه عليهم ، ورحمةً بهم ، وإحسانًا إلَيهم . واللَّهُ أرحم بالعباد مِن أُمَّهاتهم ، يفتح لهم أبوابَ الخير والنعيم والسعادة على الرَّغْم من تقصير الناس ، وعَجْزهم عن شُكر اللَّه حَقَّ الشُّكر . واللَّهُ هو أهل التقوى وأهل المغفرة . ولو أراد سُبحانَه أن يُعامل الناس بما هُم أهْلُه (وهُم أهل الذُّنوب والمعاصي) لَجَعَلَ حياتهم جحيمًا لا يُطاق .

وفي الآيةُ يَظهر تَرتيب النِّعَم بشكل بديع ومُحكَم : أ _ نِعمة الإنجاء (الإنقاذ مِن العَدُوِّ) . ب_ النِّعْمَة الدِّينية (المُوَاعَدَة جانب الطُّور الأيمن) . ج _ النِّعْمَة الدُّنيوية (المَن والسَّلْوى) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ [طه : ٨١] .

كُلُوا يا بَنِي إسرائيل مِنَ الحَلالِ اللذيذِ الذي أنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُم ، ولا تَجْحَدُوا النِّعْمَةَ ، ولا تَحْمِلَنَّكُم السَّعَةُ والعافيةُ على العِصْيَان لأمْرِ اللَّهِ ، فَيَنْزِل عَلَيْكُم عَذابُ اللَّهِ الشديدُ ، وَمَنْ يَنْزِل عَلَيْه غَضَبُ اللَّهِ وعِقَابُه فَقَدْ هَلَكَ وَشَقِيَ .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٨ / ٤٤٠) : ((قَوْلُه : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ، يَقُول تعالى ذِكْرُه لهم : كُلُوا يا بني إسرائيل مِنْ شَهِيَّاتِ رِزْقِنا الذي رَزَقْنَاكُم وحَلالِه الذي طَيَّبْنَاه لَكُم ، ﴿ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ ، يَقُول : ولا تَعْتَدُوا فِيه ، ولا يَظْلِم فِيه بَعْضُكُم بَعْضًا ، ... . وقَوْلُه : ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ ، يَقُول : فَيَنْزِل عَلَيْكُم عُقُوبتي . ... . وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ الذين قِيلَ لهم هذا القَوْل مِنْ بَنِي إسرائيل وُقُوعَ بَأسِه بِهِم ، ونُزولَه بمعصيتهم إيَّاه إنْ هُمْ عَصَوْهُ ، وَخَوَّفَهُم . ... . وَمَنْ يَجِب عَلَيْهِ غَضَبِي فَيَنْزِل به فَقَدْ هَوَى ، يَقُول : فَقَدْ تَرَدَّى فَشَقِيَ)) .

٢ــ نِعَمُه عليهم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البَقَرَة : ٤٩] .

واذكُروا يا بني إسرائيل نِعمةَ اللَّهِ عَلَيكُم حِين نَجَّى آباءَكُم مِن بَطْشِ فِرْعَوْن وأتْبَاعِه ومَن كانَ على دِينِه . والخِطَابُ للأبناءِ المُعَاصِرِين للنَّبِيِّ ﷺ تَذكيرًا لَهُم بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُؤْمِنُوا ، ولا شَكَّ أنَّ النِّعْمَة على الآباء نِعْمَة على الأبناء ، يُذيقونكم أشَدَّ العَذابِ وأفْظَعَه ، يَقْتُلُون الذُّكُورَ مِنَ الأولاد ، ويَسْتَبْقُون الإناثَ على قَيْدِ الحَيَاةِ للخِدمةِ . وإنَّما فَعَلُوا بِهِم ذلك ، لأنَّ فِرْعَوْن رَأى في المَنَامِ ، أوْ قالَ لَهُ الكَهَنَة : إنَّ مَولودًا يُولَد في بَني إسرائيل يَكُون سببًا في زَوالِ مُلْكِه ، فَلَمْ يَرُد اجتهادُهم مِن قَدَرِ اللَّهِ شيئًا . وفِما ذُكِرَ مِنَ العَذابِ المُهِينِ مِن ذَبْحِ الذُّكُورِ واستحياءِ الإناثِ مِحْنَةٌ واختبارٌ عظيمٌ لَكُم مِنَ اللَّهِ تعالى بِتَسْليطهم عَلَيكُم لِيَتَمَيَّزَ الصالحُ مِنَ الفاسدِ ، والبَرُّ مِنَ الفاجرِ .

إنَّ اللَّهَ يُعَدِّد نِعَمَه الجليلة على بني إسرائيل ، فَقَدْ نَجَّاهم مِن آلِ فِرْعَوْن ، أي : أنقَذَهم مِن قَوْمِ فِرْعَوْن وحاشيته والمُوَالِين له وأهلِ دِينِه ، فَقَد كانوا يُذيقونهم شَتَّى صُنوف العذاب ، يُذبِّحون أبناءَهم ، ويُبْقُون النِّسَاءَ على قَيْدِ الحَيَاة . واللَّهُ يُذكِّر بني إسرائيل بإنقاذهم مِن فِرْعَوْن الذي نَصَّبَ نَفْسَه عَدُوًّا لبني إسرائيل ، وقَدْ عَذَّبَهم أشدَّ العذابِ ، ونَكَّلَ بِهِم دُون رَحْمَة . واللَّهُ يَمُنُّ عَلَيهم بإنقاذهم مِن هذا الكَرْبِ الشديد ، وجَعْلِهم أصحابًا للنَّبِيِّ مُوسَى ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٣١) : ((يَقُول تَعَالى : اذكُروا يا بني إسرائيل نِعْمَتي عَلَيكم إذْ نَجَّيْنَاكُم مِن آلِ فِرْعَوْن يَسُومونكم سُوءَ العَذابِ ، أي خَلَّصْتُكُم مِنهُم ، وأنْقَذْتُكُم مِن أيديهم صُحبة مُوسَى عَلَيه السلام ، وقَدْ كانوا يَسُومونكم ، أي : يُوردونكم ويُذيقونكم ويُولُونكم سُوءَ العَذابِ . وذلك أنَّ فِرْعَوْن لَعَنه اللَّهُ كانَ قَدْ رأى رُؤيا هَالَتْه ، رأى نارًا خَرَجَتْ مِن بَيْتِ المَقْدِسِ فدخلتْ بُيوتَ القِبْطِ ببلاد مِصْر إلا بُيوت بني إسرائيل ، مَضْمُونها أنَّ زَوَالَ مُلْكِه يَكُون عَلى يَدَي رَجُل مِن بني إسرائيل ، ويُقَال بَعْد تَحَدُّث سُمَّاره عِنده بأنَّ بني إسرائيل يَتَوَقَّعُون خُروجَ رَجُل مِنهُم يكون لهم بِه دَوْلَة ورِفْعَة ، ... ، فَعِند ذلك أَمَرَ فِرْعَوْنُ لَعَنه اللَّهُ بِقَتْلِ كُلِّ ذَكَرٍ يُولَد بَعْد ذلك مِن بَنِي إسرائيل ، وأن تُتْرَكَ البَنَات ، وَأَمَرَ باستعمال بني إسرائيل في مَشَاقِّ الأعمال وأرْذَلِها)) .

إنَّ الطُّغَاةَ المُتمسكين بِكُرْسِيِّ الحُكْمِ بالأظافر والأسنان ، هُم مَرْضَى نَفْسِيًّا ، غارقون في العُقَد النَّفْسِيَّة والاجتماعية ، ومُصَابون بِجُنون العَظَمَةِ ، والوساوسِ والهواجسِ التي لا تنتهي . إنَّهُم يَنظُرون إلى الجميع على أنَّهُم تَهْديد مُحْتَمَل لِنظامِ حُكْمِهم ، وبالتالي يُصبحون مِن حَيْث لا يَشعرون عبيدًا للكُرسي ، وخُدَّامًا لَهُ بَدَلًا مِن أن يَكُون خادمًا لَهُم .

والطاغيةُ فِرْعَوْن مِن هذا الصِّنْف ، فَمِن فَرْطِ تَمَسُّكِه بالكُرسي صارَ مَرعوبًا مِن أيِّ تَهْديد ، سواءٌ كانَ حقيقيًّا أوْ وهميًّا. وَهَا نَحْنُ نَرَاه مُتَعَلِّقًا بالأحلامِ والرُّؤى ، معَ أنَّها لا تَثْبُت بها الأحكامُ الشَّرْعِيَّةُ . فَمَا يَرَاه الإنسانُ في مَنَامِه قَدْ يَصْدُق وقَدْ لا يَصْدُق . ولكنَّ فِرْعَوْن جَعَلَ مَا رآه في المَنامِ شَرْعًا لازمًا وَاجِبَ النَّفَاذ ، واعْتَبَرَه حقيقةً لا مِرَاء فِيها ، وبدأ بترتيب أحكام واقعية مُستندة إلى مَا رَآه في مَنامه . وهذا يدلُّ على خَوْفِه الشديد ، وشِدَّة حِرْصِه على كُرْسي الحُكْم ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ لَعَنه اللَّهُ بقتل كُلِّ مَولودٍ ذَكَرٍ يُولَد مِن بني إسرائيل ، وذلك مِن أجْلِ ضَمانِ اختفاء الرِّجَال مِن بَني إسرائيل ، فلا أحد يَسْلُبه كُرْسِيَّ الحُكْمِ ، كَمَا أَمَرَ بِتَركِ البَناتِ لأنَّه اعتبرهنَّ غَيْرَ خطيرات ولا يُشَكِّلْنَ أيَّ تهديد. وأمَرَ باستعمال بني إسرائيل في الأعمال الشَّاقَّة التي تَتَطَلَّب جُهْدًا كبيرًا ، وذلك مِن أجْلِ كَسْرِهم وإخضاعِهم ، وَمِنْ أجْلِ أن تُصبح لُقْمَةُ العَيْشِ وكيفية تَحْصيلها هِيَ هَمَّهُم الشاغل، فلا يَنشغلون بالقضايا السِّياسية والاجتماعية. وهذه هي سِياسةُ الطُّغَاة على مَرِّ العُصور .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٩٠) : ((﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴾ ، يَعْني : أسلافَكم وأجدادَكم ، فَاعْتَدَّهَا مِنَّةً عَلَيهِم لأنَّهُم نَجَوْا بِنَجاتهم ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ : أتباعِه وأهْلِ دِينِه ، وفِرْعَوْن هو الوَليد مُصْعَب بن الرَّيَّان ، وكانَ مِنَ القِبْطِ العَمَاليق ، وعَمَّرَ أكثرَ مِن أربعمائة سَنَة ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يُكَلِّفُونكم ويُذيقونكم ﴿ سُوءَ العَذَابِ ﴾ أشدَّ العَذابِ وأسْوَأه . وقِيل: يَصْرِفُونكم في العَذابِ مَرَّةً

هكذا ، ومَرَّةً هكذا كالإبِلِ السائمة في البَرِّية ، وذلك أنَّ فِرْعَوْن جَعَلَ بني إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا ، وصَنَّفَهم في الأعمالِ ، فَصِنْف يَبْنُون ، وَصِنْف يَحْرُثُون ويَزْرَعُون ، وصِنْف يَخْدِمُونه ، ومَنْ لَمْ يَكُن مِنهُم في عَمَلٍ وَضَعَ عَلَيه الجِزْيَةَ . وقال وَهْب : كانوا أصنافًا في أعمال فِرْعَوْن ، فَذَوُو القُوَّة يَنْحِتُون السَّوَاري مِن الجِبال حَتَّى قَرِحَتْ أعناقُهم وأيديهم ، وَدَبَرَتْ ظُهورُهم مِن قَطْعِها ونَقْلِها ، وطائفة يَنقُلون الحِجارةَ ، وطائفة يَبْنُون له القُصورَ ، وطائفة مِنهُم يَضْرِبُون اللَّبِن ، ويَطْبُخون الآجُر، وطائفة نَجَّارون وحَدَّادون ، والضَّعَفَةُ مِنهُم يُضْرَب عليهم الخَرَاج ضريبةً يُؤَدُّونها كُلَّ يَوْم ، فَمَن غَرَبَتْ عَلَيه الشَّمْسُ قَبْلَ أن يُؤَدِّيَ ضَريبته غُلَّتْ يَمِينُه إلى عُنُقِه شهرًا ، والنِّسَاءُ يَغْزِلْنَ الكَتَّانَ ويَنْسِجْنَ . وقِيل : تفسيره ذِكْر مَا بَعْدَه : ﴿ يُذَبِّحُونَ أبْنَاءَكُمْ ﴾ ، فَهُوَ مَذكور على وَجْهِ البَدَلِ مِن قَوْلِه : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ ﴾ . ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ، يَتركونهن أحياءً ، وذلك أنَّ فِرْعَوْن رأى في مَنامه كأنَّ نارًا أقبلتْ مِن بَيْتِ المَقْدِس ، وأحاطتْ بِمِصْر ، وأحرقتْ كُلَّ قِبْطِي بها، ولَمْ تَتَعَرَّضْ لبني إسرائيل ، فهاله ذلك ، وسألَ الكَهَنَةَ عَن رُؤياه ، فقالوا : يُولَد في بني إسرائيل غُلام يَكُون على يَدِه هَلاكُك وزَوَالُ مُلْكِك ، فَأمَرَ فِرْعَوْنُ بقتل كُلِّ غُلام يُولَد في بني إسرائيل ، وجَمَعَ القوابلَ ، فقال لَهُنَّ : لا يَسْقُطْنَ على أيديكُنَّ غُلام مِن بني إسرائيل إلا قُتِل ، ولا جارية إلا تُرِكَتْ ، وَوَكَّلَ بالقوابل ، فَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذلك ، حتى قِيل : إنَّه قَتَلَ في بني إسرائيل اثنَي عَشَر ألف صَبِي في طَلَبِ مُوسَى . وقال وَهْب : بَلَغَني أنَّه ذَبَحَ في طَلَبِ مُوسَى عليه السلام تِسْعين ألف وَلِيد ، قالوا : وأسرعَ المَوْتُ في مَشْيَخَة بني إسرائيل ، فَدَخَلَ رُؤوسُ القِبْط على فِرْعَوْن ، وقالوا : إنَّ المَوْتَ قَدْ وَقَعَ في بني إسرائيل،أفتذبح صِغَارَهم ويَمُوت كِبَارُهم فَيُوشِك أن يَقَعَ العَمَلُ عَلَينا؟ فَأمَرَ فِرْعَوْنُ أن يَذبحوا سَنَةً ويَتركوا سَنَةً ، فَوُلِدَ هَارون في السَّنَة التي لا يَذبَحون فيها ، ومُوسَى في السَّنَة التي يَذبَحون فِيها . ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ، قِيل : البَلاءُ : المِحْنَة ، أي : في سَوْمِهم إيَّاكم سُوءَ العَذابِ مِحْنَةٌ عظيمة ، وقِيل : البلاءُ : النِّعْمَة ، أي : في إنجائي إيَّاكم مِنهُم نِعْمَةٌ عظيمة ، فالبَلاءُ يَكُون بمعنى النِّعْمَة ، وبمعنى الشِّدَّة ، فاللَّهُ تعالى قَدْ يَختبِر على النِّعْمَةِ بالشُّكْرِ ، وعلى الشِّدَّة بالصَّبْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأنجَيْنَاكُمْ وَأغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأنتُمْ تَنظُرُون ﴾ [البَقَرَة : ٥٠] . واذْكُروا أيضًا يا بَنِي إسرائيلَ إذْ فَلَقَ اللَّهُ لَكُمُ البَحْرَ حَتَّى ظَهَرَتْ لَكُمُ الأرضُ اليابسة ، فَمَشَيْتُم عَلَيها ، فأنجاكم مِنَ الغَرَقِ ، وأغْرَقَ فِرْعَوْنَ وقَوْمَه ، وأنتُم تُشاهدون ذلك ، فَقَدْ كانَ آيةً باهرةً مِن آياتِ اللَّهِ في إنجاءِ أوليائه ، وإهلاكِ أعدائه .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١ / ٣١٤) : ((أمَّا تأويلُ قَوْلِه : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾ فإنَّه عَطْف على ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ﴾ ، بِمَعنى : واذكُروا نِعْمتي التي أنعمتُ عَلَيكُم ، واذكُروا إذْ نَجَّيْنَاكُم مِن آلِ فِرْعَوْن ، وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ . ومَعنى قَوْلِه : ﴿ فَرَقْنَا بِكُمُ ﴾ فَصَلْنَا بِكُمُ البَحْرَ ، لأنَّهُم كانوا اثنَي عَشَر سِبْطًا، فَفَرَقَ البَحْرَ اثْنَي عَشَر طريقًا،فَسَلَكَ كُلُّ سِبْطٍ مِنهُم طريقًا مِنها، فذلك فَرْقُ اللَّهِ بِهِم عَزَّ وَجَلَّ البَحْرَ ، وفَصْلُه بِهِم بِتَفريقهم في طُرُقِه الاثنَي عَشَر)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٣١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأنجَيْنَاكُمْ وَأغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأنتُمْ تَنظُرُون ﴾ ، مَعْنَاه : وَبَعْد أن أنقذناكم مِن آلِ فِرْعَوْن ، وَخَرَجْتُم معَ مُوسَى عليه السلام ، خَرَجَ فِرْعَوْنُ في طَلَبِكُم ، فَفَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ، ... ﴿ فَأنجَيْنَاكُمْ ﴾ ، أي : خَلَّصْنَاكُم مِنهُم، وحَجَزْنَا بَيْنَكُم وبَيْنَهُم ، وأغْرَقْنَاهُم وأنتُم تَنظُرون ، لِيَكُون ذلك أشفى لِصُدوركم، وأبْلَغ في إهانةِ عَدُوكم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُم ظَالِمُون ﴾ [البَقَرَة : ٥١] .

وَعَدَ اللَّهُ مُوسَى ﷺ أنْ يُعْطِيَه التَّوْرَاةَ بَعْدَ أربعين لَيْلَة، وكان ذلك بَعْد نَجَاةِ بَنِي إسرائيل ، وإهلاكِ فِرْعَوْن ، ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ ﴾ أي : عَبَدْتُمُ العِجْلَ ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي: بَعْد غَيْبَتِهِ عَنْكُم حِينَ ذَهَبَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ ﴿ وَأَنتُم ظَالِمُون ﴾ أي : مُعْتَدُون في تِلْك العِبَادَة ظالمون لأنفُسِكُم .

أنقذَ اللَّهُ بني إسرائيل من فِرْعَوْن ، ونَجَّاهُم مِنَ البحر . ومعَ هذا ، فقد اتَّخَذُوا العِجْلَ إلَهًا مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﷺ . وهذ الشِّرْكُ هو مُنتهى الظُّلم ، ظُلْم الإنسان لِنَفْسِه ، وذلك بِوَضْعِه العِبادة في غَيْرِ مَوْضِعِها ، والتَّوَجُّهِ إلى إلَهٍ وَهْمِيٍّ ، ونسيانِ اللَّه الذي لا إلَهَ غَيْرُه .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٠٥) : ((وهذا تَنبيه على أنَّ كُفْرَهم بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ بأعجب مِنْ كُفْرِهم وعِبَادتهم العِجْل في زمن مُوسَى عليه السلام)) .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٣٢٣): ((لَمَّا عادوا إلى مِصْر بَعْد هَلاك فِرْعَوْن،وَعَدَ اللَّهُ مُوسَى أن يُعْطِيَه التَّوراةَ ، وَضَرَبَ له مِيقاتًا ذَا القِعْدَة وعَشْر ذِي الحِجَّة ، وعَبَّرَ عنها بالليالي ، لأنَّها غُرَر الشُّهُور)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٧٩و٨٠) : ((ومعنى الآية: وَعَدْنا مُوسى تَتِمَّة أربعين ليلة او انقضاء أربعين لَيْلَة . ومُوسى اسم أعجمي أصله بالعِبْرانية " موشا " فمو: هو الماء ، وشا : هو الشَّجَر ، لأنَّه وُجِدَ عِند الماء والشَّجَر ، فَعُرِّبَ بالسِّين . ولماذا كان هذا الوَعْد ؟ ، فيه قَولان:

أحدهما لأخذ التَّوْراة ، والثاني للتَّكليم. وفي هذه المُدَّة قَولان: أحدهما أنَّها ذُو القِعْدَة وعَشْر مِن ذِي الحِجَّة ، وهذا قَوْل مَنْ قال : كان الوعد لإعطاء التوراة . والثاني أنها ذو الحِجَّة وعَشْر مِن المُحَرَّم ، وهو قول مَن قال : كان الوعد للتكليم . وإنَّما ذُكِرَت الليالي دون الأيام لأن عادة العرب التأريخ بالليالي ، لأنَّ أوَّل شَهْر لَيْلَة ، واعتماد العرب على الأهِلَّة ، فصارت الأيام تَبَعًا لليالي. وقال أبو بكر النَّقَّاش : إنَّما ذَكَرَ الليالي لأنَّه أمَرَه أن يَصُوم هذه الأيام ويُواصلها بالليالي، فلذلك ذَكَرَ الليالي . وليس بِشَيْء ... . روى السُّدي عن أشياخه أنه لمَّا انطلق مُوسى واستخلفَ هارون ، قال هارون : " يا بني اسرائيل إنَّ الغنيمة لا تَحِلُّ لكم ، وإنَّ حُلِيَّ القِبْط غَنِيمة ، فاجمعوه ، وَاحْفِرُوا له حَفِيرة ، فادفنوه ، فإنْ أحَلَّه مُوسَى فخذوه ، وإلا كان شيئًا لَمْ تأكلوه " ، ففعلوا . قال السُّدي : وكان جِبريل قد أتى إلى مُوسى ليذهب به إلى رَبِّه ، فرآه السامريُّ فأنكره . وقال : إنَّ لهذا شَأنًا ، فأخذَ قَبْضة مِن أثر حَافِرِ الفَرَس فقذفها في الحَفِيرة ، فَظَهَرَ العِجْل . وقِيل : إنَّ السامريَّ أمَرَهم بإلقاء ذلك الحُلِيِّ،وقال:إنَّما طالتْ غَيْبَة مُوسى عَنكُم لأجل ما معكم مِنَ الحُلِيِّ ، فَاحْفِرُوا لها حَفِيرة ، وَقَرِّبوه إلى اللَّه ، يَبْعَث لَكُم نَبِيَّكم ، فإنَّه كان عَارِيَّة ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدِّمشقي . وفي سَبَبِ اتَّخَاذ السامريِّ عِجْلًا قَولان : أحدهما أنَّ السَّامِرِيَّ كان مِنْ قَوْم يَعْبُدون البَقَرَ،فكان ذلك في قلبه، قاله ابن عباس . والثاني أنَّ بني إسرائيل لمَّا مَرُّوا على قَوْم يَعْكُفُون على أصنام لهم أعجبهم ذلك ، فلمَّا سألوا موسى أن يَجعل لهم إلَهًا ، وأنكرَ عليهم، أخرجَ السامريُّ لهم في غَيْبته عِجْلًا لمَّا رأى مِن استحسانهم ذلك ، قاله ابن زيد . وفي كيفية اتِّخاذ العِجْل قَولان:أحدهما أن السامريَّ كان صَوَّاغًا فصاغه ، وألقى فيه القَبضة ، قاله عليٌّ وابن عباس . والثاني أنهم حَفَرُوا حَفِيرة وألْقَوْا فيها حُلِيَّ قَوْم فِرْعَوْن وعَوَارِيَّهم ، تَنَزُّهًا عنها ، فألقى السامريُّ القَبْضة مِن التُّرَاب، فصارَ عِجْلًا ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . قال ابن عباس : صارَ لَحْمًا وَدَمًا وَجَسَدًا ، فقال لهم السامريُّ : هذا إلَهُكُم وإلَهُ مُوسَى ، قد جاء وأخطأ موسى الطريقَ ، فعبدوه ، وزَفَنُوا حَوْلَه ــ رَقَصُوا حَوْلَه ــ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ [البَقَرَة : ٥٢] .

ثُمَّ تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْكُم ومَحَا ذُنُوبَكم مِن بَعْدِ عِبادةِ العِجْل ، كَي تَشْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عليكم ، وتَستمروا بعد ذلك على الطاعة .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١ / ٣٢٣) : ((ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِن بَعْدِ اتِّخَاذِكم العِجْل إلَهًا ، لِتَشكروني على عَفْوِي عَنكُم ، إذْ كان العَفْوُ يُوجِب الشُّكْرَ على أهل اللُّبِّ والعَقْلِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ وَأنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾ [البَقَرَة : ٥٧] .

وَسَتَرَكُمُ اللَّهُ بالسَّحَابِ الرَّقيقِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ في التِّيه ، وأنعَمَ عليكم بأنواع مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ ولا تَعَبٍ . والمَنُّ كانَ يَنْزِل عليهم مِثْلَ العَسَلِ فَيَمْزُجُونه بالماءِ ثُمَّ يَشْرَبُونه ، والسَّلْوَى : طَيْرٌ يُشْبِه السُّمَانَي لذيذ الطَّعْم .

كُلُوا مِن لَذَائِذِ نِعَمِ اللَّهِ ، وَقَدْ كَفَرُوا هَذه النِّعَمَ الجليلة ، وَمَا ظَلَمُونا ، ولكنْ ظَلَمُوا أنفُسَهُم ، لأنَّ وَبَالَ العِصْيَان راجعٌ عَلَيْهِم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٩٧) : ((﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ ﴾ في التِّيهِ ، يَقِيكُم حَرَّ الشمس ، والغَمَامُ مِنَ الغَمِّ ، وأصله التغطية والسَّتْر ، سُمِّيَ السَّحَابُ غَمَامًا ، لأنَّه يُغَطِّي وَجْهَ الشمس ، وذلك أنَّه لَمْ يَكُنْ لهم في التِّيه كِنٌّ يَسْتُرُهُم ، فَشَكَوْا إلى موسى ، فأرسلَ اللَّهُ تعالى غَمَامًا أبيض رقيقًا أطْيَبَ مِنْ غَمَامِ المطر ، وَجَعَلَ لَهُم عَمُودًا مِنْ نُور يُضِيء لهم الليلَ إذْ لَمْ يَكُنْ لهم قَمَرٌ ﴿ وَأنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ أي: في التِّيه ، الأكثرون على أنَّ المَنَّ هُوَ التَّرَنْجَبِين. وقال مُجَاهِد : هو شَيْء كالصَّمْغ كان يقع على الأشجار طَعْمُه كالشَّهْدِ . وقال وَهْب : هُوَ الخُبْزُ الرِّقَاق . قال الزَّجَّاج : جُملةُ المَنِّ مَا يَمُنُّ اللَّهُ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ . ... . قالوا: فكانَ المَنُّ كُلَّ لَيْلَة يَقَع على أشجارهم مِثْل الثلج ، لِكُلِّ إنسان مِنهُم صاع ، فقالوا : يا مُوسَى ، قَتَلَنَا هَذا المَنُّ بِحَلاوته ، فَادْعُ لنا رَبَّكَ أن يُطْعِمَنَا اللحمَ ، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى عليهم السَّلْوى ، وهو طائر يُشْبِه السُّمَانَي ، وقِيل : هُوَ السُّمَانَي بِعَيْنِه ، بَعَثَ اللَّهُ سَحَابَةً فَمَطَرَت السُّمَانَي في عَرْضِ مِيل وطُول رُمْح في السماء ، بَعْضه على بَعْض . والسَّلْوَى : العَسَل ، فكانَ اللَّهُ يُنْزِلُ عليهم المَنَّ والسَّلْوَى كُلَّ صباح مِن طُلوع الفَجْرِ إلى طُلوعِ الشَّمْسِ ، فَيَأخَذ كُلُّ واحد منهم مَا يَكْفِيه يَوْمًا ولَيْلَةً ، وإذا كان يَوْم الجُمُعَة أخَذَ كُلُّ واحد مِنهم مَا يَكْفِيه لِيَوْمَيْن ، لأنَّه لَمْ يَكُنْ يَنْزِل يَوْمَ السَّبْت . ﴿ كُلُوا ﴾ أي : وَقُلْنَا لهم : كُلُوا ﴿ مِن طَيِّبَاتِ ﴾ حَلالات ﴿ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ، ولا تَدَّخِرُوا لِغَدٍ ، فَفَعَلُوا ، فَقَطَعَ اللَّهُ ذلك عَنْهُم ، وَدَوَّدَ وَفَسَدَ مَا ادَّخَرُوا ، فقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾ ، أي : وَمَا بَخَسُوا بِحَقِّنَا ، ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمُون باستيجابهم عَذابي ، وَقَطْعِ مَادَّةِ الرِّزْقِ الذي كانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِم بِلا مُؤنَة في الدُّنيا ، ولا حِسَاب في العُقْبى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِين ﴾ [البَقَرَة : ٥٨] .

واذكُرُوا أيضًا نِعْمَتِي عَلَيْكُم حِينَ قُلْنَا لَكُم بَعْدَ خُروجكم مِنَ التِّيهِ : ادْخُلُوا بَيْتَ المَقْدِسِ ، فَكُلُوا مِنْهَا أَكْلًا واسعًا هَنِيئًا ، وَادْخُلُوا بابَ القَرْيَةِ ساجدين للَّهِ شُكْرًا على خَلاصِكُم مِنَ التِّيهِ ، وقولوا: يَا رَبَّنَا حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا ، وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايانا ، نَمْحُ ذُنُوبَكُم وَنُكَفِّرْ سَيِّئاتكم ، وَسَنَزِيدُ مَنْ أحْسَنَ إحسانًا بالثَّوَابِ العَظِيمِ والأجْرِ الجَزِيلِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٤١) : ((يَقُول تَعَالى لائمًا عَلى نُكُولِهم عَن الجِهَاد ، ودُخولِهم الأرض المُقَدَّسَة لمَّا قَدِمُوا مِنْ بلاد مِصْر صُحْبَة مُوسَى عليه السلام ، فَأُمِرُوا بِدُخول الأرض المُقَدَّسَة التي هِي مِيراث لهم عن أبيهم إسرائيل ، وقِتال مَنْ فِيها مِنَ العماليق الكَفَرَة ، فَنَكَلُوا عَنْ قِتالهم، وَضَعُفُوا واسْتَحْسَرُوا ، فرماهم اللَّهُ في التِّيهِ عُقوبةً لَهُم ، كَمَا ذَكَرَه تَعَالى في سُورة المائدة ، ولهذا كان أصَحُّ القَوْلَيْن أنَّ هذه البَلْدَة هي بَيْت المَقْدِس ، كما نَصَّ على ذلك السُّدي والربيع بن أنس وقَتَادَة وأبو مُسْلِم الأصفهاني وغير واحد . وقد قالَ اللَّهُ تعالى حاكيًا عَن مُوسَى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا ﴾ [المائدة:٢١] الآيات. وقال آخرون : هي أريحاء ، وَيُحْكَى عن ابن عَبَّاس وعبد الرحمن بن زيد ، وهذا بعيد ، لأنَّها لَيْسَتْ على طريقهم ، وهُمْ قاصدون بَيْتَ المَقْدِس لا أريحاء، وأبعد مِن ذلك قَوْل مَنْ ذَهَبَ إلى أنها مِصْر ، حكاه الرازي في تفسيره ، والصحيح الأول أنَّها بَيْت المَقْدِس ، وهذا كان لمَّا خَرَجُوا مِنَ التِّيهِ بعد أربعين سَنَة معَ يُوشَع بن نُون عليه السلام ، وَفَتَحَهَا اللَّهُ عليهم عَشِيَّة جُمُعَة ، وَقَدْ حُبِسَتْ لهم الشمس يَومئذ قليلًا حتى أمكنَ الفتح ، ولمَّا فتحوها أُمِرُوا أن يَدخلوا البابَ بابَ البلدِ ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي شُكْرًا للَّهِ تَعَالى على مَا أنْعَمَ بِه عليهم مِنَ الفَتْحِ والنَّصْرِ ، وَرَدِّ بَلَدِهم عليهم وإنقاذِهم مِنَ التِّيهِ والضَّلالِ . وقَوْلُه تعالى : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ . قال الثَّوْري عن الأعمش عن المِنهال عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عَبَّاس : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ ، قال : مَغفرة ، اسْتَغْفِرُوا . ... . وقال الحَسَن وقَتَادَة: أي احْطُطْ عَنَّا خَطَايانا ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِين ﴾ . وقال : هذا جواب الأمر ، أي : إذا فَعَلْتُم مَا أَمَرْنَاكُم غَفَرْنَا لَكُمُ الخَطِيئات ، وَضَاعَفْنَا لَكُم الحَسَنَاتِ . وحاصلُ الأمرِ أنَّهُم أُمِرُوا أن يَخضعوا للَّهِ تعالى عِند الفَتْحِ بالفِعْلِ والقَوْلِ ، وأن يَعترفوا بِذُنوبهم ويَستغفروا مِنها، والشُّكْر على النِّعْمَة عِندها ، والمُبَادَرَة إلى ذلك مِنَ المَحبوب عِند اللَّهِ تعالى)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين ﴾ [البَقَرَة : ٦٠] .

اذكُرُوا يا بني إسرائيل حِينَ طَلَبَ النَّبِيُّ مُوسَى ﷺ السُّقْيَا لِقَوْمِه وَقَدْ عَطِشُوا في التِّيه ، فَقُلْنَا : اضْرِب بِعَصَاكَ الحَجَرَ ، فَضَرَبَ فَتَدَفَّق الماءُ مِنَ الحَجَرِ بقوة ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ اثنَتَا عَشْرَة عَيْنًا بِعَدَدِ قبائلهم ، قَدْ عَلِمَتْ كُلُّ قَبيلةٍ مَكَانَ شُرْبِها لِئَلا يَتَنَازَعُوا ، كُلُوا مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى ، واشربوا مِنْ هذا الماء ، مِنْ غَيْرِ كَدٍّ مِنْكُم ولا تَعَبٍ ، بَلْ هُوَ مِنْ خَالصِ إنعام اللَّهِ ، ولا تَطْغَوْا في الأَرْضِ بأنواع البَغْي والفَسَاد .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٨): ((﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ في التِّيهِ ، ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِعَصَاكَ الحَجَرَ ﴾ ، وكانَ حَجَرًا خفيفًا مُرَبَّعًا مِثْلَ رَأسِ الرَّجُلِ ، ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ ، أي : فَضَرَبَ فانفجرتْ ، يَعْني : فَانْشَقَّتْ ﴿ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ ، فكانَ يَأتي كُلُّ سِبْطٍ عَيْنَهُم التي كانوا يَشْرَبُون مِنْهَا ، فذلك قَوْلُه تَعَالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ ، وَقُلْنَا لَهُم : ﴿ كُلُوا ﴾ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى، ﴿ وَاشْرَبُوا ﴾ مِنَ المَاءِ ، فهذا كُلُّه ﴿ مِن رِزْقِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَلا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين ﴾ ، أي : لا تَسْعَوْا فِيها بالفَسَادِ ، فَمَلُّوا ذلك العَيْشَ ، وَذَكَرُوا عَيْشًا كانَ لَهُمْ بِمِصْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا بَنِي إسرائيلَ اذكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العَالَمِين ﴾ [البَقَرَة : ١٢٢] .

يا أبناءَ النبيِّ الصالحِ يَعقوب ﷺ ، اذكُرُوا نِعَمِي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم بالشُّكْرِ عليها بطاعتي ، وَاذكُرُوا تَفْضِيلي لَكُم على سائر الأُمَمِ في زمانكم . يُريد عَلى عَالَمِي زَمَانِهم ، وأَهْلُ كُلِّ زَمَانٍ عَالَمٌ.وقيل: عَلى كُلِّ العَالَمِين بِمَا جَعَلَ فِيهم مِنَ الأنبياءِ ، وهذا خَاصَّة لَهُم ، وَلَيْسَتْ لِغَيْرِهِم. والمُرادُ بهذا التفضيل سَلَفُهم ، ولكنَّ تفضيلَ الآباءِ شَرَفُ الأبناءِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٢٩) : ((يُذكِّرهم تَعَالى بِسَالِفِ نِعَمِه إلى آبائِهم وأسلافِهم ، وَمَا كان فَضَّلَهم بِه مِن إرسال الرُّسُل مِنهُم ، وإنزالِ الكُتُبِ عَلَيهم وعلى سَائِرِ الأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زمانهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلى العَالَمِين ﴾ [الدُّخَان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أنبياءَ وَجَعَلَكُم مُلُوكًا وَآتَاكُم مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ٢٠]. قال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية في قَوْلِه تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العَالَمِين ﴾ ، قال : بِمَا أُعْطُوا مِنَ المُلْكِ والرُّسُلِ والكُتُبِ على عَالَمِ مَنْ كانَ في ذلك الزمان ، فإنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالِمًا . وَرُوِيَ عَن مُجاهد والربيع بن أنس وقَتَادة وإسماعيل بن أبي خالد نَحْو ذلك ، وَيَجِب الحَمْلُ عَلى هذا ، لأنَّ هذه الأُمَّة أفضل مِنْهُم لِقَوْلِه تعالى خِطَابًا لهذه الأُمَّة : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ تَأمُرُونَ

بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم ﴾ [آل عِمران: ١١٠] . وفي المَسَانيد والسُّنَن عن مُعاوية بن حَيْدَة القُشَيْرِيِّ قال : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : " أنتُم تُوفُونَ سَبعينَ أُمَّةً أنتُم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلى اللَّهِ " . والأحاديث في هذا كثيرة تُذكَر عِند قَوْلِه تعالى: ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ ﴾ [آل عِمران: ١١٠] . وقِيل : المُراد تفضيل بِنَوْعٍ مَا مِنَ الفضل على سائر الناس ، ولا يَلْزَم تفضيلهم مُطْلَقًا ، حكاه الرازي ، وفيه نظر . وقيل : إنَّهُم فُضِّلُوا على سائر الأمم لاشتمال أُمَّتِهِم على الأنبياء مِنْهُم، حكاه القُرطبي في تفسيره، وفيه نظر ، لأنَّ العَالَمِين عام يَشْمَل مَنْ قَبْلَهُم وَمَنْ بَعْدَهُم مِنَ الأنبياءِ، فإبراهيم الخليل قَبْلَهم ، وهو أفضل مِن سائر أنبيائهم ، وَمُحَمَّدٌ بَعْدَهم ، وهو أفضلُ مِنْ جميع الخَلْقِ ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدم في الدُّنيا والآخِرَةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُه عَلَيْه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إذْ جَعَلَ فِيكُم أنبياءَ وَجَعَلَكُم مُلُوكًا وآتَاكُم ما لَم يُؤتِ أحَدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ٢٠] .

اذكُرْ يا مُحَمَّد إذْ قالَ مُوسى لبني إسرائيل: يا قَوْمِ ، اذكُروا نِعمةَ اللَّه عليكم، وإحسانَه إليكم، واشكروه ، وأطيعوه ، ولا تَعصوه.والآيةُ تدلُّ على صِدْق مُحَمَّد ﷺ وصِحَّة نُبُوَّته،لأنَّها إعلام بِأمْرٍ غَيْبِيٍّ لَم يَشْهَدْه مُحَمَّد ﷺ، مِمَّا يدلُّ على أنَّ هذا كلام اللَّه لا كلام مُحَمَّد . وهذا يُؤَدِّي إلى تحقُّق اليهود مِن نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ ورسالته.واللَّهُ يُبيِّن أنَّ آباء اليهود الموجودين في عصر مُحَمَّد ﷺ، قد تمرَّدوا على اللَّه ، وأعرضوا عن أوامره،وأهملوا شُكْرَ نِعَمه الكثيرة،وعَصَوْا مُوسى،ولَم يَستجيبوا له . وهذه تَسْلية للنبيِّ مُحَمَّد ﷺ ، ورَفْع لمعنوياته ، وتخفيف عنه . وكأنَّ اللَّه يقول : إنْ رَفَضَ اليهودُ أوامرَكَ يا مُحَمَّد ، وعَصَوْكَ ، فقد رَفَضَ آباؤُهم وأسلافُهم أوامرَ مُوسى (وهو نَبِيُّهم صاحب التَّوراة وأعظم أنبياء بني إسرائيل) وعَصَوْه ، فلا تنزعج يا مُحَمَّد ، ولا تتضايق ، ولا تَعْبَأ بهم ، ولا تَأبَه لهم ، فإنَّ العِصيان والعِناد والتمرُّد والكُفر والضَّلال من طبيعة اليهود .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٥٠٩) : ((وهذا أيضًا مِنَ اللَّه تعريف لِنَبِيِّه ﷺ قديم تمادي هؤلاء اليهود في الغَيِّ ، وبُعدهم عن الحق ، وسُوء اختيارهم لأنفسهم ، وشِدَّة خِلافهم لأنبيائهم ، وبُطْء إنابتهم إلى الرَّشاد معَ كثرة نِعَم اللَّه عِندهم ، وتتابُع أياديه وآلائه عليهم ، مُسَلِّيًا بذلك نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ عمَّا يَحِلُّ به مِن علاجهم، ويَنزِل به مِن مُقاساتهم في ذات اللَّه.يقول اللَّهُ له ﷺ:لا تَأْسَ على ما أصابك مِنهُم ، فإن الذهاب عن اللَّه ، والبُعد مِن الحق ، وما فيه لهم الحَظ في الدُّنيا والآخِرة ، مِن عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم ، وتَعَزَّ بما لاقى مِنهُم أخوك مُوسى ﷺ)) .

﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُم أنبياءَ وَجَعَلكُم مُلُوكًا ﴾ . جَعَلَ اللَّهُ فِيهم أنبياءَ يأتونهم بالوَحْي الإلهيِّ ، لهدايتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الهُدى ، والأخذ بأيديهم إلى اللَّه تعالى . وسخَّر لهم مِن غَيْرِهم خَدَمًا يَخدمونهم ، ويَسهَرون على راحتهم ، وجَعَلهم مُلوكًا وسَادَةً ، بعدما كانوا خَدَمًا لِفِرْعَوْن ، وعبيدًا له ، ذَوِي مكانة وضيعة حقيرة ، لا يُعْبَأ بهم ، ولا قيمة لهم .

لقد أنقذَ اللَّهُ بني إسرائيل مِن فِرْعَوْن بإغراقه وإهلاكه ، وجَعلهم مُلوكًا على رِقاب الناس ، وسادةً يَملِكون أمْرَهم ، ولا يَغلِبهم ولا يَقهرهم أحد ، بعد أن كانوا مَملوكين لِفِرْعَوْن ، مَقهورين تحت سُلطانه ، خاضعين لحُكمه . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الرَّجُل في بني إسرائيل إذا كان له بَيت وزَوجة وخادم اعْتُبِرَ مَلِكًا ، وعُدَّ مِن المُلوك . وأكثر أُمَّة في تاريخ البشرية ظهر فيها أنبياء هُم بنو إسرائيل . فماذا يريدون أكثر مِن النُّبُوَّة والمُلْك ؟! . لقد أكرمَ اللَّهُ بني إسرائيل وشرَّفهم بكثرة الأنبياءِ والمُلوكِ . والمُلوكُ تكاثروا فيهم تكاثُر الأنبياء . والمُلْك شرف الدُّنيا ، والنُّبُوَّةُ شرف الدُّنيا والآخرة . والواجبُ عليهم أن يَشكروا اللَّهَ على نِعَمه ، بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠) : ((كُلَّما هَلَكَ نبيٌّ قامَ فيكم نبيٌّ مِن لَدُن أبيكم إبراهيم ، إلى مَن بَعده ، وكذلك كانوا ، لا يزال فيهم الأنبياء يَدْعُون إلى اللَّه ، ويُحذِّرون نِقْمَتَه ، حتى خُتِموا بعيسى بن مريم عليه السلام ، ثُمَّ أوحى اللَّهُ إلى خَاتَم الأنبياء والرُّسُل على الإطلاق ، مُحَمَّد بن عبد اللَّه المَنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو أشرف مِن كُلِّ مَن تَقَدَّمَه مِنهُم ﷺ)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٢١ و٣٢٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُم أنبياءَ ﴾ فيهم قَولان : أحدهما أنهم السبعون الذين اختارهم موسى ، وانطلقوا معه إلى الجبل ، جعلهم اللَّهُ أنبياء بعد مُوسى وهارون ، وهذا قول ابن السائب ومُقاتل . والثاني أنهم الأنبياء الذين أُرْسِلُوا مِن بني إسرائيل بعد مُوسى ، ذكَره الماوردي . وبماذا جَعَلَهُم مُلوكًا ؟ . فيه ثمانية أقوال : أحدها بالمَنِّ والسَّلْوى والحَجَر . والثاني بأن جعل للرَّجل منهم زوجة وخادمًا . والثالث بالزَّوجة والخادم والبَيْت ، رُوِيَت هذه الثلاثة عن ابن عباس . وهذا الثالث اختيار الحسن ومُجاهد. والرابع بالخادم والبَيْت ، قاله عِكرمة . والخامس بتمليكهم الخَدَم ، وكانوا أوَّل مَن تَمَلَّكَ الخَدَمَ . ومَن اتَّخَذَ خادمًا فهو مَلِك ، قاله قَتادة . والسادس بِكَوْنهم أحرارًا يَملِك الإنسانُ مِنهُم نَفْسَه وأهْلَه ومالَه ، قاله السُّدي . والسابع بالمنازل الواسعة فيها المياه الجارية ، قاله الضَّحَّاك . والثامن بأن جَعَلَ لهم المُلْكَ والسُّلطان ، ذَكَرَه المَاوَرْدِيُّ)) .

وعن أبي هُرَيرة_ رضي اللَّهُ عنه_ عن النبيِّ ﷺ قال : ((كانتْ بَنُو إسرائيلَ تَسُوسُهُمُ الأنبياءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ)) [٧٤] .

هذا يُشير إلى كثرة الأنبياء في بني إسرائيل ، حيث كانت تَسُوسُهم الأنبياء ، أي : يَتَوَلَّوْنَ أُمورَهم ، ويَرْعَوْنَ مصالحهم . ويقومون بشؤونهم ، كما يَفعل الأُمَراءُ والوُلاة بالرَّعِيَّة . والسِّياسة : القِيَام على الشَّيء بما يُصْلِحه. وكان الأنبياءُ يتعاقبون عليهم ، فَكُلَّمَا ماتَ نبيٌّ أرسلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا آخَرَ يَخْلُفُ النبيَّ السابقَ في القِيَام عليهم ، وتَوَلِّي شُؤونهم .

والأنبياءُ هُم القادة، ورأسُ النظام السياسي . وحقيقةُ السياسة لهم ، والمُلوكُ تَبَعٌ ونُوَّابٌ لهم ، وسائرون على خُطَاهم . والنبيُّ هو القائد ، والمَلِكُ نائبه ومُساعده .

وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢٣١) : ((أي : يَتَوَلَّوْنَ أُمورَهم ، كما تفعل الأُمَراء والوُلاة بالرَّعِيَّة . والسياسة القيام على الشيء بما يُصلحه . وفي هذا الحديث جَوَاز قَول : هَلَكَ فُلان ، إذا مات)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٧) : ((قَوْلُه : " تَسُوسُهم الأنبياء " أي أنهم كانوا إذا ظَهَرَ فيهم فساد ، بَعَثَ اللَّهُ لهم نبيًّا يُقيم لهم أمرَهم، ويُزيل ما غيَّروا مِن أحكام التَّوراة . وفيه إشارة إلى أنَّه لا بُدَّ للرَّعِيَّة مِن قائم بأُمُورها يَحْمِلها على الطريق الحَسَنَة ، ويُنصِف المظلوم من الظالم)) .

إنَّ كثرة الأنبياء في بني إسرائيل لَيْسَتْ عَبَثًا ولا صُدفة . فكثرةُ الأنبياء وتتابعهم يُشير إلى فساد بني إسرائيل وضلالهم، وكثرة ذُنوبهم ومعاصيهم . وعندما تَكثُر الأمراضُ يَكثُر الأطباء . وحَيْث يَكُون الدَّاء يَظهر الدَّواء .

وهذا العدد الكبير من الأنبياء يُشير إلى أنَّ بني إسرائيل غارقون في مُستنقع الإثم والضَّلال . وهذا يتطلَّب وُجود المُرشدين والمُنقذين لإخراج الناس مِن الظُّلُمَات إلى النُّور ، وهِدايتهم إلى الحق والصواب . والأنبياءُ أعظم المُرشِدين ، وأفضل المُنقِذين .

﴿ وآتَاكُم ما لَم يُؤتِ أحَدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ . هذا خِطاب مُوسى ﷺ لبني إسرائيل.وأعطاكم اللَّهُ النِّعَمَ الكثيرة ، وخَصَّكُم بِفَلْقِ البحر ، وإغراقِ العَدُوِّ ، وتَظليلِ الغَمَام ، وإنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى ، وكَثرةِ الأنبياء ، وكَثرةِ المُلوك . والمُرادُ عَالَمُ زَمانِهم . أي إنَّ اللَّه آتَى بني إسرائيل مَا لَمْ يُؤْتِ أحدًا مِن عَالَمِ ذلك الزمان . ولا شَكَّ أنَّ شَرَفَ الآباءِ وَمَجْدَهم يَعُود على الأبناء بِحُسْن السُّمْعَة .

---

٧٤ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٢٧٣) برقم (٣٢٦٨)، ومسلم (٣/ ١٤٧١) برقم (١٨٤٢).

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٢٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وآتَاكُم ما لَم يُؤتِ أحَدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ . اختلَفوا فِيمَن خُوطِب بهذا على قَوْلَيْن : أحدهما أنهم قوم مُوسى ، وهذا مذهب ابن عباس ومجاهد . قال ابن عباس : ويعني بالعَالَمين الذين هُم بين ظَهْرانيهم ، وفي الذي آتاهم ثلاثة أقوال : أحدها المَن والسَّلوى والحَجَر والغَمَام ، رواه مُجاهد عن ابن عباس ، وقال به . والثاني أنَّه الدار والخادم والزَّوجة ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن جرير : ما أُوتِيَ أحد مِن النِّعَم في زمان قوم مُوسى ما أُوتُوا . والثالث كثرة الأنبياء فيهم ، ذَكَرَه المَاوَرْدِيُّ . والثاني أن الخِطاب لأُمَّة مُحَمَّد ﷺ . وهذا مذهب سعيد بن جُبَير وأبي مالك)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ جعل فيكم أنبياء ﴾ ، قال : جَعَلَ مِنكُم أنبياء، ﴿ وجعلكم مُلوكًا ﴾ ، قال: المَرْأة والخادم، ﴿ وآتَاكُم ما لَم يُؤتِ أحَدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ قال: الذين هُم بَين ظَهْرانيهم يَوْمَئِذ [٧٥] .

إنَّ وُجود الزَّوجة التي تَصنع الأُسْرَةَ ، وتعتني بالرَّجُل والأولاد ، مَعَ تَوَفُّر خادم يقوم بالواجبات المَوكولة إليه ، يَجعل من الإنسان مَلِكًا . وهذا يعكس حياة الرَّفَاهِيَة بلا مُنَغِّصَات ولا عوائق . ومفهوم " المَلِك " لا يُمكن حَصْرُه في رأس النظام السياسي ، لأنَّ مَعناه يشتمل على أبعاد كثيرة، وجوانب مُتعدِّدة . وقد فضَّل اللَّهُ بني إسرائيل على عَالَمِ زمانهم ، والواجبُ عليهم أن يَشكروه .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الذينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلى بَنِي إسرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُون ﴾ [الأعراف : ١٣٧] .

وَمَلَّكَ اللَّهُ بَنِي إسرائيل الذين كانوا يُسْتَذَلُّون بالخِدْمَةِ والاستعبادِ وَقَتْلِ أبنائِهم واستخدامِ نِسَائِهم أَرْضَ الشَّامِ ، وَمَلَّكَهُم جَميعَ جِهَاتِها ونَوَاحيها، التي بَارَكَ اللَّهُ فيها بالخَيْرَاتِ وكَثرةِ الثِّمَارِ والزُّرُوعِ والأنهارِ والعُيُونِ ، وَتَمَّ وَعْدُ اللَّهِ الصادقُ بالتَّمكينِ لبني إسرائيل في الأرض ، وَنَصْرِه إيَّاهُم على عَدُوِّهِم ، بسبب صَبْرِهِم على الأذى ، وَخَرَّبَ اللَّهُ القُصُورَ والعِمَارَاتِ التي كانَ يُشَيِّدُهَا فِرْعَوْنُ وجَمَاعَتُه ، ومَا كانوا يَعْرِشُون مِنَ الجَنَّاتِ والمَزارع . وَالجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ الآية ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ عَدَلَ عَن المَاضِي إلى المُضَارِع لاستحضار الصُّورة في ذِهْنِ المُخَاطَبِ، وَمِثْلُه : ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُون ﴾ ، والأصلُ : مَا صَنَعُوا وَمَا عَرَشُوا .

---

٧٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٣٤١) برقم (٣٢١٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٢٧٣) : ((﴿ وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الذينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ ، يُقْهَرُون وَيُسْتَذَلُّون بِذَبْحِ الأبناءِ واستخدامِ النِّسَاءِ ، والاستعبادِ ، وَهُمْ بَنِي إسرائيل ، ﴿ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ يَعْنِي مِصْر والشَّام ، ﴿ التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالمَاءِ والأشجارِ والثِّمَارِ والخِصْبِ والسَّعَةِ ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلى بَنِي إسرائيلَ ﴾ ، يَعْني : وَقْت كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَهِيَ وَعْدُه إيَّاهُم بالنَّصْرِ والتَّمكينِ في الأرض ، وذلك قَوْلُه تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلى الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ ﴾ [القَصَص : ٥] ، ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ عَلى دِينِهم ، وعَلى عَذابِ فِرْعَوْن ، ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ أَهْلَكْنَا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ في أَرْضِ مِصْر مِنَ العِمَارَاتِ ، ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُون ﴾ . قال مُجَاهِد: يَبْنُون مِنَ البُيُوتِ والقُصُورِ.وقال الحسن: يَعْرِشُون مِنَ الأشجارِ والثِّمَارِ والأعنابِ)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلى الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ [القَصَص : ٥] .

وَيُرِيدُ اللَّهُ برحمته أن يَتَفضَّلَ وَيُنْعِمَ عَلى المُسْتَضْعَفِين مِنْ بَنِي إسرائيل ، فَيُنَجِّيَهُم مِنْ بَأسِ فِرْعَوْن وطُغْيَانِه ، وَيَجْعَلَهُمْ قَادَةً في الخَيْرِ بَعْدَ أن كانوا أذِلاء مُسَخَّرِين ، ويَجْعَلَ هَؤلاء الضُّعَفَاءَ وَارِثين لِمُلْكِ فِرْعَوْن وَقَوْمِه ، يَرِثُون مُلْكَهم ، وَيَسْكُنُون مَسَاكِنَهُم بَعْدَ أنْ كانَ القِبْطُ أسيادَ مِصْر .

وحِكايةُ الحالةِ الماضيةِ بأسلوبِ المُضَارِعِ : ﴿ وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ ﴾ لاستحضارِ تِلْك الصُّورة في الذِّهْنِ ، وهذا أشدُّ أثَرًا وَتَأثيرًا في النَّفْسِ البشرية .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٢٧) : ((﴿ وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلى الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ ﴾ ، جَاءَ بِصِيغة المُضَارِع لِحِكاية الحالة الماضية ، واستحضارِ صُورتها ، أي : نُريد أن نَتَفَضَّلَ عَلَيْهِم بَعْدَ استضعافهم ، والمُرادُ بهؤلاء بَنُو إسرائيل ، ... . ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي : قَادَةً في الخَيْرِ ، وَدُعَاةً إلَيْه ، وَوُلاةً على الناسِ ، ومُلُوكًا فِيهِم ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لِمُلْكِ فِرْعَوْن وَمَسَاكِنِ القِبْطِ وأمْلاكِهم، فَيَكُون مُلْكُ فِرْعَوْن فِيهِم، وَيَسْكُنُون في مَسَاكِنِه وَمَسَاكِنِ قَوْمِه، وَيَنْتَفِعُون بأملاكِه وأملاكِهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إسرائيلَ مِنَ العَذابِ المُهِينِ ﴾ [الدُّخَان : ٣٠] .

أنقَذَ اللَّهُ بَنِي إسرائيل مِنَ العَذابِ الشديد ، المُفْرِطِ في الإذلالِ والإهانة ، وَهُوَ قَتْلُ أبنائِهم ، واستخدامُ نِسَائِهم، وإرهاقُهم في الأعمال الشَّاقَّة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٨١٨) : ((خَلَّصْنَاهُم بإهلاك عَدُوِّهِم مِمَّا كانوا فِيه مِنَ الاستعبادِ ، وَقَتْلِ الأبناءِ ، واستحياءِ النِّسَاءِ ، وتَكليفِهم للأعمال الشَّاقَّة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ المُسْرِفِين ﴾ [الدُّخَان : ٣١] .

مِن طُغيانِ فِرْعَوْن وَجَبَرُوتِه ، إِنَّه كانَ مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا ، مِنَ الكافرين المُتجاوزين حَدَّهُم في الطُّغْيَانِ والإجرامِ . وَلَيْسَ هَذا عُلُوَّ مَدْحٍ ، بَلْ هُوَ عُلُوٌّ في الإسراف .

وهذا مِنْ جُملة تَعْدَاد النِّعَم على بني إسرائيل ، والمَقصودُ مِنْ ذلك تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وتَبْشِيرُه بأنَّه سَيُنَجِّيه وَقَوْمَه المُؤمِنين مِن أيدي المُشركين ، فإنَّهُم لَمْ يَبْلُغُوا في التَّجَبُّرِ مِثْلَ فِرْعَوْن وقَوْمِه .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١١ / ٢٣٩) : ((يَعْني بِقَوْلِه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ المُسْرِفِين ﴾ أنَّه كانَ جَبَّارًا مُسْتَعْلِيًا مُسْتَكْبِرًا على رَبِّهِ ﴿ مِنَ المُسْرِفِين ﴾ ، يَعْني : مِنَ المُتَجَاوِزين مَا لَيْسَ لَهُم تَجَاوُزُه ، وإنَّما يَعْني جَلَّ ثَنَاؤُه أنَّه كان ذا اعتداء في كُفْرِه واستكبارٍ عَلى رَبِّهِ جَلَّ ثَنَاؤُه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلى العَالَمِين ﴾ [الدُّخَان : ٣٢] .

اصْطَفاهُمُ اللَّهُ وشَرَّفَهم على عِلْمٍ مِنْه باستحقاقهم لذلك الشَّرَفِ على جميع الناس في زَمَانِهِم، أي : على أَهْلِ زَمَانِهِم ، لا على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تعالى : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ ﴾ [آل عِمران : ١١٠] . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٨١٨) : ((لمَّا بَيَّنَ سُبحانَه كَيْفِيَّةَ دَفْعِه للضُّرِّ عَنْ بَنِي إسرائيل بَيَّنَ مَا أَكْرَمَهُم بِه، فقال: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلى العَالَمِين ﴾ أي: اختارهم اللَّهُ على عَالَمِي زَمَانِهِم على عِلْمٍ مِنْه باستحقاقهم لذلك ، وَلَيْسَ المُراد أنَّه اختارهم على جميع العَالَمِين بدليل قَوْلِه في هذه الأُمَّةِ : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ ﴾ ، وقِيل: على كُلِّ العَالَمِين لكثرة الأنبياء فِيهِم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآياتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِين ﴾ [الدُّخَان : ٣٣] .

وآتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الحُجَجِ والبَرَاهِينِ وخَوارِقِ العاداتِ مَا فيه اختبارٌ وامتحانٌ واضحٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ وَتَبَصَّرَ . والآياتُ مِثْلُ فَلْقِ البَحْرِ ، وَتَظليلِ الغَمَامِ ، وإنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى ، وغَيْرُها مِنَ الآياتِ الباهرةِ التي مَا أظْهَرَ اللَّهُ مِثْلَهَا عَلى أَحَدٍ سِوَاهُم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/٦١٨) : ((﴿ وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآياتِ ﴾ أي مُعْجِزَات مُوسَى ﴿ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِين ﴾ ، أي: اختبارٌ ظاهرٌ وامتحانٌ واضحٌ لِنَنْظُرَ كيف يَعْمَلُون.وقال قَتَادَة : الآياتُ إنجاؤُهم مِنَ الغَرَقِ ، وَفَلْقُ البَحْرِ لهم ، وتَظليلُ الغَمَامِ عَلَيهم ، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوَى لَهُم. وقال ابن زَيد:الآياتُ هِيَ الشَّرُّ الذي كَفَّهُم عَنْه،والخَيْرُ الذي أمَرَهم بِه.وقال الحَسَن وقَتَادة: البَلاءُ المُبِين: النِّعْمَةُ الظاهرة، كما في قَوْلِه: ﴿ وَلِيُبْلِيَ المُؤمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال : ١٧])).

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى العَالَمِين ﴾ [الجاثية : ١٦] .

أعطى اللَّهُ بني إسرائيل التَّوراةَ والإنجيلَ، وفَهْمَ الكِتابِ وفِقْهَ السُّنَنِ، وفَصْلَ الخُصومات بين الناس ، وجَعَلَ مِنهم أنبياء ورُسُلًا إلى الناس ، وجَعَلَ فِيهُم النُّبُوَّةَ والمُلْك . وقد كَثُرَ في بني إسرائيل الأنبياء ما لَمْ يَكثُروا في غَيرهم . وَرَزَقَهُم مِن المآكل الشَّهِيَّة والمشارب اللذيذة . وفضَّلهم على سائر الأمم في زمانهم . واللَّهُ يُذكِّرهم بنِعَمه العظيمة عليهم ، وإحسانه إليهم ، ورحمته بهم . فقد كانوا أعظمَ الناس في زمانهم ، وأشرف الأُمم في وقتهم . وَلَمْ يَكُنْ أحد مِنَ العَالَمِين في زمانهم أفضل مِنهم ، ولا أحسن حالًا ، ولا أكرم على اللَّه ، ولا أحب إليه منهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ١١) : ((قَوْلُه : ﴿ وَلَقَدْ آتَينا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ . المُراد بالكِتاب التَّوراة ، وبالحُكْم الفَهْم والفِقه الذي يكون بهما الحُكم بين الناس وفَصْل خُصوماتهم ، وبالنُّبُوَّة مَن بَعثه اللَّهُ مِن الأنبياء فيهم ، ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي: المُسْتَلَذَّات التي أحَلَّها اللَّهُ لهم ومِنْ ذلك المَنُّ والسَّلوى ، ﴿ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى العَالَمِين ﴾ مِنْ أهْلِ زمانهم ، حَيْث آتَيْناهم مَا لَمْ نُؤْتِ مَنْ عَدَاهم مِنْ فَلْقِ البَحْر ونَحْوه)) .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالَيْن (٤ / ٦٥) : ((والمَقصودُ مِنْ ذلك تَسْلِيته ﷺ ، كأنَّه قال : لا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّد على كُفْرِ قَوْمِك ، فإنَّا آتَيْنا بني إسرائيل الكِتَابَ والنِّعَمَ العظيمة، فَلَمْ يَشْكُروا ، بَلْ أصَرُّوا على الكُفْرِ ، فكذلك قَوْمُك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون ﴾ [الجاثية : ١٧] .

بيَّن اللَّهُ لبني إسرائيل في التَّوراة أحكامَ الشريعةِ وأمْرَ النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بكل وُضوح، دُون لَبْس ولا غُموض،فما اختلفوا في ذلك إلا بعد ظُهور الحُجَج أمامهم ، ووُضوح الأدلة والبراهين التي تُثبِت صِدْقَه وصِحَّة نُبُوَّته ، حسدًا وعِنادًا وطلبًا للرئاسة والزعامة والمناصب ، وحُبًّا للدنيا .

وكُفْرُ اليهود قائم على العِلْم،والمفروضُ أنَّ العِلْم يَقُود صاحبَه إلى الإيمانِ والسَّعَادةِ والنَّعيمِ والوِئام ، ولكنَّ عِلْمَ اليهود قادهم إلى الكُفْرِ والضَّلالِ والشَّقَاءِ والاختلافِ ، لأنَّ اليهود طَلَبُوا العِلْمَ لِجَمْعِ حُطامِ الدُّنيا ، والحُصولِ على الرِّئاسة والزَّعامة ، ولَيْسَ حُبًّا للإيمان أوْ حِرْصًا على الحَقِّ والخَيْرِ والصَّوَابِ . وهذا يُفَسِّر سَبَبَ عِنادهم بعد عِلْمهم.واللَّهُ يَفْصِل بين عِباده يوم القيامة فِيما اختلفوا فيه مِنْ أمْرِ الدِّينِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩١) : ((﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِن الأمْرِ ﴾ أي : حُجَجًا وبراهين وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحُجَج ، ثم اختلفوا بعد ذلك مِن بعد قيام الحُجَّة ، وإنَّما كان ذلك بَغْيًا منهم على بعضهم بعضًا ، ﴿ إنَّ رَبَّكَ ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون ﴾ أي : سَيَفْصِل بَيْنَهُم بِحُكْمِه العَدْل . وهذا فيه تحذير لهذه الأُمَّة أن تَسْلُكَ مَسْلَكَهُم ، وأنْ تَقْصِدَ مَنْهَجَهُم)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٧ / ٣٥٩) : ((﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِن الأمْرِ ﴾ فيه قَولان : أحدهما بيان الحلال والحرام ، قاله السُّدي . والثاني العِلْم بِمَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وشَواهِدِ نُبُوَّته ، ذَكَرَه المَاوَرْدِيُّ)) .

واللَّهُ يُؤْتي مُلْكَه مَنْ يَشاء،ويَنْزِعُه مِمَّنْ يَشاء.وهو المُتَصَرِّفُ في مُلْكِه كما يشاء ، وكُلُّ شَيْءٍ مُلْكُه. وجاءَ تفضيلُ الأُمَّةِ المُحمَّدية بعد أدائها المُمتاز في حمل الرِّسالة كاملةً غير مُجْتَزَأة . والأُمَّةُ المُحمَّديةُ أعظمُ الأُمم على الإطلاق . وليس هذا تَبَجُّحًا أو اتِّباعًا لخُرافة نَقَاء العِرْق أو استكبارًا في الأرض بغير الحق . فالأفضلية المُطْلقة لهذه الأُمَّة مَحكومة بشروط ينبغي توفرها حتى تنال صدارة الأمم . وهذه الشروط هي الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر والإيمان باللَّه تعالى . ولا يمكن الحصول على الريادة، وتصدُّر المشهد الأُممي العالمي إلا بتحقيق هذه الشروط، إذْ إن أفضلية الأُمَّة مترتبة على مدى الالتزام بها ، وتحقيقها واقعًا ملموسًا . ومَن أراد معرفة مكانة الأُمَّة المُحمَّدية فليتخيَّل العَالَمَ بدونها . عِندئذ سيختفي الإيمانُ من الأرض ، ويزول التَّوحيد ، ويُسيطر الكفرُ على تفاصيل الحياة مِن أوَّلها إلى آخرها ، وتنهار النُّظُم البشرية دون أيَّة فُرصة للنُّهوض .

٣_ حَالاتُهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وَالذينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ [البَقَرَة : ٦٢] .

إنَّ المؤمنين أتْبَاعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، واليهودَ أتْبَاعَ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ ، والنَّصَارى أتْبَاعَ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ ، والصَّابئين الذين يَعْبُدُون المَلائكةَ ، مَنْ آمَنَ مِنْ هَذه الطوائف إيمانًا صادقًا فَصَدَّقَ باللَّهِ ، وأيْقَنَ بالآخِرَةِ ، وَعَمِلَ بطاعةِ اللَّهِ في دَارِ الدُّنيا ، فَلَهُم ثَوَابُهُم عِند اللَّهِ لا يَضِيع مِنْه شَيْء، ولَيْسَ عَلى هَؤلاء المُؤمِنين خَوْفٌ في الآخِرَةِ ، حِينَ يَخَافُ الكُفَّارُ مِنَ العِقَابِ ، وَيَحْزَن المُقَصِّرُون عَلى تَضييعِ العُمُرِ وَتَفْوِيتِ الثَّوَاب .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٣٣٣) : ((﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا ﴾ بألسنتهم ، يُريد به المُتَدَيِّنين بِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ المُخْلِصين مِنْهُم ، والمُنَافِقِين . وقِيل: المُنَافِقِين لانخراطهم في سِلْكِ الكَفَرَةِ ، ﴿ وَالذينَ هَادُوا ﴾ تَهَوَّدُوا ، يُقَال : هَاد وَتَهَوَّدَ إذا دخل في اليهودية ، ويهود : إمَّا عربي مِنْ هَاد، إذا تابَ ، سُمُّوا بذلك لمَّا تابوا مِنْ عِبادة العِجْل ، وإمَّا مُعَرَّب يَهُوذا ، وكأنَّهُم سُمُّوا باسم أكبر أولاد يَعْقُوب عليه السلام ، ﴿ وَالنَّصَارَى ﴾ جَمْع نَصْرَان، كَنَدَامى ونَدْمَان ، والياء في نَصْرَاني للمُبَالَغَة ، كما في أحمري ، سُمُّوا بذلك لأنَّهم نَصَرُوا المسيحَ عليه السلام ، أوْ لأنَّهم كانوا معه في قرية يُقَال لها نَصْرَان أوْ ناصرة ، فَسُمُّوا باسمها أوْ مِن اسْمِها ، ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ قَوْم بَيْنَ النَّصَارى والمَجُوسِ ، وقِيل : أصْلُ دِينِهم دِينُ نُوحٍ عليه السلام ، وقِيل : هُمْ عَبَدَةُ المَلائكةِ ، وقِيل : عَبَدَة الكواكب ، وهو إنْ كانَ عَرَبِيًّا فَمِنْ صَبَأ ، إذا مالَ ، لأنَّهُم مالوا عن سائر الأديان إلى دِينِهم ، أوْ مِنَ الحَقِّ إلى الباطل ، ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ مَنْ كانَ في دِينِه قَبْل أن يُنْسَخَ مُصَدِّقًا بقلبه بالمَبْدَأ والمَعَادِ ، عَامِلًا بِمُقْتَضَى شَرْعِه ، وقِيل : مَنْ آمَنَ مِنْ هَؤلاء الكَفَرَةِ إيمانًا خالصًا ، وَدَخَلَ في الإسلام دُخُولًا صادقًا ، ﴿ فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الذي وَعَدَ لَهُم على إيمانِهم وَعَمَلِهِم ، ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ حِينَ يَخَاف الكُفَّارُ مِنَ العِقَابِ وَيَحْزَن المُقَصِّرُون على تَضْيِيعِ العُمُرِ وَتَفْوِيتِ الثَّوَابِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أنتُمْ هَؤلاءِ تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنكُم مِن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بالإثْمِ وَالعُدْوَانِ وَإن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إخْرَاجُهُمْ أفَتُؤمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إلا خِزْيٌ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾ [البَقَرَة : ٨٥] .

استبعادٌ لِمَا ارتكبوا بعد المِيثاقِ ، والإقرارِ به ، والشَّهَادَةِ عَلَيه . ثُمَّ نَقَضْتُم أيضًا المِيثاقَ يا مَعْشَرَ اليَهُودِ بعد إقراركم به . تَقْتُلُون إخوانَكم في الدِّينِ (يَقْتُل بعضُكم بعضًا) ، وقد عَبَّرَ عن قتلِ الغَيْرِ بقتلِ النَّفْسِ ، لأنَّ مَن أراقَ دَمَ غَيْرِه ، فكأنَّما أراقَ دَمَ نَفْسِه . وتَطْرُدُون فريقًا مِنكُم مِن دِيَارهم مِن غَيْر التفات إلى المِيثاق (العَهْد الوَثِيق)، تتعاونون على أهلِ مِلَّتِكُم بالمَعصيةِ والظُّلْمِ .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤٤٠) : ((ويَتَّجِه في قَوْلِه : ﴿ ثُمَّ أنتُمْ هَؤلاءِ ﴾ وَجْهَان : أحدُهما أن يَكُون أُرِيدَ به : ثُمَّ أنتم يا هؤلاء ، فَتَرَكَ " يا " استغناءً بِدَلالة الكلام عليه ، ... ، فَيَكُون مَعنى الكلام حِينئذ : ثُمَّ أنتم يَا مَعْشَرَ يَهُود بني إسرائيل بعد إقراركم بالمِيثاق الذي أَخَذْتُهُ عَلَيكم : لا تَسْفِكُون دِمَاءكم ، ولا تُخْرِجُون أنفُسَكم مِن دِياركم ، ثُمَّ أقْرَرتُم بَعْد شَهَادتكم على

أنفُسِكم بأنَّ ذلك حَق لِي عَلَيكم لازم لكم الوفاء لِي به ، ﴿ تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنكُم مِن دِيَارِهِمْ ﴾ مُتَعَاوِنِين عَلَيهم في إخراجكم إيَّاهم بالإثمِ والعُدْوانِ . والتَّعَاوُنُ هو التَّظَاهُر ، وإنَّمَا قِيل للتَّعَاوُنِ التَّظَاهُر ، لِتَقويةِ بَعْضِهم ظَهْرَ بَعْضٍ ، فهو تَفَاعُل مِن الظَّهْر ، وهو مُساندة بَعْضِهم ظَهْرَه إلى ظَهْرِ بَعْضٍ ، ...)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١/ ١٢٤ و١٢٥) : ((﴿ ثُمَّ أنتُمْ هَؤلاءِ ﴾ خِطَابٌ خَاصٌّ بالحاضرين ، فيه توبيخ شديد واستبعاد قويٌّ لِمَا ارتكبوه بعد مَا كانَ مِن المِيثاق ، والإقرارِ به ، والشَّهَادةِ عَلَيه ، و " أنتم " مُبتدأ ، و " هؤلاء " خَبَرُه ، ومَنَاطُ الإفادةِ اختلافُ الصِّفَات المُنَزَّلَة مَنزِلة اختلاف الذات ، والمَعنى : أنتم بعد ذلك هؤلاء المُشَاهِدُون النَّاقِضُون المُتَنَاقِضُون حَسْبَمَا تُعْرِب عَنه الجُمُلُ الآتية ، فإنَّ قَوْلَه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ ﴾ إلخ ، بَيَانٌ له ، وتفصيلٌ لأحوالهم المُنْكَرَة المُنْدَرِجَة تحت الإشارة ضِمْنًا كأنَّهُم قالوا: كيف نَحْنُ ؟، فَقِيل: تَقْتُلُون أنفُسَكُم أي الجَارِين مَجْرَى أنفُسِكم كما أُشِيرَ إلَيه ، ... ، ﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنكُم ﴾ الضَّمِير إمَّا للمُخَاطَبِين ، والمُضَاف مَحذوف أي مِن أنفُسِكم ، وإمَّا للمَقتولين ، والخِطَابُ باعتبار أنَّهُم جُعِلُوا أنفُسَ المُخَاطَبِين ، وإلا فلا يَتَحَقَّق التكافؤ بين المَقتولين والمُخْرَجِين في ذلك العُنوان الذي عَلَيه يَدُور فَلَكُ المُبَالَغَة في تأكيد المِيثاق حَسْبَمَا نُصَّ عَلَيه، ولا يَظهَر كمالُ قَبَاحَةِ جِنَاياتهم في نَقْضِه، ﴿ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ الضَّمِير للفَرِيق ، وإيثارُ الغَيْبَةِ معَ جَوَاز الخِطَاب أيضًا بِنَاءً على اعتبار العُنوان المَذكور كما مَرَّ في المِيثاق ، للاحتراز عَن تَوَهُّمِ كَوْنِ المُرادِ إخراجَهم مِن دِيَار المُخَاطَبِين مِن حيث هي دِيَارُهم ، لا مِن حَيث هي دِيَار المُخْرَجِين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعْدِهِ وأنتُمْ ظالمون ﴾ [البَقَرَة : ٩٢] [٧٦] .

ولقد جاءكم يا يهود بني إسرائيل النبيُّ موسى ﷺ بالدلائلِ القاطعة ، والمُعجِزاتِ الواضحة الدَّالة على صِدْقِه، وصِحَّةِ نُبُوَّته ، وتَوحيدِ اللَّه تعالى . وَقَدْ سَمَّاها اللَّهُ بَيِّنات ، لوضوحها أمام

---

٧٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١١٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ولقد جاءَكُم مُوسى بالبَيِّناتِ ﴾ فيها قَولان : أحدهما : ما في الألواح مِنَ الحلال والحرام ، قاله ابن عباس. والثاني: الآيات التِّسْع ، قاله مُقاتل . وفي هاء ﴿ بَعْدِهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنها تعود إلى موسى ، فمعناه مِن بعد انطلاقه إلى الجبل ، قاله ابن عباس ومُقاتل . والثاني أنها تعود إلى المجيء ، لأنَّ ﴿ جاءَكُم ﴾ يدل على المجيء)) .

الناظرين إلَيها ، وعدم قُدرة بشر على المجيء بها إلا بإذن اللَّه تعالى . ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مَعبودًا مِن دُون اللَّه ، مِن بَعد ذهاب مُوسى إلى الطُّور لمُناجاة اللَّه ، وأنتم ظالمون لأنفسكم بالشِّرْك باللَّهِ تعالى . والمقصودُ بالبَيِّنات الآيات التِّسْع.قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَقَد آتَينا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١] . وهي : العصا ، واليد ، والطُّوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٧٧) : ((والآيات البَيِّنات هي : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، والعصا ، واليد ، وفَرْق البحر ، وتظليلهم بالغمام ، والمَن ، والسَّلوى ، والحَجَر ، وغَير ذلك من الآيات التي شاهدوها)) .

وبعد رؤية كُلِّ الآياتِ الرَّبانية الباهرة، ووضوح البراهين أمامهم، وقِيام الحُجَّة عليهم،وانقطاع أعذارهم ، اتَّخذوا العِجْلَ إلَهًا مَعبودًا مِن دون اللَّه ، بعد أن فارقَهم النبيُّ موسى ﷺ، وذهبَ إلى الطُّور لِمُناجاة اللَّه . وقد ظَلموا أنفسَهم بارتكابهم هذه الجريمة ، لأنَّهم عرَّضوها لغضبِ اللَّه وعذابِه الشديد . والشِّرْكُ أسوأ أنواع الظلم ، لأن المُشرك اعتنقَ عِبادةَ المَخلوق ، ورفضَ تَوحيدَ الخالق . وعبادتهم للعِجْل دليلٌ على كَذِبهم حين زَعموا الإيمان بالتَّوراة . والآيةُ تَوبيخٌ لهم وفضحٌ لكفرهم ، وقد عَيَّرهم اللَّهُ باتِّخاذهم العِجْل إلَهًا .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢/ ٣٢): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذتُمُ العِجْلَ ﴾ تَوبيخ، و﴿ ثُمَّ ﴾ أبلغ مِن الواو في التقريع ، أي بعد النَّظَر في الآيات والإتيان بها ، اتَّخَذْتُمْ ، وهذا يدلُّ على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مُهلة مِن النظر في الآيات ، وذلك أعظم لِجُرْمهم)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٢) : ((﴿ وأنتم ظالمون ﴾ حال بمعنى: اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ ظالمين بعبادته ، أو بالإخلال بآيات اللَّه تعالى ، أو اعتراض بمعنى : وأنتم قوم عادتكم الظُّلْم . ومَساق الآية أيضًا لإبطال قَولهم : ﴿ نُؤمِنُ بما أُنزِلَ عَلَينا ﴾ [البقرة: ٩١]. والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام ، لا لتكرير القصة ، وكذا ما بَعْده)) .

إن الغُرور والغُلُوَّ وجهان لعُملة واحدة ، لأن الإنسان يَغلو في الدِّين ، ويُصبح مُتَطَرِّفًا ، لأنه يَعْتبر نَفْسَه العَالِمَ الكبير الشريف الطاهر التَّقِيَّ ، ويَعتبر الآخرين جُهَّالًا وفاسقين وعُصاةً . وبالتالي، فهو أفضل مِن الآخرين ، وأعظم إيمانًا وتقوى مِنهم . وهو وَحْدَه الذي هَداه اللَّه ، ووَحْدَه العَالِم بالشريعة في المجتمع المُتخلِّف المُنهار ، وباقي الناس أغبياء وحَمْقى وفاسقون

وضَالُّون . والاستعلاءُ على الناس ، واحتقارهم ، والنَّظَر إلَيهم بفَوقية ، يُؤدِّي إلى الغُلُوِّ والتَّطَرُّف في الدِّين .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ [البَقَرَة : ١٠٠] .

كُلَّمَا عَاهَدَ اليَهُودُ اللَّهَ عَهْدًا على الإيمانِ بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ إنْ خَرَجَ ، أوْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ أن لا يُعَاونوا عَلَيه المُشركين ، طَرَحَه جَمَاعَةٌ مِنْهُم بِنَقْضِه ، جَوَاب كُلَّمَا ، وَهُوَ مَحَلُّ الاستفهامِ الإنكاريِّ . وإنَّما قالَ : ﴿ فَرِيقٌ ﴾ ، لأنَّ بَعْضَهم لَمْ يَنْقُضْ . بَلْ أكْثَرُهُم لا يُؤْمِنُون ، لأنَّهُم مِنْ بَيْنِ نَاقِضٍ للعَهْدِ وَجَاحِدٍ لِنُبُوَّتِهِ مُعَانِدٍ له .

واليَهُودُ لا يلتزمون بالعُهودِ والمواثيق ، وهذا دَيْدَنُهُم على مَرِّ العُصُور . فَهُم يَعتقدون أنَّ التزامهم بالعهد سَيُؤثِّر سَلْبًا عَلَيهم ، ويَحْشُرُهم في الزاوية ، لذلك يَستخدمون العُهودَ لِكَسْبِ الوَقْتِ ، وتَنفيذِ مُخططاتهم الشِّريرة ، فَهُم ملتزمون بالعهد مَا دامَ مُتوافقًا معَ مصالحهم الآنِيَّةِ ، أمَّا إذا خالفَ أهواءَهم ومنافعَهم الشخصية ، فَسَيَضْرِبُون بِه عُرْضَ الحَائطِ. وَلَيْسَ في الأرضِ عَهْدٌ يُعَاهِد عَلَيْه اليَهُودُ إلا نَقَضُوه وَنَبَذُوه ، يُعَاهِدُون اليَوْمَ ، ويَنْقُضُون غَدًا .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤٨٧) : ((وأمَّا العَهْدُ فإنَّه المِيثاق الذي أعطته بَنُو إسرائيل رَبَّهُم لَيَعْمَلُنَّ بما في التَّوراةِ مَرَّةً بَعْد أُخْرَى ، ثُمَّ نَقَضَ بعضُهم ذلك مَرَّةً بعد أُخْرَى ، فَوَبَّخَهُم جَلَّ ذِكْرُه بِما كان مِنهم مِن ذلك ، وَعَيَّرَ به أبناءَهم إذْ سَلَكُوا مِنهاجَهم في بعض ما كان جَلَّ ذِكْرُه ، أَخَذَ عليهم بالإيمان بِه مِنْ أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِن العَهْدِ والمِيثاق، فَكَفَرُوا وَجَحَدُوا مَا في التَّوراةِ مِنْ نَعْتِه وصِفَتِه، فقالَ تَعَالى ذِكْرُه : أوَ كُلَّمَا عَاهَدَ اليهودُ مِن بَني إسرائيل رَبَّهُم عَهْدًا وَأوْثَقُوه مِيثَاقًا نَبَذَه فَرِيقٌ مِنهُم فَتَرَكَه وَنَقَضَه ؟. ... . وأمَّا قَوْلُه: ﴿ بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ فإنَّه يَعْني جَلَّ ثَنَاؤُه: بَلْ أكثر هؤلاء الذين كُلَّمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَهْدًا وَوَاثَقُوه مَوْثِقًا نَقَضَه فَرِيقٌ مِنْهُم لا يُؤْمِنُون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِن أحَدٍ إلا بِإذْنِ اللَّهِ ﴾ [البَقَرَة : ١٠٢] .

أعرضَ اليهودُ عن التَّوراة (كتاب اللَّه) ، واتَّبَعوا ما تَتلو الشياطين على عهد النبيِّ سُلَيمان ﷺ مِن السِّحْر. وكان اليهودُ يَظنُّون أن سُلَيمان ساحر ، وأنَّ السِّحْرَ هو عِلْمُه، وأنه يُجيزه، ويَسمح به،

فكذَّبهم اللَّهُ ، وبرَّأ سُلَيمان ، ورَدَّ عليهم ، في قَولهم إن محمدًا يَذكُر سُلَيمان في الأنبياء ، وما كان إلا ساحرًا : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ، لَمْ يَعمل السَّحْرَ لأنه كُفر . وسُلَيمان نبيٌّ معصوم . ولم يقل أحد بكُفر سُلَيمان ، ولكن لمَّا اعتبرته اليهودُ ساحرًا ، صارَ بمنزلة الكافر ، لأن السِّحْر يَستلزم ذلك. لذلك، أثبتَ اللَّهُ كُفرَ الشياطين: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾، أي : إن الشياطين كفروا بتعليمهم السِّحْر للناس ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ ﴾ ، وما أُلْهِمَاه مِن السِّحْر . أي إنهم يَعْمَلُون الذي أُنزِل على المَلَكَيْن ، أي إلهامًا وعِلْمًا وتعليمًا . والإنزالُ بمعنى الإلهام ، ﴿ بِبَابِلَ ﴾ بلد في العراق ، ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ ، ساحران كانا يُعلِّمان السِّحْرَ ، أو مَلَكَان أُنزِلا لتعليم السِّحْر ابتلاءً مِن اللَّه للناس ، ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ ، كانا يَنصحان الناسَ ، ويقولان لهم : إنما نحن امتحان واختبار من اللَّه لعباده ، فَمَن تعلَّمَ السِّحْرَ كَفَرَ ، ومَنْ تَركه فهو مؤمن ، واللَّهُ يَمتحن عباده بما شاء ، فلا تكفر بتعلُّم السِّحْر . وهذا دليل على أنَّ تَعَلُّمَ السِّحْر كُفْر.ومَن أبى إلا التعليم عَلَّمَاه ، ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ ، بأن يَكْرَهَ الزَّوجان بَعْضَهما البعض ، وتَحْدُث الفُرقة بينهما . وهذا دليل على أن للسِّحْر تأثيرًا في القلوب بالحُب والكراهية ، ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، اللَّهُ وَحْدَه هو النافع والضَّار . والسِّحْرُ له تأثير في نَفْسِه ، وحقيقة ثابتة ، ولكنه لا يَضُرُّ إلا بإرادة اللَّه تعالى .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((إنَّ الشياطين كانوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ ، وكانَ أحدُهم يجيء بكلمةِ حَقٍّ قد سَمِعَهَا الناسُ ، فيَكذِبُ مَعَها سَبعين كِذبَة ، فَيُشْرِبُهَا قُلُوبَ الناس ، فأطلعَ اللَّهُ على ذلك سُلَيمانَ بنَ داود ، فأخذها فدفنها تحت الكُرْسِيِّ ، فلمَّا مات سُلَيمان ، قام شَيطانٌ بالطريق فقال : ألا أدُلُّكم على كَنْز سُلَيمان ، الذي لا كَنْزَ لأحدٍ مِثْلُ كَنْزِه المُمْتَنِع ؟ قالوا : نَعَم ، فَأَخْرَجُوه ، فإذا هو سِحْر، فتناسختها الأممُ، فبقاياها مِمَّا يَتحدَّث به أهلُ العراق، فأنزلَ اللَّهُ عُذرَ سُلَيمان ، فقال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾)) [٧٧] .

النبيُّ سُلَيمان ﷺ مَعصوم . أرشدَ الناسَ إلى الحق والخير، ولكن اليهود اتَّهموه بالسِّحْر ، فكذَّبهم اللَّهُ ، وبرَّأه ، وأعلى شَأنَه في الدنيا والآخرة .

---

٧٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٢٩١) برقم (٣٠٥٠) ، وصَحَّحَه الذهبي .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤٩١) : ((يعني بقَوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ الفريق من أحبار اليهود وعلمائها ، الذين وصفهم اللَّهُ جَلَّ ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على مُوسى وراء ظهورهم تجاهلًا منهم ، وكُفرًا بما هُم به عَالِمُون ، كأنهم لا يَعْلَمون ، فأخبرَ عنهم أنهم رفضوا كتابه الذي يعلمون أنه مُنزَل مِن عِنده على نَبِيِّه ﷺ ، ونقضوا عهده الذي أخذه عليهم في العمل بما فيه ، وآثروا السِّحْرَ الذي تلته الشياطين في مُلْك سليمان بن داود ، فاتَّبعوه ، وذلك هو الخَسار والضلال المُبين)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٢٠ ـ ١٢٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ في سبب نزولها قَولان : أحدهما أن اليهود كانوا لا يَسألون النبيَّ عن شَيء من التَّوراة إلا أجابهم ، فسألوه عن السِّحْر ، وخاصموه به ، فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية. والثاني أنه لمَّا ذُكِرَ سُلَيمان في القُرآن ، قالت يهود المدينة : ألا تَعْجَبون لِمُحَمَّدٍ ، يَزعُم أن ابن داود كان نبيًّا ، واللَّه ما كان إلا ساحرًا، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن إسحاق. و﴿ تَتْلُو ﴾ بمعنى تَلَتْ.و﴿ عَلَى ﴾ بمعنى " في " ، قاله المُبَرِّد. قال الزَّجَّاج: وقَوْلُه: ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي: على عهد سُلَيمان . وفي كيفية ما تَلَت الشياطين على مُلْك سُلَيمان ستة أقوال: أحدها أنه لمَّا خَرج سُلَيمان عن مُلكه، كَتبت الشياطينُ السِّحْرَ ، ودفنته في مُصَلَّاه ، فلمَّا تُوُفِّيَ استخرجوه ، وقالوا : بهذا كان يَملِك المُلْك ، ذَكَرَ هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وهو قول مقاتل . والثاني أن آصَف كان يَكتب ما يأمر به سُلَيمان ، ويَدفنه تحت كُرسِيِّه ، فلمَّا مات سُلَيمان استخرجته الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سِحْرًا وكَذِبًا ، وأضافوه إلى سُلَيمان ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . والثالث أن الشياطين كَتبت السِّحْرَ بعد موت سُلَيمان ، ثم أضافته إليه ، قاله عِكْرمة . والرابع أن الشياطين ابتدعت السِّحْرَ ، فأخذه سُلَيمان فدفنه تحت كُرسيه ، لئلا يتعلَّمه الناسُ ، فلمَّا قُبِض استخرجته ، فعلَّمته الناس ، وقالوا هذا عِلْم سُلَيمان ، قاله قَتادة . والخامس أن سُلَيمان أخذ عُهُودَ الدَّواب فكانت الدَّابة إذا أصابت إنسانًا طلب إليها بذلك العهد ، فتُخلِّي عنه ، فزادَ السَّحَرَةُ السَّجْعَ والسِّحْر ، قاله ابو مِجْلَز . والسادس أن الشياطين كانت في عَهْد سُلَيمان ، تَسترِق السَّمْعَ ، فتسمع مِن كلام الملائكة ما يكون في الأرض مِن مَوت ، أو غَيث ، أو أمر ، فيأتون الكَهَنَة فيُخبِرونهم ، فتُحدِّث الكَهَنَةُ الناسَ ، فيجدونه كما قالوا ، حتى إذا أَمِنَتْهُم الكَهَنَةُ كذبوا لهم ، وأدخلوا فيه غَيْرَه ، فزادوا مع كُل كلمة سبعين كلمة ، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكُتب ، وفشا في بني اسرائيل أن الجِن تَعْلَم الغَيْبَ ، فَبَعَثَ سُلَيمانُ في الناس ، فجمع تلك الكتب في

صُندوق ، ثم دفنها تحت كُرسيه ، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يَدنوَ مِن الكرسي إلا احترق . وقال : لا أسمع أحَدًا يَذكُر أن الشياطين يَعْلَمون الغَيْبَ إلا ضَرَبْتُ عُنُقَه ، فلمَّا مات سُلَيمان ، جاء شَيطانٌ إلى نَفَر مِن بني إسرائيل ، فدلَّهم على تلك الكُتب، وقال: إنما كان سُلَيمان يَضْبِط أمرَ الخَلْق بهذا ، ففشا في الناس أن سُلَيمان كان ساحرًا ، واتَّخذ بنو إسرائيل تلك الكتب، فلمَّا جاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاصَمُوه بها ، هذا قَول السُّدي . وسُلَيمان اسم عِبراني ، وقد تكلَّمت به العرب في الجاهلية ... . وفي قَوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ دليل على كُفر السَّاحر ، لأنهم نُسِبُوا إلى السِّحْر لا إلى الكُفر ... . قَوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ ﴾ . وفي ﴿ مَا ﴾ قَولان : أحدهما أنها مَعطوفة على ﴿ مَا ﴾ الأُولَى ، فتقديره : واتَّبَعُوا ما تتلو الشياطين ، وما أُنزِل على المَلَكَيْن . والثاني أنها معطوفة على السِّحْر ، فتقديره : يُعلِّمون الناسَ السِّحْرَ ، ويُعلِّمونهم ما أُنزِل على المَلَكَيْن ، فإن قِيل : إذا كان السِّحْرُ نزل على المَلَكَيْن ، فلماذا كُرِهَ ؟ فالجواب مِن وجهين ذكرهما ابنُ السَّرِيِّ : أحدهما أنهما كانا يُعلِّمان الناسَ : ما السِّحْرُ ، ويأمران باجتنابه . وفي ذلك حِكمة ، لأن سائلًا لو قال : ما الزنى ؟ ، لوجب أن يُوقَف عليه ، ويَعْلَم أنه حرام. والثاني أنه مِن الجائز أن يكون اللَّه تعالى امتحنَ الناس بالمَلَكَيْن ، فَمَن قَبِلَ التعلمَ كان كافرًا ، ومَنْ لَمْ يَقْبَلْه فهو مؤمن ، كما امتحنَ بنهر طالوت . وفي الذي أُنزِل على المَلَكَيْن قَولان : أحدهما أنه السِّحْر ، رُوِيَ عن ابن مسعود والحسن وابن زيد. والثاني أنه التفرقة بين المَرء وزَوْجه لا السِّحْر، رُوِيَ عن مجاهد وقَتادة ، وعن ابن عباس كالقَوْلَيْن . قال الزَّجَّاج: وهذا من باب السِّحْر أيضًا . الإشارة إلى قصة المَلَكَيْن . ذَكَرَ العلماء أن المَلَكَيْن إنما أُنزِلا إلى الأرض لسبب، وهو أنه لمَّا كَثُرَتْ خطايا بني آدم دَعَتْ عليهم الملائكةُ ، فقال اللَّهُ تعالى: لَوْ أنْزَلْتُ الشَّهْوَةَ والشياطين مِنكم منزلتهما من بني آدم لَفَعَلْتُم مِثْلَ مَا فَعَلُوا، فَحَدَّثوا أنفُسَهم أنهم إن ابْتُلُوا اعتصموا ، فأوحى اللَّهُ إليهم أن اختاروا من أفضلكم مَلَكَيْن، فاختاروا هاروت وماروت، وهذا مروي عن ابن مسعود وابن عباس . واختلف العلماء ماذا فعلا مِن المعصية على ثلاثة أقوال: أحدها أنهما زَنَيَا وقتلا وشَرِبا الخمرة ، قاله ابن عباس. والثاني أنهما جارا في الحُكم، قاله عُبَيد اللَّه بن عُتبة. والثالث أنهما هَمَّا بالمعصية فقط ... فصل . اختلف الفقهاء في حُكم الساحر ، فمذهب إمامنا أحمد رضي اللَّهُ عنه يَكْفُر بسِحْره ، قَتَلَ به أو لم يَقْتُلْ ، وهل تُقبَل توبته على روايتين . وقال الشافعي: لا يَكفُر بسِحْره ، فإنْ قَتَلَ بسِحْره ،وقال: سِحْري يَقْتُل مِثْلَه، وتَعَمَّدْتُ ذلك ، قُتِلَ قَوَدًا (قِصَاصًا) وإن قال: قَد يَقتل ، وقد يُخطِئ ، لَمْ يُقْتَلْ وفيه الدِّيَة ، فأمَّا ساحر أهل الكتاب، فإنَّه لا يُقْتَل عند أحمد إلا أن

يَضُرَّ بالمسلمين فيُقتَل لنقض العهد ، وسواءٌ في ذلك الرَّجُل والمرأة. وقال أبو حنيفة: حُكم ساحر أهل الكتاب حُكم ساحر المسلمين في إيجاب القتل،فأمَّا المرأة الساحرة فقال:تُحبَس ولا تُقْتَل))

إن اليهود يعتمدون على السِّحْر ، ويَعتبرونه سلاحهم السِّري الفعَّال ضِد خُصومهم وأعدائهم ، وقد رَفضوا كتابَ اللَّه ، وأعرَضوا عن تعاليم الأنبياء ، وتمسَّكوا بطُرق السِّحْر وطلاسمه وعوالمه .

وتَنْبُعُ خُطورةُ السِّحْر مِن كُمونه واستتاره وخفائه . والشخصُ يكون أمام عدو خَفِي لا يدري وُجْهَتَه،وأمام تأثير سلبي هائل لا يَعرِف مَصْدَرَه . ويجب التحصُّن بالقُرآن والسُّنَّة والأذكار الشرعية في مُواجهة السِّحْر والسَّحَرَة . والسِّحْرُ في غاية الخطورة ، وتأثيره في بعض الأحيان يصل إلى القتل . وحتى لَو حافظَ الشخصُ على الأذكارِ الشَّرعية فهو ليس بمعصومٍ من الوقوعِ في السِّحْر ، فالنبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ عبدُ اللَّهِ ورسولُه المعصومُ ، وأعظمُ المخلوقات على الإطلاق ، وأقرب عباد اللَّه إلى اللَّه ، ولن يَبْلُغَ إنسيٌّ أو جِنِّيٌّ مَبْلَغَه مِن العِلْم النافع والعمل الصالح. ومعَ هذا سُحِرَ على أيدي اليهود . وكانَ اللَّهُ قادرًا أن يُدافع عنه، ويَمنع تأثيرَ السِّحْر مِن الوصول إلَيه ، إلا أنه تعالى أرادَ تحذير العبادَ كي يأخذوا الحَيطة والحَذَر . ومشيئةُ اللَّه نافذة في كل شيء، ويجب التَّحَلِّي بالصَّبر ومُقاومة السِّحْر بالوسائل الشَّرعية . ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقدورًا﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

وعن السَّيدة عائشة _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ قالت: سَحَرَ رسولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ ، حتى كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّه يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَه ، حتى إذا كانَ ذَاتَ يَوْمٍ أوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّه دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قال:((يا عائشةُ، أَشَعَرْتِ أنَّ اللَّهَ أفْتَاني فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيه ؟ ، أتاني رَجُلان ، فَقَعَدَ أحدُهما عِندَ رأسي ، والآخَرُ عِندَ رِجْلي ، فقال أحدُهما لصاحبه : مَا وَجَعُ الرَّجُلِ ؟، فقال: مَطْبُوب. قال: مَنْ طَبَّه ؟ ، قال : لَبِيد بن الأعْصَم ، قال : في أيِّ شَيْءٍ ؟، قال : في مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ ، قال : وأيْنَ هُوَ ؟ ، قال : في بِئْرِ ذَرْوَان)). فأتاها رسولُ اللَّهِ ﷺ في ناسٍ مِنْ أصحابه فجاء فقال: ((يا عائشة، كأنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ ، أوْ كَأنَّ رُؤوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّياطين)). قُلْتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، أفلا اسْتَخْرَجْتَهُ ؟. قال : ((قَدْ عَافَاني اللَّهُ ، فَكَرِهْتُ أنْ أُثَوِّرَ على الناسِ فِيهِ شَرًّا)) . فَأمَرَ بِها ، فَدُفِنَتْ [٧٨] .

---

٧٨ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٥ / ٢١٧٤) برقم(٥٤٣٠)،ومسلم(٤/ ١٧١٩)برقم (٢١٨٩) . [مَطْبُوب : مَسحور. والْمُشاطة : ما يخرج مِن الشَّعْر إذا مُشِّطَ] . وفي الحديث دليل على أن ساحرَ أهل الذِّمَّة لا يُقْتَل، لأنَّ النَّبيَّ لَمَ يَقْتُلْه ، أمَّا إذا تَرَتَّب على سِحْره قَتْل نَفْسٍ، فإنَّه يُقْتَل بها .

هذه العمليةُ الدَّنيئة التي قامَ بها اليهوديُّ لَبِيد بن الأعْصَم ، إنَّما كانت بتحريض اليهود وتخطيطهم ، وهي جُزء مِن مؤامرة كُبرى وخُطَّة شاملة لقتل النبيِّ ﷺ ، والتَّخَلُّص مِنْه ، وإنهاء الدَّعوة الإسلامية ، وتفريق المُسْلِمين ، وتَشْتيت كَلِمتهم ، وهدم المجتمع الإسلاميِّ . وَقَدْ قَابَلَ النبيُّ ﷺ الإساءةَ بالصَّفحِ والتجاوز ، ولَمْ يَقْتُلْ هذا الساحرَ اليهوديَّ . وهذه هي أخلاق النبيِّ ﷺ الحميدة في مُواجهة إرهاب اليهود ومُؤامراتهم القَذِرَة .

سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ ، يُقَال له: لَبِيد بن الأعْصَم ، وهو يَهوديٌّ . والسِّحْرُ : قِرَاءاتٌ وطَلاسِم يَتَوَصَّل بها الساحرُ إلى استخدامِ الشَّياطين فِيما يُريدُه مِنْ ضَرَرِ المَسحور . وكانَ مِنْ أثَرِ هذا السِّحْرِ الذي صَنَعَه لَبِيدٌ للنَّبِيِّ ﷺ أنَّه كانَ يُخَيَّل إلَيْه أنَّه كانَ يَفْعَل الشَّيْءَ ومَا فَعَلَهﷺ. والسِّحْرُ إنَّما تَسَلَّطَ على جَسَدِ النَّبِيِّ ﷺ وظَواهرِ جَوارحِه لا على قَلْبِه واعتقادِه ﷺ . ويَكُون مَعنى أنَّه ﷺ يُخَيَّل إلَيْه أنَّه كانَ يَفْعَل الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَه ، مَحمولٌ على التَّخَيُّلِ بالبَصَرِ لا بالعَقْلِ ، ولَيْسَ فيه مَا يَطْعَن بالرِّسَالَةِ . وظَلَّ هَكذا النَّبِيُّ ﷺ حتى إذا كانَ ذَاتَ يَوْمٍ أوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وهو عِنْدَ أُمِّ المؤمنين عائشة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ في حُجْرَتِها ، وكانَ ﷺ مُشْتَغِلًا بالدُّعَاءِ ، أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عائشةَ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ أنَّ اللَّهَ أجابَه فِيما دَعَا وسَأَلَه ، وذَكَرَ لها ﷺ أنَّه أتاه مَلَكَان ، فَقَعَدَ أحَدُهما عِنْدَ رَأسِه ﷺ، والآخَرُ عِنْدَ رِجْلِه، فَقَالَ أحدُهما لصاحبه: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟،يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ، فأجابَه بأنَّه مَطْبُوبٌ ، أي : مَسْحُور ، فَسَأَلَه عَمَّن سَحَرَه ، فقالَ: لَبِيد بنُ الأعْصَمِ ، قال : في أيِّ شَيْءٍ سَحَرَه ؟،قال: في"مُشْطٍ" وهو الأداةُ المعروفةُ التي يُسَرَّحُ بها شَعْرُ الرَّأسِ واللحيةِ " وَمُشَاطَةٍ" وَهِيَ : مَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّعْرِ عِند التَّسْرِيحِ ، " وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ " الوَعَاءِ أو الغِشَاءِ الذي يَكُون على طَلْعِ النَّخْلِ،ويُطْلَقُ على الذَّكَرِ والأُنثى، فَلِذَا قَيَّدَه بِقَوْلِه: " ذَكَرٍ " وَهِيَ صِفَةٌ للجُفِّ، فَسَأَلَ المَلَكُ صَاحِبَه : وأيْنَ هذا السِّحْرُ ؟، قال : في بِئْرِ ذَرْوَان ، وَهِيَ بِئْرٌ بالمَدينةِ كانتْ في بُستانِ بَنِي زُرَيْقٍ، فجاءها النَّبِيُّ ﷺ في ناسٍ مِنْ أصحابِه ، ولمَّا رَجَعَ وَصَفَ لأُمِّ المُؤمنين عائشة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ هذه البِئْرِ بأنَّ مَاءَهَا كأنَّه " نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ " ، يَعْنِي أنَّ مَاءَ البِئْرِ أحْمَرُ كالذي يُنْقَعُ فيه الحِنَّاءُ ، يَعْنِي أنَّه تَغَيَّرَ لِرَداءته ، أوْ لِمَا خَالَطَه مِمَّا أُلْقِيَ فيه ، أوْ كَأنَّ رُؤوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّياطينِ في التَّنَاهِي في كَرَاهتها وَقُبْحِ مَنْظَرِها . فَسَأَلَتْ أُمُّ المُؤمنين عائشةُ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنها ــ النَّبِيَّ ﷺ : أفَلا اسْتَخْرَجْتَ السِّحْرَ الذي خَبَّأهُ لَبِيدٌ في هذه البِئْرِ ؟ ، فَذَكَرَ لها ﷺ أنَّ اللَّهَ عَافَاه ، وكَرِهَ اسْتِخْرَاجَه حتى لا يُثيرَ على الناسِ مِنْهُ شَرًّا ، مِثْل تَذكيرِ المُنافقين السِّحْرَ وَتَعَلُّمِه ، ونَحْوِ ذلك ، فَيُؤْذُون المُؤمنين، فَأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالبِئْرِ فَدُفِنَتْ .

وفي الحَديثِ : التَّكْنِيَةُ عَن السِّحْرِ بالطِّبِّ تَفَاؤُلًا ، وفيه : دَرْءُ المَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المَصالحِ ، وفيه : الصَّبْرُ على الابتلاءِ والامتحانِ ، وفيه الإلحاحُ في الدُّعَاءِ وتَكْرَارُه ، وفيه : أنَّ الدُّعَاءَ وَسيلةٌ لِفَكِّ السِّحْرِ وَرَفْعِ الضُّرِّ . وفيه : مُعْجِزَتُه ﷺ وَعِصْمَتُه فِيما يُبَلِّغُه عَن اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وإخبارُه بمكانِ السِّحْرِ . وفيه : بَيَانُ أهميةِ الأخذِ بالأسبابِ ، وأنَّها لا تُنافي التَّوَكُّلَ . وفيه : أنَّ مِنْ صِفَاتِ اليهودِ الخِيَانةَ للَّهِ وَنَبِيِّهِ ﷺ .

وفي فتح الباري (١٠ / ٢٣٦) : ((قال ابن بطَّال : لا يُقْتَل ساحر أهل الكتاب عند مالك والزُّهْري ، إلا أن يَقتل بسِحْره فيُقتَل ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي . وعن مالك : إن أدخلَ بسِحْره ضَرَرًا على مسلم، لَمْ يُعاهد عليه، نقض العهد بذلك فَيَحِل قَتْلُه . وإنَّما لَمْ يَقْتُل النبيُّ ﷺ لَبيد بن الأعْصَم ، لأنه كان لا ينتقم لِنَفْسِه ، ولأنه خَشِيَ إذا قَتله أن تثور بذلك فِتنة بين المسلمين وبين حُلَفائه مِن الأنصار ، وهو مِن نمط ما راعاه مِن ترك قتل المنافقين ، سواء كان لَبيد يهوديًّا أو مُنافقًا)) .

وجاء بعضُ المُستشرقين وأذنابهم وصِبْيَانهم ، وشكَّكوا بالدَّعوة الإسلامية في ظِل أن النَّبيَّ ﷺ سُحِر ، ومدى تأثير السِّحْر على التعاليم الإسلامية . والنبيُّ ﷺ مُعرَّض ــ مِثل باقي الناس ــ للإعياء والمرض والتعب النَّفْسي والجُسْماني، وحتى إنه تَعَرَّضَ للسِّحْر ، لكن هذه العوامل لا سبيل لها إلى الدعوةِ والرِّسالة ، فالنَّبيُّ ﷺ معصومٌ في التبليغ عن اللَّه الحافظ للرسالة ، وهذا لا يتنافى مع تَعَرُّض النبيِّ ﷺ لِمَا قد يَتَعَرَّض له أي إنسان .

والنبيُّ ﷺ هو القُدوة الأسمى والمَثَل الأعلى ، اختاره اللَّهُ إنسِيًّا للاقتداء بِه والتعلم مِنه والتعامل معه ، لذلك لَم يَجعله مَلَكًا ولا جِنِّيًّا .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٦ و٢٢٧) : ((بيَّن الواقدي السَّنَةَ التي وقع فيها السِّحْر أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عُمر بن الحَكَم مُرسَل، قال: لمَّا رَجع رسولُ اللَّه ﷺ من الحُدَيْبِيَة في ذي الحِجَّة ، ودخل المُحرَّم من سنة سبع ، جاءت رؤساء اليهود إلى لَبيد بن الأعْصَم ، وكان حليفًا في بني زُرَيق ، وكان ساحرًا ، فقالوا له : يا أبا الأعْصَم ، أنتَ أسْحَرُنا ، وقد سَحَرْنا مُحَمَّدًا ، فلم نصنع شيئًا،ونحن نجعل لك جَعْلًا على أن تَسْحَرَه لنا سِحْرًا ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير ... وقال السُّهَيلي : لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قَدْر المُدَّة التي مكث النبيُّ ﷺ فيها في السِّحْر ، حتى ظَفِرْتُ به في جامع مَعْمَر عن الزُّهْري أنه لبث ستة أشهر، كذا قال. وقد وجدناه موصولًا بإسنادِ الصحيحِ ، فهو المُعتمَد ... . قال المازري : أنكرَ بعضُ المُبتدِعة هذا

الحديث ، وزعموا أنَّه يَحُطُّ مَنْصِبَ النُّبُوَّة ، ويُشكِّك فيها . قالوا : وكُلُّ مَا أدَّى إلى ذلك فهو باطل ، وزعموا أن تجويز هذا يُعْدِم الثقةَ بما شرَّعه من الشرائع ، إذْ يُحتمَل على هذا أن يُخيَّل إليه أنه يَرى جِبريل وليس هو ، ثُمَّ وأنه يُوحَى إليه بشيء ولم يُوحَ إليه بشيء . قال المازري : وهذا كُلُّه مردود ، لأن الدليل قد قام على صِدق النبيِّ ﷺ فيما يُبلِّغه عن اللَّه تعالى ، وعلى عِصْمته في التبليغ . والمُعجِزات شاهدات بتصديقه ، فتجويز ما قام الدليل على خِلافه باطل . وأمَّا ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لَم يُبعَث لأجلها ، ولا كانت الرسالة مِن أجلها ، فهو في ذلك عُرضة لِمَا يعترض البشر كالأمراض ، فغير بعيد أن يُخيَّل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له معَ عِصْمته عن مثل ذلك في أمور الدِّين ... . قال عِياض : فظهر بهذا أن السِّحْر إنَّما تَسَلَّطَ على جسده وظواهر جوارحه ، لا على تمييزه ومُعْتَقَدِه . قلتُ : ووقع في مُرسَل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد ، فقالت أُخت لَبيد بن الأعْصَم : إن يكن نبيًّا فَسَيُخْبَر ، إلا فسيُذهِله هذا السِّحْر حتى يذهب عَقْلُه ، قلتُ : فوقع الشَّق الأول ، كما في هذا الحديث الصحيح. وقد قال بعضُ العلماء : لا يَلزَم مِن أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يَجْزِمَ بفِعْله ذلك ، وإنما يكون ذلك مِن جِنس الخاطر يَخطُر ولا يَثبُت ، فلا يَبْقَى على هذا للمُلْحِد حُجَّة ... . وقال المُهَلَّب : صَوْنُ النبيِّ ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كَيْدَه ، فقد مضى في الصحيح أن شَيطانًا أراد أن يُفْسِد عليه صَلاتَه ، فأمكنه اللَّهُ منه ، فكذلك السِّحْر . ما ناله مِنْ ضَرَرِه مَا يُدْخِل نَقْصًا على ما يتعلق بالتبليغ ، بل هو مِن جِنس ما كان يناله مِن ضَرَر سائر الأمراض ، مِن ضَعْف عن الكلام أو عَجْز عن بعض الفِعل ، أو حُدوث تخيُّل لا يستمر ، بل يزول ، ويُبطِل اللَّهُ كَيْدَ الشياطين)) .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٠٨١) : ((وكان _ عبد اللَّه بن الزُّبَير _ أولَ مولودٍ وُلِدَ في الإسلام ، ففرحوا به فَرَحًا شديدًا ، لأنهم قِيلَ لهم : إن اليهودَ قد سَحَرَتْكُم فلا يُولَد لكم)) .

كان عبد اللَّه بن الزُّبَير أوَّل مَن وُلِد في الإسلام بالمدينة بعد الهجرة من أولاد المُهاجرين ، وكان الفرح بقُدومه والسعادة بمجيئه لا يُوصَفان ، لأن المهاجرين أقاموا في المدينة ، ولم يُولَد لهم أيُّ مَولود ، وقد قِيل لهم إن اليهود سَحَرَتْكُم ، كي يَنقطع نَسْلُكم ، ولا يُولَد لكم .

وهذا يدل على أن هناك ثقافة مجتمعية عامَّة تربط اليهود بالسِّحْر. واليهودُ مَشهورون بالسِّحْر، والعربُ كانت ترى أن اليهود أعلم الناس بالسِّحْر على الإطلاق ، وهو منهجهم السِّري ، وسلاحهم الخَفِي ضِد أعدائهم وخُصومهم . ومِن الواضح أن المجتمع الإسلاميَّ كان يَشعر بالقلق وعدم الراحة بسبب الإرهاب اليهوديِّ ، وعداوة اليهود ، وتعاملهم بالسِّحْر ، وقُدرتهم على

التخطيط للمؤامرات والأزمات بشكل سِرِّي وخَفِيٍّ . وخُطورةُ اليهود نابعة من امتلاكهم للقُدرات العقلية القائمة على المَكر والخداع وصناعة المشكلات ، وكثرة أموالهم ، ونفوذهم الهائل .

والسِّحْرُ صناعة قائمة على خصائص الأمور الطبيعية وتركيب العناصر والأمور اليدوية ، واليهودُ يُتقِنون التعاملَ معَ هذه الأشياء، ويُجيدون استخدامها. في حِين أن العرب لا يَعرِفون هذه الأشياء، لأنهم لا يَملِكون الخِبرة في التعامل مع الأمور اليدوية. وتفوُّق العرب كان في الأمور الفكرية فقط.

وقال الحافظ في الفتح (٩ / ٥٨٩) : ((وقد أخرج ابن سعد في الطبقات منِ رواية أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن قال : لمَّا قَدِمَ المهاجرون المدينة ، أقاموا لا يُولَد لهم، فقالوا : سَحَرَتْنَا يهود ، حتى كَثُرَت في ذلك القالة ، فكان أوَّل مَولود بعد الهجرة عبد اللَّه بن الزُّبَير ، فكبَّر المسلمون تكبيرةً واحدة ، حتى ارتجَّت المدينة تكبيرًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون ﴾ [البَقَرَة : ١١٣] [٧٩] .

كَفَرَت اليهودُ بالنبيِّ عيسى ﷺ ، وقالوا : لَيْسَت النَّصَارى على دِينٍ صحيحٍ مُعْتَدٍّ به ، فَدِينُهم باطل ، وكَفَرَت النصارى بالنبيِّ مُوسى ﷺ ، وقالوا : لَيْسَت اليهود على دِين صحيحٍ مُعْتَدٍّ به ، فَدِينُهم باطل ، ومَعْنَاه: ادَّعَى كُلُّ فريقٍ مِنهُم أنَّ صاحبه لَيْسَ على شَيء، وأنَّه أَحَقُّ برحمة اللَّه مِنه . والحَالُ أنَّ اليهود يَقْرَؤُون التَّوراةَ ، والنَّصارى يَقْرَؤُون الإنجيلَ ، فقد كَفَرُوا عَن عِلْمٍ ومَعرفةٍ واطِّلاعٍ، كذلك قال مُشرِكو العربِ مِثْلَ قَوْلِ أهلِ الكتابِ ، قالوا : لَيْسَ مُحَمَّدٌ على شَيء، فاللَّهُ يَحْكُم بَين اليهود والنصارى بالحَقِّ، ويَفْصِل بَينهم بقضائه العادل، فِيما اخْتَلَفُوا فيه مِن أَمْرِ الدِّين، فَيُدْخِل المُحِقَّ الجَنَّةَ ، والمُبْطِلَ النارَ .

---

٧٩ في الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ٢٦٣) : ((ابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : لَمَّا قَدِمَ أهلُ نَجْرَان مِن النَّصَارى على رسول اللَّه ﷺ ، أَتَتْهُم أحبارُ اليهود ، فَتَنَازَعُوا عِند رسول اللَّه ﷺ ، فقال رافع بن حُرَيْملة : مَا أنتم على شيء ، وكَفَرَ بعيسى والإنجيل ، فقال رَجُلٌ مِن أهل نَجْرَان لليهود: مَا أنتم على شيء وجَحَدَ نُبُوَّةَ مُوسى وكَفَرَ بالتَّوراة . فأنزل اللَّهُ في ذلك : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ ﴾ ، أي كُلٌّ يَتْلُو في كِتابه تصديقَ مَن كَفَرَ به)) .

والآيةُ تُوضِّح الاختلافَ الحاد بين اليهود والنصارى، وتناقضهم الصارخ ، وعداوتهم الظاهرة ، وحِقْدهم الدَّفِين . وكُلُّ فَريقٍ يَزْعُم أنَّ الفريقَ الآخَرَ على الباطل، وأنَّهُ أحق بِرِضْوَانِ اللَّه مِنه . وكُلُّ فريقٍ يَكْفُر بالآخَرِ ويُكفِّره.فاليهودُ كَفَرُوا بالإنجيلِ وعِيسَى ﷺ ، والنصارى كَفروا بالتَّوراة ومُوسَى ﷺ معَ أنَّهُم يَعْلَمُون التَّوراةَ والإنجيلَ ومَا فِيهما مِن العقائد والشرائع. وفي التَّوراةِ تَصديقُ عِيسى ، وفي الإنجيل تَصديقُ مُوسى . ولكنهم كَفَرُوا بالحق معَ عِلْمِهم به. ولكنَّ الكُفرَ عِنادٌ . والجُحُودُ عِندما يأتي مِن العلماء يَكون أشدَّ قُبْحًا وأعظمَ إثمًا .

فَإنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالمُصِيبَةُ أعْظَمُ

وقد قَادَهم عِنادُهم إلى رفض الحَقِّ الإلهيِّ ، وجَحْدِ النُّبُوَّةِ ، والتطاولِ على المُقدَّسات . ومَضَى مُشرِكو العرب (الذين لا يَعْلَمُون) في طريق اليهود والنصارى، وساروا على خُطاهم ، فكذَّب مُشرِكو العربِ الأنبياءَ جَهْلًا وعِنادًا وتَعَصُّبًا لعبادة الأصنام (دِين الآباء) . والعَرَبُ أُمَّةٌ وَثَنِيَّةٌ جاهلةٌ مُنْقَطِعَةٌ عَن الوَحْيِ الإلهيِّ ، ولَيْسَ لها كِتَاب دِينيٌّ مِثْل اليهود والنصارى ، وقد كانت تَنظر إلى أهل الكِتاب باعتبارهم المَثَل والقُدوة العُليا.واللَّهُ يَحْكُم بَيْنهم،ويَقْضِي بَين المُتَخَاصِمِين، فَيُثيب المُحِقَّ ، ويُدخِله الجَنَّةَ ، ويُعَاقِب المُبطِلَ ، ويُدخِله النارَ .

واختلافُ الناسِ أَمْرٌ واقع في كُلِّ العُصور ، وليس شيئًا غريبًا أوْ مُفَاجِئًا ، وذلك بسبب تَفَاوُت العُقول ، واختلافِ الطاقات البشرية ، وتَنَوُّعِ الخصائص الثقافية للأُمَم والشُّعُوب ، وضَغْطِ المَصالحِ الشخصية ، ومُحاولةِ الحفاظ على المَالِ والسُّلطةِ والنُّفُوذِ والامتيازاتِ والمَكانةِ الاجتماعية. ومِن الأمثلة الواضحة على هذا الاختلاف، الاختلافُ الحاصل بَيْن اليهود والنصارى .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٥٤١) : ((قالت اليَهُودُ : لَيْسَت النَّصَارَى في دِينِها على صَوَاب ، وقالت النَّصَارَى : لَيْسَت اليَهُودُ في دِينِها على صَوَاب ، وإنَّما أَخْبَرَ اللَّهُ عَنهُم بِقِيلِهِم ذلك للمُؤمِنين ، إعلامًا مِنه لهم بِتَضييع كُلِّ فَريقٍ مِنهُم حُكْمَ الكِتَابِ الذي يُظهِر الإقرارَ بِصِحَّتِه ، وأنَّه مِن عِند اللَّهِ ، وجُحُودهم معَ ذلك مَا أنزلَ اللَّهُ فِيه مِن فُرُوضِه ، لأنَّ الإنجيل الذي تَدِين بِصِحَّته وحَقِّيته النَّصَارى يُحَقِّق مَا في التَّوراة مِن نُبُوَّةِ مُوسَى عليه السلام ، ومَا فَرَضَ اللَّهُ على بَنِي إسرائيل فِيها مِن الفرائض ، وأنَّ التَّوراة التي تَدِين بِصِحَّتها وحَقِّيتها اليهودُ تُحَقِّق نُبُوَّةَ عِيسى عليه السلام ، ومَا جاءَ به مِن عِند اللَّهِ مِن الأحكام والفرائض . قالَ كُلُّ فَريقٍ مِنهُم للفريقِ الآخَرِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنهُم في قَوْلِه : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ ﴾ ، معَ تِلاوةِ كُلِّ واحدٍ مِنَ الفَرِيقَيْن كِتَابَه الذي يَشْهَد على كَذِبِه في قِيلِه ذلك ،

فأخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُه أنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنهُم قالَ مَا قالَ مِن ذلك على عِلْمٍ مِنهُم أنَّهُم فِيما قالوه مُبْطِلُون ، وَأَتَوْا مَا أَتَوْا مِن كُفْرِهم بِمَا كَفَرُوا به على مَعرفةٍ مِنهُم بأنَّهُم فِيه مُلْحِدُون . ... . وأمَّا قَوْلُه: ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ ﴾ ، فإنَّه يَعْنِي بِه كِتَابَ اللَّهِ التَّوراةَ والإنجيلَ ، وهُما شَاهِدان على فَرِيقَي اليَهُود والنَّصَارى بالكُفْرِ ، وخِلافِهِم أَمْرَ اللَّهِ الذي أَمَرَهُم به فيه . ... . القَوْلُ في تأويل قَوْلِه تَعَالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ ، ... ، إنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالى أَخْبَرَ عَن قَوْمٍ وَصَفَهُم بالجَهْلِ ، وَنَفَى عَنهُم العِلْمَ بما كانت اليهود والنصارى به عَالِمِين أنَّهُم قالوا بجهلهم نظير مَا قالت اليَهُودُ والنَّصَارى بعضُها لبعض ، مِمَّا أَخْبَرَ عَنهُم أنَّهُم قالوه في قَوْلِه : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ ﴾ ، وجائزٌ أن يَكُونوا هُم المُشرِكين مِن العَرَب ، وجائزٌ أن يَكُونوا أُمَّةً كانت قَبْلَ اليهود والنصارى ، ولا أُمَّة أَوْلَى أن يُقَال هي التي عُنِيَتْ بذلك مِن أُخْرَى،إذْ لَمْ يَكُن في الآية دَلالة على أَيِّ مِنْ أَيٍّ،ولا خَبَر بذلك عن رسول اللَّهﷺ ثَبَتَتْ حُجَّتُه مِن جِهة نَقْلِ الواحد العَدْل ، ولا مِن جِهة النَّقْل المُستفيض . وإنَّما قَصَدَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُه بِقَوْلِه : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ ، إعلامَ المُؤمنين أنَّ اليهود والنصارى قَد أَتَوْا مِن قِيلِ الباطل ، وافتراءِ الكَذِب على اللَّه ، وجُحُودِ نُبُوَّةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ ، وهُم أهل كِتاب يَعْلَمُون أنَّهُم فِيما يقولون مُبْطِلُون ، وبِجُحُودهم مَا يَجْحَدُون مِن مِلَّتِهِم خارجون ، وعلى اللَّهِ مُفْتَرُون ، مِثْل الذي قاله أهلُ الجَهْلِ باللَّهِ وكُتُبِه ورُسُلِه ، الذينَ لَمْ يَبْعَث اللَّهُ لهم رسولًا، ولا أَوْحَى إليهم كِتَابًا. وهذه الآية تُنبِئ عَن أنَّ مَن أتى شيئًا مِن مَعَاصِي اللَّهِ عَلى عِلْمٍ مِنه بِنَهْيِ اللَّهِ عَنها ، فَمُصيبته في دِينِه أعْظَمُ مِن مُصِيبة مَن أتى ذلك جاهلًا به ، لأنَّ اللَّه تَعَالى ذِكْرُه عَظَّمَ تَوبيخَ اليهودِ والنصارى بِمَا وَبَّخَهُم به في قِيلِهم مَا أَخْبَرَ عَنهُم بِقَوْلِه : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ ﴾ ، مِنْ أجْلِ أنَّهُم أهلُ كِتَابٍ قالوا مَا قالوا مِن ذلك على عِلْمٍ مِنهُم أنَّهُم مُبْطِلُون. ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون ﴾ ... فاللَّهُ يَقْضِي فَيَفْصِل بَين هؤلاء المُخْتَلِفين القائل بعضهم لبعض : لَسْتُم على شيء مِن دِينِكم ، يَوم قِيام الخَلْقِ لِرَبِّهِم مِن قُبورهم ، فَيَتَبَيَّن المُحِقُّ مِنهُم مِن المُبْطِل ، بإثابته المُحِق مَا وَعَدَ أهلَ طاعته على أعماله الصالحة ، ومُجَازاته المُبطِل مِنهُم بما أَوْعَدَ أهلَ الكُفْرِ به على كُفْرِهم به ، فِيما كانوا فيه يَخْتَلِفُون مِن أديانهم وَمِلَلِهِم في دار الدُّنيا . وأمَّا القِيَامَةُ فهي مَصْدَر مِن قَوْلِ القائل : قُمْتُ قِيَامًا وقِيَامَةً ، كَمَا يُقَال : عُدْتُ فُلانًا عِيَادَةً ، وَصُنْتُ هذا الأمرَ صِيَانَةً ، وإنَّمَا عَنَى بالقِيَامَةِ قِيَامَ الخَلْقِ مِن قُبورهم لِرَبِّهِم ، فَمَعْنَى ﴿ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ : يَوْم قِيَام الخَلائقِ مِن قُبورهم لِمَحْشَرِهِم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ ﴾ ، بَيَّنَ بِهِ تَعَالى تَناقضَهم وتَباغضَهم وتَعَاديهم وتَعَاندَهم ، ... ، ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ ﴾ ، أي : وهُم يَعْلَمُون شريعةَ التَّوراةِ والإنجيلِ ، كُلٌّ مِنهما قد كانت مشروعةً في وَقْت ، ولكنَّهم تَجَاحَدُوا فِيما بَينهم ، عِنَادًا وكُفْرًا ومُقَابَلَةً للفاسد بالفاسد، ... ، وقَوْلُه : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ ، بَيَّنَ بهذا جَهْلَ اليهودِ والنَّصَارى فِيما تَقَابَلُوا مِن القَوْل ، وهذا مِن باب الإيماء والإشارة ، وقد اخْتُلِفَ فِيمَن عَنَى بِقَوْلِه تَعَالى : ﴿ الذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فقال الرَّبيع بن أنس وقَتَادَة : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قالا : وقالت النَّصَارَى مِثْلَ قَوْلِ اليَهُودِ وقِيلِهم ، وقال ابنُ جُرَيج : قُلْتُ لِعَطَاء : مَن هؤلاء الذين لا يَعْلَمُون ؟ ، قال : أُمَمٌ كانت قَبْل اليهودِ والنصارى، وقَبْل التَّوراةِ والإنجيل . وقال السُّدي : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَهُمُ العَرَب ، قالوا : لَيْسَ مُحَمَّدٌ على شَيْء . واختارَ أبو جعفر بن جرير أَنَّهَا عَامَّة تَصْلُح للجميع ، ولَيْسَ ثَمَّ دليل قاطع يُعَيِّن واحدًا مِن هذه الأقوال ، والحَمْلُ على الجميع أَوْلَى ، واللَّهُ أَعْلَم . وقَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون ﴾ ، أي: إنَّه تَعَالى يَجْمَع بَينهم يَوْمَ المَعَاد ، ويَفْصِل بَينهم بِقَضَائه العَدْل ، الذي لا يَجُور فيه ، ولا يَظْلِم مِثقالَ ذَرَّةٍ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وقالوا كُونوا هُودًا أو نصارى تَهْتَدوا قُل بَل مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المُشركين ﴾ [البَقَرَة : ١٣٥] .

قالت اليهودُ للنبيِّ ﷺ وأصحابِه المؤمنين : كُونوا هُودًا تهتدوا . وقالت النصارى لهم : كُونوا نصارى تهتدوا . لقد دعا أهلُ الكتابِ النبيَّ ﷺ وأصحابَه المؤمنين إلى اعتناق اليهودية أو النصرانية. وكُلُّ طائفة اعتبرتْ نَفْسَها أنها على الهُدى ، وأنَّ مَن اعتنقَ ديانتها فقد أصابَ طريق الحق، وأفلحَ في دنُياه، وفازَ بآخرته.وهذا يُشير إلى غُرور أهل الكتاب ، واستكبارهم ، وعِنادهم ، وجَهلهم ، فقد بَنَوْا أفكارَهم وعقائدهم على أُسس واهية ، وتلاعبوا بنصوصهم الدينية في التَّوراة والإنجيل وحرَّفوها .

واليهود يعتقدون أنهم على الحق، وأن اليهودية هي الطريق المستقيم ، وكذلك النصارى يعتقدون أنهم على الحق ، وأن النصرانية هي الطريق المستقيم ، فَمَن وافقهم اهتدى ، وَمَن خالفهم ضَلَّ . وهذه دَعْوَى عريضة لا دليل عليها ولا بُرهان، وهي بمثابة أضغاث أحلام ، وكُلٌّ يُغنِّي على لَيْلاه .

والدَّعاوى إنْ لَم تُقيموا عليها بَيِّناتٍ أبناؤها أدعيـاءُ

والعاقلُ مَن حَاسَبَ نَفْسَه قبل أن يُحَاسَب يوم القيامة،وأخضعها لعبادة اللَّه وَحْدَه لا شريك له، وعَمِلَ الطاعاتِ قبل أن يُداهمه الموت. والعاجزُ المُقصِّر في الأُمور مَن اتَّبَعَ الشَّهَوَاتِ والشُّبُهات والمُحرَّمات ، وتَمَنَّى على اللَّه الأماني أن يَعْفُوَ عنه ، ويُدخِله الجَنَّةَ .

وقد قَدَّمَ اللَّهُ الحُجَّةَ الباهرةَ الكاملةَ المُوجَزةَ التي تَدخض أهواءَ أهلِ الكتاب وباطلَهم ، وأرشدَ مُحَمَّدًا ﷺ إلى الرد المُفْحِم البليغ الذي يَرُدُّ بِه على أهل الكتاب ، ويَفضح جَهْلَهم ، ويُحطِّم غُرورَهم ، ويُزيل كَذِبَهم : ﴿ قُل بَل مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفًا وما كانَ مِنَ المُشركين ﴾ [٨٠] .

قُل يا مُحَمَّد لليهود والنصارى:بَل نَتَّبِع دِينَ إبراهيم حنيفًا مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الإسلام. ودِينُ إبراهيم هو الحنيفية القائمة على عبادة اللَّه وَحْدَه، بلا شريك، ولا نِد، ولا صاحبة، ولا ولد. وهذا هو الدِّين الحق الذي يجب الاجتماع عليه . وبما أن اليهود والنصارى يَعتبرون أنفُسَهم صَفوة اللَّه مِن خَلْقه، ويدَّعون محبةَ اللَّه ، والتزام أوامره، واجتناب نَواهيه ، ويَنْسُبون أنفُسَهم إلى إبراهيم ، ويَعتبرونه أباهم، فيجب أن يتَّبعوه، ويَلتزموا بمنهجه ، ويَعتنقوا عقيدته ، ويَدينوا بِدِينه الذي هو دِين اللَّه الذي اختاره لعباده، إن كانوا صادقين في حُبِّهم للَّهِ وتعظيمهم له، واعتبار إبراهيم مَرجعهم وقُدوتهم ، لأن الحُبَّ والتعظيمَ يَستلزمان الاتِّباع بصِدق وإخلاص . وصدقَ القائل :

تَعْصِي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هذا لَعَمْرِي في القِياسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأطَعْتَهُ إنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

---

٨٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٠) : ((المعنى : بَل نَتَّبِع مِلَّةَ إبراهيم في حال حنيفيته . وفي الحنيف قَولان : أحدهما أنه المائل إلى العبادة . قال الزَّجَّاج : الحنيف في اللغة المائل إلى الشيء . أُخِذَ مِن قولهم : رَجل أحْنَف وهو الذي تَميل قدماه كُل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها . قالت أُم الأحنف تُرقِّصه : واللَّهِ لَوْلا حَنَف بِرِجْله ... ودِقَّة في ساقه مِن هَزْله ... ما كان في فِتيانكم مَن مِثْله . والثاني أنه المستقيم ، ومِنه قِيل للأعرج حَنيف نَظَرًا له إلى السلامة . هذا قول ابن قُتَيبة . وقد وصف المفسِّرون الحنيف بأوصاف ، فقال عطاء : هو الْمُخْلِص . وقال ابن سائب: هو الذي يَحُجُّ . وقال غيرهما : هو الذي يُوَحِّد ويَحُج ويُضحِّي ويَختتِن ، ويستقبل الكعبة)) .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٦١٤) : ((احْتَجَّ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أبلغَ حُجَّة ، وأوْجَزَها ، وأكْمَلَهَا،وعَلَّمَهـا مُحَمَّـدًا نَبِيَّـه ﷺ ، فقـال : يـا مُحَمَّـد ، قُـل للقـائلين لَـكَ مِـن اليهـود والنصـارى ولأصحابك: ﴿ كُونوا هُودًا أو نصارى تَهْتَدوا ﴾ : بَلْ تَعَالَوْا نَتَّبِع مِلَّةَ إبراهيم التي يُجْمِع جميعُنا على الشهادة لها بأنها دِين اللَّه، الذي ارتضاه واجتباه، وأمرَ به ، فإن دِينه كان الحنيفية المُسلِمة ، ونَدَع سائرَ المِلَل التي نختلف فيها ، فَيُنكِرها بعضُنا ، ويُقِر بها بعضُنا ، فإن ذلك على اختلافه ، لا سبيل لنا على الاجتماع عليه ، كما لنا السبيل إلى الاجتماع على مِلَّة إبراهيم)) .

والنبيُّ إبراهيم ﷺ كانَ حنيفًا،مائلًا عن كُل الأديان الباطلة إلى الإسلام ، ثابتًا عليه ، ومُتَمَسِّكًا بِه .يَعبد اللَّهَ وَحْدَه ، لا شريك له ، بكل إخلاص واجتهاد . لقد كانَ إبراهيم يُوحِّد اللَّهَ ، ويُخلِص له العبادةَ، ولا يَعبد الأصنامَ والأوثان ، ولَم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، بَل كانَ حنيفًا مُسْلِمًا .

وكُلُّ الأنبياءِ قَبْلَ النَّبِيِّ إبراهيم ﷺ كانوا حُنَفاء مُسلِمين ، ولكن تَمَّ تخصيص إبراهيم بالذِّكْرِ والإشادة والمدح والتعظيم ، لأنَّه كانَ الإمامَ والقائدَ ، والمَرجعية العُليا ، والقُدوة السَّامِيَة . كما أنَّ إبراهيم مُعَظَّم ومُعْتَرَف بِه عِند جميع أتْبَاع الدِّيَانات (المُسْلِمين واليَهُود والنَّصَارى) . وكُلُّهُم يَعتبرون إبراهيم عظيمًا ومُقَدَّسًا ، وبذلك يكون شخصيةً دِينيةً عُظْمَى مُجْمَع عَلَيها ، ومُتَّفَق على جَلالةِ قَدْرِها ، ولا يختلف عليها اثنان .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/٦١٤): ((فَإن قال قائل: أَوَمَا كان مَن كان مِن قَبْل إبراهيم ﷺ مِن الأنبياء وأتباعهم مُستقيمين على ما أُمِرُوا بِه مِن طاعة اللَّه استقامة إبراهيم وأتباعه ؟ قيل : بلى. فإن قال : فكيف أُضِيف الحنيفية إلى إبراهيم وأتباعه على مِلَّته خاصة ، دُون سائر الأنبياء قَبْله وأتباعهم ؟ . قِيل : إنَّ كُلَّ مَنْ كان قبل إبراهيم مِن الأنبياء كان حنيفًا مُتَّبِعًا طاعةَ اللَّه ، ولكن اللَّه تعالى ذِكْرُه لَم يجعل أحَدًا مِنهم إمامًا لِمَن بعده مِن عباده إلى قيام الساعة ، كالذي فعل مِن ذلك بإبراهيم،فجعله إمامًا فيما بَيَّنه مِن مناسك الحج والخِتان وغَير ذلك مِن شرائع الإسلام ، تَعَبُّدًا به أبَدًا إلى قيام الساعة ، وَجَعَلَ مَا سَنَّ مِن ذلك عَلَمًا مُمَيَّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم، والمطيع مِنهم للَّه والعاصي.فَسُمِّيَ الحنيف مِن الناس"حنيفًا"باتِّباعه مِلَّته واستقامته على هَدْيه ومنهاجه. وسُمِّيَ الضَّال عَن مِلَّته بسائر أسماء المِلَل، فقيل: يهودي ونصراني ومجوسي وغير ذلك مِن صُنوف المِلَل)) .

رَدَّ اللَّـهُ على اليهود والنصارى الذين زَعموا أنهم على طريق الحق ، وأن الهداية مقصورة عليهم، وأنهم صَفوة اللَّه مِن خَلقه ، وفضحهم ، وكشفَ انحرافَهم ، وأزالَ باطلَهم .

والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ الآية ﴿ وما كانَ مِنَ المُشركين ﴾ تَحمل تعريضًا باليهود والنصارى ، وتفضح كُفْرَهم ، وتكشف باطلَهم أمام الناس ، لأن اليهود زعموا أن عُزَيْرًا ابن اللَّه ، والنصارى زعموا أن المسيح ابن اللَّه ، وهذا شِرْك واضح ، وأهل الكتاب مُشْرِكون . أمَّا إبراهيم ﷺ فكانَ حنيفًا مُسْلِمًا مُوَحِّدًا مُخْلِصًا ، فكيفَ يَزعُم أهلُ الكتاب أنَّهم على الحق، وأن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ؟ .

إنَّ أهل الكتاب يَزْعُمون أنهم يُحِبُّون إبراهيم ويُعظِّمونه ويتَّبعونه وهُم مُشرِكون ! . وهذا أمرٌ مُتناقض في حَد ذاته ، ويُشير إلى جهلهم وعنادهم وأهوائهم . وكلامُهم بلا منطق ولا دليل ، ويتصادم مع الحق والحقيقة ، والواقعُ يُكَذِّبه .

والهِدايةُ ليست مشروعًا عائليًّا أو طائفيًّا أو عِرقيًّا أو تجاريًّا احتكاريًّا. إنَّها مَكْرُمَة إلهيَّة تهبط في القلوب النظيفة التي لَم تتلوَّث بشوائب الدنيا والعقائدِ الزائغة . وإذا درسنا عقائدَ اليهود والنصارى سنجدها بعيدةً عن الحق ، وتطعن في حقيقة الدِّين الإلهيِّ (الإسلام) ، فهي خليطٌ غير متجانس من المعرفة والجهل،والإيمان والكفر، والحق والباطل . أمَّا الهدايةُ فهي حقيقة صافية ، لا مكان فيها لأية شائبة ، دينية أو اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية ... إلخ .

وفي لُباب النقول للسُّيوطي (١/ ١٧) : ((عن ابن عباس قال : قال ابن صُورِيَا للنبيِّ ﷺ : ما الهُدى إلا ما نحن عليه ، فاتَّبِعْنا يا مُحَمَّد تَهْتَدِ ، وقالت النصارى مِثْلَ ذلك ، فأنزلَ اللَّهُ فيهم : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ﴾)) .

اليهودُ والنصارى عائشون في عالَم الأوهام ، فابن صُورِيَا _ وهو أحد كِبار أحبار اليهود_ يفتقد إلى المنهجية العِلمية،وعاجز عن تقديم البراهين والأدلة والحُجَج ، فهو يَزعُم أن قَومه (اليهود) على الهدى دون تقديم أدلة تدعم كلامَه ، فلم يُحاول _مَثَلًا _ مُناقشة النبيِّ ﷺ وإفحامه ، ومُقارَعة الحُجَّة بالحُجَّة، وإنما اكتفى بالقَول إن اليهود على الهدى،بلا بُرهان ولا دليل، وكذلك فعلت النصارى ، وهذا كلامٌ في الهواء لأنه لا يستند إلى عقلية عِلمية منهجية تحليلية ، بل يستند إلى الأهواء والأماني الكاذبة . وكُلُّ قَوْلٍ بِلا دَليلٍ باطلٌ ومرفوض .

وهذا غَير مُستغرَب ، إذْ إن عقائد أهل الكتاب (اليهود والنصارى) مبنية على الأحلام والشُّكوك والوساوس والأهواء والمصالح الشخصية ، دون وجود حصيلة عِلمية متماسكة. والأمرُ الطبيعي أن يُقَدِّم المرءُ دليلًا على كلامه ، كي يكون موقفُه مُتماسكًا مُقْنِعًا للآخرين ، لكن أهل الكتاب غارقون في الأهواء الشخصية والمصالحِ الذاتية، وهذا يجعلهم بعيدين عن الاستخدام المنهجي للعقل ، وتكوين منظومة فكرية مُتضمِّنة للأدلة والبراهين . وعقائدُ أهل الكتاب مبنية على

الظن لا اليقين، وهي عقائد واهية ضد الفِطْرة، تَنْفي نَفْسَها بِنَفْسِها، وتفتقد إلى المنطق والبُرهان . وكلامُ الليل يَمحوه النهار ، وما تأتي بِه الرياح تأخذه الزوابع .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عذابٌ أليم ﴾ [البَقَرَة: ١٧٤] .

نَزَلَتْ هذه الآية في عُلَماء اليهود وزُعَمائهم، كانوا يَأخذون مِن العَوَام والدَّهماء والرَّعاع ، الأموالَ والهدايا، وكانوا يَرْجُون أن يَكون النبيُّ المَبعوث في آخِر الزَّمان مِنهُم، أي : مِن بَني إسرائيل،فلمَّا بُعِثَ مُحمَّد ﷺ مِن العرب، خافوا أن يَفقِدوا الأموالَ والهدايا والامتيازات والمكاسب الشخصية والمصالح المادية،ويَخسَروا زعامتهم ورئاستهم،فقاموا بتغيير صِفَة النبيِّ مُحمَّدﷺ الثابتة في التَّوراة . فلمَّا نَظَرَ العَوَام في التَّوراة ، لَم يَجِدُوا صِفَةَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، فَكَفَرُوا به ، ولَم يتَّبعوه.

إنَّ الذينَ يُخْفُون وَصْفَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ الثابت في التَّوراة ، وهُم عُلَماء اليهود ، ويأخذون بالمَكتوم مِن سَفِلتهم عِوَضًا حقيرًا ، وعَرَضًا تافهًا مِن حُطَام الدُّنيا الفاني . وسَمَّاه قليلًا لانقطاع مُدَّته ، وسُوء عاقبته ، إنَّما يَأكلون في بُطونهم نارًا مُتأجِّجة يوم القِيامة. وسَمَّى ما أكَلُوه نارًا لأنَّه يَؤُول بهم إلَيها . ولا يُكلِّمهم اللَّهُ بالرَّحمة والرِّضا ، كما يُكلِّم المؤمنين، بَل يُكلِّمهم بالغَضَب والتَّوبيخ والتَّقريع ، كقَوله تعالى: ﴿اخْسَؤوا فِيها ولا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]،ولا يُطهِّرهم اللَّهُ مِن دَنَس الذُّنُوب، ولا يُثْني عَلَيهم ، ولهم عذاب مُؤلِم مُوجِع ، وهو عذاب جَهَنَّم الشديد .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٧٦): ((قَوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ ﴾ . قال ابن عباس: نزلت في اليهود ، كَتَمُوا اسمَ النبيِّ ﷺ ، وغَيَّرُوه في كِتابهم . والثَّمَنُ القليل ما يُصيبونه مِن أتْبَاعهم مِن الدُّنيا ، ﴿ أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ . قال الزَّجَّاج : معناه : إنَّ الذين يَأكلونه يُعذَّبون به ، فكأنَّهم يأكلون النارَ ، ﴿ ولا يُكَلِّمُهُمُ ﴾ . هذا دليل على أنَّ اللَّه لا يُكلِّم الكُفَّارَ ولا يُحاسبهم . قَوله تعالى : ﴿ ولا يُزَكِّيهِم ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها لا يُزَكِّي أعمالَهم ، قاله مُقاتل . والثاني لا يُثْني عَلَيهم ، قاله الزَّجَّاج . والثالث لا يُطهِّرهم مِن دَنَس كُفرهم وذُنوبهم ، قاله ابن جرير)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨٠): ((يقول تعالى : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ ﴾ ، يَعني : اليهود الذين كَتَمُوا صِفَةَ مُحمَّد ﷺ في كُتُبهم التي بأيديهم ، مِمَّا تَشهَد له بالرِّسالة والنُّبُوَّة ، فَكَتَمُوا ذلك لِئلا تَذهب رِياستهم ، وما كانوا يَأخذونه مِن العرب من الهدايا

والتُّحَف على تعظيمهم إيَّاهم ، فَخَشُوا _ لَعَنَهُمُ اللَّهُ _ إنْ أظهَروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويَتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يَحصُل لهم مِن ذلك ، وهو نَزْر يسير ، فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهُدى واتِّباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن اللَّه ، بذلك النَّزْر اليسير، فخابوا وخَسِرُوا في الدُّنيا والآخِرة . أمَّا في الدُّنيا ، فإنَّ اللَّه أظهرَ لعباده صِدْقَ رسوله بما نَصَبَه وجعله معه مِن الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فَصَدَّقَه الذين كانوا يَخافون أن يتَّبعوه ، وصاروا عَوْنًا له على قِتالهم ، وباؤوا بغضب على غضب ، وذَمَّهم اللَّهُ في كِتابه في غَير مَوضع ، فَمِن ذلك هذه الآية الكريمة:﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا ﴾ وهو عَرَض الحياة الدُّنيا ، ﴿ أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ ، أي : إنَّما يَأكلون ما يَأكلونه في مُقَابَلَة كِتمان الحق نارًا تَأجَّج في بُطُونهم يَوم القِيامة ... . وقَوله : ﴿ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عذابٌ أليم ﴾ ، وذلك لأنَّه تعالى غَضْبان عَلَيهم ، لأنَّهم كَتَمُوا وقد عَلِمُوا ، فاستحقوا الغضب ، فلا يَنظُر إليهم ، ولا يُزَكِّيهم ، أي: يُثْني عليهم ويَمدحهم، بَل يُعذِّبهم عذابًا أليمًا)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٥٤١) : ((وقد تظافرت النُّصُوص القُرآنية على ذَم كَاتِم العِلْم : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ . ﴿ وإذا خلا بعضُهم إلى بَعْض قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُم ﴾ [البقرة : ٧٦] ، فَوَصَفَ المَغضوبَ عَلَيهم بأنهم يَكتُمون العِلْمَ تَارَةً بُخْلًا به ، وتَارَةً اعتياضًا عَن إظهاره بالدُّنيا ، وتَارَةً خَوْفًا أن يُحْتَجَّ عَلَيهم بما أظهَرُوه مِنْه. وهذا قد يُبْتَلَى به طوائف مِن المُنتسبين للعِلْم ، فإنَّه تَارَةً يَكتُمونه بُخْلًا به ، وتَارَةً كَرَاهَة أن يَنال غَيْرُهم مِن الفَضْل والتَّقَدُّم والوَجَاهَة ما نالوه ، وتَارَةً اعتياضًا برئاسة أوْ مال ، فَيَخاف من إظهاره انتقاصَ رُتبته، وتَارَةً يكون قد خَالَفَ غَيْرَه في مسألة ، أو اعتزى (انتسب) إلى طائفة قد خُولِفَتْ في مَسألة ، فَيَكتُم مِن العِلْم ما فِيه حُجَّة لِمُخَالِفه،وإنْ لَم يتيقَّن أن مُخَالِفه مُبطِل،وذلك كُلُّه مَذموم وفاعله مَطرود مِن منازل الأبرار ومَقَامات الأخيار، مُسْتَوْجِب للعنة في هذه الدَّار ودارِ القَرَار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُون ﴾ [آل عِمران : ٢٣] .

هذا تَعجيبٌ مِنَ اللَّهِ للنبيِّ ﷺ، وَلِكُلِّ مَن تَصِح مِنْهُ الرُّؤية مِن حَالِ هؤلاء، وهُم أحبار اليهود. ألا تَعْجَب يا مُحَمَّد مِن أَمْرِ هؤلاء الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا وَافِرًا مِنَ التَّوراة ؟.

وتَنكيرُ ﴿ نَصِيبًا ﴾ للتَّعظيم، أي : نَصِيبًا عَظِيمًا ، كَمَا يُفِيده مَقَام المُبَالَغَة .

يُدْعَى أحبارُ اليَهُود إلى التَّوراةِ (كِتَابِ اللَّه الذي أُوتُوا نَصِيبًا عَظِيمًا مِنْهُ) ، وهو كِتَابُهُم المُقَدَّسُ الذي بَيْن أيديهم ، ويَعْتَقِدُون صِحَّتَه ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم فِيمَا تَنَازَعُوا فِيه ، ثُمَّ يُعْرِض فَرِيقٌ مِنهُم عَن قَبُولِ حُكْمِ اللَّهِ ، وهو استبعادٌ لِتَوَلِّيهِم بعد عِلْمِهِم بِوُجُوبِ الرُّجُوعِ إلَيه. والآية : ﴿ وَهُم مُعْرِضُون ﴾ تَأكيد للتَّوَلِّي ، أي : وَهُم قَوْم طَبيعتهم الإعراض عَن الحَق ، والإصرار على الباطل . إنَّهُم مُعْرِضُون عن الإجابة إلى مَا دُعُوا إلَيه معَ عِلْمِهِم به ، واعترافهم بِوُجوب الإجابة إلَيه . وهذا في غَايَةِ مَا يَكُون مِن ذَمِّهِم ، وفَضْحِهم ، وإظهارِ مُخالفتهم وعِنَادهم .

والآيةُ تُشِير _ كما قالَ المُفسِّرون _ إلى قِصَّةِ تَحَاكُمِ اليهود إلى النبيِّ ﷺ ، لَمَّا زَنَى مِنْهُم اثنان ، فَحَكَمَ عَلَيهما بالرَّجْمِ ، فَأَبَوْا ، وقالوا : لا نَجِد في كِتَابنا إلا التَّحْمِيمَ ، فَجِيءَ بالتَّوْرَاةِ ، فَوَجَدَ فِيها الرَّجْمَ ، فَرُجِمَا ، فَغَضِبُوا ، فَذَمَّهُمُ اللَّهُ وفَضَحَهُم وأَظْهَرَ عِنَادَهُم وبَاطِلَهُم بهذه الآية .

إنَّ كِتَابَ اللَّهِ تعالى هو الحَكَمُ الحَاكِمُ على الناس ، ويجب الخُضُوع له . وأحبارُ اليهود الذين أُوتُوا نصيبًا عظيمًا مِن التَّوراةِ وعُلُومِها ، رَفَضُوا الاحتكامَ إلى كتابهم الذي يؤمنون به ، ويَعتقِدُون صِحَّتَه، وهُنَا يَتَّضِح الكُفْرُ والضَّلالُ،وسَيطرتهما على أحبار اليهود الذينَ تَبِعُوا أهواءَهم ومصالحَهم الشخصية ، فَأعْرَضُوا عَن الحَق، لأنَّهُم رَأَوْا فيه تهديدًا حقيقيًّا لِسُلطتهم ونُفُوذهم ومَكَانتهم الاجتماعية .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٢/ ١٧٠) : ((أخرجَ ابنُ إسحاق وابن جرير وابن المُنذِر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : دَخَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ المِدْرَاسِ على جماعة مِن يَهُود ، فَدَعَاهُم إلى اللَّه، فقال لَهُ النُّعْمَان بن عمرو والحَرْث بن زَيْد : على أيِّ دِينٍ أنتَ يَا مُحَمَّد ؟، قال : " عَلَى مِلَّةِ إبراهيمَ ودِينِه " ، قالا : فإنَّ إبراهيمَ كانَ يَهُودِيًّا ، فقال لهما رسولُ اللَّه ﷺ : " فَهَلُمَّا إلى التَّوراة فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم " ، فَأَبَيَا عَلَيه ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُون ﴾ ، ...)) .

إنَّ اليَهُود يَبْنُون عقائدَهم على الهَوَى والوَهْمِ والتَّعَالي والمَصلحةِ.وَهُمْ يَعْتَقِدُون أنَّهُم صَفْوَةُ الخَلْقِ . وهذه الدَّعْوى تَفتقد إلى البُرهان . وفي القصة السابقة نَجِد أنَّ اليَهُود يُحاولون جاهدين إفحامَ النبيِّ ﷺ ، فسألوه عن دِينه ، فكانت الإجابةُ النَّبَوِيَّة الحاسمة بأنَّه ﷺ على دِين إبراهيم ﷺ ، فَظَهَرَ استعلاءُ اليهود بالباطل حَيث زَعَمُوا أنَّ إبراهيمَ كانَ يهوديًّا ، وذلك مِن أجل الحُصُول على شَرْعِيَّة دِينِيَّة ، وغِطَاءٍ نَبَوِيٍّ لِكُفْرِهم وضَلالِهم وانحرافِهم ، وقَد دَعَاهُم النبيُّ ﷺ إلى الاحتكام إلى

التَّوراة ، فَرَفَضُوا ، وذلك لِعِلْمِهِم أنَّ التَّوراةَ تُكَذِّبهم ، وتَكشِف باطلَهم ، وتَنسِف أوهامَهم . وهكذا نَرَى أنَّ اليهود عَاجزون تمامًا عن تقديم أدلة مُعْتَبَرَة ، وحُجَج قَوِيَّة ، وبراهين واضحة . لذلك لا يَخْرُج كلامُهم عن دائرة الوَهْم ، ولا تَتجاوز أفكارُهم البُعْدَ الأُسْطُوري المُتَغَطْرِس .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (١/ ٣٦٦ و٣٦٧) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ ﴾ ، في سَبَب نُزولها أربعة أقوال: أحدها أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ بَيْتَ المِدْرَاسِ على جماعة مِن اليَهُود ، فَدَعَاهُم إلى اللَّه ، فقال رَجُلان مِنهُم: على أيِّ دِينٍ أنتَ؟ ، فقال: " عَلَى مِلَّةِ إبراهيمَ " ، قالا : فإنَّه كان يهوديًّا ، قال : " فَهَلُمُّوا إلى التَّوراةِ " ، فَأَبَيَا عَلَيه ، فنزلت هذه الآيةُ ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . والثاني أنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ وامرأةً زَنَيَا ، فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا ، لِشَرفهما ، فَرَفَعُوا أَمْرَهُمَا إلى النَّبِيِّ ﷺ رَجَاءَ أن يَكُون عِندَه رُخْصَة ، فَحَكَمَ عَلَيهما بالرَّجْمِ ، فقالوا : جُرْتَ عَلَينا يا مُحَمَّد ، لَيْسَ عَلَينا الرَّجْم ، فقال : " بَيْنِي وَبَيْنَكُم التَّوراةُ " ، فجاء ابنُ صُورِيَا ، فَقَرَأَ مِنَ التَّوراة ، فلمَّا أتى على آيةِ الرَّجْمِ ، وَضَعَ كَفَّهُ عَلَيها ، وقَرَأَ مَا بَعْدَها ، فقال ابنُ سَلَام : قَد جَاوَزَهَا ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَهَا ، فَأَمَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ باليَهُودِيَّيْنِ فَرُجِمَا ، فَغَضِبَ اليهودُ ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا اليهودَ إلى الإسلام ، فقال نُعْمَان بن أبي أَوْفَى: هَلُمَّ نُحَاكِمْكَ إلى الأحبار، فقال : " بَلْ إلى كِتاب اللَّه " ، فقال: بَلْ إلى الأحبار ، فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ ، قاله السُّدي . والرابع أنَّهَا نَزَلَتْ في جماعة مِن اليهود دَعَاهُم النَّبِيُّ ﷺ إلى الإسلام ، فقالوا : نَحْنُ أَحَقُّ بالهُدى مِنْكَ ، ومَا أَرْسَلَ اللَّهُ نَبِيًّا إلا مِن بَنِي إسرائيل ، قال : " فَأخْرِجُوا التَّوراةَ ، فَإنِّي مَكتوبٌ فِيها أنِّي نَبِيٌّ " ، فَأَبَوْا ، فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ ، قاله مُقاتِل بن سُلَيمان . فأمَّا التَّفسير : فالنَّصِيبُ الذي أُوتُوه : العِلْمُ الذي عَلِمُوه مِن التَّوراة ، وفي الكِتَاب الذي دُعُوا إلَيه قَولان: أحدهما أنَّه التَّوراة ، رواه عِكْرِمَة عن ابن عباس،وهو قَول الأكثرين، والثاني أنَّه القُرْآن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وهو قَول الحَسَن وقَتَادَة ، وفي الذي أُرِيدَ أن يَحْكُمَ الكِتَابُ بَينهم فيه أربعة أقوال : أحدها مِلَّة إبراهيم ، والثاني حَد الزِّنَى ، رُوِيَا عن ابن عباس، والثالث صِحَّة دِين الإسلام ، قاله السُّدي ، والرابع صِحَّة نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ ، قاله مُقَاتِل، فإنْ قِيل: التَّوَلِّي هو الإعراض ، فما فائدة تَكريره ؟ ، فالجواب مِن أربعة أَوْجُه : أحدها التَّأكيد ، والثاني أن يَكُون المَعْنَى يَتَوَلَّوْنَ عن الدَّاعِي ويُعْرِضُون عَمَّا دَعَا إلَيه ، والثالث يَتَوَلَّوْنَ بأبدانهم ويُعْرِضُون عَن الحَقِّ بِقُلوبهم ، والرابع أن يَكُون الذين تَوَلَّوْا عُلَمَاءَهُم ، والذين أَعْرَضُوا أَتْبَاعَهُم ، قاله ابن الأنباري)) .

وروى أحمد في مُسْنَدِه (٣/ ٤٨٥): عن حبيبِ بن أبي ثابت قال : أَتَيْتُ أبا وَائِلٍ في مَسْجِدِ أَهْلِهِ أَسْأَلُهُ عَن هَؤلاءِ القَوْمِ الذينَ قَتَلَهُم عَلِيٌّ بالنَّهْرَوَان، _ يَعْني الخَوَارِج _ ، فَفِيمَا استجابوا لَهُ _ يَعْني أَوَّلًا_، وفِيمَا فَارَقُوه _ يَعْني آخِرًا _ ، وَفِيمَا اسْتَحَلَّ قِتَالَهُم ، قال : كُنَّا بِصِفِّينَ ، فَلَمَّا اسْتَحَرَّ _ اشْتَدَّ_ القَتْلُ بأهلِ الشَّامِ اعْتَصَمُوا بِتَلٍّ ، فقال عَمْرُو بنُ العَاصِ لِمُعاويةَ : أَرْسِلْ إلى عَلِيٍّ بِمُصْحَفٍ وَادْعُهُ إلى كِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَن يَأبَى عَلَيْكَ ، فَجَاءَ بِهِ رَجُلٌ ، فقال : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم كِتَابُ اللَّه ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُون ﴾ ، فقالَ عَلِيٌّ : نَعَمْ ، أَنَا أَوْلَى بِذَلِك ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم كِتَابُ اللَّهِ . ... .

إنَّ الحُكْمَ يُؤْخَذ مِن القُرآنِ والسُّنَّةِ لأنَّهما المَرجعيتان المَعصومتان مِن الخطأ والزَّلَل والظُّلْم . وأيُّ اختلافٍ بَين الأفرادِ والجَمَاعَاتِ يَنْبَغِي أن يُرَدَّ إلى المَرْجِعِيَّة السَّمَاوِيَّة المُقدَّسة الحاكمة التي لا تُحَابي أَحَدًا ، ولا تُجَامِله ، ولا تَقْبَل الرِّشْوَةَ ، ولا تَظْلِم الناسَ شيئًا.أمَّا الاحتكامُ إلى القوانين الوَضْعِيَّة المَلِيئة بالثَّغَرَاتِ والأخطاءِ والتناقضات ، فَهُوَ مَضْيَعَة للوَقْت والجُهْد ، وتدمير للفَرْدِ والمُجتمعِ مَعًا .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُم إلا أذًى وإن يُقَاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ [آل عِمران : ١١١] .

بِذرة الضعف كامنة في طبيعة الكُفر، ونواة الانهيار مُتجذرة في نفوس الكافرين . لذلك، فإنَّ الكافرين ضُعَفاء وأذلاء مهما ظَهروا بمظهر القوة والعَظَمَة ، إذ إن عوامل سُقوطهم كامنة فيهم . الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين : لَن يَضُرَّكُم الكافرون إلا أذى تسمعونه مِنهم ، ولَن يُسبِّبوا لكم إلا ضَرَرًا بسيطًا بألسنتهم ، مِنْ شَتْمٍ وكَذِب وطَعن واستهزاء وسُخرية وتهديد ووعيد .

وهذا الضَّرر اليسير لا أثر له ولا تأثير ، ولا يُشكِّل خطرًا عليكم أيها المؤمنون. إن أذاهم مَحصور في ألسنتهم، دُون وجود أيِّ فِعل على أرض الواقع ، وهذا يدل على ضعفهم وانكسارهم، وأنهم بائعو كلام ، ولا يُتقنون غَيْرَه ، لأنهم عاجزون عن ترجمته إلى فِعل تطبيقي . وإذا قاتلوكم ، فإنهم يَنهزمون ويَهربون دُون أن يُحقِّقوا أيَّة نتيجة أو فائدة ، ودُون أن ينالوا مِنكم شيئًا من القتل أو الأسْرِ . وهذا خَبَرٌ غَيْبِيٌّ صَدَّقَه الواقع ، وصَحَّحَه الوجود . وهذا مِن أعلام نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ وآياته الباهرة التي تدل على صِدقه وصِحَّة رسالته ، وأن القُرآن مِن عِند اللَّه ، وليس مِن عِند مُحَمَّد ﷺ ، فقد أَخْبَرَ القُرْآنُ بأمْرٍ غَيْبِيٍّ ، وَتَحَقَّقَ على أرض الواقع كما أخبرَ بالضبط .

وخُصَّ ﴿ الأدبارَ ﴾ بالذِّكر دُون الظَّهْر ، إهانةً للهارب ، وتحقيرًا لشأن الفارِّ .

وهُمْ مَخذولون ، لا يُنصَرون ، ولا يفوزون ، ولا يَغلِبون ، ولا تَعلو لهم راية، ولا ترتفع لهم كلمة . بَل يكون لكم النصر عليهم . وهذا يدل على جُبْن اليهود وانكسار معنوياتهم ، وانهيارهم الروحي ، ودناءة أخلاقهم ، وخِسَّة طِباعهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٩) : ((قال تعالى مُخْبِرًا عِبَادَه المُؤمِنين ، ومُبَشِّرًا لهم أن النصر والظَّفَر لهم على أهل الكتاب الكَفَرة المُلْحِدين ، فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُم إلا أذًى وإن يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ . وهكذا وَقَعَ ، فإنهم يوم خَيْبَر أذَلَّهُمُ اللَّهُ ، وأرغمَ أُنوفَهم،وكذلك مَن قَبْلهم من يهود المدينة بني قَيْنُقاع وبني النَّضير وبني قُرَيظة ، كُلهم أذَلَّهم اللَّهُ، وكذلك النصارى بالشام ، كسرهم الصحابة في غَير ما مَوْطِن ، وسَلَبُوهم مُلْكَ الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عِصابة (جماعة) الإسلام قائمة بالشام ، حتى يَنْزِل عيسى بن مريم ، وهُم كذلك، ويَحكم بِمِلَّة الإسلام وشَرْع مُحَمَّد_عليه أفضل الصلاة والسلام _ فيكسر الصليب، ويَقتل الخِنزير ، ويَضع الجِزية ، ولا يَقبل إلا الإسلامَ)) .

و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بسيطرة الخِذلان عليهم ، أعظم وأكثر أهمية مِن الإخبار بتوليتهم الأدبار .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢ / ٧٢) : ((و﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرَاخي في الرُّتبة ، أي لا يُنصَرون مِن جهة أحد، ولا يُمنَعون مِنكم قتلًا وأخذًا. وفيه تثبيت لِمَن آمنَ منهم ، فإنهم كانوا يُؤْذونهم بالتَّلَهِّي بهم ، وتوبيخهم ، وتضليلهم ، وتهديدهم. وبِشارة لهم بأنهم لا يَقْدِرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضَرر يُعبَأ به ، مع أنه وَعَدَهم الغَلَبَةَ عليهم ، والانتقام منهم ، وأن عاقبة أمرهم الخِذلان والذُّل)) .

والجديرُ بالذِّكر أن الآية﴿ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ جُملة مُسْتَأنَفة،وليست معطوفة على ﴿ يُوَلُّوكُمُ ﴾. ولو كانت معطوفة لقالَ : ثُمَّ لا يُنصَروا ، وهذه العِبارة تعني أن نفي النصر مُقيَّد بحال قتالهم فقط.

ولكن اللَّه قالَ : ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرون ﴾ بثبوت النون ، وهذا إخبار بالحُكْمِ ابتداءً ، ليشير إلى أن النصر الإلهيَّ للمؤمنين عام ومُطْلق وشامل ومُتحقِّق وثابت وواقع لا مَحَالة،سَوَاءٌ قَاتَلَهم اليَهُودُ أَمْ لَمْ يُقَاتلوهم . إنَّ نَصْرَ اللَّهِ للمُؤمِنين وَعْدٌ مُطْلَقٌ في كُلِّ الحالات ، وغَيْر محدود بحالة مُعيَّنة .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢/ ٧٢) : ((وإنَّما لَمْ يَعْطِفْ نَفْيَ منصوريتهم على الجزاء ، لأن المقصود هو الوَعْد بِنَفْي النصر مُطْلَقًا ، وَلَوْ عَطَفَ عَلَيْهِ لكانَ مُقَيَّدًا بِمُقاتلتهم كَتَولية الأدبار. وكَم بين الوعدَيْن !. كأنه قِيل: ثُمَّ شأنهم الذي أُخبِركم عنه، وأُبشِّركم به،أنهم مخذولون مُنْتَفٍ

عنهم النَّصْر والقوة ، لا يَنهضون بعد ذلك بجناح ، ولا يقومون على ساق ، ولا يستقيم لهم أمر . وكان كذلك ، حيث لَقِيَ بنو قُرَيظة والنَّضير وبنو قَيْنُقاع ويهود خَيْبَر مَا لَقُوا)) .

والآيةُ وعدٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ وأصحابِه بأن أهل الكتاب لا يَغلِبونهم، ولا ينتصرون عليهم ، وأن المؤمنين هم المنصورون عليهم بإذن اللَّه . ولَن تَعْلُوَ راية الكُفْر على راية التَّوحيد .

لَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّه والمؤمنين بالنصر على اليهود ، فصدقَ الوعدُ الإلهيُّ ، وتحقَّقَ على أرض الواقع ، ولَمْ يُقَاتِل اليهودُ النبيَّ ﷺ إلا انهزموا وهربوا . وهذا الآية تُثبِّت المؤمنين على الحق ، وترفع معنوياتهم ، وتُقَوّي عزائمهم ، وتُريح بالهم بإخبارهم أن اللَّه معهم وناصرهم على أعدائهم. وأيضًا ، تُحطِّم هذه الآيةُ معنوياتِ اليهود ، وتبث في قلوبهم الرعب والخوف ، وتَكسر عزائمهم ، وتُهدِّدهم ، وتُجلِّلهم بالخِزْيِ والعار والضلال والخِذلان .

وهذه الآيةُ مُعْجِزَةٌ للنبيِّ ﷺ ، لأن مَن قاتله من اليهود انهزمَ ، وهربَ . وما ذَكَرَتْهُ الآيةُ مِن أمْرٍ غَيْبِيٍّ قَدْ تَحَقَّقَ على أرض الواقع . فبعد هذه الآية ، انهزمَ اليهودُ في كل المواطن ، ولَم ترتفع لهم راية ، ولَمْ ينتصر لهم جَيش . وهذه مِن مُعجِزات النُّبُوَّة وأعلامها ودلائل صِدْقها .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ٤٤٠ و٤٤١) : ((قَوله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُم إلا أذًى ﴾ . قال مُقاتل:سبب نزولها أن رُؤساء اليهود عَمَدوا إلى عبد اللَّه بن سَلَام وأصحابه، فآذَوْهُم لإسلامهم، فَنَزلت هذه الآية . قال ابن عباس : والأذى قَوْلُهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّه ﴾ [التَّوبة: ٣٠]. و ﴿ المسيحُ ابْنُ اللَّه ﴾ [التَّوبة : ٣٠] . و ﴿ ثالثُ ثلاثةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] . وقال الحسن : هو الكذب على اللَّه ، ودعاؤهم المسلمين إلى الضَّلالة . وقال الزَّجَّاج : هو البُهْت (الكذب والافتراء) والتحريف . ومقصود الآية إعلام المسلمين بأنه لن ينالهم منهم إلا الأذى باللسان مِن دُعائهم إيَّاهم إلى الضَّلال ، وإسماعهم الكفر ، ثم وَعَدَهم النصرَ عليهم في قَوله : ﴿وإن يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلةُ أيْنَ ما ثُقفوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ وباؤوا بِغضبٍ مِنَ اللَّهِ وضُرِبَتْ عَلَيهِمُ المَسْكَنَةُ ﴾ [آل عِمران : ١١٢] .

أُلْزِمَ اليهود الذين كذَّبوا بالقُرآن ونُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالخِزْيِ والعار والذُّل أينما وُجدوا ، فَهُم مُجَلَّلُون بالذُّلِّ في كُلِّ مكان مِن بلاد المسلمين والمشركين ، وأحاطَ بهم الهوان مِن كل الجهات .

صارت الذِّلة مُحيطة بهم مِن كل الجوانب في كل الحالات والأمكنة ، إلا إذا تمسَّكوا واعتصموا بعهد من اللَّه وعهد من المسلمين ، يعني : ذِمَّة اللَّه وذِمَّة المسلمين .

ورَجعوا مُستحقين لغضب اللَّه وعذابه وعقوبته ، وَأُلْزِمُوا بالفقر المُدْقِع والحاجة الشديدة ، فهي محيطة بهم من كل الجوانب، إحاطة البَيت المضروب على أهله . وهذا الحُكْمُ وَفْق الأغلب الأعَم ، لأن غالبية اليهود فقراء ، أمَّا النادر فلا حُكم له . وتَسليط الفقر والحاجة والمسكنة على اليهود عقوبةً لهم ، لأنَّهم وصفوا اللَّهَ تعالى بأنه فقير ، وأنهم أغنياء ، فأذاقهم اللَّهُ الفقرَ والحاجة والخشوع، ليعرفوا أنهم هُم الفقراء ، واللَّهُ هو الغنيُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٩): ((قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلةُ أيْنَ ما ثُقفوا ﴾ أي: أَلزمهم اللَّهُ الذِّلةَ والصَّغارَ أينما كانوا فلا يَأمنون ، ﴿ إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّه ﴾ ، أي : بِذِمَّة من اللَّه وهو عَقْد الذِّمَّة لهم ، وضَرْب الجِزية عليهم ، وإلزامهم أحكام المِلَّة ، ﴿ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ ﴾ أي : أمان منهم لهم كما في المُهَادَن والمُعَاهَد والأسير ، إذا أَمَّنه واحد من المسلمين ، ولو امرأة ، وكذا عَبْد على أحد قَوْلَي العلماء . قال ابن عباس: ﴿ إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ ﴾ ، أي : بعهد مِن اللَّه وعهد من الناس ، وكذا قال مجاهد وعِكرمة وعطاء والضَّحاك والحسن وقَتادة والسُّدي والربيع بن أنس.وقَوْلُه: ﴿وباؤوا بِغضبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، أي : أُلْزِمُوا فالتزموا بغضب من اللَّه، وهُمْ يَستحقونه ، ﴿ وضُرِبَتْ عَلَيهِمُ المَسْكَنَةُ ﴾ ، أي : أُلْزِمُوها قَدَرًا وشَرْعًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم وَكُفْرِهِم بآياتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِم قُلُوبُنا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيها بكُفْرِهِم فلا يؤمنونَ إلا قَلِيلًا ﴾ [النِّساء : ١٥٥] .

بسبب نقض اليهود عَهْدَهم المُؤَكَّد ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وأذَلَّهم ، وأخزاهم ، وطردهم من رحمته ، وأبعدهم عنها ، وبإنكارهم للقُرآن العظيم وجُحودهم لآياته وأوامره وأحكامه ، وقَتْلِهم الأنبياء بالباطل كيحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام ، وقَوْلِهم للنبيِّ ﷺ : قُلوبنا في أغطية ، فلا نَفْهَم ما تقول يا مُحَمَّد ، ولا نَستوعبه، ولا نَعرِف معناه.والمعنى:إن اليهود مُكْتَفُون بما في قلوبهم مِن عِلْم ومعرفة، ولا يَحتاجون إلى كلامك يا مُحَمَّد ، ولا مواعظك، والهدف مِن هذا إبطال حُجَّة الأنبياء . وهذا يدلُّ على عِنَادِ اليهود وغُرورِهم وتَكَبُّرِهم وقَسْوَةِ قُلوبهم . وقد رَدَّ اللَّهُ عليهم قائلًا : ليس الأمر كما يَزعُم اليهود ، بَل خَتَمَ اللَّهُ على قلوبهم بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم واستكبارهم ومعاصيهم ، ومَنَعَ قلوبَهم مِن تَقَبُّل الإيمان وتدبُّر الآيات وفهم المواعظ،فلا يؤمن مِنهم إلا القليل، مِثل : عبد اللَّه بن سَلَام وأصحابه .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٣٤٩) : ((يعني جَلَّ ثَنَاؤُه : فَبِنَقْضِ هؤلاء الذين وَصَفْتُ صِفَتَهُم مِنْ أهل الكتاب ﴿ مِيثَاقَهُم ﴾ يعني : عُهودَهم التي عاهدوا اللَّهَ أن يَعملوا بما في التوراة ،

﴿ وَكُفْرِهِم ﴾ يَقول : وجُحودِهم ﴿ بآياتِ اللَّهِ ﴾ يعني : بأعلام اللَّه وأدلته التي احْتَجَّ بها عليهم في صِدق أنبيائه ورُسله، وحقيقة ما جاؤوهم بِه مِن عِنده ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأنبياءَ ﴾ يقول : وبقتلهم الأنبياء بعد قيام الحُجَّة عليهم بنُبُوَّتهم ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ يعني: بغير استحقاق منهم ذلك لكبيرة أَتَوْهَا ولا خطيئة استوجبوا القتل عليها ﴿ وَقَوْلِهِم ﴾ يعني : وبقولهم : ﴿ قُلُوبُنا غُلْفٌ ﴾ يعني : يقولون : عليها غِشاوة وأغطية عمَّا تدعونا إليه فلا نَفْقَه ما تقول ولا نَعقِله ﴿ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيها بكُفْرِهِم ﴾ يقول جَلَّ ثناؤه: كَذَبوا في قولهم: ﴿ قُلُوبُنا غُلْفٌ ﴾ ما هي بغُلْف، ولا عليها أغطية،ولكن اللَّه جَلَّ ثناؤه جَعل عليها طَابَعًا بكفرهم باللَّه ﴿فلا يؤمنونَ إلا قَلِيلًا ﴾ يقول:فلا يؤمن _هؤلاء الذين وَصَفَ اللَّهُ صِفتهم لطَبْعه على قلوبهم فيُصدِّقوا باللَّه ورُسله وما جاءتهم به من عند اللَّه_ إلا إيمانًا قليلًا ، يعني : تصديقًا قليلًا . وإنما صار ﴿ قَلِيلًا ﴾ لأنهم لم يُصدِّقوا على ما أمرهم اللَّه به ولكن صدَّقوا ببعض الأنبياء وببعض الكتب، وكذَّبوا ببعض،فكان تصديقهم بما صدَّقوا به قليلًا لأنهم وإن صدَّقوا به من وجه، فهُم به مُكذِّبون من وجه آخَر، وذلك من وجه تكذيبهم مَن كذَّبوا به من الأنبياء وما جاؤوا به من كُتب اللَّه ورُسل اللَّه ، يُصدِّق بعضُهم بعضًا.وبذلك أمَرَ كُلُّ نبيٍّ أُمَّتَه ، وكذلك كُتب اللَّه يُصدِّق بعضُها بعضًا، ويُحقِّق بعضُها بعضًا، فالمُكذِّب ببعضها مُكذِّب بجميعها من جهة جُحوده ما صدَّقه الكتاب الذي يُقِرُّ بصحته، فلذلك صار إيمانهم بما آمنوا مِن ذلك قليلًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قَد جَاءَكُم رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُم كَثيرًا مِمَّا كُنتم تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعفو عَن كَثيرٍ قَد جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِين ﴾ [المائدة : ١٥] .

الخِطَابُ الإلَهِيُّ مُوَجَّهٌ لأهْلِ الكِتَابِ (اليَهُودِ والنَّصَارى) . قَدْ جاءهم النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ بالإسلامِ (الدِّينِ الحَقِّ) لِيُوَضِّحَ كثيرًا مِنَ الأُمُورِ التي أخْفَاهَا أهلُ الكِتَابِ وَحَرَّفُوها، وتَلاعَبُوا بها، مِثْل: آية الرَّجْم، وقِصَّة أصحاب السَّبْت الذين مُسِخُوا قِرَدةً.والإضافةُ في قَوْلِه تعالى: ﴿ رَسُولُنا ﴾ لِتَشريفِ النَّبِيِّ ﷺ ، ورَفْعِ مَكانته، وتَعظيمِ شَأنِه . وأيضًا ، لِدَعوةِ الناس إلى اتِّبَاعِه ، فهو المُتحدِّث بِاسْمِ اللَّهِ تعالى . ويَتجاوز النبيُّ ﷺ عن كثير مِن بَاطِلِهم وتَحريفِهم للكتاب لعدم وجود فائدة في بيانه ، وبسبب عدم اشتماله على أحكام شرعية ، وَلَوْ بَيَّنَه لَفَضَحَهُم. وإنما يُبيِّن النبيُّ ﷺ ما فِيه حُجَّة على صِدْقِه وصِحَّةِ رسالته [٨١] .

---

٨١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣١٦):((فإن قِيل:كيف كان له أن يُمسِك عن حَق كتموه فلا يُبَيِّنه؟.فعنه جوابان: أحدهما أنه كان مُتَلَقِّيًا مَا يُؤْمَر بِه،فإذا أُمِرَ بإظهار شيء مِن أمْرِهِم أظْهَرَه وأخَذَهُم

وإظهارُ مَا أخفاه أهلُ الكتاب دليلٌ باهر على نُبُوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ ، لأنَّه أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأ التَّوراةَ والإنجيلَ . إذَنْ ، هَذه المعلومات التي أظْهَرَها النبيُّ ﷺ لَيْسَ لها أيُّ مَصْدَرٍ إلا الوَحْيَ السَّمَاوِيَّ المُوَجِّه لِسُلوكِ النبيِّ ﷺ وتَعَامُلاتِه . وَقَدْ أخْفَوْا آيَةَ الرَّجْم ، وَصِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في كُتُبِهم .

وقال القُرْطُبي في تفسيره (٦/ ١١٥) : ((﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، أي : يَتركه ولا يُبَيِّنه ، وإنَّما يُبَيِّن مَا فِيه حُجَّةٌ على نُبُوَّتِه ، وللدَّلالةِ على صِدْقِه ، وشَهادةٌ بِرِسالته ، ويَتْرُك مَا لَمْ يَكُنْ بِهِ حَاجَة إلى تَبْيينه)) .

والمَنْهَجُ النَّبَوِيُّ قائمٌ على النَّقْلِ والعَقْلِ ومُقَارَعَةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ، ولا يَقُوم على الشتائمِ والفضائح . وَقَدْ جاءهم مِنَ اللَّهِ نُورٌ (ضِياء) ، وَهُوَ القُرْآنُ المُعْجِزُ الذي يُبيِّن الأحكامَ ، فهو ظاهرٌ في إعجازِه ، وواضحٌ في أحكامِه . وقِيل : النُّورُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، لأنَّه الهادي إلى طريق اللَّهِ. وتَنوينُ ﴿ نُورٌ ﴾ للتَّفخيم . وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٠٧) : ((﴿ قَد جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِين ﴾ يَعْنِي القُرْآنَ ، فإنَّه الكاشف لِظُلُمَاتِ الشَّكِّ والضَّلالِ،والكِتَابُ الواضح الإعجاز . وقِيل : يُريد بالنُّورِ مُحَمَّد ﷺ)) .

وعن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ أنَّه قال : ((مَنْ كَفَرَ بالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بالرَّحمنِ ، وذلك قَوْلُ اللَّهِ : ﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم كثيرًا مِمَّا كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ ، فكانَ مِمَّا أَخْفَوُا الرَّجْمُ)) [٨٢] .

أخْفَى اليَهُودُ حَدَّ رَجْمِ الزَّاني، لأنَّهُم عَجَزُوا عَن تَطْبيقه على الشريفِ والوضيعِ ، خُصُوصًا أنَّ الزِّنَا كَثُرَ في أشرافِ اليهود ، وهؤلاء فَوْقَ الشريعةِ ، لأنَّهُم الزُّعَمَاء والقَادَة والسَّادَة ، مِمَّا جَعَلَ اليَهُودَ يُزيلون حَدَّ الرَّجْمِ مِنَ التَّوراة ، وهذا يدلُّ على تَحريفهم للتَّوراةِ ، وتَغْيِيرِ أحكامِها وحُدُودِها، بِما يَتوافق معَ أهوائِهم الذاتية ، ومَصالِحِهم الشخصية ، ومُكتسباتِهم المعنوية والمادية .

بِه، وإلا سَكَتَ.والثاني أنَّ عَقْد الذِّمَّة إنما كان على أن يُقَرُّوا على دِينهم، فلمَّا كَتَمُوا كثيرًا مِمَّا أُمِرُوا بِه واتَّخذوا غَيْرَه دِينًا ، أظْهَرَ عليهم مَا كَتَمُوه مِنْ صِفَتِه وعَلامةِ نُبُوَّتِه لتتحقق مُعْجِزَتُه عِندهم. واحْتَكَمُوا إلَيْه في الرَّجْم ، فأظْهَرَ مَا كَتَمُوا مِمَّا يُوَافِق شَرِيعَتَه ، وَسَكَتَ عَن أشياء ليتحقق إقرارُهم على دِينِهم)) .

٨٢ رواه ابن حِبَّان في صحيحه(١٠/ ٢٧٦) برقم(٤٤٣٠).ورواه الحاكم في المستدرَك(٤/ ٤٠٠) برقم (٨٠٦٩) وصَحَّحَه، ووافقه الذهبي./ملاحظة: الكفرُ لا يكون إلا بإنكار نَصٍّ قَطْعِيِّ الوُرُودِ (القُرآن الكريم والحديث الْمُتَوَاتِر) وقَطْعِيِّ الدَّلالةِ .

عَن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عنهما أنَّ اليَهُودَ جَاؤُوا إلى رسول اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا له أنَّ رَجُلًا مِنْهُم وَامْرَأَةً زَنَيَا،فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ في شَأنِ الرَّجْمِ ؟))،فقالوا : نَفْضَحُهُم وَيُجْلَدُون،فقال عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلَام:كَذَبْتُم ، إنَّ فِيهَا الرَّجْمَ ، فَأَتَوْا بالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أحَدُهُم يَدَهُ على آيَةِ الرَّجْمِ ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا ، فقالَ له عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلَام:ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فإذا فِيها آيةُ الرَّجْمِ ،فقالوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّد،فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا [٨٣] .

إنَّ ضِعَافَ النُّفُوسِ يُحاولون إخفاءَ النُّصُوصِ الدِّينية والتَّحَايُلَ عليها مِنْ أجل تحقيق مصالح شخصية،وبَسْطِ السَّيطرة والنفوذ على الأتْبَاع الجُهَّال الذين لا يَمْلِكُون حَصِيلةً عِلْمِيَّة ، وهَؤلاء العَوَام يَتْبَعُون كُلَّ ناعقٍ دُون إعمال عُقولهم، فَدِينُهم مَبْنِيٌّ على التقليد الأعمى. وتظهرُ مسألةُ الرَّجْم في هذا السياق لتعكس طبيعةَ تفكير أهل الكتاب العائشين في الأوهام والعقائد المُتعارضة ، والخاضعين لِسُلْطَةِ رِجالِ الدِّينِ وعِلْيَةِ القَوْمِ في تَفسيرِ النُّصُوصِ والتلاعبِ بِها حَسَب الأهواءِ والمصالحِ الشخصية ، حَيْثُ يَتِمُّ تَمْيِيعُ النُّصُوصِ الدِّينية وإعادةُ تأويلِها أوْ إخفاؤُها لتتناسب معَ الظُّروف ، فَتُصبح البِيئةُ المُحِيطةُ هي الحاكمةَ على النَّصِّ الدِّينيِّ ، وَلَيْسَ العَكْس .

إنَّ أهل الكِتاب أَخْضَعُوا كَلامَ اللَّهِ لأهواء البشر، وآراءِ النُّخبة الدِّينية المحصورة في الضُّغوطات السياسية والاجتماعية ، فَتَكَرَّسَ التَّحريفُ في التَّوراة والإنجيل ، وصار كلامُ الإنسانِ _ عند أهل الكتاب _ هو الحاكمَ على كلام اللَّهِ تعالى. وهذا مُنْتَهَى الضَّلالِ والكُفْرِ . وهذا الانحرافُ ناتج عن ضَغط المصالح الشخصية .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٢٧) عن البَرَاء بن عَازِب_ رَضِيَ اللَّهُ عنه_ قال: مُرَّ على النَّبِيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّمًا _ أي مُسْوَدَّ الوَجْهِ بالفَحْمِ _ مَجْلُودًا، فدعاهم ﷺ فقال : ((هكذا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كِتَابِكُم ؟))، قالوا: نَعَمْ . فَدَعَا رَجُلًا مِن عُلمائهم ، فقال: ((أَنْشُدُكَ باللَّهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلى مُوسَى ، أهكذا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كِتَابِكُم ؟))، قال : لا، ولَوْلا أنَّكَ

---

٨٣ رواه البخاري (٣/١٣٣٠) برقم(٣٤٣٦) واللفظ له ، ومسلم(٣/ ١٣٢٦)برقم(١٦٩٩). وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٦٨): ((قال الباجي: يَحْتَمِل أن يَكُون عَلِمَ بالوَحْيِ أنَّ حُكْمَ الرَّجْمِ فِيها ثابت على مَا شُرِع لَمْ يَلْحَقْه تبديل. ويَحْتَمِل أن يَكُونَ عَلِمَ ذلك بإخبار عبد اللَّه بن سَلَام وغَيْرِه مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْهُم على وَجْهٍ حَصَلَ لَهُ بِهِ العِلْمُ بِصِحَّةِ نَقْلِهِم . ويَحْتَمِل أنْ يَكُونَ إنما سألهم عن ذلك لِيَعْلَمَ مَا عِندَهم فيه ، ثم يَتَعَلَّم صِحَّةَ ذلك مِنْ قِبَل اللَّهِ تعالى)) .

نَشَدْتَني بهذا لَمْ أُخْبِرْكَ ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ،ولكنَّه كَثُرَ في أشرافِنا ، فَكُنَّا إذا أخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاه ، وإذا أخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الحَدَّ . قُلْنَا : تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلى شَيْءٍ نُقِيمُهُ على الشَّرِيفِ والوَضِيعِ ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ والجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ .

هذا الحديثُ يُشير إلى الأيدي العابثة بالنُّصُوصِ الشَّرعية ، خُضُوعًا لاعتباراتٍ دِينية أو سِياسية أو اجتماعية ، فَتُصبح فلسفةُ تغيير الأحكام الإلهيَّة شريعةً جديدةً عِند أهل الكتاب نُزُولًا عِند ضَغْطِ الأهواءِ والمَنافعِ الدُّنيوية القاصرة .

والأساسُ الفِكْرِيُّ لِتحريفِ التَّوراةِ والإنجيلِ يَتَمَحْوَر حَوْلَ التلاعبِ بالعَوَامِّ الجُهَّالِ عَبْرَ خِداعِهم، وتَثبيتِ خُضُوعِهم للسُّلطةِ الدِّينية المُشَوَّشة، والسُّلطةِ السِّياسية المُتحالِفة معَ طبقة رجال الدِّين لضمان استمرارية حَاكِمِيَّة الطُّغَاةِ دُون تَغْيير . وبالتأكيد ، إنَّ الشعب هو مَنْ يَدْفَع الثمنَ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة : ١٨] .

هذه الآيةُ تَكذيبٌ لأهل الكتاب ، ورَدٌّ إلهيٌّ بليغٌ عليهم ، فقد زعموا أنهم أبناء اللَّه تعالى ، أي إنهم عِبادُه المُخْلَصون الذين اختارهم وفضَّلهم على الخَلْق، وأحبابُه وصَفوته مِن بين الناس ، وأنهم مِنَ اللَّهِ بِمَنْزلة الأبناء مِنَ الآباء ، أي إنَّهم كأبنائه سُبحانَه وتعالى في القُرب والمكانة ، وهو كأبيهم في الحُبِّ والرحمة . وهذا الزَّعْمُ الباطل تهاوى أمام الرَّد القرآنِيِّ . فإن كانوا _ كما يَزْعُمُون _ فلماذا أعدَّ اللَّهُ لهم نارَ جهنم خالدين فيها جزاء كفرهم وكذبهم ورفضهم للرسالة المُحمَّدية الإسلامية المُصَدِّقة لِمَا قَبْلَها مِن الرسالات السماوية ؟ . وفي الآية معنى لطيفٌ أنَّ اللَّه تعالى لا يُلقِي حبيبَه في النار . وَلَوْ كان اليهودُ والنصارى أحبابًا للَّه تعالى لَمَا عَذَّبَهم ، بَل حَمَاهم مِنَ الجحيم، وَمَنَحَهم الجنةَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨):((أي نحن مُنتَسِبون إلى أنبيائه، وهُم بَنُوه ، ولَهُ بِهم عِناية وهو يُحِبُّنا. ونقلوا عن كتابهم أنَّ اللَّه تعالى قال لِعَبْده إسرائيل : أنتَ ابني بِكْري. فَحَمَلوا هذا على غير تأويله ، وحَرَّفوه ، وقد رَدَّ عليهم غَيْرُ واحد مِمَّن أسلمَ مِن عُقلائهم. وقالوا : هذا يُطلَق عِندَهم على التشريف والإكرام ، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم ، يعني رَبِّي ورَبَّكم . ومعلوم أنهم لَم يَدَّعوا لأنفسهم مِنَ البُنُوَّة ما ادَّعَوْها في عيسى _ عليه السلام _ وإنما أرادوا من ذلك مَعَزَّتهم لَدَيه ، وحَظوتهم عِندَه، ولهذا قالوا : نحن أبناء اللَّه وأحباؤه)) .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٣/ ٤٤) : [أخرج ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبَيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : ((أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ ابنُ أُبَي ، وبحري بن عمرو ، وشاس بن عَدِيٍّ ، فكلَّمهم وكلَّموه ، ودعاهم إلى اللَّه ، وحذَّرهم نِقمته، فقالوا: مَا تُخوِّفُنا يا مُحَمَّد ، نَحْنُ واللَّهِ أبناءُ اللَّهِ وأحباؤه ، كَقَول النصارى))] ، فأنزل اللَّهُ فيهم : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء اللَّه وأحباؤه قُل فَلِمَ يُعذِّبكم بذنوبكم ﴾ .

إنَّ هذا الغُرور والاستعلاء والتحدث بِكُلِّ عُنْجُهِيَّة وفَوْقية ، كُل هذه الأمور تُعتبَر حواجز مانعة لوصول الحق.والإنسانُ الصادق في طلب الحق،ينبغي أن يَطلبه في كل زمانٍ ومكان بأدب وتواضع واستعداد نَفْسِي لِتَقَبُّلِه . أمَّا اتخاذ موقف استعلائي مُسْبَق ، فسوف يؤدي قطعًا إلى رفض الحق سواءٌ ظَهر أم لَم يَظهر. وهذا هو دَيْدن اليهود في كُلِّ العُصور الذين يَنظرون إلى أنفسهم على أنهم صَفوةُ اللَّه مِن خَلْقه ، وشَعْبُه المختار ، وأنَّ الآخرين مجرد عبيد ورَعاع وأصحاب مَنْزلة دُونية .

وعن أنسٍ ــ رضي اللَّه عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((واللَّهِ لا يُلقِي اللَّهُ حَبيبَه في النار)) [٨٤] .

إنَّ اللَّهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا حَمَاه مِن كُلِّ سُوء ، ووفَّقه لِفِعل الخَيْرَات حتى يَقْبِضَه طاهرًا مُطَهَّرًا ، ثُمَّ يُدْخِله الجَنَّةَ ، ولا يَجعل النارَ تأكل جَسَدَه . وهُنا تَتَجَلَّى الرَّحمةُ الإلهيَّةُ ، ويَظهر الفضلُ الرَّبانِيُّ العظيمُ ، فالمؤمنُ لا يَدْخُل الجَنَّةَ بعبادته وتَقواه وذكائه ، وإنَّما يَدخلها برحمة اللَّهِ وفَضْلِه .

وجهلُ اليهود المَمزوج بالغُرور والتكبُّر والعِناد ، صوَّر لهم أنهم أحِبَّاءُ اللَّه تعالى وأولياؤه المُقرَّبون وأبناؤه الكِرام . وهُم لا يقصدون أن اللَّه أنجبهم . ولكنهم يَعنون بكلامهم هذا أنهم مُنتسِبون إلى الأنبياء وشريعتهم ، وأنهم يُطبِّقون تعاليمَ اللَّه الذي هو سَيِّدهم والمُعتني بهم والراعي لهم ، والذي يحيطهم بالأمن والأمان والمحبة ، ويرزقهم ، ويتغمَّدهم بالرحمة والعناية والرعاية . فهم أبناؤه وأحباؤه الذين لن يتخلى عنهم ، ولن يتركهم . وسوفَ يَمنحهم نعيمَ الجنة الأبديَّ .

ولا شك أنَّ هذه دَعَاوى عريضة واهية ، لا أساس لها من الصحة ، وأُمْنِيَّات في الهواء لا وزن لها . والإيمانُ ليس كلامًا مُجَرَّدًا ، أو خُطبةً إنشائية لا يُصدِّقها العملُ . إن الإيمان هو العمل بالعِلْم الشرعيِّ الذي ارتضاه اللَّهُ لعباده . أمَّا تنميق الألفاظ البَرَّاقة المُفْرَغة من معناها ، وترتيب المعاني الفخمة الخيالية ، فلا فائدة منه ، ولا طائل مِن ورائه .

---

٨٤ رواه الحاكم في المستدرَك (٤ / ١٩٥) برقم (٧٣٤٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال الزركشي في البُرهان في علوم القرآن (٣ / ٣٧٤) : ((المعنى : فَلِمَ عَذَّبَ آباءكم بالمَسْخ والقتل ؟ ، لأن النبيَّ ﷺ لَمْ يُؤْمَرْ بأن يَحتج عليهم بشيء لَمْ يَكُنْ بَعْد ، لأن الجاحدَ يقول إني لا أُعذَّب ، لكنْ احْتَجَّ عليهم بما قد كان)) .

إن الآية القُرآنية وضَّحت دَعوى أهل الكتاب (اليهود والنصارى) المُتهافتة التي لا دليل عليها ولا حُجَّة . ووضَّحت كذلك الرَّدَّ الإلهيَّ على هذه الدعوى الساقطة . والجهلُ والغرورُ يَخدعان الإنسانَ ، ويرسمان له طريقًا من الأحلام الوردية ، وهو غاطس في أوحال الخطيئة . وتزيينُ النَّفْسِ والشيطانِ للإنسان يُسْقطه في براثن التَّسويف والتَّمني . والأحمقُ مَنْ تَبع هَوَاه ، وأقام على المعصية ، وتمنَّى على اللَّه المَغفرة . وهذا هو مُنتهى الضياع . ولا يخفى أن الكلام سَهْل يُتقنه الجميع ، لكن المِحَك الحقيقيَّ هو الفِعْل الذي يَكشف الصادق من الكاذب .

وأحِبَّاءُ اللَّهِ هُمُ الذين التزموا أوامره ، واجتنبوا نَوَاهيه ، ونصروا شَرْعَه وأنبياءه بكل ما أُوتوا من إمكانيات معنوية ومادية. وكيفَ يُصبح اليهودُ (قَتَلَةُ الأنبياء) أحبابًا للَّه تعالى ؟ . أَمْ كيف يُصبح النصارى الذين يَشْتُمُون اللَّهَ ، ويَجعلون له ابنًا شريكًا له في الأُلوهية أحبابًا للَّه تعالى ؟ .

إن أسوأ أنواع الجهل أن يغرق الفرد في الهوى الزائف، ويتمنى على اللَّه الأماني . والكارثة الحقيقة هي أن يظن الجاهلُ نَفْسَه عَالِمًا لا يُجَارى ، لأنه في تلك الحالة يكون قد وصل إلى طريقٍ مسدود ، وأحاط نَفْسَه بِشَرْنقة متينة تَحول دون وصول نور العِلم والإيمان إلى رُوحه وقلبه . وهذا الشخصُ غارق في الظُّلُمَات لَيْسَ بخارجٍ منها إلا إلى ظُلماتٍ أكثر سَوادًا وظلامًا ، تستنزف كِيَانَه شيئًا فشيئًا ، حتى تتركه هَيْكَلًا فارغًا ، بلا وزن ولا قيمة . وهذا هو الموت في الحياة .

وعن عُمَر بن الخطاب أنَّ رَجُلًا مِن اليهود قال له: يا أميرَ المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تَقْرَؤونها ، لَوْ علينا مَعْشَرَ اليهودِ نَزَلَتْ لاتَّخَذْنا ذلك اليومَ عِيدًا، قال: ((أَيُّ آية ؟))، قال: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]. قال عُمَر: ((قَدْ عَرَفْنَا ذلك اليَوْمَ والمَكَانَ الذي نَزَلَتْ فيه على النَّبِيِّ ﷺ ، وهو قائمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَة)) [٨٥] .

كان المسلمون لحظة تلقِّي هذه الآية في عِيدَيْن : يوم عَرَفة ، ويوم الجُمُعة . وكُلُّ واحد مِنهما يَوم عِيد للمسلمين . ولَم ينتبه اليهوديُّ إلى ذلك الأمر . لكنه أدرك عَظَمَةَ الآية الشريفة التي تَحْمِل بِشارةَ إكمال الدِّين وإتمام النِّعْمَة ، مِمَّا يدلُّ على أهميَّة الأُمَّة المُحمَّدية الإسلاميَّة التي

---

٨٥ متفق عليه . واللفظ للبخاري (١ / ٢٥) برقم (٤٥). ومسلم(٤ / ٢٣١٣) برقم (٣٠١٧).

تَلَقَّتْ هذه المُكافأة الرَّبَّانِيَّة الكريمة ، وكَوْنِها الأُمَّة الوحيدة التي تَحْمِل كَلِمَة اللَّه إلى الناس . وهذا يدلُّ على أفضليَّةِ الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة وشَرَفِهَا ومكانتها الجليلة ومنزلتها الرفيعة ، وأنَّها أعظمُ الأُمَمِ .

والحديث يدلُّ على فِطنة عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ ، وسَعة عِلْمه . فهو عَالِمٌ بمكان نزول الآية وزمانها ، واستطاع استحضارهما دون تردد أو طُول تفكير. مِمَّا يُشير إلى ارتباطه الوثيق بالوَحْي القرآنِيِّ والظروفِ المحيطة به . ولا شك أن اليهودي كان يستشعر النقصَ في دِينه دون الإفصاح عنه.وكُلُّ شخص يَبحث عمَّا يَنْقُصُه ، وما تَعَلُّقه بآية إكمال الدِّين إلا مُؤشِّر باهر على شُعوره بالعجز والضعف وعُقدة النقص ، وأنه ينتمي إلى دِينٍ ناقصٍ تَمَّ التلاعب به . ومِن سِياق كلامه يظهر أنه يتمنى لو كانت اليهودية دِينًا كاملًا ، ولو نَزلت عليهم آيةٌ بهذا الخصوص لاتَّخذوا ذلك اليوم عيدًا ، واحتفلوا به ، ونشروه بين الناس . لكنَّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه .

والآيةُ بِشارة عُظمى من اللَّه تعالى تتضمَّن إكمالَ دِينِ الإسلام ، وجَعْلَه خاليًا مِن أيِّ نقص ، وإتمام النِّعمة على المسلمين الذين هداهم اللَّهُ إلى الدِّين الحق الذي رَضِيَه لعباده ، وهو الإسلام.

أظهرَ اللَّهُ الإسلامَ على سائر الأديان ، وأكملَ الشريعةَ ببيان الأوامر والنَّواهي ، والحلال والحرام ، والفرائض والأحكام والحدود ، وإرساء القواعد وتوضيحها . فلا لَبْسَ ولا غُموض ، ولا زيادة ولا نُقصان. والإسلام هو الدِّين الكامل المعصوم، والكاملُ لا يَحتاج إلى إكمال . ولَم يَنْزِل بعد هذه الآية حلال ولا حرام. والدِّينُ الإسلاميُّ قائم على القُرآن والسُّنَّة، وفِيهما بيان كُلِّ شيء بلا استثناء،إمَّا نَصًّا وإمَّا دَلالة.وكُلُّ واقعة حتى يوم القِيامة لها حُكْمٌ شَرْعِيٌّ قائم على الدليل. وبابُ الاجتهاد مفتوح لا يُغلَق، وهو يعني إلحاق الفروع بالأصول، وإرجاع التفاصيل إلى القواعد.

وهذا الكمالُ يَبعث في نُفُوس المسلمين الراحةَ والطُّمَأنينة.وَخُلُوُّ الإسلام من أي ثغرة _ بغضِّ النظر عن حجمها _ ، وعدم وجود أي خطأ فيه ، وتحدِّيه لكل أعدائه المُعانِدين . كُل ذلك يبث القوةَ في قلب المُسْلِم ، ويجعل منه أداة بناء لا تنكسر أمام الشدائد والمصاعب . وحين يُدرِك الفردُ أبعادَ اعتناقه للإسلام فإنه يتحول إلى طاقة جبَّارة لإعمار الأرض وصناعة الحضارة ، وليس لقهر الآخرين واستعبادهم وإذلالهم . وهذه القوةُ الدينية الكاملة لا يُمكن محاصرتها ، وهي غَير قابلة للاختراق أو التدجين . الأمر الذي يؤدِّي إلى ولادة أجيال واثقة بِنَفْسِها وعقيدتها وتاريخها ، قادرة على مُمارسة فِعل البناء الإنسانيِّ ، والتَّشييد الحضاريِّ ، وإنشاء البيئة المناسبة للإبداع.

إنَّ الخَوْفَ يأتي مِن النقص ، والمُشكلاتُ تُولَد مِنَ الثَّغَرَات، واللصُّ لا يدخل إلا مِن خِلال ثغرة ما ، ولو كان البيتُ مُحَصَّنًا ضِد الاختراق ، فلا يمكن لأحد أن يقتحمه أو يَسرقه .

والإسلامُ (أعظم بِنَاء حضاري) دِينٌ كامل لا ثُقْب فيه ولا ثَغْرَة . ولا يمكن اختراقه أو التلاعب به ، أو تحريف نصوصه ، أو إجراء عمليات ترميم له . والكاملُ غير قابل للزيادة أو النُّقْصَان . وهذه هي قوة الدِّين الإسلاميِّ ، عقيدةً وفِكْرًا ومُمَارَسَةً .

واليهوديُّ جاهل بالشريعة ، لذلك لم يُدْرِكْ أن عَرَفَة والجُمُعة عِيدان للمُسلمين ولَيْسا عِيدًا واحدًا . واللَّهُ أنزلَ التَّوراةَ على اليهود ، فلماذا لَمْ يَتَّخذوا اليومَ الذي أُنْزِلَتْ فيه عِيدًا ؟ ، ولماذا حرَّفوا نصوصَها ، ورَمَوْا أوامرَ اللَّه تعالى وراء ظهورهم ؟ . لَوْ كان اليهودُ حريصين على الحق ، وباحثين عن الحقيقة ، لاتَّخذوا التَّوراةَ الأصلية (قبل التَّحريف) أساسًا لوجودهم وحياتهم ، واحتفلوا باليوم الذي جاءهم فيه النُّورُ الإلهيُّ بَدَلًا مِن الإعراض عن الحق ، والغرق في الجهل المقصود ، وتحريف التَّوراة ، وقتل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يا أيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الذينَ يُسَارِعُونَ في الكُفْرِ مِنَ الذينَ قالوا آمَنَّا بأفواهِهِم وَلَمْ تُؤْمِن قُلوبُهُم وَمِنَ الذينَ هادوا سَمَّاعُونَ للكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إنْ أُوتِيتُم هذا فَخُذُوهُ وإن لَمْ تُؤْتَوْهُ فاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولئكَ الذينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُم لَهُم في الدُّنيا خِزْيٌ ولَهُم في الآخِرَةِ عَذَابٌ عظيم ﴾ [المائدة : ٤١] .

الآيةُ تَسليةٌ للرسول ﷺ، وتَخفيفٌ عنه، وتثبيتٌ له على منهج الحق،وقَطْع لرجائه في إسلامهم. لا تَحْزَنْ يا مُحَمَّد، ولا تتضايق ، ولا تتأثَّر ، بسبب مُسارَعة المنافقين إلى الكفر،والوقوع فِيه سريعًا حِرْصًا عَلَيه . إنهم كُلما وَجدوا فُرصةً أظْهَروا الكفرَ . وَهُم يَضُرُّون أنفسَهم باختيارهم الكفر على الإيمان، لأنهم يَقُودونها إلى الهلاك والعذاب الأبديِّ ، ولَن يَضُرُّوك ، ولَن يَقْدِروا على إيذائك .

وهؤلاء المنافقون إيمانُهم ظاهريٌّ ، لا يُجاوِز أفواهَهم . يَقولون بألسنتهم : آمَنَّا ، لِخَداع المسلمين، والطعنِ الخفيِّ في الإسلام ، والكَيد له . وقلوبُهم كافرةٌ ، تَغرِق في ظُلمات الضلال والانحراف .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٥٧٢) : ((يَقُول جَلَّ ثَنَاؤُه لِنَبِيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ : يا أيها الرسول لا يَحْزُنكَ تَسَرُّع مَن تَسَرَّعَ مِن هؤلاء المنافقين _ الذين يُظهِرون بألسنتهم تصديقَك وهُم مُعتقِدون تكذيبَك _ إلى الكفر بك ، ولا تَسَرُّع اليهود إلى جُحود نُبُوَّتك . ثُمَّ وَصَفَ جَلَّ وَعَزَّ له صِفتهم ، ونَعَتَهُم له بِنُعوتهم الذميمة ، وأفعالهم الرديئة . وأخبره مُعَزِّيًا له على ما يناله مِن الحُزْنِ بتكذيبهم إيَّاه مَعَ عِلْمهم بِصِدْقه ، أنهم أهل استحلال الحرام والمآكل الرديئة والمطاعم الدنيئة مِن الرُّشَى

والسُّحْت ، وأنهم أهل إفْك وكَذِب على اللَّه ، وتحريف لكتابه ، ثُمَّ أعْلَمَه أنَّه مُحِلٌّ بهم خِزْيَه في عاجل الدنيا ، وعِقابَه في آجِل الآخرة)) .

﴿ وَمِنَ الذينَ هادوا ﴾ . ومِن اليهود (أعداء الإسلام والمسلمين) .

﴿ سَمَّاعُونَ للكَذِبِ ﴾ . غارقون في سَماع الأكاذيب ، ومُستجيبون لها ، وخاضعون لكذب علمائهم على اللَّه ، وتحريفهم للتَّوراة . أي إنهم قابلون لكذب زعمائهم الذين حرَّفوا التَّوراةَ .

﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لم يَأتُوكَ ﴾ . مُبَالِغُون في قَبول كلام قومٍ آخرين لم يَحضروا مجلسَ النبيِّ ﷺ عِنادًا واستكبارًا وعداوةً للنبيِّ ﷺ وكُرْهًا له ، وحِقْدًا على الإسلام والمسلمين ، وهُم يهود خَيْبَر . والسَّمَّاعون للكذب بَنُو قُرَيظة .

إن اليهود مُتفاعلون تمامًا مع الكذب ، ومُندمِجون به إلى أقصى حد . وهُم يعتقدون أن الكذب أسهل وسيلة لمواجهة الحق ، وطَمْسِه ، وَقَلْبِ الحقائق . لذلك يَسْعَوْنَ جاهدين لتغيير الحقائق ، ونشر الأكاذيب ، لتحقيق أهدافهم الخبيثة ، والحصول على مُرادهم . وهُم ينتهجون أسلوبَ الكذب لتغيير الوقائع ، وتشكيك الناس بدِينهم ، وتقديم أنفسهم كأصحاب حَق ، وغَيْرُهم أصحاب باطل مُنحرفون عن الطريق المستقيم والمَنهج القويم . وهؤلاء طابور خامس ، يعتمدون على نقل الأكاذيب، ونشر الأباطيل، وبَث الإشاعات، لإثارة البلبلة والاضطراب ، وتمزيق المجتمع الإسلاميِّ وتدميره. كما أنهم يَتَلَقَّوْنَ التعليمات مِن زُعمائهم الفاسدين، المُحارِبين للحق والحقيقة .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٧ و٣٥٨): ((﴿ وَمِنَ الذينَ هادوا ﴾ وَهُمُ اليهود ﴿ سَمَّاعُونَ للكَذِبِ ﴾ . قال سِيبَوَيْه : هو مرفوع بالابتداء . قال أبو الحسن الأخفش : ويجوز أن يكون رَفْعُه على معنى: ﴿ وَمِنَ الذينَ هادوا سَمَّاعُونَ للكَذِبِ ﴾. وفي معناه أربعة أقوال: أحدها : سَمَّاعون مِنْكَ لِيَكْذبوا عليك . والثاني : سَمَّاعون للكَذِب ، أي : قائلون له ، والثالث : سَمَّاعون للكَذِب الذي بَدَّلوه في تَوْراتهم . والرابع: سَمَّاعون للكَذِب ، أي : قابلون له . ومِنه سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَه ، أي : قَبِلَ . وفي قَوْله : ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ قَوْلان: أحدهما : يسمعون لأولئك ، فهُم عُيون لهم، والثاني : سَمَّاعون مِن قوم آخرين ، وهُم رؤساؤهم المُبَدِّلُون التَّوراة . وفي السَّمَّاعين للكذب وللقوم الآخَرِين قَوْلان ، أحدهما : أن السَّمَّاعين للكَذِب يهود المدينة ، والقَوم الآخَرُون الذين لَمْ يَأتوا رسول اللَّه ﷺ يهود فَدَك _ اسم مَوْضع _ ، والثاني بالعكس من هذا)) .

إنَّ شمس الحق لا تُغَطَّى بِغِرْبال ، وأعداء الحق مهزومون عاجلًا أو آجِلًا ، وناصرُ الحق مَنصور ، وناصرُ الباطل مَخْذول . وعواملُ انهيار الباطل كامنة فيه مَهْما علا ضجيجُه وسَطْوته . ولا يَخْلُو زَمَنٌ مِنْ قائم للَّهِ بِحُجَّة . والمَبادئُ المُنحرِفة تَشتمل على عناصر ضَعْفِها وانكسارِها وانهيارِها في داخلها، ومَهْمَا عَلا صَوْتُ الظُّلْمِ فَسَينطفئ لا مَحَالة ، وتَبْقَى السِّيَادةُ والغَلَبَةُ للحَق ، لأنَّ دَولة الباطل ساعة ، ودَولة الحق إلى قيام الساعة ، وَمَنْ يَضْحَك أخيرًا يَضْحَك كثيرًا ، والعِبْرَةُ بالخواتيم .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٢٧) : عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّمًا _ مُسْوَدَّ الوَجْه _ مَجلودًا، فَدَعاهم ﷺ فقال: ((هكذا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كتابكم ؟))، قالوا : نعم ، فَدَعا رَجلًا مِن عُلمائهم ، فقال : ((أنشُدُكَ باللَّهِ الذي أنزلَ التوراةَ على موسى ، أهكذا تَجِدُونَ حَدَّ الزاني في كتابكم ؟))، قال: لا، وَلَوْلا أنَّكَ نَشَدْتَني بهذا لَم أُخْبِرْكَ، نَجِدُه الرَّجْمَ ، ولكنَّه كَثُرَ في أشرافنا ، فَكُنَّا إذا أخَذْنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ أقَمْنا عليه الحدَّ، قُلْنا: تَعَالَوْا فلنجتمعْ على شَيء نُقيمه على الشريف والوضيع ، فَجَعَلْنا التَّحميمَ والجَلْدَ مَكانَ الرَّجْم . فقال رسول اللَّه ﷺ: ((اللهُمَّ إنِّي أوَّلُ مَن أحيا أمْرَكَ إذْ أمَاتُوه))، فَأُمِرَ بِه، فَرُجِمَ ، فأنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ لا يَحْزُنكَ الذينَ يُسَارِعُونَ في الكُفْرِ ﴾ إلى قَوْلِه : ﴿ إن أُوتِيتُم هذا فَخُذوه ﴾ . يَقُول : ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإنْ أمَرَكم بالتَّحميمِ والجَلْدِ فَخُذُوه ، وإنْ أفتاكم بالرَّجْم فاحْذَرُوا .

هذا الحديث يدل على تحريف اليهود للتَّوراة ، والتلاعب بأحكامها ، اتِّبَاعًا لأهوائهم ، وتحقيقًا لمصالحهم. ويدل على حِرص النبيِّ على إقامة أحكام اللَّه ، وتطبيق شريعته في الأرض .

وذَكَرَ ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٥٧) أقوالًا أُخرى فِيمَن نَزلت الآية : ((والثاني أنها نزلت في ابن صُورِيَا (مِن كِبار أحبار اليهود) آمنَ ثُم كَفَرَ،وهذا المعنى مرويٌّ عن أبي هريرة . والثالث أنها نزلت في يهوديٍّ قَتل يهوديًّا ، ثُمَّ قال : سَلُوا مُحَمَّدًا ، فإنْ كانَ بُعِثَ بالدِّيَة اخْتَصَمْنَا إليه ، وإن كان بُعِثَ بالقتل لَمْ نأته ، قاله الشَّعْبي . والرابع أنها نزلت في المنافقين، قاله ابن عباس ومجاهد . والخامس أن رَجُلًا من الأنصار أشارت إليه قُرَيظة يوم حصارهم على ماذا ننزل ، فأشار إليهم أنه الذَّبْح ، قاله السُّدي . قال مُقاتل : هو أبو لُبَابة بن عبد المنذر ، قالت له قُرَيظة : أنَنْزِلُ على حُكم سعد ؟ ، فأشارَ بيده أنه الذَّبْح . وكان حليفًا لهم . قال أبو لُبَابة : فَعَلِمْتُ أنِّي قد خُنْتُ اللَّهَ ورسولَه ، فنزلت هذه الآية)) .

﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ . حرَّف اليهودُ التَّوراةَ ، وتلاعبوا بها ، وغيَّروا أحكامَها ، وبدَّلوا شرائعها ، وتأوَّلوا نصوصها على غَير تأويلها ، بعد فَهْمها ، والعِلْم بها ، وأزالوا حُدودَ اللَّه مِنها كالرَّجْم ، وجَعلوا مكانَه الجَلْدَ وتَسويد الوجه .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٨) : ((وفي تحريفهم الكَلِم خمسة أقوال : أحدها أنه تغيير حدود اللَّه في التَّوراة ، وذلك أنهم غَيَّرُوا الرَّجْمَ ، قاله ابن عباس والجمهور . والثاني تغيير ما يَسمعونه من النبيِّ ﷺ بالكذب عليه،قاله الحسن.والثالث إخفاء صِفة النبيِّ ﷺ . والرابع إسقاط القَوَد (القِصاص) بعد استحقاقه . والخامس سُوء التأويل . وقال ابن جرير : المعنى : يُحرِّفون حُكْمَ الكَلِم ، فحذف ذِكْر الحُكْم لمعرفة السامعين بذلك . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ قال الزَّجَّاج : أي : مِن بَعد أن وَضَعَه اللَّهُ مَوَاضِعَه ، فأحلَّ حَلالَه ، وحَرَّمَ حَرامَه)).

﴿ يَقُولُونَ إن أُوتِيتُم هذا فَخُذُوهُ وإن لَم تُؤْتَوْهُ فاحْذَرُوا ﴾ . يقول اليهودُ : إنْ أمَرَكُم مُحَمَّدٌ بالجَلْدِ ، فَاقْبَلُوا حُكْمَه . وإنْ أمَرَكُم بالرَّجْمِ ، فَارْفُضُوا حُكْمَه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٨) : ((في القائلين لهذا قَولان : أحدهما أنهم اليهود ، وذلك أن رَجُلًا وامرأة مِن أشرافهم زَنَيا ، فكان حَدُّهما الرَّجْم ، فكرهت اليهودُ رَجْمَهما ، فبعثوا إلى النبيِّ ﷺ يسألونه عن قضائه في الزانيَيْن إذا أُحْصِنا، وقالوا: إن أفتاكم بالجَلْد فَخُذوه، وإن أفتاكم بالرَّجْم ، فلا تعملوا به ، هذا قَوْل الجُمهور . والثاني أنهم المُنافقون . قال قَتَادة : وذلك أن بني النضير كانوا لا يُعطون قُرَيظة القَوَدَ (القِصاص) إذا قَتلوا منهم ، وإنما يُعطونهم الدِّيَة ، فإذا قَتَلَتْ قُرَيْظَةُ مِنَ النَّضير لَمْ يَرْضَوْا إلا بالقَوَد تَعَزُّزًا عليهم ، فَقَتَلَ بنو النضير رَجُلًا مِن قُرَيظة عَمْدًا ، فأرادوا رفع ذلك إلى النبيِّ ﷺ . فقال رَجل من المنافقين : إن قتيلكم قتيل عَمْد ، ومتى ترفعوا ذلك إلى مُحَمَّدٍ خَشِيتُ عليكم القَوَد،فإن قُبِلت منكم الدِّيَة فأعْطُوا ، وإلا فكونوا مِنه على حَذَر.وفي معنى ﴿ فاحْذَرُوا ﴾ ثلاثة أقوال:أحدها فاحذروا أن تعملوا بقَوله الشديد . والثاني فاحذروا أن تُطْلِعوه على ما في التَّوراة فيأخذكم بالعمل به . والثالث فاحذروا أن تسألوه بعدها)) .

﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ . وَمَن يُرِد اللَّهُ كُفْرَه وضلالَه ، فلا أحد يَقْدِر على حمايته وإنقاذه ، ودَفْع ذلك عنه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٩) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ . في الفِتْنَة ثلاثة أقوال : أحدها أنها بمعنى الضَّلالة، قاله ابن عباس ومجاهد . والثاني العذاب ، قاله الحسن وقَتَادة. والثالث الفضيحة،ذَكَرَه الزَّجَّاج.قَوْلُه تعالى: ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

أي: لا تُغْنِي عنه ، ولا تَقْدِر على استنقاذه . وفي هذا تَسْلِيَةٌ للنَّبِيِّ ﷺ مِنْ حُزْنِه على مُسَارعتهم في الكُفْر)) .

﴿ أُولئكَ الذينَ لَم يُرِدِ اللَّهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُم ﴾ . لَمْ يُرِد اللَّهُ أن يَهْدِيَهم إلى الإيمان، ولا أن يُطهِّر قُلوبَهم مِن الكُفْر والضَّلال ، بسبب أقوالهم السَّيئة ، وأفعالهم الدنيئة ، وسُوء اختيارهم .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٩) : ((قال السُّدي: يعني المنافقين واليهود . لَمْ يُرِدْ أن يُطهِّر قلوبهم مِن دَنَس الكُفْر ووسخ الشِّرك بطهارة الإيمان والإسلام)) .

﴿ لَهُم في الدُّنيا خِزْيٌ ﴾ . لليهود في الدنيا ذُل وفضيحة وخِزي وعار . وتنكيرُ ﴿ خِزْيٌ ﴾ للتعظيم والتفخيم. ﴿ ولَهُم في الآخِرَةِ عَذَابٌ عظيم ﴾ . ولليهود أيضًا في الآخرة عذاب شديد ، وهو الخلود في نار جَهَنَّم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٥٩): ((أمَّا خِزْيُ المُنافقين فَبِهَتْك سَتْرهم وإطْلاع النبيِّ على كُفرهم . وخِزْيُ اليهود بفضيحتهم في إظهار كذبهم ، إذْ كَتموا الرَّجْمَ، وبأخذ الجِزْية مِنهُم. قال مُقاتل : وخِزْي قُرَيظة بقتلهم وسَبْيهم ، وخِزْي النضير بإجلائهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ للكَذِبِ أكَّالُونَ للسُّحْتِ فإن جَاؤوكَ فَاحْكُم بَينَهُم أوْ أعْرِضْ عَنْهُم وإن تُعْرِضْ عَنهُم فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وإن حَكَمْتَ فاحْكُم بَينَهُم بالقِسْطِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين ﴾ [المائدة : ٤٢] .

هؤلاء اليهود سَمَّاعون للكَذِبِ والباطلِ ، أكَّالون للحَرَامِ كالرِّشْوَة والرِّبا وغَيرهما ، وصِيغة المُبَالَغَة (أكَّالُون / فَعَّالون) للتَّكثير . أي يَتكرَّر أكلُهم ويَكْثُر . والسُّحْتُ كُلُّ ما لا يَحِلُّ كَسْبُه مِن المال .

وحُكَّامُ اليهود كانوا يُحرِّمون الحلالَ ، ويُحلِّلون الحرامَ ، ويَسْمعون الكَذِبَ ، ويَقْبَلُون الباطلَ مِن المُتَخَاصِمِين ، ويأخذون الرِّشوةَ مِن الخَصْم ، لإصدار حُكْم في صالحه .

فإن تَحَاكَمُوا إليكَ يا مُحَمَّد في الخُصُومات التي حَدَثَتْ بَينهم ، فاحْكُم بَينهم بشريعة اللَّه ، أوْ أعْرِضْ عَنهُم ، ولا تَحْكُم بَينهم ، لأنَّهُم يُريدون اتِّباعَ أهوائهم وتحقيقَ مصالحهم ، ولا يُريدون الحَقَّ ، ولا يَبْحَثُون عن العَدْل.والنبيُّ ﷺ مُخَيَّر بَيْن الحُكْم بَينهم أو الإعراض عنهم. وإن أعرضتَ عنهم يا مُحَمَّد ، فَلَن يَقْدِرُوا على إيذائك ، ولا سبيل لهم عَلَيك ، لأنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ ومُؤَيِّدُكَ ونَاصِرُكَ وعَاصِمُكَ مِن الناس . وإن اخترتَ الحُكْمَ بَينهم فاحْكُم بالعَدْلِ والحَقِّ والإنصافِ ، وطَبِّقْ أحكامَ اللَّه وشريعتَه التي أنزَلَهَا عَلَيك ، حتى لَوْ كانوا ضَالِّين ظالمين، لأنَّ اللَّه يُحِب العادلين

في الحُكْم ، ويُعظِّمهم ، ويَحْفظهم ، ويُكْرِمهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل . واللَّهُ هو العَدْلُ الحاكمُ بالحق والإنصاف .

أمَّا عَن سبب النُّزُول،فقد قال ابن عباس ـرَضِيَ اللَّهُ عنهماـ: ((كانت قُرَيْظَةُ والنَّضِيرُ ، وكانَ النَّضِيرُ أشرفَ مِن قُرَيْظَةَ ، فكانَ إذا قَتَلَ رَجُلٌ مِن قُرَيْظَةَ رَجُلًا مِنَ النَّضِيرِ قُتِلَ به ، وإذا قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ النَّضِيرِ رَجُلًا مِن قُرَيْظَة قالوا: ادْفَعُوهُ إلَيْنَا نَقْتُلْهُ.فقالوا : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ النبيُّ ﷺ فَأَتَوْهُ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وإن حَكَمْتَ فاحْكُم بَينَهُم بالقِسْطِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين ﴾ [المائدة : ٤٢] ، ... ، ثُمَّ نَزَلَتْ : ﴿ أفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُون ﴾ [المائدة : ٥٠])) [٨٦] .

كانَ اليَهُودُ يُؤَسِّسُون أحكامَهم حَسَب أهوائهم ومصالحهم وطَبَقَاتهم الاجتماعية المُتفاوِتة ، كَي يَحفَظُوا مكاسبَهم ، ويُحافِظُوا على امتيازاتهم ، ويَحْمُوا زَعَامَتَهُم ورئاستهم . وبالتأكيد ، سَيَكُون هذا على حِسَاب الطَّبَقَات المُتَدَنِّيَة في المُجتمع ، لأنَّها غَيْر قادرة على حِمَاية نَفْسِها ، وَصَوْتها غَيْر مَسموع ، لأنَّها لا تَملِك المالَ والسُّلطةَ والنُّفُوذَ والمكانةَ الاجتماعية المَرموقة . فالشَّريفُ يَتطاول على الوَضِيع ، والغَنِيُّ يَستغل الفقيرَ ، والقَوِيُّ يَظلِم الضعيفَ . وقد جاءَ الإسلامُ بالحَقِّ ، وجَعَلَه واقعًا مَلموسًا ، وأرسى مبادئَ العدل ، بلا تمييز على أساس الدِّين أو العِرْق أو الجِنْس أو الطبقة الاجتماعية ، وألغى أحكامَ الجاهليَّة القائمة على الظُّلْم .

وعن ابن عَبَّاس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال : ((آيتانِ مَنسوختانِ مِن سُورةِ المائدة : ﴿ فاحْكُم بَينَهُم أوْ أعْرِضْ عَنهُم ﴾ [المائدة : ٤٢] . فأنزلَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿ وأنِ احْكُم بَينَهُم بِمَا أنزلَ اللَّهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم ﴾ [المائدة : ٤٩])) [٨٧] .

هذا يَعْنِي أنَّ النبيَّ ﷺ كان مُخَيَّرًا بين الحُكْمِ بَيْنَهم أو تَرْكهم لِمَن يَحكم بَيْنَهم ، وهُم إنَّما يَتحاكمون إلى النبيِّ ﷺ طَلَبًا لِمَا يُوافِق أهواءهم لا طَلَبًا للحق. ووَفْق ابن عباس ، نُسِخَت آيةُ التَّخيير بين الحُكْمِ بَينهم أو الإعراض عَنهُم ، وصارَ واجبًا الحُكْمُ بَينهم بما أنزلَ اللَّهُ ، ولا شيءَ غَيْرُه . والحُكْمُ بما أنزلَ اللَّهُ هو الحُكْم بالقُرآن الذي أنزَلَه اللَّهُ على مُحَمَّد ﷺ ، وهو الكِتَاب السَّمَاوِيُّ الوحيد المَحفوظ مِن التَّغيير والتَّحريف ، والناسخ لكل الكُتُب قَبْلَه ، والمُشتمِل على الأحكامِ والشرائعِ والمَوَاعِظِ والحِكَمِ ، وجميعِ مَا شَرَعَه اللَّهُ لعباده في جميع الكُتُب السَّمَاوِيَّة

---

٨٦ رواه الحاكم في المستدرَك (٤ / ٤٠٧) برقم (٨٠٩٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٨٧ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٣٤١) برقم (٣٢١٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

السابقة . والقُرآنُ هُوَ الحَاكِمُ على الكُتُب السَّمَاوِيَّة ، والمُهيمِن عَلَيها ، والناسخ لها . ولا حُكْم إلا حُكْم القُرآن الكريم .

وقال القُرطبي في تفسيره (٦/ ١٧٤): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فإن جاؤوكَ فاحْكُم بَينَهُم أوْ أعْرِضْ عَنهُم ﴾ هذا تَخيير مِنَ اللَّه تعالى ، ذَكَرَه القُشَيري ، وتقدَّم مَعْنَاه أنَّهُم كانوا أهلَ مُوَادَعَة لا أهل ذِمَّة ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ وادعَ اليهودَ ، ولا يَجِب عَلَينا الحُكْم بَين الكُفَّار إذا لَم يَكُونوا أهلَ ذِمَّةٍ ، بَلْ يَجُوز الحُكْم إنْ أَرَدْنَا ، فأمَّا أهلُ الذِّمَّة فهل يجب عَلَينا الحُكْم بَينهم إذا تَرَافَعوا إلَينا ؟ . قَولان للشافعي. وإن ارتبطت الخُصُومةُ بِمُسْلِم يجب الحُكْم . قال المَهْدَوِي : أجمعَ العُلماءُ على أنَّ على الحاكم أن يَحكُم بين المُسلِم والذِّمِّي ، واختلفوا في الذِّمِّيين ، فذهبَ بعضُهم إلى أن الآية مُحْكَمَة ، وأنَّ الحاكم مُخَيَّر ، رُوِيَ ذلك عن النَّخَعِي والشَّعْبي وغَيرهما ، وهو مذهب مالك والشافعي وغَيرهما)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير(٢/ ٣٦٠ و٣٦١): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ للكَذِبِ ﴾ . قال الحَسَن : يعني حُكَّام اليهود يَسمعون الكَذِبَ مِمَّن يَكذِب عِندَهم في دَعْواه ، ويأتيهم بِرِشْوَة، فيأخذونها . وقال أبو سُلَيمان : هُم اليهود يَسْمعون الكَذِبَ ، وهو قَوْل بعضهم لبعض : مُحَمَّدٌ كاذب وليس بنبيٍّ . ولَيس في التَّوراة رَجْم ، وهُم يَعْلمون كَذِبَهم. قَوْلُه تعالى: ﴿ أكَّالُونَ للسُّحْتِ﴾ وفي المُراد بالسُّحْتِ ثلاثة أقوال : أحدها الرِّشْوَة في الحُكْم . والثاني الرِّشْوة في الدِّين . والقَولان عن ابن مسعود . والثالث أنَّه كُلُّ كَسْبٍ لا يَحِلُّ ، قاله الأخفش . قَوله تعالى : ﴿ فإن جَاؤوكَ فَاحْكُم بَينَهُم أوْ أعْرِضْ عَنهُم ﴾ فِيمَن أُريدَ بهذا الكلام قَولان : أحدهما اليهوديان اللذان زَنَيَا ، قاله الحَسَن ومُجاهِد والسُّدي . والثاني رَجُلان مِن قُرَيظة والنَّضير ، قَتَلَ أحدُهما الآخَرَ ، قاله قَتَادَة. وقال ابن زَيد : كان حُيَي بن أخْطَب قد جَعَلَ للنَّضِيري دِيَتَيْن ، والقُرَظي دِيَة ، لأنَّه كانَ مِن النَّضِير. فقالت قُرَيظة: لا نَرْضَى بِحُكْمِ حُيَي، ونتحاكم إلى مُحَمَّد، فقالَ اللَّهُ تعالى لِنَبِيِّه: ﴿ فإن جَاؤوكَ فَاحْكُم بَينَهُم ﴾ الآية . فَصْل . اختلفَ عُلماءُ التفسير في هذه الآية على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّها مَنسوخة ، وذلك أنَّ أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبيِّ ﷺ كانَ مُخَيَّرًا ، إن شَاءَ حَكَمَ بَينهم ، وإن شاءَ أعرضَ عَنهم ، ثُمَّ نُسِخَ ذلك بقَوله : ﴿ وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزلَ اللَّهُ ﴾ فَلَزِمَه الحُكْم ، وزالَ التَّخيير . وهذا مَرْوِيٌّ عن ابن عَبَّاس وعَطَاء ومُجاهِد وعِكْرِمة والسُّدي . والثاني أنها مُحْكَمَة ، وأنَّ الإمام ونُوَّابه في الحُكْم مُخَيَّرون إذا ترافعوا إلَيهم ، إن شاؤوا حَكَموا بينهم ، وإن شاؤوا أعْرَضُوا عنهم . وهذا مَرْوِيٌّ عن الحَسَن والشَّعْبي والنَّخَعِي والزُّهْري ، وبه قال أحمد ابن

حَنْبَل ، وهو الصحيح ، لأنَّه لا تَنَافي بين الآيَتين ، لأنَّ إحداهما خَيَّرَتْ بين الحُكْمِ وتَرْكه ، والثانية بَيَّنَتْ كيفيةَ الحُكْمِ إذا كان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوراةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولئكَ بالمؤمنين ﴾ [المائدة : ٤٣] .

وَكَيْفَ يُحَكِّمُكَ اليَهُودُ يا مُحَمَّد ويَقْبَلُون بِحُكْمِكَ وعِندهم التَّوراةُ (الكتاب السماويُّ الذي أنزله اللَّهُ على مُوسى)، فيها حُكْم اللَّه ولا يَعْمَلون به ؟ . ثُمَّ يُعرِضون عَن حُكمك المُوافق لكتابهم (التَّوراة) بعد ظُهور الحق أمامهم وقيام الحُجَّة عليهم ، وهؤلاء اليهود لَيسوا بمؤمنين ، لأنهم يَرفضون حُكم التَّوراة ، ويَرفضون حُكم النبيِّ مُحَمَّد ﷺ المُوافق للتَّوراة . ومَن أعرضَ عن كتاب اللَّه ، ورَفَضَ أحكامَه ، فهو كافر، حتى لَو ادَّعى الإيمان والتقوى والإخلاص. والآيةُ تَحمل تَوبيخًا شديدًا لليهود ، فكيفَ يَقْبَلون بِحُكم النبيِّ مُحَمَّد ﷺ وهُمْ يَجْحَدُون نُبُوَّتَه ويُكذِّبونه ؟ . وفي نَفْسِ الوقت يَتركون حُكم التَّوراة وهُم يَعتقدون أنها حق وهُدى ! . هذا مُنتهى الجهل والتناقض، ويدل على اتِّباع اليهود لأهوائهم ومصالحهم بلا بصيرة . والعجيبُ أن اليهود يُحكِّمون النبيَّ ﷺ ، وهُم يُكذِّبونه ، ولا يؤمنون بالقُرآن الذي جاء به !. إنهم يَطلبون الأحكامَ المُخفَّفة التي تتوافق مع آرائهم الفاسدة وأمزجتهم الباطلة وأهوائهم المُتضاربة، ولا يَطْلُبون الحقَّ ، ولا يَحرِصون على إقامة أحكام الشريعة . وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (١١/ ٢٣٦): ((هذا تَعجيب من اللَّه تعالى لِنَبِيِّه ﷺ بتحكيم اليهود إيَّاه ، بعد عِلْمهم بما في التَّوراة مِن حَد الزاني ، ثم تَركهم قَبول ذلك الحُكم، فَعَدَلُوا عمَّا يعتقدونه حُكْمًا حقًّا إلى ما يَعتقدونه باطلًا طلبًا للرُّخصة ، فظهرَ بذلك جَهْلُهم وعِنادُهم)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوراةُ ﴾ . قال المُفسِّرون : هذا تَعجيب من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّه مِن تحكيم اليهود إيَّاه بعد عِلْمهم بما في التَّوراة مِن حُكم ما تحاكموا إليه فيه ، وتقريع لليهود إذْ يتحاكمون إلى مَن يَجْحَدُون نُبُوَّتَه، ويتركون حُكْمَ التوراةَ التي يعتقدون صِحَّتها . قَوله تعالى : ﴿ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ فيه قَولان : أحدهما حُكْم اللَّه بالرَّجْم ، وفيه تحاكموا ، قاله الحسن. والثاني حُكْمه بالقَوَد (القِصاص) وفيه تحاكموا، قاله قَتادة . قَوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما مِن بَعْد حُكْم اللَّه في التَّوراة . والثاني مِن بعد تحكيمك . قَوله تعالى : ﴿ وَمَا أُولئكَ بالمؤمنين ﴾ قَوْلان : أحدهما لَيْسُوا بمؤمنين لتحريفهم التَّوراة. والثاني لَيْسُوا بمؤمنين أن حُكْمَك من عند اللَّه لِجَحْدِهِم نُبُوَّتَكَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ القَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ المُحْسِنِين ﴾ [الأعراف : ١٦١] .

وَاذْكُرْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد حِينَ قُلْنَا لأسلافِهِم: اسْكُنُوا بَيْتَ المَقْدِسِ ، وكُلُوا مِنْ مَطَاعِمِهَا وَثِمَارِهَا مِنْ أيِّ جِهة ، وَمِنْ أيِّ مَكان شِئْتُم مِنْهَا ، وَقُولُوا حِينَ دُخُولكم : يا اللَّه ، حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا، وَادْخُلُوا بَابَ القَرْيَةِ (بَيْت المَقْدِس) حَالَ كَوْنِكُمْ سُجَّدًا . أُمِرُوا بأنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ قَوْلِهِم : حِطَّة ، وَبَيْنَ الدُّخُولِ سَاجِدِين ، نَمْحُ عَنْكُم جَمِيعَ الذُّنُوبِ التي سَلَفَتْ مِنْكُم ، سَنَزِيدُ مَنْ أحْسَنَ عَمَلَه بامتثالِ أمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فَوْقَ الغُفْرَانِ دُخُولَ الجِنَان .

وقال الطَّبَري في تفسيره(٦/٩٠): ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَاذْكُرْ أيضًا يَا مُحَمَّد مِنْ خَطأ فِعْلِ هَؤلاء القَوْم ، وخِلافِهِم عَلى رَبِّهِم ، وَعِصْيَانِهِم نَبِيَّهُم مُوسَى عليه السلام ، وتَبديلِهم القَوْلَ الذي أُمِرُوا أن يَقُولوه حِينَ قالَ اللَّهُ لَهُم: ﴿ اسْكُنُوا هَذِهِ القَرْيَةَ ﴾ وَهِيَ قَرْيَةُ بَيْتِ المَقْدِسِ ، ﴿ وكُلُوا مِنْهَا ﴾ يَقُول: مِنْ ثِمَارِهَا وَحُبُوبِها وَنَبَاتِهَا ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ مِنْهَا ، يَقُول : أنَّى شِئْتُم مِنْهَا ، ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ ، يَقُول: وَقُولُوا : هَذه الفَعْلَة حِطَّة تَحُطُّ ذُنُوبَنا ﴿ وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ يَتَغَمَّد لَكُمْ رَبُّكُم ذُنُوبَكُم التي سَلَفَتْ مِنْكُمْ ، فَيَعْفُو لَكُمْ عَنْهَا ، فَلا يُؤَاخِذكم بِهَا ، ﴿ سَنَزِيدُ المُحْسِنِين ﴾ مِنْكُم ، وَهُمُ المُطِيعون للَّهِ عَلى مَا وَعَدْتُكُم مِنْ غُفْرَانِ الخَطَايا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُون ﴾ [الأعراف : ١٦٢] .

غَيَّرَ الظالمون مِنْهُم أمْرَ اللَّهِ بِقَوْلِهِم كَلامًا لا يَلِيق ، حَيْثُ قالوا بَدَل ﴿ حِطَّةٌ ﴾ حِنْطَة في شَعِيرَة ، وَبَدَل أن يَدْخُلُوا ساجدين خُشُوعًا للَّهِ ، دَخَلُوا يَزْحَفُون على أدبارهم سُخْرِيَةً واستهزاءً بأوامرِ اللَّهِ ، فَأرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِم عَذابًا مِنَ السَّمَاءِ بسبب ظُلْمِهم وعُدْوَانِهِم .

وفي تفسير الجَلالَيْن(١/١٢) : ((فقالوا: حَبَّة في شَعْرَة ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُون عَلى أَسْتَاهِهِم)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٢٩) : ((بَدَّلُوا بِمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ التَّوْبَةِ والاستغفارِ بطلب مَا يَشْتَهُون مِنْ أعراضِ الدُّنيا)) .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١ / ٣٤٣) : ((تأويلُ قَوْلِه : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ ، فَغَيَّرَ . ويَعْني بِقَوْلِه : ﴿ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ الذين فَعَلُوا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِعْلُه. ويَعْنِي بِقَوْلِه : ﴿ قَوْلًا غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ بَدَّلُوا قَوْلًا غَيْرَ الذي أُمِرُوا أن يَقُولوه، فقالوا خِلافَه ، وذلك هو التَّبْديلُ والتَّغْييرُ الذي كانَ مِنْهُم ، وكان تَبديلُهم بالقَوْلِ الذي أُمِرُوا أن يَقُولوا قَوْلًا غَيْرَه)) .

وعَن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ــ : ﴿ وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا ﴾ [الأعراف : ١٦١] ، قال : بَابًا ضَيِّقًا ، قال : زُكَّعًا ، ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [الأعراف : ١٦١] ، قال : مَغْفِرَة ، فقالوا : حِنْطَة ، وَدَخَلُوا على أَسْتَاهِهِمْ ، فذلك قَوْلُه تَعَالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٦٢] [٨٨] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُم عَنِ القَرْيَةِ التِي كَانَت حَاضِرَةَ البَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأتِيهِم حِيتَانُهُم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأتِيهِم كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون ﴾ [الأعراف: ١٦٣] .

وَاسْأَلْ يا مُحَمَّد اليَهُودَ عَن أخبار أسلافهم، وأمْرِ القرية التي كانت بِقُرْبِ البحر وعلى شاطئه، ماذا حدث لهم عندما خَالَفُوا أمرَ اللَّهَ واصطادوا يوم السَّبْت ومَا مَسَخَ اللَّهُ مِنهم قِرَدة وخنازير؟. وهذا سؤال للتَّقرير والتَّوبيخ . وتعريفُ اليهود بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَعْلَم هذه القصة، معَ أنه أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأ الكُتُبَ ، وَلَمْ يُجَالِس العلماء، دليلٌ على أنَّه نَبِيٌّ صادق يَأتيه وَحْيُ السماء .

كان اليهودُ يَظْلمون أنفسَهم في يوم السَّبْت ، ويَعْصُون اللَّهَ بِصَيد الحيتان.وقد نُهُوا عن هذا الفِعْل ، ونُهُوا عن الاشتغال في يوم السَّبْت بغير العِبادة . والسَّبْتُ ــ في أصل اللغة ــ القَطْع ، لأن الأشياء تَمَّتْ فيه، وانقطعَ العمل. وكانت حِيتانهم تأتيهم يوم السَّبت ظاهرةً على الماء، وكثيرة، ومُتتابعة . وفي سائر الأيام (غَير السَّبْت)، تختفي الحيتان ، ولا تأتي. وهذا اختبارٌ إلَهِيٌّ لهم ، وبلاء شديد بسبب فِسْقهم وذُنُوبهم ومعاصيهم ، حَيْث إنَّ الحِيتان كانت تَظهر في يوم السَّبْت الذي يَحْرُم فيه صَيْدُها ، وتختفي في باقي الأيام التي يجوز فيها صَيْدُها. ولمَّا صادوا الحيتان ، صار أهلُ القِرية ثلاث فِرَق : فِرْقَة صَادَتْ ، وفِرقة نَهَتْ ، وفِرقة أمسكتْ عن الصَّيْدِ والنَّهْي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٤٢) : ((يقول تعالى لِنَبِيِّه صلوات اللَّه وسلامه عليه : ﴿ وَاسْأَلْهُم ﴾ ، أي : واسأل هؤلاء اليهودَ الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمرَ اللَّه ، ففاجأتهم نِقْمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المُخَالَفة ، وحَذِّرْ هؤلاء مِن كِتمان صِفتك التي يجدونها في كُتبهم ، لئلا يَحِلَّ بهم مَا حَلَّ بإخوانِهم وسَلَفِهم . وهذه القرية هي أَيْلَة ، وهي على شاطى بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) . ... . وقَوْلُه : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أي : يَعْتَدُون فيه،ويُخالِفون أمرَ اللَّهِ فيه لهم بالوَصاة به إذْ ذاك ﴿ إِذْ تَأتِيهِم حِيتَانُهُم يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعًا ﴾

---

٨٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٢٨٨) برقم (٣٠٤٠) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

قال الضَّحَّاك عن ابن عباس أي ظاهرة على الماء . وقال العَوفي عن ابن عباس: ظاهرة مِنْ كُلِّ مكان . قال ابن جرير : وقَوله : ﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأتِيهِم كَذَلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي : نختبرهم بإظهار السَّمك لهم على ظهر الماء في اليوم المُحرَّم عليهم صَيْدُه ، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صَيْدُه ، ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ نختبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون ﴾ . يقول : بفِسْقهم عن طاعة اللَّه ، وخُروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك مَحارم اللَّه بما تَعَاطَوْا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد اللَّه بن بطة رحمه اللَّهُ: حدَّثنا أحمد بن مُحَمَّد بن مُسْلِم حَدَّثَنا الحسن بن مُحَمَّد بن الصَّبَّاح الزَّعفراني حَدَّثنا يزيد ابن هارون حَدَّثَنا مُحَمَّد بن عمرو عن أبي سَلَمَة عن أبي هُرَيرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : " لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهودُ ، فتستحِلُّوا مَحارمَ اللَّه بأدنى الحِيَل " . وهذا إسناد جيِّد)) .

وقِصَّةُ أصحابِ السَّبْت تُشير إلى تلاعبِ اليهود بالدِّين ، وتحايلِهم على أحكام الشريعة ، ومَكْرِهم بأنفسهم، كما تُشير إلى منهجهم الحَياتيِّ الثابت الذي يَتَمَسَّكون به ، ولا يَحِيدون عنه، وهو الخِدَاع والكَذِب والتحايل والاستهزاء والسُّخْرية واللف والدَّوَرَان، ولَوْي أعناق النُّصُوص ، وتَوظيف الدِّين لتحقيق المصالح الشخصية ، وجَنْي المكاسب المادية .

وقال ابنُ كثير في تفسيره (١/ ١٥٠): ((فاشتهى بعضُهم السَّمَكَ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَحْفِرُ الحَفِيرة ، ويَجْعَل لها نَهْرًا مِن البحرِ ، فإذا كان يوم السَّبْت ، فَتَحَ النهرَ ، فأقبلَ المَوْجُ بالحِيتان يضربها حتى يُلْقِيَها في الحَفِيرة، فيُريد الحُوتُ أن يَخرج فلا يُطيق من أجل قِلَّة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَشْوي السمك، فيجد جارُه روائحه فيسأله، فيُخبره فيصنع مثل ما صنع جارُه حتى فشا فيهم أكلُ السمك. فقال لهم عُلماؤهم : وَيْحَكُم إنَّما تَصْطادون يوم السَّبْت ، وهو لا يَحِلُّ لكم ، فقالوا : إنَّما صِدْنَاه يوم الأحد حين أخذناه)) .

والخِداعُ ضاربٌ جُذورَه في المُجتمع اليهوديِّ مِن القِمَّة حتى القاع . وحياةُ اليهود قائمة على المكر والخِيانة ، وظاهرُها الصلاح والتقوى وتعظيم شعائر اللَّه (ومِنها تعظيم يوم السَّبْت) ، وباطنها القذارة والغِش والتلاعب بنصوص الدِّين والتحايل على أحكام الشريعة .

والهَوَسُ بالمَكْرِ والخِداع سَيْطَرَ على قُلوب اليهود ، وأوصلهم إلى الذُّل والخِسَّة والحضيض ، وقادهم إلى الهلاك والعذاب . والمجتمعُ اليهوديُّ ضائعٌ بأكمله ، سَفينة تَغرقُ ولا رُبَّان يُوَجِّه الدَّفَّةَ نَحْو الاتجاه الصحيح.وفي هذا دَلالة واضحة على أنَّ المُجتمع اليهوديَّ يَغْرَق في ضَلالِه وضياعه، بسبب ذُنوب اليهود ومعاصيهم ، وعِبادتهم للمال ، وتقديسِهم لمصالحهم وأرباحهم ومناصبهم .

هذه الحادثة لنا معها وَقَفَات :

أ _ اليهود يَمْلِكُون عُقولًا قادرة على الاكتشاف والاختراع والتخطيط والتنفيذ ، لكنهم يَستخدمون قدراتهم العقلية الهائلة في المَكر السَّيئ ، وحَبْك المؤامرات ، والتحايل على الدِّين، وخِداع الناس.وهُم مؤمنون بأن الغاية تُبرِّر الوسيلةَ،لذلك لا يوجد نظام أخلاقي يَحْكمهم ويَرْدعهم.

ب _ الضَّالُّون لا يُشكِّلون خطرًا على أنفسهم فَحَسْب،بل أيضًا يُشكِّلون خطرًا على الآخرين، ويُهدِّدون المجتمعَ بأكمله ، وعَدوى الضلال تنتشر في المجتمع كانتشار النار في الهشيم . وعندما يَفْسُد إنسان ما في المجتمع ، فإنَّ الكثيرين سيتأثرون به ، ويَغتَرُّون بأسلوب حياته المُنحرف، ويُحاولون تقليدَه والسَّيْرَ على خُطاه. وهكذا ينتشر وَبَاءُ الانحراف في المجتمع كُلِّه .

ج _ دَوْرُ العُلماء في الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر ، لا يُمْكِن تجاهله ولا التقليل مِن شَأنه. وعلى المَرْءِ أن يُقَدِّم النَّصيحةَ سَوَاءٌ أُخِذَ بها أَمْ لا،ويُؤَدِّيَ واجبَه في مُحاولة انتشال الآخرين مِن مُستنقَع الضَّلال، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.وعِندما يَقُوم المَرْءُ بالأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَرِ يُبْرِئ ذِمَّتَه أمام اللَّهِ تعالى .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُم أَوْ مُعَذِّبُهُم عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

انْقَسَمَتْ بَنُو إسرائيل إلى ثلاث فِرَق :

الأُولَى _ فِرْقة عاصية ارتكبت المَحظورَ (الاحتيال على اصطياد السمك يوم السَّبْت) .

والثانية_ فِرْقة قامت بالنَّهْي عن المُنكَر واعتزال العُصاة .

والثالثة_ فِرْقة سَكَتَتْ ، لَمْ تَفْعَل المُنكَرَ ولَمْ تَنْهَ عنه .

وهذه الفِرْقَةُ الساكتة قالت للفِرقة المُنْكِرَة : لِمَ تَنْهَوْنَ هؤلاء العُصَاة عن المُنكَر، وتُرشدونهم ، وتُنبِّهونهم ، وأنتم تَعْلَمون أنهم هالكون ومُستحقون للعُقوبة الإلهيَّة ، ولا فائدة مِن نُصحهم ومَوعظتهم وإرشادهم ونَهْيهم عن المُنكَر ؟ .

قال الناهون عن المُنكَر : إنَّنا ننصحهم ونَعِظُهم ونُرشِدهم لِنُعْذَر عِند اللَّه ، بقيامنا بواجب الأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المُنكَر ، وتَكون الحُجَّة لنا يوم القيامة لا عَلَيْنا ، ولعلَّ هؤلاء العُصاة أن يَتَّقوا اللَّهَ ، ويُقْلِعُوا عن الذَّنْب ، ويَعُودوا إلى الطاعة .

وفي تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠) : ((قال جُمهور المُفسِّرين : إنَّ بني إسرائيل افترقتْ ثلاث فِرَق ، وهو الظاهر من الضمائر في الآية . فِرْقة عَصَتْ ... وكانوا نَحْوًا من سبعين ألفًا ، وفِرقة

نَهَتْ واعتزلتْ، وكانوا اثنَي عَشَر ألفًا، وفِرقة اعتزلتْ ولَمْ تَنْهَ ولَمْ تَعْصِ ، وأن هذه الطائفة قالت للنَّاهية : لِمَ تَعِظُون قومًا _ تريد العاصية _ اللَّه مُهلِكهم أو مُعذِّبهم على غَلَبَة الظن ، وما عُهِدَ مِن فِعْل اللَّه تعالى حينئذ بالأُمَم العاصية ، فقالت الناهية : مَوْعظتنا مَعذرة إلى اللَّه لعلهم يتَّقون . وَلَوْ كانوا فِرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلكم تَتَّقُون ، بالكاف، ثُمَّ اخْتُلِفَ بَعْد هذا، فقالت فِرقة : إن الطائفة التي لَم تَنْهَ ولَم تَعْصِ هَلكت مع العاصية عُقوبةً على ترك النَّهْي)) .

وعَن عِكْرمة قال : دخلتُ على ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما _ وهو يقرأ في المُصْحَف قبل أن يذهب بَصَرُه وهو يبكي . فقلتُ : ما يُبكيك يا ابن عباس جعلني اللَّهُ فِداك ؟ ، قال : فقال : ((هل تعرف أَيْلَة ؟)) ، قُلتُ : وما أَيْلَة ؟ ، قال : ((قرية كان بها ناس من اليهود ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهم الحِيتانَ يَوْمَ السَّبْت ، فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سَبْتهم شُرَّعًا بيضاء سِمَان ، كأمثال المَخَاض بأفنائهم وأبنيائهم ، فإذا كان في غَير يوم السَّبْت لَم يجدوها ، ولَم يُدركوها ، إلا في مَشَقَّة ومئونة شديدة، فقال بعضُهم لبعض ، أوْ مَن قال ذلك مِنهم : لَعَلَّنَا لَوْ أخذناها يوم السَّبْت ، وأكلناها في غَير يوم السبت ، ففعل ذلك أهل بَيت منهم ، فأخذوا فَشَوَوْا ، فَوَجَدَ جِيرَانُهُم رِيحَ الشِّوى ، فقالوا : واللَّهِ ما نرى إلا أصاب بني فُلان شيء ، فأخذها آخرون ، حتى فشا ذلك فيهم وكَثُرَ ، فافترقوا ثلاثًا : فِرقة أكلتْ ، وفِرقة نَهَتْ ، وفِرقة قالت : لِمَ تَعِظون قَوْمًا اللَّهُ مُهلِكهم أوْ مُعذِّبهم عذابًا شديدًا ؟ ، فقالت الفِرقة التي نَهَتْ : إنما نُحذِّركم غضبَ اللَّه وعِقابه أن يُصيبكم بِخَسْف ، أوْ قَذْف ، أوْ ببعض ما عِنده مِن العذاب ، واللَّهِ لأنبأتكم في مكان أنتم فيه ، وخرجوا مِن السُّور ، فَغَدَوْا عليه مِن الغد ، فضربوا باب السُّور ، فَلَمْ يُجِبْهم أحد ، فأتَوْا بسبب ، فأسنده إلى السُّور ، ثُمَّ رَقِيَ مِنهم راقٍ على السُّور ، فقال : يا عِبادَ اللَّهِ قِرَدَةٌ ، واللَّهِ لها أذناب تَعَاوَى ، ثلاث مَرَّات ، ثُمَّ نزل مِن السُّور ، فَفَتَحَ السُّورَ ، فدخل الناسُ عليهم ، فعرفت القِرَدَةُ أنسابَها مِن الإنس ، ولَم يَعرِف الإنسُ أنسابَهم مِن القِرَدَة . قال : فيأتي القِرْدُ إلى نسيبه وقريبه من الإنس ، فَيَحْتَكُّ به ، ويَلْصَق ، ويقول الإنسان : أنتَ فُلان ، فيُشير برأسه أي نعم ، ويبكي ، وتأتي القِرْدَةُ إلى نسيبها وقريبها من الإنس فيقول لها : أنتِ فُلانة ، فتُشير برأسها أي نعم ، وتبكي ، فيقول لهم الإنس : أمَا إنَّا حذَّرناكم غَضَبَ اللَّهِ وعِقابَه أن يُصيبكم بِخَسْف، أوْ مَسْخ ، أوْ ببعض ما عِنده مِن العذاب)) . قال ابن عباس : ((فأسْمَعُ اللَّهَ أن يَقول : ﴿ أنجَيْنا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأخَذْنا الذينَ ظَلَمُوا بعذابٍ بَئيسٍ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ [الأعراف : ١٦٥] ، فلا أدري ما فعلت الفِرْقة الثالثة)) . قال ابن عباس : ((فَكَم قد رَأَيْنا مِن مُنكَر ، فَلَمْ نَنْهَ عَنْه)) . قال عِكرمة : فقلتُ : ما

ترى جعلني اللَّهُ فِداك ؟ . إنهم قد أنكَروا وكَرِهوا حِين قالوا : لِمَ تَعِظون قَوْمًا اللَّهُ مُهلِكهم أوْ مُعذِّبهم عذابًا شديدًا. فأعجبه قَوْلي ذلك ، وأَمَرَ لي بِبُرْدَيْنِ غليظَيْن ، فَكَسَانِيهُما [٨٩] .

إنَّ الأمر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر هُما النِّظَامَان الأسَاسِيَّان المُتكاملان ، لإصلاح الفرد والمجتمع ، وتجذير الصفات الحسنة ، وتكريس الأخلاق الحميدة ، ونَيل رضا اللَّه ، والابتعاد عن غضبه وعذابه وعُقوبته ، وهذان النِّظَامَان يَدْفعان عَجَلَةَ التقدم إلى الأمام ، ويَعْملان على إنقاذ الناس ، وحمايتهم من الهلاك . ولا بُدَّ مِن وجود الدَّعوة والإرشاد إلى الخير والحق ، كي تستقيم حالُ الإنسان ، ويَصْلُح المجتمعُ بكل تفاصيله . ولا يُمكن ترك الحَبْل على الغارب ، ولا يَجوز السَّماح لِكُل فرد أن يَعمل ما يَحلُو له ، فَعِندئذ سوف تنهار القِيَمُ الأخلاقية ، وتنتشر المفاسد ، ويَعُمُّ الضَّلال،ويَغْرَق الجميعُ بلا طَوْق نَجَاة. وأَيْلَة: قرية على شاطى بَحْر القُلْزُم (البحر الأحمر).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أنجَيْنَا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وأخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ [الأعراف : ١٦٥] .

فلمَّا تَرَكَ العُصَاةُ نُصْحَ الناصحين القائمين بأمر الدَّعوة تَرْكَ الناسي للشَّيء . والنِّسيانُ يُطلَق على الساهي والعامد ، أي إنَّهم تَركوا مَوعظة الصُّلَحَاء عَن قَصْد وعَمْد ، وأعرَضوا عَن قَبول النصيحة إعراضًا كُلِّيًّا ، نَجَّى اللَّهُ الناهين عن الفساد في الأرض ، وأخذَ الظالمين العُصَاةَ الذين ارتكبوا المُنْكَرَ بعذاب شديد ، بسبب فِسْقهم وعِصيانهم لأمر اللَّه تعالى . لقد استحقوا العُقوبة المُؤلمة والعذاب الشديد ، أمَّا الذين قاموا بالدَّعوةِ ، وإسداءِ النُّصْحِ ، والنَّهْي عَن المُنْكَر، فقد أنجاهم اللَّهُ مُكافأةً لهم على تمسُّكهم بالدَّعوة بِغَضِّ النَّظَر عن النتيجة .

وعلى العبد أن يقوم بواجب الدَّعوة في كُل زمان ومكان ، وفي كُل الأحوال ، ومع جميع أجناس البشر ، بالحِكمة والمَوعظة الحَسَنَة . وينبغي أن يَعمل جاهدًا في مجال الدَّعوة ، سَوَاءٌ قَبِلَه الناسُ أَمْ رَفَضُوه،فهو يُؤَدِّي عِبادةً للَّه تعالى، ولا ينتظر من الآخرين مديحًا أوْ شُكْرًا أوْ تقديرًا، ولا ينتظر جَزَاءً دُنيويًّا ، ولا نتائج على أرض الواقع . فالدَّعوةُ بِحَدِّ ذاتها هي النَّجاح بِغَضِّ النَّظَر عن قَبول الناس لها أوْ رَفْضهم . والعبدُ يقول كلمته بإخلاص ويَمْضِي ضِمن منهجية دَعَوِيَّة مُنضبطة بالقُرآنِ والسُّنَّةِ . واللَّهُ يَهْدِي مَن يَشاء ، ويُضِل مَن يَشاء . ويَبْقَى المنهجُ الإلهيُّ في بَيان عُموم الدَّعوة : ﴿ فَذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى : ٩] .

---

٨٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٥٢) برقم (٣٢٥٤) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

والقائمُ بواجب الدَّعوة إنما يُخْلي ذِمَّته أمام اللَّه تعالى، وبالتالي يكون له عُذر قوي وحُجَّة ظاهرة يوم القيامة. وإذا اختارَ الصمتَ ، فإنه يأتي يوم القيامة عاصيًا آثِمًا ، بسبب صَمته المُخزِي، وتقاعسه عن الدَّعوة ، وتفريطه بأمانة التبليغ ، وتقصيره في نُصح الناس وإرشادهم وهدايتهم . والدَّعوةُ مُستمرة حتى يوم القيامة ، ولا يَخلو زمن مِن قائم للَّه بِحُجَّة .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٦/ ١٠٠) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : فَلَمَّا تركت الطائفةُ التي اعتدتْ في السَّبْت ما أمرها اللَّهُ به مِن تَرْك الاعتداء فيه ، وضَيَّعَتْ ما وعظتها الطائفةُ الواعظة وذكَّرتها بِه مِن تحذيرها عُقوبةَ اللَّه على معصيتها ، فتقدَّمت على استحلال ما حرَّم اللَّهُ عليها ، أنجى اللَّهُ الذين يَنْهَوْنَ مِنهُم عَن السُّوء ، يعني عَن معصية اللَّه واستحلال حَرَمِه ، ﴿ وأخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، يَقول : وأخَذَ اللَّهُ الذين اعْتَدَوْا في السَّبْت ، فاستحلُّوا فيه ما حرَّم اللَّهُ مِن صَيد السَّمك وأكْلِه ، فأحَلَّ بهم بأسَه ، وأهلكهم بِعَذَابٍ شديد بَئِيسٍ بِمَا كانوا يُخالفون أمرَ اللَّه ، فَيَخرُجون مِن طاعته إلى معصيته ، وذلك هو (الفِسْق))) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٧٥) : ((قَوله : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ، أي : لمَّا تَرَكَ العُصَاةُ مِن أهل القرية ما ذكَّرهم به الصالحون الناهون عن المُنكَر تَرْكَ الناسي للشَّيء ، المُعرِض عنه كُلِّية الإعراض ، ﴿ أنجَيْنَا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ ، أي : الذين فَعَلُوا النَّهْيَ ، وَلَم يَتركوه ، ﴿ وأخَذْنَا الذينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وَهُمُ العُصَاة المُعْتَدُون في السَّبْت ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ ، أي : شديد . ... . ﴿ بِمَا كانوا يَفْسُقُون ﴾ ، أي : بسبب فِسْقِهِم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين ﴾ [الأعراف : ١٦٦] .

فلمَّا طَغَوْا وَتَكَبَّرُوا عَنْ تَرْكِ مَا نُهُوا عَنْه مِنْ صَيْدِ الحِيتَانِ يَوْمَ السَّبْتِ ، مَسَخَهُمُ اللَّهُ إلى قِرَدَةٍ أذِلَّاء صاغرين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٧٥) : ((﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ، أي : تَجَاوَزُوا الحَدَّ في مَعصيةِ اللَّهِ سُبحانَه تَمَرُّدًا وَتَكَبُّرًا ، ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين ﴾ أي : أمَرْنَاهُم أمْرًا كَوْنِيًّا لا أمْرًا قَوْلِيًّا ، أي : مَسَخْنَاهُمْ قِرَدَةً . قِيل : إنَّه سُبحانَه عَذَّبَهُم أوَّلًا بسبب المَعصيةِ ، فلمَّا لَمْ يُقْلِعُوا مَسَخَهُمْ قِرَدَةً . ... . والخَاسِئُ : الصَّاغِرُ الذليل أو المُبَاعَد المَطرود . ... . وَاعْلَمْ أنَّ ظاهر النَّظْمِ القُرْآنيِّ هو أنَّه لَمْ يَنْجُ مِنَ العَذابِ إلا الفِرْقَة النَّاهِيَة التي لَمْ تَعْصِ ، لِقَوْلِه : ﴿ أنجَيْنَا الذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ ، وأنَّه لَمْ يُعَذَّبْ بالمَسْخِ إلا الطائفة العَاصِيَة لِقَوْلِه :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين ﴾ ، فَإِنْ كانت الطوائف مِنْهُم ثلاثًا ، كما تَقَدَّمَ ، فالطائفة التي لَمْ تَنْهَ وَلَمْ تَعْصِ يُحْتَمَل أنَّها مَمسوخة مع الطائفة العاصية ، لأنَّها قَدْ ظَلَمَتْ نَفْسَها بالسُّكُوتِ عَن النَّهْي ، وَعَتَتْ عَمَّا نَهَاهَا اللَّهُ عنه مِنْ تَرْكِ النَّهْي عَن المُنْكَرِ ، وَيُحْتَمَل أنَّها لَمْ تُمْسَخْ ، لأنَّها وإنْ كانتْ ظالمةً لِنَفْسِهَا عَاتِيَة عَنْ أمْرِ رَبِّهَا ونَهْيِه ، لكنَّها لَمْ تَظْلِمْ نَفْسَها بهذه المعصية الخَاصَّة ، وهي صَيْدُ الحُوت في يوم السَّبْتِ ، ولا عَتَتْ عَنْ نَهْيِه لها عَن الصَّيْدِ ، وأمَّا إذا كانت الطائفةُ الثالثة ناهيةً كالطائفة الثانية ، وإنَّما جُعلت طائفة مُستقلة لِكَوْنِها قَدْ جَرَتْ المُقَاوَلَة بَينها وبَين الطائفة الأُخْرَى مِنَ الناهين المُعتزِلين ، فَهُمَا في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النَّهْي والاعتزالِ والنَّجَاةِ مِنَ المَسْخِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُم سُوءَ العَذابِ إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .

وَاذكُرْ يَا مُحَمَّد حِينَ أعْلَمَ رَبُّكَ لَيُسَلِّطَنَّ على اليَهُودِ إلى قِيامِ السَّاعَةِ مَنْ يُذيقهم أسوأ العَذابِ بسبب عِصْيَانهم ومُخَالفتهم أمْرَ اللَّهِ ، واحتيالِهم على الحَرَامِ . وَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم بُخْتُنَصَّر ، فَقَتَلَهُمْ وَسَبَاهُم ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِم النَّصَارى ، فَأذَلُّوهُم ، وَضَرَبُوا عَلَيْهِم الجِزْيَةَ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِم مُحَمَّدًا ﷺ ، فَطَهَّرَ الأرْضَ مِنْ رِجْسِهِم ، وأجلاهم عَن الجزيرة العربية . وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم أخيرًا هِتْلَر ، فاستباحَ حِمَاهُم ، وكادَ أن يُبيدهم ويُفْنِيَهُم بالقتلِ والتَّشريدِ في الأرض، ولا يَزَال وَعْدُ اللَّهِ بِتَسليطِ العَذابِ عَلَيْهِم ساريًا إلى أن يَقْتُلَهُم المُسْلِمُون في المَعركةِ الفاصلةِ إنْ شاءَ اللَّهُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَح المُؤمنون بِنَصْرِ اللَّهِ ، إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ العِقَابِ لِمَنْ عَصَاه ، وَغَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ أطاعه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٤٥) : ((﴿ تَأَذَّنَ ﴾ تَفَعَّلَ ، مِنَ الأذَان، أي : أعْلَمَ ، قاله مُجَاهِد ، وقال غَيْرُه : أَمَرَ . وفي قُوَّةِ الكلامِ مَا يُفيد مَعنى القَسَمِ مِنْ هذه اللفظة ، ولهذا أُتْبِعَتْ باللام في قَوْلِه: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: عَلى اليَهُودِ ﴿ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُم سُوءَ العَذابِ ﴾ أي : بسبب عِصْيَانِهِم ومُخَالفتهم أوامرَ اللَّهِ وَشَرْعَه ، واحتيالِهم على المَحَارِمِ ، وَيُقَال: إنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام ضَرَبَ عَلَيْهِم الخَرَاجَ سَبْعَ سَنِين ، وقِيل : ثلاث عَشْرَة سَنَة . وكانَ أوَّلَ مَنْ ضَرَبَ الخَرَاجَ ، ثُمَّ كانوا في قَهْرِ المُلوك مِنَ اليُونانيين والكُشْدَانِيِّين والكِلْدَانِيِّين ، ثُمَّ صاروا إلى قَهْرِ النَّصَارى وإذلالِهم إيَّاهم ، وأخْذِهم مِنهُم الجِزْيَةَ والخَرَاجَ ، ثُمَّ جاءَ الإسلامُ ومُحَمَّدٌ ﷺ ، فكانوا تَحْتَ قَهْرِه وَذِمَّتِه ، يُؤَدُّون الخَرَاجَ والجِزْيَةَ . قال العَوْفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : هِيَ المَسْكَنَةُ وَأخْذُ الجِزْيَةِ مِنْهُم . وقال عليُّ بن أبي طلحة عَنْه : هِيَ الجِزْيَة ، والذي يَسُومُهُم

سُوءَ العَذابِ مُحَمَّدٌ رسولُ اللَّه ﷺ وَأُمَّتُه إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وكذا قال سَعِيد بن جُبَيْر وابنُ جُرَيْج والسُّدي وقَتَادَة . ... . قُلْتُ : ثُمَّ آخِر أمْرِهِم أنَّهُم يَخْرُجُون أنصارًا للدَّجَّال ، فَيَقْتُلُهُم المُسْلِمُون معَ عِيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلام ، وذلك آخِر الزَّمَان . وَقَوْلُه : ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ ﴾ ، أي: لِمَنْ عَصَاه وَخَالَفَ شَرْعَه ، ﴿ وَإنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم ﴾ ، أي : لِمَنْ تابَ إلَيْهِ وأنابَ ، وهذا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحمةِ معَ العُقوبةِ لِئَلا يَحْصُل اليأسُ ، فَيَقْرِن تَعَالى بَين التَّرغيبِ والتَّرهيبِ كثيرًا ، لِتَبْقَى النُّفُوسُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقعٌ بِهِم خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

وَاذْكُرْ حِينَ اقْتَلَعْنَا جَبَلَ الطُّورِ ، وَرَفَعْنَاه فَوْقَ رُؤُوسِ بَنِي إسرائيل ، كَأنَّه سَقِيفَة أوْ ظُلَّة غَمَامٍ ، وأيْقَنُوا أنَّه ساقطٌ عَلَيْهِم إن لَمْ يَمتثلوا الأمْرَ ، أي : ساقط عَلَيْهِم بِوَعْدِ اللَّهِ إيَّاهُم بِوُقُوعِه إنْ لَمْ يَقْبَلُوا أحكامَ التَّوراةِ ، وكانوا أَبَوْهَا لِثِقَلِهَا . وَقُلْنَا لَهُمْ : خُذُوا التَّوْرَاةَ بِجِدٍّ واجتهادٍ وعَزيمةٍ ، وَاذْكُرُوا مَا فِيه بالعَمَلِ وَاعْمَلُوا بِه لِتَكُونوا مِنَ المُتَّقِين .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٦ / ١٠٨) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّد إذْ اقْتَلَعْنَا الجَبَلَ، فَرَفَعْنَاه فَوْقَ بني إسرائيل كأنَّه ظُلَّةٌ غَمَامٍ مِنَ الظِّلالِ،وَقُلْنَا لَهُم: ﴿ خُذُوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ ﴾ مِنْ فَرائضِنا ، وألزمناكم مِنْ أحكامِ كِتَابِنا ، فَاقْبَلُوه ، اعْمَلُوا باجتهادٍ مِنْكُم في أدائه مِنْ غَيْرِ تَقصيرٍ ولا تَوَانٍ ، ﴿ وَاذْكُروا مَا فِيهِ ﴾ ، يَقُول : مَا في كِتَابِنَا مِنَ العَهُودِ والمَوَاثِيقِ التي أخَذْنَا عَلَيْكُم بالعملِ بِما فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾ ، يَقُول : كَيْ تَتَّقُوا رَبَّكُم فَتَخَافُوا عِقَابَه بِتَرككم العَمَل بِه إذا ذَكَرْتُم مَا أَخَذَ عَلَيكم فيه مِنَ المَوَاثيق)) .

وعَن عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّه قال : إنَّ أصحابَ العِجْلِ قالوا : هطا سقماثا أزبه مزبا ، وَهِيَ بالعَرَبِيَّةِ حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ قَوِيَّةٌ ، فِيها شَعْرَةٌ سَوْدَاءُ، فذلك قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ﴾ [الأعراف:١٦٢] ، قال : أَمَرَ اللَّهُ الجَبَلَ أن يَقَعَ عَلَيْهِم ، فَنَظَرُوا إلَيْهِ قَدْ غَشِيَهُم،فَسَقَطُوا سُجَّدًا عَلى شِقٍّ،وَنَظَرُوا بالشِّقِّ الآخَرِ،فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ،فَكَشَفَهُ عَنْهُم، فقالوا : مَا سَجْدَةٌ أَحَبَّ إلى اللَّهِ تعالى مِنْ سَجْدَةٍ كَشَفَ بِهَا العَذابَ عَنْكُم ، فَهُمْ يَسْجُدُونَ لذلكَ عَلى شِقٍّ ، فَذَلِكَ قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف : ١٧١] [٩٠] .

---

٩٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٣٥٢) برقم (٣٢٥٢) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

٤ــ مُعَانَدَتُهُم وَتَكْذِيبُهُم وَقَتْلُهُمُ الأنبياءَ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا لَقُوا الذينَ آمَنُوا قالوا آمَنَّا وإذا خَلا بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُم أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ [البَقَرَة : ٧٦] [٩١] .

كان مُنافقو اليهود إذا لَقُوا المؤمنين الذين صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ادَّعَوا الإيمانَ نِفَاقًا لِخِداع المُؤمنين، وإذا رَجَعَ هؤلاء المنافقون إلى زُعمائهم ورُؤسائهم ، وكانوا وَحْدَهم ، قالوا : أتُحَدِّثُون أصحابَ مُحَمَّدٍ بِما ذَكَرَ اللَّهُ في التَّوراةِ أنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ صادق ، وهو المُبَشَّر به في كتابنا (التَّوراة) ، لِيُجادلوكم ويُخاصموكم ويَحْتَجُّوا عليكم بِقَوْلِكم، ويُقيموا عليكم الحُجَّةَ في تَرْكِ الإيمان به مَعَ عِلْمِكم بِصِدْقِه ، ويقولوا لكم : لقد اعترفتم أنَّ مُحَمَّدًا حَق ، وكلامه صِدْق ، ثُمَّ كفرتم بِه ، وأعرضتم عن دَعوته ؟!. أفلا تَعْقِلُون أنَّ أصحاب مُحَمَّد يُقيمون عليكم الحُجَّةَ إذا حَدَّثتموهم بذلك ، وهذه حُجَّة عليكم ، حيث إنكم تعترفون بتبشير التَّوراة بِمُحَمَّدٍ ثُمَّ لا تُتابعونه ، ولا تُؤْمنون به ، ولا تُصَدِّقون بِنُبُوَّتِه ورسالته ، ويجب أن تنتهوا عن ذلك فَوْرًا .

ومِنْ حُكْمِ اللَّهِ على اليهود أنَّه أخذَ عليهم المِيثاقَ بضرورة الإيمان بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، الذي بَشَّرَتْ بِه التَّوراة . ومِنْ قَضائه فيهم أنَّه عَذَّبَهم ، وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والخَنَازير ، وغَيْر ذلك مِن

---

٩١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٠٤) : ((هذه الآية نَزَلَتْ في نَفَرٍ مِنَ اليهود كانوا إذا لَقُوا النبيَّ والمؤمنين قالوا : آمَنَّا ، وإذا خلا بعضُهم إلى بعض ، قالوا : أتُحَدِّثونهم بما فَتَحَ اللَّهُ عليكم ، هذا قَول ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وقَتَادة وعَطَاء الخُرَاساني وابن زَيْد ومُقَاتل.وفي معنى:﴿ بما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم﴾ قَوْلان : أحدهما بما قَضَى اللَّهُ عليكم، والفَتْح: القَضَاء . قال السُّدي عن أشياخه : كان ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يُحدِّثون المؤمنين بما عُذِّبُوا به ، فقال بعضُهم لبعض : أتُحَدِّثونهم بما فَتَحَ اللَّهُ عليكم مِن العذاب ليقولوا : نحن أحَبُّ إلى اللَّهِ مِنْكُم وأكرمُ على اللَّهِ مِنْكُم ؟. والثاني أنَّ معناه بما عَلَّمَكُمُ اللَّهُ. قال ابن عباس وأبو العالية وقَتَادة : الذي فَتَحَه عليهم مَا أنزله مِن التَّوراةِ في صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وقال مُقاتل: كان المسلمُ يَلْقَى حَلِيفَه أوْ أخاه مِنَ الرَّضَاعَةِ مِن اليهود ، فيسأله : أتجدون مُحَمَّدًا في كِتابكم ؟ ، فيقولون : نَعْم ، إنَّه لَحَقٌّ ، فَسَمِعَ كَعْب بن الأشرف وغَيْرُه ، فقال لليهود في السِّر : أتُحَدِّثون أصحابَ مُحَمَّدٍ بما فَتَحَ اللَّهُ عليكم ، أي : بما بَيَّنَ لكم في التَّوراةِ مِنْ أمْرِ مُحَمَّدٍ ، لِيُخاصموكم بِه عِند رَبِّكِم باعترافكم أنَّه نبيٌّ ، أفلا تَعْقِلُون أنَّ هذا حُجَّة عَلَيكم ؟)) .

الأحكام والأقضية. وهذا كُلُّه حُجَّة للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين على اليهود . وقَدْ أقامَ اللَّهُ الحُجَّةَ على اليَهُود ، وقَطَعَ أعذارَهم ، وفَضَحَهم ، وكَشَفَ باطلَهم، وجَلَّلَهُم بالخِزْيِ والعَارِ والذُّلِّ والمَهَانة .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤١٢) : ((أمَّا قَوْلُه : ﴿ وإذا لَقُوا الذينَ آمَنوا قالوا آمَنَّا ﴾ ، فإنَّه خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُه عن الذين أيأسَ أصحابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِن إيمانهم، مِنْ يهود بني إسرائيل، الذين كان فريق منهم يسمعون كلام اللَّه ثُمَّ يُحرِّفونه مِن بَعْد مَا عَقَلُوه وهُمْ يَعْلَمُون، وهُمُ الذين إذا لَقُوا الذين آمنوا باللَّهِ ورسولِه ﷺ ، قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ يَعْني ذلك : أنهم إذا لَقُوا الذين صَدَّقوا باللَّهِ وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وبما جاء به مِن عِند اللَّهِ ، قالوا: ﴿ آمَنَّا ﴾ أي : صَدَّقْنَا بِمُحَمَّدٍ ، وبِما صَدَّقْتُم به، وَأقْرَرنا بذلك. أخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عنهم أنَّهم تَخَلَّقوا بأخلاق المُنافقين ، وسَلَكُوا مِنهاجَهم)) .

وهؤلاء المُنافقون كَتَمُوا العِلْمَ خَوْفًا مِنَ الاحتجاج عليهم بِه.وهُمْ يَضحكون على أنفسهم ظَنًّا مِنهُم أنَّهم بذلك يُحافظون على مكانتهم بين الناس ، ويَخدعون المؤمنين من أجل تحقيق مصالحهم الدَّنيئة ، وهَذا هو منهج المنافقين في كُلِّ زمان ومكان .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٤٨) : ((﴿ وإذا لَقُوا الذينَ آمَنوا ﴾ يعني : مُنافقيهم ، ﴿قالوا آمَنَّا ﴾ بأنكم على الحق ، وأنَّ رسولكم هو المُبَشَّر به في التَّوراة ، ﴿ وإذا خلا بعضُهم إلى بَعْض قَالُوا ﴾ أي:الذين لَمْ يُنافقوا منهم عاتبين على مَن نَافَقَ ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم ﴾ بما بَيَّنَ لكم في التَّوراةِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهارًا للتَّصَلُّب في اليهودية ، ومَنْعًا لهم عن إبداء ما وَجدوا في كتابهم ، فيُنافقون الفريقَيْن ، فالاستفهام على الأول تقريع ، وعلى الثاني إنكار ونَهْي)) .

إنَّ هؤلاء اليهود يَلعبون بمصيرهم ، ويحاولون جاهدين الالتفاف على الحَقِّ. وهُمْ _ بذلك_ يَخدعون أنفُسَهم ، ويُغْرِقون ذواتهم _عن سَبْق الإصرار والتَّعَمُّد _ في ظُلُمَاتِ الكُفْرِ والضَّلالِ والجُحُودِ والإنكارِ والخِدَاعِ والتَّحَايُلِ . والعاقلُ قَدْ يَخْدَع الآخرين ، ولكنْ لا يُمْكِن أن يَخْدَعَ نَفْسَه . وكُلُّ إنسان عَلَيْهِ أن يُنْقِذَ نَفْسَه بِنَفْسِه ، وهذا لا يَتَأتَّى إلا بالإيمانِ ، وتَطبيقِه على أرض الواقع ، ولا مَهْرَب مِنَ اللَّهِ إلا إلَيْه .

وفي الدُّر المنثور (١/ ١٩٨) أنَّ ابن عَبَّاس _رَضِيَ اللَّهُ عنهما_ قال: ((قالوا : لا تُحَدِّثُوا العَرَبَ بهذا ، فإنكم قد كُنتم تَستفتحون به عليهم ، فكان مِنهم لِيُجادلوكم بِه عِند رَبِّكِم ، أي : يُقِرُّون أنَّه نَبِيٌّ . وقَدْ عَلِمْتُم أنَّه قَدْ أُخِذَ عليكم المِيثاق باتِّبَاعِه ، وَهُوَ يُخبِرهم أنَّه النَّبِيُّ الذي كانَ يُنْتَظَر ، ونَجِده في كِتابنا ، اجْحَدُوه، ولا تُقِرُّوا به)) .

إنَّ اليهود يَرفضون الحَقَّ اتِّبَاعًا لأهوائهم ، وحِفَاظًا على مصالحهم ، ويخترعون الأكاذيب ، ويُصِرُّون على التحايل والخداع ، ويَقُودون أنفُسَهم إلى الهاوية . وخُرَّاسُ الشَّرْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الوَهْمِيَّةِ في بني إسرائيل_الذين هُمْ نُخْبَة المُجتمع_ يَحتكرون تأويلَ النُّصُوص الدِّينية،ويُوجِّهون الرَّأيَ العام نَحْوَ أهدافهم الخبيثة، ويَصْرِفُون اليهودَ عن الإيمان ، للإبقاء على مكاسبِهم ومناصبِهم ونُفُوذِهم .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ للذينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بأيدِيهِم ثُمَّ يَقولونَ هذا مِن عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثمنًا قَليلًا ﴾ [البَقَرَة : ٧٩] .

هَؤلاء صِنْفٌ مِنَ اليَهُودِ حَرَّفُوا التَّوراةَ (وهُمْ أحبار اليهود) ، وغَيَّرُوا كلامَ اللَّهِ تعالى ، حَيْث أضافوا وحَذفوا وَفْقَ أهوائهم ومصالحهم الشخصية ، ونَسَبُوا هذه التحريفات إلى اللَّهِ مِنْ أجْلِ الحُصول على بعض المكاسب الدُّنْيَوِيَّة الوضيعة.وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بالعذاب الشديد جَزاءَ كَذِبهم على اللَّهِ تعالى، وتَحريفِهم للكلام الإلَهِيِّ المُقَدَّسِ، وَلَنْ يَنْفَعَهم مَا كَسَبُوه مِنْ مَتَاعِ الدُّنيا الزائل. فَوَيْلٌ لهم مِمَّا كَتبوا بأيديهم مِن الأكاذيب والخُرافات ، والعَذابُ عليهم بما كَسَبَتْ أيديهم مِنَ الذُّنُوبِ والآثام . والوَيْلُ : الهَلاكُ والدَّمَارُ وشِدَّةُ الشَّرِّ .

وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ مِن ثلاثة وجوه : الأول _ تَحريفهم للتَّوراة . الثاني _ نِسْبَة هذا التَّحريف الباطل إلى اللَّهِ تعالى . الثالث_ أخْذ عَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ مالًا أوْ رِئاسة نَظير ذلك التَّحريف .

إنَّهم أصحاب نظرة قاصرة ، فَلَمْ يَعرفوا المَكانةَ الرفيعة للكلام الإلَهِيِّ ، لذلك تَاجَروا به ، واتَّخَذُوا مِن العقائد الدِّينية وَسيلةً للثَّرَاءِ السريع ، والحُصولِ على منافع شخصيَّة ، فكانت الدُّنيا هي الركيزة الأساسية في حياتهم ، فَضَحُّوا بالغالي والنَّفِيسِ مِنْ أجلها دُون النظر إلى ما وراء الزينة البَرَّاقة الخادعة . لقد ضَحُّوا بالخلود من أجل العَدَمِ والفَنَاءِ . وَلَوْ حصلوا على كُلِّ الدُّنيا لكانَ ثَمَنًا قليلًا ، لأنَّ التلاعب بكلام اللَّهِ يَقُود الإنسانَ إلى الخلود في نار جَهَنَّم . وهذه أعظمُ مصيبة على الإطلاق. لذلك_ مهما كان الثمن _ فهو ثمن قليل. إذْ إنَّ الإنسانَ الذي يُضَحِّي بالحياة الآخِرة الباقية مِن أجل الدُّنيا الفانية ، قد حصل على ثمن قليل ، وكانت صَفْقته خاسرة. وكُلُّ ثمنٍ _مهما كان_ لا يَدُوم ، وإنَّما هُوَ عَرَضٌ فانٍ ، والحَرَامُ لا بَرَكَة فِيه ، فهو قليلٌ مهما كان كثيرًا .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ الذين قاموا بِتَحريف كلامِ اللَّهِ هُمْ أحبارُ اليهود (عُلَمَاؤهم) ، لأنهم يَمْلِكُون سُلطةَ احتكار النُّصوص الدِّينية وتفسيرها بما لَدَيهم مِن العِلْم والمعرفة والنُّفُوذ والمكانة الاجتماعية الرفيعة . أمَّا الشَّخْصُ العَامِيُّ الجاهلُ ، فهو لا يَعْرِف شَيئًا عن التَّوْراة ، ولَيْسَ مَعْنِيًّا بأحكام التَّوراة وتعاليمها ، لأنَّه يأخذ هذه الأحكام من أفواه الأحبار ، ولَيْسَ مِنَ النُّصُوصِ ،

لجهله وعدم قُدرته على الاستنباط والتفسيرِ . لذلك تُصبح التَّوراة في أيدي الأحبار وسيلةً للرِّبح وأداةً للتِّجَارة . وقد كانَ زُعماء أهل الكتابِ يَرْفُضُون الإسلامَ خَوْفًا على مصالحهم ومناصبهم ، وحِفَاظًا على الرِّئاسة والزَّعامة .

خَافَ أحبارُ اليهود على مَصالِحهم ومَكاسِبهم ونُفُوذِهم ومَناصِبِهم وزَعَامتهم ، وخافوا مِنْ تَفَرُّقِ الأتْبَاعِ والعَوَامِّ عنهم ، لذلك غَيَّروا التَّوراةَ ، وبَدَّلوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، مِن أجل تصوير النبيِّ مُحَمَّدٍﷺ كشخص كاذب. وبالتالي يَمنعون الناسَ مِن الإيمان بِه ، وهكذا يُحافظون على رئاستهم وأموالهم وسُلطتهم وأتْبَاعهم .

وفي الدُّر المنثور (١/ ٢٠٢) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قَوْلِه : ﴿ فَوَيْلٌ للذينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ ﴾ الآية . قال : هُم أحبار اليهود، وَجَدوا صِفَةَ النبيِّ ﷺ مكتوبة في التَّوراة : أكْحَل ، أعْيَن ، رَبْعَة ، جَعْد الشَّعْر ، حَسَن الوَجْه . فلمَّا وجدوه في التَّوراة مَحَوْهُ حَسَدًا وبَغْيًا ، فأتاهم نَفَرٌ مِن قُرَيش ، فقالوا : تَجدون في التوراة نَبِيًّا أُمِّيًّا ؟ ، فقالوا : نَعَم ، نَجِدُه طويلًا ، أزرق، سَبْطَ الشَّعْر ، فأنكرتْ قُرَيشٌ ، وقالوا : لَيْسَ هذا مِنَّا)) [٩٢] .

في الآيةِ تَحذيرٌ شديدٌ مِنَ التلاعب بكلام اللَّهِ ، وتَرهيبٌ مِن تَغيير الأحكام الشرعية . وكُلُّ مَنْ زادَ في الشريعة ، أوْ أنقصَ مِنها ، أوْ جاءَ بِبِدْعَةٍ مُخالِفة للدِّين ، فهو داخلٌ في هذا الوعيد الإلهيِّ ، ويَتَحَمَّل إثمَه وإثمَ الذين أَضَلَّهم دُون أن يَنْقُص مِنْ آثامهم شَيْء .

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((الوَيْلُ وَادٍ في جَهَنَّم ، يَهْوِي فيه الكافرُ أربعينَ خَرِيفًا قَبْلَ أن يَبْلُغَ قَعْرَه)) [٩٣] .

إنَّ الكافرَ ينتظره عذابٌ دائم لا يَزول بسبب رفضه الإيمان . وهذا الوادي في جَهَنَّم المُسمَّى بالوَيْل تَبْلُغ المَسافةُ بين بدايته وقَعْرِه أربعين سنة ، وتَمَّ التعبير عن السَّنَة بالخريف من أجل إظهار النهايةِ المأساوية للكافر، والعذابِ العظيم الذي يَنتظره ، والمصير الفظيع الذي قضى على آماله .

والوَيْلُ كلمة تُقَال لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ في عَذابٍ أو هَلَكَةٍ .

---

٩٢ الأكحل : الذي يَعلو جُفونَ عينيه سوادٌ مِثْل الكُحْل مِن غَير اكتحال . الأعْيَن : الذي يَكون سَوادُ عَيْنِه عَظيمًا في سَعَةٍ . الرَّبْعَة : مُتوسِّط الطُّول ليس بالطويل ولا بالقصير . جَعْد الشَّعْر : شَعْرُه مُجْتَمِع ومُنْقَبِض ، وهو صِفَةُ مَدْحٍ ، ضِدُّ السَّبْط ، لأنَّ السُّبُوطة أكثرُها في شُعور العَجَم .

٩٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٥٥١) برقم (٣٨٧٣) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢/ ١١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ بأيدِيهِم ﴾ تأكيد . فإنَّه قد عُلم أنَّ الكتاب لا يكون إلا باليد ... وقِيل : فائدةُ ﴿ بأيدِيهِم ﴾ بيان لِجُرْمهم وإثبات لمُجاهَرتهم ، فَإنَّ مَنْ تَوَلَّى الفِعْلَ أشد مُواقَعة مِمَّن لَمْ يَتَوَلَّه ، وإنْ كان رَأيًا له . وقال ابنُ السَّرَّاج : ﴿ بأيدِيهِم ﴾ كِنَاية عَنْ أنَّهُم مِنْ تِلْقائهم دُون أن يَنْزِل عليهم)) .

والكتابةُ لا تَكون إلا باليد . وذِكْرُ ﴿ بأيدِيهِم ﴾ دليلٌ على أنهم بَاشَروا التحريفَ بأنفسهم . وفي هذا إشارةٌ إلى جريمتهم العظيمة ، وتَثبيتٌ لِفِعْلهم القَبيح ، وتَسجيلٌ عليهم .

وكُلُّ مَنْ أمَرَ بِفِعْلٍ ما، جازَ نِسبةُ ذلك الفِعْل إلَيْه. فإذا أمرَ فُلان بالكتابة، جازَ أن نَقول عنه : كَتَبَ فُلان ، حتى لَوْ لَمْ يُباشِر الكتابة بِنَفْسِه . أوْ حَبَسَ الحاكمُ فُلانًا ، إذا أَمَرَ بِحَبْسِه ... إلخ .

وفي صحيح البُخاري (٦/ ٢٦٧٩) أنَّ ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((كَيْفَ تسألون أهلَ الكتاب عن شيء وكتابُكم الذي أُنزل على رسول اللَّه ﷺ أَحْدَث، تَقرؤونه مَحْضًا لَمْ يُشَبْ ، وَقَدْ حَدَّثكم أنَّ أهلَ الكتاب بدَّلوا كتابَ اللَّهِ وَغَيَّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هُوَ مِن عِندِ اللَّهِ لِيَشتروا به ثمنًا قليلًا ؟ ، ألا يَنهاكم مَا جاءكم مِنَ العِلْمِ عَنْ مَسْألتهم ؟ ، لا واللَّهِ مَا رَأيْنَا مِنهُم رَجُلًا يَسألكم عن الذي أُنزِلَ عَلَيْكُم)) .

كيف تسألون اليهود والنصارى عن الأمور الدِّينية والقُرْآنُ الكريم هو خاتَم الكُتُب السماوية ، وهو مَحْضٌ، أي خالص لا تَشُوبه شائبة فَلَمْ يَتِم تغييره أو التلاعب به . وَلَمْ يُشَبْ ، أي لَمْ يُخلَط.

والقُرْآنُ أخبرَ أنَّ أهل الكتاب حَرَّفوا التَّوراةَ والإنجيلَ وتلاعبوا بهما ، وذلك لتحقيق مصالح شخصية باطلة ، والحُصولِ عَلى مكاسب مادية زائلة ، فَيُفتَرَض بأهل الكتاب أن يأتوا لسؤال المسلمين عن القرآن ، لأنَّ القرآن كتابٌ محفوظ مِن كُلِّ تغيير بِخِلاف التوراة والإنجيل ، لكنَّ أهلَ الكتاب مَحشورون في غُرور اللحظة الراهنة ، ولا يُعمِلون عُقولَهم في نقد النصوص التوراتية والإنجيلية التي تَمَّ التلاعبُ بها ، وتحريفها .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٩٩) : ((" جاءكم مِن العِلْم " إسناد المجيء إلى العِلْم كإسناد النَّهْي إلَيه . قَوْلُه : " فلا واللَّهِ مَا رَأيْنَا رَجُلًا مِنهم يَسألكم " [رواية أُخْرَى]، فيه تأكيد الخَبَر بالقَسَم ، وكأنَّه يقول : لا يسألونكم عن شيء مَعَ عِلْمِهم بأنَّ كتابكم لا تحريف فيه . فكيفَ تسألونهم وقد عَلِمْتُم أنَّ كِتابَهم مُحَرَّف ؟!)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغنياءُ سَنَكْتُبُ ما قالوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ [آل عِمران : ١٨١] .

هذه الوَقَاحَةُ تُشير إلى قُلوب مليئة بالجهل المَمزوج بالعِناد. وهذه الجُرأةُ على اللَّه تعالى تنطلق مِن كُفْرٍ مُتَأصِّل في قلوب اليهود وعُقولهم ونُفُوسهم ، وهُم لا يُقيمون وزنًا للشرائع الدينية ، ولا يَحترمون الأنبياءَ _ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام _ ، سواءٌ كانوا مِن بني إسرائيل أَمْ مِن غَيْرِهم .

لقد سَمِعَ اللَّهُ مَقولةَ اليهود السَّيئة الذين زعموا أنَّ اللَّه فقير ، وذلك حِين نَزَلَ قَوْلُه تعالى : ﴿ مَن ذا الذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥].والمعنى: إنَّ اللَّه لا يَخْفَى عليه شيء. وقد قالَ اليهودُ أعداءُ اللَّه : إنَّ اللَّهَ فقيرٌ يَقترض مِنَّا ، وَلَوْ كانَ غنيًّا ما اسْتَقْرَضَنَا أموالَنا .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ٢٨٦) : ((وإنما قالوا هذا تَمْويهًا على ضُعفائهم ، لا أنهم يعتقدون هذا ، لأنهم أهل كتاب ، ولكنَّهم كَفَرُوا بهذا القَوْل ، لأنهم أرادوا تشكيكَ الضُّعَفاء مِنهم ومِن المؤمنين، وتكذيب النبيِّ ﷺ ، أي أنه فقير على قَول مُحَمَّد ﷺ ، لأنه اقترضَ مِنَّا)) .

وما يُثير العَجَب والاستغراب أنَّ اليهود أكَّدوا كلامَهم : ﴿ إنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ للمُبَالَغَة . في حِين أنهم قالوا : ﴿ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ، حيث إنهم نَسَبُوا أنفسَهم إلى الغِنى بدون تأكيد . كأنَّ الغِنى صِفَة لازمة لهم ، ووَصْف معروف لهم ، لا شَك فيه ولا نِزاع ولا جِدال ، ولا يَحتاج إلى تأكيد ، وهذا دليل على شِدَّة كُفرِهم وضَلالِهم وتَمَرُّدِهم وَعِنَادِهم وغُرُورِهم واستكبارِهم .

﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ . سَيَأمُر اللَّهُ المَلائكةَ الحَفَظَةَ بكتابة كلام اليهود في صحائف أعمالهم، حتى يكون أوكَد للحُجَّة عليهم ، ولا يَقْدِروا على إنكاره ، وسيُجازيهم عليه .

﴿ وَقَتْلَهُمُ الأنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ . ونكتب جريمتهم السَّيئة (قتل الأنبياء) ، حيث إنهم رَضُوا بفِعل أسلافهم الذين قَتَلُوا الأنبياءَ ، فصاروا شُركاء لهم في الجريمة . والرِّضَا بالقَتْلِ قَتْلٌ ، والمُوَافِقُ على الجريمة شريك فيها .

وهذا المَجَاز مَجَاز عقلي ، لأنَّ اللَّه لا يَكْتُب ، وإنَّما يَأمر الملائكةَ بالكتابة ، وبما أن اللَّه هو الآمِرُ بالفِعْل نَسَبَه إليه . وقد أسندَ اللَّهُ الفِعْلَ إليه مَجَازًا.وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٣) : ((أي : سنكتبه في صحائف الكَتَبَة ، أوْ سَنَحفظه في عِلْمِنا لا نُهْمِله ، لأنَّه كَلِمة عظيمة ، إذْ هو كُفْر باللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، واستهزاء بالقُرآن والرسول ، ولذلك نَظَمَه مع قتل الأنبياء. وفيه تنبيه على أنه لَيْسَ أوَّل جريمة ارتكبوها ، وأنَّ مَن اجترأ على قتل الأنبياء ، لَمْ يُسْتَبْعَدْ مِنه أمثال هذا القَول)) .

﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ . ويَقول اللَّهُ لهم في الآخرة على لسان الملائكة : ذوقوا عذابَ النار المُحرقة المُلتهبة . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٣) : ((أي : وننتقم منهم بأن نقول لهم : ذُوقوا العذاب المُحْرِق . وفيه مُبالغات في الوعيد . والذَّوْقُ إدراك الطُّعُوم ، وعلى

الاتِّساع يُسْتَعْمَل لإدراك سائر المَحسوسات والحالات . وذِكْرُه هَاهُنا لأنَّ العذاب مُرَتَّب على قَوْلهم الناشئ عن البُخل والتَّهالك على المال . وغالب حُجَّة الإنسان إليه لتحصيل المَطَاعِم ، ومُعْظَم بُخْلِه به للخَوف مِن فِقْدَانِه ، ولذلك كَثُرَ ذِكْر الأكل مع المال)) .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٢/ ٣٩٦) : ((عن ابن عباس قال : دخل أبو بَكْرٍ بَيْتَ المِدْرَاس، فَوَجَدَ يَهُودَ قد اجتمعوا إلى رَجُل مِنهُم يُقَال له فِنحاص ، وكان مِن عُلَمائهم وأحبارهم . فقال أبو بكر : وَيْلَكَ يا فِنحاص ! اتَّقِ اللَّهَ وأَسْلِمْ ، فواللَّهِ إنَّكَ لَتَعْلَمُ أنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ ، تَجدونه مكتوبًا عِندكم في التَّوراة ، فقال فِنحاص : واللَّهِ يا أبا بَكْر مَا بِنَا إلى اللَّه مِن فَقْر ، وإنَّه إلَينا لَفَقِير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلَينا ، وإنَّا عنه لَأغنياء، وَلَوْ كان غَنِيًّا عَنَّا ما استقرضَ مِنَّا كما يَزعُم صاحبُكم ، يَنهاكم عن الرِّبا ويُعطينا ، وَلَوْ كان غَنِيًّا عَنَّا ما أعطانا الرِّبا . فغضب أبو بَكْر فَضَرَبَ وَجْهَ فِنحاص ضَرْبَةً شديدةً ، وقال : والذي نَفْسِي بيده لَوْلا العهد الذي بَيننا وبَينكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يا عَدُوَّ اللَّه ، فذهب فِنحاص إلى رسول اللَّه ﷺ ، فقال: يا مُحَمَّد ، انظُرْ ما صَنَعَ صاحبك بي، فقال رسول اللَّه ﷺ لأبي بَكْر: " مَا حَمَلَكَ عَلى ما صَنَعْتَ ؟ "، قال: يا رسول اللَّه ، قال قَوْلًا عظيمًا : يَزعُم أنَّ اللَّه فقير،وأنَّهم عنه أغنياء، فلمَّا قال ذلك غَضِبْتُ للَّه مِمَّا قال ، فَضَرَبْتُ وَجْهَه ، فَجَحَدَ فِنحاص ، فقال : ما قُلْتُ ذلك. فأنزلَ اللَّهُ فِيما قال فِنحاص تصديقًا لأبي بَكْر : ﴿ لقد سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨١] الآية . ونَزَلَ في أبي بَكْر وما بَلَغَه في ذلك من الغضب : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِكُم وَمِنَ الذينَ أشْرَكُوا أذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عِمران : ١٨٦])) [٩٤] .

إنَّ المُؤمِنين سَيَتَعَرَّضُون مِن قِبَل اليهود والنَّصَارى والمُشركين لِعُنْفٍ لفظي يتضمَّن تكذيبَ اللَّه تعالى ، والطعنَ في الإسلام والنبيِّ ﷺ والمؤمنين . وهذا هو منهج الكافرين في اضطهاد المؤمنين لإيمانهم باللَّه تعالى ، وثباتهم على الحق . وأهلُ الكفر يقومون بهذه العملية الدنيئة ، في محاولة يائسة منهم لتشكيك المؤمنين بدِينهم ، وحَمْلهم على ترك الإسلام .

واليهود بَنَوْا كُفْرَهم وضَلالَهم على العِناد والاستكبار والغُرور ، وهذا جَعلهم يتلفَّظون بالشتائم والكلمات الكُفْرِيَّة ، التي تُكذِّب اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وتُهين كتابَه وشريعته ورسوله .

---

٩٤ قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣١) : ((وروى ابن أبي حاتم وابن الْمُنذِر بإسناد حَسَن عن ابن عباس أنها نَزلت فِيما كان بَين أبي بَكْر وبَين فِنحاص اليهودي)) .

ما الذي تنتظره البشرية مِن اليهود الذين يُحَارِبُون اللَّهَ قَوْلًا وفِعْلًا ؟ . حتَّى مُشركو العرب عَبَدَة الأصنام والأوثان في الجاهليَّة ، لَمْ يَجْرُؤوا على وصف اللَّه بأنه فقير ، بَلْ إنَّهم كانوا يَعبدون الأصنامَ لِتُقَرِّبَهم إلى اللَّه _ وَفْق رُؤيتهم القاصرة وتفكيرهم المحدود _ . وما يُثير الأسف أن تَصْدر الشتائم الكُفرية عن أهل الكتاب . والمفروضُ أنهم على علاقة بوَحْي السماء ، ولهم ارتباط بالأنبياء . ولكنَّ الكُفر عِناد . والجَهْلُ باللَّه هو الطريق المُوصِل إلى الكُفْر والضَّلال . ومَن يَعرِف اللَّهَ يَعْبده ، ومَن لا يَعرِفه لا يَعْبده . والجدير بالذِّكْر أنَّ جَهل اليهود قائم على العِناد ، ورفض الحق ، واعتناق الباطل ، اتِّباعًا لأهوائهم ، وتحقيقًا لمصالحهم . ولَمْ يَكُن جَهْلُهم نابعًا مِن غياب العِلْم وعدم المعرفة . فاليهودُ لَدَيهم التَّوراة ، وبين أيديهم الكُتُب الدينية ، ويَعرِفون ماذا يَقولون.

والإنسانُ قد يُذنِب ويَقع في الإثم بحُكْم ضَعْفه الإنساني وتأثير شَهَوَاته ، ولكنْ عليه ألا يَستمرِئ الذُّنُوبَ ويَغرق فيها . بَلْ يجب عليه أن يتوب إلى اللَّه ، ويعود إلى الطريق المستقيم ، والرُّجُوعُ إلى الحَق خَير مِن التمادي في الباطل . والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع .

والمُشكلةُ الجَذريَّةُ في قلوب اليهود وعُقولهم ، أنهم صاروا يَعتبرون الانحرافَ هو الطريق المستقيم ، وصاروا ينظرون إلى الإثم كأمر عادي روتيني لا يَدْعو إلى القلق ، ولا يُثير الاستنكار. وهذا يدل على جهلهم باللَّه تعالى ، ورفضهم للشرائع ، ومُحاربتهم للأنبياء ، وانتكاس فِطْرتهم ، وهذا أدَّى إلى ضياع اليهود في مَتَاهَة الكُفْر والضَّلالِ ، بلا وازع ديني ، ولا رادع أخلاقي .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إلَيْنا ألا نُؤْمِنَ لِرَسولٍ حَتَّى يَأتِيَنا بِقُرْبانٍ تأكُلُهُ النارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُم رُسُلٌ مِن قَبْلي بالبَيِّناتِ وبالذي قُلْتُم فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُم إن كُنتُم صادقين ﴾[آل عِمران: ١٨٣] . زَعَمَ اليهودُ أنَّ اللَّهَ أوصاهم وأمَرَهم في كُتُبِه وعلى ألسنةِ أنبيائه ، ألا يُصدِّقوا رسولًا حتى يَأتِيَهم بِآيةٍ خاصَّة ، وهي أن يُقَدِّم قُرْبَانًا فَتَنْزِل نار من السماء وتأكله . وهذا افتراء على اللَّهِ وكَذِبٌ عَلَيْه، فاللَّهُ مَا أوصاهم بهذا ، ولا أمَرَهم بِه . والقُرْبَانُ هو ما يَتَقَرَّب بِه العبدُ إلى اللَّهِ تعالى مِنْ صَدَقَةٍ وعَمَلٍ صالح.وقد كانتْ عادة بني إسرائيل أنهم كانوا يُقَرِّبون القُرْبَانَ للَّهِ تعالى طاعةً له وتَقَرُّبًا مِنْه ، فَيَقُوم النَّبِيُّ فَيَدْعُو ، فَتَنْزِل نارٌ من السماء وتُحْرِقه كَعَلامة لِقَبول القُرْبَان ، واللَّهُ لَمْ يَتَعَبَّد كُلَّ الأنبياءِ بهذا الأمر ، ولَمْ يَجْعَلْه شَرْطًا للإيمان،ولا دليلًا على صِدْقِ النَّبِيِّ وصِحَّةِ نُبُوَّتِه .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٤٤): ((وكانت القَرَابينُ والغَنائمُ لا تَحِلُّ لبني إسرائيل ، وكانوا إذا قَرَّبُوا قُرْبَانًا أوْ غَنِمُوا غَنِيمةً ، جاءتْ نارٌ بَيضاء مِنَ السَّمَاءِ لا دُخَان لها ولها دَوِيٌّ وحَفِيف فتأكله، وتُحْرِق ذلك القُرْبَانَ وتِلْك الغَنِيمة ، فيكون ذلك علامةَ القَبول،وإذا لَمْ يُقْبَلْ بَقِيَتْ على حالها)).

لَقَدْ كَذَّبَ اللَّهُ اليهودَ ، وكَشَفَ باطلَهم ، وفَضَحَهم ، وأَمَرَ مُحَمَّدًا ﷺ أن يَقول لهم تَوبيخًا وإظهارًا لافترائهم وكَذِبهم وإقامةً للحُجَّة عَلَيهم : قد جاءكم رُسُلٌ مِن قَبْلي بالمُعجِزاتِ الظاهرة ، والآياتِ الباهرة ، والبراهينِ الدَّالة على صِدْقِهم وصِحَّةِ نُبُوَّتهم، وبما ادَّعَيْتُم (أكل النار للقُربان)، فَلِمَ كَذَّبْتُموهم وقتلتموهم إن كُنتم صادقين في إيمانكم ، وحريصين على تطبيق أوامر اللَّهِ ، ومُتَمَسِّكين بالشريعة ؟ . وهذا تَوبيخٌ شديدٌ لهم ، وتَقريعٌ ، وفَضْحٌ لباطلهم، وكَشْفٌ لتلاعبهم بأحكام الشريعة ، وإظهارٌ لِعِنَادِهِم وَحِقْدِهِم وَرَفْضِهِم للإيمان .

لَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ أعذارَهم ، وأقامَ عَلَيهم الحُجَجَ ، وظَهَرَ لهم صِدْقُ أنبيائهم ، ومَعَ هذا كَذَّبوهم وقَتلوهم مِثل يحيى وزكريا وغَيرهما،وتلاعَبوا بأحكام الشريعة،وحَرَّفوا نصوصَ التَّوراة.وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ اليهودَ المُعاصِرين للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ قَتَلَةً ، مَعَ أَنَّهُم لَمْ يَقْتُلوا الأنبياءَ ، وذلك بسبب رِضاهم عن فِعْلِ أسلافهم ، ومَنْ رَضِيَ بالجريمة فهو شريكٌ فِيها ، وشَريكٌ للمُجرم ، سَوَاءٌ بِسَوَاء .

والآيةُ تُظهِر أنَّ اليهود المُعاصِرين للنبيِّ ﷺ نُسْخَة طِبْق الأصل عن أسلافهم ، وكُلُّ اليهود (السابقين واللاحقين) سائرون في طريق الضَّلال نَفْسِه ، وشُركاء في الكُفْرِ والكَذِبِ والعِنَادِ والحَسَدِ والحِقْدِ ، إذْ إنَّ وَصْفَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَوجود في التَّوراة ، وليس غريبًا عَنهم، ولكنَّهم جَحَدُوا نُبُوَّتَه حِقْدًا وحَسدًا له وللعَرَبِ كُلِّهِم ، لأنَّ النُّبُوَّة خَرَجَتْ مِنْ بني إسرائيل ، وصارت في العرب . وقد كان اليهودُ مُتأكِّدين مِن صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ولكنَّ العِنَادَ والحسد والمصالح الشخصية والمنافع الماديَّة مَنَعَتْهُم من الإيمان بِه .

وقال القُرْطُبي في تفسيره (٤/ ٢٨٧) : ((وهذه الآية هِيَ التي تلاها عامر الشَّعْبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عنه ، فاحتجَّ بِها على الذي حَسَّنَ قَتْلَ عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عنه ، وأنَّ اللَّهَ تعالى سَمَّى اليَهُودَ قَتَلَةً لِرِضَاهُم بِفِعْلِ أسلافهم ، وإنْ كان بَيْنَهم نَحْو مِنْ سَبْعِمائة سَنَة)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير(١/٥١٦): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إلَيْنا ﴾ قال ابن عباس : نَزَلَتْ في كَعْب بن الأشرف ومالك بن الصَّيف وحُيَي بن أخْطَب ، وجماعة مِن اليهود ، أَتَوْا رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فقالوا : إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إلَينا ، أي أمَرَنا في التَّوراة أن لا نُؤْمِنَ لرسول ، أي لا نُصَدِّق رسولًا يَزْعُم أنَّه رَسُول حتى يَأتِيَنا بِقُرْبَان تأكله النار . قال ابن قُتَيبة : والقُربان ما تُقَرِّب بِه إلى اللَّهِ تعالى مِنْ ذَبْحٍ وغَيْرِه ، وإنَّما طَلَبُوا القُرْبَانَ لأنَّه كان مِن سُنَنِ الأنبياء المُتَقَدِّمين ، وكان نُزولُ النارِ علامةَ القَبول . قال ابن عباس : كان الرَّجُل يَتَصَدَّق ، فإذا قُبِلَتْ مِنْه نَزَلَتْ نار مِن السماء فَأَكَلَتْهُ ، وكانتْ نارًا لها دَوِيٌّ وحَفِيف . وقال عطاء : كان بَنُو إسرائيل يَذبحون للَّهِ ،

فَيَأخذون أطايبَ اللحم ، فيضعونها في وسط البيت تحت السماء ، فيقوم النبيُّ في البيت، ويُناجي رَبَّه ، فَتَنْزِل نار فتأخذ ذلك القُربانَ ، فَيَخِرُّ النبيُّ ساجدًا ، فَيُوحي اللَّهُ إلَيه ما يشاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النِّسَاء : ٥١] .

الاستفهامُ للتعجيب . والمقصود هُم اليهود الذين دَرَسُوا التَّوراةَ ، وعَلِمُوا ما فيها مِن أحكام وشرائع ، ومعَ هذا يؤمنون بالأصنامِ والأوثانِ وكُلِّ مَا عُبِدَ مِن دُون اللَّه تعالى . إنَّهم لَمْ يَنتفعوا بالعُلوم الدِّينية التي حصلوا عليها ، لأنَّ مصالحهم المادية طَغَتْ على شَرَفِ العِلْمِ ، وَطَمَسَت الإخلاصَ في طَلَبِه ونَشْرِه . ويقول اليهود لكُفَّار قُرَيش : أنتُم أهدى مِن مُحَمَّدٍ وأصحابِه ، وأقْوَمُ دِينًا ، وأحسنُ طريقةً . لقد فضَّل اليهودُ (وهُمْ أهل كِتاب) مُشركي قُرَيش الوثنيين عَبَدَةَ الأصنامِ على المُسلِمين المُوحِّدين . وفي هذا دَلالة واضحة على أن كُفر اليهود قائم على العِلْم والمعرفة والعِناد والاستكبار والحسد والغُرور واتِّباعِ الأهواء ، والحِرْصِ على المصالحِ الشخصية والمنافعِ المادية ، وعِشْقِ الدُّنيا ، والتَّمَسُّكِ بالمناصب والرئاسة والزَّعامة .

أمَّا سبب نُزول الآية ، فعن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ قال : لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بنُ الأشرفِ مَكَّةَ أَتَوْه، فقالوا : نَحْنُ أهلُ السِّقايةِ والسِّدانةِ ، وأنتَ سَيِّدُ أهْلِ يَثْرِب ، فنحنُ خَيْرٌ أَمْ هذا الصُّنَيْبِيرُ المُنْبَتِرُ مِنْ قَوْمِه ــ يَقْصِدُون النَّبِيَّ ﷺ ــ ، يَزْعُم أنَّه خَيْرٌ مِنَّا ، فقال : أنتُم خَيْرٌ مِنْهُ [٩٥] .

جاء كُفَّارُ مَكَّة (عَبَدَة الأصنام والأوثان) ، وقالوا لِكَعْبِ بنِ الأشرفِ الذي كان زعيمًا يهوديًّا معروفًا: نَحْنُ الذين نَسْقِي الحَجِيجَ ، ونَخْدِم الكَعْبَةَ ، وأنتَ سَيِّدُ يَثْرِب وزعيمها ــ ويَثْرِب الاسم القديم للمَدِينة المُنَوَّرة ــ . فَمَن أفضلُ نَحْنُ أَمْ مُحَمَّد ؟ . وقد وَصَفُوا النبيَّ ﷺ بأنه صُنَيْبير ، أي: أبْتَر لا عَقِبَ له (لا أبناء له) ولا أخ ، فإذا ماتَ انقطعَ ذِكْرُه ، وبأنه مُنْبَتِر (مَقطوع لا وَلَد له). فقال لهم كَعْبُ بن الأشرف ــ لَعَنَه اللَّهُ ــ : أنتم أفضلُ مِنْ مُحَمَّدٍ ، وأقْوَمُ دِينًا ، وأحسنُ طريقةً .

إنَّ كَعْبَ بن الأشرف الذي كان من زعماء اليهود استغلَّ مكانته وعِلْمَه بوصفه من أهل الكتاب للتدليس والتلبيس على أهل الجاهليَّة الوثنيين ، فكانت النتيجة أن قام بهذه الخيانة الشنيعة مُفَضِّلًا عَبَدَةَ الأصنامِ والأوثانِ على إمام المُوحِّدين الأنقياء مُحَمَّدٍ رسولِ اللَّه ﷺ . وهذا يدلُّ على عِنادِ اليهودِ واستكبارِهم وقَسوةِ قُلوبهم ، واتِّبَاعِهم لأهوائِهم ومَصالحِهم ، وحِرْصِهم على الزَّعَامة .

---

٩٥ رواه ابن حِبَّان في صحيحه(١٤/ ٥٣٤).وفي تفسير ابن كثير(٤/ ٥٦٠):رواه البَزَّار بسند صحيح.

وتفضيلُ الباطل على الحق مرجعه إلى نَيْل رضا عِلْية القوم المُتنفذين بُغية تحقيق مكاسب ذاتية تشتمل على توسيع دائرة النفوذ والهيمنة في مجتمع المنحرفين عن الصِّراط المستقيم، وإبعادِ الناس عن الحق الذي يفتح العيونَ على الإيجابيات والسلبيات، وهذا لا يريده المُتنفذون، لأنه يُهدِّد مصالحهم وسيطرتهم ، ويُقَوِّض سُلطتهم ، ويُشكِّل خطرًا على مناصبهم ومُكتسباتهم المادية.

إنَّ الكُفْرَ مَشروع استثماري مادي لتكريس سيطرة السادة على العبيد ، والحِفَاظِ على مصالح أصحاب القرار ، والحَيلولةِ دُون نقد الأوضاع السيئة . فمن مصلحة الطُّغَاة في كُلِّ العُصور أن يظل الناسُ بدون عقول مُفكِّرة ، لأن العقلَ المُفكِّر يقود إلى النقد والنقض ، وهذا يُشكِّل خطرًا كبيرًا على نُفُوذ عِلْية القَوْم في المُجتمعات القائمة على تجذير الباطل وحِراسته . وبالتالي ، إنَّ الأنظمة الطاغوتية المنتشرة في العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية تخشى من رياح التغيير. ومِن مصلحتها أن يظل الوضعُ ثابتًا بلا تغيير ، وأن يظل الماء راكدًا آسِنًا كَي تَقْدِر على مُواصلة العَيش في المُستنقعات.وبما أن الإسلام قد قامَ بِتَثويرِ المُجتمعِ وَزَرْعِ القِيَمِ الانقلابيَّة، حيث انقلاب العدل على الظُّلْم ، وأحدثَ حركةَ تصحيح للمسار والمفاهيم والسلوكيات، فَسَوْفَ يُحَارَب الإسلامُ بِكُلِّ شراسة لأنَّه تهديد حقيقي لِنُفُوذ الفاسدين وحُرَّاسِ الخُرافات .

وبسبب عَداوة كَعْب بن الأشرف الشديدة للنبيِّ ﷺ،وإعلانِه الحرب على الإسلام والمسلمين، فقد هُدِرَ دَمُه بسبب خِيانته العُظمى ، وأرسلَ النبيُّ ﷺ مَن اغتاله . معَ العِلْم أنَّ الإسلام لا يُحارِب الناسَ بسبب عقائدهم ، فَهُمْ أحرارٌ في اعتناق مَا يَرَوْنَه مُنَاسِبًا ، وكُلُّ شخص يَتَحَمَّل مسؤوليةَ اختياره أمام الناسِ في الدُّنيا ، وأمام اللَّهِ في الآخرة . ولكنْ إذا تَعَرَّضَ الإسلامُ لهجوم وحرب مُستعِرة، فَعِندئذٍ سَيُدافع المُسْلِمُون عَن دِينِهم ووُجودِهم . وعلى الطَّرَفِ الآخَرِ تَحَمُّلُ التَّبِعَاتِ كاملةً . والكافرُ المُحَارِبُ مَهدور الدَّمِ في كُلِّ زمان ومكان ، وهذا الكلامُ ليس غريبًا ، فَكُلُّ دُوَلِ العَالَمِ تضع قوانين لحماية وجودها ومواطنيها، وتَعتقل أو تَقْتُل كُلَّ الذين يُهَدِّدون مصالحَها. والمَنهجُ الإسلاميُّ واضح في عدم الاعتداء على أحد، ولكنَّه يُميِّز بين المُسَالِمِين والمُحَارِبين . وكُلُّ عقيدة لا بُدَّ لها مِن قُوَّة تَحْميها ، وكُلُّ قوةٍ لا بُدَّ لها مِنْ عقيدة تُوجِّهها .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٠٢) : ((﴿ أَلَم تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ . نزلت في اليهود كانوا يقولون : إن عبادة الأصنام أرضى عِند اللَّهِ مِمَّا يَدعوهم إليه مُحَمَّدٌ . وقِيل : في حُيَي بن أخْطَب وكَعْب بن الأشرف في جَمْع مِن اليهود خرجوا إلى مَكَّة يُحَالِفُون قُرَيْشًا على مُحاربة رسول اللَّه ﷺ ، فقالوا : أنتم أهل كتاب ،

وأنتم أقرب إلى مُحمَّد مِنكُم إلَينا، فلا نأمَن مَكْرَكم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ، ففعلوا . والجِبْتُ في الأصل اسْمُ صَنَم ، فاسْتُعْمِلَ في كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُون اللَّهِ . ... . والطاغوتُ يُطْلَق لِكُلِّ باطل مِن مَعبود أوْ غَيره ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لأجْلِهِم وفِيهِم : ﴿ هَؤُلاءِ ﴾ إشارة إليهم ﴿ أَهْدَى مِنَ الذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ أقْوَم دِينًا ، وأرْشَد طريقًا)) .

والبيئة الجاهلية المُتشظية إلى مُنَاخات وثنية: عربية ويهودية ونصرانية، تؤسس احتكارَ ما يُعتقَد أنه حق . وتعميقًا لهذه الفكرة السائدة في الأوساط الصنمية ، تقوم القوى المؤثرة داخل العقيدة الجاهلية بإضفاء صفة العِصمة على الممارسات البشرية الدُّونية التي تتَّخذ شكلَ العِباداتِ الدينية ، والطقوسِ الفكرية، والشعائرِ التَّعبدية، والسُّلوكياتِ الاجتماعية، والهواجسِ الذهنية، والطموحاتِ المستقبلية . وكلُّ هذه العناصر تؤدي إلى بناء منظومة انتحار تدريجي للمعاني والقِيَم . وللأسف ، فإن القِيَم المَيْتة تُصبَغ بهالة القداسة والكمال والعِصمة.ولا شَكَّ أن اليهودية والنصرانية غارقتان في الأُطر الوثنية. وهاتان الدِّيانتان قائمتان على تشبيه الخالق بالمخلوق،والمخلوق بالخالق. وأيضاً،قائمتان على التجسيم (اعتقاد أنَّ اللَّهَ جِسْم) . والمُجَسِّمُ يَعبد صنمًا ماثلًا في فِكْره المريض . وللأسف ، إن مُؤسِّسي التجسيم هُم أهل الكتاب (اليهود والنصارى). وسبب ذلك هو عِشْقهم لإلَهٍ ماديٍّ مُتجسِّد يُماثلهم في الصفات والأفعال والخصائص. ويَنْتُج عن مِثل هذا التفكير صِراع حاد بين مُكوِّنات البيئة البدائية التوراتية والإنجيلية ، ويتكرس الصراعُ كنمطٍ مصبوغ بالعدمية والعبثية ، ثُمَّ يُنظَر إليه كَدِينٍ مُقدَّس في الثقافة الوثنية ذات الأجهزة البوليسية .

وإذا أنْعَمْنَا النظر في خُرافة " صَلْب المسيح " التي اخترعها أصحابُ الأناجيل وعلماءُ النصارى ، نجدها نتيجة طبيعية لاحتكار رجال الدِّين لتأويل النص الديني الوثني، واستيلائهم على الألفاظ والمعاني ومدلولاتها ، مِمَّا مَكَّنهم من فرض سيطرتهم على المَوْروث الديني العابث، وتوجيهه نحو تعزيز القيم الرافضة للآخَر، وتفعيلِ الأدوار غير الأخلاقية ، وبناءِ منظومات بعيدة كُلَّ البُعْد عن احترام إنسانية الإنسان . وبنائيةُ الأفعال الذهنية الشاذة عن المسار الحضاري الفاعل تُنتِج حركاتٍ نَفْسِيَّة واجتماعية انتكاسية تَنْحِت أخاديد مرفوضة منطقيًّا في سلسلة اللاوعي الانسحابي .

ويظلُّ التناحرُ داخل النسق التحطيمي الباعثَ على احتقار كَينونة الفرد ، وهضمِ حقوقه في قلب بيئة رافضة للتقدم ، ونابذة لكل فكر خَلَّاق، لأن الفكر الخَلَّاق _ مِنْ وُجهة نظر العلاقات المبنية على الوثنية _ يُهَدِّد نظامَ الحُكم سواءٌ كان فكريًّا أَمْ واقعيًّا ، فرديًّا أَمْ جَمَاعِيًّا .

وَلَيْسَتْ الحرية في هذا الصراع المتفشي سوى تفريغ للشهوة الممزوجة بالجموح المسعور ، الذي يتمُّ توجيهه إلى أنساق بشرية مُعقَّدة ، لا تَعرف طُرقَ التعامل مع ثنائية الشهوة وتفريغها .

والأجهزةُ المُسيطِرة على بُنى التحركات الفلسفية في سياق الوثنية ، تعمل ليلًا نهارًا لإنتاج إنسان مُنفصل عن السماء ، ومقطوع عن الوَحْي الإلهيِّ . وللأسف ، إنَّ اليَهُونَصْرَانِيَّة (اليَهُودِيَّة _ النَّصْرَانِيَّة) تُساعِد على ذلك ، أي إنها تعمل لسلخ الإنسان عن خضوعه للَّهِ تعالى، بسبب كَونها قاصرةً عن توفير المتعة والأمان الروحِيَّيْن . وَلْنَضْرِبْ مِثالًا على فشل اليهودية في قِيادة الحَيَارى إلى اليقين والخلاص والطُّمَأنينة ، عِلْمًا بأن النصرانية غارقة في الفشل كما اليهودية ، فنقول إنَّ الفَيْلَسُوفَ الشَّهِيرَ أرِسْطُو [٩٦] قَدْ ظَهَرَ بعد النبيِّ موسى ، وقبل النبيِّ عِيسى _عليهما الصلاة والسلام _ ، لكن العقائد الزائغة التي وصلته من اليهودية المنسوبة _ كَذِبًا وزُورًا _ إلى النبيِّ موسى ﷺ ، كانت مُشوَّشة وعدمية . وليس أدل على ذلك من عقيدة أَرِسْطُو المُتعلقة بالإله . إذْ إنَّه يَعتقد أنَّ الإله لا عمل له ولا إرادة ، وسبب هذا الزعم هو اعتقاده بأن العمل طلب لشيء ، واللَّهُ غَنِيٌّ عن كُلِّ طلب ، وقد كانت الإرادة اختيارًا بين أمْرَيْن ، واللَّهُ قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل مِنْ كُلِّ كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول. هذه هي شُبُهَاتُ أرِسْطُو ، وقد مَزَجَ الحقَّ بالباطل، وخَلَطَ الحابلَ بالنابل .

وللرد على هذا العُقْم الفلسفيِّ العَشْوائيِّ العَدَمِيِّ، نقول إنَّ اللَّهَ فَعَّالٌ لِمَا يُريد، يعمل ما يشاء. وأعمال الإنسان هي طلب لشيء لِكَوْنِ الإنسان داخلًا في عِداد الأجسام، لكنَّ أفعالَ اللَّهِ الإلهِ العظيمِ وأعمالَه لَيْسَتْ طَلَبًا لشيء ، فاللَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء ، ولا هُوَ مِثْلُ شَيْء ، وهو _سُبحانَه وتعالى _ مُخالِف للحوادثِ والأجسامِ والأعراضِ والجواهر .

وأعمالُ اللَّهِ إنَّما هي بِعِلْمٍ قَدِيمٍ أزليٍّ ، لَمْ يَزَلْ مَوصوفًا به في أزَلِ الآزالِ ، لا بِعِلْمٍ مُتجدِّد حاصل في ذاته بالحُلول والانتقال . أمَّا الإرادة فهي صِفَة قديمة زائدة على الذات الإلهيَّة ، قائمة بها ، تُخَصِّص المُمْكِنَ ببعض مَا يَجُوز عَلَيْهِ على وَفْقِ العِلْمِ ، وهي واحدة . ولَوْ لَمْ تَجِبْ له

---

٩٦ أرِسْطُو طاليس (٣٨٤ ق.م. _ ٣٢٢ ق.م.) . فيلسوف وثني عُنصري ، يُجسِّد الجاهلية اليونانية بكل طغيانها وجهلها .كانت المجتمعات اليونانية في عصره تتكون من طبقتين هما : السادة والعبيد . ويكفيه عنصريةً أنه كان يرى أن مهمة العبيد هي العمل البدني وخدمة السادة فقط ، وأنهم لَيسوا مُؤهَّلين لممارسة الفضائل واكتسابها .

الإرادة لكانَ مُكْرَهًا ، وَلَوْ كانَ مُكْرَهًا لَمَا وُجِدَ شيء مِن هذا العالَم ، ولكن العالَم موجود ، فَثَبَتَ كَوْنُه سُبحانَه مُتَّصِفًا بالإرادة .

أمَّا ما ذهب إليه أرِسْطُو إلى أن الإرادة اختيار بين أمْرَيْن ، وأن اللَّهَ لا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، لأنه اجتمع عنده الأصلح ، فنقول إن عبارة " غير صالح " تكون نِسْبية حين يستخدمها الإنسان، فقد يَظُنُّ المَرْءُ أنَّ أمرًا ما غَير صالح، لكنَّه في الحقيقة قد يكون صالحًا له ، لأنَّ عِلْم الإنسان مَحدود وقاصر. لذلك ، نقول: إنَّ هناك الصلاح والأصلح ، ومن الجائز في حَقِّ اللَّهِ فِعْلُ الصلاحِ والأصلح ، ولَيْسَ مِن الواجب [٩٧] . وَلَوْ كان واجبًا لَمَا وَقَعَتْ مِحْنَة دُنيا ولا أُخْرَى ، ولَمَا وَقَعَ تَكليفٌ بأمرٍ ولا نَهْي ، وهكذا تتساقط مزاعم أَرِسْطُو بالكُلِّية .

إن التجارب الأيديولوجية الجاهلية تُؤَثِّر على روابط المُحيط الاجتماعيِّ ، وأفعالِ الكائن البِدائي. لذلك فإنَّنا نَجْزِم أنَّ الفَوضوية التوراتية الإنجيلية ، قد أثَّرتْ على بعض مساحات التفكير داخل الجماعة في أرض الجزيرة العربية، لكن هذا التأثير كان مُختلِطًا بِغَبَشٍ واضح وضبابية لم تُجِب عن أسئلة الفرد ، ولم تُشبع رغباته وشهواته وميوله وتطلعاته . ومَا الأجزاءُ العَدَمِيَّةُ المُهَيْمِنَةُ إلا صورة طِبْق الأصل للمشروع الذهني والواقعي، ونتيجة نوعية لارتباك السُّلطة المحلية وعبثها المتواصل في جوف التحديات المستقبلية . وتعيينُ المواقع الجيوسياسية في أنوية المُحيط الأوَّلي نابع _ بالأساس _ من المصالح الشكلية النفعية المبنية على أرضية غير ثابتة، يتم تأطيرها ضمن الإرهاب اليهونصراني ، وقمعِ التوراة والإنجيل لكل فكر خَلَّاق مُبدِع. وقد استشرى القمع بصورة هستيرية في المحيطات الفلسفية الغارقة في التخلف والتبعية العمياء . وهذه التَّحليلاتُ الفكرية للمؤسَّسة الفوضوية القائمة على قتل المعنى وبناءِ نزيف الفكرة، لا تَعْدو عن كَونها إضاءةً في ليل بهيم لا يُعرَف أوَّلُه مِنْ آخِرِه ، ومحاولةً لتشخيص الحالات التي تُبرِز المأزقَ الوجودي في التجمع البشري الأوَّلي . والانتقالاتُ المضطربة في التأسيسات المعنوية هي نَص دِيني مُنحرف داخل أنساق التوراة والإنجيل.وهذا أدى إلى تَغَيُّرات وتَغْييرات في أشكال المعنى وأبنيةِ اللفظ المُسيَّس.

ومحاولةُ بناء النُّظَم الاجتماعية الاستبدادية كانت الباعثَ على تكريس مركز السُّلطة ومركزيةِ المَوروث المُتداعي ضِمْن قواعد عامة تَتَضَمَّن الفروع المتساقطة والأصول المتداعية . إننا أمام

---

٩٧ قالت الْمُعْتَزِلَةُ بوجوب الصلاح والأصلح على اللَّهِ تعالى ، وهذا سُوء أدب ، ويبدو أنهم قد أُصيبوا بلَوْثة الفلسفة ، خصوصًا فلسفة أَرِسْطُو .

حالة عقيمة من التوترات النَّفْسِيَّة المُتَوَلِّدَة من عُقْم النَّصِّ الدينيِّ عند أهل الكتاب . والعُقْمُ النَّصِّيُّ المُتَوَارَث في اليَهُونَصْرَانِيَّة هو المُحَرِّك الأساسي للفكر الهَدَّام في بُنية النُّظَم الاجتماعية. وبما أن التوراة والإنجيل نِتاج بَشَري مُؤَدْلَج ، كان من الطبيعي أن تستند النصوص الدينية إلى الإسهامات البشرية ، والأساطيرِ التاريخية ، والطقوسِ الخيالية . ولأنَّ أهل الكتاب كانوا على صلة وثيقة بالحياة الجاهلية، وَجَدْنا أن دَوْرَهم كان يتعاظم شيئًا فشيئًا، ليس بسبب جَودة البضاعة ، وإنما بسبب نشاط المُتاجرين بالنَّصِّ الدينيِّ الوهميِّ ، والمُؤسَّسِ على قاعدة الخُرافة ، والمُسْتَنِدِ إلى خلفية الوهم العابث ذي التشظيات الفلسفية المُغرِقة في العدم .

وأديانُ العرب في الجاهلية كانت مختلفةً . وهذا الاختلاف يعتمد على إفرازات البيئة الاجتماعية ، فالإنسانُ ابنُ بيئته . وأيضًا، يعتمد الاختلافُ الدِّينيُّ على الاستعداد النَّفْسي والعقلي لأفراد القبائل . وبالتأكيد ، إن كُلَّ قبيلة كانت تُشكِّل وَحدةً مجتمعيةً خاصة من حيث العقائد الدينية ، والمَوروث الثقافي ، والقُدرات المادية ، والتاريخ ، والخصائص الاجتماعية .

وقال الأبشيهي في المُسْتَطْرَف (٢/ ١٧٤) : ((كانت النصرانيةُ في رَبيعة وغَسَّان وبعض قُضاعة . وكانت اليهوديةُ في نُمَيْر وبني كِنانة وبني الحَرْث بن كَعْب وكِنْدة . وكانت المجوسيةُ في بني تميم ... . ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيًّا . وكانت الزَّندقةُ في قُرَيْش ، أخذوها من الجزيرة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء : ١٥٦] .

لَمْ يَكْتَفِ اليَهُودُ بالكُفْرِ بالسَّيِّدِ المَسِيحِ ﷺ [٩٨] ، بَلْ أيضًا طَعَنُوا في أُمِّهِ حَيث رَمَوْها بالزِّنا بدافع الهَوى والحقد والاعتداء على الشريعة ، دُون أن يُقَدِّموا دليلًا على قَوْلِهم، فَهُم يَنظرون إلى النبيِّ عِيسى ﷺ على أنَّه ابن زِنا ، وأنَّ أُمَّه مَرْيَم زانية . وهذا هو منهج اليهود المُعادي للحَقِّ في كُلِّ أطوار وُجودِهم ، فَهُم يُصْدِرُون أحكامًا دُون أدلة ، ثُمَّ يُرَوِّجُونها بين الناس مُستخدمين وسائلَ قُوَّتِهم ، وسَطْوَةَ إعلامِهم، وأموالَهم . واليَهُودُ مَعروفون بالخُبْثِ والمَكْرِ والدَّهَاءِ ، ويَستخدمون ذَكَاءَهم في حِيَاكَةِ المُؤامراتِ ، وتَنفيذِ المُخَطَّطَاتِ ، مِنْ أجْلِ نَشْرِ باطِلِهم ، وتَلميعِ صُورتهم ، وتَشويهِ صُورةِ أعدائهم ، وإلغاءِ تاريخِ الآخَرِين وحَضَارَتِهم .

---

٩٨ ((سُمي مَسِيحًا لأنَّ جِبريل ــ عليه السلام ــ مَسَحَه بالبَرَكَةِ فَهُوَ مَمْسُوح ، أوْ لأنَّه كان يَمْسَحُ المريضَ والأَكْمَهَ والأبْرَصَ فَيَبْرَأ ، فَسُمِّيَ مَسِيحًا بمعنى الماسح)) [تفسير النَّسَفي (١ / ٢٦٠)] .

لقد اتَّهَمُوا السَّيِّدَةَ الطاهرة مَرْيَمَ ـ عليها السلام ـ بالزِّنا بدون دليل ولا بُرهان .

وقال الشَّوْكاني في فتح القدير (١/ ٨٠٦) : ((هو رَمْيُها بِيُوسُف النَّجَّار ، وكان مِن الصالحين . والبُهْتَان : الكَذِبُ المُفْرِطُ الذي يُتَعَجَّب مِنْه)) .

هَذا البُهتانُ الذي ألصقوه بها، يُشير إلى النَّفْسِيَّةِ الخبيثة لليهود الذين يَعتمدون على تَرويجِ الإشاعاتِ المُغْرِضَةِ بهدف القَضَاءِ على الآخَرِين، وتَفْتِيتِ أوصالِ المُجتمع ، وتَشكيكِ الناس بدِينهم وأنبيائهم وأوليائهم وتاريخهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رَمَوْها بالزِّنا ، وكذلك قال السُّدي وجُبَيْر ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رَمَوْها وابْنَها بالعظائم ، وجعلوها زانية ، وقد حَمَلَتْ بولدها من ذلك ، زادَ بعضُهم وهي حائض ، فعليهم لعائنُ اللَّهِ المُتَتَابِعَة إلى يوم القيامة)) .

إنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى مُتَطَرِّفون في نَظرتهم إلى المسيح ﷺ . فاليَهُودُ أنزَلُوه عن رُتبة النُّبُوَّةِ ، وجَعَلوه ابْنَ زِنا ، والنَّصَارى رَفَعُوه فَوْقَ رُتبة النُّبُوَّةِ ، وجَعَلوه إلَهًا ، وكِلا الأمْرَيْن تَطَرُّفٌ وغُلُوٌّ مِن جِهَتَيْن مُتَعَاكِسَتَيْن . وَوَحْدَهم المُسْلِمُون هُمُ الذينَ اختاروا الطريقَ الحَقَّ والمَنْهَجَ الوَسَطِيَّ ، فَهُمْ يَعتقدون أنَّ المَسِيحَ عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه ، وكَلِمَتُه أَلْقَاهَا إلى مَرْيَم ، ورُوحٌ مِنْه [٩٩] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَولِهِم إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم وَإنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنهُ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ [النِّسَاء] .

---

٩٩ [عن عليٍّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عنه ـ قال: قال لِيَ النبيُّ ﷺ : ((فِيكَ مَثَلٌ مِنْ عِيسَى أَبْغَضَتْهُ اليهودُ حتى بَهَتُوا أُمَّه ، وأَحَبَّتْهُ النَّصَارى حتى أنزَلُوه بالمنْزِلةِ التي لَيْسَ بِه)) ، ثُمَّ قال : يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلان : مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يُقَرِّظُني بما لَيْسَ فِيَّ،ومُبْغِضٌ يَحْمِلُهُ شَنَآني ـ بُغْضِي ـعلى أنْ يَبْهَتَني].رواه أحمد في مُسْنَدِه (١/١٦٠) ، والحاكم في المستدرَك (٣/ ١٣٢) وصَحَّحَه . اهـ . هذا الحديث لا يَصِحُّ ، في سنده الْحَكَم بن عبد الْمَلِكِ ، ضَعَّفه الذهبي في تعليقه على المستدرك (٢/ ٥٤٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٦١) : ((متروك الحديث)) ، وقال ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ١٧٥):((ضعيف)) ، وقال ابن الجوزي في العِلَلِ الْمُتَنَاهِية (١ / ٢٢٧) : ((قال يحيى بن مَعِين : الْحَكَم بن عبد الْمَلِكِ لَيس بِثِقة ، وَلَيْسَ بشيء . وقال أبو داود : مُنكَر الحديث)) .

زَعَمَ اليَهُودُ أنَّهُم قَتَلُوا المَسِيحَ عِيسى بن مريم رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ قالوا ذلك على سَبيلِ التَّهَكُّمِ والسُّخْريةِ والاستهزاءِ ، أوْ قَدْ تَكُون العِزَّةُ بالإثمِ قَدْ أخَذَتْهُم ، فافتخروا بالقتلِ وارتكابِ الجريمة _ وَفْقَ اعتقادهم _ ، فَهُمْ لا يُؤْمِنُون برسالة عِيسى ﷺ ، ويَعتقدون أنَّه ابنُ زِنا ، وأُمَّه زانية .

وَقَدْ نَجَّى اللَّهُ المَسِيحَ ﷺ مِنَ القَتْلِ والصَّلْبِ ، غَيْر أنَّهُم صَلَبُوا شَبِيهَه.وأهلُ الكتاب غارقون في الرِّيبة والشُّكوكِ ، وَهُم يَفتقدون إلى الأحكامِ القاطعةِ والبَرَاهينِ الساطعة ، لذلك تتلاعب بهم الأهواءُ والتناقضاتُ والظُّنون والشُّكُوك والشُّبُهَات . وكما يُقَال : لا يَذهَب بَعِيدًا مَنْ لا يَعْرِف إلى أيْنَ هُوَ ذاهب ، وهَذا المَنْطِقُ يَكشِف طَبيعةَ المَتاهةِ التي يَضِيع فيها أهلُ الكِتَابِ ، خُصُوصًا النَّصَارى ، الذين افترقوا إلى طوائف مُتقاتِلة ، وأحزاب مُتناحِرة ، وفِرَق مُتباغِضة، وكُلُّ طَائفةٍ تُكَفِّر الطائفةَ الأُخْرَى ، وكُلُّ فِرْقَةٍ تَحْرِم الطائفةَ الأُخْرَى مِنَ الخَلاصِ وَدُخولِ الجَنَّةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٧) : ((فإن المسيح _عليه السلام_ لَمَّا رَفَعَه اللَّهُ إلى السماء تَفَرَّقَتْ أصحابُه شِيَعًا بَعْدَه، فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بما بَعَثَه اللَّهُ بِه عَلى أنَّه عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُه وابنُ أَمَتِه ، ومِنْهُم مَنْ غَلا فيه فجعله ابنَ اللَّهِ ، وآخرون قالوا : هو اللَّه ، وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى اللَّهُ مَقالاتهم في القُرآن، وَرَدَّ على كُلِّ فريق، فاستمروا على ذلك قريبًا مِنْ ثلاثمائة سَنَة ، ثم نَبَغَ لهم مَلِكٌ مِنْ مُلوك اليونان يقال له قُسْطَنْطِين فَدَخَلَ في دِينِ النَّصْرانية، قِيل: حِيلة، لِيُفْسِدَه، فإنَّه كان فيلسوفًا. وقيل : جَهْلًا مِنْه ، إلا أنه بَدَّلَ لهم دِينَ المسيحِ ، وحَرَّفَه، وزادَ فيه ، ونَقَصَ مِنْه ، وَوُضِعَتْ له القوانين والأمانة الكُبرى التي هي الخِيانة الحقيرة، وأَحَلَّ في زمانه لَحْمَ الخِنزير ، وصَلُّوا له إلى المشرق ، وصَوَّرُوا له الكنائسَ والمعابدَ والصَّوامعَ ، وزادَ في صِيَامِهِم عَشَرَةَ أيَّام مِنْ أجْلِ ذَنْبٍ ارتكبه _ فِيما يَزْعُمُون _ ، وصارَ دِينُ المسيحِ دِينَ قُسْطَنْطِين ، إلا أنَّه بنى لهم مِن الكنائسِ والمعابدِ والصَّوامعِ والدِّيَارات مَا يَزيد على اثنَي عَشَر ألف مَعْبَد ، وَبَنَى المدينةَ المنسوبةَ إليه ، وَاتَّبَعَه الطائفةُ المَلْكِيَّةُ مِنهُم ، وَهُمْ في هذا كُلِّه قاهرون لليَهُودِ ، أيَّدَهم اللَّهُ عليهم ، لأنهم أقرب إلى الحقِّ مِنهُم ، وإنْ كانَ الجميعُ كُفَّارًا)) .

وَقَدْ أحْسَنَ القائلُ:

عَجَبًا للمَسيحِ بَيْنَ النَّصَارى ... وإلى أيِّ وَالِدٍ نَسَبُوه !
أسْلَمُوهُ إلى اليَهُودِ وقالوا ... إنَّهُم بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوه
فَإذَا كانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا ... وَصَحِيحًا فَأيْنَ كانَ أَبُوه ؟
حِينَ خَلَّى ابْنَه رَهِينَ الأعادي ... أَتُرَاهُمْ أَرْضَوْهُ أَمْ أَغْضَبُوه ؟

فَلَئِنْ كانَ رَاضِيًا بِأذَاهُم فَاحْمَدُوهُم لأنَّهُم عَذَّبُوه
وَلَئِنْ كانَ سَاخِطًا فَاتركُوه وَاعْبُدُوهُم لأنَّهُم غَلَبُوه
وَصَدَقَ القائلُ : إذا صُلِبَ الإلَهُ بفِعْلِ عَبْدٍ يَهُودِيٍّ فَمَا هَذا الإلَهُ ؟ .

﴿ وَقَولِهِم إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ . قالَ اليَهُودُ إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسى بن مَرْيَم ، الذي يَزْعُم أنَّه رسولُ اللَّهِ ، وهذا استهزاء وسُخْرية وتَهَكُّم ، فاليَهُودُ لا يَعترفون بِنُبُوَّةِ المسيح ولا رسالته ، ولا يَعتقدون أنَّ المَسِيحَ رسولُ اللَّه ، وإنَّما يَعتبرونه ابنَ زِنا ، وأُمَّه مَرْيَم زانية . وهذا يدلُّ على وقاحتهم وعِنادهم وغُرورهم واستكبارهم وسَعادتهم بِقَتْلِ النَّبِيِّ عِيسى ، وفَرَحِهم بذلك ، وافتخارِهم بِه ، وهَذا مُنْتَهَى الكُفْرِ والضَّلالِ . وهؤلاء مُعترفون بالذَّنْبِ ، ومُقِرُّون بالإثم ، وهُم يَتَحَمَّلون مَسؤوليةَ الذَّنْبِ ، لأنَّهُم اعتقدوا أنَّهُم قَتَلُوا المَسِيحَ ، معَ أنَّهُم لَمْ يَقْتُلُوا المَسِيحَ حقيقةً . وَنِيَّتُهم الفاسدةُ قادتهم إلى الهَلاكِ والعَذابِ الأبديِّ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٨٠٦) : ((وهو مِن جُملة جِناياتهم وذُنوبهم ، لأنهم كَذَبُوا بأنهم قَتَلوه ، وافتخروا بقتله ، وذَكَروه بالرسالة استهزاءً ، لأنهم يُنكرونها ، ولا يعترفون بأنه نبيٌّ ، وما ادَّعَوْهُ مِن أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صِفته وإيضاح حقيقته الإنجيلُ ، وما فيه هو مِن تَحريفِ النَّصَارى ، أبْعَدَهُمُ اللَّهُ فَقَدْ كَذَبُوا)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٤): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ وَقَولِهِم إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ ﴾. قال الزَّجَّاج : أي باعترافهم بِقَتْلِهِم إيَّاه ، وَمَا قَتَلُوه . يُعَذَّبون عَذاب مَنْ قَتَلَ لأنَّهُم قَتَلُوا الذي قَتَلُوا على أنَّه نَبِيٌّ . وفي قَوْلِه : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه مِنْ قَوْلِ اليَهُودِ ، فَيَكُون المَعنى أنَّه رسولُ اللَّهِ عَلى زَعْمِه ، والثاني أنَّه مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ، لا على وجه الحِكاية عَنهُم)) .

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم ﴾ . وَمَا قَتَلُوا عِيسى ، ومَا صَلَبُوه ، ولكنَّهم قَتَلُوا وَصَلَبُوا شَبيهَ عِيسى ، واعتقدوا أنَّه عِيسى ، وَقَدْ ألقى اللَّهُ شَبَهَ عِيسى عَلى غَيْرِه ، لِيُنَجِّيَ عِيسى .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٠٦) : ((وذلك أنَّ اللَّهَ تعالى ألْقَى شَبَهَ عِيسى عليه السلام على الذي دَلَّ اليَهُودَ عَلَيْه . وقِيل : إنَّهُم حَبَسُوا عِيسى عَلَيْه السَّلام في بَيْتٍ، وَجَعَلُوا عَلَيْه رَقِيبًا، فألقى اللَّهُ تعالى شَبَهَ عِيسى عليه السلام على الرَّقيب ، فَقَتَلُوه . وقِيل غَير ذلك)) .

وَمَا يُثْبِت سُهولة وجود شبيه للمسيح ، وإلقاء شَبَه المسيح على غَيْره ، القصة التي وردت في [مَتَّى ١٧ : ١ــ ٨] : ((وبعد سِتَّة أيام ، أخذَ يَسوعُ بُطرُسَ ويعقوبَ ويُوحَنَّا أخاه ، وصَعِدَ بهم على انفراد إلى جبل عال ، وتجلَّى أمامهم ، فَشَعَّ وجهُه كالشمس ، وصارت ثيابُه بيضاءَ كالنُّور .

وإذا مُوسى وإيليَّا قد ظهرا لهم يتحدَّثان معه.فبدأ بُطرسُ يقول ليَسوع : ((يا رَب ، ما أحسنَ أن نبقى هُنا ! فإذا شِئتَ ، أنصُبُ هنا ثلاث خِيام: واحدةً لك ، وواحدة لموسى ، وواحدة لإيليَّا)). وبينما كان يتكلم ، إذا سحابةٌ مُنيرة قد خَيَّمَتْ عليهم ، وصَوتٌ مِنَ السَّحابة يَهتِف : ((هذا هو ابني الحبيبُ الذي سُرِرْتُ به كُلَّ سُرور ، له اسمعوا !)) فلمَّا سَمِعَ التلاميذُ الصَّوت ، وقعوا على وجوههم مُرتعبين جِدًّا . فاقتربَ منهم يَسوعُ ولَمَسَهُم وقال : ((انهَضُوا ولا ترتعبوا !)) فرفعوا أنظارَهم ، فلم يَرَوْا إلا يَسوعَ وَحْدَه)) .

وقال عَبْدُ الوَهَّابِ النَّجَّار في قَصَصِ الأنبياء (ص ٥٠٨) : ((وَقَدْ ذَكَرَ هذه الحادثةَ أو المُعْجِزَةَ كُلٌّ مِنْ مَرْقُس ولُوقَا ، وأغْفَلَهَا يُوحَنَّا ، وَمِنَ العَجَبِ أنَّه كان أحدَ شُهودها . ومعَ مَا بَينهم مِن التناقض في عدد الأيام ، فقد اتفقوا على حصولها في الجُملة . ... . وما كان من الأمر ، فقد عهد تَغَيُّر هيئة المسيح تَغَيُّرًا كُلِّيًّا في وجهه وثيابه ، وهذا التَّغيُّر الذي يُقِرُّون به ، يُفَسِّر لنا بأجلى بيان إلقاء شَبَهِه على غَيْرِه ، وتَغَيُّر هَيئته ، حتى إنَّ الذين أتَوْا للقبض عليه ، أخذوا مَنْ أُلْقِيَ عليه شَبَه المسيح ، فَوَقَعَ في الوَرْطَة ، وَنَجَا عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيه)) .

﴿ وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنهُ ﴾ . وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في شَأنِ عِيسى لَفِي شَكٍّ مِنْ قَتْلِه . لقد غَرِقَ اليَهُودُ الذين زَعَمُوا قَتْلَ عِيسى وجُهَّالُ النَّصَارى الذي ساهموا في تَسْليم عِيسى إلى أعدائه اليهود ، في الشَّكِّ والحَيْرَةِ والارتياب، وَلَمْ يَصِلُوا إلى اليقين ، وَلَمْ يَشْعُروا بالطُّمَأنينة ، وَلَمْ يَقْدِرُوا على حَسْمِ الأمر بشكل واضح وقاطع.حيث قالتْ طائفة : إنَّه عِيسى ، وقالتْ طائفة : لَيْسَ عِيسى. وأيضًا ، إنَّ الإنجيلَ أثبَتَ الشَّكَّ. فَفِي[مَرْقُس ١٤ : ٢٧] قال المَسِيحُ لتلاميذه : ((كُلُّكم سَتَشُكُّون ، لأنَّه قَدْ كُتِبَ : سَأضْرِبُ الراعي ، فَتَتَشَتَّتُ الخِرَاف)) .

وقال القُرْطُبي في تفسيره (٦ / ١١) : ((والإخبار ، قِيل : إنَّه عن جميعهم ، وقيل : إنَّه لَمْ يَختلف له إلا عَوَامُّهم. ومعنى اختلافهم قول بعضهم : إنَّه إلَهٌ ، وبعضهم هو ابن اللَّه.قاله الحسن: وقيل: اختلافُهم أنَّ عَوَامَّهم قالوا : قَتَلْنا عِيسى،وقالَ مَنْ عَايَنَ رَفْعَه إلى السَّمَاء: مَا قَتَلْناه.وقيل : اختلافهم أنَّ النُّسْطُورِيَّة مِنَ النَّصَارى قالوا : صُلِبَ عِيسى مِنْ جِهة ناسوته لا مِنْ جِهة لاهوته . وقالت المَلْكَانِيَّةُ : وَقَعَ الصَّلْبُ والقَتْلُ على المَسيحِ بكمالِه ناسوتِه ولاهوتِه . وقِيل : اختلافُهم هو أنَّهُم قالوا : إنْ كانَ هذا صاحبَنا فأينَ عِيسى؟ وإنْ كانَ هذا عِيسى فأينَ صاحبُنا ؟.وقِيل: اختلافُهم هُوَ أنَّ اليَهُود قالوا: نَحْنُ قَتَلْنَاه، لأنَّ يَهُوذا رأس اليهود، وهو الذي سَعَى في قَتْلِه . وقالتْ طائفةٌ مِنَ النَّصَارى : بَلْ قَتَلْنَاه نَحْنُ ، وقالت طائفة مِنهم : بَلْ رَفَعَه اللَّهُ إلى السَّماء ونحن ننظر إليه)).

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٥ و٢٤٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ في المُخْتَلِفِين قَولان : أحدهما أنَّهُم اليهود، فعلى هذا في هاء ﴿ فِيهِ ﴾ قَولان : أحدهما: أنها كِناية عن قَتْلِه ، فاختلفوا هَلْ قتلوه أَمْ لا . وفي سبب اختلافهم في ذلك قَولان : أحدهما : أنَّهُم لمَّا قَتَلُوا الشخصَ المُشَبَّه كان الشَّبَه قد أُلْقِيَ على وجهه دون جسده ، فقالوا : الوجه وجه عِيسى ، والجسد جسد غَيْرِه، ذَكَرَه ابن السائب . والثاني أنهم قالوا : إنْ كان هذا عِيسى ، فأينَ صاحبُنا ؟ ، وإنْ كان هذا صاحبَنا ، فأينَ عِيسى ؟ . يَعْنُون الذي دَخَلَ في طلبه ، هذا قَوْل السُّدي . والثاني أنَّ الهاء كِناية عن عِيسى واختلافهم فيه . قول بعضهم:هو ولد زنى . وقال بعضهم: هو ساحر . والثاني أن المُخْتَلِفِين النصارى، فعلى هذا في هاء ﴿ فِيهِ ﴾ قَولان : أحدهما: أنها ترجع إلى قَتْلِه ، هَلْ قُتِلَ أَمْ لا؟. والثاني أنها ترجع إليه ، هل هو إلَهٌ أَمْ لا ؟ . وفي هاء ﴿ مِنهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى قَتْلِه. والثاني إلى نَفْسِه هل هو إلَهٌ ، أمْ لِغَيْرِ رِشْدة (يعني ابن زنا) ، أمْ هو ساحر ؟)) .

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ . لَيْسَ لَهُم بقتل عِيسى عِلْم حقيقي،ولا إدراك صحيح، ولا يَملِكون يقينًا، ولكنَّهم يَتَّبِعُون الظَّنَّ الذي تَخَيَّلوه ، والوَهْمَ الذي تَصَوَّروه ، حَيْث إنَّهم قَتَلُوا شَبِيهَ عِيسى ، ظنًّا مِنهُم أنَّه عِيسى . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧٦) : ((﴿ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ استثناء مُنقطع . أي : لكنَّهم يَتَّبِعُون الظَّنَّ . ويَجُوز أنْ يُفَسَّر الشَّك بالجهل ، والعِلْم بالاعتقاد الذي تَسْكُن إليه النَّفْسُ جَزْمًا كانَ أوْ غَيْرَه ، فَيَتَّصِل الاستثناء)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ٢٦٠) : ((﴿ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ استثناء مُنقطع ، لأنَّ اتِّبَاع الظَّنِّ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ العِلْمِ. يَعْني : ولكنَّهم يَتَّبِعُون الظَّنَّ. وإنَّما وُصِفُوا بالشَّك، وهو أن لا يَتَرَجَّح أحَدُ الجَانِبَيْن ، ثُمَّ وُصِفُوا بالظَّنِّ وهو أنْ يَتَرَجَّحَ أحَدُهما ، لأنَّ المُراد أنَّهُم شَاكُّون مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، ولكنْ إنْ لاحتْ لَهُم أمَارَة فظنُّوا)) .

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ . وَمَا قَتَلُوه واثقين ومُتَيَقِّنين أنَّ الرَّجُلَ هُوَ عِيسى ، بَلْ شَاكِّين مُتَوَهِّمين. واليَهُودُ لَمْ يَقْتُلُوا عِيسى حَقًّا،وإنَّما قَتَلُوا شَبيهَه ، وَتَوَهَّموا أنَّه عِيسى، وَتَخَيَّلوا ذلك.وَقَدْ نَجَّى اللَّهُ عِيسى مِنهُم . والآيةُ تَنْفِي قَتْلَ عِيسى بِكُلِّ وُضوح .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٢٤٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ ، في الهاء ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها تَرْجِع إلى الظَّنِّ ، فَيَكُون المَعنى : وَمَا قَتَلُوا ظَنَّهُم يقينًا ، هذا قول ابن عباس. والثاني أنَّها تَرْجِع إلى العِلْمِ، أي: مَا قَتَلُوا العِلْمَ بِه يقينًا. تَقُول: قَتَلْتُهُ يَقِينًا، وَقَتَلْتُهُ عِلْمًا،

للرَّأيِ والحديث . هذا قَوْلُ الفَرَّاء وابن قُتَيْبَة . قال ابنُ قُتَيْبَة : وأصْلُ هَذا أنَّ القَتْلَ للشَّيْءِ يَكُون عَنْ قَهْرٍ واستعلاء وغَلَبَة . يَقُول : فَلَمْ يَكُنْ عِلْمُهم بقتل المَسيحِ عِلْمًا أُحِيطَ بِه ، إنَّما كانَ ظَنًّا . والثالث أنَّها تَرْجِع إلى عِيسى ، فَيَكُون المَعنى : وَمَا قَتَلُوا عِيسى حَقًّا ، هذا قَول الحسن . وقال ابنُ الأنباري : اليَقِينُ مُؤخَّر في المَعنى ، فالتقدير : وَمَا قَتَلُوه ، بَلْ رَفَعَه اللَّهُ إلَيْهِ يَقِينًا)) .

﴿ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيهِ ﴾ . لقد نَجَّى اللَّهُ عِيسى مِنْ شَرِّ اليَهُودِ ، وَرَفَعَه إلى السَّمَاءِ حَيًّا بِرُوحِه وَجَسَدِه ، وَلَمْ يَقْتُلُوه ، وَلَمْ يَصْلُبُوه . واللَّهُ مُنَزَّهٌ عَن المَكانِ ، ومُنَزَّهٌ عَن الحُلولِ في السَّمَاءِ ، فاللَّهُ أكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وقال الواحدي في الوجيز(ص ٣٠١) : ((﴿ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيهِ ﴾ أي : إلى المَوْضِعِ الذي لا يَجْرِي لأحَدٍ سِوَى اللَّهِ فِيه حُكْم ، وكانَ رَفْعُه إلى ذلك المَوْضِعِ رَفْعًا إلَيْه ، لأنَّه رُفِعَ عَنْ أنْ يَجْرِيَ عَلَيه حُكْمُ أحَدٍ مِنَ العِبَادِ)) .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ . وكانَ اللَّهُ عَزِيزًا في مُلْكِه، مُنْتَقِمًا مِنْ أعدائه ، لا يَغْلِبُه أحَدٌ ، حَكِيمًا في صُنْعِه وقَضَائِه وتَدْبيرِه النَّجَاةَ لِعِيسَى ﷺ. وقال البَغَوي في تفسيره(١/ ٣٠٧):((﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ مَنِيعًا بالنِّقْمَةِ مِنَ اليَهُودِ ﴿ حَكِيمًا ﴾ حَكَمَ باللعنةِ والغَضَبِ عَلَيْهِم ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِم ضيطوس بن إسبسيانوس الرُّومي ، فَقَتَلَ مِنْهُم مَقْتَلَةً عظيمة)) .

لَقَدْ كَذَبَ اليهودُ بأنهم قتلوا المسيحَ ﷺ ، وافتَخروا بِقَتْله ، وَوَصَفوه بأنَّه رسول اللَّه سُخريةً مِنه، واستهزاءً وتَهَكُّمًا به ، فَهُم لا يَعترفون برسالته ، ولا يؤمنون بِه . وهذه الكوارثُ مُجْتَمِعَةً تَدُلُّ على وَقاحةِ اليَهُودِ، وخُبْثِهم، وعِنَادِهم، وغُرورِهم ، واستكبارِهم ، وتَبَجُّحِهِم ، وافتخارِهم بالذُّنُوبِ والآثامِ والمَعَاصِي . والنَّصَارى اعتقدوا أنَّ المَسِيحَ صُلِبَ ، معَ أنَّهُم يُؤْمِنُون بأنَّه إلَهٌ ، وابنُ اللَّهِ ، وَقَدْ جَاءَ لِيُخَلِّصَهم مِنَ الذُّنُوبِ ، ويُطَهِّرَهم مِنَ الآثامِ ، وهذا يُظْهِر بُطْلانَ عَقائدِهم . جاءَ المَسِيحُ لِيُخَلِّصَهُم وَهُوَ لَمْ يَقْدِرْ عَلى تَخليصِ نَفْسِه ! ، وفاقدُ الشَّيْءِ لا يُعْطِيه .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ . هذا هُوَ الرَّدُّ الإلهيُّ على اليَهُودِ الذي زَعَمُوا أنَّهُم قَتَلُوا المسيحَ ، وأيضًا هذا هو الرَّدُّ الإلهيُّ على النَّصَارى الذينَ زَعَمُوا صَلْبَ المَسيحِ . لَقَدْ كَذَّبَ اللَّهُ اليَهُودَ والنَّصَارى مَعًا ، وأفْحَمَهُم ، وَفَضَحَ بَاطِلَهم ، وكَشَفَ خُرَافَاتِهِم ، وَقَدْ ألقَى اللَّهُ شَبَهَ المَسيحِ عَلى غَيْرِه فَصُلِبَ شَبِيهُ المَسيحِ ، وَلَمْ يُصْلَب المَسِيحُ ﷺ . وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا في شأن عِيسى ﷺ غارقون في التَّنَاقُضَاتِ والشُّكُوكِ والشُّبُهَاتِ ، وهُمْ لا يَمْلِكُون اليقينَ ، لذلك لا يَستطيعون أن يُرشِدوا الآخرين إلى الحَقِّ ، لأنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لا يُعْطِيه ، كما أنَّ كَلامَهم مَبْنِيٌّ على الظَّنِّ لا اليَقِينِ ، والظَّنُّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئًا ، والظَّنُّ أكْذَبُ الحَدِيثِ .

وعن أبي هُرَيرة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((إيَّاكُم وَالظَّنَّ ، فَإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَدِيثِ)) [١٠٠] .

حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الظَّنِّ ، وهو تُهمة تقع في القلب بلا دليل ، يعني سُوءَ الظن بالمُسلِمين ، والحديثَ بما لَم يُتَيَقَّنْ مِن الأخبار. وبيَّن ﷺ أنَّ الظَّنَّ أكذبُ في الحديث مِن غَيره ، لأنَّ الصِّدْق والكَذِب يُوصَف بهما القَول لا الظَّن ، أوْ : إنَّ الكَذِب يقع في الظَّن أكثر مِن وُقوعه في الكلام . وقِيل:المُراد بأكذب الحديث:حديثُ النَّفْس،لأنَّه يَكُون بإلقاء الشَّيطان في نَفْس الإنسان. وقِيل : إنَّ إثم هذا الكَذِب أزْيَد مِن إثم الحديث الكاذب، أوْ إنَّ المَظنونات يقع الكَذِب فيها أكثر مِن المَجزومات.ومعَ أنَّ تغليب سُوء الظَّن حرام، إلا أنَّ المؤمن يجب أن يَكُون كَيِّسًا فَطِنًا لا يَنخدع .

والشريعةُ الإسلاميَّة حَثَّتْ على الإصلاح بين المُسلِمين ، وتَوطيد الأُخُوَّة والاجتماع بَينهم ، ونَهَتْ عَن كُلِّ ما يَدعو إلى الفُرقة والتباغُض والعَدَاوة . ويَجِب الابتعاد عَنْ ظَنِّ السَّوْءِ ، وتَرتيبِ أحكامٍ بِدُون أدِلَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١١٨ و١١٩ و١٢٠) : ((قَوْلُه ﷺ : (إيَّاكُم والظَّن ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَدِيثِ) ، المُراد النَّهْي عن ظَنِّ السَّوْء . قال الخَطَّابي : هُوَ تحقيق الظن وتصديقه دون ما يَهْجِس في النَّفْس، فإن ذلك لا يُملَك.ومُراد الخَطَّابي أنَّ المُحرَّم مِن الظن ما يستمر صاحبه عليه ، ويستقر في قلبه ، دُون ما يَعْرِض في القَلْب ولا يستقر ، فإنَّ هذا لا يُكلَّف به ، كما سَبَقَ في حديث : " تَجَاوَزَ اللَّهُ تعالى عَمَّا تَحَدَّثَتْ بِهِ الأُمَّةُ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أوْ تَعْمَلْ " ، وسَبَقَ تأويلُه على الخواطر التي لا تستقر . ونقل القاضي عن سُفيان أنَّه قال : الظن الذي يَأثَم به هو ما ظَنَّه وتَكَلَّمَ به ، فإنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ لَمْ يَأثَم . قال : وقال بَعْضُهم : يُحْتَمَل أنَّ المُراد الحُكْم في الشَّرْع بِظَنٍّ مُجرَّد مِن غَير بناء على أصل ولا نظر واستدلال ، وهذا ضعيف أو باطل ، والصواب الأوَّل)) .

وفي عَون المَعبود (١٣ / ١٧٧) : ((لَيْسَ المُراد ترك العمل بالظن الذي تُناط به الأحكام غالبًا ، بَل المُراد ترك تحقيق الظن الذي يَضُرُّ بالمَظنون به (أكذب الحديث) أي : حديث النَّفْس ، لأنَّه يكون بإلقاء الشَّيطان في نَفْس الإنسان . ووصف الظن بالحديث مَجَاز فإنَّه ناشئ عنه)) .

---

١٠٠ متفق عليه.واللفظ للبخاري(٦/ ٢٤٧٤) برقم (٦٣٤٥).ومسلم(٤/ ١٩٨٥) برقم (٢٥٦٣).

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣ / ١٢٢ و١٢٣) : (((إيَّاكم والظَّن) أي : احذروا اتِّباعَ الظن،واحذروا سُوءَ الظن بِمَن لا يُسَاء الظن به مِن العُدول،والظن تُهمة تقع في القلب بلا دليل . قال الغَزَالي:وهو حرام كَسُوء القَول،لكن لستُ أعني به إلا عَقْد القلب،وحُكْمه على غَيره بالسُّوء ، أمَّا الخواطر وحديث النَّفْس ، فَعَفْو ، بَل الشَّك عَفْو أيضًا ، فالمَنْهِيُّ عنه أن تَظُنَّ ، والظَّنُّ عِبارة عَمَّا تَركَن إلَيه النَّفْس ، ويَمِيل إلَيه القلب ، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يَعْلَمها إلا عَلَّام الغُيوب ، فليسَ لك أن تعتقد في غَيرك سُوءًا ، إلا إذا انكشفَ لَكَ بِعِيَان لا يَحتمل التأويلَ ، فعند ذلك لا تَعتقد إلا ما عَلِمْتَه وشاهدتَه، فَمَا لَم تُشاهده ولَم تَسمعه، ثُمَّ وقع في قلبك، فإنَّما الشَّيطان يُلقيه إليك، فينبغي أن تُكذِّبه ، فإنَّه أفْسَق الفُسَّاق ، انتهى . وقال العارف زَرُّوق : إنَّما ينشأ الظن الخبيث عن القلب الخبيث ، لا في جانب الحق ، ولا في جانب الخَلْق ، كما قِيل :

إذا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وعادى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وأصبحَ في لَيْلٍ مِن الشَّكِّ مُظْلِمِ

(فإنَّ الظن) أقامَ المُظْهَر مَقَامَ المُضْمَر ، إذ القياس : فإنَّه ، لزيادة تمكُّن المُسْنَد إليه في ذِكْر السامع حَثًّا على الاجتناب (أكذب الحديث) أي حديث النَّفْس ، لأنه يكون بإلقاء الشَّيطان في نَفْس الإنسان ، واسْتُشْكِلَ تَسمية الظن حديثًا ، وأُجِيبَ بأن المُراد عدم مُطابقته الواقع قَوْلًا أو غَيْره ، أوْ ما يَنشأ عن الظن ، فوصف الظن به مَجَازًا . قال الغَزَالي: مِن مَكائد الشَّيطان سُوء الظن بالمسلمين ﴿ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثمٌ ﴾ ، ومَنْ حَكَمَ بشيء على غَيره بالظن بَعَثَه الشَّيطانُ على أن يَطُول فيه اللسان بالغِيبة ، فَيَهْلِك ، أوْ يُقَصِّر في القِيام بحُقوقه ، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ، ويَرى نَفْسَه خَيْرًا مِنه ، وكُلُّ ذلك مِن المُهْلِكَات ، ولذلك مَنَعَ الشَّرْعُ مِن التَّعَرُّض للتُّهَم . تنبيه : قال الراغب : الظن إصابة بِضَرْب مِن الأمَارة ، ولمَّا كانت الأمَارة مُترددة بين يقين وشَك ، فَيَقْرُب تَارَةً مِن طرف اليقين ، وتَارَةً مِن طرف الشَّك ، صار تفسير أهل اللغة مُبْهَمًا ، والظن متى كان عن أَمَارة قوية فإنَّه يُمدَح ، ومتى كان عن تخمين لَم يُعْتَمَدْ وذُمَّ به ، ﴿ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثمٌ ﴾)) .

وفي تُحفة الأحوذي (٦/ ١٠٥ و١٠٦) : ((قَوْلُه (إيَّاكُم والظَّن) أي : اتَّقُوا سُوءَ الظن بالمُسلِمين . قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كثيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ ، وهو ما يستقر عليه صاحبُه دُون ما يَخطُر بقلبه (إنَّ بعض الظن) وهو أن يَظُنَّ ويَتكلَّم (إثم) فلا تَجَسَّسُوا ، أوْ احْذَرُوا اتِّبَاعَ الظن في أمر الدِّين الذي مَبناه على اليقين . قال تعالى : ﴿ وما يَتَّبِعُ أكْثَرُهُمْ إلا ظَنًّا إنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا ﴾ ، قال القاضي : هو تحذير عن الظن فيما يجب فيه القَطْع ، أو

التَّحَدُّث به عند الاستغناء عنه ، أوْ عَمَّا يَظُن كَذِبَه . انتهى . أو : اجْتَنِبُوا الظَّنَّ في التحديث والإخبار ، ويُؤَيِّده قَوْلُه : " فَإِنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ " . ويُقَوِّيه حديث : " كَفَى بالمَرءِ كَذِبًا أن يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ " . والظاهر أنَّ المُراد التحذير عن الظن بِسُوء في المسلمين ، وفيما يجب فيه القطع مِن الاعتقاديات (فإنَّ الظن) أقامَ المُظْهَر مَقَامَ المُضْمَر حَثًّا على تَجَنُّبه (أكذبُ الحديثِ) أي حديث النَّفْس ، لأنَّه بإلقاء الشيطان في نَفْس الإنسان . قال في المَجْمَع : معنى كَوْن الظن أكذب الحديث معَ أنَّ الكَذِب خِلاف الواقع فلا يَقْبَل النَّقْصَ وضِدَّه ، أنَّ الظن أكثر كَذِبًا ، أوْ أنَّ إثم هذا الكَذِب أَزْيَد مِن إثم الحديث الكاذب ، أوْ أنَّ المَظنونات يقع الكَذِب فيها أكثر مِن المَجزومات . انتهى . قال الحافظ : وقد اسْتُشْكِلَتْ تسمية الظن حديثًا ، وأُجِيبَ بأن المُرَاد عدم مُطابقة الواقع ، سَوَاءٌ كان قَوْلًا أوْ فِعْلًا ، ويُحْتَمَل أن يكون المُراد ما يَنْشَأ عَن الظَّن ، فَوَصَفَ الظنَّ بِهِ مَجَازًا)) .

لَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى ﷺ إلى السَّمَاءِ حَيًّا بِرُوحِه وجَسَدِه،فَهُوَ الآنَ حَيٌّ في السَّمَاءِ،وأنقَذَه اللَّهُ مِنْ أعدائِه المُتَرَبِّصِين بِه ، وَسَوْفَ يَنْزِلُ في نِهَايَةِ الزَّمَانِ ، ويَحْكُم بالشريعةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّةِ ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، ويَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ ، ولا يَقْبَل إلا الإسلامَ .

عن أبي هُرَيرة_رَضِيَ اللَّهُ عنه_قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:((والذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أنْ يَنْزِلَ فِيكم ابنُ مَرْيَمَ،حَكَمًا عَدْلًا،فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ،ويَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ . ويَفِيضَ المَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أحَدٌ ، حتى تَكُونَ السَّجْدَةُ الواحدةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيها)) . ثُمَّ يَقُول أبو هُرَيرة: وَاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُم: ﴿ وإن مِن أهلِ الكتابِ إلا لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيامةِ يَكونُ عَلَيْهِم شَهيدًا ﴾[سَبَقَ تَخْرِيجُه وشَرْحُه] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النِّساء : ١٦٠] .

يُخبِر اللَّهُ تعالى عن اليهود الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم، وارتكبوا الذُّنُوبَ الجسيمة ، فَتَمَّ تحريمُ طَيِّبات كانتْ حلالًا لهم كَعُقوبة وإجراء رادع ، فَقَدْ حُرِموا الرزقَ الحلال بسبب غرقهم في المعاصي دون التفكير في التوبة والرجوع إلى اللَّه تعالى . وكانوا كُلَّمَا ارتكبوا معصيةً عُوقِبُوا بتحريم شَيْء مِمَّا أُحِلَّ لهم . فالذُّنُوبُ تُوصِد الأبوابَ أمام الإنسان ، وتَجْعَل حَياته محصورةً في زاوية ضَيِّقة خانقة ، لا مكان فيها للتحرر والانطلاق ، فَتَضِيق عليه الأرضُ بِما رَحُبَتْ ، ويَنكمش صَدْرُه بحيث يُصبح غير قادر على استيعابِ الخَيْرِ واحتضانِ المعروف .

وهذه هي بداية النهاية المشتملة على الانكسار الكُلِّي الذي يَضْرِب الفِكْرَ الإنسانيَّ ، فيجعل من المرء شبحًا لا وزن له ، وكائنًا مسخًا بلا هُوية ، لا يَعرف مسارَه، ولا يُدرِك مصيرَه . والمعاصي التي ارتكبها اليهودُ كانت سببًا في تحريم الطيبات التي كانت حلالًا لهم ، وذلك عقوبةً لهم على انحرافهم العَقائديِّ ، وسُوءِ أخلاقهم . وهذا يدلُّ على دَوْرِ الذُّنوب في تحريم الحلال ، وسلبِ التوفيق ، وتحطيم الحياة .

وفي الآية، تَمَّ تقديم الظُّلْم على التحريم ، لأن الظلم هو سبب التحريم ، وهو أصل المشكلة. و ﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾ للسَّببية ، والتنكير للتعظيم. أي : فبسبب ظُلْمٍ عظيمٍ ارتكبوه، حَرَّمْنا عليهم طَيِّباتٍ كانت حلالًا لهم ، وليس بسبب آخَر .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٧٧) : ((وهذا التحريم قد يكون قَدَرِيًّا ، بمعنى أنه تعالى قَيَّضَهم لأن تأوَّلوا في كتابهم ، وحرَّفوا ، وبدَّلوا أشياء كانت حلالًا لهم ، فحرَّموها على أنفسهم تشديدًا مِنهم على أنفسهم ، وتضييقًا وتَنَطُّعًا. ويُحتمَل أن يكون شَرْعِيًّا ، بمعنى أنه تعالى حرَّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك)) .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٣٦٢) : ((يَعْني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُه : فَحَرَّمْنَا على اليهود الذين نَقَضُوا مِيثاقَهم الذي وَاثَقوا رَبَّهُم، وكفروا بآيات اللَّهِ ، وقتلوا أنبياءهم ، وقالوا البُهتان على مريم ، وفعلوا ما وصفهم اللَّهُ في كتابه ، طَيِّبَاتٍ مِن المآكِل وغَيرها ، كانت لهم حلالًا ، عُقوبةً لهم بِظُلمهم الذي أخبرَ اللَّهُ عنه في كتابه)) .

﴿ وَبِصَدِّهِم عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ . وبمنعهم كثيرًا مِن الناس عن اعتناق الإسلام والدُّخول فيه. لقد ضَلُّوا في أنفسهم ، وأضَلُّوا غَيْرَهم ، وصَدُّوا أنفسَهم وغَيْرَهم عن اتِّباع الحق . وهذه عادة اليهود في كُلِّ زمان ومكان .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٣٦٢) : ((يَعْني : وَبِصَدِّهِم عِبادَ اللَّهِ عَن دِينه وسُبُلِه التي شَرَعَهَا لِعباده صَدًّا كثيرًا . وكان صَدُّهم عن سبيل اللَّهِ بِقَوْلِهم على اللَّهِ الباطلَ وادِّعائِهم أن ذلك عن اللَّهِ ، وتَبْديلِهم كتاب اللَّهِ ، وتَحريفِ مَعَانيه عن وُجوهه ، وكان من عظيم ذلك : جُحودهم نُبُوَّة نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وتَركهم بيان مَا قَدْ عَلِمُوا مِنْ أمْرِه لِمَنْ جَهِلَ أمْرَه من الناس)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٧٧) : ((أي: صَدُّوا الناسَ ، وصَدُّوا أنفُسَهم عن اتِّباع الحَقِّ ، وهذه سَجِيَّة لهم ، مُتَّصِفُون بها مِن قديم الدَّهْر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرُّسُل ، وقَتَلُوا خَلْقًا مِن الأنبياء ، وكذَّبوا عِيسَى ومُحَمَّدًا ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وسَلامُه عَلَيهما)) .

وَمِنْ أسوأ جرائم اليهودِ قِيَامُهُم بِدَسِّ السُّمِّ للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، مُحاولين وَأد الدَّعوة الإسلاميَّة، كَي يظل الناسُ في ظُلُمات الكُفر والجهل ، يَعْبُدُون أهواءهم وأصنامَهم ، ويَظَل العربُ أُلعوبة وأُضحوكة،واليهودُ والنصارى يَلعبون بهم . ويَبْقى أهلُ الكتاب يُحرِّفون كلامَ اللَّهِ دُون أن يَفْضحهم أحد، والمُشركون يَعْبُدون الأصنامَ ويأكلونها عِندما يَجُوعون ، أو يبيعونها عندما يُصيبهم الفقر . وقد كان عَرَبُ الجاهليَّة تائهين في ظُلُمات الكُفْرِ والجهل ، فأنقذهم اللَّهُ بِخَاتَمِ أنبيائه مُحَمَّدٍ ﷺ . ولكن اليهود حَسدوه ، وكرهوا ظُهور الحق على يَدَيه ، فأعلنوا الحربَ عليه ، وحاولوا إنهاء الدَّعوة المُحمَّدية الإسلاميَّة عن طريق اغتيال صاحبها ورافع لوائها النَّبِيِّ مُحَمَّدﷺ. ولكنَّهم فَشِلُوا وخابوا.

في صحيح البُخاري (٣/ ١١٥٦) عن أبي هُرَيْرَة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ للنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيها سُمٌّ ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((اجْمَعُوا إلَيَّ مَنْ كانَ هَاهُنَا مِنْ يَهُود)) . فَجَمَعُوا له ، فقال : ((إنِّي سَائِلُكُم عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ ؟)) . فقالوا : نَعَمْ ، قالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : ((مَنْ أبُوكُم ؟)). قالوا: فُلان، فقال: ((كَذَبْتُمْ،بَلْ أبُوكم فُلان)). قالوا : صَدَقْتَ ، قال : ((فَهَلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَألْتُ عَنْهُ ؟)). فقالوا : نَعَمْ يا أبا القاسم ، وإنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ في أبِينَا ، فقال لهم : ((مَنْ أهْلُ النارِ ؟)). قالوا : نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيها ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((اخْسَؤُوا فِيها ، وَاللَّهِ لا نَخْلُفُكُم فِيها أبَدًا)) . ثُمَّ قال : ((هَلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَألْتُكُم عَنْهُ ؟)) ، فقالوا : نَعَمْ يا أبا القاسمِ ، قال : ((هَلْ جَعَلْتُمْ في هَذهِ الشَّاةِ سُمًّا ؟)) . قالوا : نَعَمْ ، قال : ((مَا حَمَلَكُم عَلى ذلك ؟)) ، قالوا : أرَدْنَا إنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتريحُ، وإنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ .

ظَلَّ اليَهُودُ يُنَاصِبُون النَّبِيَّ ﷺ العَدَاءَ مُنْذُ مَبْعَثِه وهِجْرَتِه إلى المَدينةِ المُنَوَّرَةِ،وَقَدْ حَاوَلُوا قَتْلَه ﷺ في المَدينةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ .

لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلى المُسْلِمِين خَيْبَرَ سَنَةَ ٧ هـ ، وكانتْ خَيْبَرُ قَريةً يَسْكُنُها اليَهُودُ ، تَبْعُد عَن المَدينة (١٥٣ كم) مِن جِهة الشَّمالِ على طَريقِ الشَّامِ ، وَقَدْ تَجَمَّعَ اليَهُودُ بِها ، فأرادَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُؤَمِّنَ المَدينةَ مِنْ شَرِّهِم ، ازدادَ حِقْدُهم على النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَهْدَتْ له امرأةٌ مِنْهُم ــ وَهِيَ زَيْنَب بِنْتُ الحارثِ ، امرأةُ سَلَام بنِ مِشْكَم، وكانَ أخُوها مَرْحَب قَدْ قُتِلَ في فَتْحِ خَيْبَر ــ شَاةً فيها سُمٌّ ، وكانتْ سَألَتْ : أيُّ عُضْوٍ مِنَ الشَّاةِ أحَبُّ إلَيْه ؟ ، قِيل لها : الذِّرَاع . فأكثرتْ فيها مِنَ السُّمِّ ، فلمَّا تَناولَ الذِّرَاعَ لاكَ مِنها مُضْغَةً في فَمِه ، وَلَمْ يَبْلَعْهَا . وفي روايةِ أبي داود مِن حَديثِ أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عنه أنَّ بِشْرَ بنَ البَرَاءِ رَضِي اللَّهُ عنه أكَلَ معَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تِلْك الشَّاةِ ، فَبَلَعَ لُقْمَتَه ،

فلمَّا عَلِمَ ﷺ بأمْرِ السُّمِّ أمَرَ أصحابَه بالإمساكِ عَن الأكْلِ . ثُمَّ أمَرَ ﷺ بِجَمْعِ مَنْ كانَ حَاضِرًا مِنَ اليَهُودِ ، وَهُمُ الذينَ يُشْتَبَه بِهِم في وَضْعِ السُّمِّ ، فقالَ لَهُم ﷺ : " إنِّي سَائِلُكُم عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ ؟ ".فقالوا : نَعَمْ . فَسَألَهُم عِدَّةَ أسئلة لِيَكْشِفَ كَذِبَهم بَعْد . قالَ لَهُمْ : " مَنْ أبُوكُم ؟" فقالوا : فُلان ، لِرَجُلٍ لَيْسَ أباهم في الحقيقةِ ، فقال لهم ﷺ : " كَذَبْتُمْ ، بَلْ أبُوكم فُلان " ، وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعقوب بن إبراهيم الخليل عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فقالوا : صَدَقْتَ . فقال : " فَهَلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَألْتُ عَنْهُ ؟ " ، فقالوا : نَعَمْ يا أبا القاسم ، وإنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ في أبِينَا، فقال لهم : " مَنْ أهْلُ النارِ ؟ " . قالوا : نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيها ، أي: يَدْخُلُ المُسْلِمُون النارَ بَعْدَ أنْ يَخْرُجَ مِنها اليَهُودُ،فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اخْسَؤُوا فِيها ، وَاللَّهِ لا نَخْلُفُكُم فِيها أبَدًا " . و (اخْسَأْ) كَلِمَةٌ تُقَال للزَّجْرِ ، والمَعنى : كُفُّوا عَن هذه الدَّعوى الكاذبةِ الباطلةِ ، فأنتُم أَوْلَى بالذُّلِّ والهَوانِ وعَذابِ النارِ ، وَبِئْسَ القَرَارُ ، وَلَنْ نَخْلُفَكُم أبدًا ، لأنَّكُم مُخَلَّدُون فيها أبدًا ، أمَّا عُصَاتُنا فإنَّ بَقَاءَهُم في النار مُؤقَّتٌ مَحدودٌ ، ولا يُخَلَّدُون فيها ، ثُمَّ قال : " هَلْ أنتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَألْتُكُم عَنْهُ ؟)) ، فقالوا : نَعَمْ يا أبا القاسمِ ، قال : " هَلْ جَعَلْتُمْ في هَذهِ الشَّاةِ سُمًّا ؟ ". قالوا : نَعَمْ. فَسَألَهُم عن سَبَبِ وَضْعِهِمُ السُّمَّ ، فقالوا: أرَدْنَا أنْ نَتأكَّد مِنْ نُبُوَّتِكَ ، فَإنْ كُنْتَ كاذبًا تَمُوتُ بذلك السُّمِّ ، فَنَستريحُ مِنْكَ وَمِمَّا تَدَّعِي ، وَإنْ كُنْتَ صادقًا في نُبُوَّتِكَ لا يَضُرُّكَ ذلك السُّمُّ ، ولا يُؤْذِيكَ ، لأنَّ اللَّهَ يَحْفظُكَ .

وفي الحَديثِ : إطْلاعُ اللَّهِ للنبيِّ ﷺ على بَعْضِ الأُمُورِ الغَيْبِيَّةِ . وفيه: بَيَانُ غَدْرِ اليَهُودِ وَسُوءِ مُعاملتهم للأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وفيه : مُعَانَدَةُ اليَهُودِ وَكَذِبُهم .

إن التصفية الجسدية عن طريق السُّم أسلوب يهودي شهير ، لأن دَس السُّم يستلزم معنى الخفاء والدهاء والمكر والتخطيط السِّري ، وهذه صفات راسخة في العقلية اليهودية ، ومُتماهية مع الحقد الأعمى، وكراهية ظهور الحق ، وحِياكة المؤامرات بعيدًا عن الأضواء والضَّجةِ الإعلامية.

واليهودُ ــ في كُلِّ مراحل وجودهم ــ يَعتمدون على سياسة الاغتيال والتصفية الجسدية ، وذلك من أجل إخفاء الحق ، وطَمْسِ الحقيقة . فَهُمْ يَفْتقدون إلى الأدلة المُقنِعة والحُجَج الدامغة، لذلك يَلْجَؤون إلى الحروب السِّرية والمؤامرات الخَفِيَّة . ويعتمد اليهودُ تاريخيًّا على مبدأ الاغتيال بالسُّم كطريقة فعَّالة وسِرِّية وبعيدة عن الأنظار والضجيج الإعلاميِّ . وهذه الطريقةُ المُستترة يتمُّ التخطيط لها في الخَفَاء ، وتُنفَّذ بصمت وهدوء دُون إثارة شُكوك أو شُبهات . لذلك يُفَضِّلها اليهودُ على غَيرها مِن طُرق القتل وأساليب الاغتيال .

لقد وَضَعَ اليهودُ في الشاة سُمًّا لعِلْمهم أنَّ النبيَّ ﷺ سَيُقْدِم على أكلها. وهكذا يتخلصون مِنْه ـ حَسَب رؤيتهم القاصرة ـ ، وتنتهي الدَّعوة المُحمَّدية الإسلاميَّة إلى الأبد، ويَغيب النُّورُ الإلهيُّ بلا رَجعة . وهكذا ، يسير اليهودُ على هواهم ، ويُحافظون على مصالحهم ومناصبهم ، ويَغرقون في ظُلمات الكفر والضلال والعِناد بلا نكير ولا مُعارَضة ، ويُضِلُّون الآخرين ، وَيَصُدُّونهم عَن الحق . والأمرُ الذي لَمْ يَخْطُرْ على بال اليهود هو أنَّ اللَّهَ أرسلَ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَتَكَفَّلَ برعايته وحمايته . وما كانَ اللَّهُ لِيَتْرُكَ مُحَمَّدًا ﷺ في هذه الحرب القَذِرة وحيدًا . لَقَدْ عَصَمَه اللَّهُ مِنَ الأذى ، وأعْلَمَه بوجود السُّمِّ . وقد اعترفَ اليهودُ عَلانِيَةً بِوَضْعِ السُّمِّ ، لكنَّهم قَدَّموا تَبْريرًا واهيًا لعملهم الدَّنِيء ، فقالوا : أرَدْنَا إنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتريحُ، وإنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ . وهذا مُنتهى الغُرور والتَّكَبُّر والاستعلاء والعُنْجُهِيَّة ، فقد كان بإمكانهم أن يَعتذروا ، أو يَعترفوا بخطئهم ، ويَطلبوا السَّماحَ والصَّفْحَ، لكنَّهم تَمَادَوْا في غَيِّهم ، وأصَرُّوا على باطلهم وعنادهم . والكُفرُ عِناد .

إنَّ اليهود كانوا مُتأكِّدين مِنْ صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأنَّه رسول اللَّه حَقًّا وصِدْقًا ، لذلك حاربوه بشتَّى الوسائل . وَلَوْ كان كاذبًا لَتركوه وشَأنَه . وكُلُّنا يَعْلم أن مُسَيْلمة الكذَّاب ادَّعى النُّبُوَّة، فلماذا لَمْ يُحاول اليهودُ اغتيالَه ليرتاحوا منه ويَتخلَّصوا مِن دَعْوته ؟ . إنَّ اليهود يُريدون طَمْسَ نُور الحق ، ولَيْسَ طَمْس ظُلُمات الباطل. إنَّهُم أعداء النُّور ، وعُشَّاق الظُّلُمات .

واللَّهُ يَعْصِم رَسُولَه مِن كُلِّ سُوء ، ويُطْلِعه على بَعض الغَيْبِيَّات في أوقات مُحدَّدة ، مِن أجل أن يَأخذ الحَيْطَةَ والحَذَر، ويَعْرِف حقيقةَ الناس الذين يتعامل معهم .

وَعَنْ أنَسٍ أنَّ امْرَأةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسمومة ، فَأَكَلَ مِنْهَا ، فَجِيءَ بِها إلى رسول اللَّهِ ﷺ ، فَسَألَهَا عَنْ ذلك ، فقالتْ : أَرَدْتُ لأقْتُلَكَ ، قال: ((مَا كانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ على ذاك ـ قال : أوْ قالَ : عَلَيَّ ـ)) ، قال: قالوا : ألا نَقْتُلُهَا ؟ ، قال : ((لا)) ، قال : فَمَا زِلْتُ أعْرِفُهَا في لَهَوَاتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ [١٠١] .

كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَدَّدُ إلى الناسِ ، فَيَقْبَل هَدِيَّةَ الفَقيرِ والغَنِيِّ عَلى حَدٍّ سَوَاءٍ، وَقَد اسْتَغَلَّ اليَهُودُ ذلك لِمَا عَرَفُوه مِن سَمَاحَتِه ﷺ ، فَحَاوَلُوا قَتْلَه بالسُّمِّ في الطَّعَامِ . وفي هذا الحَديثِ : أنَّ

---

١٠١ متفق عليه . واللفظ لمسلم (٤/ ١٧٢١) برقم (٢١٩٠).والبخاري(٢/ ٩٢٣)برقم (٢٤٧٤).
اسم المرأة اليهودية (زَينب بنت الحارث) أُخْت مَرْحَب اليهودي الذي قُتِلَ يوم خَيْبَر. وقِيل : قُتِلَ أيضًا أبوها الحارث ، وعَمُّها بشار ، وأخوها زُبَيْر ، وزَوْجها سَلَام بن مِشْكَم (أحد كِبار أحبار اليهود) .

امرأةً يهوديةً (زَيْنَب بِنْت الحارث)، وذلك بَعْدَ غَزْوَة خَيْبَر ، أَتَتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسمومة ، فَأَكَلَ مِنْهَا ، وَقَدْ أعدَّتْهَا وَوَضَعَتِ السُّمَّ في المَوْضِعِ الذي يُحِبُّه رسولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ لَحْمِ الشَّاةِ في الذِّرَاعِ ، فَأَكَلَ السُّمَّ ، فَدَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ عَاجِلَ شَرِّهَا ، فَجِيءَ بِها إلى رسول اللَّهِ ﷺ ، فَسَألَهَا عَنْ ذلك ، أي : عَن سَبَبِ وَضْعِهَا السُّمَّ ، فقالتْ : أَرَدْتُ لأقْتُلَكَ ، قال : " مَا كانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ على ذاك_أوْ عَلَيَّ _"،لأنَّ اللَّهَ تَكَفَّلَ بِحِفْظِه. فقالَ أصحابُ النَّبِيِّ ﷺ : ألا نَقْتُلُهَا ؟،قال: " لا "، هكذا وَقَعَ هُنا النَّهْيُ عن قَتْلِها ، وَقَدْ ثَبَتَ أنَّها قُتِلَتْ ، قَتَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ ، أوْ دَفَعَهَا إلى أولياء بِشْر ابن البَرَاء بَن مَعْرُور ، وكانَ أكَلَ مِنها فماتَ بها فَقَتَلُوهَا . وَوَجْهُ الجَمْعِ بَيْنَ هذه الرِّوايات : أنَّه لَمْ يَقْتُلْها أوَّلًا حِينَ اطَّلَعَ على سُمِّها، وقِيل له: ألا نَقْتُلُهَا ؟ ، قال : " لا " . فلمَّا ماتَ بِشْرُ بنُ البَرَاءِ مِنْ ذلك سَلَّمَهَا لأوليائه ، فَقَتَلُوهَا قِصَاصًا ، فَيَصِحُّ أنَّه لَمْ يَقْتُلْها في الحَالِ ، وَيَصِحُّ أنَّه قَتَلَهَا بَعْدَ ذلك . قال أنَس : فَمَا زِلْتُ أعْرِفُ أثَرَ هذه الأَكْلَةِ ، ومَا كانَ فيها مِنَ السُّمِّ في لَهَوَاتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ. واللَّهَوَاتُ : جَمْعُ لَهَاةٍ ، وهي اللَّحْمَةُ المُتَدَلِّيَةُ مِنَ الحَنَكِ الأعلى ، وقِيل : المُرادُ أنَّ أثَرَهَا كانَ يَظْهَر فيما يَبدو مِنَ فَمِهِ عِند التَّبَسُّمِ ، وقيل : المُرادُ أنَّ السُّمَّ قَدْ بَقِيَتْ عَلامَتُهُ كَسَوَادٍ أوْ غَيْرِه في مَوْضِعِ تِلْك اللَّحْمَةِ .

وفي الحَديثِ : بَيَانُ غَدْرِ اليَهُودِ وسُوءِ مُعاملتهم للأنبياءِ _ عليهم الصَّلاة والسَّلام _ . وفيه : بَيَانُ عِصْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ مِنَ الناسِ كُلِّهِم ، وهي مُعْجِزَةٌ للنبيِّ ﷺ في سَلامته مِنَ السُّمِّ المُهْلِكِ لِغَيْرِه . والنبيُّ ﷺ مَحفوظٌ بأمْرِ اللَّهِ من الناس، كما أنَّ هذه الحادثة تدلُّ على صِدْق نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإنَّ السُّمَّ القاتل لَمْ يُؤَثِّرْ فيه ، وَقَدْ أعْلَمَه اللَّهُ بوجود السُّمِّ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ١٧٩): ((فيه بيان عِصْمته ﷺ مِنَ الناس كُلِّهِم ، ... ، وهي مُعجِزة لرسول اللَّه ﷺ في سلامته مِن السُّمِّ المُهْلِك لغَيْره ، وفي إعلام اللَّهِ تعالى له بأنها مَسمومة)) .

إنَّ جُهود اليهود الحثيثة ومحاولاتهم المُتكررة لقتل النبيِّ ﷺ نابعة مِن الحِقْدِ الشديد على الدَّعوة الإسلاميَّة ، فَهُمْ يُحاولون خَنْقَها في مَهْدها لكنهم فَشِلُوا ، وَمَعَ هذا استمروا في حِيَاكة المُؤامرات بِكُلِّ نشاط ، مِمَّا يدلُّ على قَسوة قلوبهم وغرقهم في مُستنقع الجرائم والآثام . وركَّز اليهودُ جُهودَهم على قتل النبيِّ ﷺ لمعرفتهم أنَّه حاملُ لواء الإسلام ورأسُ المسلمين ، وإذا سَقَطَ الرَّأسُ سَقَطَ الجَسَدُ بالكامل . وهذا ما كانوا يطمحون إليه، لكنَّ اللَّهَ عَصَمَه مِنْ شَرِّهم . واختاروا الاغتيالَ بالسُّمِّ لِعِلْمِهِم أنَّها طريقة فَعَّالة وخَفِيَّة ، بعيدة عن الأنظار، ولا تُثير الانتباه ولا الشُّكوك .

واليهودُ مَعروفون بحِياكة المؤامرات خَلْف الأبواب المُغْلَقة ، عبر مراحل التاريخ المختلفة . وهُمْ يَعْملون في الخَفاء لاقتناعهم أنَّ الذي يعمل في السِّرِّ أقْدَر على إنجاز عمله بكفاءة ودُون تشويش ولا ضجيج ، لكنَّ كَيْدَهم رُدَّ في نُحُورهم، وفَشِلُوا في إنهاء الدَّعوة الإسلاميَّة .

وفي صحيح البُخاري (٤/ ١٦١١) : قالت عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عنها ـ : كانَ النبيُّ ﷺ يقول في مَرَضِه الذي مات فيه : ((يا عائشة ، مَا أزالُ أجِدُ ألَمَ الطعامِ الذي أكَلْتُ بِخَيْبَر ، فهذا أوانُ وَجَدْتُ انقطاعَ أبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ)) .

أخْبَرَ اللَّهُ في القُرْآنِ الكريمِ أخبارًا صَريحةً في أنَّ اليَهُودَ قَتَلُوا الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وحاوَلوا كذلك قَتْلَ النبيِّ عِيسَى ﷺ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لِمُحاولاتِ غَدْرِهم في المَدينةِ أكثرَ مِنْ مَرَّةٍ ، مِنها أنَّه دُعِيَ إلى طَعَام، فَقَدَّمَتْ له امرأةٌ يَهُودِيَّةٌ تُدْعَى زَيْنَب بِنْت الحارثِ شَاةً وَضَعَتْ فِيها سُمًّا ، فَنَجَّاه اللَّهُ مِنْ مَكْرِهم، وكانَ النبيُّ ﷺ قَدْ أكَلَ مِنها .

" مَا أزالُ أجِدُ ألَمَ الطعامِ الذي أكَلْتُ بِخَيْبَر " ، أي : مَا زِلْتُ أُحِسُّ الألَمَ في جَوْفي بسبب أكْلِي مِنْ تِلْك الشَّاةِ المَسمومةِ التي أكَلْتُهَا بِخَيْبَر ، وَخَيْبَرُ قَريةٌ كانتْ يَسْكُنها اليَهُودُ ، وكانتْ ذات حُصُونٍ ومَزارع، وتَبْعُد نَحْوَ ١٥٣ كم تقريبًا مِنَ المَدينةِ إلى جِهَةِ الشَّامِ . وَقَدْ غَزَاها النبيُّ ﷺ والمُسْلِمُون،وَفَتَحَهَا اللَّهُ لهم سَنَة ٧ هـ، وَقَد اختلفت الآثارُ في قَتْلِ النبيِّ ﷺ لِزَيْنَب بِنْت الحارثِ اليهوديَّةِ التي وَضَعَتْ له ﷺ السُّمَّ ، والحاصلُ : أنَّ النبيَّ ﷺ رَفَضَ قَتْلَها بِدايةً ، فلمَّا ماتَ الصَّحَابيُّ بِشْرُ بنُ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عنه مِن ذلك ، وكانَ قَدْ أكَلَ معَ النبيِّ ﷺ مِنَ الشَّاةِ، سَلَّمَهَا ﷺ لأوليائه ، فَقَتَلُوها قِصَاصًا . وَقَدْ نَجَّى اللَّهُ النبيَّ ﷺ مِنَ المَوْتِ لمَّا أكَلَ مِن هذه الشَّاةِ في وَقْتِه ، ثُمَّ ظَهَرَ عَلَيه أثَرُ السُّمِّ عِند اقترابِ أجَلِه ﷺ . " فهذا أوانُ وَجَدْتُ انقطاعَ أبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ " أي : هَذا وَقْتُ شَعَرْتُ فيه بِقُرْبِ انقطاعِ أبْهَرِي ، وهو العِرْقُ الذي يَصِلُ إلى القَلْبِ ، فإذا انقطعَ لَمْ يَكُنْ مَعَه حَيَاةٌ بسبب ذلك السُّمِّ ، وكان ذلك بَعْدَ مُدَّةٍ مِنْ أكْلِه مِنها تُقَارِب ثَلاثَ سِنين ، فَجَمَعَ اللَّهُ له بَيْنَ النُّبُوَّةِ ومَقَامِ الشَّهَادةِ، فماتَ نَبِيًّا شَهِيدًا ﷺ .

والتَّوفيقُ بَيْنَ هذا وَبَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تعالى : ﴿ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] أنَّه معصومٌ مِنَ القَتْلِ على وَجْهِ القَهْرِ والغَلَبَةِ، وأنَّه بَعْدَ هذه الأكْلَةِ مَكَثَ سِنين يُجَاهِدُ حتى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الفُتوحاتِ ، وآمَنَ أهْلُ الجَزيرةِ ، وَبَقِيَ أثَرُ السُّمِّ حتى أكْرَمَه اللَّهُ بالشَّهَادَةِ بسببه . وَقَدْ مَاتَ النبيُّ ﷺ في مَرَضِه هذا وَهُوَ ابنُ ثلاثٍ وسِتِّينَ سَنَةً ، وذلك في العامِ الحادي عَشَرَ مِن الهِجْرَةِ الشريفةِ في المَدينةِ المُنَوَّرَةِ .

وفي الحَديثِ : خُبْثُ اليَهُودِ وَشِدَّةُ عَدَاوتهم للمُسْلِمِين . وفيه : بَشَرِيَّةُ النبيِّ ﷺ ، وأنَّه يَعْتَريه مَا يَعْتري البَشَرَ مِنَ الضَّعْفِ ، والمَرَضِ ، والوَفَاةِ .

لَقَدْ كانَ النبيُّ ﷺ يَشْعُر بآثار السُّمِّ ، ويُعاني من ألم الطعام المَسموم الذي أكله بِخَيْبَر . وَمِنْ شِدَّةِ السُّمِّ كان النبيُّ ﷺ يَحُسُّ أنَّ أَبْهَرَه (الشِّرْيان الرئيسي الذي يَحْمِل الدَّمَ إلى القلب) سينقطع. وهذا الشِّريان إذا انقطع مات الإنسان بسبب عدم وصول الدم إلى القلب. وهذا الصبر يدل على رَبَاطة جأش النبيِّ ﷺ في الشدائد ، كما تدلُّ هذه المُعاناة على الحِقْدِ اليهوديِّ الأعمى ، فقد اختارت المَرأةُ اليهوديةُ المُجرِمة أشدَّ أنواع السُّموم فَتْكًا . وَقَد انْضَمَّ للنبيِّ ﷺ مَعَ النُّبُوَّة دَرَجَة الشَّهادة أيضًا . فهو نَبِيٌّ شهيد . وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٣٠٦) : ((وكانَ المُسْلِمُون يَرَوْنَ أنَّ رسول اللَّه ﷺ مات شهيدًا مَعَ مَا أكرمه اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ)) .

هذه المُؤامرةُ الدَّنيئة تَعْكِس حجمَ الانهيار في العقلية اليهودية المُجرِمة الظلامية الرافضة للنُّور، والتي تُحاول وَأْدَ الدَّعوة الإسلامية ، والقضاءَ على المسيرة النَّبَوِيَّة ، باستخدام كُلِّ الإمكانيات اليهودية المعنوية والمادية. ﴿ ويأبى اللَّهُ إلا أن يُتِمَّ نُورَه ﴾ [التَّوْبة : ٣٢] .

واليهودُ مَشهورون باستخدام وسائل الإرهاب والترهيب ، ومَعروفون بانتهاج أساليب التَّرويع والتَّخويف والتعذيب لحماية وُجودهم ونفوذهم ضِد أي تهديد مُحْتَمَل . واليهودُ لا يَمْلِكُون ثقافة الحِوار ، لذلك يعتمدون على العُنْفِ والإرهابِ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأخْذِهِمُ الرِّبا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأكْلِهِم أموالَ النَّاسِ بالباطِلِ وأعْتَدْنا للكافرينَ مِنهُم عَذابًا أليمًا ﴾ [النِّساء : ١٦١] .

اليَهُودُ مَشهورون بِتَعَاطي الرِّبا ، وقد حرَّمه اللَّهُ عليهم في التَّوراة ، فأخذوه ، واحتالوا عليه بأنواع مِن الحِيَل . وفي الآيةِ دليل على أن النَّهْي يُفيد التَّحريمَ . واليهودُ أيضًا يأكلون أموال الناس بالرِّشوة والوسائل المُحرَّمة غَير المَشروعة . وهذا يدلُّ على عِبادة اليهود للمال ، وتقديسهم لحُطام الدنيا الفاني ومَتَاعها الزائل . وهيَّأ اللَّهُ لِمَن كَفَرَ مِن هؤلاء اليهود، وَلَمْ يَتُبْ وَلَمْ يُؤمِنْ، عذابًا شديدًا مُوجِعًا في نار جَهَنَّم . وإنَّما قال اللَّهُ : ﴿ مِنهُم ﴾ لأنه عَلِمَ أن قَوْمًا مِن اليهود يَتُوبون ويؤمنون ، فَيَأمنون العذابَ ، ويَنْجُون مِنَ العُقوبة، وَمَنْ تابَ وآمنَ فقد نجا مِن العذاب .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٣٦٢) : ((وقَوْلُه : ﴿ وأخْذِهِمُ الرِّبا ﴾ وهو أخذهم ما أفضلوا على رؤوس أموالهم لفضل تأخير في الأجل بعد مَحَلِّها. ﴿ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ يعني : عن أخذ الرِّبا . وقَوله : ﴿ وأكْلِهِم أموالَ الناسِ بالباطلِ ﴾ يعني : ما كانوا يأخذون مِن الرُّشَى على

الحُكم كما وَصَفهم اللَّهُ به في قَوله : ﴿ وترى كثيرًا مِنهُم يُسارعونَ في الإثمِ والعُدوانِ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ [المائدة : ٦٢] . وكان مِن أكلهم أموال الناس بالباطل ما كانوا يأخذون مِن أثمان الكُتب التي كانوا يَكتبونها بأيديهم ثُمَّ يقولون : ﴿ هذا مِن عِندِ اللَّه ﴾ [البَقَرَة : ٧٩] . وما أشبه ذلك من المَآكِل الخسيسة الخبيثة ، فعاقبهم اللَّهُ على جميع ذلك ، بتحريمه ما حرَّم عليهم مِن الطَّيبات التي كانت لهم حلالًا قبل ذلك . وإنما وصفهم اللَّهُ بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموال الناس كذلك بالباطل ، لأنهم أكلوه بغير استحقاق ، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب . وقَوله : ﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ مِنهُم عذابًا أليمًا ﴾ . يعني : وجَعَلْنا للكافرين باللَّه ورسوله مُحمَّد ﷺ من هؤلاء اليهود العذابَ الأليم ، وهو المُوجع من عذاب جهنم عِنده ، يَصْلَوْنها في الآخرة إذا وَردوا على ربِّهم فيُعاقبهم بها)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (٦/ ١٤) : ((قال ابن العربي : لا خِلاف في مذهب مالك أنَّ الكُفَّار مُخَاطَبُون ، وقد بيَّن اللَّهُ في هذه الآية أنَّهم قد نُهُوا عن الرِّبا ، وأكلِ الأموال بالباطل ، فإنْ كان ذلك خَبَرًا عمَّا نَزَلَ على مُحمَّد في القُرآن ، وأنَّهم دخلوا في الخِطاب ، فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وإنْ كان خَبَرًا عمَّا أنزلَ اللَّهُ على مُوسى في التَّوراة ، وأنَّهم بدَّلوا وحرَّفوا وعَصَوْا وخَالَفُوا ، فهل يجوز لنا مُعاملتهم والقوم قد أفسدوا أموالهم في دِينهم أم لا ؟ ، فظنَّت طائفة أنَّ مُعاملتهم لا تَجُوز ، وذلك لِمَا في أموالهم مِن هذا الفساد ، والصحيح جَوَاز مُعاملتهم مع رِبَاهُم ، واقتحامِ ما حرَّم اللَّهُ سُبحانَه عليهم، فقد قام الدليل القاطع على ذلك قُرآنًا وسُنَّةً، قال اللَّهُ تعالى: ﴿ وطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُم ﴾ [المائدة: ٥]. وهذا نَص، وقد عاملَ النبيُّ ﷺ اليهودَ، ومات ودِرْعُه مَرهونة عند يهوديٍّ في شعير أخذه لِعِيَاله. والحاسمُ لداءِ الشَّك والخِلافِ اتِّفاقُ الأُمَّة على جَوَاز التِّجارة مع أهل الحرب، وقد سافرَ النبيُّ ﷺ إليهم تاجرًا، وذلك مِن سَفَره أمر قاطع على جَوَاز السَّفَر إليهم ، والتِّجارة معهم . فإنْ قِيل : كان ذلك قَبل النُّبُوَّة ، قُلْنا : إنَّه لَم يَتَدَنَّسْ قَبْل النُّبُوَّة بحرام ، ثَبَتَ ذلك تَوَاتُرًا، ولا اعتذرَ عَنه إذْ بُعِثَ ، ولا مَنَعَ مِنه إذْ نُبِّئ ، ولا قَطَعَه أحدٌ مِن الصحابة في حياته ، ولا أحد مِن المسلمين بَعد وَفَاته ، فقد كانوا يُسافرون في فَكِّ الأسرى ، وذلك واجب ، وفي الصُّلْح ، كما أرسل عُثمانَ وغَيره ، وقد يَجِب ، وقد يكون نَدْبًا ، فأمَّا السَّفَر إلَيهم لِمُجَرَّد التِّجارة فَمُباح)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ مِن أجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أوْ فَسَادٍ فِي الأرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

مِن أجْلِ قَتْلِ ابنِ آدم أخاه ظُلْمًا (حادثة قتل قابيل لهابيل) ، فَرَضَ اللَّهُ على بني إسرائيل ، وحَكَمَ عليهم أنَّه مَن قَتَلَ نَفْسًا بريئة ظُلْمًا وعُدوانًا ، أو قَتَلَها بغير فساد في الأرض (مِثل الشِّرْك أو قَطْع الطريق) فكأنَّه قَتَلَ جَميعَ الناس، لأنه لا فرق بين نَفْسٍ ونَفْسٍ . ومَن سَاهَمَ في الإبقاء على حياة نَفْسٍ بشرية، وأنقذها من الهلاك، كالقتل أو الغرق أو الحَرْق أو الهدم ، فكأنه أحيا جَميعَ الناس . وهذا هو المعنى المقصود . أمَّا إحياءُ النَّفْس بَعد مَوتها ، فلا يَقْدِر عليه إلا اللَّه .

وهذا التشريعُ الإلهيُّ العظيمُ يدلُّ على أنَّ الاعتداء على النَّفْس الإنسانية ظُلْمًا وعُدوانًا ، هو اعتداء على جميع النُّفُوس بلا استثناء، فالكِيَانُ الآدميُّ كُلٌّ لا يَتَجَزَّأ ، ووَحدة واحدة لا انفصال فيها . وقد كرَّم اللَّهُ الإنسانَ مَهما كان دِينُه وعَقيدته وجِنْسه وعِرْقه. وَقَتْلُ الفرد هو تكريسٌ لقتل الجماعة ، وهدم للمُنجَزات الحضارية ، وتدمير لمعالم المدنية والإنسانية ، كما أنه يَفتح البابَ أمام الأحقاد الاجتماعية ، وثقافة الانتقام ، والثأر ، والقتل ، والإبادة . وإذا زال الجُزءُ زال الكُلُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٥) : ((يقول تعالى : مِن أجل قَتْلِ ابن آدم أخاه ظُلْمًا وعُدوانًا ، ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : شَرَعْنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ أي: مَن قَتَلَ نَفْسًا بغير سبب مِن قِصَاص ، أو فساد في الأرض ، واسْتَحَلَّ قَتْلَها بلا سبب ولا جِناية ، فكأنما قَتل الناسَ جميعًا ، لأنَّه لا فَرق عِنده بَين نَفْسٍ ونَفْس . ﴿ وَمَن أحياها ﴾ أي : حَرَّمَ قَتْلَها واعتقدَ ذلك فقد سَلِمَ الناسُ كُلُّهم مِنه بهذا الاعتبار)) .

الآيةُ تُنفِّر مِن قَتْلِ الأبرياء ، وسَفْكِ الدم الحرام . وجريمةُ القتلِ في غاية السُّوء والقُبْح . وَقَتْلُ شخص واحد وقَتْلُ جميع الناس سَوَاءٌ في نُزول غضب اللَّه،واستحقاق العذاب والعِقاب. والشريعةُ الإلهيَّةُ تُحرِّم القَتْلَ إلا في ثلاث حالات: كُفْر بعد إيمان، أوْ زِنا بعد إحصان ، أوْ قَتْل نَفْسٍ بريئة.

وقال البَيْضاوي في تفسيره(١/ ٣١٩): ((﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي:بِغَير قَتل نَفْسٍ يُوجب الاقتصاص ، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ أوْ بِغَير فساد فيها كالشِّرْك أو قطع الطريق ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، مِن حَيث إنَّه هَتَكَ حُرمةَ الدماء ، وَسَنَّ القتلَ ، وجَرَّأ الناسَ عليه ، أوْ مِن حَيث إنَّ قَتْلَ الواحدِ وَقَتْلَ الجميع سَواء في استجلاب غضب اللَّه سُبحانَه وتعالى ، والعذاب العظيم ، ﴿ وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ ، أي : ومَن تَسَبَّبَ لبقاء حياتها بعَفْو أوْ مَنْع عن القتل ، أو استنقاذ مِن بعض أسباب الهَلَكَة، فكأنما فَعَلَ ذلك بالناس جميعًا. والمقصود مِنه تعظيم قَتْل النَّفْس ، وإحيائها في القُلوب ترهيبًا عن التعرُّض لها ، وترغيبًا في المُحاماة عليها)) .

وقال القُرطبي في تفسيره(١٣٩/٦) : ((وخُصَّ بني إسرائيل بالذِّكْر ، وقَد تَقَدَّمتهم أُمَم قَبلهم كان قَتْل النَّفْس فِيهم محظورًا ، لأنهم أوَّل أُمَّة نزل الوعيد عليهم في قَتل الأنفُس مكتوبًا، وكان قبل ذلك قَوْلًا مُطْلَقًا، فَغُلِّظَ الأمر على بني إسرائيل بالكِتاب بحَسَب طُغيانهم وسَفْكهم الدماء)).

في هذا دَلالةٌ واضحة على أن بني إسرائيل استمرؤوا القتلَ ، ومارسوه بكثرة ، واعتمدوا سَفْكَ الدِّماء منهجًا حياتيًّا ثابتًا وراسخًا ، فكانَ لا بُد من تَوجيههم ، والتَّشديد عليهم ، وتحذيرهم ، وتنبيههم ، ورَدْعهم ، وتخويفهم من خطورة قتل الأبرياء مَعصومي الدم ، وضرورة الابتعاد عن سَفْك الدم الحرام. وجاءَ التَّشديد عليهم،وتخصيصهم بالذِّكْر ، بسبب كثرة جرائمهم وضَلالهم وعِنَادهم.

والآيةُ تُشير إلى خُطورة القتل وسَفْك الدماء ، وأنَّ الكِيان الإنسانيَّ له احترامه في المنظور الإسلاميِّ ، ولا فَرْق بين الفرد والجماعة من حيث المكانة الاعتبارية ، إذْ إنَّ قَتْلَ الفرد قتلٌ للجماعة . وهذه النظرة الشرعية تَقُود إلى تدعيم الوَحدة الاجتماعية ، وتقوية الروابط بين أفراد المجتمع، وإحاطة الكِيان الإنسانيِّ بِسُورٍ واقٍ يَحميه من عبث العابثين وجرائم الفاسدين .

وكُلُّ إنسان معصوم الدم حتى يَثْبُت العَكْس ، ولا يُهْدَر دَم إنسان ولا يُراق إلا بأحكام الشريعة الإلهيَّة . وهذه الحَصَانَة الإلهيَّة الممنوحة للإنسان تُشير إلى مركزيته في الأرض ، ودَوره المِحْوَري في إعمارها ، وأهميته في بناء الحضارة الإنسانية ، وأنه كائن محترم وشريف ومُكرَّم ، وله حُرمة مُعْتَبَرَة ، ومكانة وجودية عظيمة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٤٠ و٣٤١و٣٤٢) : ((ومعنى ﴿ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي : قَتَلَهَا ظُلْمًا ، ولَم تَقْتُلْ نَفْسًا ، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فساد مَنسوق على نَفْس . المعنى: أوْ بغَير فساد تستحق به القتل.وقِيل: أراد بالفساد هاهُنا الشِّرْك.وفي معنى قَوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ خمسة أقوال : أحدها أن عليه إثم مَن قَتَلَ الناسَ جميعًا ، قاله الحسن والزَّجَّاج. والثاني أنه يَصْلى النار بقتل المُسلم كما لَوْ قَتَلَ الناسَ جميعًا ، قاله مجاهد وعطاء . وقال ابن قُتَيبة : يُعذَّب كما يُعذَّب قاتل الناس جميعًا . والثالث أنه يجب عليه مِن القِصَاص مِثْل ما لَوْ قَتَلَ الناسَ جميعًا ، قاله ابن زيد . والرابع أن معنى الكلام ينبغي لجميع الناس أن يُعينوا وَلِيَّ المقتول حتى يَقِيدوه منه ، كما لَوْ قَتَلَ أولياءهم جميعًا ، ذكَره القاضي أبو يعلى . والخامس أن المعنى مَن قَتل نبيًّا أو إمامًا عادلًا ، فكأنما قَتَلَ الناسَ جميعًا ، رواه عِكْرمة عن ابن عباس. والقول بالعُموم أصَح . فإن قِيل : إذا كان إثم قاتل الواحد كإثم مَن قَتل الناسَ جميعًا ، دَلَّ هذا على أنه لا إثم عليه في قَتْل مَن يَقْتله بعد قتل الواحد إلى أن يَفْنَى الناس ، فالجواب أن المِقدار الذي

يستحقه قاتل الناس جميعًا معلوم عند اللَّه مَحدود ، فالذي يَقتل الواحدَ يَلزَمه ذلك الإثم المعلوم . والذي يَقتل الاثنين يلزمه مِثْلاه ، وكُلما زاد قتلًا زاده اللَّهُ إثمًا . ومِثْل هذا قَوْلُه : ﴿ مَن جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . فالحسنة معلوم عند اللَّه مِقدار ثوابها ، فعاملُها يُعطَى بِمِثْل ذلك عَشْرَ مَرَّات ، وهذا الجواب عن سؤال سائل إن قال: إذا كان مَن أحيا نَفْسًا فله ثواب مَن أحيا الناس، فما ثواب مَن أحيا الناس كُلَّهم؟. هذا كُلُّه مَنقول عن المُفسِّرين . والذي أراه أن التَّشبيه بالشيء تقريب منه ، لأنه لا يجوز أن يكون إثم قاتل شخصَيْن كإثم قاتل شخص ، وإنما وقع التشبيه بِـ " كأنما " لأن جميع الخلائق مِن شخص واحد ، فالمقتول يُتصوَّر مِنه نشر عدد الخَلْق كُلِّهم . وفي قَوله : ﴿ وَمَن أحياها ﴾ خمسة أقوال: أحدها اسْتَنْقَذَهَا مِنْ هَلَكَة ، رُوِيَ عن ابن مسعود ومجاهد . قال الحسن : مَن أحياها مِن غَرَقٍ أوْ حَرَقٍ أوْ هَلاك ، وفي رواية عِكرمة عن ابن عباس : " مَن شَدَّ عَضُدَ نبيٍّ أو إمام عادل فكأنما أحيا الناس جميعًا " . والثاني تَرَكَ قَتْلَ النَّفْسِ المُحرَّمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد في رواية . والثالث أن يَعْفُوَ أولياء المقتول عن القِصَاص ، قاله الحسن وابن زيد وابن قُتَيبة. والرابع أن يَزجُر عَن قَتْلِها ويَنهَى . والخامس أن يُعِين الوَلِيَّ على استيفاء القِصَاص، لأنَّ في القِصَاص حَيَاةً، ذَكَرَهما القاضي أبو يَعلى. وفي قَوله : ﴿ فكأنما أحيا الناسَ جميعًا ﴾ قَولان : أحدهما فله أجر مَن أحيا الناس جميعًا ، قاله الحسن وابن قُتَيبة . والثاني فعلى جميع الناس شُكْره ، كما لَوْ أحياهم ، ذَكَرَه المَاوَرْدِي)) .

إنَّ بني إسرائيل غَرِقُوا في القَتْل وسَفْك الدماء ، وتعاملوا معَ الأنبياء الكرام بوقاحة وعِناد ، وتكبَّروا عليهم ، وأهانوهم ، وكذَّبوهم ، وقتلوهم. وقد اعتنقَ بنو إسرائيل القتلَ منهجًا حياتيًّا وجوديًّا راسخًا لا رجعة عنه ، وارتكبوا أسوأ أنواع الجرائم ، واقترفوا الذُّنُوبَ والآثام والمُوبِقات .

لقد أرسلَ اللَّهُ الأنبياءَ إلى بني إسرائيل لهدايتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصواب ، وإخراجهم من ظُلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلم والإيمان ، وإنقاذهم من النار ، وقيادتهم إلى الجَنَّة . فماذا كانت النتيجة ؟ . تعاملَ اليهودُ معهم باحتقار وازدراء واستكبار ، وقتلوهم بدم بارد ، بلا إثم ولا ذَنْب ولا جريمة ، دُون وازع دِينيٍّ أو رادع أخلاقي ، ودُون التفات إلى الشريعة ، أو العلاقات الاجتماعية ، أو القِيَم الإنسانية .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وتَرى كثيرًا مِنْهُم يُسَارِعُونَ في الإثمِ والعُدوانِ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ [المائدة : ٦٢] . وَتَرَى يا مُحمَّد كثيرًا من اليهود يُسابقون إلى المعاصي والظُّلْم، وأكلهم الحرام ، كالرُّشَى التي كانوا يأخذونها على كِتمان الحَق ، ثُمَّ ذَمَّ فِعْلَهم ، ووبَّخهم،

لَبِئْسَ عَمَل هؤلاء اليهود (المُسَارَعَة في الإثم والعُدوان وأكلهم السُّحْت) . واليهودُ غارقون في العَمَل الآثِم ، فَهُم يُسابقون إلى المعاصي والذُّنُوب ، ويُبادرون إلى ارتكابِ المُحَرَّمَاتِ ، وأكْلِ السُّحْت (الحَرَام) ، وسُمِّيَ بذلك لأنَّه يَسْحَتُ المالَ ، أي يُهْلِكُه .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وتَرى كثيرًا مِنْهُم ﴾ ، يعني : اليهود ﴿ يُسَارِعُونَ ﴾ ، أي : يُبَادِرُون ﴿ في الإثمِ ﴾ ، وفِيه قَولان : أحدهما أنَّه المعاصي ، قاله ابن عباس، والثاني الكُفر، قاله السُّدي . فأمَّا العُدوان فهو الظُّلْم . وفي السُّحْت ثلاثة أقوال: أحدها الرِّشوة في الحُكم ، والثاني الرِّشوة في الدِّين ، والثالث الرِّبا)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٤) : ((﴿ وتَرى كثيرًا مِنْهُم ﴾ ، أي : مِن اليهود أوْ مِن المُنافقين ﴿ يُسَارِعُونَ في الإثمِ ﴾ ، أي : الحرام ، وقِيل: الكَذِب، لِقَوْلِه : ﴿ عَن قَوْلِهِمُ الإثمَ ﴾ ، ﴿ والعُدوانِ ﴾ الظُّلْم ، أوْ مُجَاوَزَة الحَد في المَعَاصي . وقِيل : الإثمُ مَا يَخْتَص بهم ، والعُدوان ما يتعدَّى إلى غَيرهم ، ﴿ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ ، أي : الحَرَام ، خَصَّه بالذِّكْر للمُبَالَغَة ، ﴿ لَبِئْسَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ لَبِئْسَ شيئًا عَمِلُوه)) .

وقال الواحدي في الوجيز (٣٢٧/١) : ((﴿ وتَرى كثيرًا مِنْهُم يُسَارِعُونَ في الإثمِ والعُدوانِ ﴾ يَجْتَرِئُون عَلى الخَطأ والظُّلْمِ ، ويُبَادِرُون إلَيْه ، ﴿ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ مَا كانوا يَأخُذُونه مِنَ الرُّشَى عَلى كِتمان الحَقِّ ، ثُمَّ ذَمَّ فِعْلَهُم بِقَوْلِه : ﴿ لَبِئْسَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾)) .

٥ _ تَحْرِيفُهُم كَلامَ اللَّهِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُم وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ [البَقَرَة : ٧٥] [١٠٢] .

---

١٠٢ قال ابن الجَوزي في زاد المسير (١ / ١٠٣) : ((في الْمُخَاطَبِين بهذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه النبيُّ ﷺ خَاصَّة، قاله ابن عباس ومُقاتِل، والثاني أنَّه المؤمنون ، تقديره : أفَتَطْمَعُونَ أن يُصَدِّقُوا نَبِيَّكُم ، قاله أبو العالية وقَتَادة ، والثالث أنهم الأنصار ، فإنهم لَمَّا أسْلَمُوا أحَبُّوا إسلامَ اليهود للرَّضَاعة التي كانت بَيْنَهم ، ذَكَرَه النَّقَّاش . قال الزَّجَّاج : وَأَلِفُ " أفتطمعون " أَلِفُ استخبارٍ ، كأنَّه آيَسَهُم مِن الطمع في إيمانهم . وفي سَماعهم لكلام اللَّه قَوْلان : أحدهما أنهم قَرَؤُوا التَّوراةَ فَحَرَّفُوها ، هذا قَوْل مجاهد والسُّدي في آخرين ، فَيَكُون سَماعُهم لكلام اللَّه بتبليغ نَبِيِّهِم ، وتحريفُهم : تغييرُ ما فيها . والثاني أنهم السَّبْعُون الذين اختارهم مُوسَى، فَسَمِعُوا كلامَ اللَّهِ كِفَاحًا عِند الجبل ، فلمَّا جاؤوا إلى قَوْمِهِم ، قالوا : قال لنا كذا وكذا.

يُخَاطِبُ اللَّهُ عِبَادَه المُؤمنين : أَتَرْجُون يَا مَعْشَرَ المُؤمِنين أنْ يُسْلِمَ اليَهُودُ ويَدْخُلُوا في دِينِكُم، والحالُ قَدْ كانَ طائفةٌ مِنْ أحبارِهم وعُلَمَائِهم يَتْلُون كِتَابَ اللَّهِ وَيَسْمَعُونه بَيِّنًا جَلِيًّا ، ثُمَّ يُغَيِّرُون آياتِ التَّوراةِ بالتَّبديلِ أو التَّأويلِ، مِنْ بَعْدِ مَا فَهِمُوه وَضَبَطُوه بِعُقُولهم ، وَهُمْ يَعْلَمُون أنَّهُم يَرتكبون جَريمةً ، أي إنَّهُم يُخالفونه على بَصيرةٍ لا عَنْ خَطأ أوْ نِسْيَان. لَقَدْ وَقَعُوا في المَعصيةِ عَالِمِين بِها ، وذلك أشدُّ لِعُقُوبتهم، وَأبْيَنُ لِضَلالهم . والاستفهامُ : ﴿ أفَتَطْمَعُونَ ﴾ للإنكار ، كأنَّ اللَّهَ آيَسَهُم مِنْ إيمانِ هذه الفِرْقة مِن اليَهُود، والمَعنى : لا تَطْمَعُوا في إيمانهم ، فَلَهُم سابقة بالكُفْرِ .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((﴿ أفَتَطْمَعُونَ ﴾ الخِطَابُ لِرَسُولِه ﷺ والمُؤمِنين ﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُم ﴾ أن يُصَدِّقُوكم أوْ يُؤْمِنُوا لأجْلِ دَعْوَتِكُم، يَعْني اليَهُودَ ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ طائفة مِنْ أسلافِهم ، ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ يَعْني التَّوْرَاةَ ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ كَنَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وآيةِ الرَّجْمِ ، أوْ تَأويلِه ، فَيُفَسِّرُونه بِمَا يَشْتَهُون ، وقِيل : هَؤلاء مِنَ السَّبْعِين المُختارون سَمِعُوا كلامَ اللَّهِ تعالى حِينَ كَلَّمَ مُوسَى عليه السلام بالطُّورِ ، ثُمَّ قالوا : سَمِعْنَا اللَّهَ تعالى يَقُول في آخِرِه : إن استطعتُم أن تَفْعَلُوا هذه الأشياء فَافْعَلُوا وإنْ شِئْتُم فلا تَفْعَلُوا ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي : فَهِمُوه بِعُقُولهم وَلَمْ يَبْقَ فِيه رِيبَة ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ أنَّهُم مُفْتَرُون مُبْطِلُون ، ومَعْنَى الآية : أنَّ أحبارَ هَؤلاء ومُقَدَّمِيهِم كانوا على هذه الحالة ، فَمَا ظَنُّكَ بِسَفِلتهم وجُهَّالِهم ، وأنَّهُم إنْ كَفَرُوا وَحَرَّفُوا فَلَهُم سابقة في ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِن الذينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِم وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أنهم قالوا سَمِعْنا وأطَعْنا واسْمَعْ وانظُرْنا لَكَانَ خَيْرًا لَهُم وأقْوَمَ ولَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِم فلا يؤمنونَ إلا قليلًا ﴾ [النِّساء : ٤٦] .

مِنَ اليهودِ جماعة ، يُبدِّلون كلامَ اللَّه تعالى ، فيحذفون منه ، ويزيدون فيه ، أو يَعْمَدون إلى تفسير الكلام الإلهيِّ ضِدَّ مُراد اللَّه عَمْدًا ، وليس جَهْلًا أو نِسيانًا . وَهُم يقومون بهذا العمل القبيح

وقال في آخِر قَوْلِه : إنْ لم تستطيعوا تَرْكَ مَا أنهاكم عنه فافعلوا مَا تستطيعون ، هذا قَوْل مُقاتِل ، والأوَّلُ أصح . وقد أنكرَ بعضُ أهل العِلْم مِنهم التِّرمذيُّ صاحب " النوادر " هذا القَوْلَ إنكارًا شديدًا ، وقال : إنما خَصَّ بالكلام مُوسَى وَحْدَه ، وإلا فأيُّ مَيِّزة ؟! ، وَجَعَلَ هذا مِن الأحاديث التي رواها الكَلْبي ، وكانَ كَذَّابًا . ومَعنى ﴿ عَقَلُوهُ ﴾ سَمِعُوه وَوَعَوْهُ . وفي قَوْلِه تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ قَوْلان : أحدهما وَهُمْ يَعْلَمُون أنهم حَرَّفُوه ، والثاني وَهُمْ يَعْلَمُون عِقَابَ تَحريفِه)) .

لإقحام وُجهة نظرهم الباطلة وأهدافِهم الخبيثة في النصوص الدينية من أجل صَبْغ باطلهم بالقداسة والعِصمة . وهكذا تنطلي هذه الحِيَل على العَوَامِّ والجُهَّال والأتباع ، فيُحافظ رجالُ الدِّين على مناصبهم ونفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويستمرون في استغلال الدِّين لتحقيق مكاسب شخصية على حساب أتباعهم الجُهَّال . وقد حَذَفوا صِفَةَ النبيِّ ﷺ في التَّوراة ، وأزالوا حَدَّ الرَّجْم . وذلك من أجل المحافظة على ولاء الأتباع وعدم تفرُّقهم ، وهكذا يَضمن الزعماءُ والسادةُ أن يظل الشعب خاضعًا لهم ، وتحت رحمتهم واستغلالهم ، وعاجزًا عن التفكير ونقد الأوضاع ، وبذلك يستمر نفوذُ عِلْية القوم دون وجود تهديد من أية جهة. وتَحريفُ كلام اللَّه مشروعٌ تجاري استثماري وضيع قائم على المُتاجرة بالكلام الإلهيِّ المُقدَّس ، مِن أجل جَمْع حُطام الدنيا الفاني .

وهؤلاء اليهود الذين يُحرِّفون كلامَ اللَّه ليسوا من العَامَّة بالتأكيد ، إنهم من القيادات والعلماء العَالِمين بالشريعة ، لأن السُّلطة الدينية في أيديهم يتلاعبون بها كَيْفما شاؤوا ، وهم يحتكرون التوراةَ ، ويُحرِّفون نصوصَها ، ويُوَجِّهونها إلى حيث أرادوا . والعوام لا يملكون حصيلةً عِلميةً واطِّلاعًا كافيًا على مُحتويات التَّوراة ، وهذا جَعلهم يُغمضون أعينهم ، ويسيرون وراء العلماء الفاسقين والكَهَنة الضَّالِّين ، الذين نفَّذوا خُطتهم في التحريف والتلاعب بنصوص التوراة لغاية في أنفسهم المريضة . وعلى الرَّغْمِ من عِلْمهم بالكتاب ، إلا أنهم يأخذون ما يُوافق أهواءهم ، ويتركون ما يُخالفها ، فَهُمْ سَمِعوا وعَصَوْا إمعانًا في العِناد والكفر والتمرد .

وتَحريفُ الكَلِمِ له عِدَّة أشكال ، مثل إزالة كلام اللَّه ، أو وَضْع كلام بشري في التوراة ، أو تأويل النصوص الدينية بدافع الهوى والمصلحة الشخصية . ولَم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن اليهود قاموا بتحويل مسار كلامهم إلى شتائم كعادتهم في التدليس والمكر والتحايل والمُرَاوَغَة .

﴿ مِنَ الذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ [١٠٣] .

---

١٠٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٩) : ((قال مُقاتل : نزلت في رِفاعة بن زَيد ، ومالك ابن الصَّيف ، وكعب بن أُسَيد ، وكُلُّهم يهود... فأمَّا التحريف فهو التغيير . والكَلِمُ جمع كَلِمة، وقِيل إن الكلام مأخوذ مِنَ الكَلْم ، وهو الجُرْح الذي يَشُقُّ الجِلْدَ واللحمَ ، فَسُمِّيَ الكلام كلامًا لأنه يَشُقُّ الأسماعَ بوصوله إليها . وقِيل : بَل لتشقيقه المعاني المطلوبة في أنواع الخِطاب . وفي معنى تحريفهم الكَلِم قَولان : أحدهما أنهم كانوا يسألون النبيَّ ﷺ عن الشيء ، فإذا خَرجوا حَرَّفوا كلامَه ، قاله ابن عباس. والثاني أنَّه تبديلُهم التوراة ، قاله مجاهد)) .

مِنَ اليهودِ قَوْمٌ يُغيِّرون الكلامَ الذي أنزله اللَّهُ في التَّوراة ، فقد بَدَّلوا صِفَةَ مُحمَّد ﷺ كَي يُبْطِلوا نُبُوَّتَه_ وَفْقَ نظرتهم القاصرة _ ، وحَذَفوا حَدَّ الرَّجْم . إنهم حَرَّفوا كلامَ اللَّه عَن أماكنِه ووُجوهِه . وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ١٩٦) : ((مِنَ الذين هَادوا قَوْمٌ يُحرِّفون الكَلِمَ، أي يُميلونه عن مَواضعه التي وضعه اللَّهُ فيها، بإزالته عنها ، وإثبات غَيره فيها ، أو يُؤَوِّلونه على ما يَشتهون ، فَيُميلونه عمَّا أَنزلَ اللَّهُ فيه)) .

﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . ويَقُولون للنبيِّ ﷺ : سَمِعْنا قَوْلَك ، وعَصَيْنا أمْرَك . وهذا أشدُّ في العِناد والكُفر، لأن كُفْرَهم ناتجٌ عَن عِلْم لا جَهْل . لقد عَرَفُوا الحقَّ بشكل واضح ثُمَّ جَحَدوه .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٧٤): ((أي: يَقولون : سَمِعْنا ما قُلْتَه يا مُحَمَّد، ولا نُطيعك فيه ، هكذا فسَّره مجاهد وابن زَيد ، وهو المُراد . وهذا أبلغ في كُفرهم وعِنادهم، وأنهم يَتَوَلَّوْنَ عن كتاب اللَّه بعدما عَقَلُوه ، وهُم يَعْلَمُون مَا عليهم في ذلك مِنَ الإثم والعُقوبة)) .

هذا يعني أن الحُجَّة مُقامة عليهم ، ولا عُذر لهم في الكفر، فهُم عَالِمُون لا جاهلون .

﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ . اسْمَعْ ما نقول يا مُحَمَّد لا سَمِعْتَ . وهذه الصيغة تُستخدَم للخَير في الأصل، أي لا سَمِعْتَ مكروهًا، ولكنَّ اليهودَ المُخادِعين كانوا يُريدون بها الدعاء على النبيِّﷺ بِفِقْدان السَّمْع أو بالمَوت . وهذا استهزاءٌ مِنهم بالنبيِّ ﷺ ، نابعٌ مِنَ الحِقد والحسد والاستهتار .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّ معناه : اسْمَعْ لا سَمِعْتَ ، قاله ابن عباس وابن زَيد وابن قُتَيبة . والثاني أنَّ معناه اسْمَعْ غَير مَقبول ما تقول ، قاله الحسن ومجاهد)) .

﴿ وَرَاعِنَا ﴾ . كان خُبثاءُ اليهود يقولون للنبيِّ ﷺ : (رَاعِنا)، وهي لفظة قريبة مِن معنى الرُّعونة. وفي العِبرية (راعي) معناها شِرِّير، و (راعينو) تعني شِرِّيرنا . وهكذا يَلْوُون ألسنتهم بكلام يحتمل المَعْنَيَيْن الصالح والسَّيئ.وهُم يقصدون المعنى السَّيئ سُخريةً بالنبيِّ ﷺواستهزاءً بِه.

وقال ابن عَطِيَّة في البحر المُحيط (٣/ ٢٦٤) : ((وهذا موجود حتى الآن في اليهود، وقد شاهدناهم يُرَبُّون أولادهم الصغار على ذلك ، ويُحفِّظونهم ما يُخاطبون به المسلمين مِمَّا ظاهره التَّوقير ، ويُريدون به التَّحقير)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٧٤) : ((أي يُوهِمون أنهم يقولون : رَاعِنا سَمْعَكَ بِقَولهم : رَاعِنا ، وإنما يُريدون الرُّعونةَ بِسَبِّهم النبيَّ)) .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ٢٥٣) : ((أخرج ابن جرير وابن المنذر عن السُّدي قال : كان رَجُلان مِنَ اليهود مالك بن الصَّيف ورِفاعة بن زَيد إذا لَقِيَا النبيَّ ﷺ قالا له وهُما يُكلِّمانه :

رَاعِنا سَمْعَك ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَع ، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيء كان أهل الكتاب يُعظِّمون به أنبياءهم،فقالوا للنبيِّ ﷺ ذلك،فأنزلَ اللَّهُ:﴿يا أيها الذين آمَنُوا لا تقولوا رَاعِنا ﴾[البَقَرَة: ١٠٤])).

إنَّ الآية تُرشد إلى حُسن السلوك ، وانتقاءِ الألفاظ الطَّيبة ، والابتعادِ عن المعاني القبيحة وتقليدِ الكافرين في كلامهم المليء بالنِّفاق والحِقد والمعنى الباطل الخفيِّ . واليهودُ كانوا يَلْجَؤون إلى الكلام المُبَطَّن الذي فيه تَوْرِية ، لِمَا يَقصِدونه مِنَ التَّنقيص _ عليهم لعائن اللَّه _، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسْمَعْ لنا ، يقولون : رَاعِنا ، ويُوَرُّون بالرُّعونة)) .

﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِم وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ . أي: مَيْلًا مِنَ الحق إلى الباطل، وقَدْحًا في الإسلام . وهُم يَصْرِفُون الكلامَ إلى معنى الشَّتيمة،حيث إنهم يَستخدمون العباراتِ التي ظاهرها الاحترام والتعظيم، وباطنها التَّحقير والإهانة والسَّب ، وهذا مرجعه إلى السُّخرية والاستهزاء والحِقد والحسد . وقال القُرطبي في تفسيره (٥/٢٣٣): ((أي يَلْوُون ألسنتَهم عن الحق، أي: يُميلونها إلى ما في قلوبهم ، وأصلُ اللَّيِّ الفَتْلُ... ﴿وَطَعْنًا﴾ أي يَطْعَنون في الدِّين ، أي يَقولون لأصحابهم : لَوْ كان نَبِيًّا لَدَرى أنَّنا نَسُبُّه ، فأظهرَ اللَّهُ تعالى نَبِيَّه على ذلك، فكان مِن علامات نُبُوَّته، ونهاهم عَن هذا القَول)) .

إنَّ التلاعب بالألفاظ والعِبَارات صِفة لازمة لليهود عبر كل المراحل الزمنية . فهم يستعملون الكلامَ الباطِنِيَّ الفَضفاض الذي يَحتمل المعاني المتعددة ، ويقصدون المعنى القبيح . وهُم بذلك يَكشفون عن حِقدهم الخفيِّ وسُخريتهم الدنيئة ، ويَسْعَوْنَ إلى تنفيذ مخططاتهم الشريرة ذات الطبيعة المُستتِرة . وهُم يلجؤون إلى هذه الطُّرق للتنفيس عن حِقدهم واحتراقِ صدورهم بالضغينة وكراهية الحق . وهُم يعتقدون أن هذه الأساليب تعكس ذكاءهم وانتصارهم ، لكن الحقيقة عكس ذلك تمامًا .

﴿ وَلَوْ أنهم قالوا سَمِعْنا وأطَعْنا ﴾ . ولو أن اليهود قالوا : سَمِعْنَا ما قُلْتَهُ يا مُحَمَّد ، وأطَعْنا أمْرَكَ ، وقَبِلْنا القُرآنَ الذي جِئْتَ بِه مِن عِند اللَّه . ولَم يقولوا العبارة السَّيئة : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .

﴿ واسْمَعْ وانظُرْنا ﴾ . ولو أن اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ هذا القول الجميل اللطيف : واسْمَعْ وانظُرْ إلَيْنا . ولم يقولوا له العبارة السَّيئة : وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا .

﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم وأقْوَمَ ﴾ . لكانَ ذلك القَول خَيْرًا لهم عِند اللَّه ، وأفضل وأعدل وأصْوَب .

﴿ ولَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِم فلا يؤمنونَ إلا قليلًا ﴾ . ولكن أبعدهم اللَّهُ عن الهُدى ، وطردهم من رحمته ، بسبب كُفرهم بالقُرآن ، وجَحْدهم لِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، فلا يُؤْمنون إلا إيمانًا قليلًا غير نافع ، وهو إيمانهم ببعض الكُتُب والرُّسُل ، وهو إيمان ضعيف مهزوز ، لا يُعبَأ به ، ولا فائدة مِنه .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/١٢٠): ((ولو أن هؤلاء اليهود الذين وَصف اللَّهُ صِفتهم قالوا لنبيِّ اللَّه : سَمِعْنا يا مُحمَّد قَوْلَك ، وأطَعْنا أمْرَك، وقَبِلْنا ما جِئتنا به من عند اللَّه، واسْمَعْ مِنَّا، وانظُرْنا ما نقول،وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم وأقْوَمَ ﴾ يقول:لَكَانَ ذلك خَيْرًا لهم عند اللَّه ﴿ وأقْوَمَ ﴾ يقول:وأعدل وأصْوَب في القَول ... ولكنَّ اللَّه تبارك وتعالى أَخْزَى هؤلاء اليهود الذين وَصف صِفتهم في هذه الآية فأقصاهم،وأبعدهم مِن الرُّشد واتِّباع الحق ﴿ بِكُفْرِهِم ﴾ يعني : بِجُحُودهم نُبُوَّة نَبِيِّه مُحمَّد ﷺ ، وما جاءهم به من عند رَبِّهم مِن الهُدى والبَيِّنات)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٠و١٠١) : ((قال ابن عباس : ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم ﴾ مِمَّا بَدَّلوا ، ﴿ وأقْوَمَ ﴾ أي : أعدل. ﴿ ولَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِم ﴾ بمُحمَّد . قَوله تعالى : ﴿ فلا يؤمنونَ إلا قليلًا ﴾ فيه قَولان: أحدهما: فلا يُؤْمن منهم إلا قليل ، وهُم عبد اللَّه بن سَلَام ، ومَن تَبِعَه ، قاله ابن عباس. والثاني : فلا يُؤْمنون إلا إيمانًا قليلًا ، قاله قَتادة والزَّجاج . قال مُقاتل: وهو اعتقادهم أن اللَّه خَلَقَهم وَرَزَقَهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم لَعَنَّاهُم وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُم قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّروا بِهِ ولا تزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائنةٍ مِنهُم إلا قليلًا مِنهُم ﴾[المائدة: ١٣].

إنَّ اليهود الذين خانوا اللَّهَ ورُسُلَه الكِرَام ، نَقَضُوا وخانوا مِيثاقَهم (العَهْد المُؤَكَّد) بأن كَفروا باللَّه تعالى ، وقَتلوا الأنبياءَ ، وتمادَوْا في كُفرهم ، فكانت العقوبة هي اللعنة في الدنيا والآخرة ، وجَعْل قلوبهم قاسية ، لا تَلِين لِذِكْر اللَّه ، ولا تَستقبل الخَيْرَ ، فَهُمْ لَمْ يُطهِّروا قُلوبَهم مِن الذُّنُوب والمعاصي ، ولَم يستفيدوا منها في الإيمان ومعرفة الحق .

بسبب نَقْض اليهود للمِيثاق ونَكْثهم للعهد ، طَرَدَهم اللَّهُ مِن رحمته ، وجَعل اللَّهُ قُلوبَهم قاسيةً صُلْبَةً خشنةً جافيةً ، لا تَلِين للحق ، ولا تَستجيب للإيمان ، ولا تَقْبَل الطاعة . وقد تلاعبَ اليهودُ بالتَّوراة ، وحرَّفوها ، وزادوا فيها ، وأنقَصُوا مِنها ، وتأوَّلوا نُصُوصَها بشكل مُنحرِف ، وكَذَبُوا على اللَّه، ولا جريمة أسوأ مِن تغيير كلام اللَّه تعالى. وتركوا نصيبًا وافرًا مِمَّا أُمِرُوا بِه في التَّوراة. ولا تزالُ يا مُحَمَّد تَظْهَر على خِيانة مِن اليهود ، بنقض العهود ، ونَكْث الوعود ، والتخطيط للمؤامرات وتدبير المكائد، والغدر،والخيانة.وهذه عادة اليهود في كُلِّ زمان ومكان إلا قليلًا مِنهم مِمَّن أسلمَ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥) : ((أخبرَ تعالى عمَّا حَلَّ بهم مِن العُقوبة عند مُخالفتهم مِيثاقَه ونَقْضِهم عَهْدَه ، فقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُم ﴾ أي : فبسبب نَقْضهم المِيثاق الذي أُخِذَ عليهم ﴿ لَعَنَّاهُم ﴾ أي : أبعدناهم عن الحق ، وطردناهم عن الهدى ، ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُم

قَاسِيَةً ﴾ أي : فلا يَتَّعظون بموعظة لِغِلَظِها وقَسَاوتها . ﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ أي : فَسَدَتْ فُهُومُهُم ، وساءَ تَصَرُّفُهم في آيات اللَّه ، وتأوَّلوا كِتَابَه على غَير ما أنزله ، وحَمَلُوه على غَير مُرَاده ، وقالوا عليه ما لَم يَقُلْ ، عِياذًا باللَّه من ذلك ، ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّروا بِهِ ﴾ ، أي : وتَركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحَسَن: تَركوا عُرى دِينهم ووظائف اللَّه تعالى التي لا يَقْبَل العمل إلا بها. وقال غَيْرُه : تَركوا العمل، فصاروا إلى حالة رديئة ، فلا قلوب سليمة ، ولا فِطَر مُستقيمة ، ولا أعمال قويمة ، ﴿ ولا تزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائنةٍ مِنهُم ﴾ يعني مَكْرَهم وغَدْرَهم لك ولأصحابك . وقال مُجاهد وغَيْرُه : يعني بذلك تَمَالُؤَهُم على الفَتْك برسول اللَّه ﷺ)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣١٣ و٣١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ﴾ في الكلام مَحذوف تقديره : فنقضوا فَبِنَقْضهم ﴿ لَعَنَّاهُم ﴾ . وفي المراد بهذه اللعنة ثلاثة أقوال : أحدها أنها التعذيب بالجِزْية ، قاله ابن عباس . والثاني التعذيب بالمَسْخ ، قاله الحَسَن ومُقَاتِل . والثالث الإبعاد من الرحمة ، قاله عطاء والزَّجَّاج . قَوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُم قَاسِيَةً ﴾ ... والقَسْوَة خِلاف اللين والرِّقة . وفي تحريفهم الكَلِم ثلاثة أقوال : أحدها تغيير حُدود التَّوراة ، قاله ابن عباس . والثاني تغيير صِفَة مُحَمَّد ﷺ ، قاله مُقَاتِل. والثالث تفسيره على غَير ما أُنْزِلَ، قاله الزَّجَّاج... . قَوله تعالى : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّروا بِهِ ﴾ ، النِّسيان هاهُنا التَّرْك عن عَمْد ، والحَظ: النصيب . قال مُجاهد : نَسُوا كتابَ اللَّه الذي أُنْزِلَ عَلَيهم ، وقال غَيْرُه : تَركوا نصيبَهم مِن المِيثاق المأخوذ عليهم . وفي معنى ﴿ ذُكِّروا بِهِ ﴾ قَولان : أحدهما أُمِرُوا . والثاني أُوصُوا . قَوله تعالى : ﴿ ولا تزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائنةٍ مِنهُم ﴾ ... . قال ابن عباس : وذلك مِثْل نَقْض قُرَيظة عَهْد رسول اللَّه ﷺ ، وخُروج كَعْب بن الأشرف إلى أهل مكة للتَّحريض على رسول اللَّه ﷺ ﴿ إلا قليلًا مِنهُم ﴾ لَم يَنقُضوا العَهْدَ ، وهُم عبد اللَّه بن سَلَام وأصحابه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالوا ما أنزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أنزلَ الكِتابَ الذي جاءَ بِهِ مُوسى نُورًا وهُدًى للناسِ تَجْعَلُونهُ قَراطيسَ تُبْدُونها وتُخْفُونَ كَثيرًا وَعُلِّمْتُم ما لَم تَعْلَمُوا أنتُم ولا آباؤُكُم قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُون ﴾[الأنعام: ٩١]١٠٤.

---

١٠٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٨٢و٨٣): ((قَوله تعالى: ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ في سبب نزولها سبعة أقوال:أحدها أن مالك بن الصَّيف رأس اليهود أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ ذات يَوْم، فقال له رسولُ اللَّهِ ﷺ : " أنشُدُكَ بالذي أنزلَ التوراةَ على مُوسَى، أتَجِدُ فيها أنَّ اللَّهَ يُبغِض الْحَبْرَ السمين " ،

لَقَدْ كَذَّبَ مُشركو قُرَيش رُسُلَ اللَّهِ ، وأنكَروا الوَحْيَ الإلهيَّ عِنادًا واستكبارًا ، وقِيل: نَزَلَتْ في طائفة من اليهود ، لكنَّ الراجح أنَّها نَزَلَتْ في مُشركي قُرَيش ، لأنَّ الآيةَ مَكِّية ، وأيضًا، إنَّ اليهودَ يُؤْمنون بإنزال الكُتُب السَّمَاوِيَّة على الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، ويُؤْمنون على وَجْه الخُصوص بإنزال التَّوراة على مُوسى ﷺ ، أمَّا مُشركو قُرَيش والعربُ الوثنيون فلا يُؤْمنون بالكُتُب السَّمَاوِيَّة ، ولا يُؤْمنون بالوَحْي الإلهيِّ ، ويُنكِرون نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ولا يَعترِفون بأنَّ اللَّهَ قَد أرسَلَه .

﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ . وما عَرَفوا اللَّهَ حَقَّ مَعرفته ، ولا عَظَّموه حَقَّ تَعظيمه .

﴿ إذْ قالوا ما أنزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِن شَيْءٍ ﴾ . حِينَ قالوا : ما أنزلَ اللَّهُ على إنسان كتابًا ولا وَحْيًا . لقد أنكَروا الوَحْيَ الإلهيَّ عِنادًا واستكبارًا .

وقال القُرطبي في تفسيره (٧/ ٣٥) : ((نَسَبُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلى أنَّه لا يُقيم الحُجَّةَ على عِباده ، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح ، فَلَمْ يُعظِّموه حَقَّ عَظَمَته ، ولا عَرَفُوه حَقَّ مَعرفته . وقال أبو عُبَيدة : أي ما عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعرفته . قال النَّحَّاس : وهذا معنى حَسَن ، لأنَّ مَعْنَى قَدَرْتُ الشَّيْءَ وقَدَّرْتُهُ عَرَفْتُ مِقْدَارَه)) .

﴿ قُلْ مَنْ أنزلَ الكِتابَ الذي جاءَ بِهِ مُوسى نُورًا وهُدًى للناسِ ﴾ . قُلْ يا مُحَمَّد لهؤلاء الذين يُنكِرون إنزالَ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّة على الأنبياء : مَن أنزلَ التَّوراةَ على مُوسَى نُورًا يَهْدِي الضَّالِّين ،

قال: نَعَم. قال :" فأنتَ الْحَبْرُ السمين "، فغضب ثُمَّ قال: مَا أنزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِن شيء، فَنَزَلَتْ هذه الآية،رواه أبو صالح عن ابن عباس،وكذلك قال سعيد بن جُبَير وعِكرمة: نزلت في مالك بن الصَّيف. والثاني أنَّ اليهود قالوا : يا مُحَمَّد، أنزلَ اللَّهُ عَلَيْكَ كتابًا ؟، قال :"نَعَم"، قالوا : واللَّهِ مَا أنزلَ اللَّهُ مِنَ السماء كتابًا ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه الوالبي عن ابن عباس . والثالث أنَّ اليهود قالوا : يا مُحَمَّد ، إنَّ مُوسَى جاء بألواح يَحْمِلُها مِن عِند اللَّهِ فَائْتِنَا بآيةٍ كما جاء مُوسَى ... ، فلمَّا حَدَّثهم بأعمالهم الخبيثة، قالوا : واللَّهِ ما أنزل اللَّهُ عَلَيْكَ ولا على موسى وعيسى ولا على بَشَرٍ مِن شَيء، فَنَزلت هذه الآية، قاله محمد بن كَعْب . والرابع أنها نزلت في اليهود والنصارى آتاهم اللَّهُ عِلْمًا فَلَمْ يَنتفعوا به، قاله قَتَادة . والخامس أنها نَزَلَتْ في فِنحاص اليهوديّ،وهو الذي قال: مَا أنزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِن شَيْء، قاله السُّدي . والسادس أنها نَزَلَتْ في مُشركي قُرَيش ، قالوا: واللَّهِ مَا أنزلَ اللَّهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْء ، رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد . والسابع أنَّ أوَّلها إلى قَوْلِه : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ في مُشركي قُرَيش. وقَوْلُه : ﴿ مَنْ أنزلَ الكِتابَ الذي جاءَ بِهِ مُوسى ﴾ في اليهود ، رواه ابن كثير عن مجاهد)) .

وهُدًى لبني إسرائيل، يَقُودهم إلى طريق الحَقِّ،ويُنقِذهم مِنَ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ ؟. وَقَدْ أفْحَمَهُمُ اللَّهُ تعالى،وأقامَ عَلَيهم الحُجَّةَ، وَوَضَّحَ لهم البُرهانَ الذي لا يَقْدِرُون على دَفْعِه ولا الالتفاف حَوْلَه.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٢٠١) : ((وَلَمَّا وَقَعَ مِنهم هذا الإنكار ، وهُمْ مِن اليهود ، أمَرَ اللَّهُ نَبِيَّه ﷺ أن يُورِدَ عَلَيهم حُجَّةً لا يُطيقون دَفْعَها ، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ أنزلَ الكِتابَ الذي جاءَ بِهِ مُوسى ﴾ ، وهُم يَعترفون بذلك ، ويُذعِنون له ، فكان في هذا مِنَ التَّبكيتِ لهم والتَّقريع مَا لا يُقَادَر قَدْرُه ، مَعَ إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكَروه مِن وقوع إنزال اللَّه على البشر ، وهُمُ الأنبياء عليهم السلام ، فَبَطَلَ جَحْدُهم ، وَتَبَيَّنَ فسادُ إنكارهم . وقِيل : إنَّ القائلين بهذه المَقَالة هُمْ كُفَّار قُرَيْش ، فَيَكُون إلزامُهم بإنزال اللَّهِ الكِتاب على مُوسَى مِن جِهة أنَّهم يَعترفون بذلك ، ويَعْلَمونه بالأخبار مِنَ اليهود ، وقد كانوا يُصَدِّقونهم)) .

﴿ تَجْعَلُونهُ قَراطيسَ تُبْدُونها وتُخْفُونَ كَثيرًا ﴾ . تَكتبون أجزاءً مِن التوراة ، وأوراقًا مُتفرِّقة ، تُظهِرون بَعْضَها ، وتُخفون أكثرَها ، وتتلاعبون بِها ، وتُحرِّفونها ، وتُؤَوِّلونها وَفْقَ أهوائكم ومصالحكم الشخصية ومنافعكم الماديَّة . وهذا ذَمٌّ لهم .

وقال القُرطبي في تفسيره (٧/ ٣٥) : ((ولذلك كَرِهَ العُلماءُ كَتْبَ القُرْآنِ أجزاءً)) .

وقَد حَذَفوا مِنَ التَّوراة ذِكْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وطَمَسُوا نُبُوَّته، في محاولة يائسة مِنهم لإخفاء الحقيقة، وطَمْسِ نُور الرِّسَالة المُحمَّدية الإسلاميَّة .

﴿ وَعُلِّمْتُم ما لَم تَعْلَمُوا أنتُم ولا آباؤُكُم ﴾ . لقد أنزلَ اللَّهُ القُرآنَ مُشْتَمِلًا على الأحكامِ والمَواعظِ وأحوالِ الدُّنيا والآخِرَةِ ، وأخبارِ الأُمَمِ السابقة ، وعَلَّمَكم فِيه أُمورًا كثيرة لَمْ تَكُونوا تَعْلَمُونها أنتُم ولا آباؤكم . لقد كُنتم تَجْهلونها ولا تُدرِكونها ، وصِرْتُم عَالِمين بها ، فَأخْرَجَكُمُ اللَّهُ بالقُرْآنِ مِن ظُلُمَاتِ الجَهْلِ إلى نُورِ العِلْمِ . وقَد تَكون الآية تَحْمِل معنى الامتنان ، أي إنَّ اللَّهَ يَمْتَنُّ عَلَيهم أنْ عَلَّمَهم في القُرآن مَا لَمْ يَعْلَمُوا هُمْ ولا آباؤُهم، وَنَقَلَهم مِنَ الجَهْلِ إلى العِلْمِ ، أوْ قَدْ تَكُون الآية تَحْمِل مَعنى الذَّمِّ ، أي إنَّ اللَّهَ عَلَّمَهم في القُرْآنِ مَا لَمْ يَعْلَمُوا هُمْ ولا آباؤُهم، لكنَّهم لَمْ يَستفيدوا ولَمْ يَنتفعوا بسبب عِنادِهم واستكبارِهم وضَلالِهم وقَسْوَةِ قُلُوبهم . ودائمًا ، تَمْنَع الأخلاقُ الذميمةُ القَلْبَ مِنَ الاستفادة مِنَ العِلْمِ والانتفاع بِه . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٦٦) : ((الأكثرون على أنها خِطاب لليهود يقول : عُلِّمْتُم على لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا لَمْ تَعْلَموا ﴿ أنتُم ولا آباؤُكُم ﴾ . قال الحسن: جُعِلَ لهم عِلْم ما جاء به مُحَمَّد ﷺ ، فَضَيَّعُوه وَلَمْ يَنتفعوا بِه . وقال مُجاهِد : هذا خِطَاب للمُسْلِمِين يُذكِّرهم النِّعْمَةَ فِيما عَلَّمَهم على لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ)) .

﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّد : اللَّهُ أنزلَ التَّوراةَ على مُوسَى ، وأنزلَ عَلَيَّ القُرْآنَ. وقد بُهِتُوا فلا يَقْدِرون على الجَواب ، وَقَدْ أُقِيمَت الحُجَّة عَلَيهم بالدليل والبُرْهان ، ولَيْسَ بالشَّتائمِ والجَعْجَعَة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٠): ((قال عليُّ بن أبي طلحة : عن ابن عَبَّاس : أي قُل: اللَّهُ أنزَلَه . وهذا الذي قاله ابن عَبَّاس هُوَ المُتَعَيَّن في تفسير هذه الكَلِمَة ، لا ما قاله بعض المُتأخِّرين مِن أن معنى ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ ، أي : لا يَكُون خِطَابُكَ لهم إلا هذه الكلمة كَلِمَة اللَّه ، وهذا الذي قاله هذا القائل يَكُون أمْرًا بِكَلِمَةٍ مُفْرَدَة مِنْ غَيْرِ تركيب، والإتيان بِكَلِمَةٍ مُفْرَدة لا يُفيد في لُغَة العرب فائدة يَحْسُن السُّكُوت عَلَيها)) .

﴿ ثُمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُون ﴾ . ثُمَّ اترُكهم في ضَلالهم وجهلهم يَلعبون ويَضحكون ، فلا مَسؤولية عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد بَعْد تَبْليغهم وإقامةِ الحُجَّةِ عَلَيهم . وهُمْ في الحقيقة يَلْعبون بمصيرهم، ويُهْلِكون أنفسَهم ، وسَوْفَ يَنتهي لَعِبُهم حِينَ يَصْعَقُهُمُ المَوْتُ ، فَيُدرِكون عاقبةَ أمرهم . والآيةُ تَهديدٌ شديدٌ لهم ، ووعيدٌ مُخيف .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٥/ ٢٦٢) : ((يَقُول اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُه : ثُمَّ دَعْهُمْ لاعبين يَا مُحَمَّد ، فإنِّي مِنْ وَراء مَا هُمْ فيه مِن استهزائهم بآياتي بالمِرْصاد ، وأُذِيقهم بَأسي، وأُحِلُّ بهم إنْ تَمَادَوْا في غَيِّهِم سَخَطِي)) .

٦ _ أخْذُ المِيثَاقِ عَلَيْهِم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾ [البَقَرَة : ٦٣] .

اذْكُرُوا يَا بَنِي إسرائيل حِينَ أَخَذْنَا مِنْكُم العَهْدَ المُؤَكَّدَ على العمل بِما في التَّوراةِ ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم الجَبَلَ حَتَّى أَصْبَحَ كَالظُّلَّةِ فَوْقَكُم ، وَقُلْنَا لَكُم : اعْمَلُوا بِما في التَّوراةِ بِجِدٍّ وعَزيمةٍ ، وَاحْفَظُوه ولا تَنْسَوْهُ ولا تَغْفُلُوا عَنْهُ ، لِتَتَّقُوا الهَلاكَ في الدُّنيا والعَذابَ في الآخِرَةِ .

لَقَدْ ذَكَّرَ اللَّهُ بَني إسرائيل مَا أَخَذَ عَلَيْهِم مِنَ العُهودِ والمَواثيقِ بالإيمانِ بِه وَحْدَه لا شريك له ، واتِّبَاعِ رُسُلِه ، وَأَخْبَرَ اللَّهُ أنَّه لمَّا أَخَذَ عَلَيْهِم المِيثاقَ ، رَفَعَ الجَبَلَ فَوْقَ رُؤُوسَهم ، لِيُقِرُّوا بِمَا عُوهِدُوا عَلَيْهِ ، وَيَأخُذوه بِقُوَّةٍ وَجَزْمٍ وامتثالٍ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير(١/ ٩٣ و٩٤) : ((الخِطَابُ بهذه الآية لليَهُودِ ، والمِيثاقُ: مِفْعَال مِنَ التَّوَثُّقِ بِيَمِينٍ أوْ عَهْدٍ أوْ نَحْو ذلك مِنَ الأُمورِ التي تُؤَكِّد القَوْلَ . وفي هذا المِيثاق ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه أَخَذَ مِيثاقَهم أنْ يَعْمَلُوا بِما في التَّوراةِ ، فَكَرِهُوا الإقرارَ بِما فِيها ، فَرَفَعَ عَلَيْهِم

الجَبَلَ ، قاله مُقَاتِل . قال أبو سُلَيمان الدِّمشقيُّ : أَعْطَوا اللَّهَ عَهْدًا لَيَعْمَلُنَّ بِما في التَّوراةِ ، فلمَّا جَاءَ بِها مُوسَى فَرَأَوْا مَا فِيها مِنَ التَّثقيل ، امْتَنَعُوا مِنْ أخْذِها ، فَرَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِم . والثاني أنَّه مَا أَخَذَه اللَّهُ تعالى على الرُّسُلِ وتابعيهم مِنَ الإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، ذَكَرَه الزَّجَّاج . والثالث ذَكَرَه الزَّجَّاجُ أيضًا ، فقال : يَجُوز أن يَكُون المِيثاقُ يَوْمَ أَخَذَ الذُّرِّيَّةَ مِنْ ظَهْرِ آدم . قَوْلُه تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ ، قال أبو عُبَيْدة : الطُّورُ في كَلامِ العَرَبِ : الجَبَلُ . وقال ابنُ قُتَيْبَة : الطُّورُ : الجَبَل بالسُّرْيَانِيَّة . وقال ابنُ عَبَّاس : مَا أَنْبَتَ مِنَ الجِبَالِ فَهُوَ طُور ، وَمَا لَمْ يَنْبُتْ فَلَيْسَ بِطُور . وأيُّ الجِبَال هُوَ ؟ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها جَبَلٌ مِن جِبال فِلَسْطِين ، قاله ابن عباس ، والثاني جَبَل نَزَلُوا بأصله ، قاله قَتَادَة ، والثالث الجَبَل الذي تَجَلَّى له رَبُّه ، قاله مُجاهد . وجُمهور العلماء على أنَّه إنَّما رُفِعَ الجَبَل عليهم لإبائهم التَّوراة . وقال السُّدي : لإبائهم دُخول الأرض المُقَدَّسَة . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ . وفي المُراد بالقُوَّةِ أربعة أقوال : أحدها الجِدُّ والاجتهادُ ، قاله ابن عَبَّاس وقَتَادة والسُّدي ، والثاني الطاعة ، قاله أبو العالية ، والثالث العَمَل بِما فيه ، قاله مُجَاهِد ، والرابع الصِّدْق ، قاله ابن زَيْد . قَوْلُه تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ ، فِيه قَوْلان : أحدهما اذكُرُوا مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الثَّوَابِ والعِقَابِ ، قاله ابن عَبَّاس ، والثاني مَعْنَاه ادْرُسُوا مَا فِيه، قاله الزَّجَّاج . قَوْلُه تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾ ، قال ابنُ عَبَّاس: تَتَّقُون العُقُوبة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إيمَانُكُمْ إن كُنتُم مُؤمنين ﴾ [البَقَرَة : ٩٣] .

اذكُرُوا يا بني إسرائيل حِينَ أَخَذْنَا عَلَيْكُمُ العَهْدَ المُؤَكَّدَ على العمل بما في التَّوراةِ ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم جَبَلَ الطُّورِ قائلين : اعْمَلُوا بِما في التَّوراةِ بِجِدٍّ وعَزيمةٍ وإلا طَرَحْنَا الجَبَلَ فَوْقَكُم ، وَاسْمَعُوا سَمَاعَ طَاعةٍ وَقَبُولٍ ، قالوا : سَمِعْنَا قَوْلَكَ ، وَعَصَيْنَا أمْرَكَ ، وَامْتَزَجَ حُبُّ عِبادةِ العِجْلِ بِقُلوبِ اليَهُودِ ، وَتَغَلْغَلَ فِيها بِحَيْث استحوذَ على مَشاعِرِهم وَهَوَاهُم وامتلكها ، كما تتداخل الصَّبْغَةُ مَعَ الثَّوْبِ ، وكما يَتَغَلْغَل الشَّرَابُ في أجزاء الإنسان ، وَحُبُّ الشَّيْءِ يُعْمِي ويُصِمُّ ، وذلك عائدٌ إلى غِياب المَنَاعَةِ المُتَمَثِّلَةِ في النَّقَاءِ القَلْبي والطَّهارةِ الرُّوحِيَّةِ ، فانتقلوا إلى جِهة الكُفْرِ والضَّلالِ والعِنَادِ . والقَلْبُ إنْ لَمْ يَتِم مَلْؤُه بالإيمانِ والطاعاتِ ، فلا بُد أن يَسقط في الكُفْرِ والمَعَاصي . والنَّفْسُ البَشَرِيَّة إنْ لَمْ يَتِم تَعْبئتها بِنُورِ الحَقِّ ، سَتُحْرِقُ صاحبَها بِظُلُمَاتِ الباطل . وهُنا لا يُمكِن الوُقوف في المُنْتَصَف ، أو اتِّخَاذ أنصاف الحُلُول ، ولا مَعْنى للحِيَادِ حِينَ يَتَعَلَّق

الأمْرُ بالإيمانِ والكُفْرِ ، أو الحَقِّ والباطلِ ، أو الطاعةِ والمعصيةِ ، أو الجَنَّةِ والنار . وَقَدْ أُدْخِلَ حُبُّ العِجْلِ في قُلوب اليهود ، وَخَالَطَهَا ، كما تُخَالِط الصَّبْغَةُ الثَّوْبَ ، وهذا يدلُّ على شِدَّةِ الالتصاق ، وقُوَّةِ المُلازَمة ، بِحَيث يَستحيل الانفصال والافتراق ، بسبب كُفْرِهِم وضَلالِهم وعِنَادِهم واستكبارِهم، واليَهُودُ مُجَسِّمَة،لذلك عَشِقُوا العِجْلَ ، ولَمْ يَرَوْا جِسْمًا أفضلَ مِنه للعِبَادة . لَقَدْ حُبِّبَ إلَيْهِم العِجْل باعتقادهم التَّشْبيه ، لأنَّهُم طَلَبُوا مَا يُتَصَوَّر في نُفُوسِهم .

والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ الآية ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ ﴾ تَعْني : سُقُوا حُبَّ العِجْلِ ، فَحُذِفَ المُضَاف وهو الحُبُّ ، وأُقِيمَ المُضَاف إلَيْه مَقَامَه .

قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّد عَلى سَبيلِ التُّهَكُّمِ بِهِم والسُّخْرِيَةِ مِنْهُم : بِئْسَ هذا الإيمان الذي يَأمُركم بِعِبَادةِ العِجْلِ إن كُنتُم تَزْعُمُون الإيمانَ ، فَبِئْسَ هَذا العَمَل والصَّنِيع .

والمَعنى : لَسْتُم بِمُؤمنين لأنَّ الإيمان لا يَأمُر بِعبادة العِجْلِ . والمُرَادُ آبَاؤُهُم ، أي : فكذلك أنتُم لَسْتُم بِمُؤمنين بالتَّوراةِ وَقَدْ كَذَّبْتُم مُحَمَّدًا ﷺ ، والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٣٦٢) : ((﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ ، أي قُلْنَا لَهُم : خُذوا مَا أُمِرْتُم بِه في التَّوراةِ بِجِدٍّ ، وَاسْمَعُوا سَمَاعَ طَاعَةٍ ، ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ قَوْلَكَ ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أَمْرَكَ ، ﴿ وَأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ ﴾ تَدَاخَلَهُمْ حُبُّه ، وَرَسَخَ في قُلوبِهم صُورَتُه لِفَرْطِ شَغَفِهِم بِه كما يَتَدَاخَل الصِّبْغُ الثَّوْبَ ، والشَّرَابُ أعماقَ البَدَنِ . وفي قُلوبهم : بيان لمكان الإشراب ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ بسبب كُفْرِهم ، وذلك لأنَّهُم كانوا مُجَسِّمَة أوْ حُلُولِيَّة ، وَلَمْ يَرَوْا جِسْمًا أَعْجَبَ مِنْه ، فَتَمَكَّنَ في قُلوبهم مَا سَوَّلَ لَهُمُ السامريُّ، ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأمُرُكُم بِهِ إيمَانُكُمْ ﴾ ، أي : بالتَّوْرَاة ، ﴿ إن كُنتُم مُؤمنين ﴾ تَقْرير للقَدْحِ في دَعْوَاهُم الإيمان بالتَّوراةِ ، وتقديرُه : إنْ كُنتم مُؤمنين بِها لَمْ يَأمُرْكُم بهذه القبائح ، ولا يُرَخِّص لَكُم فيها إيمانُكم بها ، أوْ إنْ كُنتم مُؤمنين بِها فَبِئْسَمَا يَأمركم بِهِ إيمانُكم بِها ، لأنَّ المؤمن يَنبغي أن لا يَتعاطى إلا مَا يَقْتضيه إيمانُه ، لكنَّ الإيمان بها لا يَأمُر بِه ، فإذًا لَسْتُم بِمُؤمنين)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٧٧) : ((قَوْلُه : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأمُرُكُم بِهِ إيمَانُكُمْ إن كُنتُم مُؤمنين ﴾ ، أي : بِئْسَمَا تَعْتمدونه في قَديمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِه مِنْ كُفْرِكم بآيات اللَّه ومُخالفتكم الأنبياء ثُمَّ اعتمادكم في كُفْرِكم بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وهذا أكبرُ ذُنوبكم ، وأشدُّ الأمْرِ عَلَيْكُم ، إذْ كَفَرْتُم بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ، وَسَيِّدِ الأنبياءِ والمُرْسَلِين،المَبْعُوثِ إلى الناس أجمعين ، فكيف تَدَّعُون لأنفسكم الإيمانَ وَقَدْ فَعَلْتُم هذه الأفاعيل القبيحة،مِنْ نَقْضِكم المَواثيق ، وكُفْرِكم بآياتِ اللَّهِ ، وعِبَادَتِكُم العِجْل مِنْ دُون اللَّهِ ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قليلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُون ﴾ [آل عِمران : ١٨٧] [١٠٥] .

واذكُرْ يا مُحمَّد العَهْدَ المُؤكَّد على عُلَماء اليهود في التَّوراة، أن يُظهِروا ما فِيها مِن أحكام اللَّه وشرائعه وصِفَة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، ولا يُخْفُوا مِن ذلك شيئًا ، فأهْمَلُوا العَهْدَ المُؤكَّد (المِيثاق) ، وطَرَحُوه وراء ظُهورهم ، وأعْرضَوا عنه ، ولَم يَعْمَلُوا به ، وأخذوا بَدَلَهُ شيئًا تافهًا مِن حُطَام الدُّنيا الزائل ، مِن العَوَام والجُهَّال والرَّعَاع ، مُستغلين زعامتهم الدينية ومكانتهم العِلْمية ، فَكَتَمُوا الحَقَّ ، حِرْصًا على مكاسبهم المادية ومصالحهم الشخصية ، فَبِئْسَ هذا الشِّراء ، وخَابُوا وخَسِرُوا وهَلَكُوا.

هذه الآية تُشير إلى ضَرورة نَشْر العِلْم النافع ، والأخذ بأيدي الناس إلى الهِداية ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم . وفيها بيانٌ لخُطُورة كِتمان العِلْم ، وحَجْبه عن الآخرين بسبب منافع دُنيوية دَنيئة . ويجب على العُلَماء أن يكونوا حُرَّاسَ الشريعة ، ويَنشروا أحكامَها كاملةً بدون زيادة ، ولا نُقْصان ، ويُعلِّموا الناسَ تعاليمَ الدِّين ، والأخلاقَ الفاضلة ، والسُّلوكياتِ الاجتماعية الطَّيبة . وكُلُّ ذلك وَفْق المَنهج الإلهيِّ في الدَّعوة والتَّبليغ . وهذا يَتِمُّ بالسَّير على خُطَى الأنبياء أعظمِ الدُّعاةِ ، والاقتداء بأسلوبهم المَعصوم في البَيان وإرشادِ الآخَرين .

---

١٠٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، فِيهم ثلاثة أقوال: أحدها أنهم اليهود، قاله ابن عباس وابن جُبَير والسُّدي ومُقاتل . فعلى هذا الكتاب التَّوراة. والثاني أنهم اليهود والنصارى، والكتاب التَّوراة والإنجيل. والثالث أنهم جميع العُلَماء، فيكون الكتاب اسم جِنس . قَوله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ﴾ ، ... . وفي هاء الكِنَاية في " لَتُبَيِّنُنَّهُ " ، و" تَكْتُمُونَهُ " قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى النبيِّ محمَّد ﷺ ، وهذا قَول مَن قال: هُم اليَهُود . والثاني أنَّها تَرجع إلى الكِتَاب ، قاله الحسن وقَتادة ، وهو أصح ، لأن الكِتاب أقرب المذكورين ، ولأنَّ مِن ضَرُورة تَبيينهم ما فيه ، إظهار صِفَة محمَّد ﷺ ، وهذا قَول مَن ذَهَبَ إلى أنَّه عام في كُلِّ كِتاب . وقال عليٌّ ابن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ما أخذَ اللَّهُ على أهل الجهل أن يَتَعَلَّمُوا ، حَتَّى أخذَ على أهل العِلْم أن يُعلِّموا . قَوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ . قال الزَّجَّاج : أي رَمَوْا به ، يُقَال للذي يَطرَح الشيءَ ولا يَعبَأ به ، قد جَعلت هذا الأمر بظَهْر ... . وفي هاء " فنبذوه " قَولان : أحدهما أنها تعود إلى الميثاق ، والثاني إلى الكتاب. قَوله تعالى : ﴿ واشْتَرَوْا بِهِ ﴾ ، يعني : اسْتَبْدَلُوا بما أخَذَ اللَّهُ عَلَيهم القِيامَ به وَوَعَدَهُم عَلَيه الجَنَّةَ ﴿ ثَمَنًا قليلًا ﴾ ، أي: عَرَضًا يسيرًا مِن الدُّنيا)) .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٩) : ((هذا تَوبيخ مِن اللَّه ، وتهديد لأهل الكِتاب الذينَ أخذَ اللَّهُ عَلَيهم العَهْدَ على ألسنة الأنبياء أن يُؤْمِنُوا بمُحمَّد ﷺ، وأن يُنَوِّهوا بذِكْره في الناس ، لِيَكُونوا على أُهْبَة مِن أمْرِه ، فإذا أرسله اللَّهُ تَابَعُوه ، فَكَتَمُوا ذلك ، وتعوَّضوا عمَّا وُعِدُوا عَلَيه مِن الخَير في الدُّنيا والآخِرة بالدُّون الطفيف ، والحَظ الدُّنيويِّ السَّخيف ، فَبِئْسَت الصَّفقة صَفْقتهم ، وبِئْسَت البَيعة بَيعتهم . وفي هذا تحذير للعُلَماء أن يَسلُكوا مَسْلَكَهُم ، فيُصيبهم ما أصابهم ، ويَسلُك بهم مسالكَهم ، فعلى العُلَماء أن يَبذُلوا ما بأيديهم مِن العِلْم النافع الدَّال على العمل الصالح ، ولا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ٢٩٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، هذا مُتَّصل بذِكْر اليَهُود ، فإنَّهُم أُمِرُوا بالإيمان بمُحمَّد عليه السلام ، وبيان أمره ، فَكَتَمُوا نَعْتَه ، فالآية تَوبيخ لهم ، ثُمَّ مَعَ ذلك هو خَبَرٌ عام لهم ولغَيرهم . قال الحَسَن وقَتَادة : هي في كُلِّ مَن أُوتِيَ عِلْمَ شيء مِن الكتاب ، فَمَن عَلِمَ شيئًا فَلْيُعَلِّمْهُ ، وإيَّاكم وكِتمان العِلْم فإنَّه هَلَكَة . وقال مُحمَّد بن كَعْب : لا يَحِلُّ لِعَالِم أن يَسكُت على عِلْمِه ، ولا للجاهل أن يَسكُت على جَهْلِه . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون ﴾ [الأنبياء : ٧] . وقال أبو هُرَيرة : لَوْلا ما أخذَ اللَّهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكُم بشَيء ، ثُمَّ تلا هذه الآية : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ . وقال الحَسَن بن عُمَارة : أتَيْتُ الزُّهْري بعدما ترك الحديث ، فألْفَيْتُه على بابه ، فقلتُ : إنْ رَأيْتَ أن تُحدِّثني، فقال : أمَا عَلِمْتَ أنِّي تَركتُ الحديثَ ؟ ، فقلتُ : إمَّا أن تُحدِّثني وإمَّا أن أُحدِّثك . قال: حَدِّثْني . قُلتُ : حَدَّثَني الحَكَم بن عُتَيبة عن يحيى بن الجَزَّار ، قال: سَمِعْتُ عليَّ بن أبي طالب يقول : ما أخذَ اللَّهُ على الجاهلين أن يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أخذَ على العُلَماء أن يُعلِّموا . قال : فَحَدَّثَني أربعين حديثًا . الهَاء في قَوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ﴾ ، تَرجِع إلى مُحمَّد ﷺ ، وإنْ لَم يَجْرِ له ذِكْر. وقِيل: تَرجع إلى الكِتاب، ويَدخل فيه بيان أمر النبيِّ ﷺ ، لأنَّه في الكِتاب، وقال: ﴿ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ولَم يَقُلْ : تَكْتُمُنَّهُ ، لأنه في معنى الحال ، أي : لَتُبَيِّنُنَّهُ غَيْرَ كَاتِمِين ... . قَوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ عائدًا على الناس الذين بَيَّنَ لهم الأنبياء)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥ / ٤٠٦) : ((فعلى العُلَماء أن لا يَبْخَلُوا بتَعليم ما يُحْسِنُون ، وأن لا يَمتنعوا مِن إفادة ما يَعْلَمُون ، فإنَّ البُخْل لُؤم وظُلْم ، والمَنْع حَسَد وإثم ، وكَيف يَسُوغ لهم المَنع بما مُنِحُوه جُودًا مِن غَير بُخْل ، وأُوتُوه عَفْوًا مِن غَير بَذل ، أَمْ كَيف يَجُوز لهم

الشُّح بما إنْ بَذَلُوه زادوا نَمَاءً ، وإنْ كَتَمُوه تَنَاقَصَ وَوَهَى ، وَلَو اسْتَنَّ بذلك مَن تَقَدَّمَ لَمَا وَصَلَ العِلْمُ إلَيهم،وانقرضَ بانقراضهم،وصاروا على مَرِّ الأيام جُهَّالًا،وتَقَلُّبِ الأحوال وتَنَاقُصِها أرذالًا .

﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾ وَمَا أحسنَ ما قال بعضُهم:

أَفِدِ العِلْمَ ولا تَبْخَلْ بِهِ وإلى عِلْمِكَ عِلْمًا فَاسْتَزِدْ

مَن يُفِدْهُ يَجْزِهِ اللَّهُ بِهِ وسَيُغْني اللَّهُ عَمَّنْ لَمْ يُفِدْ

قال الراغب : إفادة العِلْم مِن وَجْه صِناعة ، ومِن وَجْه عِبادة ، وَمِن وَجْه خِلافة اللَّه، فإنَّ اللَّه تعالى مع استخلافه ، قد فَتَحَ على قَلْبه العِلْمَ ، الذي هو أخصُّ صِفَاته تعالى ، فهو خازن لأجل خزائنه ، وقد أَذِنَ اللَّهُ له في الإنفاق عَلى كُل أحد مِمَّن لا يَفُوته الإنفاق عَلَيه ، وكُلَّما كان إنفاقُه على ما يُحِب وكما يُحِبُّ أكثر، كان جَاهُهُ عِندَ مُسْتَخْلِفِهِ أوْفَر)) .

قال أبو هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ((لَوْلا ما أَخَذَ اللَّهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكُم بشَيء ، ثُمَّ تلا : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾)) [١٠٦] .

وهُنا تتجلَّى أهمية نَشْر العِلْم وعَدَم كِتمانه . وأبو هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أكثر الصحابة روايةً للحديث . وَقَدْ بَيَّنَ سَبَبَ كثرة حديثه ، فهو يُريد نشر كُلِّ مَا سَمِعه مِن النبيِّ ﷺ ، لئلا يكون مِن كَاتِمِي العِلْم الذين ذَمَّهُم اللَّهُ تعالى ، وفَضَحَهم بسبب خِيانتهم للأمانة، وعدم التزامهم بالمِيثاق القاضي ببيان الشَّرْع الإلهيِّ وتَبليغه للناس، مِمَّا يُشير إلى الأهمية البالغة لنَشْر العِلْم، وتَبليغ الحَق، وذلك لإخراج الخلائق مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم ، ومِن مَتاهةِ الكُفر إلى واحة الإيمان . وهكذا ، تتَّضح أهميةُ نَشْر العِلْم كَمَنْهَجِ خَلاصٍ كَوْنِيٍّ .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامةِ بِلِجَامٍ مِن نار)) [١٠٧] .

يجب العَمَلُ بالعِلْم النافع ، ونَشْرُ العِلْم النافع بين الناس ، وعَدم كِتمانه ، لأنَّ كِتمانه خِيانة ، ويُسبِّب ضررًا للناس ، ويُؤَثِّر سلبًا على حياتهم . وزكاةُ العِلْمِ نَشْرُه وإذاعته ، وهو يَجلِب المنافعَ للناس ، ويُحقِّق مصالحَهم . والمالُ يَنقُص بنشره بين الناس وتَوزيعه عَلَيهم ، أمَّا العِلْمُ فيَكثُر ويَزداد بنشره بين الناس ، وبَثِّه فِيهم .

---

١٠٦ رواه الحاكم في المستدرك(١/ ١٩٠)برقم (٣٦٦) وصَحَّحَه، وقال الذهبي : ((لا أعْلَمُ له عِلَّة)).

١٠٧ رواه الحاكم في المستدرَك (١ / ١٨٢) برقم (٣٤٦) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

ومَن كَتَمَ عِلْمًا ، وَضَعَ اللَّهُ في فمه قِطعةً مِن حديدٍ مِن نار يوم القِيامة عُقوبةً له . والجَزاءُ مِن جِنس العَمل . واللجامُ : ما يُوضَع في فَم الفَرَس لِتُقاد به .

وهذا التحذيرُ الشديد يَعكس العاقبة الوخيمة لِكَاتِم العِلْم . فعلى المَرء أن يَخرج من دائرة العُقوبة ، وذلك بِتَبَنِّي الدَّعوة مشروعًا أُمَمِيًّا طِيلة حَياته ، حَيث النَّشْر المنهجي للعِلْم النافع ، ومُساعدة الآخرين بإرشادهم إلى إعمال عُقُولهم ، وتَنظيفها مِن شوائب الجَهْل ، كَي تَستوعب نُورَ العِلْم ، وتتلقَّى ضَوءَ الدَّعوة الصافية بلا إفراط ولا تفريط . وتظلُّ الكَلِمَةُ الخالدة في كُل زمان ومكان : زَكاةُ العِلْمِ نَشْرُه .

والحديثُ يُحذِّر مِن كِتمان العِلْم ، ويَدعو إلى نشره بين الناس ، وتعليمه لهم ، لنقلهم مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم .

وقال المُناوي في فَيْض القدير (٦/ ١٤٦) : (((مَن سُئِلَ عَن عِلْم) عَلِمَه قطعًا ، وهو عِلْم يحتاج إليه سائل في أمر دِينه . وقيل : ما يَلزَم عليه تعليمه كَمُريد الإسلام ، يَقول : عَلِّمْني الإسلامَ. والمُفتي في حلال أوْ حرام . وقيل: هو عِلْم الشَّهَادَتَيْن (فَكَتَمَهُ) عن أهله (ألجمه اللَّهُ يوم القيامة بلِجَام) فارسي مُعرَّب (مِن نار) أي: أدخلَ في فيه لِجَامًا مِن نار مُكافأةً له على فِعْله، حيث ألجمَ نَفْسَه بالسُّكوت في مَحَلِّ الكلام ، فالحديث خَرَجَ على مُشَاكَلَة العُقوبة للذَّنْب ، وذلك لأنَّه سُبحانَه أخذَ الميثاقَ على الذين أُوتُوا الكِتابَ ، لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ، ولا يَكتمونه . وفيه حَث على تعليم العِلْم ، لأنَّ تَعَلُّمَ العِلْم إنما هو لِنَشْره ، ودَعْوة الخَلْق إلى الحق ، والكَاتِم يُزاول إبطالَ هذه الحِكمة ، وهو بعيد عن الحكيم المُتقِن ، ولهذا كان جزاؤه أن يُلجَم ، تشبيهًا له بالحيوان الذي سُخِّرَ ومُنِعَ مِن قَصْد ما يُريده ، فإنَّ العَالِم شأنه دُعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم)) .

وفي نَفْسِ المَرْجِع (٦/ ٢١٢): (((مَن كَتَمَ عِلْمًا عَن أهله أُلْجِمَ) بالبناء للمَفعول ، والفاعل اللَّه . وفي رواية ألجمه اللَّهُ (يوم القيامة لِجَامًا مِن نار) أي المُمْسِك عن الكلام ، مُمَثَّل بِمَن ألزم نَفْسَه بِلجَام ، وتنكير عِلْم في حَيِّز الشَّرْط يُوهِم شُمولَ العُموم لِكُلِّ عِلْمٍ حتى غَيْر الشَّرْعِيِّ. وخصَّه كثير كالحَليمي بالشَّرْعِيِّ . والمُراد به ما أُخِذَ مِن الشَّرْع، أو تَوَقَّفَ هو عليه تَوَقُّف وُجود، كعِلْم الكلام، أوْ كَمَال كالنَّحْو والمَنطِق . والحديث نَصٌّ في تحريم الكَتْم ، وخَصَّه آخرون بما يَلزَمه تعليمه، وتَعَيَّنَ عَلَيه. واحْتُرِزَ بقَوله : " عن أهله " . كَتْمه عن غَير أهله فمطلوب بل واجب . فقد سُئِلَ بعض العلماء عن شيء فَلَم يُجِبْ . فقال السائل : أمَا سَمِعْتَ خَبَرَ:"مَن كَتَمَ عِلْمًا" إلخ.

قال: اترُك اللجَامَ واذْهَبْ،فإنْ جاء مَن يَفْقَهه،فكتمتُه، فَلْيُلْجِمْني.وقَوله تعالى : ﴿ ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكم ﴾ [النِّسَاء : ٥]. تنبيه على أنَّ حِفْظ العِلْم عَمَّن يُفْسِده أوْ يَضرِبه أوْلَى . وليس الظُّلْم في إعطاء غَير المُستحِق بأقل مِن الظُّلْم في مَنع المُستحِق . وجَعَلَ بعضُهم حَبْسَ كُتب العِلْم مِن صُوَر الكَتْم سِيَّما إنْ عَزَّتْ نُسَخُه . وأخرجَ البَيْهقي عن الزُّهْري : إيَّاكَ وغُلُولَ الكُتُب . قِيل : وما غُلُولُها ؟ ، قال : حَبْسُها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِم وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُم لا تَعْدُوا في السَّبْتِ وأخَذْنا مِنهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النِّساء : ١٥٤] .

رَفَعَ اللَّهُ فَوْقَ بني إسرائيل جبلَ الطُّور لمَّا رَفضوا العملَ بالتَّوراة ، وامتنعوا مِن قَبول شريعة النبيِّ مُوسى ﷺ ، فَقَبِلُوها ، وقالَ لَهُمْ والطُّورُ مُظِلٌّ عليهم : ادْخُلوا بابَ بَيْتِ المَقْدِسِ سُجُودَ انحناء ، خُضُوعًا للَّهِ ، فَخَالَفُوا الأمرَ الإلهيَّ ، ودخلوا يَزْحَفُون على أَسْتَاهِهِم (أدبارهم) ، وهُمْ يقولون: حَبَّة في شَعْرة، سُخريةً واستهزاءً . وقال لهم : لا تَعتدوا باصطياد الحِيتان في يوم السَّبت ، فاصطادوا وخَالَفُوا الأمرَ الإلهيَّ ، وأخَذَ اللَّهُ مِنْهُمْ عَهْدًا مُؤَكَّدًا، فَنَقَضُوه، وَخَالَفُوه ، وَأعْرَضُوا عَنْه.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦١) : ((﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِم ﴾ وذلك حِينَ امتنعوا مِن الالتزام بأحكام التَّوراة ، وظَهَرَ مِنْهُم إبَاء عَمَّا جاءهم به مُوسَى عليه السلام، ورَفَعَ اللَّهُ على رُؤوسهم جَبَلًا ، ثُمَّ أُلْزِمُوا ، فالتزَموا ، وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خَشية أن يَسقط عليهم ، كما قالَ تعالى : ﴿ وإذْ نَتَقْنا الجبلَ فَوْقَهُم كأنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أنَّهُ واقعٌ بِهِم خُذُوا مَا آتَيناكُم بِقُوَّة ﴾ [الأعراف : ١٧١] الآية . ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا ﴾ أي : فَخَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِه مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ ، فإنَّهُم أُمِرُوا أن يَدخلوا باب بَيْت القُدْس سُجَّدًا وهُمْ يقولون : حِطَّة ، أي : اللهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنوبَنا في تَرْكِنا الجِهَاد ، ونُكُولِنا عنه ، حتى تُهْنَا في التِّيه أربعين سنة ، فدخلوا يَزْحَفُون على أَسْتَاهِهِم ، وهُمْ يقولون : حِنْطَة في شَعْرَة ﴿ وَقُلْنَا لَهُم لا تَعْدُوا في السَّبْتِ ﴾ أي : وَصَّيْناهم بِحِفظ السَّبْت، والتزامِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عليهم مَا دَامَ مَشروعًا لهم ، ﴿ وأخَذْنا مِنهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي : شديدًا ، فَخَالَفُوا ، وعَصَوْا ، وتَحَيَّلوا على ارتكاب مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيلَ وَأرْسَلْنَا إلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُون ﴾ [المائدة : ٧٠] .

بَيَّنَ اللَّهُ أنَّه أَخَذَ العُهودَ والمَواثيقَ على بني إسرائيل على السَّمْعِ والطاعةِ للَّهِ ولرسولِه ، فَنَقَضُوا تِلْك العُهودَ والمَواثيقَ، وَاتَّبَعُوا آراءَهم وأهواءَهم، وَقَدَّمُوها على الشرائعِ، فَمَا وَافَقَهُم مِنْهَا

قَبِلُوه ، وَمَا خَالَفَهُم رَدُّوه . لَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ اليَهُودِ العَهْدَ المُؤَكَّدَ عَلى الإيمانِ باللَّهِ وَرُسُلِه ، وهذا إخبارٌ بِما صَدَرَ مِنْ آباءِ اليَهُودِ مِنْ نَقْضِ المِيثاقِ الذي أَخَذَه اللَّهُ عليهم ، وَمَا ارتكبوه مِنَ الجَرائمِ العظيمةِ مِنْ تَكذيبِ الأنبياءِ وَقَتْلِ بَعْضِهِم ، وهَؤلاء أبناءُ أُولئك ، فَلَيْسَ غريبًا ولا عجيبًا مَا يَصْدُر مِنْهُم للنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأذى والعِصْيان ، فَهُوَ عادةُ آبائهم. وأرْسَلَ اللَّهُ إلَيْهِم الرُّسُلَ لِيُرْشدوهم ، وَيُبَيِّنُوا لَهُمْ أمْرَ الدِّينِ ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ أُولئك الرُّسُلِ بِما يُخَالِف أهواءَهم وشَهَوَاتِهم ، كَذَّبُوا طائفةً مِنَ الرُّسُلِ ، وَيَقْتُلُون طائفةً أُخْرَى مِنْهُم . وعلى سبيل المثال لا الحَصْر ، كَذَّبَ اليهودُ عِيسَى ومُحَمَّدًا عليهما الصلاة والسلام ، وقَتَلُوا يَحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٦٥٠) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : أُقْسِمُ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثاقَ بَنِي إسرائيل على الإخلاصِ في تَوحيدِنا ، والعَمَلِ بِما أمَرْنَاهُم بِه ، والانتهاءِ عَمَّا نَهَيْنَاهُم عَنْه ، وَأرْسَلْنَا إلَيْهِم بذلك رُسُلًا ، وَوَعَدْنَاهُم على ألْسُنِ رُسُلِنا إلَيْهِم عَلى العمل بطاعتنا الجزيلَ مِن الثَّوَاب، وَأوْعَدْنَاهُم على العمل بِمَعصيتنا الشديدَ مِن العِقَاب،كُلَّمَا جاءهم رسولٌ لَنَا بِما لا تَشْتهيه نُفُوسُهم ، ولا يُوَافِق مَحَبَّتَهُم ، كَذَّبُوا مِنهُم فريقًا ، وَيَقْتُلُون مِنهُم فريقًا ، نَقْضًا لِمِيثَاقِنا الذي أخَذْنَاه عَلَيْهِم ، وَجَرَاءة عَلَيْنَا وَعَلى خِلافِ أمْرِنا)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٣٥٠) : ((﴿ لَقَدْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيلَ وَأرْسَلْنَا إلَيْهِمْ رُسُلًا ﴾ لِيُذكِّرُوهُم وَلِيُبَيِّنُوا لَهُم أمْرَ دِينِهم ، ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أنفُسُهُمْ ﴾ بِمَا يُخَالِف هَوَاهُم مِنَ الشَّرائعِ وَمَشَاقِّ التكاليف ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُون ﴾ . ... . وإنَّما جِيءَ بِـ ﴿ يَقْتُلُون ﴾ مَوْضِع قَتَلُوا ، على حِكاية الحال الماضية ، استحضارًا لها ، واستفظاعًا للقتل ، وتَنْبيهًا على أنَّ ذلك مِنْ دَيْدَنِهِم ماضيًا ومُسْتَقْبَلًا ، وَمُحَافَظَةً على رُؤوسِ الآي)) .

٧ ـ شِدَّةُ حِرْصِهِم عَلى الحَيَاةِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ إن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ الناسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إن كُنتُم صادقين ﴾ [البَقَرَة : ٩٤] .

هذه الآيةُ فَضَحَت اليَهُودَ ، وكَشَفَتْ عَنْ دواخلهم المُمتلئة بِحُبِّ الدُّنيا وكَرَاهِيَةِ المَوْتِ .

إنْ كانَ جَزاءُ اليهود الجَنَّةَ في الآخِرَةِ فَلْيَتَمَنَّوُا المَوْتَ ، ومُلاقاةَ اللَّهِ كَي يُكافئَهم بالنعيم الأبديِّ ، فيرتاحوا مِن عَناء الدُّنيا ، لكنَّهم يَعْلَمُون أنَّ مصيرهم إلى العذاب ، فَيَهْرُبُون مِنَ المَوْتِ ـ حَسَبَ نظرتهم القاصرة ـ ، ويَتَشَبَّثون بالدُّنيا بأسنانِهم وأظافرِهم لِعِلْمهم بما يَنتظرهم بعد المَوْتِ مِن العُقوبةِ الشديدةِ والعذابِ الأليم .

وفي الشِّفا (١/ ٢٠٧) : ((قال أبو إسحاق الزَّجَّاج : في هذه الآية أعظم حُجَّة وأظهر دَلالة على صِحَّة الرسالة ، لأنَّه قال : ﴿ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ ﴾ ، وأعْلَمَهُم أنَّهُم لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبدًا ، فَلَمْ يَتَمَنَّهُ واحدٌ مِنهُم)) .

لقد كَشَفَ اللَّهُ باطلَهم وغُرورَهم ، وفَنَّدَ الدَّعاوى العريضة التي يَتَشَدَّقون بها ، فاليهودُ كانوا يَزْعُمون أنَّهم أصحابُ الجَنَّة ، ولا يُشاركهم فيها أحد ، فَكَذَّبَهم اللَّهُ بالدليلِ القاطعِ ، والبُرهانِ الساطعِ، والحُجَّةِ الباهرة ، فَمَنْ يَعتقد أنَّهُ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ ، سَيَشتاق إلَيها ، ويَكْرَه الدُّنيا الوضيعة ، ويَتَمَنَّى المَوْتَ كَي يَدْخُلَ الجَنَّةَ ويرتاح مِن التعبِ والشقاء. وفي هذه الحالة ، يَكُون المَوْتُ أحَبَّ إلَيْهِ مِن الحياة. وبِما أنَّ اليهودَ يُقَدِّسون مَتَاعَ الدُّنيا الزائل، امْتَنَعُوا عَنْ تَمَنِّي المَوْتِ،وهذا تَصديقٌ مِنهُم للنبيِّ ﷺ واعترافٌ ضِمْنِيٌّ بِصِحَّة نُبُوَّتِه، وتكذيبٌ لأنفسهم،وَقَدْ فَضَحُوا أنفُسَهم بأنفُسِهِم .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير(١/١١٦):((كانت اليَهُودُ تَزْعُم أنَّ اللَّه تعالى لَمْ يَخْلُق الجَنَّةَ إلا لإسرائيل وَوَلَدِه ، فَنَزَلَتْ هذه الآية . ومِن الدليل على عِلْمِهم بأنَّ النبيَّ ﷺ صادقٌ أنَّهُم مَا تَمَنَّوُا المَوْتَ)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٨٩) : ((وقَوْلُه تعالى : ﴿ قُل إن كانت لَكُمُ الدارُ الآخِرةُ ﴾ الآية ، أمْرٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ أن يُوَبِّخَهم . والمعنى: إنْ كان لكم نَعِيمُها وحَظْوَتُها وخَيْرُها فذلك يَقْتضي حِرْصَكم على الوُصول إليها، فَتَمَنَّوُا المَوْتَ، و﴿ الدارُ ﴾ اسم كان، و﴿ خَالصةً ﴾ خَبَرُها، و ﴿ مِن دُونِ الناسِ ﴾ يُحْتَمَل أن يُراد بالناس مُحَمَّد ﷺ ومَنْ تَبِعَه . ويُحْتَمَل أن يُراد العُموم.وهذه آيةٌ بَيِّنَة أعطاها اللَّهُ رَسولَه مُحَمَّدًا ﷺ، لأنَّ اليهود قالت: ﴿ نحن أبناءُ اللَّه وأحباؤه ﴾ [المائدة: ١٨] ، وشَبَه ذلك مِنَ القَوْلِ ، فَأمَرَ اللَّهُ نَبِيَّه أن يَدْعُوَهم إلى تَمَنِّي المَوْتِ ، وأن يُعْلِمَهم أنَّه مَنْ تَمَنَّاه مِنْهُم ماتَ ، فَفَعَلَ)) اهـ . وبالتأكيد ، اليَهُود لَمْ يَفْعَلُوا .

وروى أحمد في مُسنده (١/ ٢٤٨) عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((... ، وَلَوْ أنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لَمَاتُوا ، ورَأَوْا مَقَاعِدَهُم في النار)) .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨) وصَحَّحَه، عن عِكْرمة في قَوْلِه تعالى: ﴿ فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين ﴾ قال : قال ابن عباس : ((لَوْ تَمَنَّى يَهُودٌ المَوْتَ لَمَاتُوا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ واللَّهُ عَلِيمٌ بالظالمين ﴾[البَقَرَة : ٩٥].

هذا خَبَرٌ قاطعٌ مِنَ اللَّهِ عن اليهود، ونَبَأ يقينيٌّ لا يَحتمِل الشَّكَّ. إنَّ اليَهُودَ لَنْ يَتَمَنَّوُا المَوْتَ أبدًا بسبب جَرائمِهم وذُنوبِهم وكُفْرِهم وتَحريفِهم التَّوراة وقَتْلِهم الأنبياء ، وعِلْمِهم بأنَّ هُناك عذابًا

يَنتظرهم بَعْدَ المَوْتِ ، فَهُمْ يُدرِكون أنَّهم كافرون لا نصيب لهم في الجَنَّة . وهذا إخبارٌ بالغَيْبِ المُستقبليِّ ، وَقَدْ كانَ الأمرُ كما أخْبَرَ القُرْآنُ ، إذْ إنَّ اليَهُودَ لَمْ يَتَمَنَّوا المَوْتَ، وَلَوْ تَمَنَّوْهُ لِنُقِلَ ذلك عنهم ، وتداولته الأجيال ، واكتشفَ الناسُ كَذِبَ القُرآن.وهذا لَمْ يَحْدُثْ.لقد أخْبَرَ اللَّهُ أنَّهُم لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبَدًا ، وهذا مَا كان ، مِمَّا يدلُّ عَلى صِدْقِ القُرْآنِ ، وَصِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ . وهذا الإخبارُ بالغَيْبِ مِن وُجوه إعجاز القُرآن . ﴿ واللَّهُ عَليمٌ بالظالمين ﴾ . إنَّ اللَّهَ يَعْلَم الكافرين الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بأنْ أوردوها المَهَالِك . وهذا تَهديدٌ لهم ، وإلصاق صِفة الظُّلْم بِهِم ، لِتَظَلَّ وَصْمَة عارٍ عليهم في الدُّنيا والآخرة. وذِكْرُ " اليد " دون سائر الأعضاء ، لأنَّ أكثرَ الجرائم تَكون باليد ، فَأُضِيفَتْ جرائم الإنسان إلى يَدِه ، حَتَّى لَوْ لَمْ تَكُنْ لها علاقة بالجريمة .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢/ ٣٤) : ((فَإنْ قِيل: فالتَّمَنِّي يَكُون باللسان تَارَةً ، وبالقلب أُخْرَى ، فَمَنْ أيْنَ عُلِمَ أنَّهُمْ لَمْ يَتَمَنَّوْهُ بقلوبهم ؟ ، قِيل له : نَطَقَ القُرْآنُ بذلك بِقَوْلِه: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أبَدًا ﴾ ، وَلَوْ تَمَنَّوْهُ بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم ، رَدًّا على النَّبِيِّ ﷺ ، وإبطالًا لِحُجَّتِه ، وهذا بَيِّن)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ١٨٠) : ((و" ما " في قَوله : ﴿ بما قَدَّمَتْ أيديهِم ﴾ مَوصولة ، والعائد مَحذوف : أي بما قَدَّمَتْهُ مِنَ الذُّنوبِ التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب ، بَلْ غير طامع في دُخول الجَنَّة ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِه قاطعًا بها، فَضْلًا عَن كَوْنِها خالصةً له مُخْتَصَّة به. وقِيل : إنَّ اللَّه ــ سُبحانَه ــ صَرَفَهُم عَن التَّمَنِّي، لِيَجعل ذلك آيةً لِنَبِيِّهِ ﷺ . والمُرادُ بالتَّمَنِّي هُنا : هُوَ التَّلَفُّظُ بِما يدلُّ عليه ، لا مُجَرَّد خُطوره بالقلب ومَيْل النَّفْس إليه ، فإنَّ ذلك لا يُرَاد في مَقَامِ المُحَاجَّة ، ومَوَاطِنِ الخُصُومة ، ومَواقفِ التَّحدِّي . وفي تَركهم للتَّمَنِّي أوْ صَرْفِهم عنه مُعْجِزة لرسول اللَّه ﷺ ، فإنَّهُم قد كانوا يَسْلُكُون مِن التَّعَجْرُفِ ، والتَّجَرُّؤ على اللَّه ، وعلى أنبيائه ، بالدَّعَاوى الباطلة في غَيْرِ مَوْطِن، مَا قَدْ حَكَاه عنهم التَّنْزيل ، فَلَمْ يَتركوا عادتهم هُنا ، إلا لِمَا قَدْ تَقَرَّرَ عِندهم مِن أنَّهُم إذا فَعَلُوا ذلك التَّمَنِّي ، نَزَلَ بِهِم المَوْتُ ، إمَّا لأمْرٍ قَدْ عَلِمُوه ، أوْ للصَّرْفَةِ مِنَ اللَّهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ . وَقَدْ يُقَال : ثَبَتَ النَّهْيُ عن النبيِّ ﷺ عَنْ تَمَنِّي المَوْتِ ، فكيف أمَرَه اللَّهُ أن يأمرهم بما هو مَنْهِيٌّ عنه في شريعته ؟ . ويُجَاب بأنَّ المُراد هُنا إلزامُهم الحُجَّة ، وإقامة البُرْهَان على بُطْلان دَعْوَاهُم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُم أحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُم لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون ﴾ [البَقَرَة : ٩٦] .

الخِطَابُ الإلَهِيُّ للنَّبِيِّ ﷺ . واللامُ لامُ القَسَمِ. واللَّهِ لَتَجِدَنَّ اليَهُودَ أحْرَصَ الناس على حياة ، وأشَدَّهم كَرَاهَةً للمَوْتِ . وحِرْصُهُم على الحياة لمعرفتهم بجرائمِهم وذُنوبِهم وآثامِهم ، وأنَّ اللَّهَ أعَدَّ لَهُمُ العَذابَ .

وتَنكيرُ ﴿ حَيَاةٍ ﴾ للتَّحقير . أي إنَّهُم أحرص الناس على أحْقَرِ حَيَاةٍ وأقْصَرِها ، فكيفَ بالحياة الجميلة الطويلة ؟ . وقال النَّسَفِي في تفسيره (١/ ٥٩) : ((التَّنكيرُ يدلُّ على أنَّ المُراد حَيَاة مَخصوصة، وهي الحياة المُتَطَاوِلَة)) .

واليَهُودُ أحرص على الحياة الدُّنيا مِن المُشركين، معَ أنَّ اليهود أهل كتاب ، والمُشركين عُبَّاد أصنام وأوثان ، لا كِتاب لهم ، وذلك لأنَّ اليهود يُؤْمِنُون بالبَعْثِ واليَوْمِ الآخِرِ ، ويَعْلَمُون مَصِيرَهم السَّيئ والعذاب الشديد الذي يَنتظرهم بعد المَوْتِ ، لذلك يَحْرِصُون على طُولِ العُمُر ، وهذا يدلُّ على سُوء حالهم ، أمَّا المُشركون فلا يُؤْمِنُون بالبَعْثِ ولا اليَوْمِ الآخِر .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤٧٢) : ((وإنَّما وَصَفَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُه اليَهُودَ بأنَّهُم أحرص الناس على الحياة ، لِعِلْمِهِم بِما قَدْ أَعَدَّ لهم في الآخرة على كُفرِهم ، بما لا يُقِرُّ به أهل الشِّرْك ، فَهُمْ للمَوْتِ أكْرَه مِنْ أهْلِ الشِّرْكِ الذين لا يُؤْمِنُون بالبَعْثِ ، لأنَّهُم يُؤْمِنُون بالبَعْثِ ، ويَعْلَمُون مَا لهم هُنالك مِن العذاب، والمُشركون لا يُصَدِّقون بالبَعْثِ ولا العِقَابِ ، فاليهودُ أحرصُ مِنْهُم على الحياة ، وأكْرَه للمَوْتِ)) .

يُحِبُّ اليهوديُّ ويُريد ويَتَمَنَّى لَوْ يَعيش ألْفَ سَنَة ، لأنَّه يَعلَم أنَّ آخِرَتَه فاسدةٌ وضائعةٌ . وطُولُ عُمُرِه لا يُنقِذه مِن عذاب النار ، ولا يُنَجِّيه مِنها ، فالنارُ مَصِيرُه ومُسْتَقَرُّه ، عاجلًا أوْ آجِلًا .

واللَّهُ بصيرٌ بأقوال عِبَادِه وأفعالِهم ، ويَعْلَم مَا يَفْعَلُونه مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ ، وَسَيُجازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ١١٦ و١١٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُم ﴾ . اللام لام القَسَم ، والنُّون توكيد له . والمَعنى : وَلَتَجِدَنَّ اليهودَ في حال دُعائهم الى تَمَنِّي المَوْتِ ، ﴿ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ ، وأحرص ﴿ مِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ . وفي الذين أشركوا قَولان : أحدهما أنهم المَجُوس ، قاله ابن عباس وابن قُتَيبة والزَّجَّاج. والثاني مُشركو العرب، قاله مُقاتل . قَوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُم ﴾ ، في الهاء والميم مِن ﴿ أَحَدُهُم ﴾ قَولان : أحدهما أنها تعود على الذين أشركوا ، قاله الفرَّاء . والثاني ترجع الى اليهود ، قاله مُقاتل . قال الزَّجَّاج : وإنَّما ذَكَرَ ألْفَ سَنَة ، لأنها نهاية ما كانت المَجُوس تدعو بها لملوكها ، كان الملك يُحَيَّا ، بأن يُقال له : عِشْ

ألْفَ نَيْرُوز وألْفَ مَهْرَجان . قَوْلُه تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ فيه قَولان ذكَرهما الزَّجاج: أحدهما أنه كِناية عن أحدهم الذي جرى ذِكْره ، تقديره: وما أحدُهم بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ تعميرُه . والثاني أن يكون هو كِناية عمَّا جرى مِن التعمير، فيكون المعنى : وَمَا تَعميرُه بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ ، ثُمَّ جَعل ﴿ أن يُعَمَّرَ ﴾ مُبَيِّنًا عنه ، كأنه قال: ذلك الشيء الدَّنيء ليس بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ)) .

إن اليهود أشد الناس تَمَسُّكًا بالحياة ، وهُمْ يَتَشَبَّثون بالحياة الدنيا بأسنانهم وأظافرهم . ويَكرهون الموتَ أشد الكراهة ، لِعِلْمهم بما ينتظرهم مِن العذاب والخِزي والعار ، بسبب ذنوبهم وآثامهم وجرائمهم . وبالتالي يَتَمَنَّوْنَ ألا يموتوا ، أو أن يَعيشوا عددًا كبيرًا من السَّنواتِ ، وهذا لَنْ يُنقذهم من العذاب العظيم الذي أعَدَّه اللَّهُ لهم بعد المَوْتِ .

وهُمْ لا يَكرهون المَوْتَ بِحَدِّ ذاته ، وإنما يَكرهون لِقَاءَ اللَّهِ تعالى من أعماق قلوبهم القاسية، لِعِلْمِهِم أنَّ هُناك بَعْثًا بَعْدَ المَوْتِ وَحِسَابًا عَسِيرًا.وَجَنَّةُ اليهود في الدُّنيا،ولا نصيب لهم في الآخرة.

إنَّهُم قَدْ خَرَّبوا آخِرَتَهُم ، وعَمَّروا دُنياهم، فكرهوا أن يَنْتقلوا مِن العَمَارِ إلى الخَرَابِ . وهُمْ يَعْلَمُون عاقبتهم السيئة وعذابَهم الشديد بعد المَوْتِ بسبب ذُنوبهم ، ويُريدون أن يَطُول بِهِم العُمُر إلى أقصى مَدى. والدُّنيا جَنَّتُهُم ومُنتهى عِلْمِهم وأحلامِهم . وفي الآخرة سَيَدفعون ثمنَ جرائمهم ، فَيَخْلُدون في عذاب النار الشديد. واليهودُ يَعرِفون ذُنوبَهم وآثامَهم ، وأن لا خَيْر لهم عِنْد اللَّه ، ولا كرامة لهم في الآخرة . لذلك يَحْرِصُون على الحياة بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّة ، ويَتَمَسَّكون بِجَمْعِ حُطَامِها الفاني ومَتَاعِها الزائلِ بِكُلِّ الوسائل . والدُّنيا سِجْنُ المُؤمِنِ وَجَنَّةُ الكافرِ .

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما:ـ ﴿ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياة ﴾، قال:((اليهود)) [١٠٨].

إنَّ اليهود يَعْشَقُون الحَيَاةَ الدُّنيا ، ويَكْرَهُون المَوْتَ بِكُلِّ مشاعرهم . وعِشْقُ الدُّنيا أساسُ الجرائمِ والذُّنُوبِ والمَعَاصِي . والنهايةُ حِين تَكُون سوداء ، فإنَّ المَرْءَ سَوْفَ يُقَاتِل للابتعاد عنها . وهذا مَا يفعله اليهودُ في كُلِّ العُصور . إنَّ تفكيرهم مُنْصَب على الدُّنيا، لذلك هُمْ يُسيطرون على مُثَلَّثِ الشَّهَوَاتِ الأرْضِيِّ : المال والجِنْس والإعلام . واليهودُ في عِشْقهم للدُّنيا وإسقاطِ الآخرة مِنْ حِساباتهم يَتَشَابهون معَ العَرَبِ الوثنيين في الجاهليَّة الذين كانوا يُنكِرُون البَعْثَ، ولا يُؤمِنُون بوجود الآخرة . وفي ذلك يقول شاعر اليهود :

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنيا فَإنَّكَ فَانٍ مِنَ النَّشَوَاتِ والنِّسَاءِ الحِسَانِ

---

١٠٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٢٨٩) برقم (٣٠٤٣) وَصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي.

وهُناك فَرْقٌ واضح بَيْنَ تَمَنِّي المَوْتِ وحُبِّ لقاء اللَّهِ تعالى. فالأوَّلُ مَنْهِيٌّ عنه، والثاني واجب .

عن سعد بن عُبَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال : ((لا يَتَمَنَّى أحَدُكُمُ المَوْتَ)) [١٠٩] .

المُؤمِنُ يُسَلِّمُ أمْرَه لقضاءِ اللَّهِ ، ويَرْضَى بِه ، فإذا رَضِيَ تَمَامَ الرِّضَا فَلَهُ الأجْرُ والثَّوَابُ ، أمَّا الغافلُ الذي يَسْخَطُ على القَضَاءِ ، فلا قُوَّة له تَمْنَع قَضَاءَ اللَّهِ وقَدَرَه ، ومعَ ذلك فإنَّه يُعَاقَب عَلى سَخَطِه هذا، ولذلك نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أن يَتَمَنَّى أحَدٌ المَوْتَ لأيِّ سَبَبٍ كان .

وإذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ أمَلُه وعَمَلُه ، وزيادةُ العُمُرِ لا تَزِيدُ المُؤمِنَ إلا خَيْرًا ، فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ تَمَنِّي المَوْتِ ، لأنَّه في مَعنى التَّبَرُّمِ عَن قَضَاءِ اللَّهِ في أمْرٍ مَنْفَعَتُه عائدةٌ على العَبْدِ في آخِرَتِه . وَيَجِب على العَبْدِ المُؤمِنِ إذا اشْتَدَّتْ عَلَيْه المصائبُ أن يَصْبِرَ ، ويَلْجَأ إلى اللَّهِ بالتَّضَرُّعِ والدُّعَاءِ .

إنَّ الحَيَاةَ نِعْمَةٌ إلهيَّة عظيمة ، ويَجِب على الإنسان احترامُها وتقديرُها وشُكْرُ اللَّهِ عليها ، فلا يَتَمَنَّى المَوْتَ ، ولا يَرْفُض الحَيَاةَ . وَتَمَنِّي المَوْتِ يَحْرِمُ المُؤمِنَ مِنَ الطاعةِ والعِبادةِ والتَّوْبَةِ .

وحُبُّ لقاء اللَّه أمرٌ عظيم ، ويدلُّ على حُسْنِ إسلام المَرْء. وشَيْءٌ طبيعيٌّ أن يخافَ الإنسانُ مِنَ المَوْتِ الذي يُعَدُّ نَقْلَةً بالغة الخُصُوصِيَّة ، وَمَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيامَتُه، فهو في النَّعيمِ أو العَذاب. لكنَّ حُبَّ اللَّهِ يُنْسِي المَرْءَ مَعْنَى المَوْتِ وشِدَّتَه ، وَلْيَكُنْ قَصْدُ الإنسانِ هُوَ اللَّهَ وَحْدَه .

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ_رَضِيَ اللَّهُ عنه_عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : ((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه)) [١١٠] .

الدُّنيا دَارُ فَنَاءٍ ، والآخِرَةُ دَارُ البَقَاءِ ، والإنسانُ في الدُّنيا كعابرِ سَبيلٍ .

مَنْ أحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه ، لِمَا يَتَرَتَّب على هَذا اللقاءِ وَتِلْك المَحَبَّة مِنَ الجَزَاءِ بالنَّعيمِ ، ومَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه ، لِمَا يَتَرَتَّب على هذا اللقاءِ وتِلْك الكَرَاهِيَةِ مِنَ الجَزاءِ بالعَذابِ والعِقَابِ . وَمَحَبَّةُ اللقاءِ هي إيثارُ العَبْدِ الآخرةَ على الدُّنيا ، وعَدَمُ حُبِّ طُولِ القِيامِ في الدُّنيا ، والاستعدادُ للارتحالِ عنها . والمُرادُ باللقاءِ : المَصِيرُ إلى الدَّارِ الآخرةِ وَطَلَبُ مَا عِند اللَّهِ، وَلَيْسَ الغَرَضُ بِه المَوْتَ، فالمَوْتُ لا يُحِبُّه أحَدٌ بطبيعةِ خِلْقَةِ الناسِ ومَا جُبِلُوا عَلَيْه ، والمَقصودُ أنَّ المُؤمِنَ إذا جاءَه المَوْتُ فإنَّه يَرَى البُشرى مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَا يَنتظره عِندَه مِنْ حُسْنِ الجَزَاءِ ، فلا يَكُون شَيْءٌ أحَبَّ إلَيْه مِنْ ذلك ، فَأحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وأحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَه ، وأمَّا الكافرُ فإنَّه إذا جَاءَه

---

١٠٩ متفق عليه . البخاري (٦ / ٢٦٤٤) برقم (٦٨٠٨) ومسلم (٢٠٦٥/٤) برقم (٢٦٨٢) .

١١٠ متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٣٨٦) برقم (٦١٤٢) ومسلم (٢٠٦٥/٤) برقم (٢٦٨٣).

المَوْتُ يَرَى مَا وَعَدَه اللَّهُ مِنَ العَذابِ والنَّكَالِ حَقًّا أمامَ عَيْنَيْه،فلا يَكُون شَيْءٌ أكْرَهَ إلَيْهِ مِن ذلك ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ ،وكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَه .

وفي الحَديثِ : أنَّ المُجَازَاةَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، فإنَّه قَابَلَ المَحَبَّةَ بالمَحَبَّةِ ، والكَرَاهَةَ بالكَرَاهَةِ.

إنَّ اليهود يَكْرَهُون لِقاءَ اللَّهِ تعالى ، واللَّهُ يَكْرَه لِقاءَهم . وَقَدْ أقامَ اللَّهُ عليهم الحُجَّةَ ، وَقَطَعَ أعذارَهم ، وَفَنَّدَ دَعْوَاهم الواهية بأنهم أولياؤُه ، وَفَضَحَهُم ، وكَشَفَ حِرْصَهم الشَّديدَ على الحياة .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الذِينَ هَادُوا إن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إن كُنتُمْ صَادِقِين ﴾ [الجُمُعَة : ٦] .

هذه الآيةُ فَضَحَت اليهودَ،وكَشَفَتْ عَنْ دواخلهم المُمتلئة بِعِشْقِ حُطام الدُّنيا الفاني وتَقْديسِها، وكراهيةِ المَوْتِ الشديدة. وإنْ كانَ اليهود أولياء للَّهِ، وجَزَاؤهم الجَنَّة في الآخِرَة، فَلْيَتَمَنَّوُا المَوْتَ، ومُلاقاةَ اللَّهِ تعالى ،كَي يُكافِئَهم بالنعيمِ الأبديِّ ، ويرتاحوا مِن عَنَاءِ الدنيا وتَعَبِها ومُشكلاتها .

إنَّ اليهود يَعْلَمون أنَّ مصيرهم إلى عذاب النار ، فَيَهْرُبون مِنَ المَوْتِ _ حَسَب نَظْرتهم القاصرة _، وَيَتَشَبَّثُون بالدُّنيا بأسنانِهم وأظافرِهم ، لِعِلْمِهِم بِما يَنتظرهم بَعْدَ المَوْتِ مِنَ العُقوبة الشديدةِ والعَذابِ الأليم .

وإنْ كان اليهودُ صَادقين في دَعْواهم بأنَّهُم أولياء للَّهِ تعالى ، فَلْيَتَمَنَّوُا المَوْتَ كَي يَرْتاحوا مِن تَعَبِ الحياة الدُّنيا، ويَنتقلوا إلى نعيم الجَنَّة الأبديِّ . والمُتَيَقِّنُ أنَّه مِن أهل الجَنَّة سَيَشْتَاق إلَيْهَا ، وسَيَهْرُب مِنَ الدُّنيا بِكُلِّ قُوَّتِه ، وفي أسرع وقت .

أمَرَ اللَّهُ نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يَقُول لليهود إظهارًا لِكَذِبِهِم:إنْ كُنتُم أولياءَ اللَّهِ وأحبابَه وأنصارَه وَصَفْوَتَه مِنْ خَلْقِه حَقًّا كَمَا تَدَّعُون وتَزْعُمُون ، فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنتُم صادقين في زَعْمِكم ، واطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ أنْ يُمِيتَكُم ، أي : ادْعُوا على أنفُسِكُم بالمَوْتِ كَي تَسْتريحوا مِنْ تَعَبِ الدُّنيا وأوساخِها ، وتَدْخُلوا الجَنَّةَ وتَسْتمتعوا بنعيمها . واللَّهُ يُكْرِمُ أولياءَه ولا يُعَذِّبُهم . وَمَنْ عَلِمَ أنَّه مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ ، والفَوْزَ بِجَنَّتِه ، والتَّخَلُّصَ مِنَ الدُّنيا المَعجونة بالهُمُومِ والمَصائبِ . والوَلِيُّ يُفَضِّلُ الآخِرةَ عَلى الدُّنيا ، وأوَّلُ الآخِرَةِ هُوَ المَوْتُ ، فَتَمَنَّوْهُ إن كُنتُم صادقين .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨ / ٢٤٨) : ((﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الذِينَ هَادُوا ﴾ ، أي : تَهَوَّدُوا ﴿ إن زَعَمْتُم أَنَّكُم أَوْلِيَاءُ للَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ ﴾ . كانوا يَقُولون:نَحْنُ أبناءُ اللَّهِ وأحَبَّاؤُه ، وَيَدَّعُون أنَّ الدَّار الآخرة لَهُم عِند اللَّهِ خالصة، ويَقُولون:لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كان هُودًا ، فَأُمِرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بأنْ يَقُول لَهُم إظهارًا لِكَذِبِهِم : إنْ زَعَمْتُم ذلك ﴿ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ ﴾ ، أي: فَتَمَنَّوْا مِنَ اللَّهِ أن

يُمِيتَكُم ويَنْقُلَكُم مِن دار البَلِيَّة الى دار الكَرَامة ﴿ إن كُنتُم صَادِقِين ﴾ جوابه محذوف، لدَلالة مَا قَبْلَه عَلَيْه ، إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم واثقين بأنَّه حَق ، فَتَمَنَّوُا المَوْتَ ، فَإنَّ مَنْ أيْقَنَ بأنَّه مِنْ أهلِ الجَنَّةِ أحَبَّ أن يَتَخَلَّص إلَيْهَا مِنْ هذه الدار، التي هي قَرَارة الأكدار)) .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٨/ ٢٦١): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ إن زَعَمْتُم أَنَّكُم أَوْلِيَاءُ للَّهِ ﴾ وذلك أن اليهود قالوا : نَحْنُ وَلَدُ إسرائيل اللَّهِ بن ذبيح اللَّهِ بن خليل اللَّهِ ، وَنَحْنُ أوْلَى باللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ سائر الناس ، وإنَّما تَكُون النُّبُوَّة فِينا، فقالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ عليه الصلاة والسلام : قُلْ لَهُم : إنْ كُنتُم أولياء للَّهِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ ، لأنَّ المَوْتَ خَيْرٌ لأولياء اللَّهِ مِنَ الدُّنيا)) .

وعن ابن عَبَّاس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ قال : ((لَوْ أنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوُا المَوْتَ لَمَاتوا ، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُم في النار)) [١١١] .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين ﴾[الجُمُعة : ٧].

ولا يَتَمَنَّى اليَهُودُ المَوْتَ أبدًا ، بسبب كُفرهم وذُنوبهم وتَحريفهم للتَّوراة ، وتَكذيبهم بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَوْ تَمَنَّوُا المَوْتَ لماتوا فَوْرًا. وعدمُ تَمَنِّيهم للمَوْتِ يُبْطِل زَعْمَهم أنَّهم أولياء للَّهِ تعالى ويَكشِف كَذِبَهم . وفي الآية إخبارٌ بالغَيْبِ المُستقبليِّ ، ومُعْجِزةٌ للنبيِّ ﷺ . واللَّهُ يَعْلَمُ الظالمين مِنْ عِباده ، فَيُجازيهم على أعمالهم ، والآيةُ تَحْمِل وَعِيدًا لهم . والآية : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين ﴾ تَعْنِي عَلى العُمومِ ، وهؤلاء اليهودُ داخلون فِيهِم دُخُولًا أوَّلِيًّا .

لَقَدْ كَذَّبَهم اللَّهُ وفَضَحَهم وأخزاهم، وبَيَّنَ أن اليهود لا يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ، بسبب كُفْرِهم باللَّهِ ، وتكذيبِهم للنبيِّ ﷺ ، وكَثرةِ ذُنوبِهم وآثامِهم ومَعَاصِيهم وجَرائمِهم .

أخْبَرَ اللَّهُ تعالى أنَّ اليَهُودَ لا يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ أبدًا بِسَبَبِ مَا عَمِلُوا مِنَ الكُفْرِ والمَعَاصِي والجَرائمِ والتَّحريفِ والتَّبديلِ ، وَعِلْمِهِم بِسُوءِ حَالِهم . واللَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُه جَعَلَ هذه الآية مُعْجِزَةً لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ فِيهِم ، فهي آية باهرة ، وأعْلَمَه أنَّه إنْ تَمَنَّى أحدٌ مِنهُم المَوْتَ مَاتَ ، وَفَارَقَ الدُّنيا . وَقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ : " فَتَمَنَّوُا المَوْتَ " ، على جِهة التَّعجيز وإظهارِ الآية ، فَمَا تَمَنَّاه أحدٌ مِنهُم خَوْفًا مِنَ المَوْتِ ، وثِقَةً بِصِدْقِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ .

---

١١١ رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٤٨) برقم (٢٢٢٥)، وأبو يعلى (٤/ ٤٧١) برقم (٢٦٠٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٤١٨) : ((رجال أبي يعلى رجال الصحيح)) ، ورواه الطَّبَري في تفسيره (١ / ٤٦٨)، وصَحَّحَه ابن حَجَر في العُجَاب في بيان الأسباب (١ / ٢٨٧) .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١٢/ ٩٣) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ ، يَقُول : ولا يَتَمَنَّى اليَهُودُ المَوْتَ أبَدًا ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : بِما اكتسبوا في هذه الدُّنيا مِنَ الآثامِ ، وَاجْتَرَحُوا مِنَ السَّيئاتِ ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين ﴾ ، يَقُول: واللَّهُ ذُو عِلْمٍ بِمَنْ ظَلَمَ مِنْ خَلْقِه نَفْسَه ، فَأَوْبَقَهَا بِكُفْرِه باللَّهِ)) .

إنَّ الآيةَ خَبَرٌ قاطعٌ مِنَ اللَّهِ عَن اليهود ، وَنَبَأ يَقِينيٌّ لا يَحْتَمِل الشَّكَّ . إنَّ اليَهُودَ لا يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ أبدًا ، بسبب كُفْرِهم وتَحريفِهم التَّوراة وقَتْلِهِم الأنبياء ، وعِلْمِهم بأنَّ هُناك عذابًا يَنتظرهم بَعْدَ المَوْتِ ، وهُمْ يُدرِكون أنَّهم كافرون لا نصيب لهم في الجَنَّةِ. وهذا إخبارٌ بالغَيْبِ المُسْتَقْبَليِّ ، وَقَدْ كانَ الأمرُ كما أخْبَرَ القُرْآنُ ، إذْ إنَّ اليَهُودَ لَمْ يَتَمَنَّوْا المَوْتَ، وَلَوْ تَمَنَّوْهُ لِنُقِلَ ذلك عَنْهُم ، وتداولته الأجيال ، واكتشفَ الناسُ عَدَمَ صِدْقِ القُرْآنِ.وهذا لَمْ يَحْدُثْ. لَقَدْ أخْبَرَ اللَّهُ أنَّ اليَهُودَ لا يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ أبدًا ، وهذا مَا كان ، مِمَّا يدلُّ على صِدْقِ القُرْآنِ ، وصِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وهذا الإخبارُ بالغَيْبِ مِن وُجوه إعجاز القُرْآنِ . وذِكْرُ " اليد " دون سائر الأعضاء ، لأنَّ أكثرَ الجرائم تَكون باليد ، فأُضيفت جرائم الإنسان إلى يده ، حتى لَوْ لَم تَكُن لها علاقة بالجريمة .

﴿ واللَّهُ عَليمٌ بالظالمين ﴾ . إنَّ اللَّهَ يَعْلَم الكافرين الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بأنْ أوردوها المَهَالِك. وهذا تَهديدٌ لهم، وإلصاقُ صِفَة الظُّلْمِ بِهِم ، لِتَظَلَّ وَصْمَة عارٍ عليهم في الدُّنيا والآخرة .

واللَّهُ لَمْ يَقُلْ : واللَّهُ عليم بهم . وإنما قال : ﴿ واللَّهُ عَليمٌ بالظالمين ﴾ . ووضعُ الظاهرِ مَوْضِع الضَّمير ، لِذَمِّهِم ، وفَضْحِهم ، وكَشْفِ باطلِهم ، والتَّسجيلِ عليهم بالظُّلْم .

وفي [مَتَّى ١٥ : ٧و٨] قال المسيح عن اليهود : ((أَيُّها المُراؤون ! أَحسنَ إشَعياءُ إذ تنبَّأَ عَنكم فقال : هذا الشَّعبُ يُكرِمني بشَفَتَيه ، أمَّا قلبُه فبعيدٌ عَنِّي جِدًّا !)) .

إن الرِّياءَ ضَرْبٌ مِن عِشْقِ الدُّنيا ، والتَّمَسُّك بزُخرفها ومَتَاعها وحُطامها ، والحِرص على الشُّهرة والسُّمعة وانتشار الصِّيت ، ولَفْت الانتباه ، وتحقيق مصالح شخصية ، والحصول على مكاسب مادية . والقلب البعيدُ عن اللَّهِ بعيدٌ عن كُتبه وأنبيائه وأوليائه . وهذا القلبُ الفاسد غارق في الكُفر والضلال. وتفكيرُ اليهود محصور في الحياة الدُّنيا، وعِبادةِ المَادَّة ، وتَقْديسِ الشَّهَوَاتِ والمَلذات. وعِشْقُ الدُّنيا وشَهَوَاتِها المعنوية والمادية هو سبب الكُفر والضلال والمعاصي .

والأخلاقُ السَّيئة مَصْدرها شِدَّةُ الحِرْص على الدُّنيا . والدُّنيا إذا سَيطرت على قلب الإنسان ، أعْمَتْ بصيرته،وأوردته المهالك.والأشخاص الذي يَحرِصون على جَمع حُطام الدنيا الفاني لا يُريدون أن يَفْقدوها ولا يَخسروها،لذلك يَسْلُكون كُلَّ السُّبُل الشرعية وغير الشرعية للحفاظ عليها.

وفي صحيح البُخاري (٢/ ٨٥١) : قال الأشعثُ : كان بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ أرْضٌ ، فَجَحَدَني ، فَقَدَّمْتُهُ إلى النَّبِيِّ ﷺ ، فقالَ لِي رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟)) ، قُلْتُ : لا. قال : فقال لليهوديِّ : ((احْلِفْ)). قال: قُلْتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، إذًا يَحْلِفُ ويَذهَبُ بِمَالي . فأنزَلَ اللَّهُ تَعالى: ﴿ إنَّ الذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عِمران : ٧٧] إلى آخر الآية .

أكْلُ أموالِ الناسِ بالباطلِ مِنْ أعظَمِ المُحَرَّمَاتِ ، حَيْثُ عَظَّمَ اللَّهُ عُقُوبَتَه في القُرْآنِ الكريمِ ، وَحَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِن ذلك الذَّنْبِ تَحْذيرًا شديدًا .

في هذا الحَديثِ يَقُول الصَّحَابيُّ الجليل الأشْعَثُ بنُ قَيْسٍ ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ : كانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ يَهوديٍّ أرْضٌ مُشْتَرَكَةٌ ، فَأنكَرَ عَلَيَّ حَقِّي في الأرْضِ . وقَدْ أحْضَرَ خَصْمَه اليهوديَّ إلى النَّبِيِّ ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَهما ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ للأشعثِ : " أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟ " ، أي : هَلْ عِندك دليلٌ على مَا تَدَّعِي ؟ ، قالَ الأشعثُ : لا . فقالَ النَّبِيُّ ﷺ لليهوديِّ : " احْلِفْ " . أمَرَه أنْ يَحْلِفَ عَلى مَا ادَّعَاه ، قالَ الأشعثُ : يا رسولَ اللَّهِ ، إذًا يَحْلِفُ ويَذهَبُ بِمَالي ، أي : يا رسولَ اللَّهِ ، إنَّه يَهوديٌّ ولا يُبالي بالحَلِفِ ، وَسَيَحْلِفُ كاذبًا ويَذهَب بِأرْضِي، فَنَزَلَت الآيةُ : ﴿ إنَّ الذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وأيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولئكَ لا خَلَاقَ لَهُمْ في الآخرةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ولا يَنظُرُ إلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليم ﴾ ، أي: الذينَ يَستبدلون بما عَاهَدُوا عَلَيْه اللَّهَ، مِن الإيمانِ بالرَّسُولِ ﷺ ، والوَفَاءِ بالأمَانَاتِ ، ومِنها الصِّدْقُ في الأيمانِ ، فَيَشترون بأيمانِهم الكاذبةِ ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ مِنْ حُطَامِ الدُّنيا ومَتَاعِها ، لَيْسَ لَهُم حَظ ونَصيبٌ في الآخِرَةِ ، ولا يَتَعَرَّض اللَّهُ لهم برحمته ، فَهُوَ غَضْبَان عَلَيْهِم .

إنَّ شِدَّة حِرْصِ اليهوديِّ على حُطَامِ الدُّنيا الفاني ، جَعَلَه يَعْتدي على أرض غَيْرِه . وَمِنْ أجْلِ توفير الشَّرْعِيَّة لهذه السَّرِقَة كانَ مُسْتَعِدًّا للحَلِفِ واليَمِينِ الكاذبِ . وَقَدْ يَقُول أحَدُهُم إنَّ هذا سُلوك فردي ، لا يَجُوز تعميمه على جميع اليهود . وهذه رُؤية قاصرة ، لأنَّ هذا السُّلوك المُنحرِف مُنتشر بين اليهود ، بحيث صار صِفَةً لازمةً مُلتصقةً بهم ، ومُميِّزة لهم . وَقَدْ سَرَقَ اليهودُ أراضي فِلَسْطِين بأكملها، وقَتَلُوا أبناءَها ، وَهَجَّرُوا شَعْبَهَا ، في وَضَحِ النهار ، بِمُبَارَكة جميع اليهود . وَلَوْ وُجِدَ يهوديٌّ أوْ أكثر يُعارضون الكِيَانَ الصُّهْيُوني ويَقِفُون ضِدَّه، فهؤلاء أقلية،واستثناء مِنَ القاعدة ، وهذا لا يُلْغِي التَّعميمَ ، لأنَّ النادرَ لا حُكْمَ له، والحُكْمُ إنَّما يَكُون وَفْق الأغلبية والاتِّجاه العام .

وهذا اليهوديُّ فاسقٌ وفاجرٌ ، لا يُبالي بالحَلِفِ ، ولا يَهْتَمُّ باليمين ، ولا يَعْبَأ بما يَحْلِفُ عَلَيْه ، ولا يَخْشَى شيئًا ، ولا يَتَوَرَّع مِنْ شَيْء،وهو على أتمِّ الاستعداد لاستخدام الحَلِفِ لسرقة الآخرين.

أمَّا المُسْلِمُ فَهُوَ يَخْشَى اللَّهَ ، ويُقَدِّس عَهْدَ اللَّهِ ، ولا يَشْتري به ثَمَنًا قليلًا ، ولا يَبِيع دِينَه بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا زائل . وهُنا تَبْرُز أيضًا ضَرورة حِفْظ الأيمان ، وعدم إقحام اسم اللَّه العظيم في سِياق الخِيانة أو الكَذِب . والحَلِفُ باللَّهِ لا يَكُون إلا في الأُمُور الجليلة المُهِمَّة لا التافهة الحقيرة.

وفي تُحْفَة الأحوذي (٨ / ٢٧٦) : ((قال الطيبي: فَإنْ قُلْتَ: كيف يُطابِق نُزولُ هذه الآية قَوْلَه: "إذًا يَحْلِفُ ويَذهَبُ بِمَالي"؟.قُلْتُ:فيه وَجهان أحدهما كأنَّه قِيل للأشعثِ:لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ إلا الحَلِف، فإنْ كَذَبَ فَعَلَيْه وَبَالُه.وثانيهما لَعَلَّ الآية تَذكار لليهوديِّ بِمِثْلِها في التَّوراةِ مِنَ الوعيد)) .

وفي صحيح مُسلِم (٤/ ١٧٦٦) عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ _رَضِيَ اللَّهُ عنه_ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ امْرَأةً مِنْ بني إسرائيلَ حَشَتْ خَاتَمَهَا مِسْكًا ، وَالمِسْكُ أطْيَبُ الطِّيبِ .

إنَّ اليهوديات حريصات على الظُّهور في الوسط الاجتماعيِّ بين سَيِّدات المُجتمع المُخْمَلي . وهذه الرُّؤية مُنْتَشرة بشكل صارخ بين اليهودياتِ ، حتى في زمننا الحاضرِ ، اللواتي يَنتشرنَ في الأُسَرِ الثَّرِيَّة المُتنفذة ، وفي السِّينما العالمية والشَّرِكَات العابرة للقَارَّاتِ والمَناصب العُليا، والحَفَلاتِ التي لا يَحْضُرها إلا عِلْيَةُ القَومِ ... إلخ. وهذا يدلُّ على حِرْصِ اليهود رجالًا ونِساءً على الدُّنيا بِكُلِّ تفاصيلها ، وتَمَسُّكِهم بِحُطامِها الفاني ومَتَاعِها الزائل ، وتَقْدِيسِهم للمَظاهرِ الاجتماعيَّةِ الخادعة ، وعِشْقِهِم للبُرُوزِ ، والشُّهْرَةِ ، والمَديحِ ، والتَّفَاخُرِ، والاستعراضِ أمام الناس .

وَعَنْ أبي هُرَيرة_رَضِيَ اللَّهُ عنه_قال:قال النَّبيُّ ﷺ: ((لَوْلا بَنُو إسرائيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ ،...)) [١١٢].

لا يَكُون شَيْءٌ إلا بَقَدَرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ أنْ يَخْنَزَ اللَّحْمُ ، أي : يَنْتَنُ اللَّحْمُ إذا تُرِكَ ، ولكنَّ البادئ بالشَّيْء يَكُون كالسَّبَبِ الحاملِ لِغَيْرِه على الإتيانِ به ، ولذلك لمَّا كانَ بَنُو إسرائيلَ أوَّلَ مَنْ سَنُّوا ادِّخَارَ اللَّحْمِ وَقَدْ نُهُوا عن ذلك ، فلمَّا ادَّخَرُوه أنْتَنَ ، وكانَ اللَّحْمُ لا يَنْتَنُ قَبْلَ ذلك ، فكانَ فِعْلُهُم سببًا في نَتْنِ اللَّحْمِ .

إنَّ بني إسرائيل لمَّا أنزَلَ اللَّهُ عليهم المَنَّ والسَّلْوَى ، نُهُوا عن ادِّخَارهما ، فَادَّخَرُوا ، فَفَسَدَ وَأَنْتَنَ، واستمرَّ مِن ذلك الوقت.وهذا يدلُّ على بُخْلِهم الشديدِ وشِدَّةِ حِرْصِهم على شَهَوَاتِ الدُّنيا.

وفي فَيض القدير (٥/ ٣٤٣) : ((فهو إشارة إلى أنَّ خَنْزَ اللَّحْمِ شَيْءٌ عُوقِبَ بِه بَنُو إسرائيل لِكُفرانهم نِعْمة رَبِّهم، حَيْث ادَّخَرُوا السَّلْوى فَنَتَنَ،وقَدْ نَهَاهم عَن الادِّخار وَلَمْ يَكُنْ يُنْتِن قبل ذلك. وفي بعض الكُتُبِ الإلهيَّة : لَوْلا أنِّي كَتَبْتُ الفسادَ على الطعام لَخَزَّنَه الأغنياءُ عن الفُقَراء)) .

---

١١٢ متفق عليه. واللفظ للبخاري (١٢١٢/٣)برقم (٣١٥٢).ومسلم (٢/ ١٠٩٢)برقم (١٤٧٠).

حُبُّ التَّمَلُّكِ والاستحاذ والسَّيطرة على الأشياء وامتلاكها والتحكُّم بها قَادَ اليَهُودَ إلى ادِّخار مَا نُهُوا عن ادِّخَاره ، وَلَوْ أَنَّهُم امتثلوا للأوامر ، وأخْرَجُوا حُبَّ الدُّنيا مِن قُلوبهم لَمَا فَسَدَ اللحمُ حتى يَوْمنا الحالي.لكنَّ الأنانيةَ مُسيطرة على قلوب اليهود وعُقولهم وأنفُسِهم.وهذا الفِعْلُ يُشير إلى منهجية الاحتكارِ عِند اليهود، وانحصار تفكيرهم في السَّيطرة على الأشياءِ والشَّهَوَاتِ والمَلَذَّاتِ .

واليهودُ مُولَعون بالتَّحايلِ واستخدام الأساليب غير الشَّرعية من أجل الإبقاء على مُكتسباتهم الدُّنيوية . فالرِّشوة _ كمثالٍ على النَّزعةِ المسعورة للمُحافظة على الدُّنيا التي في قلوبهم وأيديهم_ مُتفشيةٌ لَدَيهم مِن قِمَّةِ الهرم الاجتماعيِّ حتى القاعدة. وقد استخدموها _ وَفْق أهدافهم وتفكيرهم ومُخططاتهم ومؤامراتهم _ للتضييقِ على المسيح ، ومُحاصرة دَعوته ، وإفساد الرَّعيةِ وإغوائها بالشَّهَوَات ، خُصوصًا شَهوة المال . وفي [مَتَّى ٢٨ : ١٢]: ((فاجتمعَ رؤساءُ الكَهَنةِ والشُّيوخُ وتشاوروا في الأمر . ثُمَّ رَشَوُا الجنودَ بمالٍ كثير)) .

إنَّ الرِّشوةَ سِلاحُ اليهود في كُلِّ العُصور ، فَهُمْ يَملِكون الكثيرَ مِنَ الأموال ، ويَستغلونها ، ويَستخدمونها لتنفيذ خُطَطِهم الشريرة ومؤامراتهم الدَّنيئة . والإنجيلُ يَرْسُم صُورةً دقيقة لأخلاق اليهود السَّيئة ، حيث إنهم يُوظِّفون قُدراتهم المالية لارتكاب الذُّنوب والآثام والجرائم . وقد جاؤوا إلى الجنودِ المَسحوقين الضائعين ، فزادوهم ضلالًا وضياعًا ، واستغلوا حاجتهم للمال ، فاشتَرَوْا ذِمَمَهم الفاسدة بما في حَوْزتهم مِن مال كثير ، وهذه لُعبة اليهود المشهورة عنهم والمُلتصقة بهم .

واليهودُ يَعْبُدُون حُطَامَ الدُّنيا الفاني ، ويَحْرِصُون على شَهَوَاتِها ومَلَذاتها . وعِشْقُ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئة ، وأساسُ كُلِّ ذَنْبٍ . وعِشْقُ الدُّنيا وعِشْقُ المالِ مُتلازمان ، يُوجَدان معًا ، ويَغيبان معًا ، ولا يُمكِن الفصل بينهما بحال مِن الأحوال . وعِشْقُ المال وسيطرته على قلب الإنسان ، وتَحَكُّمُه بمساره ومصيره ، يَجعل مِن الإنسان عبدًا لِشَهَوَاتِه ومَلذاته ، ومُعْتَنِقًا لمبدأ " الغاية تُبرِّر الوسيلةَ ". وعِندئذ ، سَيَحْرِص الإنسانُ على جمع المال بِكُلِّ وسيلة مُمكِنة ، سَوَاءٌ كانتْ حَلالًا أَمْ حَرَامًا ، شَرْعِيَّة أَمْ غَيْر شَرْعِيَّة . واليهودُ جَمَعُوا أموالَهم بالوسائل القَذِرة الدَّنيئة غَيْر المشروعة ، كالرِّبا ، والرِّشوةِ ، وَسَرِقَةِ أموالِ الناسِ . وهذه الوسائلُ المُحرَّمة هي أركان إمبراطورية اليهود المالية .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنهُ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الجُمُعَة : ٨] .

قُلْ يَا مُحَمَّد لليَهُودِ : إنَّ المَوْتَ الذي تَكْرَهُونه ، وتَهْرُبون مِنْهُ ، وترفضون أن تَتَمَنَّوْهُ حتى بألسنتكم، فَإنَّهُ نازلٌ بِكُم بِلا شَكٍّ في المَوْعِدِ المُحَدَّد بلا تقديم ولا تأخير،ولا يُمْكِن الهُروب مِنْه.

فالمَوْت قَدَرٌ مَحتوم،وَوَاقِعٌ لا مَهْرَبَ مِنْهُ، ولا يُغْني حَذَر مِنْ قَدَر ، ثُمَّ تَرْجِعُون بعد المَوْتِ إلى اللَّهِ الذي يَعْلَم السِّرَّ والعَلانِيَةَ، ولا يَخْفَى عَلَيْه شَيْء ، فَيُخْبِركم حِينئذٍ مَا كُنتُم في الدُّنيا تَعْمَلُون مِنَ الأعمالِ سَيِّئِهَا وَحَسَنِهَا، لأنَّه مُحِيطٌ بجميعها ، ثُمَّ يُجَازي المُحْسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته . وهذا وعيدٌ شديدٌ ، وتَهديدٌ أكيد .

لَقَدْ عَلِمَ اليَهُودُ أنَّ مَصِيرَهم إلى النار ، بسبب تكذيبهم للنبيِّ ﷺ ، فَكَرِهُوا المَوْتَ ، وهَرَبُوا مِنْهُ ، ولكنْ ، كَيْفَ الهُروب مِنَ المَوْتِ ؟ ، لا مَهْرَب مِنَ المَوْتِ،أمَّا مُحاولةُ البعض الهُروب من المَوْتِ _ حَسَبَ تفكيرهم القاصر _ فهي حَرَكَات عَبَثِيَّة ، وكُلُّ مَعدودٍ مُنْقَضٍ ، وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ . إنَّ المَوْتَ قادمٌ ، وَسَيُلاقي الناسَ وَجْهًا لوجه فلا يَترك لهم فرصةً للهرب أو الإفلات . والقَدَرُ المَحتومُ نازلٌ بالناس لا مَحَالة ، ولا تَنْفَع مَعَه وسائل الحِرَاسة أو الاختباء .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٣١٧) : ((أَمَرَ اللَّهُ سُبحانَه رسولَه أن يَقُول لَهُم بأنَّ الفِرَارَ مِنَ المَوْتِ لا يُنَجِّيهم ، وأنَّه نازلٌ بِهِم ، فقال : ﴿ قُلْ إنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنهُ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ﴾ لا مَحَالَة ، ونازلٌ بِكُم بِلا شَك ، والفاءُ في قَوْلِه : ﴿ فإنَّهُ ﴾ داخلة لِتُضَمِّنَ الاسْمَ مَعْنَى الشَّرْطِ . قال الزَّجَّاج : لا يُقَال : إنَّ زَيْدًا فَمُنْطَلِق ، وَهَاهُنَا قال : ﴿ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ﴾ لِمَا في مَعْنى الذي مِنَ الشَّرْطِ والجَزَاءِ ، أي : إنْ فَرَرْتُم مِنْهُ فإنَّه مُلاقِيكُم ، ويَكُون مُبَالَغَة في الدَّلالة على أنَّه لا يَنْفَع الفِرَار مِنْه . وقِيل : إنَّها مَزِيدة . وقِيل : إنَّ الكلام قَدْ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِه : ﴿ تَفِرُّونَ مِنهُ ﴾ ، ثُمَّ ابتدأ فقال : ﴿ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ﴾ ، ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ ﴾ وذلك يَوْم القِيَامَة ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ مِنَ الأعمالِ القَبيحةِ ، ويُجَازيكم عَلَيها)) .

وعَنْ سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَثَلُ الذي يَفِرُّ مِنَ المَوْتِ كَمَثَلِ الثَّعْلَبِ ، تَطْلُبُهُ الأرْضُ بِدَيْنٍ ، فَجَعَلَ يَسْعَى حَتَّى إذا أعْيَا وَانْبَهَرَ ، دَخَلَ جُحْرَهُ ، فقالتْ له الأرضُ : يا ثَعْلَبُ دَيْني ، فَخَرَجَ وَلَهُ حُصَاص _ شِدَّة عَدْوِه _ ، فَلَمْ يَزَلْ كذلك حَتَّى تَقَطَّعَتْ عُنُقُه، فماتَ))[١١٣].

---

١١٣ رواه الطَّبَرانِيُّ في الكبير (٧ / ٢٢٢) برقم (٦٩٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٣ / ٥٩) : ((وفِيه مُعَاذ بن مُحَمَّد الْهُذَلي . قال العُقَيلي : لا يُتَابَع على رَفْع حديثه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في العِلَل المتناهية (٢ / ٨٨٨) : ((هذا حديث لا يَصِحُّ عن رسول اللَّه ﷺ . ومُعاذ في حديثه وهم ، ولا يُتَابَع على رَفْعِه ، وإنما هو موقوف على سَمُرة)) .

إنَّ الثَّعْلَبَ مُلتصِق بالأرض ، ولا يَقْدِر على الإفلات مِنَ الجاذبيَّة مَهْمَا رَكَضَ وابتعدَ ، فكذلك الإنسان مُرتبط بالمَوْتِ ، وهذه الرابطة لا يُمْكِن فَصْلُها . وخُصَّ الثَّعْلَب بالذِّكْر ، بسبب مَكْرِه الشديد، وقُدرته الفائقة على المُرَاوَغَة والرَّوَغَان . والعَرَبُ تَضْرِبُ المَثَلَ بالثَّعْلَبِ في شِدَّة الرَّوَغَان ، فتقول : أرْوَغ مِنْ ثَعْلَب ، ومَعَ هذا لَمْ يُفْلِتْ مِنَ المَوْتِ .

وقال الرَّامَهُرْمُزِيُّ في أمثال الحديث (١ / ١٠٧) : ((خُصَّت الأرض بهذا المَثَل لأنَّ أحَدًا لا مَهْرَب له مِنها ، وخُصَّ الثَّعْلَب بهذا التمثيل لِرَوَغَانِه ، واعتياصِه على الصائد ، وشِدَّةِ عَدْوِه)) .

وفي لطائف المعارف (١/ ٣٢١) : ((قال أبو بَكْر الصِّدِّيق لِعُمَر ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ في وَصِيَّته له عِند المَوْتِ: إنْ حَفِظْتَ وَصِيَّتي لَمْ يَكُنْ غائبٌ أَحَبَّ إلَيْكَ مِنَ المَوْتِ ، ولا بُدَّ لَكَ مِنْه، وإنْ ضَيَّعْتَهَا لَمْ يَكُنْ غائبٌ أكْرَهَ إلَيْكَ مِنَ المَوْتِ ، وَلَنْ تُعْجِزَه . قال أبو حازم : كُلُّ عَمَلٍ تَكْرَه المَوْتَ مِنْ أجْلِه فاتركه ، ثُمَّ لا يَضُرُّكَ مَتَّى مِتَّ . العاصي يَفِرُّ مِنَ المَوْتِ لِكَرَاهِيَةِ لقاء اللَّه ، وأيْنَ يَفِرُّ مَنْ هُوَ في قَبْضَةِ مَنْ يَطْلُبُه : أيْنَ المَفَرُّ والإلَهُ الطالب ... والمُجْرِمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغالب)) .

وقالَ زُهَيْرُ بنُ أبي سُلْمَى :

وَمَنْ هَابَ أسبابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ وَإنْ يَرْقَ أسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وقال طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ :

والمَنَايَا حَوْلَهُ تَرْصُدُهُ لَيْسَ يُنْجِيهِ مِنَ المَوْتِ الحَذَرُ

٨ ــ عَدَاوَتُهُمْ للَّهِ والمَلائكةِ والمُؤمنين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى للمُؤمِنِين ﴾ [البَقَرَة : ٩٧] [١١٤] .

---

١١٤ قال القُرطبي في تفسيره (٢/ ٣٧) : ((سَبَبَ نُزولها أنَّ اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ : إنَّه لَيْسَ نَبِيٌّ مِنَ الأنبياء إلا يأتيه مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ مِنْ عِند رَبِّه بالرِّسالةِ وبالوَحْيِ ، فَمَنْ صَاحِبُكَ حَتَّى نُتابعك ؟، قال : "جِبريل " . قالوا : ذاك الذي يَنزِل بالحربِ وبالقِتَالِ ، ذاكَ عَدُوُّنَا !، لَوْ قُلْتَ : مِيكائيلُ الذي يَنْزِلُ بالقَطْرِ وبالرحمةِ تابعناكَ، فأنزلَ اللَّهُ الآيةَ ... . أخرجه التِّرمذيُّ . وقَوْلُه تعالى: ﴿ فإنه نزَّله على قلبكَ ﴾ الضمير في " إنه " يَحتمل مَعْنَيَيْن : الأول فإنَّ اللَّه نزَّل جِبريلَ على قلبك. الثاني فإنَّ جِبريل نَزَلَ بالقُرْآنِ على قَلْبِكَ . وخُصَّ القلب بالذِّكْر ، لأنَّه مَوْضِع العَقْلِ والعِلْمِ وَتَلَقِّي المعارفِ . وَدَلَّت الآية على شرف جِبريل عليه السلام ، وذَمِّ مُعَاديه . وقَوْلُه تعالى : ﴿ بإذن اللَّه ﴾ أي : بإرادته وعِلْمِه)) .

نَزَلَتْ هذه الآيةُ في اليهود الذين زعموا أنَّ جِبريل _ عليه السلام _ عدوٌّ لهم ، وأنَّ مِيكائيل _ عليه السلام _ وَلِيٌّ لهم . وهذا الزَّعْمُ الباطل ناتج عن طبيعة أهواء اليهود المُتضاربة . حيث إنهم يَخترعون العقائدَ تَبَعًا لأمزجتهم ومصالحهم . ولو استندوا إلى التوراة الصحيحة في أخذ عقائدهم لخرجوا مِن الظُّلمات إلى النُّور ، ولكنهم اتَّخذوا التَّوراةَ وراءهم ظِهْرِيًّا، وراحوا يَخترعون عقائدهم الدينية، ومواقفهم الاجتماعية ، وفلسفتهم الحياتية ، وَفْق أهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية ومنافعهم المادية الزائلة . وكُلُّ تفكير اليهود مُركَّز على جَمْع حُطام الدُّنيا الفاني .

قال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٤٧٦) : ((أجْمَعَ أهلُ العِلْمِ بالتأويل جميعًا على أنَّ هذه الآية نَزَلَتْ جَوَابًا لليهود مِن بني إسرائيل، إذْ زَعَمُوا أنَّ جِبْريل عَدُوٌّ لهم، وأنَّ مِيكَائيل وَلِيٌّ لَهُم)) .

قُلْ لليَهُودِ يَا مُحَمَّد : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيل ، فَإنَّه عَدُوٌّ للَّهِ ، لأنَّ اللَّهَ جَعَلَ جِبريلَ أَمِينَ الوَحْي ، والواسطةَ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِه ، فَمَنْ عَادَاه فَقَدْ عَادَى اللَّهَ . وجِبريلُ الأمينُ نَزَّلَ القُرْآنَ على قَلْبِكَ يَا مُحَمَّد بِأمْرِ اللَّهِ وَعِلْمِه وإرادته وتَيسيرِه ، لِرَفْعِ مَعنوياتِك ، وزيادةِ إيمانِك، وتَقْوِيَةِ قَلْبِكَ ، وتَثبيتِكَ عَلى الحَقِّ.وَخُصَّ القَلْبُ بالذِّكْرِ،لأنَّه مَوْضِعُ العَقْلِ والعِلْمِ وَتَلَقِّي المَعارفِ.والقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَه مِنَ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وفِيه الهِدَايةُ الكاملة،والبِشَارَةُ السَّارَّةُ للمُؤمِنِين بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ .

والآيةُ تُوضِّح مَكانةَ جِبريل العظيمة ، ومَنْزلته العالية ، وشَرَفَه الرفيع. ولا مَعنى لعداوة اليهود لجِبريل ، فَإنَّه يُنفِّذ أوامرَ اللَّهِ تعالى ، وَلَمْ يَصْدُرْ مِنْه إلا مَا يُوجِب المَحَبَّة والتَّعظيم .

إنَّ اليهود لا يَحترمون مَكانةَ المَلائكة _ عليهم السلام _ لذلك يَعْمَدُون إلى انتقاصهم والحَطِّ مِنْ قَدْرِهم ، والطَّعْنِ فِيهم. وهذا مَرْجِعُه إلى الأهواءِ الباطلةِ والأماني التافهة، والتَّنَصُّلِ مِنْ تَحَمُّلِ المَسؤولية. فَقَد اتَّخَذُوا جِبريل الأمين _عَلَيه السَّلام _ عَدُوًّا لهم، وهُمْ بذلك يُعَادون اللَّهَ تعالى ، لأنَّ المَلائكة لا يَتَصَرَّفون مِنْ تِلْقَاءِ أنفُسِهِم ، بَلْ يُنفِّذون أوامرَ اللَّهِ بِلا زيادة ولا نُقْصان .

مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْريل ويَكْرَهُه ويُبْغِضُه ، فَلْيَمُتْ غَيْظًا ، إنَّ جِبْريل مَلَكٌ كريمٌ عظيم ، نَزَّلَ القُرْآنَ على قَلْبِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأمْرِ اللَّهِ تعالى.والأنبياءُ والمَلائكةُ لا يَأتون بِشَيْءٍ مِنْ عِندهم ، وإنَّما يُنفِّذون أوامرَ اللَّهِ كاملةً ، ويَخْضَعُون لإرادته وحُكْمِه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ١٨٢) : ((هذه الآية قد أجمعَ المُفسِّرون على أنَّها نَزلت في اليهود . قال ابن جرير الطَّبَري : وأجمعَ أهلُ التأويل جميعًا أنَّ هذه الآية نزلت جوابًا على اليهود ، إذْ زَعموا أنَّ جِبريلَ عَدُوٌّ لهم ، وأنَّ مِيكائيل وَلِيٌّ لهم ، ثُمَّ اختلفوا ما كان سبب قَولهم ذلك؟، فقال بَعْضُهم: إنَّما كان سبب ذلك مِن أجل مُناظرة جَرَتْ بينهم وبين رسول اللَّهِ ﷺ،

مِنْ أمْرِ نُبُوَّتِه ... . والضَّميرُ في قَوْلِه : ﴿ فإنه ﴾ يَحتمل وَجْهَيْن : الأول أن يَكُونَ للَّهِ ، وَيَكُون الضَّمير في قَوله: ﴿ نزَّله ﴾ لِجبريل، أي: فإنَّ اللَّهَ سُبحانَه نَزَّلَ جبريلَ على قلبك، وفيه ضَعْف... . الثاني أنَّه لِجِبْريل ، والضَّمير في ﴿ نزَّله ﴾ للقُرْآن ، أي : فَإنَّ جِبْريل نَزَّلَ القُرْآنَ على قلبك . وخُصَّ القلب بالذِّكْر ، لأنَّه مَوْضِع العَقْلِ والعِلْمِ ، وقَوْلُه : ﴿ بإذن اللَّه ﴾ ، أي : بِعِلْمِه وإرادته وتَيسيرِه وتَسهيلِه ... . وفي هذا دليل على شَرَفِ جِبْريل ، وارتفاع مَنْزلته ، وأنَّه لا وَجْه لِمُعَاداة اليهود له ، حَيْث كانَ مِنْه مَا ذُكِرَ مِنْ تَنزيلِ الكِتاب على قَلْبِك ، أوْ مِنْ تَنزيل اللَّه له على قلبك . وهذا هو وجه الربط بَيْن الشَّرط والجَواب، أي: مَن كان مُعَادِيًا لِجبريل مِنهُم، فلا وَجْه لِمُعاداته له. فإنَّه لَمْ يَصْدُرْ مِنْه إلا مَا يُوجِب المَحَبَّة دُون العَدَاوة ، أوْ مَنْ كانَ مُعَادِيًا له فإن سبب مُعَاداته أنَّه وَقَعَ مِنْه ما يَكرهونه مِن التَّنزيل ، وليس ذلك بذَنْب له ... ، فإنَّ هذه الكراهة مِنهم له بهذا السبب ظُلم وعُدوان، لأنَّ هذا الكتاب الذي نَزَلَ بِه هُوَ مُصَدِّق لكتابهم ، وهُدى وبُشرى للمؤمنين)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٢٤) : ((قَوْلُه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿قُل مَن كان عَدُوًّا لِجبريلَ ﴾ . قال ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : إنَّ حَبْرًا مِن أحبار اليهود يُقَال له عبد اللَّه بن صُورِيَا ، قال للنبيِّ ﷺ : أيُّ مَلَكٍ نَزَلَ مِن السماء ؟ ، قال : ((جبريل)) . قال : ذلك عَدُوُّنا مِن المَلائكة، ولَو كان مِيكائيل لآمَنَّا بِك ، إنَّ جبريل يَنزِل بالعذاب والقِتال والشِّدة ، وإنَّه عَادانا مِرَارًا ، وكان مِن أشدِّ ذلك عَلَينا ، أنَّ اللَّه تعالى أنزلَ على نَبِيِّنا أنَّ بيت المَقدِس سَيُخَرَّب على يَد رَجُل يُقَال له : بُخْتُنَصَّر . وأخْبَرَنَا بالحِين الذي يُخرَّب فِيه ، فلمَّا كان وَقْتُه بَعَثْنا رَجُلًا من أقوياء بني إسرائيل في طَلَبه لِقَتْلِه ، فانطلقَ حتَّى لَقِيَه بِبَابِل غُلامًا مِسكينًا ، فأخذه لِيَقتله ، فدفع عنه جبريل ، وكَبُرَ بُخْتُنَصَّر، وقَوِيَ ، وغَزَانا، وخَرَّبَ بَيْتَ المَقْدِس ، فلهذا نَتَّخذه عَدُوًّا ، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى هذه الآية. وقال مُقاتِل : قالت اليهود : إنَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّنا ، لأنَّه أُمِرَ بِجَعْلِ النُّبُوَّةِ فِينا ، فَجَعَلَهَا في غَيْرِنا . وقال قَتَادة وعِكْرمة والسُّدي : كانَ لِعُمَر بن الخطاب أرض بأعلى المدينة ، ومَمَرُّها على مدارس اليهود ، فكان إذا أتى أرْضَه يأتيهم ويَسمع مِنهُم كِلامًا ، فقالوا له : ما في أصحاب مُحمَّد أحب إلَيْنَا مِنْكَ ، إنَّهم يَمُرُّون عَلَينا ، فَيُؤذوننا ، وأنتَ لا تُؤْذينا ، وإنَّا لَنَطْمَع فِيك ، فقال عُمَر : واللَّهِ مَا آتِيكم لِحُبِّكُم ، ولا أسألكم لأنِّي شاكٌّ في دِيني ، وإنَّما أدخل عليكم لأزدادَ بَصيرةً في أمر مُحَمَّدٍﷺ ، وأرى آثارَه في كِتابكم ، وأنتم تَكْتُمونها ، فقالوا : مَنْ صاحبُ مُحَمَّدٍ الذي يأتيه مِن المَلائكة ؟، قال : جِبْريل ، فقالوا : ذلك عَدُوُّنا ، يُطلِع مُحَمَّدًا على أسرارنا ، وهو صاحبُ كُلِّ عَذابٍ وخَسْفٍ وسَنَةٍ (جَدْب) وشِدَّة ، وإنَّ مِيكائيل إذا جَاءَ ، جَاءَ بالخِصْب والمَغْنَم ، فقال لهم

عُمَر : تَعرِفون جِبريلَ وتُنكِرون مُحَمَّدًا ؟ ، قالوا : نَعَم ، قال : فأخبروني عن مَنزِلة جِبريل ومِيكائيل مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ، قالوا : جِبريل عن يَمينه ، ومِيكائيل عن يَسَاره ، قال عُمَر : فإنِّي أشْهَدُ أنَّ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْريل ، فهو عَدُوٌّ لِمِيكائيل ، ومَنْ كانَ عَدُوًّا لِمِيكائيل ، فإنَّه عَدُوٌّ لِجِبريل . ثُمَّ رَجَعَ عُمَر إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَوَجَدَ جِبريلَ قَدْ سَبَقَه بالوَحْي ، فقرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ هذه الآيةَ ، فقال : ((لَقَدْ وَافَقَكَ رَبُّكَ يا عُمَر)) ، فقالَ عُمَر : لقد رَأيْتُنِي بَعْد ذلك في دِينِ اللَّهِ أصْلَبَ مِنَ الحَجَرِ . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل مَن كان عَدُوًّا لِجِبريلَ فإنه ﴾ يعني : جِبريل ﴿ نزَّله ﴾ ، يعني : القُرآن ، كِناية عَن غَير مَذكور ﴿ على قلبكَ ﴾ يا مُحمَّد ﴿ بإذن اللَّه ﴾ بأمر اللَّه)) .

وفي صحيح البُخاري(٤/١٦٢٨) عَنْ أنَسٍ قال:سَمِعَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلَامٍ بِقُدوم رسول اللَّه ﷺ، وهو في أرضٍ يَخْتَرِفُ _ يَعْني يَجْتني مِنْ ثِمَارها _ ، فأتى النَّبِيَّ ﷺ فقال: إنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلا نَبِيٌّ، فَمَا أوَّلُ شَرَطِ السَّاعَةِ ؟،وَمَا أوَّلُ طَعَامِ أهْلِ الجَنَّةِ ؟،وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدَ إلى أبيه أو إلى أُمِّهِ ؟،قال: ((أخْبَرَني جِبْرِيلُ آنِفًا)). قال: جِبْرِيل ؟، قال:((نَعَم)).قال : ذاكَ عَدُوُّ اليهودِ مِنَ المَلائكةِ،فقرأ هذه الآية: ((﴿مَن كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نزَّله على قلبكَ بإذن اللَّه ﴾)) ، ... [١١٥].

عبد اللَّه بن سَلَام كانَ حَبْرًا يهوديًّا باحثًا عن الحق،وعِندما وَجَدَه أعلنَ إسلامَه فصار صحابيًّا جليلًا_رضي اللَّهُ عنه_.وَقَدْ سَألَ النبيَّ ﷺ عن ثلاث مسائل لا يَعْلَمُها إلا نَبِيٌّ ، وذلك لِكَي يَتأكَّد مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وهذا هو أسلوب الباحثين عن الحق، الساعين بِكُلِّ إخلاص إلى النُّور الإلهيِّ.

وعبد اللَّه بن سَلَام كانَ بإمكانه أن يَفْعَلَ مِثْلَ قَوْمِه اليهود ، فَيَتَّخذ مَوْقِفًا مُسْبَقًا مِن الدَّعوة المُحمَّدية الإسلامية ، فيُكذِّب النبيَّ ﷺ مُبَاشَرَةً ، بِلا مُقدِّمات ولا حِوار . ولَكِنَّه اتَّخَذَ الحِوَارَ والتَّحَقُّقَ مِنْ أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ طريقًا له نحو الحق ، وهذا يدلُّ على رَجَاحَةِ عَقْلِه ، وثِقَتِه بِنَفْسِه . فالحِوَارُ لُغة الأقوياء الواثقين مِن أنفُسِهم ، والهُرُوبُ مِنْهُ أسلُوب الضُّعفاء العاجزين الذين لَيْسَ لَدَيهم مَا يُقَدِّمونه مِنْ أدلة وبراهين وحُجَج .

إنَّ عَداوة المَلائكة صَارتْ صِفَةً لازمة لليهود ، الذين لا يعرفون قَدْرَ الشريعةِ ومَنزلةَ الأنبياءِ والملائكةِ ، لذلك يَقْتُلُون الأنبياءَ ، ويُحاولون تَشويه صُورتهم بِكُلِّ وسيلة ، ويَطْعَنون في الملائكة بدافع الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية والآراء العبثية التي مَا أنزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلطان .

---

١١٥ قال الحافظ في الفتح(٨/ ١٦٥): ((قِيل:سبب عَدَاوة اليهود لجِبريل أنَّه أُمِرَ باستمرار النُّبُوَّةِ فِيهِم فَنَقَلَهَا لِغَيْرِهِم.وقيل: لِكَوْنِه يَطَّلع على أسرارهم.قُلْتُ:وأصَحُّ مِنهما لِكَوْنِه الذي يَنزِل عليهم بالعذاب)) .

وهُمْ لا يُحاولون الخُروجَ مِنَ المُستنقَع الذي يَغْرَقُون فيه ، لأنَّهم رَضُوا بالحياة الدُّنيا واطْمَأنُّوا بها ، وَهِيَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ ، ونُقْطَةُ بِدايتهم ونِهايتهم .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناسِ عَداوةً للذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذينَ أشرَكُوا ﴾[المائدة: ٨٢].

اللام للقَسَم . قَسَمًا لَتَجِدَنَّ يا مُحَمَّد اليَهُودَ والمُشركين عَبَدَةَ الأصنامِ والأوثانِ أشدَّ الناسِ عَداوةً للمؤمنين الذين أقَرُّوا بِوَحدانية اللَّه وصَدَّقوا بِنُبُوَّتك ، وذلك لِقَسْوَةِ قُلوبهم ، وخُشونةِ طِبَاعِهم ، وشِدَّةِ كُفْرِهم ، وإصرارِهم على العِنَادِ والتَّقليدِ الأعمى والغَرَقِ في الشَّهَواتِ والمَلَذَّاتِ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧) : ((مَا ذاكَ إلا لأن كُفر اليهود كُفر عِناد وجُحود ومُباهَتة للحَقِّ ، وغَمْط للناس ، وتَنَقُّص بِحَمَلَةِ العِلْمِ . ولهذا قَتلوا كثيرًا من الأنبياء ، حتى هَمُّوا بقتل رسول اللَّه ﷺ غَيْرَ مَرَّة ، وسَمُّوه ، وسَحَرُوه ، وأَلَّبوا عليه أشباهَهم من المشركين ، عليهم لعائن اللَّه المُتتابعة إلى يوم القيامة)) .

إنَّ اليهود قد ساندوا المشركين في حَرْبهم على الإسلام ، ودَعَمُوهم في حِقْدهم على المؤمنين وحسدهم لهم . واليهود مَعروفون تاريخيًّا بتكذيب الأنبياء وقَتْلِهم ، ودِين اليهود قائم على الخُبْثِ والعِناد والحسد والحِقْد والغَدْر والخِيانة والمَكْرِ والمُؤامرات . لذلك ، هُم أشد الناس عداوةً للمؤمنين . والمشركون يَعبدون الأصنامَ والأوثانَ والآلهة المُتعدِّدة، لذلك يُحارِبون ويُعَادُون المؤمنين الذين يُوحِّدون اللَّهَ ، ويَعبدونه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد . والعرب المشركون في الجاهلية ليس لهم أيُّ كِتابٍ دِينيٍّ ، فَهُمْ أُمَّةٌ أُمِّيَّة وَثَنِيَّة ، لذلك كانوا أُلعوبة بيد اليهود ، يُحرِّكونهم كَيْفما شاؤوا ، ويَبُثُّون فيهم عقائدَهم الباطلة ، وتعاليم كُتُبهم المُحرَّفة .

إنَّ العَداوة تَنْبُع من القلب المُتأجِّج بالحِقْدِ والكَرَاهِيَةِ.واليهودُ(القادة)والمُشرِكون (الأتْبَاع) كانت صُدورُهم تَغْلي حِقْدًا على المُؤمنين ، وعَداوةً لهم بسبب إيمانِهم واتِّبَاعِهم لمنهج الحق المُضاد لانحرافات اليهود والمُشركين ، والمُهَدِّد لمصالحهم . ولَمْ تَقِف العَداوةُ عِند الشُّعور الداخليِّ أو السُّلوكِ اللفظي، بَلْ تَحَوَّلَتْ إلى واقع عملي ملموس، فَتَمَّتْ حِيَاكة المُؤامرات الرامية إلى وَأدِ الدَّعوة الإسلامية ، وقَتْلِ رجالها . وهذا يدلُّ على أنَّ عَداوة المُؤمنين وكَرَاهِيَة الحَقِّ رُكنان أساسِيَّان في فلسفة اليهود والمشركين . وبالتأكيد، إنَّ الذي لا يَمْلِك نُورَ الحقيقة ، وَلَيْسَتْ لَدَيْه القُدرة على مُقَارَعَة الحُجَّةِ بالحُجَّة ، سَوْفَ يَلْجَأ إلى الأساليب القَذِرَةِ والمُؤامراتِ الخبيثة .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٤٠٨) : ((قال المُفسِّرون : نَزَلَتْ هذه الآيةُ وَمَا بَعْدَها مِمَّا يَتَعَلَّق بِها في النَّجَاشِيِّ وأصحابِه . قال سعيد بن جُبَيْر : بَعَثَ النَّجَاشِيُّ قَوْمًا إلى

رسول اللَّه ﷺ ، فَأَسْلَمُوا ، فَنَزَلَتْ فِيهِم هذه الآيةُ والتي بَعْدَها.قال الزَّجَّاج: واللام في ﴿ لَتَجِدَنَّ ﴾ لام القَسَمِ ، والنُّونُ دَخَلَتْ تَفْصِل بَين الحالِ والاستقبالِ . و ﴿ عَداوةً ﴾ مَنصوب على التَّمييز . واليهودُ ظَاهَرُوا المُشركين على المُؤمنين حَسَدًا للنَّبِيِّ ﷺ . قَوْلُه تعالى : ﴿ والذينَ أشرَكُوا ﴾ يَعْني عَبَدَةَ الأوثانِ)) .

وفي صحيح البُخاري (٣/ ١١٥٦) قال رسولُ اللَّه ﷺ مُخَاطِبًا اليهود : ((هَلْ جَعَلْتُمْ في هَذه الشَّاةِ سُمًّا ؟)) ، قالوا : نَعَم ، قال: ((مَا حَمَلَكُم عَلى ذلك ؟)) ، قالوا : أَرَدْنَا إنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ .

إنَّ اليَهُودَ أَهْلُ مَكْرٍ وغَدْرٍ وخِدَاعٍ ، وَقَدْ حَاوَلوا قَتْلَ النبيِّ ﷺ بِدَسِّ السُّمِّ له ، حَيْثُ أَهْدَوْا له على يَدِ امرأةٍ شَاةً مَسمومة. أرادوا قَتْلَ النبيِّ ﷺ ، والاستراحةَ مِنْه ، وإطفاءَ نُورِ الإسلامِ ، وَوَأْدَ الدَّعوةِ المُحمَّدية الإسلامية، وتَفْرِيقَ كَلِمَة المُسْلِمِين ، وتَمزيقَ وَحْدَتهم ، وتَشتيتَ جُهودِهم. وهذا يُشير إلى رُسوخ العَداوة في قُلوب اليهودِ لِكُلِّ المُؤمنين بلا تَمْييز ، وسَعْيِهم الدَّؤُوب إلى التَّشْويش على الحق ، ومُحاولةِ وَأْدِه قَبْلَ ظُهوره ، لكنَّ الحَقَّ لا يُمْكِن إيقافه ، والشَّمْسُ لا تُغطَّى بِغِرْبال .

٩ــ أقْوَالُهُم وجُرْأتُهُم عَلى اللَّهِ والأنبياءِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ كُلَّمَا أوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وقالت اليَهُودُ إنَّ اللَّهَ بَخِيل ، يُقَتِّر على عِباده في الرِّزق ، ويُضيِّق عليهم . واليَدُ المَغلولة كِناية عن البُخْل والشُّحِّ ، واليَدُ المَبسوطةُ كِناية عن الكَرَم والجُود . واليهودُ المَلْعُونون لا يَقصِدون أنَّ للَّهِ يَدًا مُقيَّدةً أو مُوثَّقة ، وإنما يَقصِدون أنَّ اللَّه بخيل ، وخَيْرَه مَمنوع عنهم ، وعَطَاءَه مَحبوس عن الاتِّسَاع عليهم ، وأنَّ اللَّهَ أمسكَ ما عِنده ، ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِم ﴾، دُعاء عليهم بالبُخل والفقر والذُّل. وهذا واقع ملموس ، فإنَّ اليهود مَشهورون بالبُخل والجُبْن والذُّل ، حتى لو امتلكوا الأموالَ والنُّفوذَ ووسائلَ القُوَّة، ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ ، طَرَدَهم اللَّهُ مِن رحمته ، وأبْعَدَهُم عنها ، بسبب مَقُولتهم السَّيئة ، ﴿ بَل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، إنَّ اللَّه جَواد كريم ، يَرزق عبادَه في الليل والنهار ، ويَمنحهم النِّعَمَ الكثيرة، ويَتفضَّل عليهم بالآلاء العظيمة. وهو سُبحانَه واسع الفضل، جزيل العطاء. واللَّهُ قَد يُضيِّق الرِّزقَ على بعض عباده بسبب معاصيهم وذُنوبهم ، وهذه

عقوبة لهم ، وليس بسبب عَجْزه أو فَقْره أو نَفَاد خزائنه . ورِزقُ اللَّهِ تابعٌ لمشيئته العظيمة وحِكمته البليغة، وليس تابعًا لكلام الناس وأحلامهم وأمَانِيِّهِم.وَمِنَ الناس مَن لا يُصلِحه إلا الغِنى ، ولو أفقره اللَّهُ لأفسدَ دِينَه ودُنياه. ومِن الناس مَن لا يُصلِحه إلا الفقر ، ولو أغناه اللَّهُ لأفسدَ دِينَه ودُنياه.وحِكمةُ اللَّه عظيمة، عَلِمَها مَنْ عَلِمَها ، وجَهِلَها مَنْ جَهِلَها . واللَّهُ حكيم يَضع الأمورَ في نِصَابها الصحيح ، وهو سُبحانَه مُنَزَّه عن العبث واللعب والخطأ والفَوضى . وذِكْرُ اليَدَيْن معَ كَوْنهم لَم يَذكُروا إلا اليد الواحدة ، مُبالَغة في الرَّد عليهم ، وبيان أن اللَّه هو الكريم الأكرم ، ولا يُوجد أكرم مِنْه . ونِسبةُ الكَرَم إلى اليَدَيْن أعظم مِن نِسبته إلى اليد الواحدة . واللَّهُ مُنَزَّهٌ عن الجوارح والأعضاء والحواس.وينبغي نَفْي التَّشبيه عن اللَّه سُبحانَه.وهو لَيْسَ بِجِسْمٍ،ولا شبيه له ، ولا يُشَبَّه، ولا يُكيَّف ، ولا يَتَحَيَّز ، ولا تَحُلُّ فيه الحوادث ، ولا يَحُلُّ فيها، سُبحانَه وتعالى . إنَّ خَيَال اليهود المريض ، وجَهْلهم الفظيع ، صَوَّرا لهم أن اللَّه تعالى بخيلٌ . وجاء الردُّ الإلهيُّ حاسمًا في نَفْس الآية الشَّريفة بما يتناسب مع حَجْم الجريمة التي اقترفها اليهودُ بحق أنفسهم . واللَّهُ لا يَضُرُّه هذا الكلام الساقط ، الذي يَرتد على قائله وَبَالًا وعذابًا في الدُّنيا والآخرة . واليهودُ أصحاب عقيدة باطلة ، فَهُمْ يَطعَنون في اللَّه تعالى ، ويُحاولون إلصاقَ صِفة البُخْل به _ سُبحانَه _ وأنه لا يُنفِق ، ولا يُنعِم ، ولا يَتفضَّل . وهذا مُضاد للحقيقة ، والواقعُ يُكذِّبه . إنَّ اللَّهَ لا تَنفَد خَزائنُه ، وهو يَرزق مَخلوقاته مُنذ خَلَقَهَا ، ويَرزق المُسلِمين والكافرين على السَّوَاء ، وَلَمْ يُصَبْ بالإعياء أو الفقر ، ولَم تَنفَدْ خَزائنُه فيَحتاج إلى مُساعدة ، وَلَمْ يَقْطَعْ إحسانَه عَنْ خَلْقِه رَغْم آثامهم وتقصيرهم وعدم القيام بحق عبادته . ومَن يَرزق المُؤمنَ ويَمنحه النِّعَمَ الجليلة ، ويَرزق الكافرَ على كُفره ويَجعله في سَعَة مِن العَيش ، مُحَال أن يكون بخيلًا . والبُخْلُ هو الإمساكُ عَن الإنفاق خَشْيَة الفَقْر أو الحَاجَة،وهذه الصِّفة مَنفيةٌ عن اللَّه الغنيِّ عَن كُلِّ شَيْء ، وكُلُّ شَيْء يَحتاج إليه سُبحانَه وتعالى . ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ، وَلَيَزِيدَنَّهُم هَذا القُرْآنُ الذي أُنزِلَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد كُفْرًا فَوْقَ كُفْرِهِم وطُغْيَانًا فَوْقَ طُغْيَانِهِم ، إِذْ كُلَّمَا نَزَلَتْ آيَةٌ كَفَرُوا بِهَا فَيَزْدَاد طُغْيَانُهُم وكُفْرُهم كما أنَّ الطعام للأصِحَّاءِ يَزيد المَرْضَى مَرَضًا، ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ ، وأَلْقَيْنَا بَيْنَ اليَهُودِ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ ، فَكَلِمَتُهُم مُختلفة ، وقُلُوبُهُم شَتَّى ، لا يَزَالون مُتباغِضِين مُتَعَادِين إلى قِيامِ السَّاعَةِ ، ﴿ كُلَّمَا أوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ ، كُلَّمَا أرادوا إشعالَ حَرْبٍ على النَّبِيِّ ﷺ أَطْفَأَهَا اللَّهُ . وَإيقادُ النارِ في الحَرْبِ استعارةٌ، لأنَّ الحَرْبَ لا نار لها ، وإنَّمَا شُبِّهَتْ بالنار لأنَّها تَأكُل أهلَها كما تأكلُ النارُ حَطَبَهَا ﴿ وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَادًا ﴾

أي : يَجْتَهِدُون في الكَيْدِ للإسلامِ وَأهْلِه وَيَسْعَوْنَ لإثارةِ الفِتَنِ بَين المُسْلِمين ، وَمِنْ عَادتهم أنَّهُم دائمًا يَسْعَوْنَ في الإفسادِ في الأرْضِ ، واللَّهُ لا يُحِبُّ مَنْ كانت هَذه صِفَتَه .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٦٣٩) : ((هذا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تعالى ذِكْرُه عَن جُرْأةِ اليهود على رَبّهِم ، وَوَصْفِهِم إيَّاه بِما لَيْسَ مِنْ صِفَتِه تَوْبيخًا لهم بذلك، وتَعْريفًا مِنْهُ نَبِيَّه ﷺ قَدِيمَ جَهْلِهِم واغترارهم بِه وإنكارهم جميع جميل أياديه عِندهم ، وكثرة صَفْحِه عَنْهُم وعَفْوِه عَنْ عظيم إجرامهم، واحتجاجًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأنَّه لَهُ نبيٌّ مَبعوث ورَسُولٌ مُرْسَل ، أنْ كانت هذه الأنباء التي أنبأهم بها كانتْ مِنْ خَفِيِّ عُلومِهم ومَكنونِها التي لا يَعْلَمُها إلا أحبارُهم وعُلماؤُهم دُون غَيْرِهِم مِنَ اليَهُودِ ، فَضْلًا عَن الأُمَّة الأُمِّية مِنَ العَرَبِ الذين لَمْ يَقْرَأوا كِتابًا، ولا وَعَوْا مِنْ عُلوم أهل الكِتاب عِلْمًا ، فأطْلَعَ اللَّهُ على ذلك نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ لِيُقَرِّرَ عِندَهم صِدْقَه ، وَيَقْطَع بذلك حُجَّتَهُم . يَقُول تعالى ذِكْرُه : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ ﴾ مِنْ بَني إسرائيل ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يَعْنُون : أنَّ خَيْرَ اللَّهِ مُمْسَكٌ ، وعطاؤُه مَحبوس عن الاتِّسَاعِ عَلَيْهِم ، ... ، فقالَ اللَّهُ مُكَذِّبَهُم ومُخْبِرَهُم بِسَخَطِه عَلَيْهِم : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِم ﴾ ، يَقُول : أمْسَكَتْ أيديهم عن الخَيْرَاتِ وَقُبِضَتْ عن الانبساطِ بالعَطِيَّاتِ، ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ وَأُبْعِدُوا مِن رَحمةِ اللَّهِ وَفَضْلِه بالذي قالوا مِنَ الكُفْرِ وَافْتَرَوْا على اللَّهِ وَوَصَفُوه بِه مِنَ الكَذِبِ والإفْكِ ، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، يَقُول : بَلْ يَدَاه مَبْسُوطَتَان بِالبَذْلِ والإعطاءِ وأرزاقِ عِبَادِه وأقواتِ خَلْقِه غَيْر مَغْلُولَتَيْن ولا مَقْبُوضَتَيْن ، ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، يَقُول : يُعْطِي هَذا ويَمْنَع هذا ، فَيُقَتِّر عَلَيْه ، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ، يَعْنِي بِـ الطُّغْيَان : الغُلُوَّ في إنكارِ مَا قَدْ عَلِمُوا صِحَّتَه مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ والتَّمَادِي في ذلك ﴿ وَكُفْرًا ﴾ يَقُول : وَيَزِيدُهُم معَ غُلُوِّهِم في إنكار ذلك جُحُودَهم عَظَمَة اللَّه وَوَصْفَهم إيَّاه بِغَيْرِ صِفَتِه بأن يَنْسُبُوه إلى البُخْلِ ، ويَقُولوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، وإنَّما أعْلَمَ تَعَالى ذِكْرُه نَبِيَّه ﷺ أنَّهُم أهْلُ عُتُوٍّ وَتَمَرُّدٍ عَلى رَبِّهِم ، وأنَّهُم لا يُذعِنُون لِحَقٍّ ، وإنْ عَلِمُوا صِحَّتَه ، ولكنَّهم يُعَاندونه ، يُسَلِّي بذلك نَبِيَّه مُحَمَّدًا ﷺ عَن المَوْجِدَةِ بِهِم في ذَهابهم عَن اللَّهِ وتَكذيبِهم إيَّاه ، ... . عن قَتَادة : ... ، حَمَلَهُم حَسَدُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالعَرَبِ عَلى أن كَفَرُوا بِهِ وَهُمْ يَجِدُونه مَكتوبًا عِندَهم،... ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ بَيْنَ اليَهُودِ والنَّصَارى ، ... ، ﴿ كُلَّمَا أوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أطْفَأهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾ ، ... ، وَيَعْمَل هؤلاء اليَهُودُ والنَّصَارى بمعصية اللَّه فَيَكْفُرُون بآياتِه ويُكَذِّبُون رُسُلَه ويُخَالِفُون أمْرَه وَنَهْيَه وذلك سَعْيُهُم فِيها بالفَسَادِ ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾ يَقُول: واللَّهُ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ عَامِلًا بِمَعَاصِيه في أرْضِه)) .

واللَّهُ تعالى حِين يُعْلِم النَّبِيَّ ﷺ بأقوال الأُمَم الغابرة وعقائدهم وأحداثهم التاريخية ، فهذا دليلٌ باهر على صِدْق مُحَمَّد ﷺ وصِحَّة نُبُوَّته ورسالته . وهذه الغَيْبِيَّات لا مَصْدَر لها إلا السَّماء . والنبيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، أي إنَّه لَمْ يَطَّلع على كُتُب السابقين فَيَعرِف مَا فيها ، ولَمْ يُعرَف عنه أنَّه كان عَالِمًا بالعقائد الدِّينية ، أوْ مُؤرِّخًا مُطَّلِعًا على حياة الأُمَم والشُّعوب ، فَمِن أين جاء بكل هذه المعلومات الغَيْبِيَّة عن الأقوام السابقين وعقائدِ أهل الكتاب ؟ . الجوابُ الوحيد هو أنه نَبِيٌّ يُوحَى إلَيه ، ويَأتيه خَبَرُ السَّمَاء . أمَّا سبب نُزول الآية ، فعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال: ((قال رَجُلٌ مِنَ اليهود يُقَالُ لَهُ النَّبَّاشُ بنُ قَيْسٍ : إنَّ رَبَّكَ بخيلٌ لا يُنفِق . فأنزلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾)) [١١٦] . معَ أنَّ القائل شخص واحد إلا أنَّ هذه المَقولة الشنيعة نُسِبَتْ لليهود عَامَّةً لأنَّهُم رَضُوا بها ، ولَمْ يُنكِروا على صاحبها ، فصارتْ مَقولةً لهم جميعًا . والراضي بالجريمة شريك فيها . وهُنا تَبْرُز خُطورةُ العَقْل الجَمْعي ، حَيث يُصبح الفسادُ صِفَةً لازمة للجَمَاعة ، وتعبيرًا عَنهُم . كما تَتَّضِح أهميةُ الأمر بالمعروف والنَّهْي عَن المُنكَر .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩٢ و٣٩٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ . قال أبو صالح عن ابن عباس: نَزَلَتْ في فِنْحَاص اليَهُوديِّ وأصحابه، قالوا: يد اللَّه مغلولة . ... . وفي سبب قولهم هذا ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ اللَّه تعالى كانَ قَد بَسَطَ لهم الرِّزْقَ ، فَلَمَّا عَصَوُا اللَّهَ تعالى في أمْرِ مُحَمَّد ﷺ ، وكَفروا به كَفَّ عنهم بَعْضَ ما كان بَسَطَ لهم ، فقالوا : يد اللَّه مغلولة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبِه قال عِكْرمة . والثاني أنَّ اللَّه تعالى استقرضَ مِنهم كما استقرضَ مِن هذه الأُمَّة ، فقالوا : إنَّ اللَّه بخيل ويده مغلولة ، فهو يَستقرضنا ، قاله قَتَادة . والثالث أنَّ النَّصَارى لمَّا أعانوا بُخْتُنَصَّر المَجُوسي على تَخريب بيت المَقْدِس ، قالت اليهود : لَوْ كان اللَّهُ صحيحًا لَمَنَعَنَا مِنْه ، فَيَدُه مغلولة ، ذَكَره قَتَادة أيضًا . والمَغلولة المُمْسِكة المُنْقَبِضة . وعن ماذا عَنَوْا أنها مُمْسِكة، فيه قَولان : أحدهما عن العطاء ، قاله ابن عباس وقَتادة والفرَّاء وابن قُتَيبة والزَّجَّاج . والثاني مُمْسِكة عن عذابنا ، فلا يُعذِّبنا إلا تَحِلَّة القَسَم بِقَدْر عبادتنا العِجْل ، قاله الحسن . وفي قَوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِم ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها غُلَّتْ في جهنم ، قاله الحسن . والثاني أُمْسِكَتْ عن الخَير ، قاله مقاتل. والثالث جُعِلوا بُخَلاء ، فهُم أبخل قَوم ، قاله

---

١١٦ رواه الطَّبَراني في الكبير (١٢/ ٦٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨١) : ((رِجاله ثِقَات)) .

الزَّجَّاج . قال ابن الأنباري : وهذا خَبَر ، أخبرَ اللَّهُ تعالى به الخَلْقَ أنَّ هذا قَد نَزَلَ بهم ، ومَوْضعه نَصْب على مَعْنى الحال ، تقديره: قالت اليهودُ هذا في حال حُكْم اللَّهِ بِغُلِّ أيديهم ولَعْنَتِهِ إيَّاهم. ويجوز أن يكون المعنى: فَغُلَّتْ أيديهم. ويَجُوز أن يكون دُعاء معناه تعليم اللَّه لنا كيف ندعو عليهم . وفي قَوله: ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أُبْعِدُوا مِن رحمة اللَّه ، والثاني عُذِّبوا في الدُّنيا بالجِزْية وفي الآخِرة بالنار. والثالث مُسِخُوا قِرَدَة وخنازير. وروى ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: " مَن لَعَنَ شيئًا لَمْ يَكُن لِلَعْنِهِ أهْلًا، رَجَعَت اللعنةُ على اليَهُودِ بِلَعْنَةِ اللَّهِ إيَّاهم ". قال الزَّجَّاج : وقَد ذَهَبَ قَوْمٌ إلى أنَّ مَعنى يد اللَّه نِعمته، وهذا خطأ يَنقضه: ﴿ بَل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ فَيَكُون المَعنى على قَوْلهم : نِعْمَتَاه ، ونِعَمُ اللَّهِ أكثرُ مِن أن تُحصَى. والمُراد بقَوله : ﴿ بَل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ أنَّه جَوَاد يُنفِق كيف يَشاء ، وإلى نَحْو هذا ذَهَبَ ابنُ الأنباري . قال ابنُ عَبَّاس : إنْ شاءَ وَسَّعَ في الرِّزق ، وإنْ شَاءَ قَتَّرَ)) .

يجب الاعتقادُ بأن الخَزائن الإلهيَّة لا تَنفَد ، وأنَّ اللَّه تعالى مَالِكٌ لِكُلِّ شَيْء ، وهو الغَنِيُّ المُسْتَغْنِي عَن كُلِّ شَيْء ، وكُلُّ شَيْء بِحَاجَة إلَيه . لا يُصاب بالفقر ولا البُخل . ولا يَحتاج عِبادَه كَي يُساعدوه ، ولا يطلب النَّفَقَةَ مِن أحد . وهو ـ سُبحانَه ـ يُنفق كيف يشاء بلا عائق ، فيُعطي مَن يَشاء تَكَرُّمًا منه وتَفَضُّلًا، ويَمنع مَن يشاء لحكمةٍ يَعْلمها ، لا بُخْلًا أو خَوْفًا مِن الفقرِ والحاجةِ.

إنَّ اليَهُود لَمْ يَقْصِدُوا بِقَوْلِهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ أنَّ للَّهِ يَدًا في حالة الانقباض ، وإنَّما كانوا يَقْصِدُون أنَّ اللَّهَ تعالى بخيل لا يُنفِق عليهم . ولا قَصْدَ فِيه إلى إثبات يَد وغُل وبَسْط.وقال البَغَوي في تفسيره (١ / ٧٦) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، قال ابنُ عَبَّاس وعِكرمة والضَّحَّاك وقَتَادة: إنَّ اللَّهَ تعالى كانَ قَد بَسَطَ على اليَهُود حتى كانوا مِن أكثرِ الناسِ مالًا، وأخْصَبِهم ناحيةً ، فَلَمَّا عَصَوُا اللَّهَ في أمْرِ مُحَمَّد ﷺ وكَذَّبُوا بِهِ ، كَفَّ اللَّهُ عَنْهُم مَا بَسَطَ عَلَيهِم مِن السَّعَةِ ، فَعِند ذلك قال فِنْحَاص بن عَازُوراء : يَدُ اللَّهِ مَغلولة ، أي : مَحبوسة مَقبوضة عن الرِّزق ، نَسَبُوه إلى البُخْل ، تَعَالى اللَّهُ عَن ذلك ، قِيل: إنَّما قال هذه المَقَالَةَ فِنْحَاصُ فَلَمَّا لَمْ يَنْهَ الآخَرُون وَرَضُوا بِقَوْلِه أشركَهُم اللَّهُ فيها)) اهـ . وقَد رَدَّ اللَّهُ على اليهود ، فَقَالَ سُبحانَه : ﴿ بَل يَدَاهُ مَبْسوطتان ﴾ ، والمَعنى الذي يَفْهمه العاقلُ هو أنَّ اللَّه كريم ، ولَيْسَ بخيلًا . ولَيْسَ هذا الفَهْم بِحَاجَة إلى تَبَحُّر في العِلْم ، ولا يَحتاج إلى مَعارك مُتخيَّلة بين السَّلَفِ والخَلَف ، وصِرَاع وَهْمِي بَين التَّفويض والتأويل . وقال البَيضاوي في تفسيره (ص ٣٤٥) : ((ثَنَّى اليَدَ مُبَالَغَةً في الرَّدِّ ، ونَفْي البُخْل عنه تعالى، وإثباتًا لغاية الجُود،فَإنَّ غَايَة مَا يَبذُله السَّخِيُّ مِن ماله أن يُعْطِيَه بِيَدَيْه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأفْوَاهِهِم يُضَاهِئونَ قَوْلَ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يؤفَكُون ﴾ [التَّوبة : ٣٠] .

زَعَمَ اليَهُودُ أنَّ عُزَيْرًا ابنُ اللَّهِ ، وَتَبِعَهُمُ النَّصَارى وَزَعَمُوا أنَّ المَسِيحَ ابنُ اللَّهِ ، وأهلُ الكتاب ضَالُّون في أنفُسِهم ، مُضِلُّون لِغَيْرِهِم ، وهُمْ مُشركون ، وكلامُهم كَذِبٌ واضح ، ونابعٌ مِن أهوائهم ومصالحهم ، بلا دليل نقلي ولا حُجَّة عقلية . إنَّه مُجرَّد كلام بالفم ، لا يقوم على دليل ، ولا بيان فيه ولا بُرهان . ومعناه خاطئ تمامًا . يُشابهون قَوْلَ الذين كَفروا مِن قَبْلهم مِن الأمم التي ضَلَّتْ كما ضَلَّ اليهودُ والنصارى . وهذا يدلُّ على أن أهل الكتاب تَابِعُون لأسلافِهم في الكُفْرِ والضَّلالِ، وتَابَعُوهُم في أقوالِهم تَقْلِيدًا . لَعَنَهم اللَّهُ وأخزاهم . و﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ دُعاء عليهم بالهلاك ، ومَنْ قَاتَلَه اللَّهُ هَلَكَ لا مَحَالَة . كَيْفَ يَضِلُّون عَن الحَقِّ وهو واضح ويَعْتَنِقُون الباطلَ ؟ . كيفَ يُصْرَفون عن الحق بعد قِيام الأدلة الواضحة عَلَيْه ويَجعلون للَّهِ وَلَدًا ؟. وهذا تَعجيب للنبيِّ ﷺ والمُؤمنين .

ومَقولةُ اليهود خَرَجَتْ على العُموم ، ومَعْناه الخُصُوص ، لأنَّه لَمْ يَقُلْ ذلك إلا بعضُ اليهود . أمَّا النَّصَارى فَقَدْ زَعَمُوا أنَّ المسيحَ ابنُ اللَّهِ ، بسبب إحيائه للمَوْتى ، وكَوْنِه بِلا أبٍ . كما أنَّهم حَمَلُوا العِبَارات الواردة في الإنجيل مِثل : " ابن اللَّه " ، أو " ابن الإنسان " على المعنى الماديِّ المَحْسُوسِ ، وَلَمْ يُدرِكوا أنَّ ذلك لِتَشريفِ المَسيحِ وتَعظيمِه ، وإبرازِ مَكانته الجليلة ، والإضافةُ للمِلْكِ والتَّشريفِ والتعظيم .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ١٤٠) : ((﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ، إنَّما قاله بَعْضُهم مِنْ مُتَقَدِّميهِم ، أوْ مِمَّنْ كانوا بالمَدينةِ ، وإنَّما قالوا ذلك لأنَّه لَمْ يَبْقَ فِيهِم بَعْدَ وَقْعَة بُخْتُنَصَّر مَنْ يَحْفَظ التَّوْرَاةَ ، وَهُوَ لمَّا أحياه اللَّهُ بعد مِائة عام أمْلَى عليهم التَّوراةَ حِفْظًا ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذلك ، وقالوا : مَا هذا إلا أنَّه ابنُ اللَّهِ . والدليلُ على أنَّ هذا القَوْل كان فِيهِم أنَّ الآية قُرِئَتْ عَلَيْهِم فَلَمْ يُكَذِّبُوا ، معَ تَهَالُكِهِم عَلى التَّكذيب . ... . ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ هُوَ أيضًا قَوْلُ بَعْضِهِم ، وإنَّما قالوه استحالة لأنْ يَكُون وُلِدَ بِلا أبٍ ، أوْ لأنْ يَفْعَل مَا فَعَلَه مِنْ إبراءِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ وإحياءِ المَوْتَى مَنْ لَمْ يَكُنْ إلَهًا ، ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأفْوَاهِهِم ﴾ إمَّا تأكيد لِنِسْبَة هذا القَوْل إلَيْهِم ، وَنَفْيٌ للتَّجَوُّز عَنْها ، أوْ إشعار بأنَّه قَوْلٌ مُجَرَّد عَنْ بُرْهَان وتحقيق ، مُمَاثِل للمُهْمَلِ الذي يُوجَد في الأفواهِ ، ولا يُوجَد مَفْهُومُه في الأعيانِ ، ﴿ يُضَاهِئونَ قَوْلَ الذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: يُضَاهِي قَوْلُهم قَوْلَ الذينَ كَفَرُوا ، فَحُذِفَ المُضَاف ، وأُقِيمَ المُضَاف إلَيْه مَقَامَه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قَبْلِهِم ، والمُرادُ قُدَمَاؤُهم ، عَلى مَعْنى أنَّ الكُفْرَ قَدِيمٌ فِيهِم، أو المُشركون الذينَ قالوا :

المَلائكةُ بَنَاتُ اللَّهِ ، أو اليهود،على أنَّ الضَّمير للنَّصَارى،والمُضَاهَاةُ: المُشَابَهَةُ . ... . ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ دُعَاء عَلَيْهِم بالإهلاكِ ، فإنَّ مَنْ قَاتَلَه اللَّهُ هَلَكَ ، أوْ تَعَجُّب مِنْ شَنَاعَةِ قَوْلِهِم ، ﴿ أَنَّى يؤفَكُون ﴾ كَيْفَ يُصْرَفُون عَن الحَقِّ إلى الباطل)) .

١٠ ـ إلْقَاءُ العَدَاوَةِ بَيْنَهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وأَلْقَى اللَّهُ بَيْنَ اليَهُودِ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ ، فَكَلِمَتُهُم مُختلفة ، وقُلُوبُهُم شَتَّى ، ولا تتوافق قُلُوبُهم ، ولا تتطابق أقوالُهم ، وكُلُّ فِرْقَة مِنْهُم تُخَالِف الأُخْرَى، ولا يَزَالُون مُتَبَاغِضِين مُتَعَادِين إلى قِيامِ السَّاعَةِ، وَهُمْ أبغضُ خَلْقِ اللَّهِ إلى الناسِ .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٣٢٧) : ((﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ ﴾ بَيْنَ طَوائفِ اليَهُودِ، وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ مُخْتَلِفِين مُتَبَاغِضِين ، كما قال : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحَشْر : ١٤])) .

١١ ـ غُرُورُهُم وَأَمَانِيُّهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَن كَانَ هُودًا أَو نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُم قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إن كُنتُم صَادِقِين ﴾ [البَقَرَة : ١١١] .

قالت اليهودُ : لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَن كانَ يهوديًّا ، وقالت النَّصَارى : لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَن كان نَصْرَانِيًّا ، وتِلْكَ شَهَوَاتُهم الباطلة يَتَمَنَّوْنَهَا على اللَّهِ بِغَيْرِ حَق ، ولا تَقُوم على دليل .

قُل يَا مُحَمَّد لهم:هاتوا حُجَّتَكُم على اختصاصكم بدخول الجَنَّة إن كُنتم صادقين في دَعْواكم.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((يُبيِّن تعالى اغترارَ اليهود والنصارى بما هُم فيه ، حَيْث ادَّعَتْ كُلُّ طائفة مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارى أنَّه لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كان على مِلَّتِهَا، كما أخْبَرَ اللَّهُ عنهم في سُورة المائدة أنَّهُم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨] . فأكذبهم اللَّهُ تعالى بما أخبرهم أنَّه مُعذِّبهم بِذُنوبهم ، وَلَوْ كانوا كَمَا ادَّعَوْا لَمَا كانَ الأمْرُ كذلك، وكَمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَعْوَاهُم أنَّه لَن تَمَسَّهم النارُ إلا أيامًا مَعدودة ، ثُمَّ يَنتقلون إلى الجَنَّة ، ورَدَّ عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدَّعوى التي ادَّعَوْها بلا دليل ولا حُجَّة ولا بَيِّنة ، فقال : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُم ﴾ . وقال أبو العالية : أماني تَمَنَّوْهَا على اللَّه بِغَيْرِ حَق ، وكذا قال قَتَادة والربيع بن أنس ، ثُمَّ قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا مُحَمَّد ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُم ﴾ . قال أبو العالية ومُجاهد والسُّدي والربيع بن أنس:حُجَّتَكم،وقال قَتادة: بَيِّنَتَكُم على ذلك ﴿ إن كُنتُم صَادِقِين ﴾ أي:فِيمَا تَدَّعُونه)).

إنَّ أهْلَ الكِتاب يَخترعون الأماني الكاذبة ، وَهُمْ يَخدعون أنفُسَهم فيعيشون في دُنيا الخَيَال وعوالم الأحلام التي لا حقيقة لها . والأمَاني جَمْعُ أُمْنِيَّة ، وهي مَا يُتَمَنَّى . وقد كَذَّبَهم اللَّهُ ، وأفْحَمَهم ، وفَضَحَ باطلَهم ، وكَشَفَ شَهَوَاتِهم الوَهْمِيَّة . وهذه الأماني الواهية لا أساس لها مِن الصِّحة ، كما أنَّ أهل الكتاب لَمْ يُقَدِّموا دليلًا على كلامهم . وإنْ كانوا صادقين في زَعْمِهم ودَعْواهم ، فَلْيُحْضِرُوا البُرهانَ الساطع ، وَلْيُقَدِّموا الحُجَّةَ الباهرة لِيَكُونَ مَوْقِفُهُم قويًّا ، لكن هذا لَمْ يَحْدُثْ ، ولَن يَحْدُث .

واليهودُ والنصارى عائشون في عوالم الأحلام بِلا دليل ولا حُجَّة . وهذه الأحلام سَتَؤُول إلى كوابيس . وكُلُّ قَوْلٍ لا دليل عليه باطلٌ ومرفوض .

والبشرُ حين يَفتقدون إلى الأدلة والحُجَج والبراهين ، ولا يقومون بالأعمال الصالحة ، فإنهم يَلْجَؤون إلى الأحلام الواهية ، والأماني العريضة ، فتراهم يلهثون وراء أهوائهم ، ويَتَمَنَّوْنَ على اللَّهِ الأماني . وهذا مِن تزيين أنفُسِهم والشَّيطانِ ، وتلاعبِه بهم ، وهُمْ واقعون في فَخِّ أهوائهم التي تُصَوِّر لهم الدُّنيا والآخرة كمزرعة خاصَّة بهم ، لا يُشاركهم فيها أحد .

واليَهُودُ والنَّصَارى لَمْ يُؤَسِّسوا حَيَاتَهم على منهج الإيمان والحَقِّ ، لذلك تَمَسَّكوا بالأماني بسبب شُعورهم بالنَّقْص . وما اعتمادُهم على التَّمَنِّي والشِّعاراتِ البَرَّاقة، إلا وسيلة لإخفاء نَقْصِهم وعَجْزِهم وانهيارِهم ، وتقديمِ أنفُسِهم كشعبِ اللَّهِ المُختار ، وَصَفْوَتِه مِنْ خَلْقِه ، لذلك زَعَمُوا أنَّ الجَنَّة مِنْ نصيبهم وَحْدَهم ، دُون تقديم أيِّ دليل يَدْعَم كَلامَهم ، ويُثْبِت صِحَّتَه . وهذا دَيْدَن أهل الباطل في كُلِّ العُصُور مع اختلاف الأسماء والمُسَمَّيَات . وأكبرُ إهانة للعقل البَشَرِيِّ أن يَقْبَلَ شيئًا بِلا دليل .

وقال ابنُ الجَوْزي في زاد المسير (١/ ١٣٣) : ((قال ابن عَبَّاس: اخْتَصَمَ يَهُودُ المدينة ونَصَارى نَجْرَان عِند النبيِّ ﷺ ، فقالت اليهود: لَيْسَت النَّصَارى على شَيْء، ولا يَدْخُل الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ يَهُودِيًّا ، وكَفَرُوا بالإنجيلِ وعِيسَى . وقالت النَّصَارى : لَيْسَت اليَهُودُ عَلى شَيْء ، وكَفَرُوا بالتَّوراةِ ومُوسَى ، فقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُم ﴾ . وَاعْلَمْ أنَّ الكلام في هذه الآية مُجْمَل ، ومَعْناه : قالت اليَهُود: لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ هُودًا ، وقالت النَّصَارى : لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ نَصْرَانِيًّا . والهُودُ جَمْعُ هائد (وهو التائب الراجع إلى الحق) . ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُم ﴾ . أي: ذاكَ شَيْءٌ يَتَمَنَّوْنَه ، وظَنٌّ يَظنُّونه . هذا مَعنى قَول ابن عَبَّاس ومُجاهد . قال : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُم ﴾ أي: حُجَّتَكم ﴿ إن كُنتُم صَادِقِين ﴾ بأنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلها إلا مَنْ كانَ هُودًا أوْ نَصَارى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعدُودَاتٍ وَغَرَّهُم فِي دِينِهِم ما كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ [آل عِمران : ٢٤] .

إنَّ رفض اليهود للإيمان،وإعراضهم عن الحق ، بسبب كَذِبِهم على اللَّه ، وزَعْمِهم أنهم أبناء الأنبياء ، وأن النار لن تُصيبهم إلا مُدَّة يسيرة (عدد أيام عِبادتهم للعِجْل) . وَغَرَّهُم كَذِبُهم على اللَّه، وثَبَّتَهم على الباطل مَا خَدَعُوا بِه أنفُسَهم مِنَ الأكاذيبِ والافتراءاتِ والأماني . والغُرُورُ هو الإطماع فِيما لا يَحْصُل مِنْه شَيْء ، والافتراءُ : اختلاقُ الكَذِبِ .

وكلام اليهود قائم على الغُرور والاستعلاء والتكبُّر . وما ذلك إلا لجَهْلهم باللَّه تعالى ، ونظرتهم الدُّونية إلى كل مَن هُوَ ليس مِنهُم (الأغيار) . وبالتأكيد ، إن تقديسهم للشخصية اليهودية فاقَ كُلَّ الهَلْوَسات وجُنونَ العَظَمَة والنَّرجسية. والعُلُوُّ في الأرضِ بغير الحق والاستعلاء بحُطَام الدُّنيا الفاني ، وتقديس خُرافة نَقَاء العِرْق وتَفَوُّقه ، والنَّظْرَةُ الدُّونيَّة إلى باقي البشر ، كُلُّ هذه العناصر السلبية جُزء أساسي مِن الشخصية اليهودية المُتغطرسة .

وكلامُ اليهود يدلُّ على وقاحتهم وجُرأتهم على اللَّه تعالى ، واستخفافهم بعذاب النار، فهُم يُحدِّدون فترة عذابهم كما لو كانت النار مِلْكًا لهم ، يتحكمون فيها كَيْفما شاؤوا . فهُم يَرَوْنَ أنهم سيُعذَّبون أربعين يَوْمًا _ مُدَّة عبادتهم للعِجْل _ ثم يَخرُجون من النار .

وهذ يدلُّ على الجهل الممزوج بالجُرأة المذمومة والاغترار.والجَنَّةُ والنارُ خاضعتان للَّه تعالى ، ووَحْدَه _سُبحانَه_ مَنْ يَملِك التَّصَرُّف فيهما، ويُحدِّد أصحابهما.والمخلوقُ الضعيف لا يَمْلِك مِن أمْرِه شيئًا، وهو _أصلًا_ لا يَعْرِف هل هو من أهل الجنة أو النار . والعجيبُ أن اليهود يؤمنون بأنهم مُستحقون للعذاب ، ومع هذا يُقَدِّمون أنفسَهم على أنهم شعب اللَّه المُختار ، وصَفْوته مِن خَلْقه ، وأتْبَاع مُوسَى ﷺ الحاملون لرسالته وتعاليمه ! .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٤) : ((إنَّمَا حَمَلَهُم وجَرَّأهُم على مُخالفة الحَقِّ افتراؤُهم على اللَّهِ فِيما ادَّعَوْهُ لأنفُسِهِم أنَّهم إنَّما يُعَذَّبُون في النارِ سبعة أيام ، عَنْ كُلِّ ألْفِ سَنَة في الدُّنيا يَوْمًا . ثُمَّ قال تعالى : ﴿ وَغَرَّهُم فِي دِينِهِم ما كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ ، أي : ثَبَّتَهُم على دِينِهم الباطلِ مَا خَدَعُوا بِه أنفُسَهم مِنْ زَعْمِهم أنَّ النار لا تَمَسُّهُم بِذُنوبهم إلا أيامًا مَعْدُودات ، وَهُمُ الذينَ افْتَرَوْا هذا مِنْ تِلْقَاءِ أنفُسِهِم ، وَاخْتَلَقُوه ، وَلَمْ يُنْزِل اللَّهُ بِهِ سُلطانًا)) .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١ / ٢٢) : ((﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى التَّوَلِّي والإعراضِ ﴿ بِأَنَّهُم قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعدُودَاتٍ ﴾بسبب تَسهيلِهم أمْر العِقَابِ على أنفُسِهم لهذا الاعتقادِ

الزائغِ والطمعِ الفارغِ ، ﴿ وَغَرَّهُم فِي دِينِهِم ما كَانُوا يَفْتَرُون ﴾ مِنْ أنَّ النار لَنْ تَمَسَّهُم إلا أيَّامًا قلائل ، أوْ أنَّ آباءهم الأنبياء يَشْفَعُون لَهُم ، أوْ أنَّه تَعَالى وَعَدَ يَعقوب عليه السلام أن لا يُعَذِّبَ أولادَه إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ)) .

لَقَد اختلف المُفسِّرون في توضيح كلام اليهود ، فذهبت طائفة إلى أن اليهود يَعتقدون بأنهم سيُعذَّبون أربعين يَوْمًا _ مُدَّة عبادتهم للعِجْل _ ثم يَخرجون من النار.وَذَهَبَت الطائفةُ الأُخْرَى إلى أن اليهود يعتقدون أنهم سَيُعَذَّبون سبعة أيام ، وذلك لأنهم يؤمنون أن الدنيا سبعة آلاف سنة ، وسوفَ يُعَذَّبون عن كل ألف سنة يَوْمًا . واليهودُ اخترعوا هذه الأكاذيب والافتراءات مِن تِلْقاء أنفسهم ، بلا دليل نقلي ، ولا حُجَّة عقلية . واللَّهُ تعالى لَمْ يُحدِّد عددَ الأيام في الآية ، لأنها معروفة عند اليهود ، ومعلومة لَدَيهم ، ومُقتنعون بها .

[وَمِنْ طريق ابن إسحاق عن سَيف بن سُلَيمان عن مجاهد عن ابن عباس : ((أن اليهود كانوا يقولون : هذه الدُّنيا سبعة آلاف سَنَة ، وإنَّما نُعذَّب بِكُلِّ ألف سَنَة يَوْمًا في النار ، وإنما هي سبعة أيام مَعدودات)) [117]] [118] . فأنزَلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسَّنا النارُ إلا أيامًا معدودة ﴾ [البَقَرَة : ٨٠] . وقد اتَّضح سبب اعتقادهم بأنهم سَيُعَذَّبون سبعة أيام . ولكن السؤال الذي يَطْرَح نَفْسَه:لماذا قَدَّروا مُدَّةَ عذابهم بأربعين يَوْمًا _ حَسَب قَول طائفة واسعة من المُفسِّرين _ ؟ .

قال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٠٧) : ((فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنهم قالوا : بَين طَرَفَي جَهَنَّم مسيرة أربعين سَنَة ، ونَحْنُ نَقْطَع مَسيرةَ كُلِّ سَنَة في يوم ، ثُمَّ ينقضي العذاب ، وتَهْلِك النار ، قاله ابن عباس . والثاني أنهم قالوا : عَتَبَ عَلَينا رَبُّنا في أمر ، فأقسمَ لَيُعَذِّبنا أربعين لَيلة ، ثُمَّ يُدْخِلنا الجَنَّةَ ، فَلَنْ تَمَسَّنا النارُ إلا أربعين يَوْمًا تَحِلَّة القَسَمِ ، وهذا قَوْل الحَسَن وأبي العالية. والثالث أنَّها عدد الأيام التي عَبَدُوا فيها العِجْلَ ، قاله مُقَاتِل)) .

١٢_ عَدَمُ رِضَاهُمْ عَمَّنْ لَمْ يَتَّبِع مِلَّتَهُم

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَن تَرضَى عَنكَ اليهودُ ولا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم قُل إنَّ هُدى اللَّهِ هُوَ الهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعتَ أهواءَهُم بَعدَ الذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ولا نصيرٍ ﴾ [البَقَرَة : ١٢٠] .

---

١١٧ رواه الطَّبَراني في الكبير (١١ / ٩٦) برقم (١١١٦٠) .

١١٨ ذَكَرَه الحافظ في الفتح (١٠ / ٢٤٦) ، وقال : ((وهذا سند حسن)) .

لَوْ جَاءَ النبيُّ ﷺ بِكُلِّ الآياتِ والمُعجِزات ، وقَدَّمَ كُلَّ البراهين النقلية والعقلية على صِدْقِه وصِحَّةِ رِسالته، فَسَوْفَ يَرفضه أهلُ الكتاب (اليهود والنصارى)، ولَن يَعترفوا بِه، ولَن يَرْضَوْا عنه، لأنهم يَستندون إلى موقف مُسْبَق رافض للإيمان ، ولا يَبحثون عن الحق ، ولا يَطلُبون الآياتِ للتأكد مِن صِدْقِ النبيِّ ﷺ ، فَهُمْ يُدرِكون أنه صادق ، ولكنَّ الحسدَ مُسيطِر على قُلوبهم ، والعِنادَ يُهيمِن على أقوالهم وأفعالهم . وَلَن يَرْضَوْا عن النبيِّ ﷺ حتى يَترك الإسلامَ ، ويتَّبع مِلَّتَهم الباطلة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (٣٩٣/١):((مُبالَغة في إقناط الرسول ﷺ مِن إسلامهم، فإنَّهم إذا لَمْ يَرْضَوْا عنه حتى يَتَّبع مِلَّتَهم،فكيف يَتَّبعون مِلَّتَه ؟،ولعلهم قالوا مِثْلَ ذلك،فحكى اللَّهُ عنهم)).

ولا يُمكن إرضاؤهم باتِّباع مِلَّتهم ، لأنَّ اليهودية والنصرانية دِينان مُتعارِضان مُتنافران ، وبين اليهود والنصارى عَدَاوات ونزاعات وتناحُر وحِقْد وكراهية ، لكنهم اجتمعوا على محاربة الإسلام ، فهذا الهدفُ هو الذي يُوحِّدهم . وَمِنَ المُحَالِ أن يَتَّبع النبيُّ ﷺ مِلَّتَهم لأنه مَعصوم ، كما أن الشخصَ الواحد لا يُمكِن أن يَجتمع فِيه دِينان مُتعارِضان . ومن المستحيل أن يَكون الشخصُ يهودِيًّا ونصرانِيًّا في نَفْسِ الوقت . إذن ، لا يَنبغي الالتفات إلى أهواء أهل الكتاب،ولا يُمكِن نَيْل رِضَاهُم . والآيةُ تَدْعُو النبيَّ ﷺ إلى التركيز على نشر الدَّعوة الإسلامية، وعدم الانشغال بأهلِ الكِتَابِ وأهوائِهم المُتضارِبة ، وعقائدِهم المُتناقِضة ، فإرضاؤُهم غاية لا تُدرَك .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٥٦٥/١) : ((وَلَيْسَت اليهودُ يا مُحَمَّد ولا النَّصَارى براضية عَنْكَ أبدًا ، فَدَعْ طَلَبَ مَا يُرْضِيهم ويُوافقهم،وأقْبِلْ على طلب رضا اللَّهِ في دعائهم إلى ما بَعَثَكَ اللَّهُ به من الحق ، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لَهُوَ السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الأُلفة والدِّين القيِّم ، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع مِلَّتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك إلا أن تكون يهوديًّا نصرانيًّا ، وذلك مِمَّا لا يكون منك أبدًا لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دِينان مُتضادان في حال واحدة ، وإذا لَمْ يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل ، لَمْ يَكُنْ لَكَ إلى إرضاء الفَرِيقَيْن سبيل ، وإذا لَمْ يكن لك إلى ذلك سبيل ، فَالْزَمْ هُدى اللَّه الذي لجميع الخَلْقِ إلى الأُلْفَةِ عليه سبيل)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢٢٥) : ((وَلَيْسَت اليهود يا مُحَمَّد ولا النَّصَارى بِراضية عَنك أبدًا ، فَدَعْ طَلَبَ ما يُرضيهم ويُوافقهم ، وأقبِلْ على طلب رضا اللَّهِ في دُعائهم إلى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الحَقِّ)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٣٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلَن تَرضَى عَنكَ اليهودُ ولا النَّصارى ﴾ . في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ يهود المدينة ونصارى نَجْران كانوا يَرْجُون أن يُصَلِّيَ النبيُّ ﷺ إلى قِبْلتهم ، فلمَّا صُرِفَ إلى الكَعْبَةِ يَئِسُوا مِنْه ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّهُم دَعَوْهُ إلى دِينِهم ، فَنَزَلَتْ ، قاله مُقاتِل.والثالث أنَّهُم كانوا يَسْألونه الهُدنة ويُطمعونه في أنَّه إنْ هَادَنَهُم وَافَقُوه ، فَنَزَلَتْ ، ذَكَرَ مَعناه الزَّجَّاج)) .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (١/ ٢٧٢) : ((عن ابن عباس أن يهود المدينة ونصارى نَجْران كانوا يَرْجُون أن يُصَلِّيَ النبيُّ ﷺ إلى قِبْلتهم ، فلمَّا صَرَفَ اللَّهُ القِبْلَةَ إلى الكَعْبَةِ شَقَّ ذلك عليهم وأَيِسُوا مِنْه أن يُوافقهم على دِينِهم، فأنزَلَ اللَّهُ : ﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى ﴾ الآية)).

وأهلُ الكتابِ قُلوبُهم قاسية ، وطِباعُهم خشنة ، وهُم ثابتون على الكُفر حتى الموت ، والآيةُ تُشير إلى شِدَّة شَكيمتهم في الكُفر والضلال . واليهودُ أسوأ مِن النصارى ، وأشدُّ مِنهم . وقُلوبُ اليهود هِيَ مَضْرِبَ المَثَلِ في القَسوة والصَّلابة ، وحِقْدُ اليهودِ لا يُماثِله أيُّ حِقْد .

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الكُفْرَ مِلَّةٌ واحدة ، لأنَّ اللَّهَ ذَكَرَ المِلَّةَ بِصِيغة المُفْرَد : ﴿ مِلَّتهم ﴾ ، معَ أنَّ اليهود والنصارى فريقان .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢ / ٩١) : ((والمِلَّة : اسم لِمَا شَرَعَه اللَّهُ لِعِبَادِه في كُتُبِه ، وعلى ألسنة رُسُلِه ، فكانت المِلَّةُ والشريعةُ سَوَاء)) .

﴿ قُل إنَّ هُدى اللَّهِ هُوَ الهُدى ﴾ . قُل يا مُحَمَّد لليهود والنصارى : إنَّ هُدى اللَّهِ (الإسلام) الذي بَعَثني بِه هو الهُدى الحقيقيُّ، والإسلامُ وَحْدَه هو الدِّين الحَق،وَلَيْسَ اليهودية ولا النصرانية . واللَّهُ يُرشِد النبيَّ ﷺ إلى كَيْفِيَّةِ الرَّدِّ على أهل الكتاب ، وإفحامِهم ، وكَشْفِ باطِلِهم. ولا يُوجَد عاقل يُساوي بين شريعة الخالق الكاملة الصحيحة ، وبين أفكارِ المخلوقين الناقصة المُتعارِضة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٢٥) : ((أي : قُلْ يا مُحَمَّد إنَّ هُدى اللَّهِ الذي بَعَثَني بِه هُوَ الهُدى ، يَعْني : هُوَ الدِّينُ المُستقيم الصحيح الكامل الشامل . قال قَتَادَة في قَوْلِه : ﴿ قُل إنَّ هُدى اللَّهِ هُوَ الهُدى ﴾ ، قال : خُصومة عَلَّمَها اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه ، يُخاصِمون بها أهلَ الضَّلالة)) .

﴿ وَلَئِنِ اتَّبعتَ أهواءَهُم بَعدَ الذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ . الخِطَابُ للنَّبِيِّ ﷺ ، والمَقصودُ أُمَّتُه ، لأنَّ النبيَّ ﷺ مَعصوم . وهذا تَهديدٌ ووعيدٌ لِمَنْ يَسير عَلى خُطى اليهود والنصارى، ويَتَّبع آراءَهم الواهية، وعقائدَهم الباطلة،وأفكارَهم المُتعارِضة،بعد أن اتَّضَحَتْ له آياتُ القُرْآنِ والسُّنَّةُ النَّبَوِيَّة .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ١٣٨) : ((وفي الذي جاءه مِنَ العِلْم أربعة أقوال : أحدها أنَّه التَّحَوُّل إلى الكَعْبَةِ ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّه البَيَانُ بأنَّ دِينَ اللَّهِ الإسلامُ . والثالث أنَّه القُرْآن . والرابع العِلْم بِضَلالَةِ القَوْم)) .

﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ولا نصيرٍ ﴾ . الخِطَابُ للنَّبِيِّ ﷺ ، والمقصودُ أُمَّتُه . في حال اتِّبَاعِ أهواء اليهود والنصارى بعد وُضوح الهُدى، مَا لَكَ وَلِيٌّ يَحْفَظُك ، ولا نَصير يَحْميك مِنَ اللَّهِ . وَهُوَ جَوَاب ﴿ لَئِنِ ﴾ .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١ / ٥٦٥) : ((﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يَعْني بذلك : لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّد مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أمْرَكَ ، وَقَيِّمٍ يَقُوم به ، ﴿ ولا نصيرٍ ﴾ يَنْصُرك مِنَ اللَّهِ ، فَيَدفع عَنْكَ مَا يَنْزِل بِكَ مِنْ عُقوبته ، ويَمنعك مِنْ ذلك ، إنْ أَحَلَّ بِكَ ذلك رَبُّك)) .

إنَّ اليهود والنصارى يَتحركون بدافع الأهواء المُتضارِبة ، والمَصالحِ الشخصية ، ويُحَاولون جاهدين التَّحَايُلَ على الحقيقة ، والالتفافَ على الحَقِّ ، وَلَوْيَ أعناقِ النُّصُوصِ . وهُمْ يَنظُرون إلى أنفُسِهم على أنَّهُم صَفْوَةُ اللَّهِ مِنَ الخَلْقِ، ويَعتقدون أنَّهُم على الحَقِّ المُطْلَقِ ، وغَيْرَهم على الباطل المُطْلَق . وهذه الأوهامُ نابعة من ثقافة " احتكار الحقيقة " المُستقاة مِن التَّوراةِ والإنجيلِ اللذَيْن أصابهما التَّحريفُ والتَّغييرُ والتَّبديلُ . كما أنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى يَنطلقون مِنْ مَوْقِفٍ فَوْقي استعلائي رافض للحَق ، ويَنظرون إلى الآخرين على أنَّهم أتْبَاع وَعَوَام وَرَعَاع وعَبِيد وخَدَم . وهُمْ يَعتبرون أنفُسَهم الأصلَ ، وغَيْرَهم هُوَ الفَرْع أو الصُّورة المُزَوَّرَة أو النُّسْخَة المُقَلَّدَة .

وهكذا يَتَجَلَّى البُعْدُ الأُسطوري عِند أهل الكتاب. وللأسف ، إنَّ أوهامَهم مَصبوغة بالدِّينِ، وأهواءَهم مُختلِطة بالعقائد، وهذا يَجْعلهم غارقين في ضَلالِهم ، غَيْر مُستعدين نَفْسِيًّا لِتَقَبُّلِ الحَقِّ، أو التزام الحقيقة . والناسُ أعداءُ مَا يَجْهَلُون ، والحُكْمُ على الشَّيْءِ فَرْعٌ عَنْ تَصَوُّرِه .

١٣_ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِم بِسَبَبِ بَغْيِهِم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وعَلى الذينَ هادوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البَقَرِ والغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِم شُحُومَهُما إلا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أوِ الحَوَايا أوْ ما اختلطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِم وإنَّا لَصَادِقُون ﴾ [الأنعام : ١٤٦] .

حَرَّمَ اللَّهُ على اليهود كُلَّ ذِي ظُفُر ، وَهُوَ مَا لَم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطَّيْر ، كالإبِل والنَّعَام والإوَز والبَط .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣ / ١٤١) : ((وفي ذِي الظُّفُر ثلاثة أقوال : أحدها أنه مَا لَيس بمُنفرِج الأصابع ، كالإبِل والنَّعَام والإوَز والبَط ، قاله ابن عباس وابن جُبَير ومُجاهد وقَتادة والسُّدي . والثاني الإبِل فقط، قاله ابن زَيد.والثالث كُلُّ ذِي حَافِر مِن الدَّوَاب ومِخْلَب مِن الطَّير ، قاله ابن قُتَيبة. قال : وسَمَّى الحَافِر ظُفُرًا على الاستعارة)) .

وحَرَّمَ اللَّهُ عليهم أيضًا أكلَ شُحُوم البقر وشُحُوم الغَنَم ، إلا الشَّحْم الذي عَلِقَ بظُهُورهما ، أوْ ما حَمَلَتْهُ الحَوَايا مِن الشَّحْم ، والحوايا هي الأمعاء والمصارين ، أوْ ما اختلطَ بعَظْم ، وهو شَحْم الإلْيَة . أي إنَّ الشَّحْم العالق بالظُّهُور أوْ مَا احْتَوَتْ عليه الأمعاء ، أو ما اختلطَ بعَظْم (شَحْم الإلْيَة) جائز وحلالٌ لهم ، ولَيس مِن المُحرَّمات .

وقال ابن الجَوزي في زاد المسير (٣ / ١٤٢ و١٤٣ و١٤٤) : ((وفي شُحُوم البَقَر والغَنَم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه إنَّما حَرَّمَ مِن ذلك شُحُوم الثُّرُوب خاصَّة، قاله قَتادة. [الثُّرُوب هي الشَّحْم الرَّقيق الذي يُغَشِّي الكَرِشَ والأمعاءَ]. والثاني شُحُوم الثُّرُوب والكُلَى، قاله السُّدي وابن زيد. والثالث كُلُّ شَحْمٍ لَمْ يَكُنْ مُختلِطًا بعَظْم ولا على عَظْم، قاله ابن جُرَيج . وفي قَوله : ﴿ إلا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه ما عَلِقَ بالظَّهْر مِن الشُّحُوم ، قاله ابن عباس . والثاني الإلْيَة، قاله أبو صالح والسُّدي . والثالث ما عَلِقَ بالظَّهْر والجَنْب مِن دَاخل بُطُونهما ، قاله قَتَادة . ... . قَوله تعالى : ﴿ أوْ ما اختلطَ بِعَظْمٍ ﴾ ، فيه قَولان : أحدهما أنَّه شَحْم البَطْن والإلْيَة ، لأنَّهما على عَظْم ، قاله السُّدي . والثاني كُلُّ شَحْمٍ في القوائم والجَنْب والرأس والعَيْنَيْن والأُذُنَيْن ، فهو مِمَّا اختلطَ بعَظْم ، قاله ابن جُرَيج)) .

ذلك التَّحريم بسبب ظُلْم اليهود ، وقَتْلِهم الأنبياء ، وصَدِّهم عن سبيل اللَّه ، وأَكْلِهم الرِّبا ، واستحلالِ أموال الناس بالباطل . وإنَّ اللَّه لَصَادِق في الإخبار عمَّا حَرَّمَ عليهم ، وعَن بَغْيِهم . وفي هذا تَعريض بكَذِب اليهود . والآيةُ تُوضِّح أن التحريم على اليهود إنما هو بسبب بَغْيِهم ومَعَاصيهم وذُنوبهم ، وهو عُقوبة إلَهِيَّة لهم .

وقال القُرطبي في تفسيره (٧/ ١١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ ، أي : ذلك التحريم ، فذلك في مَوضع رَفْع ، أي : الأمر ذلك ﴿ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِم ﴾ ، أي: بظُلْمهم عُقُوبة لهم لِقَتْلهم الأنبياء ، وصَدِّهم عن سبيل اللَّه ، وأخْذِهم الرِّبا ، واستحلالِهم أموال الناس بالباطل . وفي هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بِذَنْبٍ لأنَّه ضِيق ، فلا يُعْدَل عن السَّعَة إليه إلا عِند المُؤاخَذَة ، ﴿ وإنَّا لَصَادِقُون ﴾ في إخبارنا عن هؤلاء اليهود عمَّا حَرَّمْنا عليهم مِن اللحوم والشُّحُوم)) .

١٤ ــ إفْسَادُهُم في الأرْضِ مَرَّتَيْن

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤] [١١٩] .

إنَّ مَعنى القضاء في الآية لا يعني الإجبارَ أو سَلْبَ إرادة الإنسان . بَلْ يَحْمِل معنى الإعلام والإخبار، فاللَّهُ تعالى أخبرَ بني إسرائيل في التَّوراة بأنهم سَيُفْسِدُون، وأعْلَمَهم بذلك دُون إجبارهم.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣٧/٣) : ((يُخْبِر تَعَالى أنَّه قَضَى إلى بني إسرائيل في الكِتَابِ ، أي : تَقَدَّمَ إلَيْهِم ، وَأخْبَرَهُم في الكِتَابِ الذي أنزله عَلَيْهِم أنَّهُم سَيُفْسِدُون في الأرْضِ مَرَّتَيْن ، وَيَعْلُوُنَّ عُلُوًّا كبيرًا ، أي : يَتَجَبَّرُون ويَطْغَوْنَ ويَفْجُرُون على الناس)) .

إنَّ بني إسرائيل يتحمَّلون المسؤولية كاملةً ، لأنهم يَمتلكون الإرادةَ والقدرة على فِعل الخير والشر ، وقد اختاروا طريقَ الشر . وعِلْمُ اللَّهِ عِلْمُ إحاطةٍ بما كان ويَكُون وَسَيَكُون ، ولَيْسَ عِلْمَ إجبارٍ ، أو قَهرٍ للإرادة الإنسانية وسَلْبِها .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٦٧) : ((أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم مِنَ الكُتُبِ أنَّهم سَيُفْسِدُون)) .

إنَّ اللَّه لَمْ يُجْبِرْ أحدًا على الفساد والإفساد ، لكنَّ بني إسرائيل ساروا في طريق الضلال والإفساد ، بسبب ضعف إيمانهم ، وابتعادهم عن الحق، وعدم التزامهم بتعاليم أنبيائهم . فقد اعتنقوا الإفسادَ شريعة لهم سَعْيًا وراء حُطام الدُّنيا الزائل ، وهَذا جَعَلَهُم يَرفُضون الحَقَّ ويُعادونه .

وقضاءُ اللَّه على بني إسرائيل بالإفساد مرَّتين هو إخبار مِنَ اللَّه لهم بما سَيَكُون مِنهُم ، وإعلام لهم بأنَّهُم سَيُفْسِدُون ، وَفْق العِلْمِ الإلهيِّ السابقِ الأزليِّ ، وَلَيْسَ إجبارًا ولا قَهْرًا لهم .

والقَضَاءُ له وُجوه كثيرة ومَعَانٍ مُتعدِّدة ، مِنها : الأمر ، والحُكْم ، والخَلْق ، والأجر ، والوفاء ، والصُّنع ، والإتمام ، والإحصاء ، والتقدير ، والإعلام ، والإخبار .

---

١١٩ روى الحاكم في المستدرَك (٢ / ٣٩٢) وصحَّحه ووافقه الذهبي [عن طاوس قال : كُنْتُ عند ابن عباس ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ وَمَعَنَا رَجُلٌ مِنَ القَدَرِيَّة ، فقلتُ : إنَّ أناسًا يقولون : لا قَدَر ، قال : " أَوَ في القوم أحد منهم ؟ " ، قلتُ : لو كان ما كُنتَ تصنع به ؟ ، قال : " لو كان فيهم أحد منهم لأخذتُ برأسه ، ثم قرأتُ عليه آية كذا وكذا : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مرَّتَيْن ولتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيرًا ﴾ "] .

والفسادُ والإفساد مُقترنان ببني إسرائيل ، إذ إنهم يَعتقدون أن الالتفاف على الحق ، وتغيير الحقائق ، أفضل وسيلة لتثبيت وجودهم ، وضمان استمرار نفوذهم ، وتحقيق أهدافهم دون مُعارَضة . والعِزَّةُ بالإثم تُسيطر على مفاصل حياتهم ، وتدفعهم إلى اتخاذ القرارات الخاطئة ، وارتكاب الجرائم والذُّنوب والآثام والخطايا . وهذا يُفَسِّر عُلُوَّهم في الأرض بِغَيْرِ الحَقِّ ، وَغَرَقَهُم في متاهة الاستكبار والجُحود والتطرف والكفر والضلال والعناد والاستكبار .

أخبرَ اللَّهُ بني إسرائيل وأعلَمَهم في التَّوراة ، أنهم سيُفْسِدُون في أرض الشام وبيت المقدس مرَّتين ، وسَيَطْغَوْنَ في الأرض المُقدَّسة طُغيانًا كبيرًا ، ويَرتكبون الجرائم والذنوب والآثام ، ويَنتهكون مَحارم اللَّه ، ويَستكبرون عن طاعته ، ويَظلمون الناسَ .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ إنزال التَّوراة على مُوسى ﷺ يعني إنزالها على بني إسرائيل لأنهم قَوْمُه .

وَرَوَى الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٦٣٩) عن الربيع قال: ((كان الفساد الأول ، فَبَعَثَ اللَّهُ عليهم عَدُوًّا ، فاستباحوا الدِّيَارَ ، واستنكَحوا النِّسَاءَ ، واستعبَدوا الوِلْدَانَ ، وَخَرَّبوا المسجدَ ، فَغَبَرُوا زمانًا ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ فيهم نبيًّا ، وعادَ أمْرُهم إلى أحسن مَا كان ، ثُمَّ كان الفساد الثاني بقتلهم الأنبياء ، حتى قتلوا يحيى بن زكريا ، فَبَعَثَ اللَّهُ عليهم بُخْتُنَصَّر ، فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ مِنهُم ، وَسَبَى مَنْ سَبَى ، وَخَرَّبَ المَسْجِدَ ، فكان بُخْتُنَصَّر الفساد الثاني)) .

وفسادُ اليهود وإفسادهم للآخرين ليس له نهاية . أمَّا المَرَّتان المُوضَّحتان في الآية الشريفة فهُمَا قِمَّتا الفساد ، وأكثرهما غَطْرسة وسُوءًا .

وقد ذَكَرَ اللَّهُ هاتَيْن المَرَّتَيْن لِيُعْطِيَهما الأهمية التي تشير إلى الشخصية اليهودية المتطرفة الغارقة في الكُفْرِ والضلال والعِناد والاستكبار .

إن بني إسرائيل مَشهورون بقتل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وهذه ليست تُهمةً عابرة ، أوْ كلامًا حاقدًا ، أو تشويهًا لِسُمعتهم وصُورتهم ، فالنُّصُوصُ الدِّينية والتاريخية مُتضافرة في هذا المَجَال ، ولا يُمكِن إخفاؤُها ، أو التحايل عليها . والجميعُ يَعْلَم أن زكريا ويحيى _ عليهما الصلاة والسلام _ كانا من أنبياء بني إسرائيل ، وقد قُتِلا بكل خِسَّة ودَناءة على أيدي اليهود .

ولا يمكن أن تمر قضية قتل الأنبياء مُرورًا عابرًا ، فالنبيُّ لَيْسَ شخصًا عاديًّا. إنه إنسان يتلقى خَبَرَ السماء، ويَهبِط عليه الوَحْيُ ، ويُبلِّغ الأوامرَ الإلهيَّة بِكُلِّ صِدْقٍ وأمانةٍ ، وَهُوَ مَعصوم . وتكذيبُ النبيِّ تكذيبٌ لمن أرسله ، وقتلُ النبيِّ رفضٌ لأوامر اللَّهِ تعالى، لذلك كان قتلُ النبيِّ كُفرًا مُخْرِجًا من الإسلام ، ومُقترِف هذه الفَعْلَة الشنيعة خالدٌ في جَهَنَّم .

وفَسَادُ بني إسرائيل وإفسادُهم ارتدَّ عليهم سلبًا ، وقَدْ عُوقبوا جَزَاءَ أفعالهم السَّيئة ، وهذا الانحرافُ الرُّوحِيُّ والماديُّ كان نتيجةً حتمية لغياب منهج التفكير عن عقول بني إسرائيل ، فَهُمْ يَتَخَنْدَقُون في اللحظة الآنِيَّة دُون أن يَنظُروا إلى عواقب الأمور ، وهذا قادهم إلى السُّقوط المُريع في أوحال الخطيئة والضلال ، ودَفْعِ الثمن غاليًا .

أمَّا قَوْلُه تعالى : ﴿ ولتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيرًا ﴾ فيُشير إلى قَسْوة طِباع بني إسرائيل وتماديهم في الطغيان حيث الاستكبار على طاعة اللَّه تعالى ، وظُلم الناس والاستعلاء عليهم بالباطل . وقال الطَّبَري في تفسيره (٨/ ١٩) : ((وَلَتَسْتَكْبِرُنَّ على اللَّه باجترائكم عليه استكبارًا شديدًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٧و٨ و٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَقَضَينَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فيه قَولان : أحدهما أخبرناهم ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثاني قَضَيْنا عليهم ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال قَتادة . فعلى الأول تكون ﴿ إِلَى ﴾ على أصلها ، ويكون الكتاب التوراة . وعلى الثاني تكون ﴿ إِلَى ﴾ بمعنى " على " ، ويكون الكتاب الذِّكْر الأول . قَوله تعالى : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ ﴾ يعني : أرض مِصْر ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ بالمعاصي ومُخالفة التوراة . وفي مَن قَتلوه مِن الأنبياء في الفساد الأول قَولان : أحدهما زكريا ، قاله السُّدي عن أشياخه . والثاني شعيا (إشَعْياء)، قاله ابن إسحاق . فأمَّا المقتول مِن الأنبياء في الفساد الثاني فهو يَحْيَى بن زكريا. قال مُقاتل : كان بين الفسادَيْن مائتا سنة وعشر سنين ، فأمَّا السبب في قَتْلهم زكريا ، فإنهم اتَّهموه بمريم ، وقالوا : مِنْهُ حَمَلَتْ ، فهربَ منهم ، فانفتحت له شجرة ، فدخل فيها ، وبَقِيَ مِن ردائه هُدْب ، فجاءهم الشَّيطان فدلَّهم عليه ، فقطعوا الشجرة بالمِنشار وهو فيها . وأمَّا السبب في قتلهم شعيا (إشَعْياء) فهو أنه قام فيهم برسالة مِن اللَّه ينهاهم عن المعاصي . وقِيل: هو الذي هرب منهم فدخل في الشجرة حتى قطعوه بالمِنشار ، وإن زكريا مات حَتْفَ أنفه . وأمَّا السبب في قَتْلهم يحيى بن زكريا ، ففيه قَولان : أحدهما أن مَلِكَهم أراد نِكاحَ امرأة لا تَحِلُّ له ، فنهاه عنها يحيى . ثم فيها أربعة أقوال : أحدها أنها ابنة أخيه . قاله ابن عباس . والثاني ابنته ، قاله عبد اللَّه ابن الزُّبَيْر . والثالث انها امرأة أخيه ، وكان ذلك لا يَصْلُح عندهم ، قاله الحُسَيْنُ بن عَلِيٍّ عليهما السلام . والرابع ابنة امرأته ، قاله السُّدي عن أشياخه . وذكر أن السبب في ذلك أن مَلِكَ بني اسرائيل هَوِيَ بِنْتَ امرأته ، فسأل يحيى عن نِكاحها ، فنهاه ، فحنقت أُمُّها على يحيى حين نهاه أن يتزوَّج ابنتها ، وعَمَدَتْ إلى ابنتها ، فزيَّنتها ، وأرسلتها إلى المَلِك حين جلس على شرابه ، وأمرتها أن تَسْقِيه ، وأن تَعْرِض له ، فإن أرادها على نَفْسِها أَبَتْ ، حتى يُؤتَى برأس يحيى بن زكريا

في طَسْت ، ففعلت ذلك ، فقال : وَيْحَكِ ، سَلِيني غَير هذا ، فقالت : ما أُريد إلا هذا ، فَأَمَرَ فَأُتِيَ برأسه ، والرأس يتكلم ويقول : لا تَحِلُّ لك ، لا تَحِلُّ لك . والقول الثاني أن امرأة المَلِك رَأتْ يحيى عليه السلام ، وكان قد أُعْطِيَ حُسْنًا وجَمَالًا ، فأرادته على نَفْسِه ، فأبى ، فقالت لابنتها : سَلِي أباكِ رأسَ يحيى ، فأعطاها ما سألتْ ، قاله الربيع بن أنس . قال العلماء بالسِّيَر : ما زال دم يحيى يَغْلي حتى قُتِلَ عليه من بني اسرائيل سبعون ألفًا ، فسكن . وقِيل : لم يَسْكُن حتى جاء قاتله ، فقال : أنا قتلتُه ، فَقُتِلَ ، فسكن . قَوْلُه تعالى : ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، أي : لَتَعْظُمُنَّ عن الطاعة ، وَلَتَبْغُنَّ)) .

إنَّ بني إسرائيل غَرِقُوا في الكُفْرِ والضلال والعِناد ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ ، وعَذَّبَهم ، وسَلَّطَ عليهم الوَبَاءَ كي يَرتدعوا ، ويُعيدوا حساباتهم ، ويَخلَعوا الباطلَ ، ويَعتنقوا الإيمانَ . والوَبَاءُ تَنبيه مِنَ اللَّهِ لبني إسرائيل ، وتحذير لهم .

وفي صحيح مُسْلِم (٤ / ١٧٣٧) قال أُسَامَة _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((الطَّاعُونُ رِجْزٌ ، أوْ عَذابٌ أُرْسِلَ على بني إسرائيل ، أوْ عَلى مَنْ كانَ قَبْلَكُم ، فَإذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأرْضٍ فَلا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وإذا وَقَعَ بِأرْضٍ وأنتُمْ بِها فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْه)) [١٢٠] .

الأمراضُ والأوبئةُ مِنْ أقدارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يُنْزِلُها رَحمةً بالبعضِ ، وعَذابًا للآخَرِين . وعلى المُسْلِمِ أنْ يُؤْمِنَ بأقدارِ اللَّهِ، ويَأخُذ بأسبابِ النَّجَاةِ قَدْرَ استطاعتِه، ويَصْبِر ويَرْجُو مِنَ اللَّهِ الخَيْرَ.

والطَّاعُونُ : نَوْعٌ مِنَ الوَباءِ المُهْلِكِ ، وهو عِبارةٌ عَن خَرَّاجاتِ وقُروح وأورام رديئة تَظْهَر بالجِسْمِ ، وقِيل : إنَّ الطَّاعُونَ اسْمٌ لِكُلِّ وَبَاءٍ عامٍّ يَنتشِر بِسُرعة ، وقَدْ سُمِّيَ طاعونًا لِسُرعةِ قَتْلِه .

وقَدْ أخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ الطَّاعُونَ رِجْزٌ ، أي : عَذاب ، وأنَّ اللَّهَ أرْسَلَه على طائفةٍ مِن بَني إسرائيل ، أوْ على مَنْ كانَ قَبْلَنا، شَكٌّ مِن أحدِ رُواةِ الحَديثِ . وقِيل : هؤلاء هُمُ الذينَ أمَرَهُمُ اللَّهُ أن يَدْخُلُوا البابَ سُجَّدًا ، فَخَالَفُوا أمْرَه ، قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأنزَلْنَا عَلى الذينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [البَقَرَة : ٥٩] ، أرْسَلَ اللَّهُ عليهم الطاعونَ ، فماتَ مِنهُم عَدَدٌ كثيرٌ .

---

١٢٠ قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١ / ١٠٥) : ((وأمَّا الطاعون ، فوباء معروف ، وهو بَثْر، وورم مؤلم جدًّا يخرج مع لهب ، ويَسْوَدُّ ما حَوْله أو يَخْضَرُّ أو يَحْمَرُّ حُمرة بنفسجية كَدِرة ، ويحصل معه خَفَقَان القلب والقَيْء)) اهـ . وقال العَيْني في عُمدة القاري (١٤/ ١٢٩) : ((وإنما سُمي طاعونًا لعموم مُصابه وسُرعة قَتْلِه)) .

وهذا الوَباءُ لَيْسَ خاصًّا بِمَنْ قَبْلَنا ، بَلْ نَزَلَ في هذه الأُمَّةِ أيضًا ، ويَنْهَى النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ مُسْلِمٍ عَن الدُّخُولِ إلى البَلَدِ الذي سَمِعَ بِوُجودِ الطاعونِ فيه ، وعَن الخُروجِ مِنْهُ إذا كانَ في البَلَدِ التي وَقَعَ فيها الطاعونُ فِرَارًا مِنْهُ ، لأنَّ الذي يَقْدَم عَلَيْه قَدْ يَظُنُّ أنَّه كانَ ناجيًا لَوْلا قُدُومُه ، والفَارَّ مِنْه قَدْ يَظُنُّ أنَّه كانَ سَيَمُوتُ لَوْلا فِرَارُه مِنْهُ ، فَيَتَعَلَّق القَلْبُ بالأسبابِ ، وَيَظُنُّ أنَّها تُحْدِث نَفْعًا أوْ ضَرًّا بِذَاتِهَا ، والحقيقةُ أنَّ اللَّهَ قَدَّرَ المَقادِيرَ، وكَتَبَ على كُلِّ نَفْسٍ رِزْقَها وسَاعَةَ مَوْتِها،فلا تَبْديل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ تعالى .

وقِيل : عِلَّةُ النَّهْي عَن الفِرَارِ مِنَ الطاعونِ أو القُدومِ عَلَيْه ، أنَّ الإقدامَ عَلَيْه تَعَرُّضٌ للبَلاءِ ، ولعلَّه لا يَصْبِر عَلَيْه ، ورُبَّما كانَ فيه ضَرْبٌ مِنَ الدَّعوى لِمَقَامِ الصَّبْرِ ، أو التَّوَكُّلِ ، فَمُنِعَ ذلك لاغترارِ النَّفْسِ ، ودَعْواها مَا لا تَثْبُت عَلَيْهِ عِند التَّحقيقِ ، وأمَّا الفِرَارُ فَقَدْ يَكُون داخلًا في بابِ التَّوَغُّلِ في الأسبابِ ، مُتَصَوِّرًا بِصُورةِ مَنْ يُحَاوِل النَّجَاةَ مِمَّا قُدِّرَ عَلَيْه ، فَيَقَع التَّكَلُّفُ في القُدُومِ ، كَمَا يَقَع التَّكَلُّفُ في الفِرَارِ ، فَأُمِرَ بِتَرْكِ التَّكَلُّفِ فِيهما .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ للمُسْلِمِ الذي ماتَ بالطاعونِ أجْرَ الشَّهيدِ في الآخِرَةِ ، ففي صحيح البُخاريِّ (٣ / ١٢٨١) مِنْ حَديثِ عائشةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عنها _ ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَيْسَ مِنْ أحَدٍ يَقَعُ الطاعونُ ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، يَعْلَمُ أنَّه لا يُصِيبُهُ إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَه ، إلا كانَ لَهُ مِثْلُ أجْرِ شَهِيدٍ)) .

وفي الحَديثِ : الاحترازُ مِنَ المَكارِهِ وأسبابِها ، والتَّسليمُ لِقَضَاءِ اللَّهِ عِندَ حُلُولِ الآفَاتِ .

وفي تَنوير الحَوَالِك للسُّيوطي(٢٠٧/١):((قال النووي: وكَوْنُه_ أي الطاعون_ عَذابًا مُخْتَصًّا بِمَنْ كانَ قَبْلَنَا ، وَأمَّا هَذه الأُمَّة فهو لها رحمة وشهادة ، كما بُيِّنَ في الأحاديث الصحيحة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ٥] .

فإذا جاءَ أوَّلُ المَرَّتَيْن في الفَسَادِ والإفسادِ ، سَلَّطْنَا عَلَيْكُم مِنْ عَبِيدِنَا أُنَاسًا جَبَّارين للانتقامِ مِنْكُم أصحابَ قُوَّةٍ وَبَطْشٍ في الحَرْبِ شديد .

إنَّ بَنِي إسرائيل لمَّا اسْتَحَلُّوا المَحَارِمَ وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم بُخْتُنَصَّر مَلِكَ بَابِل ، فَقَتَلَ مِنْهُم سَبْعِينَ ألْفًا ، حَتَّى كادَ يُفْنِيهم هُوَ وجُنُودُه ، وذلك أوَّلُ الفَسَادَيْن ، فَطَافُوا وَسَطَ البُيُوتِ ، يَرُوحُون وَيَغْدُون للتَّفْتِيشِ عَنْكُم ، واستئصالِكم بِالقَتْلِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ لا يَخَافُون مِنْ أحَدٍ . لَقَدْ قَتَلُوا كِبَارَهم ، وَسَبَوْا صِغَارَهم ، وَحَرَقُوا التَّوْرَاةَ ، وَخَرَّبُوا المَسْجِدَ، وكانَ ذلك التَّسْلِيطُ

والانتقامُ قَضَاءً جَزْمًا حَتْمًا لا يَقْبَل النَّقْضَ والتَّبديلَ . لَقَدْ كانَ وَعْدُ عِقَابِهِم لا بُدَّ أنْ يُفْعَلَ . وفي تفسير الجَلالَيْن (١/ ٣٦٦) : ((وَقَدْ أفْسَدُوا الأُولَى بِقَتْلِ زَكريا ، فَبَعَثَ عَلَيْهِم جَالوتَ وجَنُودَه ، فَقَتَلُوهُم ، وَسَبَوْا أولادَهم ، وَخَرَّبُوا بَيْتَ المَقْدِسِ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٠٠) : ((﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ أي أُولَى المَرَّتَيْن المَذكُورَتَيْن ، ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : قُوَّةٍ في الحُرُوب ، وَبَطْشٍ عِند اللقاء . وقِيل : هُوَ بُخْتُنَصَّر وَجُنُودُه ، وقِيل : جالوت ، وقِيل : جُنْد مِنْ فارس ، وقِيل : جُنْد مِنْ بَابِل ، ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ أي: عَاثُوا وَتَرَدَّدُوا . ... . قال الزَّجَّاج: مَعْنَاه: طَافُوا خِلالَ الدِّيَارِ ، هَلْ بَقِيَ أحَدٌ لَمْ يَقْتُلُوه ؟ ، قال : والجَوْسُ طَلَبُ الشَّيْءِ باستقصاء . قال الجَوْهَري : الجَوْسُ مَصْدَر قَوْلِكَ جَاسِوا خِلالَ الديار، أي تَخَلَّلُوهَا كَمَا يَجُوس الرَّجُلُ للأخبار ، أي : يَطْلُبُهَا، وكذا قال أبو عُبَيدة . وقال ابن جَرِير : مَعْنى جَاسُوا: طَافُوا بَيْنَ الدِّيَار يَطْلُبُونهم ويَقْتُلونهم ذاهبين وجائين . وقال الفَرَّاء : مَعناه : قَتَلُوهُم بَيْنَ بُيوتهم . ... . ﴿ وَكَانَ ﴾ ذلك ﴿ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أي : كائنًا لا مَحَالة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦] .

ثُمَّ لَمَّا تُبْتُم وَأَنَبْتُم أهْلَكْنَا أعداءكم،وَرَدَدْنَا لَكُم الدَّوْلَةَ وَالغَلَبَةَ عَلَيْهِم بَعْدَ ذلك البَلاءِ الشَّدِيدِ ، وأعْطَيْنَاكُم الأموالَ الكثيرةَ والذُّرِّيةَ الوفيرةَ بَعْدَ أنْ نُهِبَتْ أموالُكم وَسُبِيَتْ أولادُكم ، وَجَعَلْنَاكُم أكثرَ عَدَدًا وَرِجَالًا مِنْ عَدُوكم لِتَستعيدوا قُوَّتَكم وَتَبْنُوا دَوْلَتَكُم .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٨ / ٢٩) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : ثُمَّ أَدَلْنَاكُم يَا بَنِي إسرائيل على هَؤلاء القَوْمِ الذينَ وَصَفَهُم جَلَّ ثَنَاؤُه أنَّه يَبْعَثُهُم عَلَيْهِم ، وكانتْ تِلْك الإدَالَة والكَرَّةُ لَهُمْ عَلَيْهِم فِيما ذَكَرَ السُّدي في خَبَرِه أنَّ بني إسرائيل غَزَوْهُم، وأصابوا مِنْهُم، وَاسْتَنْقَذُوا مَا في أيديهم مِنْهُم. وفي قَوْلِ آخَرِين : إطلاقُ المَلِكِ الذي غَزَاهُم مَا في يَدَيْهِ مِنْ أَسْرَاهُم ، وَرَدُّ مَا كانَ أصابَ مِنْ أموالِهم عَلَيْهِم مِنْ غَيْرِ قِتَال . وفي قَوْلِ ابن عَبَّاس الذي رواه عَطِيَّة عنه هي إدَالَةُ اللَّهِ إيَّاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِم جالوت حَتَّى قَتَلُوه ، ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ، يَقُول : وَزِدْنَا فِيما أعْطَيْنَاكُم مِنَ الأموالِ والبَنِين . وَقَوْلُه : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ ، يَقُول : وَصَيَّرْنَاكُم أكثرَ عَدَدَ نَافِرٍ مِنْهُم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٠١) : ((﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : الدَّوْلَة والغَلَبَة والرَّجْعَة ، وذلك عِند تَوْبتهم ، قِيل : وذلك حِين قَتَلَ دَاوُدُ جالوتَ ، وقِيل : حِين

قُتِلَ بُخْتُنَصَّر ، ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ بَعْدَ نَهْبِ أموالِكم وَسَبْيِ أبنائِكم ، حَتَّى عَادَ أَمْرُكُم كما كان ، ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ . قال أبو عُبَيْدة : النَّفِيرُ : العَدَد مِنَ الرِّجَال ، فالمَعْنى : أكثر رِجَالًا مِن عَدُوكم ، والنَّفِيرُ مَنْ يَنْفِرُ مَعَ الرَّجُلِ مِنْ عَشِيرته ، يُقَال: نَفِير ونَافِر ، مِثْل : قَدِير وقادر ، وَيَجُوز أن يَكُونَ النَّفِيرُ جَمْعُ نَفَر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧].

إِنْ أَحْسَنتُمْ يا بني إسرائيل فإحسانُكم لأنفُسِكم ، ونَفْعُه عائدٌ عَلَيْكُم لا يَنتفع اللَّهُ مِنْه بِشَيْءٍ ، وإِنْ أَسَأتُمْ فَعَلَيْهَا لا يَتَضَرَّر اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، فَهُوَ الغَنِيُّ عَن العِبَادِ ، لا تَنْفَعُه الطاعةُ ، ولا تَضُرُّه المَعصية ، فإذا جاءَ وَعْدُ المَرَّةِ الأخيرةِ مِنْ إفسادِكم بِقَتْلِ يَحْيَى ، وانتهاكِ مَحَارِمِ اللَّهِ ، بَعَثْنَا عَلَيْكُم أعداءكم مَرَّةً ثانيةً لِيُهينوكم ، وَيَجْعَلُوا آثارَ المَسَاءَةِ وَالكآبةِ باديةً عَلى وُجُوهِكُم بالإذلالِ والقَهْرِ، وَلِيَدْخُلُوا بَيْتَ المَقْدِسِ فَيُخَرِّبُوه كَمَا خَرَّبُوه أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُدَمِّرُوا وَيُهْلِكُوا مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ تَدْمِيرًا ، فَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَجُوسَ الفُرْسِ ، فَشَرَّدُوهُم في الأرضِ ، وَقَتَلُوهُم ، وَدَمَّرُوا مَمْلَكَتَهُم تَدْمِيرًا .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٨ / ٢٩) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه لبني إسرائيل فِيما قَضَى إلَيْهِم في التَّوراةِ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ ﴾ يَا بَنِي إسرائيلَ فَأَطَعْتُمُ اللَّهَ ، وَأَصْلَحْتُمْ أَمْرَكُم ، وَلَزِمْتُمْ أَمْرَه وَنَهْيَه ، ﴿ أَحْسَنتُمْ ﴾ وَفَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ مِنْ ذلك ﴿ لأنفُسِكُمْ ﴾ لأنَّكُم إنَّما تَنْفَعُون بِفَعْلتكم مَا تَفْعَلُون مِنْ ذلك أنفُسَكم في الدُّنيا والآخِرَةِ ، أمَّا في الدُّنيا ، فَإنَّ اللَّهَ يَدْفَع عَنْكُم مَنْ بَغَاكُم سُوءًا ، وَيُنَمِّي لَكُم أموالَكم ، ويَزيدكم إلى قُوَّتِكم قُوَّةً ، وأمَّا في الآخِرَةِ، فَإنَّ اللَّهَ تَعَالى يُثيبكم بِهِ جِنَانَه ﴿ وَإِنْ أَسَأتُمْ ﴾ ، يَقُول : وإنْ عَصَيْتُمُ اللَّهَ ، وَرَكِبْتُم مَا نَهَاكُم عَنْهُ حِينئذ ، فإلى أنفُسِكُم تُسِيئُون ، لأنَّكُم تُسْخِطُون بذلك على أنفُسِكُم رَبَّكُم ، فَيُسَلِّط عَلَيْكُم في الدُّنيا عَدُوَّكُم ، ويُمَكِّن مِنْكُم مَنْ بَغَاكُم سُوءًا ، ويُخَلِّدكم في الآخرة في العَذابِ المُهِينِ . وقالَ جَلَّ ثَنَاؤُه : ﴿ وَإِنْ أَسَأتُمْ فَلَهَا ﴾ ، والمَعْنَى : فَإلَيْهَا . ... . وَقَوْلُه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ ، يَقُول: فإذا جَاءَ وَعْدُ المَرَّةِ الآخِرَةِ مِنْ مَرَّتَيْ إفسادِكم يا بني إسرائيل في الأرض ﴿ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ ، يَقُول : لِيَسُوءَ مَجِيءُ ذلك الوَعْدِ للمَرَّةِ الآخِرَةِ وُجُوهَكُم فَيُقَبِّحها . ... . وكانَ مَجِيءُ وَعْدِ المَرَّةِ الآخِرَةِ عِند قَتْلِهِم يَحْيَى . ... . حَدَّثَني يعقوب بن إبراهيم قال : ثَنَا ابنُ عُلَيَّة عن أبي المُعَلَّى ، قال : سَمِعْتُ سعيد بن جُبَيْر قال: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِم في المَرَّةِ الأُولَى سَنْحَاريب، قال: فَرَدَّ اللَّهُ لَهُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِم كما قال. قال :

ثُمَّ عَصَوْا رَبَّهُم ، وعادوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، فَبَعَثَ عَلَيْهِم في المَرَّةِ الآخِرَةِ بُخْتُنَصَّر ، فَقَتَلَ المُقَاتِلَةَ، وَسَبَى الذُّرِّيَةَ ، وَأَخَذَ مَا وَجَدَ مِنَ الأموالِ ، وَدَخَلُوا بَيْتَ المَقْدِسِ ، كما قالَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ ، دَخَلُوه ، فَتَبَّرُوه ، وَخَرَّبُوه ، وأَلْقَوْا فِيه مَا استطاعوا مِنَ العَذِرَةِ والحَيْضِ والجِيَفِ وَالقَذَرِ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٠١) : ((﴿ إنْ أحْسَنتُمْ ﴾ ، أي: أفعالَكم وأقوالَكم على الوَجْهِ المَطلوبِ مِنكُم ﴿أحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ ﴾ لأنَّ ثَوَابَ ذلك عائدٌ إلَيْكُم ﴿ وَإنْ أسَأتُمْ ﴾ أفعالَكم وأقوالَكم ، فَأوْقَعْتُمُوهَا لا على الوَجْهِ المَطلوبِ مِنْكُم ﴿ فَلَهَا ﴾ أي : فَعَلَيْهَا . ... . قال ابن جرير : اللام بعنى إلى ، أي : فَإلَيْهَا تَرْجِع الإساءةُ . ... . وقِيل : المَعْنَى : فَلَهَا الجَزَاءُ أو العِقَابُ ، وقال الحُسَيْن بن الفَضْل: فَلَهَا رَبٌّ يَغْفِر الإساءةَ ، وهذا الخِطَابُ قيل: هُوَ لبني إسرائيل المُلابِثين لِمَا ذُكِرَ في هذه الآياتِ ، وقِيل : لبني إسرائيل الكائنين في زَمَنِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ومَعْنَاه : إعلامُهم مَا حَلَّ بِسَلَفِهِم ، فَلْيَرْتَقِبُوا مِثْلَ ذلك ، وقِيل : هُوَ خِطَابٌ لِمُشركي قُرَيْشٍ ﴿ فَإذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ أي : حَضَرَ وَقْتُ مَا وُعِدُوا مِنْ عُقوبةِ المَرَّةِ الآخِرَةِ ، والمَرَّةُ الآخِرَةُ هِيَ قَتْلُهُم يَحْيَى بن زكريا ، وَقِصَّةُ قَتْلِه مُسْتوفاة في الإنجيل ، واسْمُه فيه يُوحَنَّا ، قَتَلَه مَلِكٌ مِنْ مُلوكهم بسبب امرأة حَمَلَتْهُ على قَتْلِه ، واسمُ المَلِكِ لاخت ، قاله ابنُ قُتَيْبَة ، وقال ابنُ جَرِير: هيردوس ، وجوابُ " إذا " مَحذوف ، تقديرُه : بَعَثْنَاهُم ، لِدَلالة جواب " إذا " الأُولَى عَلَيْهِ ، ﴿ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ مُتَعَلِّق بهذا الجَوابِ المَحذوفِ ، أي : لِيَفْعَلُوا بِكُمْ مَا يَسُوء وُجُوهَكم حَتَّى تَظْهَر عَلَيْكُم آثارُ المَسَاءَةِ ، وَتَتَبَيَّن في وُجوهكم الكآبةُ ، وقِيل : المُرادُ بالوُجوهِ السَّادَة مِنْهُم . ... . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ ﴾ مَعطوف عَلى ﴿ لِيَسُوؤُوا ﴾ ، ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي : يُدَمِّرُوا وَيُهْلِكُوا . ... . ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي : مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ بِلادِكُم أوْ مُدَّة عُلُوِّهِم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ أي: تَدْمِيرًا ، ذَكَرَ المَصْدَرَ إزالةً للشَّكِّ ، وتَحْقِيقًا للخَبَرِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ وَإنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨] .

لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُكُم ، وَيَعْفُو عَنْكُم إنْ تُبْتُم وَأَنَبْتُم ، وهذا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ بِكَشْفِ العَذابِ عَنْهُم إنْ رَجَعُوا إلى اللَّهِ ، وَ " عَسَى " مِنَ اللَّهِ واجبة .

وإنْ عُدتُمْ إلى الإفسادِ والإجرامِ عُدْنَا إلى العُقُوبَةِ والانتقامِ ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ مَحْبِسًا وَسِجْنًا للكافرين، لا يَقْدِرُون على الخُروجِ مِنها أبَدَ الآبِدِين .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٨ / ٤١) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : لَعَلَّ رَبَّكُم يا بني إسرائيل أن يَرْحَمَكُم بَعْدَ انتقامِه مِنكُم بِالقَوْمِ الذينَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيَسُوءَ مَبْعَثُه عَلَيْكُم وُجوهَكم ، وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوه أوَّلَ مَرَّةٍ ، فَيَسْتَنْقذكم مِنْ أيديهم ، ويَنْتَشِلكم مِنَ الذُّلِّ الذي يُحِلُّه بِكُم ، ويَرْفعكم مِنَ الخُمُولَةِ التي تَصِيرُون إلَيْهَا ، فَيُعِزكم بَعْد ذلك ، وَعَسَى مِنَ اللَّهِ واجبٌ ، وَفَعَلَ اللَّهُ ذلك بِهِم ، فَكَثَّرَ عَدَدَهم بعد ذلك، وَرَفَعَ خَسَاسَتَهُم ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ المُلوكَ والأنبياءَ ، فقالَ جَلَّ ثَنَاؤُه لَهُم : وَإنْ عُدتُم يَا مَعْشَرَ بني إسرائيل لِمَعْصِيتي ، وَخِلافِ أَمْرِي ، وَقَتْلِ رُسُلِي ، عُدْنَا عَلَيْكُم بالقَتْلِ والسِّبَاءِ وإحلالِ الذُّلِّ والصَّغَارِ بِكُمْ ، فَعَادُوا ، فَعَادَ اللَّهُ عَلَيْهِم بِعِقَابِه ، وإحلالِ سَخَطِه بِهِم. ... . وَقَوْلُه : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرينَ حَصِيرًا ﴾ . اختلفَ أهلُ التأويل في تَأويلِ ذلك ، فقال بعضُهم : وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرين سِجْنًا يُسْجَنُون فِيها . ... . وقال آخَرُون : معناه : وَجَعَلْنَا جَهَنَّم للكافرين فِرَاشًا وَمِهَادًا)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٣٠٢) : ((﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ ﴾ يا بني إسرائيل بعد انتقامِه مِنكُم في المَرَّةِ الثانيةِ ﴿ وَإنْ عُدتُمْ ﴾ للثالثةِ ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى عُقُوبتكم. قال أهلُ السِّيَر : ثُمَّ إنَّهُم عادوا إلى مَا لا يَنْبغي ، وَهُوَ تَكذيبُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وكِتمانُ مَا وَرَدَ مِنْ بَعْثِه في التَّوراةِ والإنجيلِ، فعادَ اللَّهُ إلى عُقُوبتهم على أيدي العَرَبِ، فَجَرَى على بَنِي قُرَيْظَة والنَّضِيرِ وَبَنِي قَيْنُقَاع وَخَيْبَر مَا جَرَى مِنَ القَتْلِ والسَّبْي والإجلاءِ وَضَرْبِ الجِزْيَةِ عَلى مَنْ بَقِيَ مِنْهُم وَضَرْبِ الذِّلَّةِ والمَسْكَنَةِ ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرينَ حَصِيرًا ﴾ ، وَهُوَ المَحْبِسُ ، فَهُوَ فَعِيل بمعنى فاعل أوْ مَفعول، والمَعْنَى : أنَّهُم مَحْبُوسُون في جَهَنَّم لا يَتَخَلَّصُون عَنْهَا أبدًا)) اهـ . وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٥ / ١١ و١٢) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ ﴾ ، هَذا مِمَّا وُعِدُوا بِه في التَّوراةِ ، وَعَسَى مِنَ اللَّهِ واجبة ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ بَعْدَ انتقامِه مِنْهُم ، وَعَمَّرَ بِلادَهم ، وأعادَ نِعَمَهم بَعْدَ سَبْعِين سَنَة ، وإنْ عُدْتُم إلى مَعْصيتنا عُدْنَا إلى عُقُوبتكم. قال المُفَسِّرون : ثُمَّ إنَّهُم عَادُوا إلى المَعصيةِ ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِم مُلوكًا مِنْ مُلوكِ فارس والرُّوم . قال قَتَادَة : ثُمَّ كان آخِرُ ذلك أنْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِم مُحَمَّدًا ﷺ ، فَهُمْ في عَذاب إلى يَوْمِ القِيَامَة، فَيُعْطُون الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغرون . قَوْلُه تَعَالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرينَ حَصِيرًا ﴾ ، فِيه قَوْلان : أحدُهما سِجْنًا ، قاله ابن عَبَّاس والضَّحَّاك وقَتَادَة ، وقال مُجَاهِد : يُحْصَرُون فيها ، وقال أبو عُبَيْدَة وابنُ قُتَيْبَة : مَحْبِسًا . ... . وقال ابنُ الأنباري : حَصِيرًا بمعنى حَاصِرَة ، فَصُرِفَ مِنْ حَاصِرَة إلى حَصِيرٍ ، كَمَا صُرِفَ مُؤلِم الى أليم . والثاني : فِرَاشًا وَمِهَادًا ، قاله الحسن . قال أبو عُبَيْدَة : وَيَجُوز أن تكون جَهَنَّم لهم مِهَادًا بِمَنزلةِ الحَصِيرِ ، والحَصِيرُ : البِسَاطُ الصغير)) .

وَعَنِ المِقْدَامِ بنِ شُرَيْحٍ عَن أبيه أنَّه سأل عائشة : أكانَ رسولُ اللَّهِ يُصَلِّي على الحَصِيرِ ؟ ، فَإنِّي سَمِعْتُ في كِتَابِ اللَّهِ ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨] ، قالتْ : لَمْ يَكُنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ [١٢١] .

هذا الحديثُ شاذ مَردود لِمُعارضته مَا هُوَ أقوى مِنْه ، ففي صحيح مُسْلِم (١ / ٣٦٩) : أنَّ أبا سعيدٍ الخُدْرِيَّ دَخَلَ على النَّبِيِّ ﷺ ، فَرَآه يُصَلِّي عَلى حَصِيرٍ يَسْجُدُ عَلَيْه .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥ / ٢٢٤) : (((كانَ يُصَلِّي عَلى الحَصِيرِ) أي مِنْ غَيْرِ سَجَّادَةٍ تُبْسَطُ لَهُ فِرَارًا عَنْ تَزيينِ الظاهرِ للخَلْقِ ، وَتَحْسِينِ مَواقعِ نَظَرِهِم ، فإنَّ ذلك هُوَ الرِّيَاء المَحذور ، وهو وإنْ كانَ مَأمونًا مِنْه ، لكنَّ قَصْدَه التَّشريع ، والمُرادُ بالحَصِيرِ حَصِيرٌ مَنْسُوجٌ مِنْ وَرَقِ النَّخْلِ ، هَكَذا كانتْ عَادَتُهُمْ ، ثُمَّ هذا الحديث عُورِضَ بِما رواه أبو يَعْلَى وابنُ أبي شَيْبَة وغَيْرُهما مِنْ رَواية شُرَيْح أنَّه سَألَ عائشة:أكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي عَلى الحَصِيرِ،واللَّهُ يَقُول: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ للكافرينَ حَصِيرًا ﴾ ، قالتْ : لَمْ يَكُنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ ، ورجاله كما قال الحافظ الزَّيْنُ العِرَاقِيُّ : ثِقَات ، وأُجِيبَ تَارَةً بأنَّ النَّفْيَ في خَبَرِهَا المُدَاوَمَة ، وَأُخْرَى بأنَّها إنَّما نَفَتْ عِلْمَهَا ، وَمَنْ عَلِمَ صَلاتَه على الحَصِيرِ مُقَدَّمٌ عَلى النافي ، بأنَّ حَدِيثَه وإنْ كانَ رِجَاله ثِقَات ، لكنَّ فِيه شُذوذ وَنَكَارَة ، فإنَّ القَوْلَ بأنَّ المُراد في الآية الحَصِير التي تُفْرَش مَرجوحٌ مَهجورٌ ، والجُمهورُ على أنَّه مِنَ الحَصْرِ أي مَمنوعون عَن الخُروج مِنْهَا، أفاده الحافظُ العِرَاقِيُّ . قال ابن حَجَر : ولذلك لمَّا تَرْجَمَ البُخَارِيُّ بابَ الصَّلاةِ عَلى الحَصِيرِ، حَكَى فيه فكأنَّه رَآه شَاذًّا مَردودًا. قال العِرَاقِيُّ:وفِيه نَدْبُ الصَّلاةِ على الحَصِيرِ وَنَحْوِها مِمَّا يَقِي بَدَنَ المُصَلِّي عَن الأرضِ ، وَقَدْ حَكَاه التِّرمذيُّ عَن أكثرِ أهْلِ العِلْمِ)) .

١٥ _ جَزَاؤُهُمْ لَوْ آمَنُوا

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ آمَنَ أهلُ الكتابِ لكانَ خَيْرًا لَهُم مِنهُمُ المؤمنونَ وأكثرُهُمُ الفاسقون ﴾ [آل عِمْران : ١١٠] .

لَوْ آمَنَ اليَهُودُ والنَّصَارى بالقُرْآنِ ومُحَمَّدٍﷺلكانَ خَيْرًا لهم في الدُّنيا والآخرة، لأنَّهُم عِندئذٍ سَيَحْصُلُون على الطُّمَأنينةِ في الدُّنيا، والسَّعَادَةِ الأبدية في الآخِرة . ومِنهم فِئةٌ قليلةٌ مُؤمنة كالنَّجَاشِيِّ الذي كانَ نَصْرَانِيًّا،وعبد اللَّه بن سَلَام الذي كان يَهُودِيًّا ، والغالبيةُ الساحقة مِن أهل

١٢١ رواه أبو يعلى في مسنده(٤٢٦/٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٢ / ١٩٤) : ((رجاله مُوثَّقون)) .

الكِتاب هُمْ على الكُفْرِ والفِسْقِ والعِصْيَان . والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ اللَّهَ خَلَقَ الناسَ ، وَدَعَاهُم إلى الإيمان رَحمةً بهم ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُم ، وإيمانُ المُؤمنين لا يَنْفَعُه ، وكُفْرُ الكافرين لا يَضُرُّه . ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكَهْف : ٢٩] .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢/ ٧١) : ((أي : لَو آمَنوا كإيمانكم لكان ذلك خَيْرًا لهم ، مِمَّا هُم عليه مِن الرِّياسة واستتباع العَوَام ، ولازدادتْ رِيَاستهم وتَمَتُّعهم بالحُظوظ الدُّنيوية ، مَعَ الفَوْز بِما وُعِدوه على الإيمان من إيتاء الأجْرِ مَرَّتَيْن)) .

وَفي صحيح البُخاري (٣/ ١٤٣٤) : عَنْ أبي هُرَيرة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ عَن النَّبِيِّ ﷺ قال: ((لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ لآمَنَ بِيَ اليَهُودُ)) .

وفي صحيح مُسْلِم (٤ / ٢١٥١) بلفظ : ((لَوْ تَابَعَنِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلى ظَهْرِها يَهُودِيٌّ إلا أسْلَمَ)) .

اليَهُودُ هُمْ أهلُ الشِّقَاقِ والنِّفَاقِ والعِنَادِ ، كَذَّبَوا أنبياءَهم عليهم الصلاة والسلام ، وقَتَلُوهم ، وخانوا العُهودَ ، وَنَقَضُوا المَواثيقَ ، وقَد اتَّفَقَتْ كَلمتهم على العَداءِ للحَقِّ وأهْلِه في كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ،وَهُمْ في ذلك كالقَطيعِ يَسِيرون خَلْفَ زُعَمائِهم وكُبَرائِهم، فَهُمْ أهْلُ تَقليدٍ لا يَتَّبِعُون الدَّليلَ .

والمُرادُ بالعَشَرَةِ: الأحبار (العُلَمَاء) والزُّعَمَاء مِنْهُم ، والناسُ تابعون للعُلَمَاءِ والأُمَرَاءِ في كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ . وَيَحْتَمِل أنَّه أرادَ عَشَرَةً مُعَيَّنِين ، وإلا فَقَدْ آمَنَ بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ أُلُوفٌ مِنَ اليَهُودِ ، وإنَّما أرادَ أنَّ إثمَ المُخَالِفين لِي مِنْهُم في رِقَابِ أُولئك العَشَرَةِ ، لِكَوْنِهِم رُؤَسَاءَ القَوْمِ ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَّضَ بالنَّهْي عَن التَّقليدِ في الإيمانِ ، وأنَّ المَرْجِعَ في ذلك إلى الدَّليلِ .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧٥) : ((والذي يَظْهَر أنَّهُم الذين كانوا حِينئذٍ رُؤسَاء في اليَهُودِ وَمَنْ عَدَاهُم كانَ تَبَعًا لَهُم ، فَلَمْ يُسْلِمْ مِنهُم إلا القليل ، كعبد اللَّه بن سَلَام ، وكان مِن المَشهورين بالرِّياسة في اليهود عِند قُدوم النَّبِيِّ ﷺ . وَمِنْ بَني النَّضِير : أبو ياسر بن أخْطَب ، وأخوه حُيَي بن أخْطَب ، وكَعْب بن الأشرف ، ورافع بن أبي الحُقَيْق ، ومِنْ بَني قَيْنُقَاع : عبد اللَّه ابن حُنَيْف ، وفِنْحَاص ، ورِفَاعَة بن زَيْد . وَمِنْ بَني قُرَيْظَة : الزُّبَيْر بن باطِيَا ، وكَعْب بن أَسَد ، وشَمْويل بن زَيْد . فَهَؤُلاء لَمْ يَثْبُتْ إسلام أحَد مِنهُم ، وكانَ كُلٌّ مِنهُم رئيسًا في اليَهُودِ ، وَلَوْ أسْلَمَ لاتَّبَعَه جماعة مِنهُم ، فَيَحْتَمِل أن يَكُونوا المُرادَ)) .

وقال السُّهَيْلي في الرَّوْضِ الأُنُفِ (١ / ٢٤٧) : ((وَلَمْ يُسْلِمْ مِنْ أحبار يَهُود على عهد رسول اللَّه ﷺ إلا اثنان)) .

والاثنان المَقصودان هُما : عبد اللَّه بن سَلَام ، وعبد اللَّه بن صُورِيَا . وعبد اللَّه بن سَلَام رَضِيَ اللَّهُ عنه إسلامُه ثابت، وهو صَحَابي جليل. أمَّا عبد اللَّه بن صُورِيَا [122] فَلَمْ يَثْبُتْ إسلامُه .

قال الحافظ في الفتح(٧/ ٢٧٥): ((وَلَمْ أرَ لعبد اللَّه بن صُورِيَا إسلامًا مِنْ طريق صحيحة)).

وفي الرَّوْض الأُنُف للسُّهَيْلي (١/ ٢٤٤) : ((ولَيْسَ في سِيرة ابن إسحق ذِكْرُ إسلامِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ أنَّ أهلَ الكتابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنهُم سَيِّئاتِهِم ولأدْخَلْناهُم جَنَّاتِ النعيمِ ﴾ [المائدة : ٦٥] .

لَوْ أنَّ اليَهُودَ والنَّصَارى آمَنُوا باللَّهِ ورَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وعَمِلُوا بالشَّريعةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإسلاميَّة ، وابتَعدوا عن المعاصي خاصةً الشِّرْك، لَمَحَا اللَّهُ ذُنُوبَهم _ مَهْمَا كانت كثيرةً _ وَلَمْ يُؤَاخِذْهُم بِها ، وَسَتَرَهَا عَلَيْهِم في الدَّارَيْن ، كأنَّها لَمْ تَكُنْ ، وَمَا فَضَحَهُم ولا وَبَّخَهُم ، وأدْخَلَهُم جَنَّاتِ النَّعِيمِ خالدين فيها أبَدًا . واللَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُم فَوْقَ طاقتهم ، فَقَدْ أرادَ مِنْهُم أنْ يُؤْمِنُوا بِما أنْزَلَ اللَّهُ ، ويَجتنبوا الذُّنُوبَ والآثامَ والمعاصي ، والشِّرْكُ هُوَ أعظمُ الذُّنُوبِ .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((وفيه تَنْبيهٌ على عِظَمِ مَعَاصِيهم، وكَثْرَةِ ذُنُوبِهم ، وأنَّ الإسلام يَجُبُّ _ يَمْحُو _ مَا قَبْلَه وَإنْ جَلَّ ، وأنَّ الكِتَابِيَّ لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَا لَمْ يُسْلِمْ)) .

وقال الشَّوكاني في فَتح القدير (٢/ ٨٥) : ((﴿ وَلَوْ أنَّ أهلَ الكتابِ ﴾ أي : لَوْ أنَّ المُتَمَسِّكين بالكتاب ، وهُم اليهود والنَّصَارى على أنَّ التعريف للجِنْسِ ﴿ آمَنُوا ﴾ الإيمانَ الذي طَلَبَه اللَّهُ مِنْهُم ، وَمِنْ أَهَمِّ الإيمانِ بما جاء بِه مُحَمَّد ﷺ ، كما أُمِرُوا بذلك في كُتُبِ اللَّهِ المُنْزَلَةِ عَلَيْهِم ﴿ واتَّقَوْا ﴾ المعاصي التي مِنْ أعظمها مَا هُمْ عَلَيْه مِنَ الشِّرْكِ باللَّهِ ، والجُحُود لِمَا جاء به رسولُ اللَّهِ ﴿ لَكَفَّرْنا عَنهُم سَيِّئاتِهِم ﴾ التي اقترفوها ، وإنْ كانتْ كثيرة مُتنوِّعة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أنَّهُم أقاموا التَّوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إلَيْهِم مِن رَبِّهم لأكَلُوا مِن فَوْقِهِم وَمِن تَحْتِ أرْجُلِهِم مِنْهُم أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وكثيرٌ مِنهُم سَاءَ ما يَعْمَلُون ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وَلَوْ أنَّ أهل الكِتاب التزموا بأوامر اللَّه ، واجتنبوا نَوَاهِيه ، وَعَمِلُوا بأحكامِ التَّوراة والإنجيل ، اللذَيْن يَتَضَمَّنَان وَصْفَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَبِمَا أُنزِلَ إلَيْهِم في القُرْآن(آخِر الكُتُب السَّمَاوِيَّة الذي أنزَلَه اللَّهُ عَلى خَاتَمِ الأنبياءِ مُحَمَّدٍ ﷺ)، لَرَزَقَهُمُ اللَّهُ الرِّزْقَ الواسع، وأنعَمَ عليهم بالنِّعَمِ الكثيرة ،

---

١٢٢ في سِيرة ابن هِشام (٣ / ٤٧) : ((عبد اللَّه بن صُورِيَا الأعور، ولم يَكُنْ بالحِجَازِ في زَمَانِه أحَدٌ أعْلَمَ بالتَّوْراةِ مِنْه)) .

وأرسلَ عَلَيْهِم السَّمَاءَ بالقَطْر (المَطَر) ، وأخرجَ لهم بَرَكاتِ الأرض (النَّبَاتِ) ، مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ ولا قَلَقٍ . وهذا يدلُّ على أنَّ سُوء حالهم ، وحالة القَحْط والضِّيق التي يعيشون فيها ، إنَّما هي بسبب كُفْرِهم وضَلالِهم وَمَعَاصِيهم ، وَلَيْسَ بسبب قِلَّة رِزْقِ اللَّهِ . والآيةُ دليلٌ عَلى أنَّ التَّقْوَى سبب في تَوْسِعَةِ الرِّزقِ ، وكَثرةِ النِّعَمِ ، وَرَغَدِ العَيْشِ . والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ اليهود والنصارى مُتَعَبَّدُون بِما في القُرْآنِ مِن أحكام وشرائع ، ومُكَلَّفُون بالإيمانِ به ، لذلك كان القُرْآنُ في حُكْمِ الكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلَيْهِم ، معَ أنَّه نَزَلَ على العَرَبِ وَبِلُغتهم . والقُرْآنُ جاءَ للإنْسِ والجِنِّ كافَّة .

مِنْ أهلِ الكِتابِ جَماعةٌ مُؤمنة فاضلة مُعتدلة ، وهُمُ الذين آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَصَدَّقُوا بِنُبُوَّتِه ورسالته ، مِثْل : عبد اللَّه بن سَلَام والنَّجَاشِيِّ وغَيْرِهما . وكثيرٌ مِنهم كُفَّار مُجرمون مُعاندون مُتمردون ، مِثْل : كَعْب بن الأشرف وغَيْرِه ، كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، وَحَرَّفُوا الكِتَابَ ، وأكلوا الحَرَامَ .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٦٤٤) : ((يَعْنِي تَعَالى ذِكْرُه بِقَوْلِه: ﴿ وَلَوْ أنَّهُم أقاموا التَّوراةَ والإنجيلَ ﴾ ، وَلَوْ أنَّهُم عَمِلُوا بِما في التَّوراةِ والإنجيلِ ﴿ وما أُنزِلَ إلَيْهِم مِن رَبِّهِم ﴾ يَقُول:وَعَمِلُوا بِما أُنزِلَ إلَيْهِم مِنْ رَبِّهِم مِنَ الفُرْقَانِ الذي جاءهم به مُحَمَّدٌ ﷺ . فإنْ قال قائل : وكيف يُقيمون التَّوراةَ والإنجيلَ وَمَا أُنزِلَ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ ، معَ اختلاف هذه الكُتُبِ ونَسْخِ بَعْضِها بَعْضًا ؟.قِيل: إنَّها وإنْ كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها ، فهي مُتَّفقة في الأمر بالإيمان بِرُسُلِ اللَّه ، والتَّصديق بما جاءتْ بِه مِن عِند اللَّه. فَمَعنى إقامتهم التَّوراة والإنجيل ، وَمَا أُنزِلَ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ : تَصْدِيقُهُم بِما فِيها، والعمل بِما هي مُتَّفقة فيه ، وَبِكُلِّ واحد منها، في الحِين الذي فُرِضَ العملُ به. وأمَّا مَعْنَى قَوْلُه : ﴿ لأكَلُوا مِن فَوْقِهِم وَمِن تَحْتِ أرْجُلِهِم ﴾ ، فإنَّه يَعْني : لأنزَلَ اللَّهُ عليهم مِن السماء قَطْرَها،فأنبتتْ لهم به الأرضُ حَبَّها ونَبَاتَها،فأخرجَ ثِمَارَها.وأمَّا قَوله:﴿ وَمِن تَحْتِ أرْجُلِهِم ﴾ فإنَّه يَعْني تعالى ذِكْرُه : لأكَلُوا مِن بَرَكَةِ مَا تحت أقدامهم مِن الأرض، وذلك مَا تُخرِجه الأرض مِن حَبِّها وَنَبَاتِها وثِمَارِها وسائر مَا يُؤكَل مِمَّا تُخْرِجه الأرض... . يَعْني تعالى ذِكْرُه بِقَوْلِه: ﴿ مِنْهُم أُمَّةٌ ﴾ مِنهُم جَمَاعَة ﴿ مُقْتَصِدَةٌ ﴾ . يقول : مُقْتَصِدة في القَوْلِ في عِيسى ابن مريم ، قائلة فيه الحَق أنَّه رسولُ اللَّهِ، وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيَم ، ورُوحٌ مِنْه، لا غالية قائلة إنَّه ابن اللَّه،تعالى اللَّهُ عَمَّا قالوا مِنْ ذلك،ولا مُقَصِّرة قائلة : هُوَ لِغَيْرِ رِشْدَة (يعني ابن زنا) . ﴿ وكثيرٌ مِنهُم﴾ يعني:مِنْ بني إسرائيل مِنْ أهل الكِتاب اليَهُود والنَّصَارى ﴿ سَاءَ ما يَعْمَلُون ﴾ يقول:كثير مِنْهُم سَيِّئ عَمَلُهُم ، وذلك أنَّهُم يَكْفُرُون باللَّه ، فتُكذِّب النَّصَارَى بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَزْعُم أنَّ المَسِيحَ ابنُ اللَّه ، وتُكذِّب اليهودُ بِعِيسَى وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا.فقالَ اللَّهُ تعالى فِيهِم ذَامًّا لَهُم:﴿سَاءَ ما يَعْمَلُون﴾في ذلك مِن فِعْلِهم)).

وعَنْ عَوْفِ بنِ مَالِكٍ الأشجعيِّ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ نَظَرَ إلى السَّمَاءِ يَوْمًا ، فقال : ((هَذا أوَانُ يُرْفَعُ العِلْمُ)) ، فقالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ ، يُقَالُ لَهُ ابنُ لَبِيد : يا رسولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يُرْفَعُ العِلْمُ وَقَدْ أُثْبِتَ في الكِتَابِ ، وَوَعَتْهُ القُلوب ؟ ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((إنْ كُنْتُ لأحْسَبُكَ مِنْ أفْقَهِ أهْلِ المَدينة))، ثُمَّ ذَكَرَ ضَلالةَ اليَهُودِ والنَّصَارى على مَا في أيديهم مِنْ كِتَابِ اللَّهِ [١٢٣] .

إنَّ رَفْعَ العِلْمِ يَكُون بِمَوْتِ العُلَمَاء (حَمَلَة العِلْمِ الشَّرْعِيِّ) ، وَلَيْسَ انتزاع العِلْمِ مِنَ القُلوب ، فَيَكْثُر الجَهْل والفساد، وتنتشر الذُّنُوبُ والمعاصي ، وَيَبْقَى في الناس رُؤوسٌ جُهَّال ، ضَالُّون في أنفُسِهِم ، وَمُضِلُّون لِغَيْرِهِم ، وهذا يَعْنِي انهيارَ الفَرْدِ والمُجتمعِ عَلى جَميعِ الأصعدةِ .

وَقَدْ قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ مِثَالًا واقعيًّا ، وَهُوَ ضَلالة أهل الكِتاب (اليَهُود والنَّصَارى) ، معَ أنَّهُم يَمْتَلِكُون العُلومَ الدِّينية والمَعارفَ الشَّرْعِيَّة ، وَدَرَسُوا نُصُوصَ التَّوراةِ والإنجيلِ ، وهي في أيديهم ، ولكنَّهم حَرَّفُوا كلامَ اللَّهِ ، وَغَيَّروه ، وبَدَّلوه ، وزادوا فيه ، وأنقَصُوا مِنْه ، وصارت التَّوراةُ والإنجيلُ خَلِيطًا مِنَ الحَقِّ والباطلِ، والصَّوَابِ والخطأ ، والهُدى والضَّلال ، فَضَلُّوا ، وأضَلُّوا غَيْرَهم .

وروى التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥ / ٣١) وقال : حسن غريب : عن أبي الدَّرداءِ قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إلى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قال : ((هَذا أوانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ الناسِ حَتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلى شَيْءٍ)) ، فقالَ زِيَادُ بنُ لَبِيدٍ الأنصاريُّ : كَيْفَ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ ؟، فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وأبناءَنَا ، فقالَ : ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ ، إنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أهْلِ المَدينةِ ، هَذه التَّوراةُ والإنجيلُ عِنْدَ اليَهُودِ والنَّصَارى ، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُم ؟)) .

جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْفَعُ بَصَرَه إلى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قال: " هَذا أوانُ يُخْتَلَسُ " ، أي: هذا هُوَ الوَقْتُ الذي يُرْفَعُ وَيُسْلَبُ فيه " العِلْمُ مِنَ الناسِ " ، وَرَفْعُ العِلْمِ يَكُونُ بِمَوْتِ العُلَمَاءِ ، وابتعادِ الناسِ عَن العَمَلِ بالعِلْمِ ، وقِيل : هُوَ مَوْتُ النَّبِيِّ ﷺ وانقطاعُ الوَحْي ، " حَتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلى شَيْءٍ " ، يَعْنِي : حَتَّى لا يَستطيعوا الوُصُولَ إلى شَيْءٍ مِنَ العِلْمِ ، فَتَعَجَّبَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَهُوَ زِيَادُ ابْنُ لَبِيدٍ الأنصاريُّ ، وسَألَ النَّبِيَّ ﷺ ، فقال : كَيْفَ يُخْتَلَسُ العِلْمُ ، أي : كَيْفَ يُرْفَعُ العِلْمُ ويَضِيعُ مِنَّا والقُرْآنُ بَيْنَ أيدينا وَقَدْ حَفِظْنَاه ؟ ، ثُمَّ أقْسَمَ زِيَادٌ : فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأ القُرْآنَ ونُعَلِّمُه ونُحَفِّظُه نِسَاءَنا وأبناءَنا ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ : " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ " ، أي: فَقَدَتْكَ أُمُّكَ يا زِيَادُ ، " إنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أهْلِ المَدينةِ " ، أي : إنْ كُنْتُ أحْسَبُكَ مِنْ عُلماءِ أهْلِ المَدينةِ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ ،

---

١٢٣ رواه الحاكم في المستدرك (١ / ١٧٨) برقم (٣٣٧) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

فقالَ : " هَذه التَّوراةُ والإنجيلُ عِنْدَ اليَهُودِ والنَّصَارى " ، والمَقصودُ : أنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهما ، ولَمْ يَفْهَمُوا مَعانيهما وحَرَّفُوهما ، " فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُم ؟ " ، أي : مَا نَفَعَتْهُمْ ، ومَا استفادوا مِنْ مَقْصودِهما ، وَهُوَ العَمَلُ بِمَا عَلِمُوا .

وفي الحَديثِ : بَيَانُ أنَّ بَعْضَ العِلْمِ سَيُرْفَعُ ، وأنَّ على المُسْلِمِ أنْ يُسَابِقَ بالعَمَلِ .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٧ / ٣٤٥) : ((قَوْلُه : (فَشَخَصَ بِبَصَرِه) أي رَفَعَه (هذا أوَانُ) أي وَقْت (يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ الناسِ) أي يُخْتَطَف وَيُسْلَب عِلْمُ الوَحْي مِنْهُم ، والجُملةُ صِفَة أوان (حَتَّى لا يَقْدِرُوا مِنْهُ) أي مِنَ العِلْمِ (عَلى شَيْءٍ) أي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قاله ابنُ المَلَكِ ، قاله القاري ، والأظهرُ على شَيْءٍ مِنَ العِلْمِ . قال الطيبي: فكأنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا نَظَرَ إلى السَّمَاءِ كُوشِفَ باقتراب أجَلِه فَأخْبَرَ بذلك (فقال زِيَاد بنُ لَبِيد الأنصاريُّ) الخَزْرَجِيُّ: خَرَجَ إلى رسول اللَّه ﷺ بِمَكَّة ، فأقامَ مَعَه حتى هَاجَرَ ، فكانَ يُقَال له مُهَاجِرِي أنصاري (وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنا وأبناءَنا) يَعْنِي والحَالُ أنَّ القُرْآن مُستمر بين الناس إلى يوم القِيامة ، كما يدلُّ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعَالى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ [الحِجْر : ٩] (قال : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ) أي فَقَدَتْكَ ، وأصْلُه الدُّعَاء بالمَوْتِ ثُمَّ يُسْتَعْمَل في التَّعَجُّبِ (إنْ كُنْتُ) إنْ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقِيلة ، بدليل اللام الآتية الفارقة ، وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأنِ مَحذوف ، أي أنَّ الشَّأنَ كُنْتُ أنا (لَأعُدُّكَ) وفي رواية لَأراكَ (فماذا تُغْنِي عَنْهُم) أي فماذا تَنْفَعُهُم وتُفِيدُهُم . وفي حديث زياد بن لَبِيد عِند ابْنِ مَاجَة : " أوَ لَيْسَ هَذِهِ اليَهُودُ والنَّصَارى يَقْرَؤُونَ التَّوراةَ والإنجيلَ لا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا " . قال القاري : أي فَكَمَا لَمْ تُفِدْهُم قِرَاءَتُهُمَا مَعَ عَدَمِ العِلْمِ بِما فِيهِمَا فكذلك أنتُم ، والجُملةُ حال مِنْ " يَقْرَؤُونَ " ، أي يَقْرَؤُونَ غَيْرَ عَامِلِين ، نَزَّلَ العَالِمَ الذي لا يَعْمَل بِعِلْمِه مَنْزِلَةَ الجاهلِ، بَلْ مَنْزِلَة الحِمَارِ الذي يَحْمِل أسفارًا، بَلْ أُولئك كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَل)) .

١٦ــ أحْبَارُهُمْ

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّا أنزَلْنا التَّوراةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الذينَ أسْلَمُوا للذينَ هادوا وَالرَّبَّانِيُّونَ والأحبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وكانوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَم يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فأُولئكَ هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤] .

هَذا مَدِيحٌ إلَهِيٌّ عظيمٌ للتَّوراة(الكتاب السَّمَاويِّ المُقَدَّس الذي أنزله اللَّهُ على النبيِّ مُوسى ﷺ).

أنْزَلَ اللَّهُ التَّوراةَ على النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ فيها هُدًى مِن الضلال،يُرشِد إلى الحق والصواب والرشاد ونُورٌ يُستضاء به ، ويُبيِّن الأحكامَ الإلهيَّة ، ويُوضِّح الشرائعَ الدينية . يَحْكُم بالتَّوراة أنبياءُ بني إسرائيل الذين اسْتَسْلَمُوا للَّه، وانقادوا لِحُكْمِه ، وخَضَعُوا لأمْرِه . يَحْكُمون بالتَّوراة لليهود ، بصدقٍ وإخلاص ، لا يُبدِّلونها ، ولا يُحرِّفونها ، ولا يُغيِّرونها ، ولا يتلاعبون بها ، والعُلَمَاءُ مِنهم والفُقَهَاءُ ، بسبب أمْرِ اللَّه إيَّاهم بحفظ التَّوراة مِن التَّحريف والتغيير ، وكانوا شُهداء على التَّوراة أنها حق ، ورُقَباء عليها لِكَيْلا تُحرَّف ولا تُغيَّر ، فلا تخافوا يا عُلَماء اليهود الناسَ في إظهار ما عِندكم مِن وَصْفِ النَّبِيِّ مُحَمَّد ﷺ،وحَدِّ الرَّجْم، بَل خافوا اللَّهَ في كِتمان ذلك وإخفائه،ولا تستبدلوا بآيات اللَّه وأحكامه وفرائضه وشرائعه مَتَاعَ الدنيا الزائلِ وحُطَامَهَا الفاني ، مِن المال والرُّشَى والمناصب والجاه والسُّلطة والنُّفوذ والرئاسة والزعامة ، ولا تأخذوا عِوَضًا يسيرًا مِن الدُّنيا على كِتمان الحق وإخفائه . وكُلُّ ثمن قليل، لأن النتيجة هي الخُلود في عذاب النار. ومَن لَمْ يَحْكُم بالشريعة الإلهيَّة فهو كافرٌ.

وهذه الآيةُ نزلت في مَن غَيَّرَ حُكْمَ اللَّهِ مِن اليهود . والآية عامَّة وشاملة لليهود وغَيْرهم ، والعِبرة بعُموم اللفظ لا بِخُصوص السَّبَب . ومَن جَحَدَ مَا أنزلَ اللَّهُ أو استهانَ بِهِ فهو كافرٌ، أمَّا مَن أَقَرَّ بما أنزلَ اللَّهُ ولَم يَحْكُم به فهو فاسقٌ ، وأَمْرُه إلى اللَّه ، إنْ شاءَ عَذَّبَه ، وإنْ شاءَ غَفَرَ له . والمُسْلِمُ لا يَكْفُر بارتكاب الكبيرة إلا إذا اعتقدَ أنها حلال (اسْتَحَلَّهَا) . وكُلُّ آيةٍ تَتَحَدَّث عن الكافرين ، فإنَّها تحذيرٌ لِعُصاة المسلمين .

وقال الزَّمَخْشَرِي في الكَشَّاف (١/ ٤٩٦) : ((ومَن لَم يَحْكُم بما أنزلَ اللَّهُ مُستهينًا به ، فأولئك هُم الكافرون والظالمون والفاسقون. وصفٌ لهم بالعُتُوِّ في كُفرهم ، حِين ظَلَمُوا آياتِ اللَّه بالاستهزاء والاستهانة ، وتَمَرَّدُوا بأن حَكَمُوا بِغَيرها)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إنَّا أنزَلْنا التَّوراةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ . قال المُفسِّرون : سبب نُزول هذه الآية استفتاء اليهود رسول اللَّه ﷺ في أَمْرِ الزَّانِيَيْن . والهُدَى : البَيَان ، فالتَّوراة مُبَيِّنَة صِحَّة نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ ، ومُبَيِّنَة مَا تحاكموا فِيه إلَيه ، والنُّور: الضِّياء الكاشف للشُّبُهَات، والمُوضِّح للمُشكلات . وفي النَّبيين الذين أسْلَمُوا ثلاثة أقوال: أحدها أنَّهُم الأنبياء مِن لَدُن مُوسى إلى عِيسى،قاله الأكثرون.فعلى هذا القَول في معنى﴿ أسْلَمُوا ﴾ أربعة أقوال: أحدها سَلَّمُوا لِحُكْمِ اللَّهِ، وَرَضُوا بِقَضَائه . والثاني انقادُوا لِحُكْمِ اللَّهِ فَلَم يَكْتُموه كما كَتَمَ هؤلاء. والثالث أسْلَمُوا أنفُسَهم إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. والرابع أسْلَمُوا لِمَا في التَّوراة ودانوا بها ، لأنَّه قَد كان فِيهم مَن لَمْ يَعْمَلْ بكلِّ مَا فيها كعيسى عليه السلام . قال ابن الأنباري : وفي المُسْلِم

قَولان : أحدهما أنَّه سُمِّيَ بذلك لاستسلامه وانقياده لِرَبِّه . والثاني لإخلاصه لِرَبِّه . والثاني أن المُراد بالنَّبِيِّين نَبِيُّنا مُحَمَّد ﷺ ، قاله الحَسَن والسُّدي . وذلك حِينَ حَكَمَ على اليَهُود بالرَّجْم ، وذَكَرَه بلفظ الجَمْع.وفي الذي حَكَمَ به مِنها قَولان:أحدهما الرَّجْم والقَوَد(القِصَاص).والثاني الحُكْم بسائرها مَا لَمْ يَرِدْ في شَرْعِه مَا يُخَالِف.والثالث النَّبِيُّ مُحَمَّد ﷺ ومَن قَبْلَه من الأنبياء صَلَوَات اللَّه عليهم أجمعين ، قاله عِكرمة . قَوله تعالى : ﴿ للذينَ هادوا ﴾ . قال ابن عباس : تابوا مِن الكُفْر ، قال الحَسَن : هُم اليهود . قال الزَّجَّاج : ويَجُوز أن يكون في الآية تقديم وتأخير على مَعْنَى : إنَّا أنزَلْنا التَّوراةَ فيها هُدى ونُور للذين هادوا يَحْكُم بها النَّبِيُّون الذين أسْلَمُوا ... . قَوله تعالى : ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ . قال ابن عباس: بِما اسْتُوْدِعُوا مِن كِتاب اللَّه ، وهو التَّوراة. وفي مَعْنى الكلام قَولان : أحدهما يَحْكُمُون بِحُكْمِ مَا اسْتُحْفِظُوا . والثاني العُلَمَاء بِمَا اسْتُحْفِظُوا . وفي قَوله تعالى : ﴿ وكانوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ قَولان : أحدهما وكانوا على ما في التَّوراة مِن الرَّجْم شُهَدَاء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني وكانوا شُهَدَاء لِمُحَمَّدٍ عليه السلام بما قاله أنَّه حَق ، رواه العَوفي عن ابن عباس . قَوله تعالى : ﴿ فلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ . في المُخَاطَبِين بهذا قَولان : أحدهما أنَّهُم رُؤساء اليهود ، قِيل لهم : فلا تَخْشَوُا الناسَ في إظهار صِفَة مُحَمَّد ، والعملِ بالرَّجْم، واخْشَوْني في كِتمان ذلك . روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس. قال مُقاتِل: الخِطَاب لِيَهُود المدينة، قِيل لهم : لا تَخْشَوْا يهودَ خَيْبَر أن تُخْبِرُوهم بالرَّجْمِ ونَعْتِ مُحَمَّدٍ ، واخْشَوْني في كِتمانه. والثاني أنَّهُم المُسْلِمُون قِيل لهم: لا تَخْشَوا الناسَ كَمَا خَشِيَت اليهودُ الناسَ ، فَلَم يقولوا الحق ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدمشقي. قَوله تعالى:﴿ ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ في المُراد بالآيات قَولان: أحدهما أنَّها صِفَة مُحَمَّد ﷺ والقُرآن . والثاني الأحكام والفرائض . فأمَّا قَوْلُه : ﴿ وَمَن لَم يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فأُولئكَ هُمُ الكافرون ﴾ ، وقَوْلُه تَعالى بَعْدَها : ﴿ فأُولئكَ هُمُ الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿ فأُولئكَ هُمُ الفاسقون ﴾[المائدة : ٤٧] ، فاختلفَ العُلماءُ فِيمَن نَزَلَتْ على خمسة أقوال: أحدها أنَّهَا نَزَلَتْ في اليَهُود خَاصَّةً، رواه عُبَيد بن عبد اللَّه عن ابن عباس، وبه قال قَتَادة. والثاني أنَّها نَزَلَتْ في المُسْلِمِين، روى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس نَحْوَ هذا المَعْنى ، والثالث أنَّها عَامَّة في اليهودِ وفي هذه الأُمَّةِ ، قاله ابن مسعود والحَسَن والنَّخَعِي والسُّدي ، والرابع أنَّها نَزَلَتْ في اليَهُود والنَّصَارى ، قاله أبو مِجْلَز ، والخامس أنَّ الأُولَى في المُسْلِمِين ، والثانية في اليَهُود ، والثالثة في النَّصَارى ، قاله الشَّعْبِي . وفي المُرَاد بالكُفْر المَذكور في الآية الأُولَى قَوْلان: أحدهما أنَّه الكُفْر باللَّهِ تعالى، والثاني أنَّه الكُفْر بذلك الحُكْم ، ولَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُل عن المِلَّة .

وفَصْلُ الخِطَابِ أنَّ مَن لَمْ يَحْكُمْ بما أنزلَ اللَّهُ جَاحِدًا له ، وهو يَعْلَم أنَّ اللَّهَ أنزَلَه ، كَمَا فَعَلَت اليهودُ، فهو كافر ، ومَن لَمْ يَحْكُم بِه مَيْلًا إلى الهَوَى مِن غَيْر جُحُود ، فهو ظَالِم وفَاسِق ، وقد رَوَى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس أنَّه قال : مَن جَحَدَ مَا أنزلَ اللَّهُ فَقَد كَفَرَ ، وَمَن أَقَرَّ بِهِ وَلَم يَحْكُم بِهِ فهو فَاسِق وظَالِم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَوْلا يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ٦٣] .

هَلَّا يَنهاهم أئمةُ بني إسرائيل وأحبارُهم وعُلَماؤهم ويَزجرونهم عن المعاصي والآثام والذُّنُوب وأكل الحرام . وبِئْسَ صَنيع وفِعْل العلماء الذين تَركوا النَّهْيَ عن المُنكَر ، ولم يُحذِّروا الناسَ مِن ارتكاب المعاصي واقتراف الآثام . وفي هذه الآية توبيخٌ شديد للعلماء والعُبَّاد الذين تركوا الأمرَ بالمعروف والنَّهْيَ عن المُنكَر ، واكْتَفَوْا بالمُشَاهَدَة، ولَم يقوموا بزجر أصحاب المعاصي .

والآيةُ تدلُّ على أنَّ إثمَ تاركِ النَّهْي عَن المُنكَرِ مِثْلُ إثمِ مُرتكِب المُنكَر . وقد جَمَعَ اللَّهُ بينهما في الذَّم والوعيد. ((وكان العلماء يقولون : ما في القُرآن آية أشد توبيخًا للعُلَماء من هذه الآية ، ولا أخْوَف عليهم مِنها)) [١٢٤] .

والعُلَماءُ ينبغي أن يكونوا في طليعة الآمِرين بالمعروف والناهين عن المُنكَر ، لِعِلْمِهِم الشَّرْعِيِّ، وكَوْنِهم أصحابَ مكانة اجتماعية رفيعة، وهُم قُدوةُ الناس والمَثَل الأعلى في كُلِّ زمان ومكان .

وكما قال ابن المُبَارَك :

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانُها
فباعُوا النُّفوسَ وَلَم يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ في البَيعِ أثمانُها

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤/ ٦٣٨) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : هَلَّا يَنهى هؤلاء الذين يُسارعون في الإثمِ والعُدوانِ وأكْلِ الرُّشَى في الحُكْمِ مِنَ اليهود مِن بني إسرائيل ، رَبَّانِيُّوهم ــ وهُم أئمتهم المؤمنون وساستهم العلماء بسياستهم ــ وأحبارُهم وهُم عُلماؤُهم وقُوَّادُهم ﴿ عَن قَوْلِهِمُ الإثْمَ ﴾ يعني : عن قَول الكذب والزُّور ، وذلك أنهم كانوا يَحْكمون فيهم بغير حُكم اللَّه ، ويكتبون كُتُبًا بأيديهم ، ثم يقولون : هذا مِن حُكم اللَّه ، وهذا مِن كُتبه . يقول اللَّهُ : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُم

---

١٢٤ تفسير الطبري (٦ / ٢٩٨) . وانظر تفسير ابن كثير (٢ / ٧٥) ، والدُّر المنثور (٣/ ١١٢) .

مِمَّا كَتَبَتْ أيديهم وَوَيْلٌ لهم مِمَّا يَكْسِبُون ﴾ [البَقَرَة: ٧٩] [١٢٥] **. وأمَّا قَوْلُه:﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ فإنَّه يَعْني به الرِّشوة التي كانوا يأخذونها على حُكمهم بِغَير كتاب اللَّه لِمَن حَكَمُوا له به... ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ . وهذا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ أقسمَ به . يقول تعالى ذِكْرُه : أُقْسِم : لَبِئْسَ الصَّنيع كان يَصنع هؤلاء الرَّبَّانِيُّون والأحبار ، في تَركهم نَهْي الذين يُسارعون مِنهم في الإثم والعُدوان ، وأكْلِ السُّحْت ، عَمَّا كانوا يَفْعَلُون من ذلك)) .**

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٤) : ((﴿ لَوْلا يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ تَحضيض لعلمائهم على النَّهْي عن ذلك ، فإن " لَوْلا " إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض . ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أبْلَغ مِنْ قَوْلِه : لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ، مِن حَيث إن الصُّنع عمل الإنسان بعد تَدَرُّب فيه ، وَتَرَوٍّ وتَحَرِّي إجادة ، ولذلك ذَمَّ به خَوَاصَّهم ، ولأن ترك الحسنة أقبح مِن مُواقعة المعصية ، لأن النَّفْس تلتذ بها وتميل إليها ، ولا كذلك ترك الإنكار عليها ، فكان جديرًا بأبلغ الذَّم)) .

وعن أبي بكر الصِّديق_ رضي اللَّهُ عنه_ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ((إنَّ الناس إذا رَأَوُا الظالمَ فَلَمْ يَأخذوا على يَدَيْهِ ، أَوْشَكَ أن يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْه)) [١٢٦] **.**

إنَّ الناس إذا استمرؤوا الظُّلْمَ ، ولَم يقوموا بمُقاومة الظالم والتَّصدي له ، فهم مُعرَّضون للعقوبة الإلَهِيَّة جَزَاءَ تقاعسهم ، وابتعادِهم عن الدَّعوة المشتملة على الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنكَر.

---

١٢٥ حرَّف اليهودُ التَّوراةَ ، وبدَّلوها ، وأضافوا فيها ، وحذفوا مِنها ، وأزالوا اسم النبيِّ " مُحَمَّد " مِنها ، وقد غضبَ اللَّهُ عليهم ، ولعنهم ، وأعدَّ لهم عذابًا عظيمًا . والعذابُ على الذين كَتبوا الكذبَ والافتراءَ ، ونسَبوه إلى اللَّه تعالى زُورًا وبُهتانًا ، والعذابَ عليهم بسبب أكلهم الدُّنيا بالدِّين ، وأخذ الرُّشى في الأحكام. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٠٦) : ((هذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين بدَّلوا التَّوراةَ ، وغيَّروا صِفةَ النبيِّ ﷺ فيها. وهذا قول ابن عباس وقَتادة وابن زَيد وسُفيان. فأمَّا الوَيْل فروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال : " وَيْلٌ وَادٍ في جهنم، يَهْوي الكافر فيه أربعين خريفًا قبل أن يَبلُغ قَعْرَه" . وقال الزَّجَّاج : الوَيْل كلمة تقولها العرب لكل مَن وَقع في هَلَكَة ... والكتاب هاهُنا التَّوراة . وذِكْر الأيدي توكيد ، والثمن القليل ما يَفنى مِن الدُّنيا . وفِيما يَكسِبون قَولان : أحدهما أنَّه عِوَض ما كَتبوا، والثاني إثم مَا فَعَلُوا)) .

١٢٦ رواه التِّرمذي في سُنَنه (٤ / ٤٦٧) وصَحَّحَه ، وابن حِبَّان في صحيحه (١ / ٥٣٩) .

وانتشارُ الظُّلْمِ دُون نكير أو مُقاومة من شأنه إحالة الحياة إلى جحيم لا يُطاق ، وتضييع كُلِّ المُكتسبات الإنسانية ، وتَحطيم الإنجازات البشرية ، وإبادة المعاني البشرية الراقية . مِمَّا يدفع باتجاه إفساد الدُّنيا ، وفِقدانِ معنى إعمارها بالفضائل ، وهذا يُؤَثِّر سَلْبًا على الفرد والجماعة ، فَيَضْعُف الإيمانُ في النُّفوس ، وتَفْقِد الحياةُ معناها .

والظالمُ مهما كان سفَّاحًا وقاسيًا وطاغيةً، فهو شخص ضعيف مهزوز، مُنهار مِن الداخل، وخائف مِمَّنْ حَوْلَه ، ويَشُك في الجميع . وهو يُحْرِقُ نَفْسَه بِنَفْسِه ، ويَلعب بمصيره ، ويُقَامِر بوجوده ومُستقبله،وبِذرةُ الضَّعْف كامنة فيه،ومُسيطرة عليه،وعُقْدَةُ الشُّعور بالنَّقْص تُحَاصِره مِن كُلِّ الجِهات.

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٩٩) : (((إنَّ الناس) المُطيقين لإزالة الظُّلم مع سلامة العافية (إذا رَأَوُا الظالمَ) أي عَلِموا بظُلمه (فَلَم يَأخذوا على يَدَيْهِ) أي لَم يَمنعوه مِن الظُّلم بِفعل أوْ قَول . قال ابن جرير : وخُصَّ الأيدي لأن أكثر الظلم بها كقتل وجرح وغَصْب ، (أَوْشَكَ) بفتح الهمزة والشِّين ، أي: قَارَبَ أو أسرعَ (أن يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْه) إمَّا في الدُّنيا أو الأُخْرَى ، أوْ فيهما ، لِتَضييع فَرْض اللَّه بِغَيْرِ عُذر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣١] .

إنَّهم أطاعوهم كما يُطاع الرَّبُّ تعالى ، فأحَلُّوا لهم الحَرَامَ ، وَحَرَّمُوا عليهم الحَلالَ .

وقال الواحدي في الوجيز (٤٦١/١) : ((﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم ﴾ عُلَمَاءَهُم وَعُبَّادَهُم ﴿ أرْبَابًا ﴾ آلِهَةً ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ حَيْثُ أطاعوهم في تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إنَّ كثيرًا مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ لَيَأكُلُونَ أموالَ النَّاسِ بالباطلِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التَّوبة : ٣٤] .

يا أيُّها الذين صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، وأقَرُّوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، إنَّ كثيرًا مِن الأحبار (عُلماء اليهود) والرُّهبانِ (عُبَّاد النصارى) ، لَيَأخُذون أموالَ الناس بالحرام ، ويَمنعونهم مِن الدُّخول في الإسلام (الدِّين الحَق) . وسُمِّيَ أخذ المال أكْلًا ، لأنَّه الغَرَض الأعظم مِنْه.واللَّهُ عادلٌ ومُنصِف، فقد قال: ﴿ إنَّ كثيرًا مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ ﴾، ولَمْ يَقُلْ : إنَّ الأحبارَ والرُّهبان ، لأنَّ هذه العِبارة تعميم يَشمَل الجميعَ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٤٢٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إنَّ كثيرًا مِنَ الأحبارِ ﴾ الأحبار مِن اليهود ، والرُّهبان مِن النَّصَارى ، وفي الباطل أربعة أقوال : أحدها أنَّه الظُّلْم ، قاله ابن عباس . والثاني الرُّشَى في الحُكْم ، قاله الحسن . والثالث الكَذِب ، قاله أبو سُلَيمان . والرابع

أخْذه مِن الجِهَة المَحظورة ، قاله القاضي أبو يعلى . والمُراد : أخذ الأموال ، وإنَّما ذَكَرَ الأكلَ ، لأنَّه مُعظَم المَقصود مِن المال.وفي المُراد بسبيل اللَّه هاهُنا قَولان:أحدهما الإيمان برسول اللَّه ﷺ قاله ابن عباس والسُّدي . والثاني أنَّه الحَقُّ والحُكْم)) .

إنَّ كثيرًا مِن عُلماء اليهود وعُبَّاد النصارى يأخذون الرُّشَى في أحكامهم ، ويُحرِّفون كلامَ اللَّه ، ويَكتبون التَّوراةَ والإنجيلَ بأيديهم ، ثُمَّ يقولون : هذا مِن عِند اللَّه ، ويَأخذون به ثمنًا قليلًا مِن العَوَام والجُهَّال ، ويُخْفُون وَصْفَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ في كُتبهم ، من أجل الحفاظ على مصالحهم الشخصية ، ومكاسبهم المادية ، ومناصبهم ، وزعامتهم ، ورياستهم . يَخافون لَوْ صدَّق الناسُ بالإسلام ، واتَّبَعُوا النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ ، أن يَخسَروا زعامتهم وأموالهم وامتيازاتهم وسُلطتهم .

وهُمْ أيضًا يأخذون أموالَ الناس بالحرام، بِاسْمِ البِيَعِ والكنائس،وَفَرْضِ الضرائب على الأتْبَاع ، وخِداعهم بأن يقولوا لهم إنَّ هذه الأموال قُربة إلى اللَّه تعالى، وتُستعمَل للإنفاق على دُور العبادة ودعمِ المؤمنين . وهذه الحِيَل والألاعيب موجودة في كُل زمان ومكان . وما أكثرَ الفضائح التي تَمَّ كَشْفُها بخُصوص هذا الشأن !. ولا تزال " صُكوكُ الغُفران " عالقةً في الأذهان ، وهي مِثال واضح على أكل أموال الناس بالوسائل المُحرَّمة ، واستعمالِ الكذب والخِداع وطُرُق الاستغلال . فَهُمْ يأكلون الدُّنيا بالدِّين مُستغلين مناصبهم وسُلطاتهم ومكانتهم الاجتماعية ، كما أنَّهُم يَعتمدون على جهل الناس ، للسَّيطرة عليهم ، وسرقتهم ، وابتزازهم ، واستغلالهم . و"صُكوكُ الغُفران " غَيْض مِن فَيْض (قليل من كثير) ، وهذه قضية واحدة ، وهي على سبيل المثال لا الحَصْر .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٧): ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه: يا أيُّها الذينَ صَدَّقُوا اللَّهَ ورسولَه وأقَرُّوا بِوَحدانية رَبِّهم ، إنَّ كثيرًا مِن العُلَماء والقُرَّاء مِن بني إسرائيل مِن اليهود والنصارى ﴿ لَيَأكُلُونَ أموالَ النَّاسِ بالباطلِ ﴾ ، يَقول : يَأخذون الرُّشَى في أحكامهم ، ويُحرِّفون كِتابَ اللَّه ، ويَكتبون بأيديهم كُتُبًا ثُمَّ يقولون : هذه مِن عِند اللَّه ، ويأخذون بها ثَمَنًا قليلًا مِن سَفِلتهم (حُثالة الناس) ، ﴿ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، يقول : ويَمنعون مَن أرادَ الدُّخولَ في الإسلام الدُّخولَ فيه ، بِنَهْيِهم إيَّاهم عنه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦١) : ((قال السُّدي : الأحبار مِن اليهود ، والرُّهبان مِن النَّصارى ، وهو كما قال ، فإنَّ الأحبار هُم عُلماء اليهود ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلا يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ ، والرُّهبان عُبَّاد النَّصارى ، والقِسِّيسُون عُلماؤهم ، كما قال تعالى: ﴿ ذلك بأنَّ مِنهُم قِسِّيسِينَ ورُهْبَانًا ﴾ . والمقصود التَّحذير مِن عُلماء السُّوء وعُبَّاد

الضَّلال ، كما قال سُفْيَان بن عُيَيْنَة : مَنْ فَسَدَ مِن عُلمائنا كان فيه شَبَهٌ مِن اليهود ، ومَنْ فَسَدَ مِن عُبَّادنا كان فيه شَبَهٌ مِن النَّصارى . وفي الحديث الصحيح : " لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قَبْلَكُم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ " ، قالوا : اليهودَ والنصارى ؟ قال : " فَمَن ؟ " . وفي رواية : فارسَ والرُّومَ ؟ ، قال : " فَمَنِ الناسُ إلا هؤلاء ؟ " . والحاصل التحذير مِن التَّشَبُّه بهم في أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيَأكُلُونَ أموالَ النَّاسِ بالباطلِ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وذلك أنَّهم يَأكلون الدُّنيا بالدِّين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالَهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شَرَف ، ولهم عِندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إلَيهم ، فلمَّا بَعَثَ اللَّهُ رسولَه ﷺ استمروا على ضَلالهم وكُفرهم وعِنادهم، طَمَعًا مِنهم أن تبقى لهم تلك الرِّياسات، فأطفأها اللَّهُ بِنُور النُّبُوَّة، وسَلَبَهم إيَّاها ، وعوَّضهم الذُّلَّ والصَّغَارَ ، وباؤوا بغضب مِن اللَّه تعالى . وقَوْلُه تَعَالى : ﴿ ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أي : وَهُمْ مَعَ أكْلِهِم الحرام يَصُدُّون الناسَ عَن اتِّباع الحَق ، ويَلْبِسُون الحقَّ بالباطل ، ويُظهِرون لِمَن اتَّبعهم مِن الجَهَلَة أنَّهم يَدْعُونه إلى الخَير ، ولَيسوا كما يَزعُمون ، بَل هُم دُعَاة إلى النار ، ويَوم القيامة لا يُنصَرون)) .

وَمَا أجملَ قَول ابن المُبَارَك :

وَهَل أفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهْبَانُها
فباعُوا النُّفُوسَ ولَم يَرْبَحُوا ... ولَم تَغْلُ في البَيعِ أثمانُها

١٧_ أصحابُ السَّبْتِ

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ في السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونوا قِرَدَةً خَاسِئين ﴾ [البَقَرَة : ٦٥] .

وَلَقَدْ عَرَفْتُم يا مَعْشَرَ اليَهُودِ الذينَ عَصَوُا اللَّهَ ، وَجَاوَزُوا حَدَّه ، وَخَالَفُوا أمْرَه في يَوْمِ السَّبْتِ ، بِصَيْدِ السَّمَكِ (الحِيتان)، وَقَدْ نَهَاهُمُ اللَّهُ عَن ذلك . وبسبب رَفْضِهم لأمْرِ اللَّهِ ، عَاقَبَهُمْ وَعَذَّبَهُم بأنْ جَعَلَهُم قِرَدةً مَطْرُودين مُبْعَدِين . وهذا تَحذيرٌ لليهود المُعَاصِرين للنَّبِيِّ ﷺ مِن مَعصيةِ اللَّهِ ، وتَكرارِ خَطَأ أسلافِهم الغابرين، لِئَلا يُلاقُوا نَفْسَ مَصيرِهم الكارثيِّ، ويُعَذَّبوا أشدَّ العَذابِ [١٢٧] .

---

١٢٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٩٤) : ((وفي صِفَةِ اعتدائِهم في السَّبْتِ قَوْلان : أحدهما أنهم أخذوا الحيتانَ يَوْمَ السَّبْتِ، قاله الحسن ومُقاتِل. والثاني أنهم حَبَسُوها يَوْمَ السَّبْت ، وأخذوها يوم الأحد،

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٠٤) : ((وأصْلُ السَّبْتِ : القَطْعُ . قيل : سُمِّيَ يَوْمُ السَّبْتِ بذلك ، لأنَّ اللَّهَ تعالى قَطَعَ فيه الخَلْقَ . وقيل : لأنَّ اليَهُودَ أُمِرُوا فيه بقطع الأعمال)) .

وهؤلاء اليهود الذين اعْتَدَوْا في يوم السَّبْت ، فاصطادوا الحيتان فيه ، وهو مُحرَّم عليهم. ولَجَؤُوا إلى الحِيلة ، فَحَفَرُوا الحُفَرَ وشَقُّوا الجَداولَ ، فكانت الحِيتانُ تَدْخُلها يَوْمَ السَّبْتِ فَيَصِيدونها يوم الأحد ، لَمْ يَنتفعوا بهذه الحِيلة . فقد أصابهم العَذابُ الإلهيُّ بأنْ مَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً أَذِلَّة صَاغِرين بسبب مَعْصيتهم . والقِرَدَةُ أشبه الحيوانات بالبشر .

وقال الطَّبَري في تفسيره (١/ ٣٧٠) : ((وهذه الآية وآيات بَعْدَها تَتْلُوها مِمَّا عَدَّدَ جَلَّ ثَنَاؤُه فيها على بني إسرائيل ، الذين كانوا بَين خِلال دُور الأنصار زمان النبيِّ ﷺ ، الذين ابتدأ بِذِكْرهم في أوَّل هذه السُّورة مِنْ نَكْثِ أسلافِهم عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثاقَه ، مَا كانوا يُبْرِمُون مِنَ العُقود ، وَحَذَّرَ المُخَاطَبِين بِها أنْ يَحِلَّ بِهِم ــ بإصرارهم على كُفْرِهم ومُقَامِهم على جُحُودِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وتركهم اتِّباعه ، والتَّصديق بما جاءهم به مِنْ عِند رَبِّه ــ مِثْل الذي حَلَّ بأوائلهم مِنَ المَسْخِ والرَّجْفِ والصَّعْقِ ، وَمَا لا قِبَل لَهُم بِه مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٥٠): ((يقول تعالى : ﴿ ولقد عَلِمْتُمُ ﴾ يا مَعْشَرَ اليهود ما أَحَلَّ مِنَ البأس بأهل القرية التي عَصَتْ أمْرَ اللَّهِ ، وخَالَفُوا عَهْدَه ومِيثاقَه فِيما أخذه عليهم مِن تَعظيمِ السَّبْتِ ، والقِيَامِ بأمْرِه ، إذْ كان مشروعًا لهم ، فَتَحَيَّلوا على اصطياد الحِيتان في يوم السَّبْتِ ... ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلك مَسَخَهُمُ اللَّهُ إلى صُورة القِرَدَةِ ، وهي أشبه شَيْءٍ بالأناسِيِّ في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحِيلتهم لمَّا كانت مُشابِهة للحَقِّ في الظاهر ، ومُخالِفة له في الباطن ،كان جَزَاؤُهُم مِنْ جِنْسِ عَمَلِهم)) .

وقد اختلف العلماء في المَمْسوخ هَلْ يَنْسُل (يتكاثر) أَمْ لا ؟ .

في تفسير القُرطبي (١/ ٤٧٧) : ((قال الجُمهور : المَمْسُوخُ لا يَنْسُل ، وإنَّ القِرَدَة والخنازير وغَيْرهما كانت قَبْل ذلك ، والذين مَسَخَهُمُ اللَّهُ قَدْ هَلَكُوا ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ نَسْلٌ ، لأنَّه قَدْ أصابهم السَّخَطُ والعَذابُ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُم قَرَارٌ في الدُّنيا بعد ثلاثة أيام)) .

وذلك أنَّ الرَّجُلَ كانَ يَحفِر الحفيرة،ويجعل لها نهرًا إلى البَحْرِ،فإذا كان يَوْم السَّبْت فَتَحَ النَّهْرَ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْه العَمَلَ يَوْمَ السَّبْت ، فَيُقْبِل الموجُ بالحيتان حتى يُلْقِيَها في الحفيرة ، فيُريد الحوتُ الخروجَ فلا يُطيق، فيأخذها يوم الأحد ، قاله السُّدي)) .

وفي صحيح مُسْلِم (٤ / ٢٠٥٠) أنَّ رَجُلًا قال : يا رسولَ اللَّهِ ، القِرَدَةُ والخَنَازِيرُ هِيَ مِمَّا مُسِخَ ؟ ، فقالَ النبيُّ ﷺ : ((إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا أوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا ، فَيَجْعَلْ لَهُمْ نَسْلًا ، وَإنَّ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ كانوا قَبْلَ ذلك)) .

المَسْخُ عُقوبةٌ شديدةٌ مِنَ اللَّهِ تعالى،عَاقَبَ بِهَا مَنْ عَصَاه مِنْ بني إسرائيل،كَمَا في قَوْلِه تَعَالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٦٠] .

إنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ للمَسْخِ (مَنْ حَوَّلَ اللَّهُ صُورَتَه مِن صُورةِ الآدَمِيِّ إلى صُورةٍ أُخْرَى) مِثْلَ المُكَذِّبين مِن بني إسرائيلَ الذينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً وخَنازيرَ نَسْلًا ولا عَقِبًا ، فلا يَتوالدون بَعْدَ مَسْخِهِم ، وَقَدْ كانت القِرَدَةُ والخَنازيرُ مَخْلوقةً وَمَوْجودةً قَبْلَ وُقوعِ المَسْخِ .

والحديثُ يدلُّ على أنَّ القِرَدَةَ والخَنازيرَ التي نَرَاها اليَوْمَ لَيْسَتْ مُنْحَدِرَةً مِنْ نَسْلِ الذينَ مَسَخَهُمُ اللَّهُ مِنْ عُصَاةِ بني إسرائيلَ ، أي إنَّ القِرَدَةَ والخَنازيرَ التي تَعِيشُ في عَالَمِنَا لَيْسَتْ مَمْسُوخَةً ، بَلْ حَيَوَانات أصْلِيَّة تتكاثر ، وَلَهَا نَسْل ، والمَمْسُوخُ لا نَسْل له .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٤) : ((قَوْلُه ﷺ : " وإنَّ القِرَدَةَ وَالخَنازيرَ كانوا قَبْلَ ذلك " ، أي : قَبْل مَسْخِ بني اسرائيل ، فَدَلَّ على أنَّها لَيْسَتْ مِنَ المَسْخِ . وجاءَ " كانوا " بضمير العُقَلاءِ مَجَازًا لِكَوْنِه جَرَى في الكلام مَا يَقْتَضِي مُشاركتها للعُقَلاءِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلى الذينَ اخْتَلَفُوا فِيه ﴾ [النَّحْل : ١٢٤] [١٢٨] .

لَمْ يَكُنْ تَعظيمُ يَوْمِ السَّبْتِ ، وتَرْكُ العَمَلِ فِيه، مِنْ دِينِ النَّبِيِّ إبراهيمَ ﷺ وشريعته ، وإنَّما جُعِلَ تَغْلِيظًا على اليَهُودِ ، وتَشْديدًا عَلَيْهِم ، لاختلافِهم في الدِّينِ ، وإعراضِهم عن أحكام الشريعة ، وعِصيانِهم أمْرَ اللَّهِ تعالى ، حَيْث نَهَاهُم عَن الاصطيادِ فيه فاصطادوا ، فَمَسَخَهُم قِرَدَةً وخَنازيرَ عُقُوبةً لهم . واللَّهُ فَرَضَ تَعظيمَ يَوْمِ السَّبْتِ على الذين اختلَفوا فيه ، وَلَمْ تَتَّفِقْ كَلِمَتُهُم ، فكانَ

---

١٢٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠٥) : ((وفي معنى اختلافهم فيه قولان : أحدهما أنَّ مُوسَى قال لهم: تَفَرَّغوا للَّهِ في كُلِّ سبعة أيام يَوْمًا ، فاعبدوه في يوم الجُمُعة ، ولا تَعْمَلُوا فيه شيئًا مِن صَنيعكم ، فأبَوْا أن يَقْبلوا ذلك،وقالوا : لا نبتغي إلا اليوم الذي فَرَغَ فِيه مِنَ الخَلْقِ ، وَهُوَ يوم السَّبْت ، فَجُعِلَ ذلك عليهم ، وشُدِّدَ عليهم فيه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ... والثاني أنَّ بَعْضَهم اسْتَحَلَّه ، وبَعْضَهم حَرَّمَه ، قاله قَتَادة)) .

السَّبْتُ _ بالنِّسْبَة إلَيهم _ مَحَلًّا للنِّزاعِ والشِّقاقِ وتَفَرُّقِ الكَلِمَة ، وهذا يدلُّ على اختلافِ المَرْجِعِيَّات، وتَضَارُبِ الأهواءِ والأمزجةِ ، وَعَدَمِ الاتفاق على مَبدأ واحد . وفي هذا مُؤشِّرٌ على تَشَتُّتِ قُلوبِ اليهود ، وتَعَارُضِ عُقُولِهم ، وَتَضَارُبِ أهوائِهم ، وكَثرةِ ذُنُوبِهم وَمَعَاصِيهم وجَرائمِهم .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٧/ ٦٦٢) : ((يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : مَا فَرَضَ اللَّهُ أيُّها الناسُ تَعظيمَ يَوْمِ السَّبْتِ إلا على الذين اختلَفوا فيه ، فقال بعضُهم : هو أعظم الأيام ، لأنَّ اللَّهَ تعالى فَرَغَ مِنْ خَلْقِ الأشياءِ يَوْمَ الجُمُعَة ، ثُمَّ سَبَتَ يَوْمَ السَّبْتِ . وقال آخَرُون : بَلْ أعظمُ الأيَّامِ يَوْمُ الأحَد، لأنَّه اليوم الذي ابتدأ فيه خَلْقَ الأشياءَ،فاختاروه،وتَركوا تَعظيمَ يَوْمِ الجُمُعَةِ الذي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِم تَعظيمَه ، وَاسْتَحَلُّوه)) .

وقال الحافظ في الفتح (٢ / ٣٥٥) : ((روى الطَّبَري بإسناد صحيح عن مُجَاهِد في قَوْلِه تعالى : ﴿ إنما جُعل السَّبْتُ على الذين اختلفوا فيه ﴾ . قال : أرادوا الجُمُعَةَ فَأَخْطَؤُوا، وأخَذُوا السَّبْتَ مَكَانَه، ويُحْتَمَل أن يُراد بالاختلاف اختلاف اليهود والنصارى في ذلك)) .

واليهودُ قَوْمٌ مُعَانِدُون ، لا يَنْصَاعُون للحَقِّ ، بَلْ يَتَحَايلون عليه بِكُلِّ وسيلة . وَهُمْ أصحاب قُلوب قاسية ، ويَغْرَقُون في أهوائِهم المُتعارِضة، وأفكارُهم قائمة على اللفِّ والدَّوَرَانِ والتَّحَايُلِ ، وتَبديلِ الألفاظِ والمَعاني، وخِيَانَةِ العُهودِ ، وَرَفْضِ الشريعة ، وقَتْلِ الأنبياء . وهذا مَعروفٌ عَنْهُم . وقد اختلَفوا في يَوْمِ السَّبْتِ، وَلَمْ يَتَّفقوا،وهذا يدلُّ على تَضَارُبِ أهوائِهم ، وَعَدَمِ خُضوعِهم للحَقِّ.

وعن أبي هُرَيرة _ رَضِيَ اللَّهُ عنه _ أنَّه سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول : ((نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، بَيْدَ أنَّهُم أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ هَذا يَوْمُهُم الذي فُرِضَ عَلَيْهِم ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ _ يَعْنِي يَوْمَ الجُمُعَة_، فَهَدَانَا اللَّهُ ، فالناسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، اليَهُودُ غَدًا ، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ)) [١٢٩].

النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ خَيْرُ الأنبياءِ _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وأُمَّتُه خَيْرُ الأُمَمِ . والنَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ بَعْضَ فَضائلِ أُمَّتِه على الأُمَمِ السابقةِ ، ويُعَدِّد بَعْضَ صِفَاتِها وأوصافِها التي تَتَمَيَّز بِها على تِلْك الأُمَمِ، فَيُخْبِر أنَّه وأُمَّتَه هُمُ الآخِرُون في الزَّمَانِ ، لأنَّه ﷺ آخِرُ الأنبياءِ والرُّسُلِ ، ولا نَبِيَّ بَعْدَه، ولكنَّهم السابقون في الفَضْلِ والفَضيلةِ يَوْمَ القِيَامةِ على الأُمَمِ السابقةِ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ ، بِحَيْثُ يَكُونون بَعْدَها في الحِسَابِ والقَضَاءِ ودُخُولِ الجَنَّةِ،ثُمَّ يُشير ﷺ إلى أهْلِ الكِتَابِ اليَهُودِ والنَّصَارى بأنَّهُم أُوتُوا الكِتَابَ،والمُرَادُ بالكِتَابِ:التَّوراةُ والإنجيلُ مِنْ قَبْلِنا ، وأنَّنا أُوتينا القُرْآنَ الكريمَ _ الذي

---

١٢٩ متفق عليه . البخاري (١ / ٢٩٩) برقم (٨٣٦) ، ومسلم (٢ / ٥٨٥) برقم (٨٥٥) .

هُوَ أعظمُ الكُتُبِ التي أنزَلَهَا اللَّهُ إلى عِبَادِه ــ مِن بَعْدِهِم . ثُمَّ أشارَ ﷺ إلى يَوْمِ الجُمُعَةِ ، وأنَّ هذا اليَوْمَ اخْتَلَفَ فيه أهلُ الكِتابِ مِنْ قَبْلِنا بَعْدَ أنْ عُيِّنَ لَهُم، وَأُمِرُوا بِتَعْظِيمِه ، فَتَرَكُوه وغَلَّبُوا القِياسَ، فَعَظَّمَت اليَهُودُ السَّبْتَ للفَرَاغِ مِنَ الخَلْقِ ، وَظَنَّتْ ذلك فَضيلةً تُوجِبُ عِظَمَ اليَوْمِ ، وَعَظَّمَت النَّصَارى الأحَدَ، لَمَّا كانَ ابتداءُ الخَلْقِ فيه ، فَهَدَانا اللَّهُ إلى يَوْمِ الجُمُعَةِ بالوَحْيِ الواردِ في تَعظيمِه، أوْ بالاجتهادِ المُوَافِقِ للمُرادِ ، فالسَّبْتُ لليَهُودِ ، والأحَدُ للنَّصَارى . وقيل : إنَّه لَمَّا تَخَيَّرَت اليَهُودُ السَّبْتَ ، والنَّصَارى الأحَدَ ، وَهَدَانا اللَّهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ ــ وَهُوَ سابقٌ لليَوْمَيْن ــ سَبَقْنَاهُم في الدُّنيا، ونَسْبِقُهُم في الآخِرَةِ . إنَّ المُسْلِمِين هُمُ الآخِرُون زَمانًا (جاؤوا بعد اليهود والنصارى) ، ولكنَّهم السابقون يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْزِلَةً وَشَرَفًا وَفَضْلًا (أوَّل الأُمَم دُخولًا إلى الجَنَّة) . وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ على اليَهُودِ والنَّصَارى تَعظيمَ يَوْمِ الجُمُعَةِ ، فاختلَفوا فيه وَتَفَرَّقوا ، خُضُوعًا لأهوائِهم ومَصالِحِهم ، وهَدى اللَّهُ المُسْلِمِين إلى تَعظيمِ يَوْمِ الجُمُعَةِ ، فأصابوا الحَقَّ . وَعِيدُ اليَهُودِ السَّبْتُ . وَعِيدُ النَّصَارى الأحَدُ . وَعِيدُ المُسْلِمِين الجُمُعَة. وهَكذا، تَتَجَلَّى رِيَادَةُ المُسْلِمِين وتَقَدُّمُهُم على أهْلِ الكِتَابِ، وَتَفَوُّقُهُم عليهم ، إذْ إنَّ الجُمُعَة (عِيد المُسْلِمِين) تَسْبِق السَّبْتَ والأحَدَ (عِيدَي اليَهُودِ والنَّصَارى) ، وأهلُ الكِتَابِ تابعون للمُسْلِمِين، كما أنَّ الخادمَ تابعٌ لِسَيِّدِه . والحديثُ يدلُّ على وُجُوبِ الجُمُعَةِ ، كما يدلُّ على أفضليَّة الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة الإسلاميَّة على باقي الأُمَمِ .

وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ١٤٢ و١٤٣) : ((قال العُلماء : مَعْناه الآخِرُون في الزَّمَانِ والوُجُودِ، السابقون بالفَضْلِ وَدُخُولِ الجَنَّةِ ، فَتَدْخُل هَذه الأُمَّةُ الجَنَّةَ قبل سائر الأُمَمِ . ... . قَوْلُه ﷺ : " هَذا اليَوْمُ الذي كَتَبَه اللَّهُ عَلَيْنَا هَدَانا اللَّهُ له " فيه دليل لوجوب الجُمُعة وفيه فضيلة هذه الأُمَّة. ... . قال القاضي: الظاهرُ أنَّه فُرِضَ عَلَيْهِم تَعْظيم يَوْم الجُمُعَة بِغَيْرِ تَعْيين، وَوُكِلَ إلى اجتهادهم لإقامة شرائعهم فيه فاختلفَ اجتهادُهم في تَعْيينه ، وَلَمْ يَهْدِهِمُ اللَّهُ لَهُ وَفَرَضَه على هذه الأُمَّةِ مُبَيَّنًا وَلَمْ يَكِلْه إلى اجتهادهم ففازوا بتفضيله. قال: وَقَدْ جاءَ أنَّ مُوسَى عليه السلام أَمَرَهم بالجُمُعَة وأعْلَمَهُم بفضلها فناظروه أنَّ السَّبْتَ أفضل، فقيل له : دَعْهُم. قال القاضي: وَلَوْ كانَ مَنصوصًا لَمْ يَصِح اختلافُهم فيه بَلْ كان يَقُول:خَالَفُوا فيه. قُلْتُ: ويُمْكِن أن يَكُون أُمِرُوا به صَرِيحًا، وَنَصَّ عَلى عَيْنِه،فاختلَفوا فيه هَلْ يَلْزَم تَعْيينُه أَمْ لهم إبدالُه؟، وَأبْدَلُوه وَغَلِطُوا في إبداله)).

إنَّ الخِدَاعَ والكَذِبَ والتَّحَايُلَ مِنْ أبرز مُكوِّنات العَقْلِ اليَهوديِّ في كُلِّ العُصور . واليُهودُ يَعْتبرون هذه المعاني السَّيئة أسلحةً إستراتيجيَّة في أيديهم ، لِمُواجهةِ الآخَرِين ، والتَّفَوُّقِ عَلَيْهِم ، والسَّيطرةِ على المُجتمعات. ولا شَكَّ أنَّ اليهود يَعْتبرون أنفُسَهم سَادَةَ العَالَمِ، والآخرين عَبِيدًا لَهُم.

ثالثًا : النَّصَارَى

١ــ مَوَاقِفُهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فِيه ﴾ [المائدة : ٤٧] .

أنزَلَ اللَّهُ الإنجيلَ على النَّبِيِّ عِيسى ﷺ ، وأمَرَه وأتْبَاعَه أن يَحكُموا بما أنزلَ اللَّهُ فيه مِن أحكام وتعاليم. لقد أَمَرَ اللَّهُ النَّصَارى بالإيمانِ بالإنجيلِ كاملًا بِدُون اجتزاء ، وإقامةِ أحكامِه وتَعاليمِه ، والتَّصديقِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الثابتة فيه ، واتِّبَاعه ، ومُناصرته . والآيةُ تشتمل على أمْرٍ إلَهِيٍّ عظيم لأهل الإنجيل (النَّصَارى) أن يَحْكُمُوا بِما أنزلَ اللَّهُ فيه ، فهو حَق واجب التطبيق قبل البَعثة المُحمَّدية الإسلامية.وبعد هذه البَعثة المُبارَكة،أمَرَ اللَّهُ النصارى أن يَحكُموا بالقُرآن الذي أنزله اللَّهُ على النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ . واللَّهُ أنزلَ الكُتبَ السَّماوية للعملِ بها، وتَطبيقِ أحكامِها وتَعاليمِها على أرض الواقع. والقُرآنُ ناسخٌ لِكُلِّ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّة السابقة بلا استثناء .

وقال البَيْضَاوي في تفسيره (١/ ٣٣١) : ((والآية تدلُّ على أن الإنجيل مُشتمل على الأحكام ، وأنَّ اليهودية مَنسوخة بِبَعْثَةِ عِيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنَّه كانَ مُسْتَقِلًّا بالشَّرْعِ . وحَمْلُها على: وَلْيَحْكُمُوا بما أنزلَ اللَّهُ فيه مِن إيجاب العمل بأحكام التَّوراة ، خِلافُ الظاهر)) .

إنَّ الأنبياء أصحاب منهج واحد ، وسائرون في طريق واحد ، ويَدْعُون إلى دِين واحد ، وهو الإسلام . ومُرسِلهم واحد ، وهو اللَّهُ تعالى . لذلك كان تكذيبُ أي نبيٍّ تكذيبًا لِكُلِّ الأنبياء ، وتكذيبًا للَّهِ الذي اختارهم ، واصْطَفَاهُم ، وأرْسَلَهُم ، وكَلَّفَهم بِحَمْلِ النُّبُوَّةِ ، وشَرَّفَهُم بها .

والأنبياءُ لا يَأتون بِشَيْءٍ مِنْ عِندِهم ، ولا يَخترعون أديانًا ، ولا يُؤَلِّفون شرائع ، إنَّما يُبَلِّغُون الوَحْيَ الإلهيَّ كاملًا ، ويُوصلون كلمةَ اللَّهِ إلى الناس ، بلا زيادة ولا نُقْصان .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للذينَ آمنوا الذينَ قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ مِنهُم قِسِّيسِينَ ورُهْبَانًا وأنهم لا يستكبرون ﴾ [المائدة : ٨٢] .

وَلَتَجِدَنَّ يَا مُحَمَّد أقربَ الناسِ مَوَدَّةً وَمَحَبَّةً للمُؤمِنين الذين صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وأقَرُّوا بِنُبُوَّتِكَ، الذين قالوا إنَّا نَصَارى . والسببُ في قُرْبِ مَوَدَّة النصارى أنهم قليلو الحِرص على الدنيا ، ويَهْتَمُّون بالعِلْمِ والعملِ ، فَفِيهم القِسِّيسُون (عُلَماؤهم) والرُّهْبَان (عُبَّادهم) ، وهُمْ يمتازون بالتواضع والوَدَاعة ولِين الجانب ، ولا يَتكبَّرون على الحق كاليهود . وهذا يُشير إلى أنَّ التواضع وطلب العِلْمِ والعمل به صِفَاتٌ محمودة ، ولو كانت مِن كافر . والنصارى أصحاب قلوب رقيقة ،

تميل إلى الإسلام. واليهودُ مُعَانِدُون ، قُلوبهم قاسية ، ومِن الصعب أن يَستجيبوا للحق ، ويَعتنقوا الإسلامَ.وهُناك مَثَلٌ قديم أشبه بحكمة يقول : " كُلْ عِند اليهودي ، ونَمْ عِند النَّصْراني " ، وذلك لأن اليهود يَعتنون بنظافة الأكل،ويُحرِّمون لَحْمَ الخِنزير،ولا يأكلون بعض أنواع الطعام المُحرَّمة عند المُسْلِمين ، ولكنَّ اليهود مَعروفون بالغدر والمكر،وإذا نامُ المسلمُ عندهم رُبَّما يَقتلونه أثناء نَوْمه. أمَّا النصارى فمعروفون بِرِقَّة القلب وعدم الغَدْر . والحُكْمُ على الأغلب ، وَلِكُلِّ قاعدة استثناء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧) : ((أي الذين زَعَمُوا أنَّهُم نَصَارى مِنْ أتْبَاعِ المسيح وعلى مِنهاج إنجيلِه ، فيهم مَوَدَّة للإسلامِ وأهْلِه في الجُملة ، ومَا ذاك إلا لِمَا في قلوبهم ، إذْ كانوا على دِينِ المسيح مِنَ الرِّقَّةِ والرَّأفة)) .

والآيةُ نَزَلَتْ في النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ وأصحابِه . وفي لُباب النُّقول للسُّيوطي (١/ ٨٦) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المُسيِّب وأبي بكر بن عبد الرحمن وعُروة بن الزُّبَير قالوا : " بَعَثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيَّ ، وكَتَبَ معه كتابًا إلى النَّجَاشِيِّ ، فَقَدِمَ على النَّجَاشِيِّ ، فقرأ كتابَ رسول اللَّه ﷺ ، ثُمَّ دَعَا جعفرَ بن أبي طالب والمُهاجرين معه ، وأرسلَ إلى الرُّهبان والقِسِّيسين ، ثُمَّ أَمَرَ جعفرَ بن أبي طالب ، فقرأ عليهم سورة مريم ، فآمَنُوا بالقُرآن ، وفاضتْ أعْيُنُهُم مِنَ الدمع، فَهُم الذين أنزلَ اللَّهُ فيهم : ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مَوَدَّةً ﴾ _ الآية _")).

إنَّ النبيَّ ﷺ حريص على الاتصال بِمُحيطه من أجل نشر الدَّعوة المُحمَّدية الإسلامية . والحَبَشَةُ_ التي كان يَحكمها النجاشي _ ، يمكن اعتبارها جارة للجزيرة العربية ، فلا يَفْصل بينهما إلا البحر الأحمر . والنجاشيُّ _ رضي اللَّهُ عنه_ كان نَصْرَانِيًّا ، ولكن عندما ظهر له الحق اعتنقَ الإسلامَ. وعِندما سَمِعَ الرُّهبانُ والقِسِّيسون سُورةَ مَرْيَم، أدركوا أنَّ هذا القُرآن هو كلام اللَّه تعالى ، وأنَّ مَصْدَرَه سَمَاوِيٌّ لا أرْضِيٌّ، لذلك آمَنُوا جميعًا،وفاضت الدموعُ في عُيونهم مِمَّا عَرفوا من الحق.

والمُخلِصون في طلب الحق ، والصادقون في البحث عن الحقيقة ، يَبتعدون عن الأهواءِ الذاتية ، والمصالحِ الشخصية ، ولا يَلْجَؤُون إلى التحايلِ والمكرِ والخِداعِ والمُراوغةِ،ولا يَتَهَرَّبون مِنَ الاستحقاقاتِ المصيرية . وإذا ظَهَرَ الحَقُّ أمامَهم ، فإنَّهم يَخْضَعُون له . وإذا أُقِيمَتْ عليهم الحُجَّة ، فإنَّهم يُسَلِّمُون بها ، ولا يَخْترعون تبريرات واهية أوْ أعذارًا كاذبة للهُروب مِنَ المَوْقِف .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٨٥) : ((لَمْ يُرِدْ به جميع النصارى ، لأنهم في عداوتهم للمُسلمين كاليهود ، في قَتْلِهم المُسلمين ، وأسْرِهم ، وتَخريبِ بلادهم ، وَهَدْمِ مَساجدِهم ، وإحراقِ مَصاحفِهم، لا ولاء ولا كرامة لهم ، بَل الآية فِيمَنْ أسْلَمَ مِنهُم مِثْل النَّجَاشِيِّ وأصحابِه)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٤٠٨) : ((فأمَّا ﴿ الذينَ قالوا إنَّا نصارى ﴾ فهل هذا عام في كُلِّ النَّصَارى أَمْ خاص ؟ . فيه قولان : أحدهما أنه خاص ثم فيه قَولان : أحدهما أنه أرادَ النَّجَاشِيَّ وأصحابَه لمَّا أسلموا ، قاله ابن عباس وابن جُبَير . والثاني أنهم قوم من النصارى كانوا متمسكين بشريعة عِيسى ، فلمَّا جاء مُحَمَّدٌ عليه السلام أسلموا ، قاله قَتَادة. والقول الثاني أنَّه عام ، قال الزَّجَّاج: يَجُوز أن يُراد به النَّصَارى ، لأنَّهم كانوا أقلَّ مُظَاهَرَة للمُشركين مِن اليهود . قَوْلُه تعالى : ﴿ ذلك بأنَّ مِنهُم قِسِّيسِينَ ﴾ . قال الزَّجَّاج : القَسُّ والقِسِّيسُ مِن رُؤساء النَّصَارى. وقال قُطْرُب : القِسِّيسُ : العَالِمُ ، بِلُغَةِ الرُّوم ، فأمَّا الرُّهبان فهُم العُبَّاد أرباب الصوامع . قال ابن فارس : التَّرَهُّب : التَّعَبُّد . فإنْ قيل : كيف مَدَحَهم بأنَّ مِنهُم قِسِّيسين ورُهبانًا ، وليس ذلك مِنْ أمْرِ شريعتنا ؟ . فالجواب أنَّه مَدَحَهم بالتَّمَسُّكِ بِدِينِ عِيسى حِينَ استعملوا في أمْرِ مُحَمَّدٍ مَا أُخِذَ عليهم في كِتابهم.وقد كانت الرَّهْبَانِيَّة مُسْتَحْسَنَة في دِينِهم.والمعنى بأنَّ فيهم عُلماء بما أوصى به عِيسى مِنْ أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ . قال القاضي أبو يَعْلَى : ورُبَّما ظَنَّ جاهل أنَّ في هذه الآية مَدْحَ النَّصَارى ، وَلَيْسَ كذلك ، لأنَّه إنَّما مَدَحَ مَنْ آمَنَ مِنهُم . ويدلُّ عَلَيْه مَا بَعْد ذلك ، ولا شَكَّ أنَّ مَقَالة النَّصَارى أقبح مِنْ مَقَالةِ اليهود)) .

إنَّ اليَهُودَ مُعَانِدُون ، ومُتكبِّرون على الحَق ، وأصحابُ قلوب قاسية . ومَنْ يَستعرض تاريخَ اليهود يَجِده مُمتلئًا بالطُّغاة والحُكام الظالمين الفاسدين ، وعُلماء السُّوء المُرْتَزِقَة ، الذين دَمَّرُوا كِيَانَ الإنسانِ اليهوديِّ ، وحَوَّلُوه إلى مَسْخ ، بلا عقيدة ولا قِيَم ولا أخلاق ، بِحَيْث صارَ شَخْصًا وَضِيعًا ذَلِيلًا ، دِينُه المال ، وَعَقِيدَتُه جَمْعُ حُطَامِ الدُّنيا الفاني .

٢ــ نِسْيَانُهُم المِيثَاق وَإِغْرَاءُ العَدَاوَةِ بَيْنَهُم

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ الذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُون ﴾ [المائدة: ١٤] [١٣٠] .

---

١٣٠ استدلَّ بعضُ العُلَماء بِقَوْلِه تعالى: ﴿ فأغرَينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ على عدم قَبول شَهادة مِلَّة على مِلَّة ، وتُقْبَل بعض المِلَّة على بعضها ، وهو قَول الحسن وابن أبي ليلى والليث وإسحاق . وقال الحافظ في الفتح (٥ / ٢٩٢) بعد أن أورد هذه المسألة : ((وهذا أعدل الأقوال لِبُعْدِه عن التُّهمة)) .

وَمِنَ الذينَ ادَّعَوْا أنَّهُم أنصارُ اللَّهِ ، وَسَمَّوْا أنفُسَهم بذلك ، أَخَذْنَا مِنهُم المِيثاقَ عَلى تَوْحِيدِ اللَّهِ والإيمانِ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ، فَتَرَكُوا مَا أُمِرُوا بِه في الإنجيلِ مِنَ الإيمانِ بالأنبياءِ ، وَنَقَضُوا المِيثَاقَ ، فَأَلْزَمْنَا وأَلْصَقْنَا بَين فِرَقِ النَّصَارى العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى قِيَامِ السَّاعَةِ . وَلا يَزَالُون مُتَبَاغِضِين مُتَعَادِين ، يُكَفِّر بَعْضُهم بَعْضًا ، وَيَلْعَن بَعْضُهم بَعْضًا ، وكُلُّ فِرْقَةٍ تَمْنَع الأُخْرَى دُخُولَ مَعْبَدِهَا ، وهكذا نَجِد الأُمَمَ الغربية _ وَهُمْ أبناء دِينٍ واحد _ يَتَفَنَّن بَعْضُهم في إهلاكِ بَعْض ، فَمِنْ مُخْتَرِعٍ للقُنبلة الذَّرِّيّة إلى مُخْتَرِعٍ للقُنبلة الهَيْدروجينية، وَهِيَ مَوَاد مُدَمِّرَة لا يُمْكِن أن يَتَصَوَّر العَقْلُ مَا تُحْدِثُه مِنْ تَلَفٍ بالغٍ وهَلاكٍ شاملٍ ، ﴿ إنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أن يُعَذِّبَهُم بِهَا في الدُّنيا وَتَزْهَقَ أنفُسُهُم وَهُمْ كافرون ﴾ [التَّوْبَة : ٨٥]. ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُون ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُم ، أي : سَيَلْقَوْنَ جَزَاءَ عَمَلِهِم القَبيح .

هؤلاء الذين سَمَّوْا أنفُسَهم بالنَّصَارى (يَعْني أنصارَ اللَّهِ السائرين على خُطى المسيح ﷺ) _ وهُمْ عَكْس ذلك_ نَقَضُوا العَهْدَ الإلهيَّ ، وفرَّطوا في تعاليم الإنجيل ، فَلَمْ يَمْتثلوا أوامرَ اللَّهِ ، فَتَرَكُوا الطاعاتِ ، والتزموا المعاصي ، فَقَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَ اليهود في رَفْضِ اتِّبَاعِ النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَحَمْلِ الشَّريعةِ الإلهيَّة . وهذا الانحرافُ عن الصِّراط المُستقيم عادَ عليهم بالضَّياع والضَّلال .

ادَّعَوْا أنَّهُم أحبابُ اللَّهِ ، وَزَعَمُوا أنَّهُم أنصارُ اللَّهِ ، وَسَمَّوْا أنفُسَهم بذلك ، لإظهار أنهم أولياء اللَّه الذين حَمَلُوا الشَّريعةَ الإلهيَّة حَقًّا وَصِدْقًا . وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْهُم المِيثاقَ (العَهْدَ) على تَوحيدِ اللَّهِ ، وَتَصْدِيقِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، والاعترافِ برسالته ونُبُوَّتِه ، فَتَرَكُوا أوامرَ اللَّهِ في الإنجيل ، وأعْرَضُوا عَنْهَا ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بالأنبياء . وهذه خِيانة واضحة للإنجيل ، ورفض لشريعة المسيح وتعاليمه . وَنَقَضُوا المِيثاقَ ، وخانوا العَهْدَ ، وأخْلَفُوا الوَعْدَ . لَقَدْ زَعَمُوا أنَّهُم نَصَارى يُحِبُّون المَسِيحَ ، ويَسيرون على خُطاه ، ويَتَمَسَّكون بِمَنهجِه وشريعته،وهُمْ كاذبون في ذلك.وقَدْ أَخَذَ اللَّهُ عليهم المِيثاقَ والعَهْدَ على الإيمان بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ودَعْمِه ومُساندته ومُناصرته، وعلى الإيمان بجميع الأنبياء بلا تمييز ، فَتَرَكُوا أمْرَ اللَّهِ ، وساروا على خُطى اليهود في رَفْضِ المِيثاقِ وَنَقْضِ العَهْدِ .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤ / ٤٩٩) : ((يَقُول عَزَّ ذِكْرُه: وَأَخَذْنَا مِنَ النَّصَارى المِيثاقَ على طاعتي ، وأداءِ فرائضي ، واتِّبَاعِ رُسُلي ، والتَّصديقِ بِهِم ، فَسَلَكُوا في مِيثاقي الذي أَخَذْتُهُ عَلَيْهِم مِنهاجَ الأُمَّةِ الضَّالة مِنَ اليهود ، فَبَدَّلوا كذلك دِينَهم وَنَقَضُوه نَقْضَهم ، وَتَركوا حَظَّهم مِن مِيثاقي الذي أَخَذْتُهُ عليهم بالوفاء بِعَهْدي وَضَيَّعوا أمْرِي)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (٦ / ١١٤) : ((قَوْلُه تعالى:﴿ ومِن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقَهم ﴾ أي: في التَّوحيدِ والإيمانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إذْ هو مكتوب في الإنجيل . ﴿ فنسوا حَظًّا ﴾ وهو الإيمانُ بِمُحَمَّدٍ _ عليه الصلاة والسلام _ . أي : لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا أُمِرُوا بِه ، وَجَعَلُوا ذلك الهوى والتحريف سببًا للكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ)) .

وقد عاقبهم اللَّهُ بسبب عدم وفائهم بعهده وتَركهم أمْرَه ونَهْيَه ، بأن جَعل الحِقدَ والكراهيةَ والعداوةَ بين فِرَق النَّصَارى وطوائفها ، وكُلُّ فِرْقَة تُكفِّر الفِرْقَةَ الأُخْرَى ، وكُلُّ طائفة تَلْعَن الطائفةَ الأُخْرَى . وإنَّ الواقع يُصَدِّق هذا ، فالأُمَمُ النَّصْرَانِيَّة (المسيحية) تنتمي إلى دِين واحد ، لكنَّها حاربتْ بَعْضَها بعضًا ، والشُّعوبُ المسيحية غَرِقَتْ في الحُروبِ المُتبادَلةِ والقَتْلِ وسَفْكِ الدِّماء .

وأيضًا ، لقد نَشَرَ اللَّهُ بين طوائف النصارى البَغضاءَ بالأهواءِ المُختلفة والجِدَالِ في الدِّينِ ، والتَّفَرُّقِ ، والتَّحَزُّبِ ، وتَعَارُضِ المصالح . وَلَوْ تَمَسَّكَ النَّصَارى بالإنجيل الأصليِّ الذي نَزَلَ على المسيح ﷺ،لآمَنُوا بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ والقُرْآنِ الذي جاء به،ولَمَا تَفَرَّقوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَقَاتَلُوا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥) : ((أي : وَمِنَ الذينَ ادَّعَوْا لأنفُسِهِم أنَّهُم نَصَارى مُتابِعون المسيح بن مريم _ عليه السلام _ ولَيسوا كذلك ، أخَذْنا عليهم العُهودَ والمواثيقَ على مُتابعة الرسول ﷺ ومُناصرته ومُؤازرته واقتفاءِ آثارِه ، وعلى الإيمان بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرسله اللَّهُ إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود : خَالَفُوا المَواثيقَ ، ونَقَضُوا العُهودَ . ولهذا قال تعالى: ﴿ فنسوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّروا به فأغرَينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ . أي : فَأَلْقَيْنا بَيْنَهم العَداوةَ والبَغضاءَ لبعضهم بعضًا ، ولا يزالون كذلك إلى قِيام الساعة ، وكذلك طَوائف النَّصَارى على اختلاف أجناسهم ، لا يَزالون مُتباغِضِين مُتعادين ، يُكفِّر بعضُهم بعضًا ، ويَلْعَن بعضُهم بعضًا ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تَحرِم الأُخْرَى ولا تَدَعُها تَلِجُ مَعْبَدَها ، فالمَلْكِيَّةُ تُكفِّر اليَعقوبيَّة ، وكذلك الآخَرُون ، وكذلك النُّسْطُوريَّة والآريوسيَّة ، كُلُّ طائفة تُكفِّر الأُخْرَى في هذه الدُّنيا ، ويَوْمَ يَقُوم الأشهادُ)) .

إنَّ النَّصَارى يَزْعُمُون أنَّهم سائرون على خُطى السَّيد المسيح ﷺ ، لكنَّهم غارقون في الوَهْم والادِّعاء بدون تطبيق فِعْلي على أرض الواقع ، فَاتِّبَاعُهُم المزعوم مَحصور في زاوية الكلام والشِّعاراتِ الرَّنانة ، والعِباراتِ الجميلة،والخِطَابَاتِ المُؤثِّرة ، ولكنَّ كلامَهم لا يَتجاوز حناجرَهم .

وبالتأكيد ، إنَّ الكلام سَهْل ، والجميعُ يُتْقِنه ، لكنَّ العِبْرَة بالتطبيق على أرض الواقع ، والامتثالِ الحقيقيِّ قَوْلًا وفِعْلًا ، مَعْنًى وَمَبْنًى ، وَلَيْسَ رَفْع الشِّعَارات الصُّوَرِيَّة . وَلَوْ كانَ النَّصَارى صادقين في اتِّبَاعهم للمسيح ﷺ لالتزَموا بالعُهود ، وقاموا بتنفيذها على أكمل وجه، لكنَّهم فَعَلُوا

عَكْسَ ذلك،وَاقْتَدَوْا باليَهُودِ الذين خَانُوا العُهودَ،ورَفَضُوا المَواثيقَ ، وأخلَفوا الوُعُودَ ، ولا يَعْرِفُون احترامَ العُهودِ والمَواثيقِ ، وهذه عادتهم المَشهورة في كُلِّ زَمانٍ ومكان .

وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (٣/ ٤٢):((عَنْ قَتَادة في قَوْلِه :﴿ ومن الذين قالوا إنَّا نصارى ﴾ قال : كانوا بقرية يقال لها ناصرة ، نَزَلَهَا عِيسى ، وهو اسْمٌ تَسَمَّوْا بِه ، وَلَمْ يُؤْمَرُوا به)) .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ : مِنَ النَّصَارى . وهذا يدلُّ على أنهم ابتدعوا هذا الاسم " النصارى " وأطلقوه على أنفُسِهم ، وتَسَمَّوْا بِه ، ادِّعاءً لِنُصرةِ اللَّهِ ، والدفاعِ عن شريعته . وكلمةُ "النصارى" إنَّما هي بتسميتهم لا بتسمية اللَّهِ.واللَّهُ لَمْ يُسَمِّهم بهذا الاسم،وإنَّما سَمَّوْا أنفُسَهم به.

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٣١٥) : ((قَوْلُه تَعَالى : ﴿ ومِن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقَهم ﴾ . قال الحسن: إنَّما قال: ﴿ قالوا إنَّا نصارى ﴾ ، ولَمْ يَقُلْ: مِنَ النَّصَارى ، لِيَدُلَّ على أنَّهُم لَيْسُوا على مِنهاج النصارى حقيقةً ، وهُمُ الذين اتَّبَعُوا المَسِيحَ . وقال قَتَادَة : كانوا بِقَرْيَة يُقَال لها : ناصرة ، فَسُمُّوا بهذا الاسم . قال مُقاتِل : أُخِذَ عَلَيْهِم المِيثاق كما أُخِذَ على أهْلِ التَّوراةِ أن يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ، فَتَرَكُوا مَا أُمِرُوا به . ... . ومَعْنى : ﴿ فأغرَينا بينهم العداوةَ والبغضاء ﴾ أنَّهُم صَاروا فِرَقًا يُكفِّر بَعْضُهم بَعْضًا . وفي الهاء والمِيم مِن قَوْلِه : ﴿ بينهم ﴾ قَولان : أحدهما أنَّها ترجع إلى اليهود والنصارى ، قاله مُجَاهِد وقَتَادة والسُّدي . والثاني : أنَّها تَرْجِع إلى النَّصَارى خَاصَّةً ، قاله الربيع . وقال الزَّجَّاج : هُمُ النَّصَارى مِنهُم النُّسْطُورِيَّة واليَعْقُوبِيَّة والمَلْكِيَّة ، وكُلُّ فِرْقَة مِنهُم تُعَادي الأُخْرَى . وفي تمام الآية وعيدٌ شديد لهم)) .

هذا دليل على أنهم اخترعوا لفظةَ " النصارى " في محاولة منهم للالتصاق بالسَّيد المسيح ﷺ ومُساندته ونَصْرِ الشريعة الإلهيَّة . وفي الحقيقة ، إنهم جُزء شاذ عن المسار الحضاري ، يخترعون التسمياتِ والأحكامَ الخاصة بهم، ويسيرون وَفْقَ أهوائهم الذاتية بلا إرشاد سماويٍّ .

واللَّهُ لَمْ يُسَمِّهم " النصارى" ، بل هم الذين سَمَّوْا أنفسَهم بذلك ، لخداع الرأي العام ، وتلميع صورتهم ، وجَعْل الناس يَتقبَّلونها . فَهُمْ يَرْتَدون قِناعَ الإيمان والطهارة ، لكن قلوبهم مليئة بالكُفْرِ والضلال . لذلك ، إنَّ إيمانَهم الشَّكْلِيَّ عِبارة عن مَظْهَر مُخَادِع بِلا جَوْهَرٍ نَقِيٍّ حقيقيٍّ .

وقَدْ عُوقبوا بأنْ ضُرِبَتْ قُلوبُهم فانتشرت العَداوةُ والبَغضاءُ بَين فِرَقِ النَّصَارى ، حَيْث تُكفِّر كُلُّ طائفة الأُخْرَى وتُعَاديها وتُعْلِن الحَرْبَ عليها . وانتشرَ بَينهم الجِدالُ في الدِّينِ والخُصُوماتُ والأهواءُ المُتضاربة . وكُلُّ فِرْقَة تَعتقد أنَّها على الحَق ، وأنَّ غَيْرَها على الباطل . وهذا أدَّى إلى نُشوء صِراع عنيف على احتكار النَّصْرَانِيَّة ، واندلاعِ حُروبٍ دَمَوِيَّة طاحنة ، لتحديد الفِرقة التي

تُمثِّل تعاليمَ المسيح ﷺ _ حَسَب اعتقادهم وتَصَوُّرهم _ . وهذه العداوة مستمرة حتى الآن . فالنِّزَاعاتُ قائمة بضراوة وشراسة بَين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس . وكُلُّ طائفة تَزْعُم أنها على الحق ، وأن طريقها هو الصِّرَاط المستقيم ، وغَيْرَها على الباطلِ والضَّلالِ ، وهذا أدَّى إلى تَفَرُّقِهم وَتَفَشِّي الكراهية بينهم ، وانقسامِهم الشديد ، فالشَّمَالُ الأوروبي بروتستانتي ، والجُنوب كاثوليكي ، وبريطانيا تتبع المذهب الأنكليكاني (الخليط) . وقد انتشرت الحُروب الدِّينية المَذهبية الطاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت التي أكلتْ أوروبا ، ودَمَّرَتْهَا ، وَقَتَلَت البَشَرَ ، وَحَطَّمَت الحَجَرَ ، خِلال الفترة (١٥٤٥ م _ ١٦٤٨ م) ، وذهب ضحيتها ملايين الأشخاص .

ويَصْدُق فيهم قَوْل الشاعر :

وكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا لِلَيْلَى وَلَيْلَى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكا

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ كِبار عُلماء أوروبا فَشِلُوا في مَعرفة متى كُتبت الأناجيل أو بأيَّة لُغة أُلِّفَتْ ، أوْ مَعرفة هُوِيَّة كُتَّابها الحَقِيقيين ، والأناجيلُ مَقطوعة السَّنَد بالاتفاق ، وَاتَّهَمَ بعضُهم بُولُسَ بوضع أكثرها ، كما جاء في دائرة المعارف الفرنسية وغيرها .

ويقول المفكر والباحث إيفار لستر : ((إنَّ الأناجيل كُتِبَتْ باللغة الإغريقية في القَرْنَيْن الرابع والخامس)) [١٣١] .

ويقول الباحث الفرنسي المتخصص في تاريخ النصرانية شارل جنيبر في كتابه / المسيحية نشأتها وتطورها (ص ٣٤) : ((إنَّ أغلب فِقرات الإنجيل إنَّما صَدَرَتْ عن الذين كتبوا الإنجيلَ وَلَيْسَ عَن عِيسى ، وأمَّا الفِقرات التي نُرجِّح أنَّ عِيسى هو الذي قالها فلا تزيد على أربع أو خمس فِقرات)) .

ويقول عالم الأنساق الإنجيلية بولتمان : ((لا يمكن أن نُثبت صِحَّة أي كلمة من كلام المسيح ، وكُلُّ مَا يُمْكِن أن نقوله عن حياة يَسُوع وشخصيته هو أن لا نقول شيئًا)) [١٣٢] .

وينبغي الإشارة إلى توصيات المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان الذين انعقدَ في روما خلال الفترة (١٩٦٢_ ١٩٦٥) للبحث في مشكلة تعارُض الكِتاب المُقدَّس مع الاكتشافات العِلْمية

---

١٣١ العودة إلى النَّصْرانية ، د. يُوسُف شويحات ، ص ٥ .

١٣٢ تاريخ الفكر المسيحي (١ / ١٦)، الدكتور القَس حنَّا جُرْجُس الخضري .

الحديثة، وحضره ٢٣٥٠ شخصًا كُلُّهُم مِن رجال الدِّين النَّصَارى . فقد ورد في مقررات المؤتمر ما يلي: إنَّ الكِتاب المُقدَّس فيه شوائب وشَيْء مِنَ البُطلان. وقد وافقَ على هذا النَّص ٢٣٤٤ واعترض سِتَّة فقط [١٣٣] .

ولا شَكَّ أن الاعتراف بتحريف الكتاب المُقدَّس يعني اعترافًا بتحريف التوراة والإنجيل معًا . وهناك كثير من العلماء الذين شَكَّكوا في تاريخ كتابة الأناجيل ، وهم في ذلك مُحِقُّون . فالأناجيل تاريخُ كتابتها غامضٌ ، حتى على علماء اللاهوت ورجال الدين المُتبحِّرين في دراسة الأسفار الدِّينية والكُتب القديمة [١٣٤] .

إنَّ التقاليد الكَنَسِيَّة المُحاطة بالكَهَنُوت الفَوْضَوي الغامض والهُلاميةِ المُستترة والأسرار الخفية، قادت إلى انعدام الشفافية ، وغياب الوضوح ، وانهيار المنهج العِلمي في مسيرة كتابة النصوص الإنجيلية ، خصوصًا مع سيطرة رجال الدِّين على منهجية تأويل الميثولوجيا الدينية،وقيامهم باحتكار سُلطة التأويل الأيديولوجي لأساطير الإنجيل وخُرافاته ، بكل إفرازاتها السياسية والاجتماعية ، التي كرَّست الطبقيةَ وانقسامَ المجتمع إلى طوائف متناحرة، وانفصال الدِّين عن الدنيا، وابتعاد الكنيسة العائشة في الأحلام عن الواقع المرير .

وفي ظِلِّ هذا الانكسار الشامل المُتَشَظِّي ، لَيْسَ غريبًا أن تُصبح الكنيسة مؤسسة إقطاعية ، وشركة تجارية ، تستغل العَوَامَّ والأتباع والجُهَّال ، وتسرق ممتلكاتهم ، وتنهب أحلامَهم ، وتُهيمن على أفكارهم وتفاصيل حياتهم . وللأسف الشديد ، لقد كرَّس الإنجيلُ البشري المُحرَّف مبدأ " أكل الدُّنيا بالدِّين " . وصارَ هذا المبدأ هو شعار رجال الدين النصارى في مُختلف الأزمنة والأمكنة . وقد اعتنقوه فِكْرًا وتنظيرًا وواقعًا وسُلوكًا ومُمَارَسَةً .

ومِن مصلحة رِجال الدِّين النصارى أن يُحاط الإنجيل والكنيسة بالأسرار والكَهَنُوت الخَفِيِّ. فهذا يضمن السيطرة على الأتباع ، والتلاعب بالنصوص الدينية حَسَب مصلحة عِلْية القوم ، مِمَّا يؤدي إلى تثبيت سُلطة المؤسسة الكنسية على المؤمنين بها ، واستغلالهم روحيًّا وماديًّا .

---

١٣٣ دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٦٠ ، موريس بوكاي .

١٣٤ إنَّ ضُغوطات الكنيسة وسيطرتها على الموارد المالية ، جَعلتْ من رجال الدين أسرى في قيود الراتب الشهري ، والمأكل والملبس ، وتفاصيلِ الحياة الاستهلاكية اليومية ، مِمَّا أدَّى إلى تكاثر القيود حول حرية التفكير المنهجي في نقد الإنجيل البشريِّ ، وبيانِ الطبيعة الخُرافية الْمُسيَّسة للنصوص الدينية النصرانية .

إنَّ تَحَرُّكَ النَّصِّ الإنجيليِّ بِكُلِّ امتداداته الكَنَسِيَّة والكَهَنُوتية تحت جُنْحِ الظلام ، من شأنه تكوين سياج حماية لسُلطة رِجال الدين ، فهم سيكونون بعيدين عن سهام النقد والنقض ، وسيكون من الصعوبة اكتشاف باطلهم . فالذي يتحرك في الخفاء بصمت أقدر على إنجاز عمله . وهذا هو منطق رجال السُّلطة الكنسية . وعوالمُ الأسرار التي تَمَّ زَرْعُها في الدِّيانة النَّصرانية (المسيحية) بكل فروعها الاجتماعية لم تَجِئْ بمحض الصُّدفة، أو حُسن النِّية . وإنما هي خُطة مُبيَّتة مُسْبَقًا للتلاعب بالأتباع والعوام والجُهَّال وإبعادهم عن نور الحقيقة ، كَي يظلُّوا غارقين في الظلام ، وخاضعين لابتزاز رجال الدِّين الذي يحتكرون شرعية تأويل النص الإنجيلي والتعامل معه .

ولا يخفى أن رؤية الشيء على حقيقته تتطلب أمرَيْن : الأول _ أن يكون الشخص مُبْصِرًا يتمتَّع بنور عينيه ، والثاني _ أن يكون الشيء موجودًا في النُّور .

وهذان الشرطان_ للأسف_ تَمَّ تغييبهما عمدًا في العالَم النصراني (المسيحي) ، وهذا زَرَعَ الحَيرة والقلق والفوضى والشك في نفوس الناس ، وجَعَلَهم يَنفِرون من الكنيسة ، فصار الإلحادُ دِينًا مُعترفًا به في أوروبا وأمريكا ، ولا يستدعي الخجل أو اللوم . وهذه هي النتيجة الحتمية لغياب الرؤية ، وانتحارِ البصيرة في الطبيعة الإنجيلية الكنسية. والسُّلطة الكنسية النصرانية عاجزة عن تقديم نموذج يُحتذَى ، وغير قادرة على تكوين مَثَل أعلى أو قُدوة سامية . لذلك ، تغرق الكنيسةُ في الفضائح الجنسية والمالية ، التي تَطفو على السَّطح بين الحِين والآخر . بالإضافة إلى انتشار الشُّكوك والفَوْضَى العَقَائدية ، وتَفَشِّي المشكلات في طبيعة التفكير والسُّلوك على أرض الواقع .

وقد توالت الردود من داخل العالم النصراني (المسيحي) وخارجه لتُبيِّن الأخطاءَ الفادحة والإشكاليات الكثيرة في الأناجيل المتناقضة ، والمشكلات الجذرية في النصوص الدينية التي تَهْدِم نَفْسَها بِنَفْسِها ، وتتعارض مع الحق والمَنطِق والعِلْم .

إن مُؤرِّخي النصرانية (المسيحية) أجمعوا على أنه كان في القرون الأولى للمسيح عليه السلام أناجيل كثيرة ، وأن رجال الكنيسة قد اختاروا منها أربعة أناجيل ، ورفضوا الباقي . والمقبولة هي : إنجيل مَتَّى ، وإنجيل مَرْقُس ، وإنجيل لُوقَا ، وإنجيل يُوحَنَّا . وإن هذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة النبيِّ عيسى عليه السلام ، وقرَّر نُقَّادُ النصارى أَنْفُسُهُم أن عقائد الأناجيل هي رأي بُولُس ، دون سائر الحواريين ، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى [١٣٥] .

---

١٣٥ العقائد الإسلامية، السيد سابق ، ص ١٦٨ .

إنَّ الكثيرين من علماء اللاهوت والمفكرين رفضوا النصرانية (المسيحية) ، وطعنوا فيها ، لتعارضها مع العقل والعِلْم ، واعتنقوا الإسلامَ بعدما تَبَيَّنَ لهم الحق الدامغ والنُّور الساطع [١٣٦].

وما يَلْفِتُ الانتباهَ ويُثير التَّعَجُّبَ حَقًّا هُوَ التقارب الغريب بين النصارى واليهود، وعلى أعلى المستويات ، رَغْمَ كُلِّ التناقضات الصَّارخة بين الجانبَيْن ، والاختلاف العظيم في العقائد عند الفريقَيْن، والاتهامات المُتبادَلة ، وعدم وجود أيَّة خلفية مشتركة قد تدفع إلى التلاقي والمودة والعِشْق المُتبادَل . وهذا يشير إلى حجم الاختراقات في المؤسسة الدينية ، وتغلغلِ المصالح الشخصية في طبيعة النصوص الدينية ، مِمَّا أدى إلى تقارب مَصْلحي قائم على تسجيل المواقف ، واكتساب أماكن نفوذ أكبر ، والتلاعب بوُجهة الرأي العام من أجل تجذير سُلطة الكنيسة ، التي تحتكر أصولَ تأويل النصوص الدينية وفُروعَها .

والجديرُ بالذِّكْرِ أنَّ الفاتيكان قَدْ بَرَّأ اليهودَ الحاليين مِنْ دَمِ المسيح [١٣٧] .

---

١٣٦ عَثَرَ الراهبُ اللاتيني فرامينو على رسائل (الإبريانوس)، ويُذكَر فيه إنجيل بَرنابا ويُستشهَد به ، فدفعه حُبُّ الاستطلاع إلى البحث عن هذا الإنجيل ، وقد توصَّلَ إلى مُبتغاه حينما صار أحد المقرَّبين إلى البابا (سكتس الخامس) حيث وجده في مكتبة هذا البابا ، وقد كُتب بالإيطالية وعلى الورق الإيطالي المعروف بالآثار المائية التي فيه، والتي يمكن اتخاذها دليلًا صادقًا على تاريخ النسخة الإيطالية. فأخذ الراهب فرامينو هذا الإنجيل، وإذا فيه : ((وسيبقى هذا إلى أن يأتيَ مُحَمَّدٌ رسول اللَّه الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة اللَّه)) [انظر صفحة ٣١٨ من إنجيل بَرنابا ، الفصل العشرون بعد المئتين] . وأيضًا الدكتور الفرنسي الشهير موريس بوكاي الذي اعتنق الإسلامَ ، فقام بواحدة من أهم الدراسات التي بيَّنتْ خُلُوَّ القرآن الكريم من أي خطأ _ ونحن لا ننتظر شهادة براءة ذِمَّة من الآخرين ، فالقرآن الكريم محفوظ خالٍ من أي نقص أو خطأ ولا يحتاج إثباتًا _ ، ووضَّحت امتلاءَ التوراة والإنجيل بالأخطاء . [انظر كتابه (القُرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعِلْم)] .

١٣٧ المسلمون يؤمنون أن اليهود حاولوا قتل المسيح ﷺ ، ولكنَّ اللَّهَ أنقذه مِنْ أعدائه . بَيْدَ أنني في هذا الْمَقَام أعْرِضُ مَا في كُتب النَّصَارى . فقرار تبرئة الفاتيكان لليهود الحاليين يتعارض مع النَّصِّ الإنجيليِّ الذي يحكي عن اليهود قَوْلَهم : ((ليكن دمُه علينا وعلى أولادنا !)) [مَتَّى ٢٧ : ٢٥] . صحيحٌ أنَّ الابن لا يَتَحَمَّل مَسؤوليةَ أفعال أبيه ، لكنَّ الإشكالية تَكْمُن في خُضوع المؤسسة البابوية للابتزاز السياسي اليهوديِّ ، فلم يتم توضيح دَلالات النصوص الدينية المتعلقة باليهود ، خضوعًا للنفوذ اليهودي

كَمَا أن بابا الفاتيكان الراحل يُوحَنَّا بُولُس الثاني [١٣٨] اعتذرَ لليهود ! ، والمَفروضُ أن يَعتذر اليهودُ للمسيحيين ، ولَيْسَ العكس ! . مِمَّا يدلُّ بشكل قاطع على أنَّ الفاتيكان تَمَّ اختراقُه مِن

الذي يُسيطر على وسائل الإعلام. ومِن هُنا تبرز خطورة تداخلات المصالح السياسية في لغة النُّصوص الدينية. كما أن النَّص الإنجيلي السابق يؤَكِّد دعمَ اليهود الكلامي للجريمة ، وكما هو معلوم فإن تشجيع الجريمة بأي شكل يُعتبَر مساهمة في الجريمة ، والموافِقُ على الجريمةِ شَرِيكٌ فيها ، ولا ندري لماذا غاب هذا المنطق عن الفاتيكان ! .

١٣٨ اسمه الحقيقي كارلوس فويتيلا (١٩٢٠م _ ٢٠٠٥م) . وُلد في بولونيا. تربَّعَ على كُرسي البابوية منذ العام ١٩٧٨م حتى وفاته . اعتذر لليهود وللطوائف النصرانية الأُخْرى. رفض الاعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية ، مما يدلُّ على اعتقاده بأنها ليست جريمة ولا ذَنْبًا ! . والجديرُ بالذِّكر أن البابا يُوحَنَّا بُولُس الثاني كان مُنحرفًا أخلاقيًّا، إذ إنه كان على علاقة بامرأة مُتزوجة . وقد جاء في جريدة السبيل الأردنية (الاثنين ١٥ فبراير ٢٠١٦ م) الخبر التالي : [أظهرت رسائل يَتَضَمَّنها فيلم وثائقي تَبُثُّه هيئة "بي بي سي" الاثنين أن البابا يُوحَنَّا بُولُس الثاني أقام علاقة صداقة "قوية" مع امرأة متزوجة استمرَّت ثلاثين عامًا . وقال إدوارد ستورتن وهو صحافي مخضرم في "بي بي سي" أعدَّ الفيلم الوثائقي الذي يُعرَض في إطار برنامج " بانوراما " أن هذه الرسائل تُشكِّل "نافذة رائعة تُطِلُّ على الحياة الخاصة لأحد أشهر شخصيات التاريخ ". وقد وُجِدت أكثر من ٣٥٠ رسالة كتبها يُوحَنَّا بُولُس الثاني إلى آنا تيريزا تيميني‌يكا، الفيلسوفة الأميركية من أصل بولندي في مكتبة بولندا الوطنية . وكانت هذه الأخيرة تلقتها من تيميني‌يكا في العام ٢٠٠٨ . ومعَ أن الوثائقي لا يدَّعي أن البابا انتهك نذور العِفَّة مع آنا تيريزا تيميني‌يكا ، إلا أن لهجة بعض رسائله إليها ، تُشير إلى مشاعر قوية بينهما على ما قالت المحطة . وكتبَ البابا في إحدى الرسائل العائدة إلى العام ١٩٧٦ "عزيزتي تيريزا لقد تلقيتُ الرسائل الثلاث. تكتبين قائلة إنَّكِ مُمزَّقة ، لكني لم أجد جوابًا على هذه الكلمات ". واصفًا إيَّاها بأنها " هِبَة مِنَ اللَّهِ " . وأوضحَ ستورتن " أقول إنهما كانا أكثر من صديقين ، لكن أقل من عشيقين " ، مُشيرًا إلى عدم تضمُّن الرسائل أي دليل على أن يُوحَنَّا بُولُس الثاني أخلَّ بنذر العِفَّة . وأضافَ أن " الرسائل تُظهِر صراعًا لاحتواء ما كان بالتأكيد علاقة قوية جِدًّا " . وقال الأب بونييكي الذي أدارَ لسنوات في رُوما النسخة البولندية من صحيفة " أوسرفاتوري رومانو " قبل أن يُصبح رئيس تحرير المجلة الأسبوعية الكاثوليكية البولندية " تيغودنيك بوفزينيكني " لوكالة فرانس برس:" الكثير من النساء يَقَعْنَ في غرام كَهَنة ، وهذا يُخلِّف دائمًا مصاعب". =

اليهود ، وصِرْنا نشهد " لوبي صُهْيُوني" في المُؤسَّسة الكَنَسِيَّة العُليا على غِرَار اللوبي الصُّهيونيِّ الموجود في أمريكا . واللوبي : جماعات الضغط اليهودية ، ولها نفوذ قوي في المؤسسات الرسمية ومنظمات المجتمع المدني في أمريكا، وتهدف بشكل خاص إلى دعم الكِيان الصهيوني في فلسطين ، ولا أقول : " إسرائيل " ، لأن إسرائيل هو النَّبِيُّ يَعقوب ﷺ ، ولا يجوز أن نَنْسُبَ كِيانًا إرهابيًّا مُحْتَلًّا غَاصِبًا إلى نَبِيٍّ كريم . ومن الخطأ كذلك لفظة "إسرائيليات" الموجودة في تفاسير المسلمين ، لأنَّها مَنسوبة إلى نَبِيٍّ كريم . وجماعات الضغط هذه مُخْتَرِقَةٌ للحزبَيْن الجُمهوري والدِّيمقراطي من خلال التَّبرعات المالية الفلكية التي تُقَدِّمها ، والشخصيات الحِزبية القِيادية الخاضعة لها .

هذا الجَوُّ الرهيب من الغرائبية كان حافزًا على الكتابة والتمحيص والتدقيق . وينبغي القَوْل إنَّ كثيرًا مِن النَّصَارى غَيْر مُقتنعين بنصوص الإنجيل التي بين أيديهم ، وهُم يَعْلَمون ـ في قَرَارة أنفسهم ـ أنها غارقة في التحريف والتبديل والتغيير والتلاعب ، وأنها ضِد العقل والمَنطِق والعِلْم، ولكنَّ التَّعَصُّب الأعمى ، وتقليد الآباء ، والأهواء الذاتية ، والمصالح الشخصية ، والتَّمَسُّك بالمناصب والرئاسة والزَّعَامة ، والحِرْص على حُطام الدُّنيا الزائل ، يَحُول دُون الاعتراف والإعلان والبَوْح . والنَّصَارى ـ بشكل عام ـ يُلْقُون بالنُّصوص الإنجيليَّة وراء ظُهورهم متى عارضتْ مَصالحَهم ومَنافعَهم ومَكاسبَهم وأهدافَهم . إنهم مُحَاصَرُون بالضُّغوطات النَّفْسِيَّة والبيئية والاجتماعية والفكرية والرُّوحية والمادية مِنْ كُلِّ الجِهات ، لذلك يُحاولون جاهدين دَفْنَ صَوْتِ العقل ، وطَمْسَ الفِطْرة السليمة ، لِكَيْلا يَخسروا مُمْتلكاتهم ، ويَفْقِدُوا امتيازاتِهم ونُفُوذَهم ومصالحَهم ومُكتسباتِهم ومَناصبَهم .

٣ـ أقْوَالُهُمْ وَجُرْأتُهُمْ عَلى اللَّهِ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إنْ أرادَ أن يُهْلِكَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن في الأرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ١٧] .

= وأضافَ صاحب كتاب مُفصَّل عن حياة يُوحَنَّا بُولُس الثاني اليومية "إن كانت مُغرمة بالكاردينال فويتيلا ، فهي لم تكن الوحيدة على الأرجح " . وتعود الرسالة الأولى إلى العام ١٩٧٣ السنة التي شهدت أول لقاء بينهما ، والأخيرة إلى أشهر قليلة قبل وفاة البابا في العام ٢٠٠٥] .

ذَمَّ اللَّهُ النَّصْرَانِيَّةَ والنَّصَارى ، وكَشَفَ عقيدتهم الفاسدة ، وفَضَحَ كُفْرَهم وباطلَهم ، وسُخْفَ عُقُولِهم، فقد زَعَمُوا أنَّ اللَّهَ حَلَّ في ذَاتِ عِيسى ، وأنَّ عِيسَى إلَهٌ . والحَقُّ أنَّ عِيسى هو عبدُ اللَّهِ ورسولُه ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْقِه ، فكيف يصيرُ المخلوقُ إلَهًا ؟! .

وقِيل إنَّ اليَعْقُوبِيَّة (فِرْقَة من النصارى) هُم الذين قالوا هذه المقولة الكُفرية الشنيعة . وقِيل : لَمْ يَقُلْ أحدٌ مِنَ النصارى بذلك ، ولكنَّ عقيدتهم الباطلة تَستلزم ذلك ، لأنَّهم يَعتقدون أنَّ اللاهوت (الطبيعة الإلهيَّة) حَلَّ في الناسوت (الطبيعة البشرية) ، يعني أنَّ في عِيسى لاهُوتًا ، وأنَّ اللَّهَ حَلَّ فيه . ووَفْق كلامهم الفاسد ، فَإنَّ اللَّه هُوَ عِيسى المسيح ، لذلك نَسَبَ اللَّهُ إلَيهم لازمَ قَوْلِهم ، وبَيَّنَ جَهْلَهم ، وَفَضَحَ كُفْرَهم ، وأظهرَ للناسِ عقيدتهم الباطلة [١٣٩] .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٣١٧) : ((قال ابن عباس : هؤلاء نَصَارى أهل نَجْران ، وذلك أنَّهُم اتَّخذوه إلَهًا _ يَعْني عِيسى _)) .

قُلْ يَا مُحَمَّد لهؤلاء النَّصَارى الغارقين في كُفْرِهم وضَلالِهم تكذيبًا لهم : فَمَن يَستطيع أن يَمنع اللَّهَ إن أرادَ إهلاكَ عِيسى وأُمَّه والناسِ كُلِّهم ؟ . مَن يَقْدِر على إيقاف أمْرِ اللَّهِ إذا جاءَ بتعذيبِ عِيسى وأُمِّه والناسِ كُلِّهم ؟ . مَن يَمنع مِن قُدرة اللَّهِ ومشيئته شَيْئًا إن أراد إهلاكَ عِيسى وأُمَّه ومَنْ في الأرض جميعًا ؟ . لا أحد يَستطيع أن يَمنع اللَّهَ أو يُوقِف أمْرَه . وهذا يَعْني أنَّ اللَّهَ وَحْدَه هُوَ الإلهُ الحَقُّ ، وأنَّ عِيسى مَخلوقٌ فانٍ وعَبْدٌ مَقهور خاضع للَّهِ تعالى. والمَخلوقُ الفاني المَقهورُ لا يَكون إلَهًا . والاستفهامُ في الآية ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيئًا ﴾ للتوبيخ والتقريع .

وهذا دليلٌ واضح على بُطلان أُلوهِيَّةِ عِيسى المزعومة . وَلَوْ كان عِيسى إلَهًا لاستطاعَ تخليص نَفْسِه مِنَ المَوْتِ ، وَدَافَعَ عَنْ نَفْسِه وأُمِّهِ إذا جاءَ أمْرُ اللَّهِ بإهلاكهما . وتَمَّ تخصيص عِيسى وأُمِّه بالذِّكْرِ معَ أنَّهما داخلان في عُموم مَنْ في الأرض ، لأنَّ الدِّفاع عنهما أَوْلَى وأهَمُّ . وإذا عَجَزَ الإنسانُ عَنْ حِمايةِ نَفْسِه وأُمِّهِ والدفاعِ عَنهما ، فهو أعجز مِن أن يُدافع عن الناس .

---

١٣٩ قال أبو حَيَّان في البَحْرِ المحيط (٣/ ٤٤٨): ((ذَكَرَ سُبحانَه أنَّ مِنَ النَّصَارى مَنْ قال: إنَّ المسيحَ هُوَ اللَّهُ ، ومِنهُم مَنْ قال : هو ابن اللَّه ، ومنهم مَن قال : هو ثالث ثلاثة . وَمِنْ بَعْضِ اعتقاد النصارى استنبطَ مَنْ تَستَّرَ بالإسلامِ ظاهرًا وانتمى إلى الصُّوفية حُلول اللَّه في الصُّوَرِ الجميلة ، وَمَنْ ذَهَبَ مِنْ مَلاحدتهم إلى القَول بـ (الاتحاد والوَحْدة) كالحلاج والصَّفَّار وابن اللبَّاج وأمثالهم ، وإنما ذَكَرْتُهُم نُصْحًا لِدِين اللَّهِ ، وَقَدْ أُولِعَ جَهَلَة مَنْ ينتمي إلى التَّصَوُّفِ بتعظيم هؤلاء، وادِّعائهم أنهم صَفوة اللَّه وأولياؤه)) .

والآيةُ ﴿ وَمَن في الأرضِ جميعًا ﴾ تُشير إلى قُدرةِ اللَّهِ المُطْلَقَةِ ، وأنَّها عامَّة شاملة ، كُلُّ شَيْء خاضع لها ، وأنَّ إرادته سُبحانَه نافذة في كُلِّ شيء ، ولا مُعَارِض للَّهِ في أمْرِه ، ولا مُشارِك في قَضائِه . ولا رَاد لإرادةِ اللَّهِ وأمْرِه وحُكْمِه في عِيسى ، ولا في غَيْرِه . كَمَا تَدُلُّ الآية على أنَّ عِيسى وأُمَّه مِنْ جِنْسِ مَنْ في الأرض ، أي إنَّهما ينتميان إلى الناس ، ولا يَخْرُجان عن دائرة الإنْسِ ، فَهُمَا مخلوقان فانيان ، ولَيْسَا إلَهَيْن . وقد ماتت مريم ، ولَم يَستطع عِيسى أن يَحْمِيَها مِنَ المَوْتِ ، ولا أن يُدافِع عنها ، ولو كانَ إلَهًا لَمَنَعَ المَوْتَ مِنَ الوُصولِ إلى أُمِّه ! .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤ / ٥٠٤) : ((وقَوْلُه: ﴿ إنْ أرادَ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ وَمَن في الأرضِ جميعًا ﴾ ، يَقُول : مَنْ ذا الذي يَقْدِر أنْ يَرُدَّ مِنْ أمْرِ اللَّهِ شيئًا إنْ شاءَ أنْ يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مَرْيَم بإعدامه مِنَ الأرض ، وإعدامِ أُمِّه مَرْيَم ، وإعدامِ جميع مَنْ في الأرض مِنَ الخَلْقِ جميعًا ؟ . يَقُول جَلَّ ثَنَاؤُه لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ لهؤلاء الجَهَلَةِ مِنَ النَّصَارى : لَوْ كانَ المسيحُ كما تَزْعُمُون أنَّه هُوَ اللَّهُ ولَيْسَ كذلك ، لَقَدَرَ أن يَرُدَّ أمْرَ اللَّهِ إذا جاءه بإهلاكِه وإهلاكِ أُمِّه . وقد أهلكَ أُمَّهُ فَلَمْ يَقْدِرْ على دفع أمْرِه فيها إذْ نَزَلَ ذلك ، ففي ذلك لكم مُعْتَبَر إن اعتبرتُم، وحُجَّة عليكم إنْ عَقَلْتُم في أنَّ المسيح بشر كسائر بني آدم،وأنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هو الذي لا يُغْلَب، ولا يُقْهَر، ولا يُرَد له أمر ، بَلْ هُوَ الحَيُّ الدائمُ القَيُّومُ الذي يُحْيي ويُميت ويُنْشِئ ويُفْنِي ، وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوت . ... . يقول جَلَّ وَعَزَّ : كيف يكون إلَهًا يُعْبَد مَنْ كانَ عاجزًا عَن دَفْعِ مَا أرادَ بِهِ غَيْرُه مِنَ السُّوءِ ، وغَيْرَ قادرٍ عَلى صَرْفِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الهَلاكِ ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأفْوَاهِهِم يُضَاهِئونَ قَوْلَ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يؤفَكُون ﴾ [التَّوبة : ٣٠] .

زَعَمَ اليَهُودُ أنَّ عُزَيْرًا ابنُ اللَّهِ ، وتَبِعَهم النصارى وزعموا أن المسيح ابن اللَّه ، وأهلُ الكتاب ضَالُّون في أنفُسِهم ، مُضِلُّون لِغَيْرِهِم ، وهُمْ مُشركون . وكلامُهم كَذِبٌ واضح ، ونابعٌ مِنْ أهوائِهم ومَصالِحِهم ، بلا دليل نَقْلِيٍّ ولا حُجَّة عقلية . إنَّه مُجَرَّد كلام بالفَمِ ، لا يَقُوم على دليل ، ولا بَيَان فِيه ولا بُرْهَان . ومَعْنَاه خاطئ تمامًا . يُشابهون قَوْلَ الذين كَفروا مِن قَبْلهم مِنَ الأُمَمِ التي ضَلَّتْ كما ضَلَّ اليهودُ والنصارى . وهذا يدلُّ على أنَّ أهل الكتاب تابعون للأسلاف في الكُفْرِ والضَّلال. لَعَنَهُمُ اللَّهُ وأخزاهم . و﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ دُعاء عليهم بالهلاك ، ومَنْ قَاتَلَهُ اللَّهُ هَلَكَ لا مَحَالة. كَيْفَ يَضِلُّون عَن الحَقِّ وهو واضح ويَعْتنقون الباطلَ ؟ . كيفَ يُصْرَفون عن الحق بعد قِيام الأدلة الواضحة عليه ويَجْعلون للَّهِ وَلَدًا ؟ . وهذا تَعجيبٌ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٣/ ٤٢٥) : ((وفي الذين كفروا هاهُنا ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهُم عَبَدَةُ الأوثانِ ، والمعنى أنَّ أُولئك قالوا : الملائكة بنات اللَّه ، قاله ابن عباس . والثاني أنهم اليهود ، فالمعنى أن النصارى في قَوْلهم : ﴿ المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ، شَابَهُوا اليهود في قَولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ، قاله قَتادة والسُّدي . والثالث أنَّهُم أسلافُهم ، تَابَعُوهُم في أقوالهم تقليدًا ، قاله الزَّجَّاج وابن قُتَيبة)) .

ومَقولةُ اليهود خَرَجَتْ على العُموم ، ومعناه الخصوص ، لأنَّه لَمْ يَقُلْ ذلك إلا بعض اليهود . أمَّا النَّصَارى فَقَدْ زَعَمُوا أنَّ المسيحَ ابنُ اللَّهِ ، بسبب إحيائه للموتى ، وكَوْنِه بلا أبٍ . كما أنَّهُم حَمَلُوا العِبَارات الواردة في الإنجيل مِثل : " ابن اللَّه " ، أو " ابن الإنسان " على المعنى الماديِّ المَحسوسِ ، وَلَمْ يُدرِكوا أنَّ ذلك لِتَشريفِ المَسيحِ وتَعظيمِه ، وإبرازِ مكانته الجليلة . والإضافةُ للمِلْكِ والتَّشريفِ والتعظيم .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلَهًا وَاحِدًا لا إلَهَ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ [التَّوبة : ٣١] .

أطاعَ اليَهُودُ أحبارَهم ، وأطاعَ النَّصَارى رُهْبَانَهم ، في التَّحليلِ والتَّحريمِ ، وَتَرَكُوا أمْرَ اللَّهِ ، فكأنَّهم عَبَدُوهُم مِنْ دُون اللَّهِ ، والمعنى: أطاعوهم كما يُطَاع الرَّبُّ وإنْ كانوا لَمْ يَعْبُدُوهم . واتَّخَذَ النَّصَارى المسيحَ ابْنَ مَرْيَم رَبًّا مَعبودًا ، والحالُ أنَّ أُولئك الكَفَرَة مَا أُمِرُوا على لِسَانِ الأنبياءِ إلا بِعبادةِ إلَهٍ وَاحدٍ ، هُوَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين ، لا مَعبود بِحَقٍّ سِوَاه ، تَنَزَّهَ اللَّهُ عَمَّا يَقُول المُشركون وتَعَالى عُلُوًّا كبيرًا . وقال البَيْضاوي في تفسيره(١/ ١٤١) : ((﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾بأنْ أطاعوهم في تَحريمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ،وتَحليلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ،أوْ بالسُّجُودِ لَهُم﴿ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ بِأنْ جَعَلُوه ابْنًا للَّهِ ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أي : وَمَا أُمِرَ المُتَّخِذُون أو المُتَّخَذُون أربابًا ، فَيَكُون كالدليلِ على بُطلانِ الاتِّخاذِ ، ﴿ إلا لِيَعْبُدُوا ﴾ لِيُطِيعُوا ﴿ إلَهًا وَاحِدًا ﴾ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالى ، وأمَّا طاعةُ الرَّسُولِ وَسَائرِ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بطاعته فَهُوَ في الحقيقة طاعة للَّهِ ، ﴿ لا إلَهَ إلا هُوَ ﴾ صِفَة ثانية أو استئناف مُقَرِّر للتَّوحيدِ ، ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ ، تَنزيهٌ لَهُ عَنْ أن يَكُون لَهُ شَرِيك)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤٦١) : ((﴿ اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ عُلَمَاءَهُم وعُبَّادَهُم ﴿ أرْبَابًا ﴾ آلِهَةً ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ حَيْثُ أطاعوهم في تَحليلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَتَحريمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ﴿ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ اتَّخَذُوه رَبًّا ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ في التَّوراةِ والإنجيلِ ﴿ إلا لِيَعْبُدُوا إلَهًا وَاحِدًا لا إلَهَ إلا هُوَ ﴾ وَهُوَ الذي لا إلَهَ غَيْرُه ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَن شِركهم)).

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا باللَّهِ وَاشْهَدْ بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾ [آل عِمران : ٥٢] .

فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ عِيسَى ﷺ ورَأى مِنَ اليَهُودِ التَّصْمِيمَ عَلى الكُفْرِ، والاستمرارَ عَلى الضَّلال، والإصرارَ عَلى قَتْلِه ، قال : مَن أنصاري في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ؟ ، أوْ : مَن يَتْبَعُنِي إلى اللَّهِ ؟ ، قال الحَوَارِيُّون ، وهُمُ المُؤمِنُون الأصفياء مِن أتْبَاعِ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ: نَحْنُ أنصارُ دِينِ اللَّهِ ، صَدَّقْنَا باللَّهِ وبِمَا جِئْتَنَا بِهِ ، وَاشْهَدْ بأنَّا مُنقادون لرسالتك، مُخْلِصُون في نُصْرَتِك .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٨٦) : ((يَقُول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى ﴾ ، أي : استشعرَ مِنهُم التَّصميمَ عَلى الكُفْرِ والاستمرارَ عَلى الضَّلال ، ﴿ قَالَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، قال مُجَاهِد : أي : مَنْ يَتْبَعُني إلى اللَّهِ . وقال سُفيان الثَّوري وغَيْرُه : أي : مَنْ أنصاري معَ اللَّهِ ، وقَوْلُ مجاهد أقرب ، والظاهر أنَّه أرادَ : مَنْ أنصاري في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ ؟ . ... . عِيسَى بن مَرْيَم عليه السلام انتدبَ له طائفةً مِن بَني إسرائيل، فآمَنُوا بِهِ ، ووازروه ، ونَصَرُوه ، واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنزِلَ مَعَه . ... . الحَوَارِيُّون ، قِيل : كانوا قَصَّارين ، وقِيل : سُمُّوا بذلك لِبَيَاضِ ثِيَابِهِم ، وقِيل : صَيَّادِين ، والصحيحُ أنَّ الحَوَارِيَّ الناصر)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٥١٩) : ((قَوْلُه : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ ﴾ ، أي : عَلِمَ وَوَجَدَ، قاله الزَّجَّاج . وقال أبو عُبَيدة : مَعْنَى أحَسَّ : عَرَفَ . وأصلُ ذلك وُجود الشَّيْء بالحَاسَّة ، والإحساسُ : العِلْمُ بالشَّيْءِ ، ... ، والمُرادُ بالإحساسِ هُنا : الإدراك القوي الجاري مَجْرَى المُشَاهَدَة ، وبالكُفْرِ إصرارُهم عَلَيه . وقِيل : سَمِعَ مِنهُم كَلِمَةَ الكُفْرِ . وقال الفَرَّاء : أرادوا قَتْلَه ، وعلى هذا فَمَعْنَى الآية:فلمَّا أدركَ مِنهُم عِيسَى إرادةَ قَتْلِه التي هِيَ كُفْرٍ، قال:مَن أنصاري إلى اللَّهِ . الأنصارُ جَمْعُ نَصِير . وقَوْلُه : ﴿ إلى اللَّهِ ﴾ مُتَعَلِّق بِمَحذوف وَقَعَ حَالًا ، أي : مُتَوَجِّهًا إلى اللَّهِ ، ومُلْتَجِئًا إلَيْه ، أوْ ذاهبًا إلَيْه ، ... . والحَوَارِيُّون جَمْعُ حَوَارِيٍّ ، وَحَوَارِيُّ الرَّجُل : صَفْوَتُه وخُلاصَتُه ، وَهُوَ مَأخوذ مِنَ الحَوَرِ ، وَهُوَ البَيَاضُ عِند أهل اللغة . حَوَّرْتُ الثِّيَابَ : بَيَّضْتُهَا ، والحَوَارِيُّ مِنَ الطعام : مَا حُوِّرَ ، أي : بُيِّضَ ، والحَوَارِيُّ أيضًا الناصر . ... . وقد اخْتُلِفَ في سبب تَسْميتهم بذلك ، فَقِيل : لِبَيَاضِ ثِيابهم ، وقِيل : لِخُلُوصِ نِيَّاتِهِم ، وقِيل : لأنَّهُم خَاصَّة الأنبياء ، وكانوا اثنَي عَشَرَ رَجُلًا . ومعنى أنصار اللَّه : أنصار دِينِه ورُسُلِه . وقَوْلُه : ﴿ آمَنَّا باللَّهِ ﴾ ، استئناف جارٍ

مَجْرَى العِلَّةِ لِمَا قَبْلَه ، فإنَّ الإيمان يَبْعَث على النُّصْرَةِ . قَوْلُه : ﴿ وَاشْهَدْ بِأنَّا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : اشْهَدْ لَنَا يَوْمَ القِيَامَة بأنَّا مُخْلِصُون لإيماننا ، مُنقادون لِمَا تُريد مِنَّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي قالوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ [المائدة : ١١١] .

هذا مِنَ الإنعام الإلهيِّ على النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ والامتنان عليه .

واذكُرْ يا عِيسى حِينَ أمَرْتُ أصحابَكَ ، وألْهَمْتُهُم ، وقَذَفْتُ في قُلوبهم التَّصديقَ بي وبرسولي عِيسَى بن مريم . قال أصحابُ عيسى: صَدَّقْنَا يا رَبَّنَا بِمَا أمَرْتَنَا ، واشْهَدْ بأنَّنا مُخلِصون في التَّوحيد ، ومُلتزمون بالإيمان ، وخاضعون لأمرك .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٥٧) : ((قَوْلُه : ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي ﴾ ، وهذا أيضًا مِنَ الامتنانِ عَلَيه عليه السلام ، بأنْ جَعَلَ له أصحابًا وأنصارًا. ثُمَّ قِيل: إنَّ المُراد بهذا الوَحْي وَحْيُ إلهامٍ . ... . وهكذا قال بعضُ السَّلَفِ في هذه الآية : ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي قالوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ ، أي : أُلْهِمُوا ذلك ، فَامْتَثَلُوا مَا أُلْهِمُوا . قال الحَسَن البَصْرِي : ألْهَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذلك . وقال السُّدي : قَذَفَ في قُلُوبِهِم ذلك ، ويَحْتَمِل أن يَكُون المُراد : وإذْ أوْحَيْتُ إلَيْهِم بواسطتك فَدَعَوْتَهُم إلى الإيمان باللَّهِ وبرسوله، واستجابوا لَكَ ، وانقادوا ، وتابعوكَ ، فقالوا : ﴿ آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ١٣٣) : ((قَوْلُه : ﴿ وإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوَارِيِّينَ أن آمِنُوا بي وبرسولي ﴾ ، ... . والوَحْيُ في كلام العرب مَعْنَاه الإلهام ، أي: ألْهَمْتُ الحَوَارِيِّين ، وقَذَفْتُ في قُلُوبِهِم. وقِيل: مَعْنَاه : أمَرْتُهُم على ألسنةِ الرُّسُلِ أن يُؤْمِنُوا بِي بالتَّوحيدِ والإخلاصِ ويُؤْمِنُوا برسالة رَسُولي . قَوْلُه : ﴿ قالوا آمَنَّا ﴾ جُملة مُسْتَأنَفَة ، كأنَّه قِيل: ماذا قالوا ؟، فقال: قالوا آمَنَّا ﴿ واشْهَدْ بأنَّا مُسْلِمُون ﴾ أي: مُخْلِصُون للإيمان، أي: وَاشْهَدْ يَا رَب أوْ وَاشْهَدْ يَا عِيسَى)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/٤٥٥):((وفي الوَحْي الى الحَوَارِيِّين قَوْلان: أحدهما أنَّه بمعنى الإلهام، قاله الفَرَّاء. وقال السُّدي: قَذَفَ في قُلوبهم. والثاني أنَّه بِمَعنى الأمْرِ،فتقديره: أمَرْتُ الحَوَارِيِّين،و﴿ إلى ﴾ صِلَة، قاله أبو عُبَيدة.وفي قَوْلِه: ﴿ واشْهَدْ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّهُم يَعْنُون اللَّهَ تعالى ، والثاني عِيسَى عَلَيه السَّلام. وقَوله: ﴿ بأنَّنا مُسْلِمُون ﴾ أي: مُخْلِصُون للعِبَادَةِ والتَّوْحِيدِ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إذْ قالَ الحَوَارِيُّونَ يا عيسى ابنَ مريمَ هَل يَستطيعُ رَبُّكَ أن يُنَزِّلَ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ قال اتَّقُوا اللَّهَ إن كُنتم مؤمنين ﴾ [المائدة : ١١٢] .

سَألَ أصحابُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ : هَلْ يُنَزِّلُ اللَّهُ عَلَينا مائدةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْ لا ؟ . وهذا السُّؤال قائم على الاستخبار والتَّثبُّت ، ولا علاقة له بالشَّك في قُدرة اللَّهِ تعالى . والحَوَارِيُّون مُؤمنون مُخْلِصُون . وهُم وُزَرَاءُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ وأصحابُه وخَوَاصُّه ، وقَدْ نَهَاهُمْ عن اقتراحِ الآيات ، وطَلَبِ المُعْجِزَاتِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٥٨) : ((هذه قِصَّةُ المائدة ، وإلَيْهَا تُنْسَب السُّورة ، فَيُقَال : سُورة المائدة ، وَهِيَ مِمَّا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلى عَبْدِه ورَسُولِه عِيسَى لَمَّا أجابَ دُعَاءَه بِنُزولها ، فأنزلَ اللَّهُ آيةً باهرةً وحُجَّةً قاطعةً . وقَدْ ذَكَرَ بعضُ الأئمة أنَّ قِصَّتَهَا لَيْسَتْ مَذكورة في الإنجيل ، ولا يَعْرِفُها النَّصَارَى إلا مِنَ المُسْلِمِين ، فاللَّهُ أعْلَم)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٤٥٦) : ((قال ابنُ الأنباريِّ : ولا يَجُوز لأحَدٍ أن يَتَوَهَّمَ أن الحَوَارِيِّين شَكُّوا في قُدرة اللَّه ، وإنَّما هذا كما يَقُول الإنسانُ لصاحبه : هَلْ تستطيع أن تَقُومَ مَعي ؟ ، وَهُوَ يَعْلَم أنَّه مُستطيع ، ولكنَّه يُريد : هَلْ يَسْهُل عَلَيْكَ ؟ . وقال أبو عليٍّ : المَعْنَى هَلْ يَفْعَل ذلك بِمَسألتك إيَّاه ؟ . وَزَعَمَ بعضُهم أنَّهُم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم ، فَرَدَّ عَلَيْهِم عِيسَى بِقَوْلِه: اتَّقُوا اللَّهَ أن تَنْسُبُوه إلى عَجْز،والأوَّلُ أصَح.فأمَّا المائدة، فقال اللغويون: المائدةُ كُلُّ مَا كانَ عَلَيْهِ مِنَ الأخْوِنَة (جَمْع خِوَان) طَعَام، فإذا لَمْ يَكُنْ عَلَيه طَعَام فَلَيْسَ بِمَائدة. والكأسُ كُلُّ إناء فيه شراب، فإذا لَمْ يَكُن فيه شراب فَلَيْسَ بكأس، ذَكَرَه الزَّجَّاج. ... . قَوْلُه تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إن كُنتم مؤمنين ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها اتَّقُوه أن تَسْألُوه البَلاءَ ، لأنَّهَا إنْ نَزَلَتْ وكَذَّبْتُم عُذِّبْتُم ، قاله مُقَاتِل . والثاني أن تَسألوه مَا لَمْ تَسْألْهُ الأُمَمُ قَبْلَكم ، ذَكَرَه أبو عُبَيد . والثالث أن تَشُكُّوا في قُدرته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قالوا نُريدُ أن نأكُلَ مِنهَا وتطمئنَّ قلوبُنا ونَعْلَمَ أن قَد صَدَقْتَنا ونكونَ عَلَيها مِنَ الشَّاهدين ﴾ [المائدة : ١١٣] .

قال الحَوَارِيُّون (أصحابُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ): طَلَبْنَا نُزولَ المائدة لنأكل مِنها، وترتاح أنفُسُنا، وَتَسْكُن قُلُوبُنا ، ونزداد إيمانًا بِنُبُوَّتِكَ ورسالتك ، ونَشْهَد أنَّها الآيةُ الدَّالَّة على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، والمُعْجِزَةُ التي تُثْبِتُ صِدْقَكَ وصِحَّةَ نُبُوَّتِكَ .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير(٢/٤٥٧ و٤٥٨):((قَوله تعالى:﴿ قالوا نُريدُ أن نأكُلَ مِنهَا ﴾ هذا اعتذار منهم،بَيَّنُوا به سبب سؤالهم حِين نُهُوا عنه.وفي إرادتهم للأكل مِنها ثلاثة أقوال:أحدها أنهم أرادوا ذلك للحاجة وشِدَّة الجوع، قاله ابن عباس . والثاني ليزدادوا إيمانًا،ذَكَرَه ابن الأنباري .

والثالث للتَّبرُّك بها، ذَكَرَه المَاوَرْدِي. وفي قوله : ﴿ وتطمئنَّ قلوبُنا ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها تطمئن إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قد بَعَثَكَ إلَينا نَبِيًّا.والثاني إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قَد اختارنا أعوانًا لَك.والثالث إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قَدْ أجابك.وقال ابن عباس:قال لهم عِيسى:هَلْ لَكُم أن تَصُوموا للَّهِ ثلاثين يَوْمًا ثُمَّ لا تَسألونه شيئًا إلا أعطاكم؟،فصاموا ثُمَّ سألوا المائدة، فمعنى:﴿ ونَعْلَمَ أن قَد صَدَقْتَنا ﴾ في أنَّا إذا صُمْنا ثلاثين يومًا لَمْ نَسأل اللَّهَ شيئًا إلا أعطانا.وفي هذا العِلْمِ قَولان:أحدهما أنَّه عِلْمٌ يَحْدُثُ لَهَم لَمْ يَكُن،وَهُوَ قَوْل مَن قال:كان سؤالهم قبل استحكام معرفتهم.والثاني أنَّه زيادة عِلْم إلى عِلْم ، ويقين إلى يقين،وَهُوَ قَوْل مَن قال: كانَ سُؤالُهم بعد معرفتهم. وفي قَوله: ﴿ مِنَ الشَّاهدين ﴾ أربعة أقوال : أحدها مِنَ الشاهدين للَّهِ بالقُدرة وَلَكَ بالنُّبُوَّة. والثاني عِند بَني إسرائيل إذا رَجَعْنَا إليهم وذلك أنَّهُم كانوا معَ عِيسَى في البَرِّية عِند هذا السُّؤال. والثالث مِنَ الشاهدين عِند مَن يأتي مِن قَوْمِنا بِما شَاهَدْنَا مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّكَ نَبِيٌّ. والرابع مِنَ الشاهدين لَكَ عِند اللَّهِ بأداءِ مَا بُعِثْتَ بِه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قالَ عيسى ابنُ مريمَ اللهُمَّ رَبَّنا أنزِلْ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ تكونُ لنا عِيدًا لأوَّلِنا وآخِرِنا وآيةً مِنكَ وارْزُقْنا وأنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [المائدة : ١١٤] .

عَلِمَ النَّبِيُّ عِيسَى ﷺ أنَّ سُؤال الحَوَاريين لزيادة العِلْم واليقين ، ولَيْسَ عِنَادًا وتَعَنُّتًا، فَقَرَّرَ أن يَدْعُوَ اللَّهَ ، ويَطلُب مِنْهُ إنزالَ المائدة ، لإقامةِ الحُجَّةِ عَلَيهم ، وإلزامِهم بها ، وقَطْعِ عُذْرِهم .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٣/ ٩٨) : ((رُوِيَ أنَّه اغتسلَ ، ولَبِسَ المِسْحَ (كِسَاء مِن شَعْر) ، وصَلَّى ركعتين ، فطأطأ رَأسَه ، وغَضَّ بَصَرَه ، ثُمَّ قال : ﴿ اللهُمَّ رَبَّنا ﴾ ناداه سُبحانَه وتعالى مَرَّتَيْن ، مَرَّة بِوَصْفِ الأُلُوهِيَّةِ الجامعة لجميع الكَمَالات ، ومَرَّة بِوَصْفِ الرُّبُوبِيَّةِ المُنْبِئَةِ عَن التَّربية ، إظهارًا لغايةِ التَّضَرُّع ، ومُبَالَغَةً في الاستدعاء)) .

قال النَّبِيُّ عِيسَى ﷺ: اللهُمَّ رَبَّنَا أنزِلْ عَلَينا مائدةً مِن السماء، يَكُون يَوْمُ نُزُولِها عِيدًا، أي: يَوْم فَرَح وسُرور لنا وَلِمَن بَعْدَنا، نُعظِّمه نَحْن ومَن بَعْدَنا،وآيةً دَالَّة على وَحْدَانيتك وقُدْرتك،وحُجَّةً على صِدْقِ رسولك وصِحَّةِ رسالته ، وارْزُقْنا رِزْقًا نَستعين به على عِبادتك وطاعتك ، وأعْطِنَا مِن فضلك، فإنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ مَنْ يَرزُق ، وأجْوَدُ مَنْ يُعْطي ، لأنَّكَ الغَنِيُّ الحميد ، تُعْطِي الرِّزْقَ بلا مُقَابِل .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢ / ٤٥٨) : ((والمعنى : يَكُون اليوم الذي نَزَلَتْ فيه عِيدًا لنا نُعَظِّمه ، نَحْنُ ومَن بَعْدَنا . قاله قَتَادة والسُّدي. وقال كَعْب : أُنزِلَتْ عليهم يوم الأحَد ، فاتَّخَذُوه عِيدًا . وقال ابن قُتَيْبَة : عِيدًا أي مَجْمَعًا . قال الخليل بن أحمد : العِيد كُلُّ يوم يَجْمَع ، كأنَّهُم عادوا إليه. وقال ابن الأنباري : سُمِّيَ عِيدًا للعَوْد مِنَ التَّرَحِ إلى الفَرَحِ . قَوْلُه تعالى: ﴿ وآيةً

مِنكَ ﴾ أي : عَلامةً مِنك ، تدلُّ على تَوحيدك وصِحَّة نُبُوَّة نَبِيِّك . وفي قَوله : ﴿ وارْزُقْنا ﴾ قَولان : أحدهما ارْزُقْنا ذلك مِن عِندك . والثاني ارْزُقْنا الشُّكْرَ على مَا أنعمتَ بِه مِن إجابتك لنا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قالَ اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ١١٥] .

استجابَ اللَّهُ دُعاءَ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ ، فقالَ : إنِّي سَأُنَزِّل عليكم هذه المائدةَ مِنَ السَّمَاء . فَمَن يُكَذِّب بِنُزولِ هذه الآية العظيمة ، أوْ يُنكِر نُبُوَّة عِيسَى ، أوْ يَجْحَد وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ ، فَسَوْفَ أُعَذِّبُه تعذيبًا شديدًا ، لا أُعَذِّب مِثْلَ ذلك التَّعذيب أحدًا مِنَ البشر . وهذا وَعِيدٌ شديدٌ ، وتَهديدٌ أكيد .

وجَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ أنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ آيةً وأُعْطِيَهَا ، ثُمَّ كَفَرَ ، فَإنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُه عذابًا شديدًا مُؤلِمًا بِلا مُهْلَةٍ ولا فُرصة ثانية. وقَدْ أنزلَ اللَّهُ المائدةَ على بني إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابةً مِنَ اللَّهِ لِدُعائه ، وإكرامًا له ، وتَصديقًا لِنُبُوَّتِه ورسالته ، وتَفَضُّلًا عليه وعلى أصحابه .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٤٦٢) : ((وَقَدْ ذَكَرَ المُفسِّرون أنَّ جَمَاعَةً مِن أصحاب المائدة مُسِخُوا . وفي سبب مَسْخهم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّهُم أُمِرُوا أن لا يَخُونوا ولا يَدَّخِرُوا ، فخانوا وادَّخَرُوا ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وخنازير ، رواه عمَّار بن ياسر عن النبيِّ ﷺ . والثاني أنَّ عِيسَى خَصَّ بالمائدة الفُقَرَاءَ ، فَتَكَلَّمَ الأغنياءُ بالقبيح مِنَ القَوْلِ ، وشَكَّكُوا الناسَ فيها وارتابوا ، فلمَّا أمسى المُرتابون بها ، وأخذوا مضاجعهم ، مَسَخَهُمُ اللَّهُ خنازير ، قاله سَلْمَان الفارسي . والثالث أنَّ الذين شاهدوا المائدةَ وَرَجَعُوا إلى قَوْمِهم فَأَخْبَرُوهم،فَضَحِكَ بِهِم مَنْ لَمْ يَشْهَدْ، وقالوا: إنَّما سَحَرَ أعْيُنَكم ، وأخَذَ بِقُلوبكم ، فَمَنْ أرادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا ثَبَتَ على بصيرته، ومَنْ أرادَ بِهِ فِتْنَةً ، رَجَعَ إلى كُفْرِه ، فَلَعَنَهُم عِيسى، فأصبحوا خنازير، فَمَكَثُوا ثلاثة أيَّام ثُمَّ هَلَكُوا ، قاله ابن عباس)).

وعَن عَمَّارِ بن ياسر ــ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((أُنْزِلَتِ المَائدةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا ولَحْمًا ، وَأُمِرُوا أن لا يَخُونوا ، ولا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ ، فَخَانُوا ، وَادَّخَرُوا ، ورَفَعُوا لِغَدٍ ، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وخنازير)) [١٤٠] .

---

١٤٠ رواه التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥/ ٢٦٠). وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٣ / ٢٣٥) : ((قال التِّرمذيُّ: والوقف أصح)). وقال القُرطبي في تفسيره (٦/ ٣٤١) : ((إنْ لم يَصِح مَرفوعًا ، فَصَحَّ مَوقوفًا عن صحابي كبير ، واللَّهُ أعْلَم . والمقطوع به أنها نَزَلَتْ ، وكانَ عليها طعام يُؤكَل ، واللَّهُ أعْلَمُ بتعيينه)) .

خَالَفَ بَعْضُهُمُ الأمْرَ الإلهيَّ ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالى ، وعَذَّبَهُم أشَدَّ العَذابِ، بِأنْ غَيَّرَ صُوَرَهُم الإنسانيَّة ، ونَقَلَهم إلى حالة سَيِّئة ، حَيْثُ مُسِخُوا قِرَدَةً وخنازير ، جَزَاء مَعْصيتهم ، وإعراضهم عن طاعة اللَّهِ تعالى .

وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذي (٨ / ٣٤٤ و٣٤٥) : ((قَوْلُه : (أُنْزِلَتِ المائدةُ) قال الراغب : المائدة : الطَّبَق الذي عَلَيه الطعام ، ويُقَال لِكُلٍّ مِنهما مائدة ، أي : على الحقيقة المُشترَكة ، أوْ على أحدهما مَجَازًا ، باعتبار المُجَاوَرَة ، أوْ بِذِكْرِ المَحَلِّ وإرادة الحال (خُبْزًا وَلَحْمًا) تَمْييز (وأُمِرُوا) بِصِيغة المَجهول (ولا يَدَّخِرُوا) ، ... ، مِنَ الذَّخيرةِ وَهُوَ التَّخْبِيَة (لِغَدٍ) أي لِيَوْمٍ عَقِب يَوْم نُزول المائدة أوْ لوقت مُسْتَقْبَل بَعْدَه (فَمُسِخُوا) أي : فَغَيَّرَ اللَّهُ صُوَرَهم الإنسانيَّةَ بَعْدَ تَغْيير سِيرتهم الإنْسِيَّة (قِرَدَةً وخَنَازير) مَنصوبان عَلى أنَّهُما مفعول ثانٍ على مَا يُستفاد مِن القاموس حَيْثُ قال : مَسَخَه كَمَنَعَه ، حَوَّلَ صُورتَه إلى أُخْرَى أقْبَح ، وَمَسَخَه اللَّهُ قِرْدًا فَهُوَ مَسْخ ومَسِيخ . ... . قِيل : الظاهر أنَّ شَبَابَهم مُسِخُوا قِرَدَةً وشُيُوخَهم خنازير . ... . تَنبيه : ذَكَرَ التِّرمذيُّ حديثَ عَمَّار المذكور في تفسير قَوْلِه تعالى : ﴿قالَ اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ . قال الحافظُ ابن كثير في تفسيره بَعْدَ ذِكْر عِدَّة آثار عن ابن عَبَّاس وغَيْرِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم مَا لَفْظُه : وكُلُّ هذه الآثار دَالَّة على أنَّ المائدة نَزَلَتْ على بني إسرائيل أيامَ عِيسَى بن مريم إجابةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِه ، وكما دَلَّ عَلى ذلك ظاهر هذا السِّياق مِنَ القُرْآنِ العظيم.قال اللَّهُ: ﴿ قالَ اللَّهُ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم ﴾ الآية. وقال قائلون: إنَّها لَمْ تَنْزِلْ ، فَرَوَى لَيْث بن أبي سُلَيم عَن مُجَاهِد في قَوْلِه : ﴿ أنزِلْ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ ﴾ ، قال: هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَه اللَّهُ وَلَمْ يَنْزِلْ شَيْء ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال : حَدَّثَنَا ابن المُثَنَّى حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر حَدَّثَنَا شُعْبَة عَن مَنصور بن زاذان عَن الحَسَن أنَّه قال في المَائِدَةِ إنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مُجَاهِد والحَسَن . وقَدْ يَتَقَوَّى ذلك بأنَّ خَبَرَ المائدة لا تَعْرِفُه النَّصَارى ، وَلَيْسَ هُوَ في كِتابهم ، وَلَوْ كانتْ قَدْ نَزَلَتْ لكانَ ذلك مِمَّا يَتَوَفَّر الدَّوَاعي عَلى نَقْلِه ، وكانَ يَكُون مَوجودًا في كِتابهم مُتَوَاتِرًا ، ولا أقَل مِنَ الآحَادِ ، ولكنَّ الجُمهور عَلى أنَّها نَزَلَتْ ، وَهُوَ الذي اختاره ابنُ جرير . قال : لأنَّ اللَّهَ تَعَالى أخبرَ نُزُولَها في قَوْلِه تعالى : ﴿ إنِّي مُنَزِّلُها عَلَيكُم فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم فإنِّي أُعَذِّبُهُ عَذابًا لا أُعَذِّبُهُ أحدًا مِنَ العَالَمِين ﴾ ، قال: وَوَعْدُ اللَّهِ وَوَعِيدُه حَقٌّ وصِدْقٌ ، وهذا القَوْلُ واللَّهُ أعْلَم هُوَ الصَّوَابُ ، كما دَلَّتْ عليه الأخبارُ والآثارُ عَن السَّلَفِ وغَيْرِهم . انتهى كَلامُه باختصار يسير)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ [الصَّف : ١٤] .

يا أَيُّهَا الذينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ونُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، انْصُرُوا دِينَ اللَّهِ ، كَمَا نَصَرَ الحَوَارِيُّون دِينَ اللَّهِ حِينَ قالَ لَهُم عِيسَى بن مَرْيَم : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، أي : مَنْ يَنْصُرُني ويَكُون عَوْني لِتَبليغِ دَعْوَةِ اللَّهِ ونُصْرَةِ دِينِه ؟ ، ﴿ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، أي : قالَ أتْبَاعُ عِيسَى ــ وَهُمُ المُؤمِنُون الخُلُّصُ مِنْ خَاصَّتِه المُستجيبون لِدَعْوَتِه ــ : نَحْنُ أنصارُ دِينِ اللَّهِ . والحَوَارِيُّون أصْفِيَاؤُه ، وهُمْ أوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ، مُشْتَق مِنَ الحَوَرِ ، وَهُوَ البَيَاضُ ، وكانوا اثنَي عَشَر رَجُلًا.والتَّشْبيهُ في الآية مَحمولٌ عَلى المَعنى، أي: كُونوا أنصارَ اللَّهِ كَمَا كانَ الحَوَارِيُّون أنصارَ اللَّهِ ، فانقسمَ بَنُو إسرائيل إلى جَمَاعَتَيْن : جَمَاعَةٌ آمَنَتْ بِهِ وَصَدَّقَتْهُ ، وجَمَاعَةٌ كَفَرَتْ وكَذَّبَتْ برسالة عِيسَى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ ﴾ ، أي : فَقَوَّيْنَا المُؤمنين عَلى أعدائهم الكافرين ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ ، أي: حَتَّى صاروا غالبين عَلَيْهِم بالحُجَّةِ والبُرْهان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٦٤) : ((يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَادَه المُؤمنين أن يَكُونوا أنصارَ اللَّهِ في جَميعِ أحوالِهم بأقوالِهم وأفعالِهم ، وأنفُسِهم وأموالِهم ، وأن يَستجيبوا للَّهِ ولرسوله كما استجابَ الحَوَارِيُّون لِعِيسَى حِينَ قال : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ؟ ، أي : مَنْ مُعِيني في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ، ﴿ قَالَ الحَوَارِيُّونَ ﴾ ، وهُمْ أتْبَاع عِيسَى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، أي : نَحْنُ أنصارُكَ عَلى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ ، وَمُؤازروك على ذلك ، ولهذا بَعَثَهُم دُعَاةً إلى الناس في بلاد الشَّام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كانَ رسول اللَّه ﷺ يَقُول في أيَّامِ الحَجِّ : " مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِيني حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ ، فَإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُوني أنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي " ، حَتَّى قَيَّضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الأوْسَ والخَزْرَجَ مِن أهْلِ المَدينةِ ، فَبَايَعُوه ووازروه ، وشارطوه أن يَمنعوه مِن الأسود والأحمر إنْ هُوَ هاجرَ إلَيهم،فَلَمَّا هاجرَ إلَيهم بِمَنْ مَعَه مِنْ أصحابه،وَفَوْا له بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيه ، ولهذا سَمَّاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُه الأنصارَ، وصارَ ذلك عَلَمًا عَلَيْهِم ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وأرضاهم ــ.

وقَوْلُه تعالى : ﴿ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ﴾ ، أي : لَمَّا بَلَّغَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم عَلَيه الصَّلاة والسَّلام رِسَالَةَ رَبِّهِ إلى قَوْمِه ، وَآزَرَه مَنْ وَازَرَه مِنَ الحَوَارِيِّين ، اهتدتْ طائفةٌ مِن بَني إسرائيل بِما جاءهم به ، وَضَلَّتْ طائفةٌ فَخَرَجَتْ عَمَّا جاءهم به ، وجَحَدُوا نُبُوَّتَه ، وَرَمَوْهُ وَأُمَّهُ بالعظائم ، وهُمُ اليهود عَلَيهم لعائنُ اللَّهِ المُتتابعة إلى يوم القيامة ، وَغَلَتْ فِيه طائفة مِمَّنْ اتَّبَعَه

حَتَّى رَفَعُوه فَوْقَ مَا أعطاه اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وافْتَرَقُوا فِرَقًا وَشِيَعًا ، فَمِن قائل مِنهُم : إنَّه ابْنُ اللَّهِ ، وقائل : إنَّه ثالثُ ثلاثةٍ : الأبُ والابْنُ ورُوحُ القُدُسِ ، ومِنْ قائل : إنَّه اللَّهُ . وكُلُّ هذه الأقوال مُفَصَّلَة في سُورة النِّسَاء . وقَوْلُه تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ ﴾ ، أي : نَصَرْنَاهُم عَلى مَنْ عَادَاهُم مِنْ فِرَقِ النَّصَارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ ، أي : عَلَيْهِم ، وذلك بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَه اللَّهُ : حَدَّثَني أبو السائب حَدَّثَنَا أبو مُعاوية عَن الأعمش عَن المِنْهَال يعني ابن عمرو عن سعيد بن جُبَير عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عنهما قال : لمَّا أرادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يَرْفَعَ عِيسَى إلى السَّمَاءِ ، خَرَجَ إلى أصحابه ، وهُمْ في بَيْتٍ اثنَا عَشَر رَجُلًا ، مِنْ عَيْن في البَيْتِ ، وَرَأسُه يَقْطُر مَاءً ، فقال : إنَّ مِنكُم مَنْ يَكْفُر بِي اثنَتَي عَشْرَة مَرَّةً بَعْد أن آمَنَ بِي . قال : ثُمَّ قال : أيُّكُم يُلْقَى عَلَيه شَبَهِي فَيُقْتَل مَكَاني ويَكُون مَعِي في دَرَجَتِي ؟ ، قال : فقامَ شاب مِن أحْدَثِهِم سِنًّا ، فقال : أنا ، فقال له : " اجْلِسْ " ، ثُمَّ عادَ عَلَيهم ، فقامَ الشاب فقال : أنا ، فقال له : " اجْلِسْ " ، ثُمَّ أعادَ عَلَيهم ، فقامَ الشاب فقال : أنا ، فقال : " نَعَمْ أنتَ ذاك ". قال : فَأُلْقِيَ عَلَيه شَبَهُ عِيسى ، وَرُفِعَ عِيسَى عليه السلام مِن روزنة في البَيْتِ إلى السَّمَاءِ ، قال : وجاءَ الطلبُ مِن اليهود ، فأخذوا شَبِيهَه فَقَتَلُوه ، وصَلَبُوه ، وكَفَرَ بِهِ بَعْضُهم اثنَتَي عَشْرَة مَرَّة بَعْد أن آمَنُوا بِهِ ، فَتَفَرَّقُوا فيه ثلاث فِرَق ، فقالتْ فِرْقَةٌ : كانَ اللَّهُ فِينا مَا شاءَ ثُمَّ صَعِدَ إلى السماء ، وهؤلاء اليَعقوبية ، وقالتْ فِرْقَةٌ : كانَ فِينا ابْنُ اللَّهِ مَا شاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ رَفَعَه إليه ، وهؤلاء النُّسْطُورية ، وقالتْ فِرْقَةٌ : كانَ فِينا عَبْدُ اللَّهِ ورَسُولُه مَا شاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَه اللَّهُ إلَيْه ، وهؤلاء المُسْلِمُون ، فتظاهرت الكافرتان على المُسْلِمَة فقتلوها ، فَلَمْ يَزَل الإسلامُ طامسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، ﴿ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ﴾ ، يَعْنِي الطائفةَ التي كَفَرَتْ مِن بَني إسرائيل في زَمَنِ عِيسَى ، والطائفة التي آمَنَتْ في زَمَنِ عِيسى ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ بإظهار مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهم على دِين الكُفَّار ، هذا لَفْظُه في كِتَابِه عِند تفسير هذه الآية الكريمة ، وهكذا رَوَاه النَّسَائِيُّ عِند تفسير هذه الآية مِن سُنَنِه عن أبي كُرَيْب مُحَمَّد بن العَلاء عَن أبي مُعاوية ، بِمِثْلِه سَوَاء ، فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَزَالُون ظاهرين على الحَقِّ حَتَّى يَأتِيَ أمْرُ اللَّهُ ، وهُمْ كذلك ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهم الدَّجَّالَ معَ المَسِيح عِيسَى ابن مَرْيَم عليه السلام ، كَمَا وَرَدَتْ بذلك الأحاديثُ الصِّحَاح ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٣١٢) : ((حَضَّ سُبحانَه المُؤمنين على نُصْرَةِ دِينِه ، فقال: ﴿ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللَّهِ ﴾ ، أي : دُومُوا عَلى مَا أنتم عَلَيه مِنْ نُصْرَةِ الدِّينِ .

... . ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، أي : انصُرُوا دِينَ اللَّهِ مِثْلَ نُصْرَةِ الحَوَارِيِّين لَمَّا قالَ لَهُم عِيسَى : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، فقالوا: ﴿ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ ، والكافُ في ﴿ كَمَا قَالَ ﴾ نَعْت مَصْدَر مَحذوف ، تقديره : كُونوا كَوْنًا ، كَمَا قال ، وقِيل : الكافُ في مَحَلِّ نَصْب على إضمار الفِعْل ، وقِيل : هُوَ كلام مَحمول عَلى مَعناه دُون لَفْظِه ، والمَعنى : كُونوا أنصارَ اللَّهِ ، كما كانَ الحَوَارِيُّون أنصارَ عِيسَى حِينَ قالَ لَهُم : ﴿ مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ ﴾ ، وقَوْلُه : ﴿ إلى اللَّهِ ﴾ ، قِيل : إلى بمعنى معَ ، أي : مَن أنصاري معَ اللَّهِ . وقِيل : التقدير : مَن أنصاري فِيمَا يُقَرِّب إلى اللَّهِ . وقِيل : التَّقدير : مَن أنصاري مُتَوَجِّهًا إلى نُصْرَةِ اللَّهِ . والحَوَارِيُّون هُمْ أنصارُ المَسِيح ، وخُلُّصُ أصحابِه ، وأوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ ، ﴿ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ ﴾ ، أي : آمَنَتْ طائفةٌ بِعِيسَى ، وكَفَرَتْ بِهِ طائفة ، وذلك لأنَّهُم لمَّا اخْتَلَفُوا بَعْدَ رَفْعِه تَفَرَّقُوا وَتَقَاتَلُوا ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ ﴾ ، أي : قَوَّيْنَا المُحِقِّين مِنْهُم عَلى المُبْطِلِين ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ ، أي : عالين غالبين . وقِيل : المعنى : فَأَيَّدْنَا الآنَ المُسْلِمِين على الفِرْقَتَيْن جميعًا . ... . وأخرجَ عبد الرَّزَّاق وعَبْد بن حُمَيْد وابن المُنذر عَن قَتَادَة في قَوْلِه : ﴿ يَا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا أنصارَ اللَّهِ ﴾ ، قال : قَدْ كانَ ذلك بِحَمْدِ اللَّهِ ، جاءه سَبْعُون رَجُلًا ، فَبَايَعُوه عِند العَقَبَة،وَآوَوْهُ ونَصَرُوه حَتَّى أظهرَ اللَّهُ دِينَه،وأخرجَ ابنُ إسحاق وابن سعد عن عبد اللَّه ابن أبي بَكْر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حَزْم قال : قال رسول اللَّه ﷺ للنَّفَرِ الذينَ لَقَوْهُ بالعَقَبَةِ : " أخْرِجُوا إلَيَّ اثنَي عَشَرَ مِنكُم يَكُونون كُفَلاءَ عَلى قَوْمِهِم، كَمَا كَفَلَتِ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَم". وأخرجَ ابن سعد عن محمود بن لَبِيد قال : قال رسول اللَّه ﷺ للنُّقَبَاءِ: " إنَّكُم كُفَلاءُ عَلى قَوْمِكُم كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّين لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَم ، وأنا كَفِيلُ قَوْمِي " ، قالوا : نَعَم . وأخرجَ ابن المُنذر عن ابن عَبَّاس : ﴿ فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا ﴾ ، قال: فَقَوَّيْنَا الذينَ آمَنُوا . وأخرجَ ابن أبي حاتم عنه ، فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وأُمَّتَهُ عَلى عَدُوِّهِم ، فأصْبَحُوا اليَوْمَ ظاهرين)) .

٥ــ التَّثْلِيثُ

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأوَاهُ النَّارُ وَمَا للظالمينَ مِنْ أنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

تُوضِّح الآيةُ عَقيدةَ النَّصَارى الضَّالَّة في المَسِيحِ ﷺ ، وتُبَيِّن إبطالَ قَوْلِهم الفاسد .

هَؤلاء الذينَ قالوا إنَّ مَرْيَم وَلَدَتْ إلَهًا هُمُ " اليَعْقُوبِيَّة " ، حَيْثُ زَعَمُوا أنَّ اللَّهَ حَلَّ في ذات المَسِيحِ واتَّحَدَ بِه ، تَعَالى اللَّهُ عَنْ ذلك عُلُوًّا كبيرًا ، وقالَ المسيحُ ﷺ : أنا عَبْدٌ مِثْلُكُم ، فَاعْبُدُوا خَالِقي وَخَالِقَكُم الذي يَذِلُّ له كُلُّ شَيْءٍ،وَيَخْضَع لَهُ كُلُّ مَوجودٍ.وكانَ أوَّلُ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِها المَسِيحُ ﷺ وَهُوَ صَغِيرٌ في المَهْدِ أنْ قال : إنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقُلْ : أنا اللَّهُ ، ولا ابْنُ اللَّهِ ، بَلْ قال : ﴿ إني عبدُ اللَّهِ آتانِيَ الكتابَ وجَعَلَني نَبِيًّا ﴾ [مَرْيَم : ٣٠] .

لَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِم ذلك بدليلٍ باهرٍ وحُجَّةٍ قاطعةٍ مِمَّا يُقِرُّون بِه ، فقال : ﴿ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ، فَإذَا كانَ المَسِيحُ ﷺ يَقُول : يَا رَبِّ ، ويَا اللَّه ، فَكَيْفَ يَدْعُو نَفْسَه أَمْ كَيْفَ يَسْأَلُها ؟ ، هَذا مُحَال . إنَّ مَنْ يَعْتقد بِأُلُوهِيَّةِ غَيْرِ اللَّهِ فَلَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أبَدًا ، لأنَّها دَارُ المُوَحِّدِين ، وَمَصِيرُه نَارُ جَهَنَّم ، ولا ناصر ولا مُنْقِذ له مِنْ عَذابِ اللَّهِ تعالى .

إنَّ المَسِيحَ يَتَشَرَّف بِعُبوديته للَّهِ تعالى ، ويَعترف بِها ، وأنَّه عَبْدٌ خاضعٌ للَّهِ ، وَلَيْسَ إلَهًا . لقد قالَ المَسِيحُ لبني إسرائيل : أنا عَبْدٌ مِثْلُكُم ، فَاعْبُدوا اللَّهَ خَالِقي وخَالِقَكم ، إلَهِي وإلَهَكُم ، مَالِكي وَمَالِكَكُم . اجْعَلُوا العِبادةَ للَّهِ وَحْدَه ، الذي خَضَعَ لَهُ كُلُّ مُوجودٍ ، وذَلَّ له كُلُّ شَيْء .

كَيْفَ يَزْعُم النصارى الكُفَّارُ أنَّ المَسِيحَ إلَهٌ وهو يَعترف بِنَفْسِه بأنَّه عَبْدٌ مِثْلُهُم وَلَيْسَ إلَهًا ؟! . وإذا كانَ المَسِيحُ يَدْعُو اللَّهَ،وَيَخْضَع له،ويُخَاطِبه : يا رَبِّ، ويا اللَّه. فكيفَ يَكُون المَسِيحُ إلَهًا ؟. إنَّ الإلَهَ لا يَدْعُو أحَدًا ، ولا يَخْضَع لِشَيْءٍ ، ولا يَطْلُب مِنْ أحَدٍ ، وَهَذا دليلٌ واضح على بُطلان أُلُوهِيَّةِ المَسِيحِ المَزعومة ، فَهُوَ عَبْدٌ خاضعٌ للَّهِ ، وَمُنْصَاعٌ لِحُكْمِه ، وذَلِيلٌ أمامَ أمْرِه ونَهْيِه .

إنَّ مَنْ يَجْعَلْ للَّهِ شريكًا في عِبادته أوْ في صِفاته ، وماتَ على ذلك ، فَهُوَ خَالِدٌ مُخَلَّدٌ في النار ، ولا تُوجَد فُرصة للنَّجَاةِ مُطْلَقًا ، وَلَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أبَدًا ، لأنَّها دَارُ المُوَحِّدين ، وهذا يدلُّ على أنَّ الشِّرْكَ يُوجِب تَحريمَ دُخولِ الجَنَّةِ .

واللَّهُ لَمْ يَقُلْ : فَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ، وإنَّما قال : ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ﴾ . وإظهارُ لَفْظِ الجَلالةِ في مَوْضِع الإضمار لِتَعظيمِ اللَّهِ تعالى وتَمجيدِه ، والتَّنبيهِ عَلى خُطُورةِ الأمْرِ (الخُلُود في النار) .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٤ / ٦٥٢) : ((هذا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالى ذِكْرُه عَن بعض مَا فَتَنَ به الإسرائيليين الذينَ أخْبَرَ عَنْهُم أنَّهُم حَسِبُوا أن لا تَكُون فِتْنَة ، يَقُول تَعَالى ذِكْرُه : فكانَ مِمَّا ابْتَلَيْتُهُمْ وَاخْتَبَرْتُهُمْ بِه _ فَنَقَضُوا فِيه مِيثاقي ، وَغَيَّرُوا عَهْدِي الذي كُنْتُ أخَذْتُهُ عَلَيْهِم، بأنْ لا

يَعْبُدُوا سِوَاي ، ولا يَتَّخِذُوا رَبًّا غَيْرِي ، وأنْ يُوحِّدوني ، ويَنْتَهُوا إلى طَاعَتِي ــ عَبْدِي عِيسى ابن مَرْيَم ، فإنِّي خَلَقْتُهُ وَأجْرَيْتُ عَلى يَدِهِ نَحْوَ الذي أجْرَيْتُ عَلى يَدِ كَثيرٍ مِنْ رُسُلي فقالوا كُفْرًا مِنْهُم : هُوَ اللَّهُ . وهذا قَوْلُ اليَعْقُوبِيَّة مِنَ النَّصَارى عَلَيْهِم غَضَبُ اللَّهِ . يَقُول اللَّهُ تَعَالى ذِكْرُه : فلمَّا اخْتَبَرْتُهُمْ وَابْتَلَيْتُهُمْ بِمَا ابْتَلَيْتُهُمْ بِه ، أشرَكوا بي ، وقالوا لِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِي وَعَبْدٍ مِثْلِهِم مِنْ عَبِيدي وَبَشَرٍ نَحْوِهِم ، مَعروفٌ نَسَبُه وَأصْلُه مَولودٌ مِنَ البَشَرِ ، يَدْعُوهم إلى تَوْحِيدي ، ويَأمُرُهم بِعِبَادتي وطاعتي ، ويُقِر لَهُمْ بأنِّي رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ ، وَيَنْهَاهُم عَن أن يُشرِكوا بِي شيئًا : هُوَ إلَهُهُمْ ، جَهْلًا مِنْهُم باللَّهِ ، وكُفْرًا بِه ، ولا يَنْبغي للَّهِ أن يَكُونَ والدًا ولا مَوْلُودًا . ويَعْنِي بِقَوْلِه : ﴿ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ، يَقُول : اجْعَلُوا العِبَادَةَ والتَّذَلُّلَ للذي لَهُ يَذِلُّ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَهُ يَخْضَع كُلُّ مَوجودٍ ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ، يَقُول : مَالِكِي ومَالِكُكُم وَسَيِّدِي وَسَيِّدُكُم الذي خَلَقَني وإيَّاكُم ﴿ إنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ﴾ أنْ يَسْكُنَهَا في الآخِرَةِ ﴿ وَمَأوَاهُ النَّارُ ﴾ ، يَقُول: وَمَرْجِعُهُ وَمَكَانُهُ ــ الذي يَأوي إلَيْه ويَصِير في مَعَادِه مَنْ جَعَلَ للَّهِ شَرِيكًا في عِبَادَتِه ــ نارُ جَهَنَّم ﴿ وَمَا للظالمينَ ﴾ ، يَقُول : وَلَيْسَ لِمَنْ فَعَلَ غَيْرَ مَا أباحَ اللَّهُ له ، وَعَبَدَ غَيْرَ الذي لَهُ عِبَادَةُ الخَلْقِ ﴿ مِنْ أنصَارٍ ﴾ يَنْصُرُونَه يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ فَيُنْقِذُونه مِنْهُ إذا أوْرَدَه جَهَنَّم)) .

وفي الحَديثِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((إنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ)) [١٤١] .

لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا مَن استسلمَ للَّهِ وآمَنَ بِه ، وشَهِدَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بالرِّسَالَةِ ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى هذا الإيمانِ .

وهذا نَصٌّ صَرِيحٌ وواضحٌ في أنَّ مَنْ مَاتَ على الكُفْرِ أو الشِّرْكِ ، فَهُوَ خَالِدٌ مُخَلَّدٌ في نارِ جَهَنَّم ، ولا يَدْخُل الجَنَّةَ أبَدًا ، وهذا النَّصُّ عام وشامل بإجماع المُسْلِمِين ، وَهُوَ عَقِيدةٌ قَطْعِيَّةٌ مِنْ عَقائدِ الإسلامِ في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، لا تَقْبَل التأويلَ ولا النَّسْخَ ولا التَّبديلَ ولا التَّغْيير .

وقال النَّوَوي في شرحه على صحيح مُسْلِم (٣ / ٩٦) : ((قَوْلُه ﷺ : " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ " ، هَذا نَصٌّ صَرِيحٌ في أنَّ مَنْ مَاتَ عَلى الكُفْرِ لا يَدْخُل الجَنَّةَ أصْلًا ، وهذا النَّصُّ على عُمُومِه بإجماع المُسْلِمِين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ ثالثُ ثلاثةٍ وَمَا مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ وإن لَمْ يَنتَهوا عمَّا يَقُولونَ لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفروا مِنهُم عذابٌ أليم ﴾ [المائدة : ٧٣] .

---

١٤١ متفق عليه . البخاري (٣ / ١١١٤) برقم (٢٨٩٧) ، ومسلم (١/ ١٠٥) برقم (١١١) .

لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إنَّ اللَّهَ أحَدُ ثلاثة آلِهَة ، والحَقُّ أنَّه لَيْسَ في الوُجود إلا إلَه واحد أحَد ، فَرْد صَمَد ، واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صِفاته،وواحدٌ في أفعاله . لَيْسَ له شَرِيكٌ ولا نِدٌّ ولا مَثِيلٌ ، ولا نظيرٌ ، ولا صاحبةٌ ، ولا وَلَدٌ ، ولا والدٌ . وإنْ لَمْ يَتركوا عَقيدةَ التَّثْلِيثِ ، وَيَكُفُّوا عَنِ الكَذِبِ والافتراءِ، لَيَمَسَّنَّهُم عَذابٌ مُؤلمٌ وعُقوبةٌ مُوجعةٌ في الدُّنيا والآخِرَةِ .

إنَّ التَّثليث عقيدة ثابتة في النَّصْرانية (المَسِيحية) ، وهي تُشير إلى جهل النصارى وكُفْرِهم وضَلالِهم ، فَهُمْ يُؤْمِنُون بأنَّ اللَّهَ واحدٌ ، لكنْ مِنْ مَنظور مُنحرفٍ مُضَاد لمفهوم التَّوحيد عِند المُسْلِمِين ، فَهُمْ يَزْعُمُون أنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ ذُو ثلاثة أقانيم (الآب ، الابن ، رُوح القُدُس) .

إنَّ مِنَ النَّصَارى مَنْ يَعْتقد أنَّ اللَّهَ ثالثُ ثَلاثة آلِهَة ، ويقولون : الإلهيَّة مُشتركة بَيْنَ اللَّهِ وعِيسى ومَرْيَم ، وكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هؤلاء إلَهٌ ، فَهُمْ ثلاثة آلهة ، وهذا كُفْرٌ شنيع . وَقَدْ قَرأتُ لِعَالِمٍ نَصْرَانِيٍّ كلامًا مُضْحِكًا حَوْلَ هذا المَوضوع ، فَقَدْ ضَرَبَ مَثَلًا لهذه العقيدة الفاسدة ، فَشَبَّهَهَا بالشُّعاعِ الواحد الذي يَتَّخِذ ثلاثةَ مَسارات ، وكأنَّ التَّوحيدَ مَسألةُ فِيزياء مُتعلِّقة بانكسار الضَّوْءِ ! .

وقال القُرطبي في تفسيره (٦ / ٢٣٤) عن الآية : ((وهذا قَوْل فِرَق النَّصَارى مِنَ المَلْكِيَّة والنُّسْطُورِيَّة واليَعْقُوبِيَّة ، لأنَّهُم يقولون: أبٌ وابْنٌ ورُوحُ القُدُس إلهٌ واحد ، ولا يقولون:ثلاثة آلهة ، وهو معنى مذهبهم . وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمة لهم ، وما كان هكذا صَحَّ أن يُحْكَى بالعِبارة اللازمة وذلك أنهم يقولون : إنَّ الابْنَ إلَهٌ ، والأبَ إلَهٌ ، وَرُوحَ القُدُسِ إلَهٌ)) .

وفي صَفوة التفاسير (٣ / ٣٦) : ((قال السُّدي : نَزَلَتْ في جَعْلِهِم المسيحَ وأُمَّه إلَهَيْنِ معَ اللَّهِ ، فَجَعَلُوا اللَّهَ ثالثَ ثلاثة ، بهذا الاعتبار . وقال في البَحْر : يَقُولون : جَوْهَرٌ وَاحِدٌ ، وثلاثة أقانيم " أب وابن ورُوح قُدُس " وهذه الثلاثة إلهٌ واحد ، كما أنَّ الشمس تتناول القُرْصَ والشُّعَاعَ والحَرَارة ، وَزَعَمُوا أنَّ الأبَ إلَهٌ ، والابْنَ إلَهٌ ، والرُّوحَ إلَهٌ ، وَالكُلُّ إلَهٌ واحد ، وهذا معلوم البُطْلان بِبَدَاهة العقل أنَّ الثلاثة لا تَكُون واحدًا ، وأنَّ الواحد لا يَكُون ثلاثة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٢و٤٠٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ لقد كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللَّهَ ثالثُ ثلاثةٍ ﴾ . قال مُجَاهِد: هُمُ النَّصَارى . قال وَهْب بن مُنبِّه : لَمَّا وُلِدَ عِيسَى لَمْ يَبْقَ صَنَمٌ إلا خَرَّ لِوَجْهِه ، فاجتمعت الشَّياطينُ إلى إبليس ، فأخْبَرُوه فَذَهَبَ فطاف أقطارَ الأرض، ثُمَّ رَجَعَ ، فقال : هذا المَولودُ الذي وُلِدَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ ، أردتُ أن أنظر إليه فوجدتُ المَلائكةَ قَدْ حَفَّتْ بِأُمِّهِ ، فَلْيَتَخَلَّفْ عِندي اثنان مِنْ مَرَدَتِكُم ، فلمَّا أصبحَ خَرَجَ بِهما في صُورة الرِّجَالِ ، فَأَتَوْا مَسْجِدَ بني إسرائيل وَهُمْ يَتَحَدَّثون بأمْرِ عِيسى، ويقولون: مَولود مِن غَيْرِ أبٍ ، فقال إبليس : مَا

هَذا بِبَشَرٍ ، ولكنَّ اللَّهَ أَحَبَّ أن يَتَمَثَّلَ في امرأة لِيَختبر العِبَادَ ، فقالَ أحَدُ صَاحِبَيْه : مَا أعظمَ مَا قُلْتَ ، ولكنَّ اللَّهَ أحَبَّ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا ، وقال الثالث : مَا أعْظَمَ مَا قُلْتَ ، ولكنَّ اللَّهَ أرادَ أنْ يَجْعَل إلَهًا في الأرض ، فألْقَوْا هذا الكلام على ألسنة الناس ، ثُمَّ تَفَرَّقوا فتكلم به الناس . وقال مُحَمَّد بن كَعْب : لَمَّا رُفِعَ عِيسى اجتمعَ مِئة مِنْ عُلماء بني إسرائيل ، وانْتَخَبُوا مِنْهُم أربعة ، فقال أحدهما : عِيسى هُوَ اللَّهُ ، كان في الأرض مَا بَدَا له ثُمَّ صَعِدَ إلى السَّمَاءِ ، لأنَّه لا يُحْيِي المَوْتَى ولا يُبْرِئ الأكْمَهَ والأبْرَصَ إلا اللَّهُ . وقال الثاني: لَيْسَ كذلك ، لأنَّا قَدْ عَرَفْنا عِيسى وَعَرَفْنَا أُمَّه ، ولكنَّه ابنُ اللَّه . وقال الثالث : لا أقول كَمَا قُلْتُما ، ولكنْ جاءتْ بِه أُمُّهُ مِنْ عَمَلٍ غَيْرِ صالح. فقال الرابع: لَقَدْ قُلْتُم قَبِيحًا، ولكنَّه عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُه وكَلِمَتُه ، فَخَرَجُوا فَاتَّبَعَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُم عُنُقًا (جماعة) مِنَ الناس . قال المُفسِّرون : ومعنى الآية أنَّ النَّصَارى قالتْ: الإلهيَّةُ مُشتَرَكة بَين اللَّهِ وعِيسى ومَرْيَم ، وكُلُّ وَاحدٍ مِنهُم إلَهٌ . وفي الآية إضمار، فالمعنى: ثالثُ ثلاثة آلِهَة ، فَحُذِفَ ذِكْر الآلهة ، لأنَّ المَعْنى مفهوم ، لأنَّه لا يَكْفُر مَنْ قال : هُوَ ثالثُ ثلاثة ، وَلَمْ يُرِد الآلِهَة ، لأنَّه مَا مِن اثنَيْن إلا وَهُوَ ثالثُهما . وَقَدْ دَلَّ على المَحذوفِ قَوْلُه : ﴿ وما مِن إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وإذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بِحَقٍّ إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنَّكَ أنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

هذا القَوْلُ إنَّما يَكُون يوم القيامة ، حَيْثُ يُخَاطِب اللَّهُ عَبْدَه وَرَسُولَه عِيسى بن مَرْيَم على رُؤوسِ الأشهاد ، تَوبيخًا للكافرين (النَّصَارى) ، وتَقْريعًا لهم ، لِيَعْلَمُوا أنَّهُم كانوا على الباطلِ ، قائلًا : يا عِيسى بنَ مَرْيَم ، أأنتَ دَعَوْتَ الناسَ إلى عِبَادَتِكَ ، واتِّخَاذِكَ وأُمِّكَ إلَهَيْنِ مَعْبُودَيْن مِن دُونِ اللَّهِ ؟ . وَقَدْ سَأَلَه اللَّهُ وهو أعْلَم ، مِنْ أجْلِ تَوبيخِ الكافرين ، وفَضْحِهم ، وكَشْفِ كُفْرِهِم وضَلالِهِم وبَاطِلِهِم . والآيةُ تَحْمِل تَهْديدًا شديدًا للنَّصَارى . وَقَدْ أرادَ اللَّهُ أن يَعترف عِيسى بعُبوديته للَّهِ، ويُقِر بذلك بِنَفْسِه ، لِيَسْمَع النَّصَارى ، ويَظْهَر كَذِبُهم وباطلُهم ، وَيَتِم فَضْحُهُم أمامَ الناس . وهَذا مُنْتَهَى الخِزْيِ والعَارِ . قال عِيسى : أُنزِّهُكَ يَا رَبِّ عَنْ كُلِّ مَا لا يَلِيق بِكَ ، مَا يَنْبغي أنْ أدَّعِيَ مَنزلةً لَيْسَتْ لِي ، أوْ أقول قَوْلًا لا يَحِق لِي أن أقُولَه . إنْ صَدَرَ مِنِّي هذا القَوْلُ فَقَدْ عَلِمْتَه ، وهذا اعتذارٌ مِنْ عِيسى وبَرَاءة مِنْ ذلك القَوْلِ ، واعترافٌ مِنْهُ بأنَّه عَبْدٌ للَّهِ ، خَاضِعٌ لأمْرِه، ومُسْتَسْلِمٌ لِحُكْمِه ، وَلَيْسَ إلَهًا ولا رَبًّا . والآيةُ تدلُّ على أدبِ المَسِيحِ وأخلاقِه الحميدة ، واعترافِه بِذُلِّهِ وانكسارِه وخُضُوعِه للَّهِ تعالى .

واللَّهُ يَعْلَم كُلَّ شَيْءٍ ، ولا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء . واللَّهُ يَعْلَمُ أنَّ عِيسَى لَمْ يَقُلْ هذا الكلام ، ولكنْ سَألَه تَوْبيخًا للنَّصَارى الذين اتَّخَذُوا عِيسَى إلَهًا ، وتَقْريعًا لَهُم . تَعْلَم مَا أُخْفِيه ، ولا أعْلَم مَا تُخْفِيه، إنَّكَ العَالِمُ بالخَفَايا والأسرارِ ، واللَّهُ يَعْلَمُ مَا هُوَ كائن ، ومَا كان ، ومَا يَكُون ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كانَ كَيْفَ يَكُون .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (٢/ ٤٦٣ و٤٦٤) : ((ولفظ الآية لفظ الاستفهام ومعناها التوبيخ لِمَن ادَّعَى ذلك على عِيسى . قال أبو عُبَيْدة : وإنما قال : ﴿ إلَهَيْنِ ﴾ لأنَّهُم إذْ أشرَكوا فِعْلَ ذَكَرٍ معَ فِعْلِ أُنثى غَلَبَ فِعْلُ الذَّكَرِ ، ذكَّروهما . فإن قِيل : فالنصارى لَمْ يَتَّخذوا مريم إلَهًا، فكيف قالَ اللَّهُ تعالى ذلك فيهم ؟ . فالجَوابُ أنَّهُم لمَّا قالوا : لَمْ تَلِدْ بَشَرًا ، وإنَّما وَلَدَتْ إلَهًا، لَزِمَهُم أن يَقُولوا إنَّها مِنْ حَيْث البَعْضِيَّة بِمَثَابة مَنْ وَلَدَتْهُ، فصاروا بِمَثَابَة مَنْ قاله. قَوْلُه تعالى: ﴿ قالَ سُبْحانَكَ ﴾ أي بَرَاءَة لَكَ مِنَ السُّوء ، ﴿ ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بحقٍّ ﴾ أي : لَسْتُ أستحق العِبادةَ ، فأدعو الناسَ إلَيها ، وروى عطاء بن السائب عن مَيْسَرة قال : لمَّا قال اللَّهُ تعالى لِعِيسى: ﴿ أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ رَعَدَ كُلُّ مَفْصِلٍ مِنْهُ حَتَّى وَقَعَ مَخَافة أنْ يَكُون قَدْ قاله ، ومَا قال : إنِّي لَمْ أَقُلْ ، ولكنَّه قال : ﴿ إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ فإنْ قِيل : مَا الحِكمةُ في سُؤال اللَّهِ تَعَالى له عَنْ ذلك وَهُوَ يَعْلَم أنَّه مَا قَالَه ؟ ، فالجَوابُ أنَّه تَثْبِيتٌ للحُجَّةِ على قَوْمِه ، وإكذابٌ لَهُم في ادِّعَائِهِم عَلَيْه أنَّه أمَرَهُم بذلك، وَلإنَّه إقرارٌ مِنْ عِيسِى بالعَجْزِ في قَوْلِه: ﴿ ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ﴾ وبالعُبودِيَّةِ في قَوْلِه: ﴿ أنِ اعبُدوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُم ﴾. قَوْلُه تعالى : ﴿ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ﴾ . قال الزَّجَّاج : تَعْلَم مَا أُضْمِرُه ، ولا أعْلَمُ مَا عِنْدَكَ عِلْمُه . والتأويلُ : تَعْلَمُ مَا أعْلَمُ ، وأنا لا أعْلَمُ مَا تَعْلَمُ)) .

وَرَوَى التِّرمذيُّ في سُنَنِه (٥/ ٢٦٠) وصَحَّحَه : عن أبي هُرَيْرَة قال : تَلَقَّى عِيسَى حُجَّتَه ، وَلَقَّاهُ اللَّهُ في قَوْلِه : ﴿ وإذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . قالَ أبو هُرَيْرَة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ((فَلَقَّاهُ اللَّهُ : ﴿ سُبْحانَكَ ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بحقٍّ ﴾ ، الآيةَ كُلَّهَا)) .

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَوْفَ يَسألُ الأنبياءَ_عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ _ يَوْمَ القِيامةِ عَمَّا أجابتْ بِه أُمَمُهُم وقَوْمُهُم ، وماذا قالوا لَهُم ، حَتَّى يُبَرِّئَ اللَّهُ رُسُلَه ، ويَكُونَ الخِزْيُ والعَارُ على الكافرين .

إنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ النَّبِيَّ عِيسَى ﷺ حُجَّتَه القائمةَ على تَنْزِيهِ اللَّهِ عَمَّا لا يَلِيقُ بِهَ مِنَ الشَّرِيكِ وغَيْرِه ، فَلَقَّاه اللَّهُ في قَوْلِه تعالى : ﴿ وإذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ

إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بحقٍّ إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنَّكَ أنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ ، أي : يُخَاطِبُ اللَّهُ نَبِيَّه عِيسَى ﷺ ، ويَسْأَلُه وَهُوَ أعْلَمُ : ﴿ أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، أي : أنتَ دَعَوْتَ الناسَ إلى أنْ يَعْبُدُوكَ أنتَ وأُمَّكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟!.قالَ أبو هُرَيْرَة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "فَلَقَّاهُ اللَّهُ " ، أي : أعْلَمَهُ اللَّهُ حُجَّتَه ، وَهِيَ : ﴿ سُبْحانَكَ ﴾ ، أي : تَنَزَّهْتَ يا رَبِّ عَن ذلك ، ﴿ ما يكونُ لي ﴾ ، أي: مَا يَنْبغي لِي ﴿ أنْ أقولَ ما لَيْسَ لي بِحَقٍّ ﴾ أي : أنْ أدَّعِيَ لِنَفْسِي مَا لَيْسَ لها ، فإنَّني عَبْدُ اللَّهِ ، وَمَا أمَرْتُهُم إلا بالتَّوحيدِ ، الآيةَ كُلَّها ، وَهِيَ : ﴿ إن كُنتُ قُلْتُهُ ﴾ ، أي : مِنْ دَعْوَةِ الناسِ لِعِبَادتي وأُمِّي ﴿ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ ، أي : إنَّكَ تَعْلَمُ ، فَرَدَّ العِلْمَ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، واللَّهُ يَعْلَمُ أنَّه لَمْ يَقُلْ ذلك ، ﴿ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ﴾ ، فَإنَّكَ لا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أمْرِي ، سِرِّي وعَلانِيَتي ﴿ ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنَّكَ أنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾ ، أي : إنَّكَ مُحِيطٌ بالعُلومِ الغَيْبِيَّةِ ، مَا كانَ مِنها وَمَا سَيَكُون،وَمَا هُوَ كائنٌ. وهذه مَقالةٌ صادقةٌ تَنْفِي أكاذيبَ النَّصَارى التي وَصَفُوا بِها عِبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَه عِيسى ﷺ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُم إلا مَا أمَرْتَني بِهِ أنِ اعبُدوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُم وكُنتُ عَلَيهِم شهيدًا ما دُمْتُ فِيهِم فلمَّا تَوَفَّيْتَني كُنتَ أنتَ الرقيبَ عَلَيهِم وأنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

قالَ عِيسى بن مَرْيَم : مَا قُلْتُ للناسِ إلا مَا أمَرْتَني بإبلاغِه وإيصالِه إلَيْهِم ، وَهُوَ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَه،خَالِقي وَخَالِقَكُم، فأنا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُه. وهذا اعترافٌ مِنْ عِيسى بعُبوديته للَّهِ ، وخُضُوعِه له، واستسلامِه لأمْرِه وحُكْمِه ، وأنَّه لَيْسَ إلَهًا ولا رَبًّا . والجَدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ عِيسى وَضَعَ القَوْلَ مَوْضِعَ الأمْرِ﴿ ما قُلْتُ لَهُم إلا ما أمَرْتَني بِهِ ﴾ ، تَعظيمًا للَّهِ وَتأدُّبًا مَعَهُ لِكَيْلا يَجْعَل نَفْسَه وَرَبَّه آمِرَيْن مَعًا. وهذا يَعْني أنَّ الأمْرَ على الحقيقة للَّهِ وَحْدَه ، وأنَّ دَوْرَ الأنبياءِ مَحصورٌ في تَنفيذِ أوامرِ اللَّهِ تعالى .

وكُنْتُ أَشْهَدُ على أعمالِهم حِينَ كُنْتُ مَوجودًا بَيْنَ أظْهُرِهِم وَمُقِيمًا فِيهِم ، فلمَّا رَفَعْتَني إلى السَّمَاءِ ، كُنْتَ يَا اللَّه العَالِمَ بِهِم ، والحافظَ لهم ، والحَفِيظَ لأعمالِهم ، والشَّاهِدَ عَلَيْهَا ، وأنتَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، ومُطَّلِعٌ عَلَيْه، وَمُرَاقِبٌ له ، ولا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْء .

وقال الطَّبَري في تفسيره (٥/ ١٣٩) : ((وهَذا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالى ذِكْرُه عَن قَوْلِ عِيسى . يَقُول: مَا قُلْتُ لَهُم إلا الذي أمَرْتَني بِه مِنَ القَوْلِ أن أقُولَه لَهُم ، وَهُوَ أنْ قُلْتُ لَهُم: ﴿ اعبُدوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُم وكُنتُ عَلَيهِم شهيدًا ما دُمْتُ فِيهِم ﴾ . يَقُول : وكُنْتُ على مَا يَفْعلونه وأنا بَيْنَ أظْهُرِهِم

شاهدًا عَلَيْهِم ، وعلى أفعالِهم وأقوالِهم . ﴿ فلمَّا تَوَفَّيْتَني ﴾ يَقُول : فلمَّا قَبَضْتَنِي إلَيْكَ ﴿ كُنتَ أنتَ الرقيبَ عَلَيهِم ﴾ يقول : كُنْتَ أنتَ الحفيظَ عَلَيْهِم دُوني ، لأنِّي إنَّما شَهِدْتُ مِنْ أعمالِهم مَا عَمِلُوه وأنا بَيْنَ أظْهُرِهِم . وفي هذا تِبيانٌ أنَّ اللَّهَ تَعَالى ذِكْرُه إنَّما عَرَّفَه أفعالَ القَوْمِ وَمَقَالَتَهُم بَعْدَ ما قَبَضَه إلَيْه وَتَوَفَّاه بِقَوْلِه: ﴿ أأنتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأُمِّيَ إلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ . ﴿ وأنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . يَقُول : وأنتَ تَشْهَد عَلى كُلِّ شَيْءٍ ، لأنَّه لا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْء ، وأمَّا أنا فإنَّما شَهِدْتُ بَعْضَ الأشياء، وذلك مَا عَايَنْتُ وأنا مُقِيمٌ بَيْنَ أظْهُرِ القَوْمِ ، فإنَّما أنا أشْهَدُ على ذلك الذي عَايَنْتُ وَرَأيْتُ وَشَهِدْتُ)) .

والقُرْآنُ أبْطَلَ عقيدةَ تأليه المسيح ، وأبْطَلَ عَقيدةَ التَّثليثِ التي تَعْتبر أنَّ اللَّهَ إلَهٌ في ثلاثة أقانيم إلهيَّة (الآب ، الابن ، رُوح القُدُس) ، والأقانيم الثلاثة مُستقلة ، ولكنَّها واحدة في المَادَّةِ وَالجَوْهَرِ والطبيعة.وفي هذا دَلالةٌ واضحةٌ على بُطْلان عَقائدِ النَّصَارى الغارقين في الكُفْرِ والضَّلال.

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَآمِنُوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ ولا تَقُولُوا ثَلاثةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إنَّما اللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأرْضِ وكَفَى باللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النِّسَاء: ١٧١].

فآمِنُوا بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصَدِّقُوا رُسُلَه أجمعين ، ولا تَقُولوا : الآلهة ثلاثة : اللَّه ، والمسيح ، ومريم ، أو اللَّه ثلاثة : الأب والابن ورُوح القُدُس ، فَنَهَاهُم اللَّهُ عَن التَّثليث ، وَأمَرَهُم بالتَّوحيد ، لأنَّ الإلَهَ مُنَزَّهٌ عَن التركيب ، وَعَن نِسْبَة المُركَّب إلَيه . انتَهُوا عن التَّثليث يَكُنْ ذلك خَيْرًا لكم ، إنَّما اللَّهُ مُنْفَرِدٌ في أُلُوهِيَّته ، لَيْسَ كما تَزْعُمُون أنَّه ثالثُ ثلاثة ، تَنَزَّهَ اللَّهُ عَنْ أن يَكُون له وَلَدٌ ، للَّهِ مَا في السَّمَاواتِ وَمَا في الأرضِ خَلْقًا وَمُلْكًا وعبيدًا ، واللَّهُ لا يُماثله شَيْء حَتَّى يَتَّخِذَه وَلَدًا ، واللَّهُ غنيٌّ عَن الوَلَدِ ، كَفَى اللَّه أن يَقُوم بتدبير مَخلوقاته وحِفْظِها ، فلا حَاجَة له إلى وَلَدٍ أوْ مُعين ، لأنَّه مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ .

يَأمُرُ اللَّهُ بالتَّصديق بِوَحدانيته ، وعِبادته وَحْده بلا شريك ، وتصديقِ رُسُلِه الكِرَام الذين بَلَّغُوا دَعوةَ التوحيد ، وعدم التثليث في العقيدة لأنَّه ضِد النقل والعقل .

والتَّثليثُ اعتقادُ تَعَدُّد الآلهة ، وأنَّ الآلهة ثلاثة (اللَّه والمسيح ومريم) . أو القَوْل إنَّ اللَّهَ ثلاثة أقانيم (الأب والابن ورُوح القُدُس) ، وهُم يَقصِدون بالأب الذات ، والابن العِلْم ، ورُوح القُدُس الحياة. إنَّ اللَّهَ إلَهٌ واحد، لا يَتَعَدَّد. واحدٌ في ذاته ، وواحدٌ في صِفاته، وواحدٌ في أفعاله. وهو الخالق ، وكُلُّ مَا سِوَاه مخلوق. ولا يُعْقَل أن يَكُون الإلَهُ مُرَكَّبًا ، أو تُضاف إليه التراكيب المخلوقة ، فاللَّهُ قديمٌ ، ومَا سِوَاه حادثٌ ، وُجِدَ بَعْدَ إذْ لَمْ يَكُنْ . وأساسُ الدِّينِ هو العقيدة ،

فإنْ سَقَطَتْ سَقَطَ الدِّينُ كُلُّه. والنَّصَارى لا يَمْلِكون عقيدةً مُتماسكة، وهذا جعلهم طوائف مختلفة، ومُتناقضة ، ومُتحاربة . انتَهُوا عن التثليث أيُّهَا النَّصَارى ، وآمِنُوا بوَحدانيةِ اللَّهِ يَكُنْ ذلك خَيْرًا لكم . إنَّ اللَّهَ إلهٌ واحد ، لا شريك له ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا وَلَد ، وليس ثالث ثلاثة كما تَزْعُمُون . تَعَالى اللَّهُ أن يَكُونَ له وَلَدٌ ، وَتَنَزَّهَ عن ذلك . وللَّهِ مَا في السماوات وَمَا في الأرض،خَلْقًا ومُلْكًا وعَبِيدًا، لا يُشْبِهُ شيئًا ، ولا يُشْبِهُه شيء، ولا يُماثله شيء حتى يَتَّخِذَ وَلَدًا ، فاللَّهُ غَنِيٌّ عَن كُلِّ شَيْء ، ولا يَحتاج شيئًا. واللَّهُ وَحْدَه خالقُ الكَوْنِ ومُدَبِّرُ شُؤون الخَلْق، لا يحتاج إلى وَلَدٍ يُعينه ويُساعده ، لأنَّه مالكُ كُلِّ شَيْء ، وكَفَى باللَّهِ قائمًا بِتَدبير الخَلْقِ ، غَنِيًّا عَنْهُم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٨٤) : ((قَوْلُه : ﴿ فآمِنوا باللَّهِ ورُسُلِهِ ﴾ أي : فَصَدِّقوا بأنَّ اللَّه واحد أحد ، لا ولد له ، ولا صاحبة ، واعْلَمُوا وتَيَقَّنُوا بأنَّ عِيسى عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثةٌ ﴾ لا تجعلوا عيسى وأُمَّه مع اللَّهِ شَرِيكَيْن، تعالى اللَّهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا ... . فالنصارى عليهم لعائن اللَّه ، مِنْ جهلهم ليس لهم ضابط ولا لِكُفْرهم حَد ، بَلْ أقوالهم وضلالهم مُنتشر ، فمِنهم مَن يَعتقده _ أي المسيح _ إلَهًا ، ومِنهم مَنْ يعتقده شريكًا ، ومِنهم مَن يعتقده وَلَدًا . وهُمْ طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مُؤتَلِفَة ، ولقد أحسنَ بعضُ المُتكلمين حيث قال : لَو اجتمع عَشَرَة مِن النَّصَارى لافترقوا على أحَد عَشَر قَوْلًا . ولقد ذَكَرَ بعض عُلمائهم المشاهير عندهم ، وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية، في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النَّبَوية أنَّهُم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عَقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم ، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة ، وذلك في أيام قُسْطَنْطِين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزْيَد مِن ألْفَيْن أُسْقُفًا ، فكانوا أحزابًا كثيرة ، كُلُّ خمسين مِنهم على مقالة ، وعِشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزْيَد من ذلك وأنْقَص . فلمَّا رأى منهم عُصابة قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عَشَر نَفَر ، وقد توافقوا على مقالة ، فأخذها المَلِكُ ونَصَرَهَا وأيَّدها ، وكان فيلسوفًا داهية ، ومَحَقَ مَا عداها من الأقوال ، وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والثمانية عَشَر ، وبُنِيَتْ لهم الكنائس ، ووَضعوا لهم كُتبًا وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يُلَقِّنُونها الوِلْدَان مِن الصِّغار لِيَعتقدوها ، ويُعَمِّدونهم عليها ، وأتباع هؤلاء هُم المَلْكَانِيَّة ، ثُمَّ إنهم اجتمعوا مَجْمَعًا ثانيًا ، فحدث فيهم اليَعْقُوبِيَّة ، ثُمَّ مَجْمَعًا ثالثًا فحدث فيهم النُّسْطُورِيَّة ، وكُلُّ هذه الفِرَق تُثْبِت الأقانيم الثلاثة في المسيح ، ويَختلفون في كيفية ذلك ، وفي اللاهوت والناسوت على زَعْمهم هل اتَّحَدَا أوْ مَا اتَّحَدا ، أو امتزَجا ، أوْ حَلَّ فيه ، على ثلاث

مقالات ، وكُلٌّ مِنْهُم يُكفِّر الفِرْقَةَ الأُخْرَى ، ونَحْن نُكفِّر الثلاثة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَكُم ﴾ أي : يَكُنْ خَيْرًا لكم ، ﴿ إنَّما اللَّهُ إلَهٌ واحدٌ سُبحانَهُ أن يَكُونَ لَهُ ولدٌ ﴾ أي: تَعَالى وَتَقَدَّسَ عَن ذلك عُلُوًّا كبيرًا ﴿ لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ وكفى باللَّهِ وكيلًا ﴾ أي : الجميع مِلْكُه وخَلْقُه ، وجميع ما فيها عبيده ، وهُمْ تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كُلِّ شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ؟)) .

إنَّ عقيدة النَّصَارى شديدة الارتباك والاختلاط ، وذلك لأنَّ مَدَارَها حَوْل " أُلُوهِيَّة المَسِيح ". وهذا الأمْرُ مُضَاد للنقل والعقل ، فلا يُمكِن أن يكون المَسيحُ المَخلوقُ إلَهًا . فالمسيحُ ﷺ يأكلُ ويشرب ويَنَام ، ويَذهب إلى الخَلاء ، فكيف يُمكِن للإلهِ أن يَبُول وَيَتَغَوَّط ؟! .

والنَّصَارى أرادوا تعظيمَ المسيح فَرَفعوه فوق قَدْرِه . ولا شك أنَّ مكانته عظيمة ، فهو العبد الصالح ، والنبيُّ الطاهر ، والرسول الكريم ، يَتَشَرَّف بِعِبادةِ اللَّهِ تعالى ، وَيَتَبَرَّأ مِمَّنْ جَعَلُوه إلَهًا . ولكنَّ النَّصَارى لَمْ يَكتفوا بِنُبُوَّتِه ، وَلَمْ يَقْتنعوا بأنَّه عَبْدُ اللَّهِ ورسولُه ، فجعلوه إلَهًا وابْنًا للَّهِ ، وشريكًا له.وهذا غُلُوٌّ واضح ، وتَطَرُّف ظاهر ، وكُفْر صارخ . كما أنَّ النَّصَارى يعتقدون أنَّ المسيح قد صُلِبَ . فكيف يمكن لهذا " الإله المصلوب " الذي عَجَزَ عَن حِماية نَفْسِه أن يُدافِع عَن المُؤمنين به ؟! .

وفي [مَتَّى ٢٧ : ٣٠ و٣١]: ((وَبَصَقُوا عَلَيْهِ وأخذوا القَصَبَةَ مِنْهُ وَضَرَبُوه بها على رأسه . وبَعْدَمَا أوْسَعُوه سُخْريةً نَزَعُوا عَنْهُ الرِّداءَ وَأَلْبَسُوه ثِيَابَه وَسَاقُوه إلى الصَّلْبِ)) .

مَا هذا الإلهُ الذي يُبْصَق عَلَيْه ، ويُضْرَب ، ويُسْخَر مِنْه ، ويُسَاق إلى الصَّلْبِ والمَوْتِ ؟! .

*

رابعًا : الصابئون والمَجُوس

إنَّ اللَّهَ هو خالقُ الناسِ كُلِّهم ، مُؤمنِهم وكَافِرِهم . خَلَقَ الإنسانَ وهو أعْلَمُ بِه مِنْه ، ويَعْلَم عَقيدته قَبْل أن يَخْلُقَه ، واللَّهُ هُوَ الحَكَمُ الحَاكِمُ ، يَحْكُم للإنسان أوْ يَحْكُم عَلَيْه .

والإيمانُ لا يُكْتَسَب بذكاءِ الإنسانِ وقُدراته الذاتية ، بَلْ هُوَ فَضْلٌ إلهيٌّ مَحْض يُعْطيه اللَّهُ لِمَن يَشاء ويَحْجُبه عَمَّنْ يَشاء . ومعَ هذا فالإنسان يَتَحَمَّل مَسؤوليةَ اختياره ، لأنَّ اللَّهَ لَمْ يُجْبِر المُؤمِنَ على الإيمان ، وَلَمْ يُجْبِر الكافرَ على الكُفْرِ ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له. فإنْ هَدى اللَّهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ اللَّهِ وله المِنَّة ، وإنْ هَداه إلى الكُفْرِ فَبِعَدْلِ اللَّهِ ، وللَّهِ على العَبْدِ الحُجَّةُ .

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ آمَنوا والذينَ هادوا والصَّابئينَ والنصارى والمَجُوسَ والذينَ أشْرَكوا إنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهم يَوْمَ القِيامةِ إنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ ﴾ [الحَج : ١٧] [١٤٢] .

إنَّ الذينَ آمَنُوا باللَّهِ ورَسُولِه مُحَمَّدٍ ﷺ ، واليَهُودَ المُنْتَسِبين إلى مُوسَى ﷺ ، والصَّابئين الذينَ يَعْبُدُون النُّجُومَ، والنَّصَارى المُنْتَسِبين إلى عِيسى ﷺ ، والمَجُوسَ الذينَ يَعْبُدُون النارَ ، ويقولون إنَّ للعَالَمِ أصْلَيْن : النُّور والظُّلْمَة ، والعَرَبَ الذينَ يَعْبُدُون الأصنامَ ، إنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُم بالحَقِّ والعَدْلِ يَوْمَ القِيَامة، ويُعَرِّفهم المُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ ، فَيُدْخِل المُؤمِنين الجَنَّةَ،ويُدْخِل الكافرين النارَ . واللَّهُ شَهِيدٌ على أفعالِ مَخْلوقاته ، أحَاطَ بِها عِلْمًا ، يَعْلَم السِّرَّ والعَلانِيَةَ ، ولا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء .

والإسلامُ ــ وَحْدَه ــ هُوَ دِينُ اللَّهِ ، وَمَا عَدَاه عِبَارة عَن أديان أرْضِيَّة وَضْعِيَّة . وكُلُّ الأديانِ سِوَى الإسلامِ هي للشَّيْطانِ .

وفي تفسير القُرطبي (١٢/ ٢٤) : ((قِيل : المَجُوس في الأصل النجوس لِتَدَيُّنِهِم باستعمال النَّجَاسَات)) .

وقال ابنُ الجَوزي في زاد المسير (١/ ٩٢) : ((وفي "الصابئين" سبعة أقوال: أحدها أنَّه صِنْف مِنَ النَّصَارى أَلْيَن قَوْلًا مِنهُم ، وهُمُ السائحون المُحَلَّقَة أوساط رُؤوسهم ، رُوِيَ عن ابن

---

١٤٢ قال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٦/ ١٦) عن سبب نزول الآية : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن عِكْرِمة ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قال : قالت اليهود : عُزَيْرٌ ابنُ اللَّه ، وقالت النصارى : المسيح ابنُ اللَّه . وقالت الصابئة : نحن نعبد الملائكةَ مِن دُون اللَّه . وقالت المجوس : نحن نَعْبُد الشمسَ والقمرَ مِنْ دُون اللَّه . وقالت المشركون : نحن نَعْبُد الأوثانَ مِنْ دُون اللَّه)) .

عباس . والثاني أنَّهُم قَوْمٌ بَين النَّصَارى والمَجُوس لَيْسَ لهم دِين ، قاله مُجاهد . والثالث أنَّهُم قَوْمٌ بَين اليهودِ والنصارى ، قاله سعيد بن جُبَير . والرابع قَوْمٌ كالمَجُوسِ ، قاله الحسن والحَكَمُ . والخامس فِرْقَة مِنْ أهْلِ الكِتاب يَقْرَؤُون الزَّبُورَ ، قاله أبو العالية. والسادس قَوْمٌ يُصَلُّون إلى القِبْلة ويَعْبُدون المَلائكةَ ويَقْرَؤُون الزَّبُورَ ، قاله قَتَادة . والسابع قَوم يقولون لا إله إلا اللَّه فقط ، ولَيْسَ لَهُم عملٌ ولا كِتابٌ ولا نَبِيٌّ ، قاله ابنُ زَيد)) .

*

صَدَرَ للمُؤلِّف

الدراسات الدِّينية :

١_ حقيقة القرآن . ٢_ أركان الإسلام . ٣_ أركان الإيمان . ٤_النَّبِيُّ مُحَمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عليه وآلِه وسَلَّم. ٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنَّة. ٦_ العُلوم والفُنون في القُرآن. ٧_ العمل في القُرآن . ٨_ العلاقات الأخلاقية في القرآن . ٩_ العلاقات المالية والقضائية والسياسية والاقتصادية في القرآن . ١٠_ القصص والتاريخ في القرآن . ١١_ الإنسان والأسرة والمجتمع في القرآن . ١٢_ الدَّعوة الإسلامية . ١٣_ دراسات منهجية في القُرآن والتوراة والإنجيل. ١٤_ بحوث في الفكر الإسلاميِّ . ١٥_ منهج الكافرين في القرآن. ١٦_ الديانات في القرآن. ١٧_ التناقض في التوراة والإنجيل . ١٨_صورة اليهود في القرآن والسُّنَّة والإنجيل. ١٩_ عقائد العرب في الجاهليَّة . ٢٠_ نقض عقائد ابن تَيْمِيَّة المُخَالِفة للقُرآن والسُّنَّة .

الأدب والثقافة والفِكْر :

٢١_ فلسفة المُعلَّقات العَشْر. ٢٢_ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة. كلام في فلسفة الشِّعْر) . ٢٣_ صرخة الأزمنة (سِفْر الاعتراف) . ٢٤_ مشكلات الحضارة الأمريكية . ٢٥_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين . ٢٦_ خواطر في زمن السراب .

الشِّعْر :

٢٧_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

٢٨_ سينواميس (الساكنة في عيوني)

الرواية :

٢٩_ أشباح الميناء المهجور

٣٠_ جبل النظيف

فِهْرِس

مقدمة.....5

أوَّلًا : أهل الكتاب (اليهود والنصارى) [7]

١_ العلاقة معهم [7] ٢_ حَسَدُهُم المُؤمنين [96] ٣_ وُجُوب التَّسَاهُل معَ غَيْرِ المُحَارِبين مِنْهُم [106] ٤_ وُجُود المُؤمنين بَيْنَهُم [124]

ثانيًا : بَنُو إسرائيل [134]

١_ أوامرُ اللَّهِ إلَيْهِم [134] ٢_ نِعَمُه عليهم [151] ٣_ حَالاتُهُم [166] ٤_ مُعَانَدَتُهُم وَتَكْذِيبُهُم وَقَتْلُهُم الأنبياءَ[217] ٥_تَحْرِيفُهُم كَلامَ اللَّهِ [252] ٦_أخْذُ المِيثَاقِ عَلَيْهِم [261] ٧ _ شِدَّةُ حِرْصِهِم عَلى الحَيَاةِ [269] ٨ _ عَدَاوَتُهُمْ للَّهِ والمَلائكةِ والمُؤمنين [282] ٩_ أقْوَالُهُم وجُرْأتُهُم عَلى اللَّهِ والأنبياءِ [287] ١٠_ إلْقَاءُ العَدَاوَةِ بَيْنَهُم[293] ١١_ غُرُورُهُم وَأمَانِيُّهُم [293] ١٢_ عَدَمُ رِضَاهُمْ عَمَّنْ لَمْ يَتَّبع مِلَّتَهُم [296] ١٣_ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِم بِسَبَبِ بَغْيِهِم [299] ١٤ _ إفْسَادُهُم في الأرْضِ مَرَّتَيْن [301] ١٥ _ جَزَاؤُهُمْ لَوْ آمَنُوا [310] ١٦_ أحْبَارُهُمْ [315] ١٧_ أصحابُ السَّبْتِ [322]

ثالثًا : النَّصَارى [327]

١_ مَوَاقِفُهُم [327] ٢_ نِسْيَانُهُم المِيثَاق وَإغْرَاءُ العَدَاوَةِ بَيْنَهُم [329] ٣_ أقْوَالُهُمْ وَجُرْأتُهُمْ عَلى اللَّهِ [338] ٤ _ الحَوَارِيُّون [342] ٥_ التَّثْلِيثُ [350]

رابعًا : الصابئون والمَجُوس [360]

صَدَرَ للمُؤلِّف.....362

فِهْرِس.....363

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى